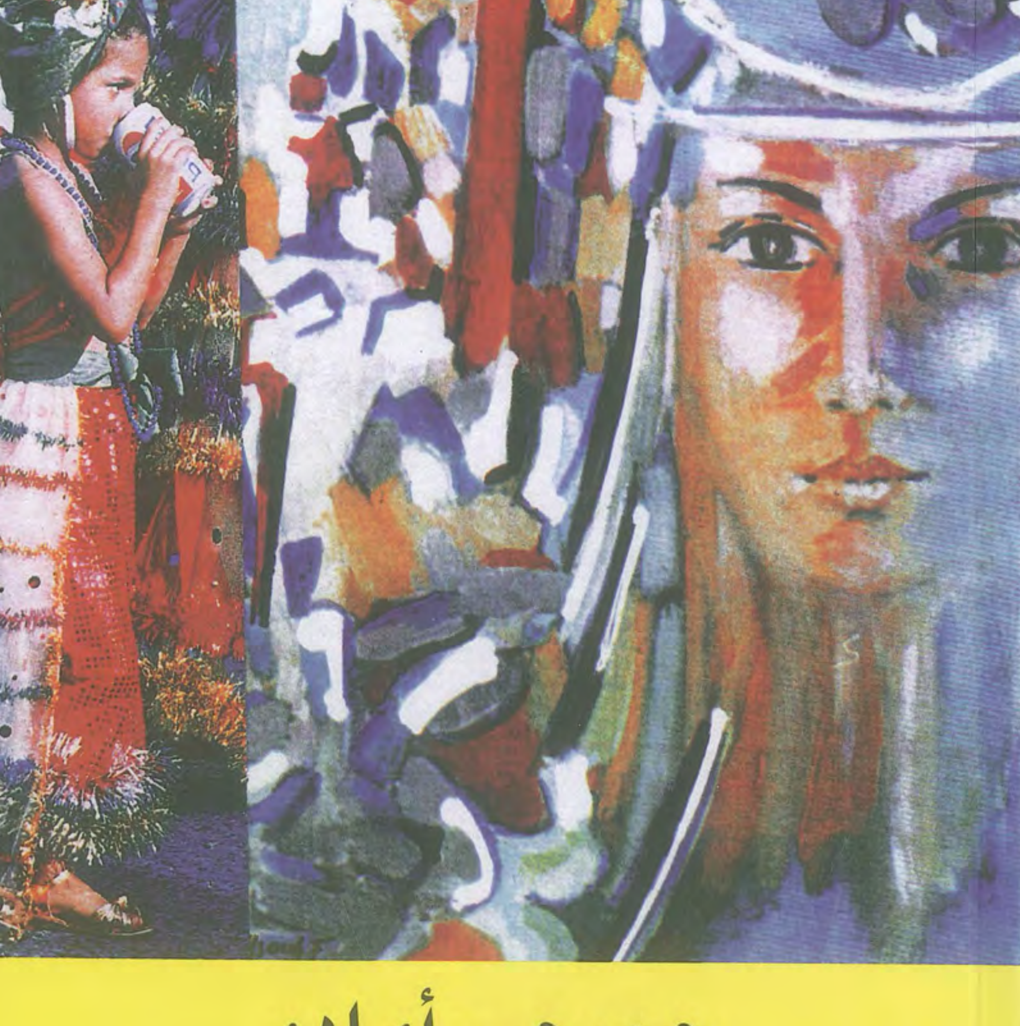


جورجي أمادو

غابريلا

قرنفل وقرفة

الفارابي

جورجي أمادو

غابرييلا

قرنفل وقرفة

نقلها إلى العربية عوض شعبان

دار الفارابي

الكتاب: غابرييلا قرنفل وقرفة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل

GABRIELA CRAVO E CANELA

Published in Brazil by Editora Companhia das Letras, São Paulo

المؤلف: جورجي أمادو

الترجمة: عوض شعبان

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN:978-614-432-329-8

الكتاب: غابرييلا قرنفل وقرفة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل

GABRIELA CRAVO E CANELA

Published in Brazil by Editora Companhia das Letras, São Paulo

المؤلف: جورجي أمادو

الترجمة: عوض شعبان

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN:978-614-432-329-8

المحتويات

غابرييلا قرنفل وقرفة

وقائع مدينة في المنطقة الداخلية

جائزة ماشادو ده أسيس، المؤسسة الوطنية للكتاب.

جائزة باولا بريتو، حكومة ولاية غوانا بارا.

جائزة لويزا كلاوديو ده سوزا، بن - كلوب البرازيل.

جائزة جابوتي، المجلس البرازيلي للكتاب.

جائزة كارمن دولوريس باربوزا.

تُرجمت بعد صدورها بسنة واحدة إلى اللغات: الفرنسية، الإسبانية، التشيكية، الإنكليزية، الألمانية، الرومانية، الهنغارية، الهولندية، السويدية، الإيطالية، البلغارية، اليونانية، الصربية - الكرواتية، الأوكرانية، الدانماركية.

« رائحة القرنفل،

لون القرفة، جئت من بعيد

ج .ئت لأرى غابرييلا».

أغنية من منطقة الكاكاو

إلى زيليا، غيرتها

أناشيدها وعذاباتها

نور قمر غابرييلا

وصليب حبي.

إلى ألبرتو كافالكانتي
صورة غابرييلا
وهي ترقص وتضحك وتحلم.

للمعلوم أنطونيو بوليوز
مع كل التقدير
عطرها القرنفلي.

إلى مواسير فيرنيك ده كاسترو
الشاب المليح
تركت غابرييلا
في وصيتها، تنهداتها.
في هذه اللحظة
للثلاثة مجتمعين
صداقة المؤلف.

من وصية غابرييلا

قصة الحب هذه، بدأت، بمحض صدفة، كما قالت الدونا أرميندا، في ذلك اليوم الربيعي المشمس حيث اطلق فيه المزارع (الكولونيل) جيزوينو ميندونسا، طلقتين ناريتين على زوجته الدونا سينيازينا غويدس ميندونسا، سيدة المجتمع السمراء المرموقة والتي تواظب على حضور احتفالات الكنيسة، وعلى عشيقها الدكتور اوزموندو بيمنتيل، جراح الاسنان الذي جاء إلى إيليوس منذ عدة أشهر وهو شاب أنيق ومحب للثقافة وللشعر بشكل خاص. إذ، في ذلك الصباح وقبل أن تهز المأساة المدينة، نفذت العجوز فيلومينا، أخيراً، تهديدها القديم، فهجرت مطبخ العربي نسيب وغادرت في قطار الساعة الثامنة إلى أغوا بريتا حيث يعيش ابنها حياة اجتماعية مرموقة.

وكما لحظ، فيما بعد، جوان فولجنسيو، الرجل الموسوعي الذي يملك مكتبة وقرطاسية «موديلو»، مركز الحياة الثقافية في إيليوس، فإن اختيار ذلك اليوم كان سيئا». يوم بهذه الروعة، أول يوم تشرق فيه الشمس بعد فصل طويل من الامطار، شمس عذبة تداعب البشرة كالنسيم، يوم لم يكن من اللائق ان تراق فيه الدماء. وبما أن الكولونيل جيزوينو كان رجل قرار ومفعماً بالشرف لا يتأثر بالقراءات والحجج الجمالية، لم يكن مثل هذا الاعتبار ليؤثر على قناعته خاصة وهو في وضع يعاني فيه من الخيانة الزوجية. فلم تكد الساعة تدق الثانية بعد الظهر، حتى ظهر بشكل غير متوقع، إذ كان الجميع يعتقد أنه في مزرعته، وقتل سينيازينا الجميلة مع الذي أغواها، بإطلاق رصاصتين على كل منهما. نسيت المدينة مواضيع النقاش الأخرى: جنوح

باخرة الشركة الساحلية عند الصباح في مدخل المضيق، تأسيس أول خط للحافلات يربط إيليوس بإيتابونا، والحفل الراقص الكبير الأخير الذي أقيم في نادي التقدم، وحتى النقاش المثير للحماسة الذي أثاره موندينيو فالكون حول جرف المضيق. أما بالنسبة إلى الدراما الشخصية الصغيرة لنسيب الذي أصبح فجأة من دون طاهية، فلم يعلم بها مباشرة سوى اصدقائه الحميمين الذين، علاوة على ذلك، لم يولوها سوى القليل من الاهتمام. فقد نمي إليهم علم بذلك على الفور، من دون أن يبدوا أهمية كبيرة. فقد عاد الجميع إلى الاهتمام بالمأساة التي أثرت فيهم؛ قصة امرأة المزارع وطبيب الأسنان، سواء لأن الأشخاص الثلاثة المتورطين فيها هم من الطبقة العليا، أم لغنى التفاصيل، التي يبعث بعضها على الخبث واللذة. وعلى الرغم من تقدمها الرائج والمنوه به («إيليوس تتحضر بإيقاع متهور»، كتب الدكتور إيزكييل برادو، وهو محام كبير، في جريدة دياريو ده إيليوس) كانت المدينة لا تزال تميل إلى التعليق على قصص العنف والحب والغيرة والدم. وهكذا أخذت تتلاشى، مع مرور الوقت، أصداء الطلقات الأخيرة التي تبودلت في صراعات احتلال الأرض، لكن أهالي إيليوس احتفظوا، من تلك السنين البطولية، على مذاق الدم المراق؛ كما على بعض العادات: التباهي بشجاعتهم وحمل المسدسات نهاراً وليلاً، واحتساء الخمرة والمقامرة. وأخيراً بعض القوانين التي تنظم سلوكهم، من بينها، واحد مسلم به من الجميع ولا يزال معمولا به حتى اليوم: أن شرف الزوج المخدوع لا يمكن استعادته إلا بموت المذنبين. لقد جاء هذا القانون من أزمنة غابرة، وهو لم يكن مكتوباً في أي شريعة بل كان في ضمير الرجال فقط، تركها سادة الأمس، هؤلاء الذين اقتلعوا الغابات وزرعوا الكاكاو. هكذا كان الأمر في إيليوس، في تلك الفترة من العام ١٩٢٥، عندما نمت الحقول المزروعة بالمانيهوتا في تلك الأرض المخصبة بالجثث وبالدماء، والتي تضاعفت فيها الثروات، فيما كان التقدم يتوطد وملامح المدينة تتبدل.

كان مذاق الدم ذاك عميقاً جداً، بحيث أن العربي نسيب نفسه، الذي تضررت

مصالحه فجأة برحيل فيلومينا، نسي مشاكله وركز كل اهتمامه على متابعة التعليقات على جريمة القتل المزدوجة.

لقد تغيرت ملامح المدينة. فتحت طرقات، استوردت سيارات، شيدت قصور، شقت أوتوسترادات، صدرت جرائد، أسست أندية، وتبدلت إيليوس.

لكن عادات الرجال وخصالهم تطورت ببطء. وهذا ما يحدث دائماً، في كل المجتمعات.

الجزء الأول

مغامرات ولا مغامرات برزايلي طيب (مولود في سوريا) في مدينة إيليوس في العام ١٩٢٥ عندما نما الكاكاو، وساد التقدم - مع الغراميات، جرائم القتل، المآدب، حظائر قطعان الماشية، قصص منوعة لكل الأذواق، ماضٍ مجيد للنبلاء الفخورين والسوقيين، ماضٍ حديث للمزارعين الأثرياء والقبضايات المشهورين، مع العزلة والزفرات، الرغبة والانتقام، الحقد، مع المطر والشمس وضوء القمر، قوانين صارمة، مناورات سياسية، قضية المضيق المثيرة للحماسة، مع الساحر، الراقصة، معجزات وأعمال سحر أخرى.

أو

برازيلي من بلاد العرب

القسم الأول

وهن أوفينيزيا

(الذي يظهر قليلاً جداً، لكنه مع ذلك هام جداً)

في تلك السنة من التقدم العنيف...

من جريدة تصدر في إيليوس في العام١٩٢٥ .

قصيدة غنائية لأوفينيزيا

إسمع، يا أخي
لويس أنطونيو، أخي.

أوفينيزيا في الشرفة
تتأرجح في الأرجوحة ،
حيث الحر والمروحة،
ونسيم البحر المنعش،
والوصيفة السوداء عند القيلولة،
قد أطبقت عينيها
وظهر العاهل:
لحيته كمِدَاد أسود،
إنه الوميض!
الشعر لتيودورو،
والقافية لأوفينيزيا،
والثوب استُقدِمَ من الريو
الصَداري، العقد،
الوشاح من الحرير الأسود،
النسناس الذي أعطيتنيه،

كل هذا الذي ينفع
لويس أنطونيو، يا أخي؟

عيناك السوداوان صارختان
(- إنهما عينا أمبراطور!)
تحرقان عينيّ
لحيته منديل من الحلم
(- إنها لحية أمبراطور!)
لكي يغلّف جسدي
أريد الزواج به
(- من الملك لا أستطيع الزواج!)
معه أُريد الرقاد
أحلم بلحيته
(- هنا، يا أخت، نفقد الشرف!)
لويس أنطونيو، يا أخي،
الذي انتظرتك لكي تقتلني؟

* * *

لا أريد الكونت، ولا البارون
ولا أريد السيد صاحب الأنابيق
ولا أشعار تيودورو،
لا أريد وروداً ولا قرنفلاً،
ولا ألعاباً من الماس
كل ما أُريده لحية الأمبراطور

الشديدة السواد!

أخي، لويس أنطونيو،

ذو المنزل اللامع في آفيلاس،

إسمع يا أخي:

لم أكن عشيقة السيد الأمبراطور،

وفي هذه الأرجوحة سوف أموت

من الوهن.

عن الشمس والمطر
مع معجزة صغيرة

في العام ١٩٢٥ ذاك، حيث ظهر نمو قصة غرام الخلاسية غابرييلا والعربي نسيب، استمر فصل الأمطار أكثر من المعتاد والضروري بحيث تهافت المزارعون، كالعصافير المذعورة، إلى الشوارح يتساءلون ويستجوبون بعضهم بعضاً، والخوف في أعينهم وأصواتهم.

- ألن تتوقف الامطار يا ترى؟

كانوا يشيرون إلى الأمطار، فلم يروا قط ماءً منهمراً من السماء كهذا، نهاراً وليلاً، وبدون انقطاع تقريباً.

- أسبوع بعد وكل شيء يُصبح في خطر.

- الموسم كله... ربّاه!

كانوا يتكلمون على موسم الكاكاو الذي كان يبدو استثنائياً وسيتفوق عليى كل المواسم السابقة!. وبما أن الاسعار في تصاعد مستمر فهذا يعني ثراءً أكثر وازدهاراً ووفرة ونقوداً أكثر. فأبناء الكولونيلات سوف يتابعون تحصيلهم في المعاهد الأكثر كلفة، في المدن الكبيرة. وستحظى العائلات بمساكن جديدة في الشوارع الجديدة التي شُقت حديثاً، وبأثاثات فخمة مُوصى عليها من الريو، وبيانوهات لامعة لتزيين القاعات. والمتاجر الملأى بالمتنوعات تتكاثر، والتجارة تتضاعف، والشراب يسيل في الكباريهات، وتنزل النساء من البواخر، ويتوسع القمار ليشمل البارات والفنادق. باختصار، إنه التقدم والازدهار والحضارة التي طالما جرى الحديث عنها.

والقول إن هذه الأمطار الغزيرة الآن والمهدِّدة، والمتدفقة كالطوفان، قد تأخرت في الوصول يعني أن الناس كانوا ينتظرونها ويتضرعون لمجيئها! فقبل بضعة أشهر، كان الكولونيلات، يرفعون عيونهم إلى السماء الصافية بحثاً عن غيوم، أو عن أي دليل على مطر قريب. فحقول الكاكاو، في أوج نموها، كانت تغطي كل جنوب دولة باهيا، مُنتظرة الأمطار الضرورية لنمو الثمر المولود حديثاً،ليأخذ مكان الزهر في أشجار الكاكاو. ففي هذه السنة، ظهر زياح القديس جرجس كتظاهرة نذر جماعي وقلق لشفيع المدينة. فقد حمل تمثاله الفخم الموشَّى بالذهب، المواطنون المرموقون جداً، المزارعون الاكثر ثراء، ، على أكتافهم العامرة، وقد ارتدوا قفطان الأخوية الأحمر، وهذا ليس بالامر البسيط لأن مزارعي الكاكاو الكبار ليسوا مشهورين بممارستهم للطقوس الدينية: لا يذهبون أبداً إلى الكنيسة. كانوا متزمتين في موقفهم من القداس والاعتراف ، تاركين هذا الضعف للإناث في العائلة:

- مسائل الكنيسة هذه، هي أمور للنساء.

كانوا يهتمون بتلبية طلبات المطران والكهنة للتبرع بالأعمال الخيرية والمساعدات: ثانوية الراهبات في مرتفعات فيتوريا، قصر المطرانية، مدارس التعليم المسيحي، تاسوعية العبادة، الشهر المريمي، احتفالات الكرمس، أعياد القديس أنطون والقديس يوحنا.

في تلك السنة، بدلاً من أن يرتادوا الحانات يحتسون الخمرة، شارك جميعهم في الزيّاح، حاملين الشموع، نادمين على أفعالهم وناذرين الغالي والنفيس للقديس جرجس مقابل الأمطار الغالية. وكان الجمهور المحتشِد خلفَ المحمل، يواكب في الشوارع، دُعَاءَ الكهنة، والأب باسيليو الذي يرتدي ثياب الكهنوت المطرَّزة، ويداه متَّحدتان للصلوات ، ووجهه حزين، يرفع صوته المدوي وهو يلفظ تضرعاته. فقد اختير لهذه الوظيفة الهامة بسبب فضائله السامية المحترمة والمقدَّرة من الجميع، ولأن الرجل التقي، مالك الأراضي والحقول، معني بشكل مباشر في التدخل

السماوي. فمن أجل ذلك كان يتضرع بحيوية مضاعفة. أما العانسات، فكن يتقدمن بأعداد كبيرة موكب تمثال القديسة مريم المجدلية، المأخوذ في العشية من كنيسة القديس سيباستيان لمواكبة محمل القديس الشفيع في جولته في المدينة، مأخوذات بالنشوة أمام تسامي الكاهن وتضرعه. فقد أنهى، بالفعل، هذا الأخير، العجول عادة والطيب، قداسه بلمحة بصر، ولم يول اهتماماً جدياً إلى ما يُقال له، مختلفاً بذلك عن الأب سيسيليو، على سبيل المثال.

كان صوت الكاهن القوي والمثير يرتفع في صلوات ورعة، كما كانت ترتفع أصوات العانسات الانفية، وجوقة الكولونيلات المشتركة، وزوجاتهم، وبناتهم وأبنائهم، والتجار والمصدّرين، والعمال الزراعيين القادمين من المزارع من أجل العيد، والحمّالين ورجال البحر، وبائعات الهوى، والموظفين في التجارة، والمقامرين المحترفين، والمحتالين على اختلاف أنواعهم، والأولاد الذين يتعلمون في المدارس الدينية، فتيات من الرهبانية المريمية. فكانت

الموعظة ترتفع نحو سماء نقيّة بدون غيوم، حيث تنثر، شمس حارقة ككُرَة نار قاتلة، أشعتها الحارقة القادرة على إبادة براعم الكاكاو المتفتحة حديثاً.

وكانت بعض سيدات المجتمع الراقي، تنفيذاً لنذْر قررنه خلال الحفل الراقص الأخير في نادي «التقدم»، يرافقن الزيّاح حافيات الأقدام، يقدمن للقديس التضحية بأناقتهن مقابل هطول المطر. كن يتمتمن الوعود المختلفة، ويستعجلن القديس كي يتدخل ولا يتساهلن مع أي تأخير من قبله. فكان يرى بوضوح المحنة التي يعيشها محميوه إذ كنّ يطلبن منه أعجوبة عاجلة.

لم يبق القديس جرجس لا مبالياً بتلك الصلوات، وبتدين الكولونيلات المفاجئ ، وبالنقود التي وعدوا بها الكنيسة الأم، وبأقدام السيدات العارية التي أدمتها أرصفة الشوارع. لقد تأثر، بدون شك، أكثر من أيِّ شيء، بحزن الأب باسيليو. فمصير ثمرات الكاكاو العائدة له كانت تثير لدى هذا الكاهن مخاوفاً شديدة بحيث أنه

عندما كان يوقف تضرعاته المدوية لكي يسمع دعاء الجوقة، كان يقسم للقديس بأنه سوف يمتنع طيلة شهر كامل، عن التنعم بعطف وعذوبة عرّابته ومدبرة منزله أوتاليا. فهي عرّابة خمس مرات، إذ لديها الآن خمسة أولاد، تلقوا سر المعمودية، مدثرين بالكتان المخرم، أقوياء وواعدين كأغراس الكاكاو التي يمتلكها الكاهن. وحيث أنه لم يستطع تبنيهم، أصبح الأب باسيليو عرّاب الخمسة كلهم - ثلاث بنات وصبيان. وممارسة منه للإحسان المسيحي، منحهم اسم عائلته، سيركييرا، وهو اسم جميل ومشرّف في آن.

كيف يمكن أن يبقى القديس جرجس لامبالياً إزاء مثل هذا الحزن؟ فهو يترأس، بطريقة أو بأخرى، تقرير مصائر هذه المنطقة المكرسة اليوم للكاكاو، منذ الأوقات السحيقة في القدم في عهد «القبطانية». فجورجي فيغيريدو كورييا، الذي منحه ملك البرتغال، دلالة على الصداقة، هذه العشرات من الفراسخ المأهولة بقاطني الغابات الهنود وشجر البرازيل، لم يقبل أن يبادل ملذات بلاط ليشبونة مقابل تلك الغابات الشرسة، فأرسل ابن حميه الإسباني ليموت بين أيدي الهنود، موصياً إياه بأن توضع تحت حماية القديس المنتصر على التنين، تلك الإقطاعة التي أراد سيدُه الملك منحها له. فهو لم يذهب إلى هذه الأرض البدائية البعيدة، لكنه أعطاها اسمه في المعمودية، مكرساً إيّاها لسميّه القديس جرجس. وهكذا من علياء جواده المنطلق في السهوب كان يتحكم بالمصير الزاخر بالاحداث للقديس جورجي ده إيليوس، منذ حوالى أربعمائة سنةٍ. فقد شاهد الهنود يقتلون بشكل بربري المستعمرين الأوائل، ويتحولون بدورهم إلى قتلى وأرقّاء. شاهدهم يرفعون أدوات صناعة السكر ويزرعون أشجار البن، بعضها صغير وبعضها هزيل. شاهد هذه الأرض تنبت طيلة عقود بدون أمل بمستقبل أفضل. ثم حضر وأدخل النبتات الأولى للكاكاو، وأعدَّ سعادين جوبارا التي تعيش في غابات البرازيل، لأن تتحمل مسؤولية مضاعفة أغراس الكاكاو؛ وربما من دون غرض معين، إنما فقط من أجل تغيير طفيف لمنظر الريف الذي كان قد

بات مُتعَباً منه بعد تلك السنين. ولم يكن يتصور أن الثراء يصل مع الكاكاو وأن عهداً جديداً سيبزغ للأرض الموضوعة تحت حمايته.

لقد رأى أموراً مرعبة: رجال يقتتلون من أجل تملُّك الوديان والروابي والأنهر والجبال، يحرقون الغابات، كي يزرعوا بشكل محموم حقول الكاكاو اللامتناهية. شاهد عدد السكان يتزايد فجأة وتتوالد قرى ودساكر جديدة. شاهد التقدم يصل إلى إيليوس جالباً معه أسقفاً، وتأسيس بلديات جديدة - إيتابونا، إيتابيرا وتشييد مدرسة الراهبات. شاهد أناساً يخرجون من البواخر. أشياء كثيرة شاهدها معتقداً بأن لا شيء يستطيع أن يثيره أكثر منها. إلا أنه تأثر بالواقع بذاك التدين غير المتوقع والعميق لدى الكولونيلات، وهم الرجال الخشنون، قليلو التأثُر بالقوانين والصلوات، وكذلك بنذر الأب باسيليو سيركيرا غير الموثوق، ذي الطبيعة المنفلتة والنارية، بحيث أن القديس شكّك في قدرته على الوفاء بنذره حتى النهاية.

عندما وصل الزيّاح إلى ساحة القديس سيباستيان ليتوقف أمام الكنيسة البيضاء الصغيرة، في حين كانت غلوريا ترسم إشارة الصليب على صدرها من نافذتها الملعونة، فيما العربي نسيب خرج من حانته المقفرة ليقيّم المشهد، عند ذاك حدثت المعجزة المشهورة.

كلا، لم تتلبَّد السماء الزرقاء بالغيوم السوداء، ولم تبدأ الأمطار بالهطل حتى لا تفسد الزيّاح. لكن قمراً نهارياً باهتاً ظهر في السماء، مرئياً تماماً بالرغم من سطوع الشمس المبهر للرؤية. كان الزنجي الصغير تويسكا هو أول من لمحه، ولفت انتباه الأختين دوس ريز، سيدتيه، الموجودتين في مجموعة العانسات المرتديات السواد. أعقب ذلك صرخة تحيي المعجزة التي أطلقتها العانسات المنفعلات، وانتشرت في صفوف الجمهور ثم في المدينة بأسرها. وخلال يومين لم يكن ثمة حديث آخر. وجاء القديس جرجس ليسمع الأدعية، فالأمطار لن تتأخر.

في الواقع، بعد بضعة أيام من الزيّاح، تجمَّعت الغيوم الحاملة للأمطار في

السماء؛ وبدأت المياه تتساقط مع بداية الليل. وحده القديس جرجس، بالطبع، المتأثر بكمية الصلوات والنذور، وبالأقدام الحافية للسيدات، وبالتضرُّع غير الاعتيادي لطهارة الأب باسيليو، استعجل قليلاً المعجزة. والآن فإن الأمطار لا تريد أن تتوقف، وفصل المياه طال لأكثر من أسبوعين عن الوقت الاعتيادي.

إن تلك البراعم الحديثة الولادة لجوز الكاكاو، التي هددت الشمس نموها في السابق، نمت الآن بشكل رائع تحت تأثير المطر. لم يسبق أن رأينا مثل هذه الكميات من قبل. والآن هي بحاجة إلى الشمس مجدداً لكي تستكمل نضوجها. فهذا الهطل المتواصل يمكن أن يؤدي إلى إتلافها قبل القطاف. وبأعين الخوف المكتئب، كان الكولونيلات يحدِّجون السماء الرصاصية، والمطر الهاطل بحثاً عن الشمس المختبئة. فأضاؤوا الشموع على مذابح كنائس القديس جرجس، والقديس سيباستيان، ومريم المجدلية، حتى على مذابح «سيدة النصر» في كنيسة المقبرة. أسبوع بعد، عشرة أيام أخرى من الأمطار، والموسم سيكون كله في خطر. كان الجميع يتوقع احتمالاً مأسوياً. لذلك، في ذلك الصباح، حيث بدأ كل شيء، خرج المزارع العجوز الكولونيل مانويل داس أونساس (هكذا ينادونه لأن حقوله كانت في أمكنة بعيدة حيث، كما يُقال ويؤكد هو، يسمع زئير النمور) من منزله وكان الوقت لا يزال ليلاً، عند الساعة الرابعة من الصباح، وشاهد سماء صافية، حيث، في زرقة شبحية لفجر على وشك أن ينبثق، الفجر المنبثقة، تؤذن الشمس بقدومها عبر شروق مرح فوق البحر. رفع المزارع ذراعيه وصرخ بانشراح كبير:

- أخيراً... لقد أُنقذ الموسم!

أسرع المزارع داس أونساس الخطى في اتجاه سوق السمك بجوار المرفأ، حيث يجتمع عند الصباح يومياً، حول صفائح المنغاو (وهو نوع من الحلوى)، جمع من العجائز المعروفين. لم يكن ليلتقي أحداً بعد. كان دائماً الأول في الوصول، لكنه كان يسير مسرعاً كأن الجميع كانوا بانتظاره ليسمعوا النبأ المبشّر بنهاية فصل الأمطار، وكان وجههُ ينفرج عن ابتسامة سعيدة.

كان الموسم مضموناً بل سيغدو الموسم الأكبر، غير الاعتيادي، ذا الأسعار المرتفعة بثبات، في تلك السنة ذات الأحداث الاجتماعية والسياسية الكثيرة، كما ستتغيَّر أشياء كثيرة في إيليوس، وهي سنة اعتبرها كثيرون حاسمة في حياة المنطقة. بالنسبة إلى البعض إنها سنة شؤون القناة. فقد كانت بالنسبة إلى البعض الآخر، هي سنة الصراع السياسي بين موندينيو فالكون، مصدّر الكاكاو، والكولونيل راميرو باستوس، الزعيم المحلي القديم. في حين تذكرها فريق آخر كسنة المحاكمة المؤثرة للكولونيل جيزوينو ميندونسا، واعتبرها فريق ثالث بأنها سنة وصول أول باخرة سويدية دشنت التصدير المباشر للكاكاو. ومع هذا فإن أحداً لم يتحدث عن هذه السنة، سنة موسم الكاكاو١٩٢٥ - ١٩٢٦ كما تحدثوا عن سنة حُبّ نسيب وغابرييلا؛ وحتى عندما كانوا يثيرون غراميات تلك الرواية، لم يدركوا أن تاريخ هذا الحب المجنون، موجود أكثر من أيّ حدث آخر، في مركز الحياة المدينية كلّها في ذلك الوقت، حيث بدّل التقدم العنيف والأشياء الجديدة للحضارة، ملامح إيليوس.

عن الماضي والمستقبل
الممتزجين في شوارع إيليوس

كانت الأمطار التي دامت طويلاً قد حوّلت الطرق والشوارع إلى مستنقعات تحرِّكها يومياً أقدام قوافل البغال وجياد الركوب. إن طريق الآليات ذاتها التي دُشِّنَتْ حديثاً، والتي تربط إيليوس بإيتابونا، وهي إحدى مدن مقاطعة باهيا، حيث تسير الشاحنات وعربات الأوتوبيس، كانت تصير في لحظة معينة، غير صالحة للسير: جرفت المياه كميات كبيرة من الخشخاش والبرزخ جعلت السائقين يترددون في ارتيادها. وأصيب الروسي جاكوب وشريكه الشاب مواسير أستريلا، مالك مِرأب لتصليح السيارات، بقلق شديد ومدمر. وقبل وصول الأمطار، أنشآ شركة للنقل

لاستثمار الطريق بين مدينتي الكاكاو الرئيسيتين، وأوصيا على أربع سيارات أوتوبيس صغيرة من الجنوب. كان السفر بواسطة طريق السكّة الحديد يستغرق ثلاث ساعات عندما لم يكن ثَمَّة تأخُّر، في حين يمكن اجتيازه خلال ساعة ونصف بالسيارات.

كان الروسي جاكوب هذا، يملك شاحنات تنقل الكاكاو من إيتابونا إلى إيليوس. أما مواسير أستريلا فأقام مرأباً في وسط المدينة، وهو أيضاً كان يتاجر بالشاحنات. فوحَّدا مواردهما، واستدانا رأس مالٍ من أحد المصارف موقعين سندات، وطلبا الأوتوبيسات.

غمرهما الفرح على أمل القيام بهذا العمل المدهش المربح. أو بالأحرى، الروسي هو من عبر عن الفرح بفرك يديه، فيما أعرب مواسير عن سروره بالصفير المرح الذي كان يملأ المرأب، فيما الملصقات على أعمدة المدينة، كانت تُعلن التأسيس القادم لخط الأوتوبيس، والأسفار الأكثر سرعة والأكثر رخصاً من الأسفار في القطار الحديدي. لكن الأوتوبيسات تأخّرت في الوصول، وأُنْزِلَت أخيراً، من باخرة الشحن الصغيرة التابعة لشركة «لويد البرازيلية» وسط الإعجاب العام للمدينة، وكانت الأمطار في أوجها، والطريق في قمة البؤس، وكان الجسر الخشبي فوق نهر كاشويرا، وهو حقاً قلب الطريق، مُهَدَّداً بفيضان النهر. فقرر الشريكان إرجاء موعد تدشين الخط، وبقيت الحافلات الجديدة فترة شهرين في المرأب، في حين كان الروسي يشتمُ بلغة مجهولة، ومواسير يصفّر بغيظ. استحقت السندات في المصرف، ولو لم يُغِثْهُما موندينيو فالكون بسرعة، لكان العمل قد فشل قبل أن يبدأ. كان موندينيو نفسه هو الذي اتخذ هذه المبادرة واستدعى الروسي إلى مكتبه، وقدم له المال اللازم بدون فوائد. كان موندينيو فالكون يؤمن بتقدُّم إيليوس ويشجع عليه.

ومع تدني الأمطار، انخفض مستوى النهر، على الرغم من أن الطقس استمر رديئاً فإن جاكوب ومواسير أمرا بإصلاح بعض الجسور الصغيرة، على حسابهما

الخاص، وفرشا بالحجارة الحُفَرَ الأكثر سوءاً، وباشرا العمل. الرحلة التدشينية التي قاد فيها مواسير استريلا نفسه الأوتوبيس، أفسحت في المجال للتعليقات والنكات. كان المسافرون جميعهم مدعوين: المحافظ، وموندينيو فالكون، ومصدّرون آخرون، والنقيب، والدكتور، ومحامون، وأطباء. بعضهم، الخائفون من الطريق، قدموا أعذاراً مختلفة، ومُلئت أماكنهم الشاغرة بآخرين، وكثيرون هم المرشحون الذين انتهوا بالوصول مشياً على الأقدام. دامت الرحلة ساعتين - كانت الطريق لا تزال صعبة جداً - لكنها مضت بدون أي حادث ذي أهمية.

عند الوصول إلى إيتابونا ، احتُفِلَ بإطلاق الأسهم النارية، وبإقامة غداء احتفالي. وعندها أعلن الروسي جاكوب أنه في نهاية الأسبوعين الأولين من الأسفار المنتظمة، سيكون ثمة عشاء كبير في إيليوس، جامعاً شخصيات من المحافظتين، للاحتفال بذلك المعْلَم من التقدم المحلي. وأوصى نسيب بإعداد المأدبة.

كانت كلمة التقدم على كل شفة ولسان ومكررة بإلحاح في إيليوس وفي إيتابونا في ذلك الوقت. تظهر في أعمدة الصحف، في الصحف اليومية وفي الصحف الأسبوعية. تظهر في النقاش في مكتبة وقرطاسية «موديلو»، وفي الحانات، والكباريهات، وأهالي إيليوس يرددونها إشارة إلى الشوارع الجديدة والساحات المزروعة بالحدائق، والمباني في الوسط التجاري والمساكن الحديثة على الشاطئ، ومطابع جريدة دياريو ده إيليوس، والأوتوبيسات الخارجة عند الصباح والمساء إلى إيتابونا، والشاحنات التي تنقل الكاكاو، والكباريهات المضاءة، وسينما تياترو إيليوس الجديدة، وملعب كرة القدم، وثانوية الدكتور إينوش، والمحاضرين الجياع القادمين من باهيا وحتى من الريو، ونادي التقدم مع حفلات الشاي التي يصاحبها الرقص.

«إنه التقدم!».

كان الجميع يرددونها بافتخار، مُقتنعين بأن الجميع يساهمون في التغيير العميق

في ملامح المدينة وعاداتها. وكان ثمة جو من الازدهار والنمو في كل ناحية. فُتحت شوارع على شاطىء البحر وعلى التلال، وأُنشئت حدائق وساحات، أشيِّدت بيوت، وبنايات، وقصور. ارتفعت الإيجارات، في الوسط التجاري حتى بلغت أسعاراً خيالية. مصارف الجنوب افتتحَتْ وكالات، مصرف البرازيل بنى عمارة جديدة من أربع طبقات، إنها رائعة!.

كانت المدينة تفقد كل يوم طابع المعسكر المحارب الذي طبعها في زمن غزو الأرض؛ مزارعون يمتطون جيادهم حاملين مسدساتهم ، قبضايات مخيفون وذوو بنادق يُمسكونها بقبضاتهم، يجتازون الشوارع غير المعبدة، آناً بوحل دائم، وطوراً بغبار دائم. طلقات تملأ بالخوف الليالي غير الهادئة، باعة جوالون، يعرضون حقائبهم على الأرصفة. كل هذا انتهى، فالمدينة تلمع بواجهات ملونة ومنوعة، والمحلات والمخازن تتضاعف والباعة الجوالون يظهرون في الأسواق المتنقلة، ويتنقلون في المناطق الداخلية، حانات، كباريهات، دور سينما، مدارس ثانوية. وعلى الرغم من برودة المشاعر الدينية افتخرت المدينة بترفيعها إلى مرتبة أبرشية واستقبلت في احتفالات لا تُنسى، مطرانها الأول. مزارعون، مصدرون، رجال مصارف، تجار، جميعاً قدموا مالاً لبناء ثانوية الراهبات، المكرسة لفتيات إيليوس، ولقصر المطرانية، وكلاهما يقع في مرتفع كونكيستا. كما قدموا مالاً لإقامة «نادي التقدم» الذي تأسس بمبادرة من التجار والدكاترة، وموندينيو فالكون في المقدمة، حيث كانت تُقام حفلات الشاي الراقصة في أيام الآحاد، ومن حين لآخر، حفلات راقصة كبرى. برزت أندية لكرة القدم وحقق «فريق روي باربوزا» تقدماً ملحوظاً. في تلك السنوات بدأت إيليوس تصبح معروفة في البلد كله كـ«ملكة الجنوب». فسادت زراعة الكاكاو جنوب ولاية باهيا كلها، ولم تكن هناك زراعة أكثر ربحاً منها ، فتكاثرت الثروات، ونمت إيليوس، عاصمة الكاكاو.

ومع ذلك، امتزجت في شوارعها مظاهر هذا التقدم المتهور، علامات عظمتها

المستقبلية، وبقايا زمن غزو الأرض، وماضٍ قريب من الصراعات واللصوصية. وحتى الآن لا تزال قوافل البغال الحاملة للكاكاو إلى مستودعات المصدّرين، تجتاح الوسط التجاري مختلطة بالشاحنات التي بدأت تغدو في المقدمة. الكثير من الرجال كانوا يمرون منتعلين الجزمات، عارضين مسدسات، ومسببين مشاغبات، لأسباب تافهة، في الشوارع الجانبية. قبضايات معروفون يتجشأون قوة شكيمتهم في الخمارات الرخيصة، ومن وقت لآخر تقترف جريمة قتل في عرض الطريق. في الشوارع النظيفة والمرصوفة جيداً، كان هؤلاء الاشخاص يسيرون إلى جانب مصدّرين ناجحين يرتدون ألبسة أنيقة مشغولة من خياطين قادمين من باهيا، ومجموعة من رجال الاعمال المسافرين والمطلعين دائماً على آخر النوادر، مع الأطباء والمحامين، وأطباء أسنان واختصاصيين بالزراعة، ومهندسين، وقادمين في كل باخرة. حتى المزارعين الكبار تخلوا تدريجياً عن الجزمات والأسلحة؛ وفي جو سلمي راحوا يبنون بيوتاً جيدة للسكن، ويقضون قسماً من أوقاتهم في المدينة، ويعلمون أولادهم في ثانوية إينوتش، أو يرسلونهم إلى المدارس التكميلية في باهيا، أما نساؤهم فلا يذهبن إلى المزارع إلا في العطلات، وينفقن على الحرير والأحذية من أجود الأنواع، ويترددن إلى حفلات نادي «التقدم».

أشياء كثيرة كانت تذكّر بإيليوس القديمة التي كانت قبلاً. لكن ليس إيليوس مطاحن قصب السكر، وزراعات البن البائسة، والسادة النبلاء، والزنوج العبيد، وبيت آفيلاس الشهير؛ فمن هذا الماضي السحيق لم تبق إلا ذكريات قليلة، وحده الدكتور كان قلقاً بشأنها كونه مرتبطاً بماضٍ حديث، من زمن الصراعات الكبرى على غزو الأرض، بعد أن استقدم الآباء اليسوعيون نبات الكاكاو. جاء رجال بحثاً عن الثروة، فاندفعوا نحو الغابات، وتنازعوا باستخدام البنادق، ومسدسات البرابيلوم الألمانية، على امتلاك كل شبر من الأرض. فقام أفراد من عائلات بادارو، أوليفيرا، براز دامازيو، تيودورو، داس باراووناس، وكثيرون غيرهم، بقطع الطرقات وشقّوا الممرات وسط

الغابات، واندفعوا وراء القبضايات، في معارك مواجهات مميتة. فاقتُلعت الغابات وسوق الكاكاو المزروعة فوق الجثث والدم... وجرى تزوير سندات التمليك ووُضعت العدالة في خدمة مصالح غزاة الأرض... فكل شجرة كبيرة كانت تخبئ قناصاً ينتظر ضحيته. هكذا كان الماضي الذي بقي حتى الآن حاضراً في تفاصيل حياة المدينة، وفي عادات الشعب. لكنه راح يختفي تدريجاً مُفسحاً في المجال للأشياء الجديدة، للعادات الحديثة، لكن لم يكن ذلك بلا مقاومة، وفوق كل شيء، في ما خصَّ العادات المتحوِّلة مع الوقت تقريباً إلى قوانين.

كان المزارع مانويل داس أونساس أحد هؤلاء الرجال الملتصقين بالماضي، الذين ينظرون بريبة إلى الأشياء الجديدة في إيليوس، ويعيشون بشكل دائم في الريف، ولا يأتون إلى المدينة إلا من أجل الأعمال ومناقشة المصدّرين فقط. كان، وهو يسير في الشارع المقفر

عند الفجر بدون أمطار للمرة الأولى بعد فترة طويلة، يفكر بالعودة في النهار ذاته إلى مزرعته. كان يقترب من وقت جني المحصول؛ فالشمس الآن ستُنْضِج ثمار الكاكاو، والحقول صارت رائعة. كان ذاك الذي يحبه، فلم تتمكن المدينة من الإمساك به، بالرغم من الإغواءات الكثيرة، من دور سينما، وحانات، وكباريهات مع نساء باهرات الحسن، ومحلات متنوعة. كان يفضل معاناة المزرعة، جولات الصيد، مشهد حقول الكاكاو، المحادثات مع العمال، القصص المكرَّرة عن عهود الصراعات، مسائل الناس ذوي المزاج، الخلاسيات الصغيرات الوضيعات في بيوت البغايا البائسة. لقد جاء إلى إيليوس من أجل التحدث مع موندينيو فالكون، وبيع كميات الكاكاو التي تسلم لاحقاً، وسحب نقود من أجل اجراء تحديثات في المزرعة. كان المصدِّر موجوداً في الريو، وهو لم يود أن يناقش مع المدير، مفضلاً الانتظار، ما دام موندينيو الذي سيصل على متن الباخرة القادمة التابعة لشركة إيتا.

فيما كان ينتظر في المدينة المرحة، بالرغم من الأمطار، كان أصدقاؤه يذهبون

به إلى دور السينما (كان يغفو في الصالة لان الضوء يزعج عينيه) وإلى الحانات، والكباريهات. فهناك نساء مع عطر كثير، رباه! إنها لحماقة... ويتطلب الكثير... يتطلب مجوهرات، يفرض خواتم... إيليوس هذه كانت حقاً مكاناً للخسارة... إلا أن السماء صافية، والموسم المضمون، وآفاق الكاكاو في المستودعات يجفف ويسيل العسل في القِلَل، ثم ينقل على ظهور البغال، كل ذلك جعله سعيداً جداً وفكر أن استبقاء العائلة في المزرعة غير عادل؛ فالأولاد يكبرون بدون توجيه، والزوجة في المطبخ، كزنجية، بدون أي تسلية. والكولونيلات الآخرون يعيشون في المدينة، يبنون منازل جميلة ويرتدون مثل جميع الناس...

لا شيء كان يسر الكولونيل مانويل داس أونساس من كل ما يفعله في إيليوس، خلال إقاماته السريعة، أكثر من الحديث الصباحي مع الأصدقاء، بالقرب من سوق السمك. ففي ذلك اليوم أعلن لهم قراره بإنشاء بيت في إيليوس، واستقدام العائلة. تلك كانت افكاره اثناء سيره في الشارع المقفر، عند خروجه من المرفأ، ولقائه الروسي جاكوب ذي اللحية الشقراء، وهو غير ممشط الشعر، وبحالة جيدة. فما إن لمح الكولونيل حتى فتح ذراعيه وصرخ بلغة غير مفهومة. كان منفعلاً كثيراً، وما نطق به بلغة أجنبية، لم يمنع المزارع الأمّي من الفهم والإجابة.

- إذاً، أخيراً... لدينا شمس يا صديقي.

فرك الروسي يديه:

- الآن أنجزنا ثلاث رحلات يومية: عند الساعة السابعة، عند منتصف النهار، وعند الساعة الرابعة مساء. وسنستورد أوتوبيسات جديدة.

سارا معاً حتى المرأب، وأعلن الكولونيل متشجعاً:

- هذه المرة سأسافر بآليتك هذه. لقد صممت.

ضحك الروسي وقال: مع الطريق الجافة، سوف لن تستغرق الرحلة أكثر من ساعة واحدة...

- يا لهذا الأمر الرائع! من كان يقول! خمسة وثلاثون كيلومتراً في ساعة ونصف

الساعة... قديماً كان الناس يقضون يومين على الحصان... إذا وصل موندينيو فالكون اليوم في باخرة إيتا يمكنك أن تحجز لي مكاناً لصباح الغد...

- هذا لا، يا كولونيل. غداً، كلا.

- ولِمَ لا؟.

- لأن غداً هو عشاؤنا الاحتفالي، وأنت مدعوٌّ. إنه عشاء من الدرجة الأولى، مع الكولونيل راميرو باستوس، والمحافظين، هذا الذي ههنا، والذي في إيتابونا، وكذلك قاضي العدل، والذي في إيتابونا أيضاً، موندينيو فالكون. جميعهم أناس من الدرجة الأولى... مدير مصرف البرازيل... إنه احتفال مدهش!.

- من أنا، يا جاكوب، من هذه النخبة... إني أعيش في معزلي.

- أنا أصر على حضورك. إنه في حانة فيزوفيو التي يملكها نسيب.

- في هذه الحالة، سأعود بعد غد...

- سأحجز لك مكاناً في الصف الأمامي.

افترق المزارع عنه وهو يقول:

- ألا يوجد حقاً خطر من انقلاب هذا الشيء؟ بسرعة كهذه؟... يبدو مستحيلاً.

عن بعض البارزين في سوق السمك

صمتوا برهة ليسمعوا صفير الباخرة. فقال جوان فولجنسيو:

- إنها تطلب القبطان المرشد...

فأخبر النقيب، وهو دائماً إلى جانب المستجدات:

- إنها الباخرة التابعة لشركة إيتا قادمة من الريو. موندينيو فالكون يصل على متنها.

عاد الدكتور إلى الكلام، مشيراً بإصبعه بوضوح لتأكيد الجملة:

- إنه كما أقول لكما: بعد بضع سنوات، ربما تكون لامعة، ستغدو إيليوس عاصمة حقيقية. أكبر من أراكاجو وناتال وماسيو... لا يوجد اليوم، في شمالي البلاد، مدينة أكثر منها تقدماً سريعاً. حتى إنني منذ أيام قرأت في جريدة من الريو...

ترك الكلمات تخرج ببطء، وهو يتحدث. كان صوته يحتفظ برنة خطابية معينة، ورأيه كان معتبراً جداً. إنه موظف حكومي متقاعد، مع شهرة بثقافة وموهبة، نشر في صحف باهيا مواضيع تاريخية مطولة وصعبة على الإدراك. كان بيلوبيداس ده أسونسون دافيلا المنتمي إلى إيليوس الأزمنة القديمة، فخراً للمدينة تقريباً، وحوله المستحسنون بهز الرؤوس، كانوا جميعاً مغتبطين بنهاية الأمطار والتقدم البيّن لمنطقة الكاكاو. فكل ما لديهم - مزارعون، موظفون حكوميون، تجار، مصدرون - سبب للافتخار. وباستثناء بيلوبيداس، النقيب وجوان فولجنسيو، لا أحد من الذين يتحدثون قرب سوق السمك في ذلك اليوم، وُلد في إيليوس. كانوا قد قَدِموا مأخوذين بالكاكاو، لكنهم يشعرون أنهم جميعاً مواطنون مرتبطون بتلك الأرض إلى الأبد.

راح الكولونيل ريبيرينيو ذو الشعر الأشيب يتذكر:

«بعد شهر من الآن يكون قد مضى ثلاث وعشرون سنة على وصولي، بالباخرة إلى هنا، عام ١٩٠٢، كانت إيليوس مكاناً مخيفاً، متداعياً ومحطماً قطعاً متناثرة. كانت أوليفينسا هي المدينة... - انفجر من الضحك وهو يتذكر - لم يكن ثمة ركيزة لربط السفن باليابسة، ولا شوارع مرصوفة، والحركة شبه معدومة. إنه مكان جيد لانتظار الموت. أما اليوم فهو ما نراه الآن: كل يوم شارع جديد، والمرفأ مليء بالسفن.

أشار بإصبعه إلى المرسى: باخرة شحن تابعة لشركة لويد عند رصيف سكة الحديد، باخرة تابعة للشركة الباهيانية عند الرصيف المقابل للمستودعات، زورق بخاري يرفع مرساته عند الرصيف الأقرب، مفسحاً المجال لباخرة إيتا، سفن شراعية وزوارق بخارية وقوارب تجيء وتروح بين إيليوس وبونتال، تحمل إنتاج الحقول عن طريق النهر.

كانوا يتحدثون قرب سوق السمك، المقام في مساحة من الأرض مقابل شارع أونياو، حيث تنتظم أكواخ عند مستديرات المرور، فيها زنجيات يبعن المنغاو والكوسكوس، الذرة المسلوقة وحلوى التابيوكا. وثمة مزارعون معتادون على النهوض فجراً في حقولهم وأشخاص معينون من المدينة - الدكتور، جوان فولجنسيو، النقيب، نيوغالو، وأحياناً قاضي العدل، والدكتور إيزكييل برادو الذي يجيء دائماً على وجه التقريب، مباشرة من منزل البغي الكائن في الجوار - كانوا يجتمعون هناك يومياً قبل أن تستيقظ المدينة، وبحجة شراء السمك الأفضل، الطازج،المعروض حيّاً، على طاولات السوق، فيعلّقون على آخر الأحداث، يُدلون بآراء مسبقة عن المطر والموسم، وسعر الكاكاو. بعضهم، مثل الكولونيل مانويل داس أونساس، يصل مبكراً جداً بحيث يشاهد خروج المتأخرين من «كباريه باتاكلان» ووصول الصيادين الذين يسحبون سلال الأسماك المستخرَجة من قوارب الصيد، وسمك روبالو ودورادو اللماع كنصال من الفضة، على ضوء الصباح. فالكولونيل ريبيرينيو، مالك مزرعة «أميرة الجبل» الذي لم تتأثر بساطته الطيبة بها، كان يتواجد هناك دائماً عندما تنزل من التلال، في الساعة الخامسة صباحاً، ماريا ده سان جورجي وهي زنجية باهرة الحسن، اختصاصية في صنع المانغاو والكوسكوس المُعَد من البوبا، والطبق على رأسها، مرتدية تنورة ملونة من الشيت المعرّق، وقميصاً منشّى عاري الرقبة عند أعلى الصدر ليُكشف نصف الثديين الناهدين. كم من مرة ساعدها الكولونيل على إنزال صفيحة المانغاو، وإعداد الطبق، وعيناه على فتحة القميص!.

كان البعض يجيء وهو ينتعل الخُف، واضعاً سترة البيجاما فوق سروال عتيق. إنه ليس الدكتور، هذا واضح، لقد أعطى هذا الاخير الانطباع بانه لا ينزع الثياب السوداء، والجزمات، والياقة ذات المؤخرة المقلوبة، وربطة العنق المعتمة حتى عند النوم. وكانوا يكررون يومياً السر نفسه: أولاً كأس المانغاو في سوق السمك، وحديث يوي وتبادل المستجدات، وقهقهات عريضة؛ ويسيرون بعد ذلك إلى الرصيف الرئيسي

في المرفأ، يقفون لحظة، ثم يتفرقون دائماً تقريباً أمام مرأب مواسير أستريلا، حيث أوتوبيس الساعة السابعة، وهو مشهد حديث، يقل المسافرين إلى إيتابونا.

وتصفّر الباخرة مجدداً، صفيراً طويلاً ومرحاً كأنه يريد إيقاظ المدينة بأسرها.

- وصل المرشد. ستدخل.

- أجل، إيليوس تمثال ضخم. لا توجد منطقة لها مستقبل بحجم مستقبلها.

قرر الكولونيل ريبيرينيو والجشع بادٍ في عينيه:

- إذا ارتفع سعر الكاكاو ولو أربعمائة ريال(٤،٠ كروزيرو) هذا العام، سنغرق بالذهب مع الموسم الذي سنحصل عليه... أعلن المزارع ريبيرينيو وبصيص الطمع في عينيه.

- أنا أيضاً سأبتاع منزلاً مناسباً لأسرتي. أشتري أو أبني...أعلن مانويل داس أونساس.

فأيد النقيب وهو يربِّتُ ظهر المزارع قائلاً: هذا حسن جداً. أنت محق. لقد آن الأوان!

- لقد حان الوقتُ يا مانويل... علق ريبيرينيو مازحاً.

- الصبيان الأصغر سناً سيبلغون العمر المناسب لدخولهم المدرسة الثانوية، ولا أريدُهم أن يُصبحوا أميين كالأكبر سناً وكأبيهم. أريد أن يحصل واحد منهم أقله دكتوراً ويصل على ديبلومه وختمه كطبيب.

- فوق كل هذا، أضاف الدكتور، على الرجال الأثرياء في المنطقة مثلك، المساهمة في تقدُّم المدينة بتشييد مساكنَ جيدة جميلة وشاليهات وفنادق خاصةً. أنظر إلى ما بناه موندينيو فالكون على الشاطئ. مع أنه وصل إلى هنا منذ سنتين فقط. علاوة على هذا فهو عازب. أخيراً ماذا يفيد جمع المال من أجل العيش منعزلاً في الحقل، بدون اي رفاهية؟.

- بالنسبة إلي، قال أمانسيو ليال الذي كانت إحدى عينيه مُقتلعةً وذراعه اليسرى

مشوّهة... كذكريات من زمن الصراعات، سأشتري منزلاً في باهيا، وسآخذ العائلة إلى هناك.

- هذا ما أدعوه نقصاً في الكياسة، صاح الدكتور ساخطاً. فسواء في باهيا أم هنا جمعتَ أنت ثروتك؟ فلماذا توظف في باهيا المال الذي جمعته ههنا؟.

- إهدأ يا دكتور. لا تتسرع. إيليوس ممتازة، إلخ... وحضرتك تدرك أن باهيا عاصمة، فيها كل شيء، مدارس ثانوية جيدة للأولاد.

- فيها كل شيء لأنكم نزلتم من البواخر ههنا وأيديكم تلوّح في الهواء. هنا عبأتم البطون وطفحتم بالمال، وبعد ذلك ستنفقونه في باهيا.

- لكن...

قاطعه جوان فولجنسيو قالاً: أعتقد يا إشبيني إمانسيو، أن دكتورنا مُصيب. فإن نحن لم نحرص على إيليوس، فمن سيحرص عليها؟.

- لا أقول إنني استسلم... قال أمانسيو.

كان أمانسيو رجلاً هادئاً، لا يُحبُّ المناقشات، ولا يمكن لمن يراه هكذا أن يقتنع بأنه أمام زعيمٍ مشهورٍ للعصابات، وهو أحد الرجال الذين أراقوا كثيراً من الدم في إيليوس، في الصراعات من أجل غابات «سيكيرو غراندي». وأردف:

- بالنسبة إلي، شخصياً، لا توجد بلاد تُساوي إيليوس، لكن في باهيا ثمة رفاهية أخرى، مدارس ثانوية جيدة. من يستطيع إنكار ذلك؟ إني أضع الأولاد الأصغر في السن، في «ثانوية اليسوعيين» لأن زوجتي لا تريد البقاء بعيدة عنهم. من جهتي أموت اشتياقاً لما هو في سان باولو، فما الذي أستطيع عمله؟ لذلك لن أذهب من هنا...

تدخَّلَ النقيب قائلاً: بالنسبة إلى الثانوية لا، يا أمانسيو، لدينا هنا مدرسة إينوش ، من العبث أن تقول هذا. لا يوجد ثانويات أفضل منها في باهيا. فالنقيب نفسه، كي يساعد، وليس لأنه محتاج، كان يُدرس التاريخ العالمي في ثانوية أسسها محامٍ لا دوافع شخصية لديه، هو الدكتور إينوش ليرا، معتمداً أساليب حديثة في التعليم بعيداً عن التعنيف الجسدي.

- لكنها الشروط القانونية غير متوافرة في التعليم الرسمي.

- في هذه الساعة يجب أن يكون قد تم ذلك. لقد تسلم إينوش برقيةً من موندينيو فالكون تقول إن وزير العدل سيؤمن الضمانة لها قريباً جداً...

- إذاً؟

- موندينيو فالكون هذا رهيب...

- إلى ما تعتقدون أنه يهدف؟ قال الكولونيل مانويل داس أونساس.

لكن السؤال بقي من دون إجابة، لأن نقاشاً بدأ بين ريبيرينيو والدكتور وجوان فولجنسيو بصدد أساليب التعليم.

- بالإمكان أن يكون هذا كل ما تريدونه. حسب رأيي، لا يوجد أحد مثل الدونا غولييارمينا لتعليم الـ «ب.أ.با». يدٌ صارمة. لقد تعلم ابني معها القراءة وأصول الحساب بالطرائق الحديثة.

- هذا امر قديم يا كولونيل، علق فولجنسيو مبتسماً. هذا الوقت قد انقضى، فالتعليم الحديث...

- ما هو؟

- إن العقاب الجسدي ضروري. أنظروا إنه...

- أنتم متأخرون قرناً كاملاً. ففي الولايات المتحدة...

- أنا أرسل البنات إلى ثانويات الراهبات، هذا أكيد، أما الصبييان فعند الدونا غولييارمينا...

و تابع جوان فولجنسيو موضحاً: التعليم الحديث ألغى العقاب الجسدي.

- لا أدري عمّن تتكلم يا جوان فولجنسيو. لكني أضمن لك بأن هذا القرار هو سيىء جداً. لو كنت أحسن القراءة والكتابة...»

هكذا، توجَّهوا نحو الرصيف وهم يتناقشون حول أساليب الدكتور إينوش والدونا غولييارمينا الأسطورية الشهيرة بصرامتها. وخرج بعض الأشخاص الآخرين

من الشوارع، في الاتجاه نفسه، قادمين لانتظار الباخرة. وبالرغم من الوقت الصباحي كانت تسود المرفأ حركة معينة؛ الحمّالون ينقلون أكياس الكاكاو من المستودعات إلى الباخرة التابعة للشركة «الباهيانية»، مركب يرفع أشرعته يستعد للإبحار، شبيه بطائر هائل أبيض. ارتفعت حزمة صفير تجاوبت في الهواء، معلنة الإبحار المقبل. فألح الكولونيل مانويل داس أونساس متسائلاً: ما الذي يريده موندينيو فالكون؟ إن الشيطان يتلبس جسد هذا الرجل. أليس راضياً بأعماله، ليحشر نفسه في كل شيء.

- هدفه واضح!. أن يصبح محافظاً في الانتخابات القادمة.

- لا أعتقد... إنه قليل بالنسبة إليه. قال جوان فولجنسيو.

- إنه رجل طموح جداً.

- سيكون محافظاً جيداً، فهو رجل إنجازات.

- إنه رجل مجهول وصل إلى هنا منذ فترة وجيزة.

قاطعه الدكتور وهو معجب بموندينيو فالكون: «نحن بحاجة إلى رجال من أمثال موندينيو فالكون. رجال ذوو رؤية، شجعان، مصممون...

- الشجاعة لم تنقص يوماً رجال هذه البلاد...يا دكتور.

- أنا لا أتكلم عن أطلاق رصاصة ولا عن قتل الناس. أتكلم عن شيء أكثر صعوبة...

- أكثر صعوبة؟

- موندينيو فالكون وصل إلى هنا منذ فترة وجيزة، كما قال أمانسيو. أنظر كم حقّق من أشياء: فتح الجادة على الشاطئ. لم يكن أحد يصدّق، فقد كان عملاً ممتازاً، أضفى جمالاً مميزاً على المدينة؛ جلب الشاحنات الأولى، ومن دونه لم تكن جريدة «دياريو ده إليوس» لتصدر ولا «نادي التقدم» ليفتح.

- يقولون إنه أقرض الروسي جاكوب ومواسير مالاً، لشركة الأوتوبيسات...

- أنا أوافق الدكتور. قال النقيب الذي كان حتى الآن صامتاً:. نحن بحاجة إلى رجال مثله... قادرين على استيعاب التقدم وتشجيعه.

وصلوا إلى الرصيف، فالتقوا نيوغالو، الموظف في دائرة الضرائب، وهو بوهيمي عتيق، لا يُمكن الاستغناء عنه في المجالات كافة، ذو صوت أَخَنّ ومناهض للإكليروس.

«تحية للرفقة الشهيرة...» شدّ على أيديهم وهو يقول: «إني أموت من النعاس. لم أنم تقريباً. ذهبت إلى كباريه «باتاكلان» مع العربي نسيب، وانتهينا بالذهاب إلى بيت ماشادون، حيث الأكل والمرأة... لكني لم أستطع مقاومة القدوم لحضور نزول موندينيو من الباخرة...»

أمام مرأب مواسير أستريلا اجتمع ركاب الأوتوبيس الأول. لقد أشرقت الشمس. إنه يوم رائع.

- سيكون الموسم رائعاً.

- غداً يقام عشاء الحافلات...

- صحيح، لقد دعاني الروسي جاكوب.

قُطع الحديث بالصفير المتكرر، القصير والمحزن من الباخرة. ثمة حركة احتمالات على الرصيف، حتى إن الحمّالين توقفوا يسترقون السمع.

«لقد جنحت!.

- يا للمضيق القذر! إذا استمر الوضع هكذا، فحتى باخرة الشركة الباهيانية سوف لن تستطيع دخول المرفأ.

- من باب أولى بواخر التابعة للشركة الساحلية ولشركة لويد.

- الشركة الساحلية هددت بإيقاف الخط.

مضيق صعب، وخطر هو مضيق إيليوس؛ محشور بين مرتفع أونياون من جهة المدينة، ومرتفع بيرنامبوكو، على جزيرة بالقرب من بونتال. قناة ضيقة وغير عميقة،

حيث تتحرك الرمال باستمرار، مع كل مدٍّ وجزر. كانت البواخر تجنح فيها غالباً، وقد تتأخر يوماً قبل أن يتم تخليصها. أما البواخر الكبيرة فلم تكن تجرؤ على عبور المضيق المفزع، بالرغم من المرسى المدهش لإيليوس. استمر الصفير حزيناً، والأشخاص الذين قدموا لانتظار الباخرة بدأوا يتجهون نحو شارع أونياون ليشاهدوا ما كان يجري داخل المضيق.

«هل نذهب إلى هناك؟

إنه مقرِفٌ. قال الدكتور فيما الجمع يسير في الشارع غير المعبد، ملتفاً حول المرتفع: فإيليوس تنتج قسماً كبيراً من الكاكاو الذي يستهلك في العالم، فيها مرفأ رائع، ومع هذا فإن عائد تصدير الكاكاو يبقى في مدينة باهيا. وكل ذلك بسبب هذا المضيق الملعون... ما دامت الأمطار قد توقفت ، فليس ثمة موضوع يجذب اهتمام أهالي إيليوس أكثر منه. وحول المضيق وضرورة جعله سهلاً امام البواخر الكبيرة، كان يدور النقاش في كل الأيام وفي جميع الأنحاء. فقدمت إجراءات، وانتُقِدت الحكومة واتُهمت المحافظة بقلة الاهتمام. لكن المسألة بقيت بدون حل: السلطات تتلقى الوعود، وأرصفة باهيا تجبي ضرائب التصدير.

وفيما كان النقاش يحتدم مرةً أخرى، تأخَّر النقيب عن الجمع، وتأبّط ذراعَ نيوغالو الذي كان قد تركه في الساعة الواحدة فجراً، عند باب ماريا ماشادون:

- والفتاة، كيف هي؟

- شهيّة... همس نيوغالو بصوته الأخَنّ، وتابع: لم تدركْ بعد ما الذي فقدته. كان عليك أن ترى العربي نسيب، وهو يُعلن حُبه لتلك العوراء حديثة العهد، والتي خرجت معه. كان ذلك باعثاً على التبوّل من الضحك...

تزايد صفير الباخرة يأساً، فأسرعوا الخطى، وتدفق الناس من كلا الجانبين.

لماذا كان باستطاعة الدكتور
أن يدعي بأنه يملك دماً أمبراطورياً

الدكتور لم يكن دكتوراً، والنقيب لم يكن نقيباً. والقسم الأكبر من الكولونيلات لم يكونوا كولونيلات. في الواقع، عدد قليل من المزارع حصل في بدايات الجمهورية وزراعة الكاكاو، على رتبة كولونيل في الحرس الوطني. لكن العادة فرضت نفسها. فمن يملك حقلاً مزروعاً ينتج بقيمة تزيد على ألف أرّوبا(١٥٠٠ كلغ) يعطى ويمنح درجة لا تعني في مثل هذه الحالة، أي درجة في التراتبية العسكرية، إنما مجرد اعتراف بالثروة. من جهته جوان فولجنسيو الذي يُحب السخرية من العادات المحلية، كان يقول إن أغلبيتهم كانوا « كولونيلات على القبضايات» لأنهم كثيرون الذين تورطوا في الصراعات من أجل غزو الأراضي.

بين الأجيال الفتية، ثمة مَنْ لا يعرف، أقله، الاسم الرنان والنبيل لبيلوبيداس ده أسونسون دافيلا، واعتاد كثيرون أن يلقبوه احتراماً بالدكتور. أما ميغال باتيستا ده أوليفيرا، ابن المرحوم كازوزينيا الذي كان محافظاً في بداية الصراعات، والذي كان ثرياً ومات فقيراً، والذي لا تزال شهرة طيبته محط تعليق حتى اليوم من قبل العرابات العجائز، فقد نادوه بالنقيب وهو بعدُ طفلاً، عندما قاد، هو المشاغب والوقح، فتيان ذلك الوقت.

كانا شخصيتين لامعتين في المدينة. وعلى الرغم من صداقتهما القديمة، كان لكل منهما مؤيدوه بين السكان المحليين، العاجزين عن التقرير أي منهما هو الخطيب الأفضل والأكثر رطانة، من دون الانتقاص من كفاءات الدكتور إيزكييل برادو الذي لا يُقهر في المحاكم.

في عطلات الأعياد الوطنية – ٧ أيلول/ سبتمبر و١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر و١٣

أيار/ مايو - وفي أعياد بداية السنة ونهايتها مع رقصة الريزادو والزريبة وبومباميو بوي لمناسبة قدوم أدباء عاصمة الولاية إلى إيليوس، كان السكان يولمون، و ينقسمون إزاء بلاغة الدكتور الخطابية وكذلك بلاغة النقيب. لم يحسم قط هذا النزاع الطويل على مَرّ السنين. فالبعض يفضلون المقاطع الرنانة المدوية من النقيب، حيث المرامي العظيمة تتوالى في فروسية عنيفة، ويهزهم الصوت الأجش الذي يحرضهم على الهتافات المحمومة، في حين يفضل آخرون الجُمَل الطويلة المنتقاة من الدكتور، حيث تتكشف معرفة في الأسماء المُشار إليهم بوفرة، في موضوعية صعبة، فتلمع كجواهر نادرة، كلمات جد كلاسيكية بحيث أن قليلين كانوا يعرفون معناها الحقيقي. حتى إن الشقيقتين دوس ريز المتحدثتين جداً والملمتين بكل شيء في الحياة، انقسمت آراؤهما بصدد هذه المسألة. ففلورزينيا النحيلة والمتوترة الأعصاب، كانت تُثار بعبارات النقيب الباعثة على الافتخار «إشراقاته اللامعة عن الحرية»، وكانت تتمتع بارتجافات الصوت في نهاية الجُمَل، مجلجلاً في الجو. أما كينكينيا، البدينة والمرحة، فكانت تفضل إلمام الدكتور، تلك الكلمات العتيقة، ذلك الصوت المؤثر كالإصبع على الرمح، يهتف: «أيها الشعب، يا شعبي!». كانت الاثنتان تتناقشان حول الاجتماعات المدنية في المحافظة أو في الساحة العامة، كما تتناقش المدينة بأسرها.

« لا أفهم شيئاً من الدكتور، لكنه جميل جداً...» قالت كينكينيا.

- أُحُسُّ بقشعريرة تجتاح عمودي الفقري عندما يتكلم النقيب... علّقت فلورزينيا.

كانت أياماً ملحوظة تلك، التي كان فيها النقيب والدكتور يتناوبان الكلام على مدرج ساحة كنيسة القديس جرجس الرئيسة المزدانة بالزهور؛ أحدهما كخطيب رسمي لـ (إلهة الشعر والغناء) ١٣ أيار/ مايو، والآخر باسم نادي روي باربوزا وهي جمعية أدبية ثقافية في المدينة. لقد اختفى الخطباء الآخرون كافة (حتى المدرس جوزويه الذي كان لكلامه الشعري الغنائي جمهوره من فتيات ثانوية الراهبات) وكان

الصمت يسود المناسبات الكبيرة عندما يتقدم من المدرج، النقيب الأسمر والمثير للتعاطف، وهو يرتدي ثياباً بيضاء مُتقنة الصنع، ويضع زهرة في عروة سترته، ودبوساً من الياقوت في ربطة عنقه، وهيئة طائر جارح بأنفه المعقوف، أم الشكل الهزيل للدكتور النحيف والمتنقل كطائر مغرِّد قلق وهو يرتدي ثوبه الدائم الاسود بقبة عالية وصداري مُنَشّى، مع ثنية مشدودة إلى السترة بشريط قماشيّ وشعره الأبيض كلياً.

– كان النقيب اليوم يشبه شلالاً من البلاغة. خطاب جميل!

– لكنه فارغ. بينماكلام الدكتور ذو مضمون. فهذا الرجل قاموس بذاته!.

وحده الدكتور إيزكييل برادو، يستطيع أن يجاريهما في المناسبات النادرة التي كان يرتقي فيها، وهو ثمل حتى درجة السقوط أرضاً، المنبر الآخر خارج نطاق المحلفين. هو أيضاً لديه مواقفه اللانهائية، أما بالنسبة إلى النقاشات القضائية فثمة إجماع لدى الرأي العام بأن لا أحد يمكن أن يضاهيه.

يتحدَّر بيلوبيداس ده أسونسون دافيلا من فرع من آل آفيلا، نبلاء برتغاليون أقاموا في ضواحي إيليوس في عهد القبطانية. هذا، أقله، ما كان يؤكده الدكتور مستنداً إلى وثائق الأسرة. إنه رأي مؤرخ محترم.

يتحدّر، إذن، من آل آفيلا المشهورين الذين أشادوا عزبة بين إيليوس وأوليفنسا، وهي اليوم خرائب سوداء في مواجهة البحر، محاطة بأشجار جوز الهند. لكن أيضاً بالنسبة للبعض من آل أسونسون الرعاع والتجار فإنهم يمجدونها بالقول أيضاً على شرفه أنه أنعش ذاكرة هؤلاء وأولئك بالحمية المنفعلة نفسها. ومن الواضح أنه ثمة القليل مما يقال عن آل أسونسون ، بينما كان تاريخ آل آفيلا غنياً بالمآثر. وكموظف اتحادي متقاعد مغمور، كان الدكتور، مع كل هذا، يعيش وسط عالم من الخُيَلاء والعظمة: المجد القديم لآل آفيلا والحاضر المجيد لإيليوس. وعن آل آفيلا ومآثرهم وأصلهم، كان منذ سنين عديدة، يكتب كتاباً ضخماً ومحدداً، في حين كان دعائياً مُفعماً بالحماسة ومساهماً متطوعاً للحديث عن تقدم إيليوس. فآفيلا الذي أُفلس كان

والد بيلوبيداس كان منتسباً إلى آل أفيلا، مفلساً لم يرث من العائلة العريقة إلا الاسم، والعادة الأرستقراطية في عدم الشغل. مع ذلك، هو الحب وليس الفائدة الشريرة الذي دفعه، على العكس مما أشيع، إلى الزواج بفتاة من العامة من آل أسونساو، ابنة صاحب متجر ناجح لبيع الخرضوات. لقد كان ناجحاً جداً بحيث إنه في حياة العجوز أسونسون أُرسل الحفيد بيلوبيداس ليدرس في كلية الحقوق في ريو ده جانيرو. لكن العجوز أسونسون مات بدون أن يكون قد غفر كلياً لابنته في زواجها الغبي بذاك النبيل ذي الاصل الملكي الذي احتفظ بعادات شعبية كلعبة المقامرة والمراهنة على الغامون وعراك الديوك، فالتهم شيئاً فشيئاً متجر الخرضوات، ومتراً تلو المتر من المزرعة، ودزينة بعد دزينة من شرائط القماش الملونة. وهكذا انتهى ثراء آل أسونسون بعد عظمة آل آفيلا، تاركاً بيلوبيداس في الريو بدون مساعدات لمواصلة دروسه، وهو في طور الانتقال إلى السنة الثالثة في الكلية. وعندما كان يجيء إلى إيليوس في العطلات كانوا ينادونه بالدكتور، بدءاً بالجد، ثم الخادمات في المنزل والجيران،

ولما تمكن أصدقاء جده من تأمين وظيفة تافهة له في دائرة عامة، ترك الدروس وبقي في الريو، حيث لم يكن عمله في الدائرة ناجحاً لأنه كان يفتقد إلى حماية أحد الأقوياء وإلى إجادة التزلف المفيد. بعد ثلاثين سنة أحيل على التقاعد وعاد إلى إيليوس بشكل نهائي، ليكرّس نفسه لإنجاز كتابه العظيم عن آل آفيلا وماضي إيليوس. فذاك الكتاب يشكل بذاته تقليداً حقيقياً.. وقد بدأ الحديث عنه منذ أن كان لا يزال طالباً، حيث نشر الدكتور في مجلة تصدر في الريو، ذات توزيع محدود، اقتصر صدورها العدد الأول، مقالاً شهيراً عن غراميات الأمبراطور بيدرو الثاني - لمناسبة رحلته الأمبراطورية إلى شمالي البلاد - وعن أوفينيزيا العذراء، ورومانسية آل آفيلا اللمفاوية.

كان مقال الطالب الشاب سيلقى تجاهلاً تاماً لو لم تقع المجلة مصادفة بين

أيدي كاتب أخلاقي، هو كونت بابوي وعضو الأكاديمية البرازيلية للآداب. فالكونت المعجب بدون تحفظ بمزايا العاهل، شعر أنه أهين في شرفه بالذات، بذلك «التلميح المفسد والفوضوي» الذي يظهر هذا «الرجل المهم» في وضع عاشق، ومضيف غير وفيّ، يسعى وراء نظرات ابنة فاضلة لأسرة شرف منزلها بزيارته. لقد قمع الكونت، بلهجة برتغالية حادة تعود إلى القرن السادس عشر، الطالب الجسور، الذي كان يعلق عليه نوايا وآمالاً لم يحظ بها بيلوبيداس قط. فاعترى الطالب الخوف من هذا الجواب الفظ الذي كان بمثابة توصيف له؛ فأعدَّ للعدد الثاني من المجلة، موضوعاً بلغة برتغالية ليست أقل كلاسيكية، حيثيات غير قابلة للرد، معتمداً على وقائع، وخصوصاً على قصائد الشاعر تيودورو ده كاسترو، سحقت نهائياً تهجمات الكونت. لكن المجلة لم تُوزع فتوقفت بعد عددها الأول. والصحيفة التي هاجم فيها الكونت بيلوبيداس رفضت أن تنشر له الرد. وبجهد جهيد لخصت صفحات الدكتور الثماني عشرة بعشرين سطراً طباعياً، في زاوية إحدى الصفحات. لكن الدكتور لا يزال حتى اليوم يعتزُّ بهذه «المناظرة العنيفة» مع أحد أعضاء الأكاديمية البرازيلية للآداب، المعروف في كل البلد.

«مقالي الثاني سحقه وأسكته...»

في يوميات الحياة الثقافية في إيليوس، كان يجري تداول هذه المناظرة باستمرار ويستشد بها بفخر كبرهان على الثقافة الإيليوسية، إلى جانب الذكر المشرف الحاصل من قبل آري سانتوس - الرئيس الحالي لنادي «روي باربوزا»، وهو شاب موظف في إحدى شركات التصدير - في مسابقة قصص مجلة في الريو، وأشعار تيودورو ده كاسترو المذكور آنفاً.

بالنسبة إلى الغراميات السرية للأمبراطور وأوفينيزيا، فقد اختصرت كما يبدو، بالنظرات والتنهدات، وهمهمات القسم. لقد رآها المسافر الأمبراطوري في باهيا، في إحدى الحفلات: فهام بعينيها الناعستين. وبما أنه كان يقيم في منزل آل آفيلا

المكوّن من طبقتين في «لاديرا ده بيلورينو» الأب رومووالدو، وهو كاهن لاتيني حكيم، فقد ظهر الأمبراطور هناك أكثر من مرة، بحجة زيارة الكاهن المتضلع في المعرفة. وفي الشرفات المزدانة بالدانتيل في المبنى الكبير، كان العاهل يتنهد في اللاتينية برغبته المستحيلة وغير المعترف بها، في هذه الزهرة من آل آفيلا. واذ اثارت اهتياج المحظيات، راحت أوفينيزيا تدور في القاعة حيث لحية الأمبراطور السوداء تتبادل العلم مع الكاهن، تحت النظرات المحترمة والجاهلة لشقيقها زعيم العائلة لويس أنطونيو دافيلا. وقد تبين أنه ، بعد رحيل العاهل العاشق شنت أوفينيزيا حملة تهدف إلى نقل البلاط بكامله إلى العاصمة، لكنها فشلت أمام المقاومة المصممة للويس أنطونيو، حارس شرف الفتاة والأسرة.

لويس أنطونيو دافيلا هذا، مات كولونيلاً في حرب البارغواي، على رأس رجال عملوا في أرضه خلال الانسحاب من لاغونا. وماتت أوفينيزيا الرومانطيقية مصدورة وعذراء، في سولار دوس آفيلاس، وهي تحن إلى اللحية الملكية. أما الشاعر تيودورو ده كاسترو، العاشق والمغني الذي يحِنُّ لمحاسن أوفينيزيا، فقد مات ثملاً، وحظيت أشعاره بشهرة في أوساط الشعب في تلك الحقبة، لكن اسمه اليوم بات منسياً، بغير حق، في مجموعات النماذج الشعرية الوطنية. ومن أجل أوفينيزيا كتب أشعاره الأكثر أناقة، مكرِّساً في رجز غني، جمالها الرقيق السقيم، وهي تتوسل حبها الخائب. إنها أشعار لا تزال حتى اليوم تُنشد بصوت مرتفع من قبل تلميذات ثانوية الراهبات، وبصوت «دليله» في الأعياد وفي الأمسيات الأدبية. لقد مات الشاعر تيودورو وهو مأسوي وبوهيمي بشكل مزاجي، بدون شك، من الاشتياق الباعث على الضعف (من يستطيع مناقشة الدكتور بهذه الحقيقة؟) بعد عشر سنوات على خروج التابوت الأبيض الذي يقبع فيه جثمان أوفينيزيا المتآكل، من البيت الكائن في حالة الحداد. لقد مات مخموراً من شرب الروم الرخيص من حقول آل آفيلا.

لم يكن ينقص الدكتور، المادة المشوقة من أجل مخطوطة كتابه الذي أصبح

شهيراً: آل آفيلا أصحاب معامل السكر وأنابيق العرق، ومئات العبيد والأرض التي لا تنتهي: آل آفيلا أصحاب قصر أوليفينسا ونزل انحدار بيلورينيو الكبير، في العاصمة باهيا؛ آل آفيلا ذوو الشهية البانتاغرويلية؛ آل آفيلا ذوو النساء الجميلات والرجال الشجعان، الذين نجد من بينهم أقله، شخصاً أديباً. فبالإضافة إلى لويس أنطونيو وأوفينيزيا، كان ثمة آخرون تميزوا، قبلهم وبعدهم، كمثل الذي قاتل في ريكونكوفو، إلى جانب جد كاسترو ألفيز، ضد الفرق العسكرية البرتغالية في معارك الاستقلال في العام ١٨٢٣. وشخص آخر، هو جيرونيمو دافيلا، تعاطى السياسة. وبعد ان هُزم في إحدى الدورات الانتخابية على الرغم من عمليات الغش التي مارسها في إيليوس، ثم عمليات الغش التي قام بها منافسوه في بقية المقاطعة، قام على رأس رجاله باجتياح الطرق ونهب الدساكر، وزحف نحو العاصمة مهدِّداً بإسقاط الحكومة الإقليمية. وأدَّت المداخلات إلى إحلال السلام مع آفيلا الغاضب. وهكذا برز سقوط العائلة مع بيدرو دافيلا ذي اللحية الشقراء الدقيقة الطرف على طريقة كافانياك، والطبع المجنون الذي هرب هاجراً سولار (المنزل الكبير في باهيا كان قد بيع) والمعاصر والأنابيق المرتهنة والأسرة التي تذرف الدموع، ليلحق بغجرية ذات جمال غريب - لا نقول شيئاً عن الزوجة فاقدة العزاء - وقدرات شريرة. بيدرو آفيلا هذا انتهى مقتولاً، في مشاجرة في زاوية شارع، مع عشيق آخر للغجرية.

كان كل هذا جزءاً من ماضٍ منسي من قِبَل مواطني إيليوس. فقد بدأت حياة جديدة مع ظهور الكاكاو، وما حدث قبلاً أصبح من الماضي. فالمعاصر والأنابيق ومزارع قصب السكر والقهوة، أساطير وقصص، كل هذا قد اختفى إلى الأبد، وتنمو الآن حقول الكاكاو، والأساطير والقصص الجديدة المتعلقة بصراع الرجال من أجل الحيازة على الأرض. أما المغنون العميان فقد حملوا إلى الأسواق وحتى إلى المناطق الجرداء النائية، أسماء رجال الكاكاو وأفعالهم، إضافة إلى شهرة تلك المنطقة. الدكتور وحده فقط كان يهتم بآل آفيلا، ومع هذا لم يهمل الاعتبار المتزايد

غير الملزم لهم في المدينة. فأولئك الغزاة للأرض، المزارعون الخشنون الذين بالكاد يحسنون القراءة كان لديهم احترام وضيع تقريباً للمعرفة، وكذلك للرجال والأدباء الذين يكتبون في الصحف ويلقون خطابات. فماذا يُقال إذا عن رجل ذي مقدرة ومعرفة كبيرتين، قادر على أن يكتب أو يكون قد كتب كتاباً؟ لأنه بقدر ما كان الناس يتحدثون عن كتاب الدكتور هذا، بقدر ما كانوا يثنون على خصائصه، إذ إن كثيرين كانوا يفكرون بأنه قد نُشر منذ سنين، ومنذ أوقات اندمج وصار جزءاً من الأدب الوطني.

كيف استيقظ نسيب بدون طاهية

إستيقظ نسيب على طرقات متكررة على باب غرفته. فقد عاد إلى البيت عند الفجر. وبعد أن أغلق الحانة وتسكع مع تونيكو باستوس ونيوغالو في الكباريهات، انتهى في بيت ماريا ماشادون مع ريزوليتا الحولاء قليلاً، الواصلة حديثاً من أراكاجو.

- من الطارق؟

- أنا، يا سيدي نسيب، جئت أودِّعُك، سأرحل.

وكانت باخرة تصفر عن قرب، تطلب القبطان المرشد.

- إلى أين ترحلين يا فيلومينا؟

نهض نسيب، معطياً انتباهاً ذاهلاً إلى صفير الباخرة - فكَّر: «من طريقة الصفير يبدو أنها باخرة تابعة لشركة إيتا» - حاول أن يتبين الوقت في ساعة الجيب المعلقة إلى جانب السرير: الساعة السادسة صباحاً وهو قد وصل حوالى الرابعة. يا لها من امرأة، ريزوليتا تلك! صحيح أنها ليست رائعة الجمال، حتى أن لديها عيناً عوجاء، إلا أنها كانت تحسن القيام بأمور... تعض طرف أذنه وتدفعه إلى الخلف وهي تضحك... أي نوع من الجنون أصاب فيلومينا العجوز؟

- إلى أغوا بريتا، لأبقى مع ابني...

- ما هذه القصة اللعينة يا فيلومينا؟ أمجنونة أنت؟

بحث عن الخُفين بقدميه، وهو بالكاد قد استيقظ، وفكره في ريزوليتا. كان عطر المرأة الرخيص متبقياً في صدره المكسي بالشعر. خرج حافي القدمين إلى الممشى، متدثراً بقميص النوم، وكانت فيلومينا الهرمة تنتظر في الغرفة، بثوبها الجديد، ومنديل معرق مربوط برأسها، والمظلة بيدها، وعلى الأرض الصندوق وصرّة مع لوحات لقديسين. بدأت العمل لدى نسيب يوم اشترى الحانة، منذ أكثر من أربع سنوات. كانت مناكِدة، لكن نظيفة وتعمل بنشاط، وجدية أكثر من اللازم، وغير قادرة على لمس قرش، وشديدة الحذر. وقد كانت الدونا آرميندا تكرر دائماً وصفها بالجوهرة. لكن ثمة أيام كانت تستيقظ فيها بمزاج سيىء، بحيث لم تكن تتكلم سوى عن رحيلها القادم وعن سفرها إلى آغوا بريتا حيث ولدها الوحيد قد أنشأ دكان بقالة صغيراً. ولكثرة ما كانت تتكلم عن الرحيل وعن ذلك السفر الشهير، لم يعد نسيب يصدقها، وأصبح يفكر بأن كل ذلك ليس سوى هوس لا أهمية له لدى تلك المرأة العجوز المرتبطة جداً به، في النهاية، كشخص من البيت، كقريب بعيد تقريباً، أكثر منها خادمة.

كانت الباخرة تصفر، ففتح نسيب النافذة. إنها كما خمّن، باخرة تابعة لشركة إيتا قادمة من ريو ده جانيرو، متوقفة أمام صخرة آبا، تطلب القبطان المريشد.

- لكن يا فيلومينا، أي جنون هذا؟ هكذا فجأةً، بدون أن تعلني، ولا شيء... إنه عبث.

- إيه، يا سيد نسيب! منذ أن اجتزت عتبة بابك قلت لك: «ذات يوم سوف أرحل لأقيم مع ابني فيسنتي...».

- لكن كان بوسعكِ التكلم أحسن. إنك اليوم سوف...

- حسناً، لقد بعثت برسالة مع شيكو. لكنك لم تُبد اهتماماً، ولم تظهر في البيت. في الواقع، لقد حمل إليه شيكو موليزا خادمه وجاره، ابن الدونا آرميندا، مع

الغداء، رسالة من العجوز تُعلمه عن رحيلها القادم. لكن هذا كان يحدث تقريباً كل أسبوع. ونسيب الذي لم يسمع ذلك جيداً، لم يُبد جواباً.

- وانتظرتك ليلاً في الداخل... حتى الفجر... لكنك كنت تجري كالقطيع هنا وهناك. إن رجلاً مثلك يجب أن يكون متزوجاً، يجلس في البيت بدلاً من العيش مُتسكعاً بعد العمل... ذات يوم، مع هذا الجسم، ستصبح ضعيفاً وستنتهي...

كانت تُشير بإصبعها الرفيع والمتهم، إلى صدر العربي البادي من قبة قميص النوم، المطرزة بزهور صغيرة حمراء. خفض نسيب عينيه، وشاهد بقع أحمر الشفاه. ريزوليتا!... بالأمس كانت العجوز فيلومينا والدونا آرميندا تنتقدان حياة العزوبة التي يحياها، فتطلقان التلميحات وتخطِّطان له مشاريع الزيجات.

- لكن، يا فيلومينا...

- لم يعد ثمة مكان لك، يا سيد نسيب، سأمضي ببساطة. لقد كتب إلي فيسنتي رسالة يخبرني أنه سوف يتزوج، وهو بحاجة إلي. ولقد أعددت حوائجي...

حصل ذلك عشية حفل عشاء شركة أوتوبيس جنوب باهيا المحدد في اليوم التالي، وهو حدث مدوّ، يحضره ثلاثون شخصاً. يبدو أن العجوز قد اختارته عمداً.

- وداعاً يا سيد نسيب. لِيحمك الله ويساعدك على أن تجد عروساً فاضلة تهتم ببيتك...

- لكن، يا امرأة، إنها السادسة صباحاً، والقطار لا يغادر إلا عند الثامنة...

- أنا لا أثِق في القطار، فهو وحش لعين. أفضِّل الوصول في الوقت المحدَّد...

- دعيني، أقلّه، أدفع لكِ...

تراءى له أن كل ذلك كان كابوساً معتوهاً. كان يسير حافي القدمين في الغرفة على الإسمنت البارد. عطس واطلق شتيمة بصوت خفيض. ونزلة برد فوق كل ذلك؟! يا لها من عجوز مجنونة.

مدت فيلومينا يدها العجفاء برؤوس أصابعها:

- إلى اللقاء يا سيد نسيب. عندما تذهب إلى آغوابريتا، تعالَ لزيارتنا.

عدَّ نسيب النقود، وأضاف إليها مكافأة - بالرغم من كل شيء فهي جديرة بها - ثم ساعدها على الإمساك بالصندوق والصرة الثقيلة مع لوحات القديسين التي كانت معلقة قبلاً في الغرفة الصغيرة التي تسكنها في الجناح الخلفي من المنزل والمظلة. وكان ضوء الصباح يدخل من النافذة مرحاً ومعه نسيم البحر، وتغريد طائر وشمس بلا غيوم بعد أيام كثيرة من المطر.

نظر نسيب إلى الباخرة. كان زورق القبطان المرشد يتقدم منها، فأرخى ذراعيه، وتخلى عن العودة إلى السرير. سوف ينام عند الساعة السادسة ليكون متأهباً في الليل، فقد وعد ريزوليتا بالعودة. لعنة الله على المرأة العجوز. لقد أفسدت يومه...

ذهب إلى النافذة، وراح يراقب الخادمة وهي تبتعد. جعلته ريح البحر يرتجف. يقع منزله تقريباً في منخفض القديس سيباستيان في مواجهة المضيق. أقلّه انتهت الأمطار التي دامت طويلاً ولو استمرت في الهطل قليلاً بعد، لأفسدت الموسم، ولتعفنت ثمار الكاكاو الفتية على الأشجار. فقد بدأ الكولونيلات يعبرون عن بعض القلق. ومن نافذة المنزل المجاور ظهرت الدونا آرميندا تلوِّح بمنديل لفيلومينا العجوز. كانتا صديقتين حميمتين.

«صباح الخير يا سيد نسيب.

- هذه المجنونة فيلومينا... لقد رحلت...

- طبعاً... إنها مصادفة. لا يمكن أن تتصور... البارحة فقط قلت لتشيكو عندما وصل من الحانة: «غداً ستغادر فيلومينا، فابنها أرسل لها رسالة تستدعيها...»

- أخبرني شيكو ذلك. رفضت أن أصدق.

- لقد أنتظرك طويلاً ليلة البارحة. وحتى أننا بقينا نحن الاثنتين نتحدث جالستين على عتبة بيتك. لكنك لم تعد...» ضحكت ضحكة شبه مُعاتبة وشبه متفهمة...

«كنت مشغولاً يا دونا آرميندا، العمل متراكم فوق رأسي...»

لم ترفع عينيها عن بقع أحمر الشفاه. ارتعد نسيب. هل ثمة لطخات على وجهه أيضاً؟ محتمل، محتمل جداً.

«هذا ما كنت أردده دائماً: رجال نشطاء مثلك، سيد نسيب، هم قليلون في إيليوس... يسهرون حتى الفجر!...

ثم إن اليوم، قال نسيب متحسراً، مع عشاء لثلاثين شخصاً مُوصّى عليه البارحة لمساء الغد...

- إني حتى لم أشعر بعودتك إلى المنزل. مع أنني نمت متأخرة، بعد الثانية صباحاً...

تمتم نسيب شيئاً ما. هذه الدونا آرميندا هي الفضول بعينه:

«والآن... من سيُعد العشاء؟

- إنها مسألة مربكة... فليس باستطاعتك الاعتماد عليّ، فالدونا أليزابيت تنتظر وضع مولودها في أية لحظة، حتى أنها تجاوزت اليوم المحدد. ولهذا السبب بقيت متيقظة، والسيد باولو قد يأتي فجأة. وعلاوة على ذلك، أنا لا أستطيع إعداد هذا الطعام الفاخر»...

الدونا أرميندا أرملة، روحية، ذات لسان سامّ، وهي والدة شيكو موليزا، الصبي العامل في حانة نسيب، كانت قابلة مشهورة: أعداد لا تحصى من سكان إليوس وُلِدوا على يديها، وتصوراتهم الأولى عن العالم، كانت رائحة الثوم الحادة، ووجهها الخلاسي المحمر.

«والدونا كولاريندا، هل أنجبت مولودها؟ لم يظهر الدكتور راوول في الحانة أمس...

- نعم، بعد ظهر أمس، ولكنهم استدعوا الدكتور ديموستينيس. الكثير من المستجدات هذه الأيام! ألا ترى أنه من غير اللائق أن يسحب الطبيب طفلاً بيديه؟ وأن يرى امرأة غيره عارية تماماً؟ إنها لقلة حياء...»

إنها مسألة حيوية بالنسبة إلى آرميندا: فقد بدأ الأطباء هل رأيت في حياتك قلة حياء كهذه؟ طبيب يتلصص على امرأة غيره عارية وهي في آلام الوضع...

لكن نسيب كان قلقاً بسبب عشاء اليوم التالي وبتحضير الحلوى والأطعمة المالحة للحانة. فمغادرة فيلومينا سبَّبت له ازعاجات جدية:

«إنه التقدم يا دونا آرميندا، هذه العجوز تركتني في ورطة...

- تقدم؟! إنها قلة حياء...

- أين سأعثر على طاهية الآن؟

- الحل الوحيد هو الشقيقتان دوس ريز...

- إنهما باهظتان، تسلخان جلد الناس... وأنا الذي استخدمت فتاتين خلاسيتين سوداوين لمساعدة فيلومينا...

- هكذا هي الدنيا يا سيد نسيب. كثيراً ما نفاجأ بحدوث أمور لا نتوقعها. أنا، لحسن الحظ، عندي المرحوم الذي ينبهني. وحتى أني منذ يوم، أنت لا تستطيع التصور... ذهبت إلى إحدى الجلسات، في منزل العراب ديودورو...»

لكن نسيب لم يكن مستعداً لسماع القصص المُعادة عن الروحانية خصوصاً من القابلة.

«هل استيقظ شيكو؟

- ما هذا يا سيد نسيب. لقد وصل المسكين بعد منتصف الليل.

- رجاءً، أيقظيه، إني مضطر لأن أتخذ التدابير، أنت تفهمين: عشاء لثلاثين شخصاً، وكلهم أناس مهمون، يحتفلون بتدشين خط الأوتوبيسات...

- سمعت قولاً بأن أحدها انقلب من فوق جسر نهر كاشويرا.

- كلام فارغ. إنها تذهب وتعود ملأى. عمل مربح.

- أُنظر، الآن ترى كل شيء في إيليوس، هيه، يا سيد نسيب؟ أخبروني أن مصعداً سيكون في فندق جديد، صندوق يصعد ويهبط بمفرده...

- هلا أيقظتِ شيكو؟.

- إني ذاهبة... آمل ألا يكون ثمة سلالم، يا للعنة!»

ظل نسيب، للحظات، أمام النافذة، يراقب زورق القبطان المرشد يقترب من الباخرة التابعة للشركة «الساحلية». يجب أن يكون موندينيو فالكون آتياً فيها. هكذا قال بعضهم في الحانة. سيكون لديه الكثير ليرويه. كما أن نساء جديدات سيصلن إلى الكباريهات، وإلى البيوت في شارع أونياون، وسابو وفلوريس. فكل باخرة من باهيا، من أراكاجو ومن الريو، تجلب شحنة من الفتيات. ربما تصل أيضاً سيارة الدكتور ديموستينيس. فالطبيب يجني أموالاً وافرة، وهو الأول في الاستشارات الطبية في المدينة. فالامر يستحق ارتداء الثياب والذهاب إلى المرفأ، لمشاهدة النزول من الباخرة. هناك سيلتقي بالتأكيد، الزمرة الصباحية الاعتيادية. ثم، من يدري، ربما قد يرشدونه إلى طاهية جيدة، قادرة على القيام بأعمال الحانة؟ طاهية في إيليوس كانت طائراً نادراً تتنازعه العائلات، والفنادق والبنسيونات والحانات. والآن، إذ اكتشف هذه الجوهرة الثمينة، ريزوليتا! عندما شعر أقلّه، بالحاجة لبضعة أيام من راحة البال، لم يجد وسيلة أخرى سوى الوقوع بين يدي الشقيقتين دوس ريز. الحياة مُعقدة. حتى البارحة كان كل شيء يسير بشكل جيد، ولم تكن لديه اضطرابات. لقد ربح دورتين من لعبة الغامون، على التوالي ضد منافس قوي هو النقيب. وبعد أن التهم سمكاً مقلياً بالزيت في بيت ماريا ماشادون، اكتشف تلك الزهرة الجديدة ريزوليتا... وها هو اليوم، عند الصباح الباكر، يجد نفسه أمام مشاكل حادة... القذارة! تلك العجوز المجنونة... في الحقيقة، إنه يشعر بشوق إليها، لنظافتها، لقهوة الصباح مع الكوسكوس المُعَدّ من الذرة، والبطاطا الحلوة، وموز الأرض المقلي، والبيجو... إنه يتذكر اهتماماتها الأمومية وانتباهها وحتى لهمهماتها. عندما سقط مرة صريع حُمى التيفوئيد، المعدية يومها في المنطقة، مثل الملاريا والجدري، لم تكن تترك غرفته، حتى أنها كانت تنام على الأرض. أين سيعثر على خادمة مثلها؟

عادت الدونا آرميندا إلى نافذتها:

«ها قد استيقظ، يا سيد نسيب. إنه يستحم.

– سأفعل الشيء نفسه. شكراً.

– ثم ستأتي لتشرب القهوة عندنا. قهوة الفقراء. سأقص عليك الحلم الذي ظهر علي فيه المرحوم. قال لي: «آرميندا، يا عجوزتي، إن الشيطان قد دخل رأس شعب إيليوس هذا. وما عادوا يفكرون إلا في المال، ولا يفكرون إلا في العظمة. إن هذا سينتهي وِبالاً عليهم... أمور كثيرة سوف تحدث...»

– بالنسبة إلي يا دونا آرميندا، لقد بدأت... مع مغادرة فيلومينا هذه. فبالنسبة إلي ها إنها بدأت.

قال ذلك ممازحاً. لم يكن يدري إذا ما كان ذلك قد بدأ حقاً. وصل القبطان المرشد إلى الباخرة، وتحركت باتجاه المضيق.

إطراء القانون والعدالة
أو الولادة والجنسية

كانوا يلقبونه عادة بالعربي، لا بل بالتركي. فكان من الضروري أن تزال الشكوك منذ الآن، ومرة واحدة نهائياً في ما يتعلق بجنسية نسيب البرازيلية، التي اكتسبها بالولادة وليس بالتجنّس. كان في الرابعة من عمره عندما وصل إلى باهيا على متن باخرة فرنسية، حيث نزل في إيليوس. في ذلك الوقت، كان يتدفق يومياً، إلى المدينة ذات الشهرة الواسعة، ، عن طريق البحر والنهر والأرض، وعلى ظهور البغال، وعلى الأقدام عبر الغابات، سعياً وراء الارباح التي كان يوفرها الكاكاو، المئات والمئات من المواطنين والأجانب، المتحدِّرين من كل الأنحاء: من سيرجيبي وسيارا، ومن آلاغوس ومن باهيا ومن رسيفي، ومن الريو، من سورية ومن إيطاليا، من لبنان ومن

البرتغال، من إسبانيا من المعازل المختلفة. عمال، تجار، شُبان يسعون إلى المكان اللائق، قُطاع طرق ومغامرون، نسوة ملونات وحتى زوجان يونانيان، لا يعرف أحد من أين جاءا. وجميعهم حتى الشُقُر الألمان أصحاب مصنع مسحوق الشوكولاتة الحديث التأسيس، والإنكليز الشامخون ذوو السكة الحديد، لم يكونوا سوى رجال منطقة الكاكاو، متأقلمين مع عادات منطقة لا تزال شبه بربرية، بصراعاتها الدموية وكمائنها واغتيالاتها. وما إن وصلوا حتى اندمجوا مع أهالي إيليوس، وأصبحوا يتصرفون كابناء المنطقة الاصليين؛ يرزعون حقول الكاكاو، يؤسسون متاجر ومحلات، يشقون طُرقات، يقتلون أناساً، يقامرون في الكباريهات، ويعاقرون الخمرة في الحانات، يشيدون قرى تتوسع بشكل جنوني، يُمزقون الغابات المهددة، يربحون ويخسرون مالاً. كانوا يشعرون أنهم من أبناء البلاد، تماماً كمثل ذرية العائلات القديمة القائمة هنا قبل ظهور الكاكاو.

بفضل هذا التنوع السكاني، بدأت إيليوس تفقد طابعها كمعسكر للمسلحين وتصبح مدينة. جاء كل منهم، حتى آخر متشرد وصل من أجل استغلالِ الكولونيلات المثريين، مساهمته في التقدم الهائل للمنطقة.

كان آباء نسيب، آل الأشقر المجنسين برازيليين، من أبناء إيليوس بكل ما في الكلمة من معنى. شاركوا في الصراعات للاستيلاء على الأرض، وتميزوا بشجاعة سلوكهم. ولم يكن يضاهيهم إلا آل بادارو، وآل براز دامازيون، والزنجي الذائع الصيت جوزيه نيكي، والكولونيل أمانسيو ليال. وقد مات أحدهم واسمه عبد الله، وهو الثالث من حيث العمر، في جناح خلفي لإحدى الكباريهات في بيرانجي بعد أن جندل ثلاثة من بين خمسة قبضايات أُرسلوا لاغتياله، حينما يتنافس سلمياً على لعبة البوكر. انتقم أشقاؤه لمقتله بصورة لا تُنسى. ولمعرفة آباء نسيب هؤلاء، يكفي العودة إلى سجلات الوقائع السنوية للقضاء، وقراءة مرافعات المدعي العام، والمحامين.

صحيح أن كثيرين كانوا ينادونه بالعربي أو بالتركي. لكن هؤلاء هم بالضبط

أفضل أصدقائه وكانوا يفعلون ذلك بحميمية وألفة. ولم يكن يُحبُّ مناداته بالتركي، فيرفض ذلك بسخط. وأحياناً يصرخ بغيظ مفرط:

«تركي»!... هي أمك!

- لكن، يا نسيب...

- كل ما تريد، إلّا تركي. برازيلي! - ويضرب يده الضخمة على صدره الكثيف الشعر- ابن سوريين، والحمد لله.

- عربي، تركي، سوري، الشيء نفسه.

- الشيء نفسه؟ نعال أحصنة! أنت شخص جاهل، لا تعرف لا التاريخ ولا الجغرافية. فالأتراك قطاع طرق، ومن الجنس المقيت. لا توجد إهانة لسوري أسوأ من أن يُنادى بالتركي.

- إهدأ ، يا نسيب، لا تغضب. لا أقصد أن أغيظك. فإن هذه الأمور الأجنبية بالنسبة إلينا كلها متساوية...»

ربما كانوا ينادونه هكذا بسبب شاربيه الأسودين الشبيهين بشاربي سلطان مخلوع عن العرش، وانحدار شفتيه اللتين يُمسد طرفيهما عندما يتكلم، وليس لمنبته المشرقي. شاربان كثيفان مزروعان في وجه سمين وطيب، ذي عينين واسعتين، تغدوان جريئتين عند مرور النساء. فم شهواني كبير وذو ابتسامة مطواعة. برازيلي ضخم، طويل القامة وبدين، وجه مسطح وشعر غزير، بطن متعاظم جداً، «بطن التسعة أشهر» كما كان يتندر النقيب عندما يخسر لعبة الداما على اللوحة ذات المربعات.

-»في بلاد أبي...» هكذا كان يبدأ قصصه في ليالي الأحاديث الطويلة، عندما تخلو الحانة إلا من بعض الأصدقاء.

بالفعل، بلاده هو كانت إيليوس، المدينة المرحة المواجهة للبحر، حقول الكاكاو، تلك المنطقة الوافرة حيث أصبح رجلاً. فوالده وأعمامه، جاؤوا في البدء، على غرار آل أشقر، من دون عائلاتهم. ثم ركب نسيب الباخرة مع أمه وأخته الاكبر

منه بست سنوات. وإذ انه لم يكن قد أكمل بعد سنته الرابعة، لم يكن يحفظ الا ذكرى ضبابية عن الرحلة في الدرجة الثالثة، ثم النزول من الباخرة في باهيا حيث كان والده بانتظارهم. ثم بعد ذلك، كان الوصول إلى إيليوس، على متن قارب، إذ إنه في ذلك الوقت، لم يكن ثمة رصيف للنزول من الباخرة. أما عن سورية، فلم يكن يتذكر، في الحقيقة، شيئاً. وقد كان استيعابه من موطنه الجديد، وانتماؤه إلى البرازيل وإلى إيليوس قويان بحيث لم يبق لديه أي ذكرى عن مسقط رأسه. فهو يشعر أنه وُلِدَ لحظة وصوله في الباخرة إلى باهيا، عندما تلقى قُبلة أبيه الذي كان يبكي من العاطفة والفرح. وعلى أي حال، كان التدبير الأول للبائع المتجول عزيز، بعد وصولهم إلى إيليوس، أن أخذ أولاده إلى إيتابونا التي كانت آنئذٍ تُسمى تابوكاس، إلى مكتب قيد النفوس الذي يديره سيجيزموندو العجوز، ليسجلهم كبرازيليين.

كان الكاتب العدل المحترم يمارس عملية التجنيس هذه، بكامل ضمير الواجب، مقابل بضعة آلاف من الريالات. لم يكن لديه روح المستغِل، فكان يستوفي رسوماً رخيصة، واضعاً العملية الشرعية في متناول الجميع، جاعلاً من أولاد المهاجرين أولئك، أو من المهاجرين أنفسهم، القادمين للعمل في بلادنا، مواطنين برازيليين حقيقيين، ببيعهم شهادات ميلاد جيدة وقانونية.

إلّا أن مكتب قيد النفوس القديم قد احترق ، خلال أحد تلك الصراعات على تملك الأرض، لتلتهم النار قيود مسح الأرض المشاعية غير الموثّقة، وسجلات مربكة عن غابة سيكيرو غراندي. لقد صدر كتاب، على كل حال، يروي هذه الواقعة. لم يكن ذلك ذنب أحد، أقله، لم يكن ذنب العجوز. فإذا كانت جميع سجلات الولادات والوفيات قد أتلفت في الحريق، مما أجبر مئات من أهالي إيليوس على القيام بتسجيل جديد (في ذلك الوقت كانت إيتابونا لا تزال منطقة من محافظة إيليوس)، فلم يكن أحد مسؤولاًعن ذلك وخصوصاً العجوز. صحيح أن سجلات قد فقدت، لكن ثمة أشخاص جديرون بالثقة قد شهدوا مؤكدين أن نسيب الصغير والخجولة

سلمى، ولدا عزيز وثريا، قد ولدا في دسكرة في فيراداس، وقد تم تسجيلهما سابقاً، قبل الحريق، من قبل سيجيزموندو، رئيس مكتب قيد النفوس.

كيف كان لهذا الاخير، من دون أن يقترف وقاحة خطيرة، أن يشكك بكلام الكولونيل جوزيه أنتونيس، المزارع الغني، أو بكلام التاجر، فاضل، صاحب متجر لبيع الأقمشة، الذي كان يتمتع برصيد كبير في الساحة؟ أو حتى بالكلمة الأكثر تواضعاً للقندلفت بونيفاسيو، المستعد دائماً لزيادة مرتبه الزهيد بتقديم خدمات، كشاهد موثوق به، في مثل هذه الحالات ؟ أو بكلمة فابيانو الأعرج المطرود من سيكيرو ده أسبينو، الذي تشكل الشهادة الوسيلة الوحيدة للعيش بالنسبة اليه؟

مضت حوالى ثلاثين سنة على هذه الوقائع، ومات العجوز سيجيزموندو محاطاً باعتبار عام، وحتى اليوم لا يزال الناس يذكرون دفنه. لقد حضر جميع المواطنين، إذ لم يكن له أعداء، حتى الذين أحرقوا مكتبه. وعلى قبره تكلم خطباء، مُمجّدين فضائله. كان – كما أكدوا – خادماً مدهشاً للعدالة ومثالاً لأجيال المستقبل.

كان يسجل من دون تردد ولا استقصاءات، كمولود في محافظة إيليوس، في ولاية باهيا، البرازيل، أي طفل ياتي إليه، حتى عندما كان يبدو واضحاً أن الولادة قد حدثت بعد الحريق. لم يكن دقيقاً ولا يحب الشكليات: فقد كان ذلك مستحيلاً في بدايات إيليوس الكاكاو. فالمضاربات وتزييف الوقائع وقيود مسح الأرض المشاعية والرهونات المختلفة كانت عملة رائجة. وقد لعب كتاب العدل مع سجلاتهم دوراً بالغ الاهمية في الصراع على استصلاح الغابات وإقامة المزارع. فكيف يمكن تمييز الوثيقة الزائفة من الحقيقية؟ وكيف له أن يُفكر في تفاصيل بائسة قانونية، مثل المكان والتاريخ الصحيح لولادة طفل، قي وقت يعيش الناس خطر إطلاق الرصاص وعصابات القتل والكمائن المميتة؟ كانت الحياة جميلة ومليئة بالحركة. فكيف كان يمكن للعجوز أن يتحقق من أسماء الأماكن؟ وأي أهمية في الواقع، لمسقط رأس البرازيلي في عملية تسجيله، أكان في قرية سورية أو في فيرداس، في جنوب إيطاليا

أو بيرانجي، في تراز- أوز- مونتيس أو ريو براسو؟ كان لدى العجوز سيجيزموندو تعقيدات أكثر من اللازم تتعلق بوثائق تملُّك الأرض، فلماذا عليه أن يصعب حياة المواطنين الشرفاء الذين يرغبون في تطبيق القانون، وتسجيل أبنائهم فقط؟ كان يصدق ببساطة، أولئك المهاجرين اللطيفين، ويتقبل منهم الهدايا المتواضعة، وهم يأتون مصحوبين بشهود مقبولين وأشخاص محترمين، لقسمهم أحياناً قيمة أكثر من أي وثيقة قانونية.

وإذا صدف وساوره أي شك حول مسألة ما، فلم يكن الدفع المرتفع للتسجيل، وللمستند، ولا قطعة القماش لزوجته ولا الدجاجة أو ديك الحبش لفناء المنزل، هي التي تُعيد الطمأنينة إلى ضميره. فبالنسبة إليه كما لأغلبية السكان، ليس مكان الولادة هو الذي يحدد صفة ابن البلد الحقيقية ، إنما العمل الذي يقوم به من أجل إخصاب البلاد، والشجاعة في دخول الغابات ومواجهة الموت بعدد شجرات الكاكاو التي يزرعها وبعدد أبواب المتاجر والمخازن وبمساهمته في تطور المنطقة. هذه كانت ذهنية إيليوس، وكانت أيضاً ذهنية العجوز سيجيزموندو، الرجل ذي التجربة العريضة في الحياة وروح التفهم الواسع. تفهم وتجربة مكرسان لخدمة منطقة الكاكاو.

أما بالنسبة إلى ألم الضمير، فلم يساهم بأي شكل في تقدم مدن جنوب دولة باهيا وشق الطرق وإنشاء المزارع وخلق التجارة وإقامة المرفأ وتشييد الأبنية وتأسيس الصحف، وتصدير الكاكاو إلى العالم كله. فقد حدث ذلك بطلقات الرصاص والكمائن وبالمستندات الزائفة وقيود مسح الأرض المختلفة وبالاغتيالات والجرائم والمغامرين وبالعاهرات والمقامرين، بالدم والإقدام. مرة واحدة فقط، أصغى سيجيزموندو إلى ضميره. كان ذلك حول قيد مسح غابة سيكيرو غراندي، يعرض عليه ما يوازي قيمة التزوير. فجأة، كبر تردده بحيث أحرقوا له المكتب وأطلقوا رصاصة إلى فخذه. كانت الرصاصة بطريق الخطأ. بطريق الخطأ في الفخذ، إذ كانت موجهة إلى صدره. ومنذ ذلك الحين أصبح أقل مراعاة لصوت ضميره، وأكثر رخصاً، وأكثر

مواطنية بفضل الله. لهذا، عندما مات في العقد التاسع من عمره، تحول دفنه إلى تظاهرة حقيقية تكريماً لمن كان، في تلك الوقفات مثالاً للمواطنية وللإيمان بالعدالة.

موندينيو فالكون يراقب إيليوس بالمنظار

من على جسر الباخرة الذي كان ينتظر القبطان، كان ثمة رجل لا يزال شاباً، يرتدي لباساً أنيقاً، حليق الذقن، يراقب المدينة بنظرة حالمة. ثمة شيء، ربما الشعر الأسود، وربما العينان المعذبتان، كان يعطيه مسحة رومانطيقية، تجعل النساء يلاحظنه بسرعة. لكن الفم القاسي وذقنه الصلب كانا يوحيان بأن الرجل مقدام وعملي، يعرف ما يريد وماذا يفعل.

قدم له الآمر ذو الوجه الصلب بسبب الريح، والذي كان يمضغ غليوناً، المنظار. فقال موندينيو فالكون وهو يتسلمه:

«لا يلزمني... أعرفها بيتاً بيتاً ورجلاً رجلاً، كما لو أنني ولدت هناك، على الشاطئ (كان يشير إليه بإصبعه). ذلك المنزل الذي يقع إلى اليسار إلى جانب المنزل ذي الطبقتين، هو منزلي. بوسعي القول إن هذه الجادة أنا الذي شيدتها...

– مدينة غنية، ذات مستقبل واعد. قالها بلهجة العارف. إنما المضيق فهو تعاسة بذاتها...

– هذا أيضاً سوف نجد له حلاً. وقريباً جداً... أعلن موندينيو فالكون.

– ليسمع منك الرب. كل مرة أدخل فيها ههنا، يعتريني الخوف على باخرتي. لا يوجد مضيق أسوأ منه في الشمال كله.»

رفع موندينيو المنظار، وضعه على عينيه، فشاهد بيته الحديث الذي جلب مهندساً معمارياً من الريو لبنائه، ومباني الجادة وحدائق قصر الكولونيل ميزائيل وأبراج الكنيسة الرئيسية والمجمع المدرسي. ورأى طبيب الأسنان أوزموندو، يخرج

من المنزل متدثراً بروب ليستحم في البحر عند الصباح الباكر كي لا يُثير فضيحة من قبل السكان. في ساحة القديس سيباستيان لا وجود لاي كائن حي. أبواب حانة فيزوفيو مغلقة. أمام دار السينما اقتلعت ريح الليل لوحة للإعلانات . كان موندينيو يتفحص بانتباه كل التفاصيل. في الحقيقة كان يحب هذه البلاد أكثر فأكثر. ولم يبد أسفاً على الرغبة المجنونة التي جاءت به إلى هنا، ذات يوم، منذ سنوات قليلة، كغريق فقد اتجاهه، يرى أي أرض يجد فيها خلاصه، جيدة. لكن هذه لم تكن أرضاً عادية. فأين كان بإمكانه أن يوظف ماله ويضاعفه أفضل من هنا؟ كان يكفي أن يكون لديه استعداد للعمل وحس للمشاريع والمهارة والإقدام. كل هذا كان لديه بالإضافة إلى شيء آخر: امرأة لا ينساها وغرام يستحيل اقتلاعه من صدره وتفكيره.

هذه المرة، في الريو، أمه وشقيقاه كانوا مجمعين على أنهم رأوه متغيراً، مختلفاً. أخوه الأكبر لوريفال، لم يستطع التخلي عن الاعتراف، بصوته المفعم بالسخرية، كرجل دائم القرف:

«لم يعد ثمة شك بأن الفتى قد نضج.»

ابتسم إميليو وهو يتناول السيكار:

«وهو يكسب مالاً. ما كان ينبغي لنا أن نسمح لك بالرحيل، ولكن من كان بوسعه التخمين بأن فتانا الأول لديه حس للأعمال؟ فأنت لم تكشف هنا قطّ إلّا عن ميل لحياة الترف. وعندما ذهبت حاملاً مالك، هل كان بوسعنا أن نتصور، سوى أنها مغامرة بلهاء أكبر من مغامراتك الأخرى؟ كنا ننتظر عودتك لإعادتك إلى الطريق القويم.»

ولخصت الأم بشكل خجول:

«إنه لم يعد ولداً! «لكن ممن كانت منفعلة ؟ من إميليو لقوله هذه الأشياء أو من موندينيو الذي لم يعد كما في الماضي ليطلب منها مالاً بعد تبديد مدخوله الشهري الدسم؟

تركهم موندينيو يتكلمون. وجد هذا الحوار متمتعاً. وعندما لم يعد لديهم ما يقولونه، أعلن:

– أنا أنوي أن أنخرط في السياسة، وانتُخِب لمركز ما، ربما أصبح نائباً... إني أغدو شيئاً فشيئاً رجلاً لامعاً في البلد. هل تفكر يا إميليو، أن تراني مرتقياً المنبر للإجابة عن أحد خطاباتك التي ترافع فيها عن الحكومة؟ أريد المجيء عن طريق المعارضة...

في القاعة الكبرى المظلمة من المسكن العائلي، ذات الأثاث المهيب، حيث الأم تسيطر عليهم كملكة، بعينيها المعتزتين وشعرها الأبيض، كان الأشقاء الثلاثة يتحدثون. لوريفال، ذو الثياب المستوردة من لندن، لم يقبل قطّ عضوية مجلس النواب أو مجلس الشيوخ. حتى الوزارة رفضها عندما دُعي إليها. منصب حاكم ولاية سان باولو، من يدري؟ يقبله إذا اختير من القوى السياسية كافة. إميليو كان نائباً اتحادياً. انتخب وأعيد انتخابه بدون أقل جهد. الاثنان أكبر من موندينيو بكثير. كانا الآن مشدوهين وهما يريانه رجلاً، يدير أعماله ويصدّر الكاكاو ويجني أرباحاً يحسد عليها ويتكلم عن تلك البلاد البربرية التي دخل اليها، الله وحده يعرف لماذا، معلناً بأنه سيصير عما قريب نائباً عنها.

– نستطيع مساعدتك. قال لوريفال بشكل أبوي.

– وسنضع إسمك في لائحة الحكومة، بين الأوائل. انتخاب مضمون. أكمل إيميليو.

– لم آت إلى هنا لأطلب ذلك. جئت لأخبركما.

– فخور هو الولد... همس لوريفال بازدراء.

– بمفردك، لن تُنتخب. توقع إميليو.

– بمفردي سأنتخب. وفي معسكر المعارضة. حكومة واحدة فقط تهمني، حكومة إيليوس. وسوف أحصل على تلك الحكومة. لم آتِ إلى هنا لأطلبها منكما، شكراً جزيلاً.

رفعت الأم صوتها:

«بوسعك أن تفعل ما يحلو لك، فلا أحد يمنعك. لكن لماذا تناهض أخويك؟ لماذا تنفصل عنا؟ إنهما يريدان مساعدتك فقط. فهما أخواك.

– لم أعُد طفلاً. أنتِ نفسك قلت.» بعدها، حدثهم عن إيليوس، عن الصراعات الماضية، عن قطاع الطرق وعن الأراضي المكتسبة بالرصاصة وعن التقدم الحالي وعن مشكلات المنطقة.

«أريد أن يحترمني هؤلاء الناس، أن يوصلوني إلى المجلس لأتكلم باسمهم. ماذا يفيدني وضعكما إياي في لائحة؟ لأمثل المؤسسة؟ يكفي يا إميليو. إني رجل من إيليوس.

ابتسم إميليو، بين متهكم وموافق:

– سياسة الدسكرة. مع إطلاق رصاص وجوقة موسيقى بلدية.

وسألت الأم مخفية رعبها:

– لماذا التعرض للخطر طالما ليس ضرورياً؟

– حتى لا أكون فقط، أخاً لأخوي. لأكون شخصاً.

لقد حرك ريو ده جانيرو بكاملها. تنقل بين الوزارات، ملاحقاً الوزراء بنفسه. كان يدخل مقر الحكومة من الداخل. كم هي المرات التي التقى فيها كلاً منهم في منزله، جالساً إلى الطاولة التي تتصدرها أمه، أو في بيت لوريفال، في سان باولو، يبتسم لمادلين؟ عندما قال له وزير العدل، منافسه في الصراع على محاسن إحدى الهولنديات، قبل ذلك بسنوات، فقد أجاب حاكم باهيا، مؤكداً بأنه لا يمكن الاعتراف رسمياً بثانوية إينوش إلا في بداية العام القادم. ضحك موندينيو:

«يا عزيزي، أنت مدين كثيراً لإيليوس. فلو لم أكن قد هاجرتُ إلى هناك، لما كنت نمت قطّ مع بيرتا، الهولندية الشريرة. إنني أطلب الاعتراف الرسمي بالمعهد

فوراً. بإمكانك أن تجيب الحاكم بعرض القانون عليه. أما لي، فلا يمكن. اللاشرعي، الصعب، المستحيل، هذا ما يلزمني...»

في وزارة النقل والأشغال العامة طلب إرسال مهندس. عرض له الوزير قصة مضيق إيليوس بكاملها، وأرصفة باهيا، ومصالح الناس المتصلة بزوج ابنة الحاكم. مستحيل. إنه مبرر بدون شك، لكنه مستحيل يا عزيزي، مستحيل كلياً! فالحاكم سوف يزأر من الغضب.

«هل هو من عينك؟

- كلا، بالتاكيد.

- هل هو من يستطيع أن يهزمك؟

- لا أعتقد...

- إذن؟

- ألا تفهم؟

- كلا، الحاكم شخص عجوز وصهره لص فلا يساويان شيئاً. هذه نهاية الحكومة، نهاية حلف. هل ستقف ضدي، ضد المنطقة الأكثر ازدهاراً ودينامية في الولاية؟ حماقة! المستقبل هو أنا، أما الحاكم فهو الماضي. وبالرغم من أني جئت إليك بدافع الصداقة، باستطاعتي الذهاب أكثر صعوداً، وأنت تعرف ذلك جيداً. إذا تكلمت مع لوريفال أو إميليو فإنك سوف تتلقى أوامر من رئيس الجمهورية لإرسال مهندس. أليس هذا صحيحاً؟»

كان يمتعه ذاك الابتزاز باسم شقيقيه اللذين لم يكن ليطلب منهما أي شيء بأي ظرف. في المساء، تناول الطعام مع الوزير. كانت ثمة موسيقى ونساء وشامبانيا وورود. في الشهر القادم سيكون المهندس في إيليوس.

بقي في الريو ثلاثة أسابيع واستعاد حياته السابقة: احتفالات، سهرات صاخبة مع فتيات المجتمع المخملي أو فنانات مسارح المنوعات. استغرب أنه لاحظ أن

كل ما كانت عليه حياته خلال سنوات لم يعد يستهويه لا بل أصبح يتعبه بسرعة. في الحقيقة، كان يفتقد إيليوس، مكتبه المليء بالحيوية، المؤامرات والقال والقيل وبعض الأشخاص المحليين الطيبين. لم يكن ليتصور قطّ أنه سوف يستطيع الاعتياد على هذا، وأن يصبح مأخوذاً به إلى هذه الدرجة. كانت أمه تقدم له الفتيات الثريات من عائلات مهمة، تدبر له عروساً لتقتلعه من إيليوس. وأراد لوريفال أن يأخذه إلى سان باولو. فموندينيو كان لا يزال شريكاً في مزارع البن، وكان عليه أن يزورها.

لم يذهب. بالكاد التأم الجرح في صدره. وبالكاد اختفت صورة مادلين من أحلامه، فلن يستعيد رؤيتها، وتقاسي عيناه من العذاب، عشق وحشي لم يفصح عنه قطّ، إنما يتحسسانه، هو وهي. دائماً هما على قيد خطوة من أن يرتمي أحدهما في حضن الآخر. كانت إيليوس هي الشفاء، وهو يعيش الآن لإيليوس.

لوريفال المتعالي والكثير القرف، المتعجرف، الإنكليزي جداً في قناعته، الأرمل بدون أولاد، تزوج مجدداً فجأة في إحدى رحلاته المتواصلة إلى أوروبا، بفرنسية تعمل عارضة أزياء في أحد محلات بيع الثياب. فارقٌ كبير في السن كان يفصل الزوج عن الزوجة. لم تحسن مادلين إخفاء الأسباب التي دعتها للزواج منه. وشعر موندينيو أنه إذا لم يرحل نهائياً، فلن يستطيع، ولا لأي اعتبار أخلاقي، ولا لأي فضيحة، ولا لأي شعور بالذنب ممكن، أن يمنع انتهاء أحدهما في حضن الآخر. فالأعين كانت تتلاحق في البيت، والأيدي ترتجف عند اللمس، وكان الصوتان مضطربين. لم يكن بوسع اللامبالي والبارد لوريفال، التصور بأن أخاه الأصغر المجنون موندينيو، يحطم كل شيء من أجله، حباً بأخيه.

إيليوس شَفَتْهُ، إذا كان قد شُفِيَ. هل بإمكانه؟ من يدري! لو أراد التطلع إلى مادلين، لما أحس إزاءها بشيء.

فيما كان يجول بالمنظار عبر مدينة إيليوس، شاهد العربي نسيب عند نافذته. ابتسم لأن صاحب الحانة يذكره بالنقيب. كانا شريكيه الاعتياديين في لعبة الداما

والتريك تراك. سوف يستخدم النقيب كثيراً. لقد أصبح صديقه الأفضل. ومنذ وقت طويل، بدأ يقترح عليه تلميحاً، الاهتمام بالسياسة. لم يكن سراً في المدينة كراهية النقيب لآل باستوس. منذ عشرين سنة طردوا والده من الحكومة المحلية، ودُمروه في الصراعات السياسية،. أعطى موندينيو الأذن الصماء لأنه لم يكن قد أنهى تمهيد الأرض. لقد حان الوقت لاستدعاء النقيب بصراحة وتشجيعه أن يترأس المعارضة. وسيري أخويه على ما هو قادر. هذا فضلاً عن أن إيليوس بحاجة إلى رجل مثله لتدعيم التقدم وتسريع وتيرته. فأولئك الكولونيلات لا يعرفون حتى احتياجات المنطقة.

أنزل موندينيو المنظار، صعد المرشد إلى متن الباخرة، وجُرّت الباخرة نحو المضيق.

وصول الباخرة

في الصباح البكر، كان جمهور صغير يتابع الأعمال الشاقة لإنقاذ الباخرة التي لامست قاع المضيق، وبدت كأنها قد ألقت مرساتها هناك إلى الأبد. فكان الفضوليون يراقبون من مرتفع أونياون، الآمر والقبطان منهمكين بإصدار الأوامر، وبحارة يركضون، وضباط يمرون مسرعين، وقوارب صغيرة قادمة من بونتال تدور حول الباخرة.

كان المسافرون يتكئون إلى الجدار المعدني لسطح الباخرة، والجميع تقريباً يرتدون البيجامات وينتعلون الأخفاف، بعضهم كان يرتدي ثيابه من أجل النزول من الباخرة. هؤلاء كانوا يتبادلون جُملاً مع أقاربهم الذين وصلوا عند الفجر لاستقبالهم في المرفأ، ومعلومات حول الرحلة، ونكاتاً حول الجنوح، على ظهر الباخرة وكان أحد القادمين يقول لعائلة على الأرض:

«ماتت المسكينة الصغيرة بعد أن تألمت كثيراً!

انتزع النبأ تنهدات من سيدة ترتدي السواد، متوسطة العمر، لصيقة برجل نحيل الجسم وحزين يضع علامات الحداد في ذراعه وعلى صدر سترته، فيما كان طفلان ينظران إلى الحركة من دون أن يهتما لدموع أمهما.

بين المشاهدين، تشكلت جماعات، تتبادل التحيات، وتعلق على الحادث:

- هذا المضيق عارٌ...

- لا بل خطرٌ! يوماً ما ستغرق باخرة هنا إلى الأبد، وساعتئذ وداعاً يا مرفأ إيليوس...

- الحكومة لا تُبدي اهتماماً...

- لا تُبدي اهتماماً؟ إنها تتركه عن قصد، كي لا تدخل باخرة كبيرة، وكي يستمر التصدير عن طريق باهيا.

- وأيضاً المحافظة لا تفعل شيئاً. ليس لدى المحافظ صوت فعال. فهو يعرف فقط أن يوافق على قرارات للحكومة.

- على إيليوس أن تفرض نفسها».

وشارك الجمع القادم من سوق السمك في الأحاديث. وراح الدكتور، بحماسته المألوفة يدعو الشعب إلى الاتحاد ضد السياسيين وضد الحاكمين في باهيا الذين يعاملون المحافظة باحتقار كما لو أنها ليست الأكثر ثراءً والأكثر نجاحاً في الولاية، التي تساهم بأكثر العائدات إلى الخزينة العامة. وهذا بدون الكلام على إيتابونا، المدينة التي تنمو كالفطر، محافظة هي أيضاً، ضحية عجز الحاكمين والإهمال، والنوايا السيئة تجاه مرفأ إيليوس.

«في الحقيقة،الذنب ذنبنا، قال النقيب، علينا أن نعترف.

- كيف؟

- نعم، إنه ذنبنا ومن السهل إثبات ذلك. من يقود سياسة إيليوس؟ الرجال أنفسهم منذ عشرين عاماً. ننتخب محافظاً، نائباً أو عضواً إلى مجلس الشيوخ ونائباً

اتحادياً، أناساً ليست لهم علاقة بإيليوس، وذلك لارتباطات قديمة تعود إلى زمن هيرودس!

- هذا صحيح. قال جوان فولجنسيو. لا يزال الكولونيلات يصوتون للرجال الذين دعموهم في ذلك الوقت. والنتيجة: تجاهل وإهمال مصالح إيليوس ؟

- العهد هو العهد... قال الكولونيل أمانسيو ليال مدافعاً عن نفسه، فهم الذين ساعدونا عند الحاجة...

- الاحتياجات الآن هي مختلفة.»

- لكن هذه القذارة يجب أن تنتهي. قال الدكتور وهو يهز إصبعه. سوف ننتخب رجالاً يمثلون المصالح الحقيقية للمنطقة.

- والأصوات، من أين ستأتون بها؟ قال الكولونيل مانويل داس أونساس ضاحكاً.

تدخل الكولونيل أمانسيو ليال بصوته الوديع قائلاً: إسمع يا دكتور، يجري الكلام كثيراً على التقدم والحضارة، وعلى الحاجة إلى تغيير كل شيء في إيليوس. ولا أسمع حديثاً آخر طوال النهار. لكن، قل لي أمراً واحداً: من هو الذي صنع هذا التقدم؟ ألم نكن نحن، مزارعي الكاكاو؟ لدينا التزاماتنا المأخوذة في ساعات صعبة، ونحن رجال نلتزم بكلمتنا. فما دمت حياً، سوف أنتخب إشبيني راميرو باستوس والمرشح الذي يختاره. لا أريد معرفة اسمه. فهو الذي مد إلي يد المساعدة عندما كنت أجازف بحياتي في هذه الغابات الوعرة...

انضم العربي نسيب إلى الجمع، وهو لا يزال وَسْناناً وقلقاً ومحبطاً:

«عم تتكلمون؟

أوضح النقيب:

- عن المشكلة الأزلية... لا يفهم الكولونيلات أنهم لم يعودوا ينتمون إلى

هذا الزمن، وأن الأمور اليوم أصبحت مختلفة، والمعضلات لم تعد كما كانت منذ عشرين أو ثلاثين سنة.

لكن العربي لم يُبد اهتماماً لما قال، فقد كان يشعر أنه بعيد عن كل هذا النقاش الذي كان يمكن أن يستهويه في مناسبات أخرى. وإذ عاد مأخوذاً بمعضلته الشخصية- الحانة بلا طاهية، كارثة! - فبالكاد هز رأسه موافقاً على كلام صديقه.

- لماذا هذه الكآبة كأنك في دفن؟

- لقد رحلت طاهيتي...

- يا له من سبب... علق النقيب وتابع النقاش الذي كان في كل مرة يصبح أكثر إثارة، جاذباً أشخاصاً متنوعين حول الجمع:

يا له من سبب... يا له من سبب... ابتعد نسيب عدة خطوات كأنه يريد أن يضع مسافة عن هذا النقاش المزعج. كان صوت الدكتور الخطابي يتقاطع خطابياً، مع الصوت الناعم والحازم للكولونيل أمانسيو. فهو لم يكن يهتم بمحافظة إيليوس ولا بنوابها وشيوخها! كل ما كان يهمه، عشاء اليوم التالي، ثلاثون مدعواً. فالشقيقتان دوس ريز إذا ما قبلتا المهمة، فسوف تطلبان مبلغاً كبيراً. هذا وكل شيء يسير عل ما يرام...

عندما ابتاع حانة «فيزوفيو» الكائنة في ساحة القديس سيباستيان، في منطقة سكنية، نائية - نائية ليست الكلمة الدقيقة، فالمسافات في إيليوس قصيرة بشكل مضحك - إنما خارج الوسط التجاري والمرفأ حيث كان يتواجد منافسوه الاكثر جدية، فاعتبر بعض أصدقائه وعمه أنه يقترف عملاً جنونياً. فالحانة كانت تعاني تدهوراً كاملاً، وهي فارغة بدون زبائن، مليئة بالذباب. فيما خمارات المرفأ كانت تشهد ازدهاراً ملحوظاً يجذب الزبائن. لكن نسيب لم يكن يريد الاستمرار في قياس القماش على طاولة العرض في المتجر حيث كان يعمل منذ وفاة والده. لم يكن يحب ذلك العمل، ولا الشراكة مع عمه وصهره (تزوجت أخته باختصاصي في الزراعة في

المحطة التجريبية للكاكاو). عندما كان والده على قيد الحياة، كان المتجر يحظى بالنجاح. وكانت للرجل العجوز مبادراته، إذ كان لطيفاً. أما عمه المعيل لأسرة كبيرة العدد، كان روتينياً في طرق عمله، يحسب خطاه ويكتفي بالقليل. فقرر نسيب أن يبيع حصته، وراح يوظف المال في عمليات بيع وشراء الكاكاو التي لا تخلو من المغامرة، وانتهى بالحصول على الحانة. اشتراها ، منذ خمس سنوات، من شخص إيطالي مهووس بالكاكاو، غادر ولم يرجع.

كانت الحانة عملاً جيداً في إيليوس، أفضل حتى من الكباريه. يتدفق الناس نحو هذه المدينة الدائمة الحركة، منجذبين بشهرة ثرائها. جمهرة الباعة الجوالين والأشخاص العابرون يملأون الشوار. كميّات من الأعمال تُحَل على طاولات الحانات. فقد اعتاد الناس على الإفراط بالشرب وهي عادة أتى بها الإنكليز عند إنشاء السكة الحديد، ثم تبعهم كل السكان الذكور: تناول كأساً من الخمرة ولعب البوكر قبل الغداء والعشاء، فقبل الظهر وبعد الخامسة مساء، كانت الحانات تزدحم بالرواد.

كانت حانة فيزوفيو الأكثر قِدماً في المدينة. تشغل الطابق الأرضي في مبنى ذي طبقتين، عند زاوية من ساحة صغيرة وجميلة مطلة على البحر، حيث توجد كنيسة القديس سيباستيان. في الزاوية المقابلة، دُشّنَتْ حديثاً سينما وتياترو إيليوس. لم يكن سبب تدهور فيزوفيو بعدها عن الشوارع التجارية، حيث كان مقهى إيديال المزدهر وحانة شيك وحانة العرق الذهبي التي يملكها بلينيو أراسا، المنافسات الثلاث الرئيسة لنسيب، بل الإيطالي الذي، بسبب هوسه بحقول الكاكاو، لم يكن يهتم بالحانة. فلا يهتمّ بمخزون المشروب ولا يفعل شيئاً لإمتاع الزبائن. حتى أن الفونوغراف العتيق الذي كان يصدح موسيقى الأوبرا، كان معطلاً ينتظر التصليح، ومغطى بشباك العنكبوت. وكانت الكراسي مخلعة، وقوائم الطاولات محطمة وقماش طاولة البليار ممزقاً. حتى اسم الحانة الذي كان مطلياً بأحرف نارية اللون، فوق صورة بركان ثائر، بهت لونه مع الوقت. لقد ابتاع نسيب تلك القذارة مع الاسم والموقع، بمبلغ زهيد، ولم يحتفظ الإيطالي الا بالفونوغراف والأسطوانات.

قام بطلاء كل شيء من جديد، وابتاع طاولات وكراسي جديدة وألواحاً للعبة الداما والغامون، وباع البليار إلى حانة «ماكوكو»، وخصص جناحاً خلفياً للاعبي البوكر. ثم استحدث تشكيلة من المشروبات المتنوعة، ومن البوظة للعائلات في ساعة التنزه عند المساء في الجادة الجديدة على الشاطئ وعند الخروج من دور السينما، وخصوصاً الأطعمة المالحة والحلوى لأوقات تناول المشروبات. إنه تفصيل يبدو غير ذي أهمية: أطعمة الأكاراجيه، الآبارا، وأقراص المنيهوكا والبوبا، ومقالي السيري بالمرق، القريدس وقديد السمك، وحلوى الايبين، والذرة. جاءت هذه الفكرة من جوان فولجنسيو إذ سأله نسيب يوماً لماذا لا يأتي إلى الحانة، فيما كان يمضغ الأكاراجيه الذي صنعته العجوز فيلومينا، خصيصاً بناء على رغبة العربي الذي كان يحب الطعام الجيد:

في البدء، كان زبائن الحانة أصدقاءه فقط: مجموعة مكتبة وقرطاسية موديلو كانوا يأتون لقضاء بعض الوقت بعد إقفال المكتبة، كذلك عشاق الغامون والداما، ورجال معيَّنون أكثر احتراماً مثل قاضي التحقيق والدكتور ماوريسيو كايبريس، الذين لم يبدوا اهتماماً كبيراً في الظهور في حانات المرفأ ذات الرواد المختلطين، حيث يكثر تفجر المشاجرات العنيفة باللكمات وطلقات المسدس، فضلاً عن العائلات التي كانت تأتي لتناول البوظة ومرطبات الفواكه. لكن بعد أن بدأ بتقديم الحلوى والأطعمة المالحة في ساعات تناول المشروبات، شرع الزبائن في الازدياد، وأخذت الحانة تحظى بالنجاح. وعرفت ألعاب البوكر في الحجرة الجانبية نجاحاً كبيراً. ولهؤلاء الزبائن - الكولونيل أمانسيو ليال، الثري معلوف، الكولونيل ميلك تابافاريس، ريبيرينيو، السوري فؤاد صاحب متجر الأحذية، أوسمار فاريا، الذين كانت مشاغلهم تنحصر في لعب البوكر واصطياد الزنجيات من مرتفع كونكيستا، والدكتور إيزكييل وآخرون عديدون - كان يحتفظ، لمنتصف الليل، بأطباق الأطعمة المقلية وأقراص الحلوى. وكان الشراب يسيل بغزارة، واللعب يدر على الحانة ارباحاً طائلة.

في وقت قصير، استعادت فيزوفيو ازدهارها؛ وتفوقت على مقهيي إيديال وشيك ولم يضاهيها سوى «العرق الذهبي» فقط. لم يعد بوسع نسيب الشكوى: بالطبع كان يعمل كعبد، وفي الحقيقة كان يساعده شيكو موليزا وبيكو فينو، وأحياناً الولد تويسكا الذي جاء بصندوق لمسح الأحذية على الردهة الواسعة للحانة، إلى جانب الساحة، قرب الطاولات الموضوعة في الهواء الطلق. كان كل شيء يسير بصورة حسنة مع ذلك العمل الذي يحبه. ففي الحانة كان يعرف كل المستجدات، وأخبار البلد والعالم.

كان نسيب محاطاً بتعاطف عام. «رجل مستقيم ونشيط» كما كان يقول القاضي وهو يجلس بعد العشاء، إلى إحدى الموائد في الخارج يتأمل البحر وحركة الساحة.

كان كل شيء يسير بشكل جيد حتى ذاك اليوم الذي قررت فيه تلك المجنونة فيلومينا تنفيذ وعيدها القديم. من الذي سيطهو الآن للحانة؟ وله، نسيب، الذي كانت نقطة ضعفه حبه للأكل الجيد وللأطعمة المصنوعة بالتوابل والفلفل؟ وتكليف الشقيقتين دوس ريز بشكل دائم، كان أمراً جنونياً. ليس فقط لأنهما لا تقبلان، بل أيضاً لأنه ليس باستطاعته أن يدفع لهما. فأسعارهما المرتفعة تلتهم الربح كله. كان عليه أن يتدبر، في ذلك اليوم، إذا استطاع، طاهية قديرة، وإلّا...

«كان بوسعه للخروج سالماً، أن يرمي الحمولة في البحر حتى يتم إنقاذها. إنه متمسك بها بلا فائدة.»

نسي نسيب مشاغله للحظة. فآلات الباخرة كانت تشخر بدون فائدة.

«سوف ينتهي هذا... سُمع صوت الدكتور يقول.

– لا أحد يعرف حقاً من هو موندينيو فالكون هذا... قال أمانسيو ليال بهدوئه المعهود.

– كيف لا أحد يعرف؟ إنه، على متن هذه الباخرة، الرجل الذي تحتاج إليه إيليوس.

كانت الباخرة تهتز، وهيكلها يحتك بالأرض، والمحركات تئن، والقبطان المرشد يصرخ مصدراً أوامره. وعلى جسر القيادة ظهر رجل لا يزال فتياً، أنيق المظهر، يداه فوق عينيه، ساعياً إلى تمييز أصدقائه بين المشاهدين. فأعلن النقيب:

- هذا هو موندينيو . قال الكولونيل...

- أين؟

- هناك فوق...

وتعالت أصوات تنادي: موندينيو! موندينيو!.

سمع الآخير، وراح يبحث عن المكان الذي كانت الأصوات تنبعث منه وهو يلوح بيده. وبعد ذلك نزل السلالم واختفى لدقائق، ثم ظهر عند الحاجز الحديدي، بين المسافرين، وهو يبتسم. كور يديه حول فمه ليعان:

«سوف يأتي المهندس!

- أي مهندس؟

- مهندس وزارة النقل، ليدرس أوضاع المضيق.»

نبأ جديد عظيم.

«أترون؟ هذا ما كنت أقوله؟»

وراء موندينيو فالكون، ظهر شكل امرأة شابة شقراء الشعر تضع قبعة كبيرة خضراء، واحتضنت بابتسامة لطيفة ذراع المصدّر.

«يا لها من امرأة! تباً! موندينيو لا يضيع وقته...

- نعم...إنها امرأة رائعة!» قال نيوغالو موافقاً.

اهتزت الباخرة بعنف، مُحدثة الذعر لدى المسافرين - وأطلقت المرأة الشقراء صرخة ضئيلة - لقد تحرَّر هيكل الباخرة، وارتفعت صرخات الفرح من الأرض. كان ثمة إلى جانب موندينيو، على متن الباخرة، رجل غامض ونحيل الجسم يضع لفافة في فمه، وينظر بلامبالاة. قال له المصدّر شيئاً ما، فضحك. وعلّق الكولونيل ريبيرينيو بلطف:

«موندينيو هذا رجل حذق...»

صفّرت الباخرة صفيراً مدوياً وطليقاً، ثم اتجهت إلى المرفأ.

«إنه لورد، ليس مثلنا.» علّق الكولونيل أمانسيو ليال: بدون تعاطف.

- لنذهب ونرى ما هي الأنباء الجديدة التي أتى بها موندينيو. قال النقيب.

- أنا ذاهب إلى البنسيون، لأبدل ثيابي وأتناول القهوة. ردّ داس أونساس ممتعضاً.

- وأنا أيضاً... قال أمانسيو ليال وغادر.

توجه الجمهور الصغير إلى المرفأ وتكاثرت تعليقات الأصدقاء على نبأ موندينيو.

«لقد نجح في دفع الوزارة إلى التحرك، رغم أن ذلك استغرق وقتاً.

- إن باع هذا الرجل لطويل .

- يا لها من امرأة! قطعة ملوكية...» علق الكولونيل ريبيرينيو متنهداً.

حينما وصلوا إلى الرصيف، كانت الباخرة تقوم بمناورتها للرسو. وكان المسافرون المتجهون إلى باهيا وأراكاجو وماسيو ورسيفي يتطلعون بفضول. وكان موندينيو فالكون أول الخارجين من الباخرة. وسرعان ما أصبح مُحاطاً بالعناق. وجه له العربي التحيات.

«لقد سمنت بعض الشيء...

- تبدو أكثر شباباً...

- إنها ريو ده جانيرو التي تجدد الشباب....

وكانت المرأة الشقراء - أقل شباباً مما كانت تبدو عن بعد، لكنها أكثر فتنة، رائعة الأناقة وتطلي وجهها بالمساحيق، «دمية أجنبية» كما صنفها الكولونيل ريبيرينيو، والرجل النحيل، المنتظرين مع الجمع. فقدمهما موندينيو بصوت مازح ودعائي كأنه في السيرك:

- الأمير ساندرا، ساحر من الدرجة الأولى، وزوجته الراقصة آنابيلا... سيقضيان فترة طويلة هنا.»

الرجل الذي كان على ظهر الباخرة يعلن موتاً مفجعاً لشخص ما، أُخذ بالأحضان الآن من قبل عائلته على الرصيف، وكان يروي تفاصيل محزنة:

«بقيت شهراً تحتضر، المسكينة الصغيرة! لم يُر أحد يتعذب هكذا... كانت تتألم نهاراً وليلاً، بشكل يدمي القلب.»

وتزايدت شهقات المرأة. تابع موندينيو والفنانان والنقيب والدكتور ونسيب، سيرهم على الرصيف. وكان الحمّالون يمرون مع الحقائب. فتحت آنابيلا مظلة. واقترح موندينيو على نسيب:

- ألا تريد التعاقد مع هذه الفتاة لترقص في حانتك؟ لديها رقصة نقاب، يا عزيزي، ستلاقي نجاحاً باهراً...»

رفع نسيب يديه:

- في الحانة؟ إن هذا للسينما وللكباريهات. فما أريده أنا هي طاهية.

ضحك الجميع. وتأبّط النقيب ذراع موندينيو:

«والمهندس؟ جيد.

- سيكون هنا في نهاية الشهر. لقد ضمن لي الوزير ذلك.

عن الشقيقتين دوس ريز والمذود

الشقيقتان دوس ريز، المكورة كينكينا والرقيقة فلورزينيا، عند عودتهما من قداس الساعة السابعة في الكاتدرائية، أسرعتا الخطى قليلاً حينما شاهدتا نسيب بانتظارهما عند الباب. كانتا امرأتين عجوزين، تجمعان مائة وثماني وعشرين سنة من العذرية الصلبة غير الخاضعة للنقاش. كانتا توأمين، هما كل ما تبقى من أسرة

قديمة من أُسر إيليوس ما قبل الكاكاو، من أولئك الذين أعطوا مكانهم للسرجيبيين والسرتونيين، والآلاغواسيين والعرب والإيطاليين والإسبان والسيارانيين. ورثتا البيت الجميل الذي تقطنان فيه والذي طمع فيه أكثر من كولونيل ثري، في شارع الكولونيل آدامي، وثلاثة أخرى في الكنيسة، تعيشان من إيجارها، ومن الحلوى التي يبيعها بعد الظهر، الولد تويسكا. إنهما صانعتا حلوى قديرتان، أيديهما أسطورية في المطبخ. كانتا تقدمان أحياناً طلبات للغداء والعشاء في الاحتفالات. لكن شهرتهما التي جعلتهما مؤسسة في المدينة، كانت بسبب مذود الميلاد الكبير الذي كانتا تقيمانه كل سنة في إحدى القاعات الأمامية في المنزل المطلي باللون الأزرق. كانتا تعملان طوال السنة، تقصان وتلصقان على ورق الكرتون الابيض رسوماً توضيحية وصوراً للمشاهير من أجل زيادة حجمه.

- أنت مبكر اليوم يا سيد نسيب...

- قد تحصل أمور أحياناً.

- والمجلات التي وعدتنا بها؟

- سوف أجلبها يا دونا فلورزينيا. سأجلبها. إني أجمعها.

كانت العصبية فلورزينيا تطلب مجلات من جميع معارفها، والهادئة كينكينا توزع عليهم البسمات. إنهما تشبهان كاريكاتورين خارجين من كتاب عتيق، بثوبيهما الخارجين على الموضة والوشاحين على رأسيهما، كانتا قلقتين وحيويتين.

«ما الذي أتى بك إلى هنا في مثل هذه الساعة؟

- كنت أود أن أبحث معكما مسألة ما.

- إذن، أُدخل...»

كان الباب يوصل إلى شرفة نمت فيها زهور ونباتات تحيطانها بحنو. وثمة خادمة أكثر تقدماً في السن من العانستين، محنية الظهر بثقل السنين، تمر بين أصص الأزهار وتسقيها بدلو ماء.

«أدخل إلى قاعة المذود. قالت له كينكينا.

وأمرت فلوررزينيا الخادمة:

- أناستاسيا، قدمي مشروباً للسيد نسيب. ماذا تفضل؟ شراب جينيبابو أم الأناناس؟ لدينا أيضاً شراب البرتقال والماراكوجا...

كان نسيب يعرف، بتجربته الخاصة، أنه لا بد من تناول المشروب - تلك الساعة من الصباح، رباه! - وإطراؤه، والسؤال عن أشغال المذود، وإبداء الاهتمام بهذه الأشغال، إذا أراد أن يبلغ بمفاوضاته نهاية جيدة. وجل ما كان يهمه هو ضمان الأطعمة المالحة والحلوى للحانة، خلال بضعة أيام، وعشاء شركة الأوتوبيس في الليلة التالية، ريثما يتدبر طاهية جديدة وجيدة.

كان، من تلك البيوت القديمة، ذا قاعتين للزيارات مشرفتين على الشارع. إحداهما أُهمل استخدامها منذ وقت طويل كقاعة للزيارات. إنها قاعة المذود. ليس لأنه يبقى قائماً فيها سنة بكاملها. فهو يقام في كانون الأول/ ديسمبر ويُعرض للجمهور ويدوم حتى اقتراب الكرنفال، وما إن تفككانه بحذر شديد، حتى تبدآن على الفور بالإعداد للمذود التالي.

لم يكن الوحيد في إيليوس. كان ثمة مذاود أخرى، بعضها جميل وثري. لكن عندما يتحدث بعضهم عن «المذود» فإنه كان يشير إلى مذود الشقيقتين دوس ريز، إذ إن أياً من المذاود الأخرى لا يستطيع مضاهاته. فقد تضخم شيئاً فشيئاً مع مرور أكثر من خمسين سنة. كانت إيليوس آنئذٍ مكاناً صغيراً متخلفاً. وعندما كانت كينكينا وفلوررزينيا فتاتين صغيرتين، قلقتين وشغوفتين بالحفلات، ومرغوبتين من الشبان، (حتى اليوم يعتبر بقاؤهما عزباوين، سراً غامضاً وربما لكونهما كانتا عرضة للاختيار أكثر من اللازم). عندما أقامتا مذودهما الأول والصغير في إيليوس المنسية في تلك الأوقات، قبل الكاكاو، أنشأتا بين العائلات الحقيقية روح المنافسة، لترتيا من يقدم مذوداً لعيد الميلاد أفضل، متكاملاً وغنياً. لم يكن ثمة في إيليوس عيد ميلاد أوروبي

مع بابا نويل في عربة تجرها الثيران، مرتدياً لباس الثلج والبرد، جالباً هدايا للأطفال. كان عيد ميلاد المذاود، والزيارات إلى المنازل، والمائدة المشرعة، ومآدب العشاء بعد قداس منتصف الليل، وبدء الألعاب الشعبية، والرقصات المسرحية الشعبية والبذلات والراعيات، وراعي البقر ورجل الغابات. وأخذت الفتاتان دوس ريز، ، تطوران مذودهما سنة بعد أخرى. ومع مضي الوقت الذي كانتا تبتعدان فيه عن الرقص، كانتا تكرسان له أكثر فأكثر من الوقت، وتضيفان باستمرار شخصيات جديدة، وتوسعان المنصة التي كان يقام عليها، بحيث أصبح يشغل ثلاثة أرباع القاعة.

بين آذار/ مارس وتشرين الثاني/ نوفمبر، كانت كل الأوقات مخصصة للزيارات الاضطرارية إلى الكنيسة (عند السادسة صباحاً من أجل القداس، وعند السادسة مساء من أجل البركة) ولإعداد الحلوى اللذيذة التي يبيعها الولد تويسكا لزبائن محدَّدين، وللقيام بزيارات إلى الأصدقاء والأقارب المهمين من أجل التعليق على الحياة الغريبة مع الجيران، مكرستين نفسيهما لقص الشخصيات من المجلات والروزنامات، وإلصاقها بحذر، بعد ذلك، على الكرتون الابيض. أما أعمال المونتاج، في نهاية العام، فكان يساعدهما جواكين، المستخدم في مكتبة وقرطاسية موديلو والضارب على الطبل في فيلهرمونية (أوركسترا) أوتيربي ١٣أيار/ مايو التي تتيح له التعبير عن موهبته كفنان. وكان جوان فولجنسيو، النقيب، ديوجينيس (صاحب سينما - تياترو إيليوس وهو بروتستانتي) طالبات ثانوية الراهبات، والمدرِّس جوزويه، نيوغالو، بالرغم من كونهم مناهضين للكهنوت بتطرف، يؤمن لهما المجلات باستمرار، وعندما كان العمل يشدد الخناق عليهما في كانون الأول/ ديسمبر، كانت جارات وصديقات، وفتيات طالبات، يأتين بعد الامتحانات، لمساعدة المرأتين العجوزين. وقد انتهى المذود الكبير بأن صار ملكاً جماعياً للمجتمع. كان موضع فخر واعتزاز للسكان، بحيث أصبح يوم تدشينه عيداً احتفالياً، يمتلئ فيه منزل الشقيقتين دوس ريز بالناس، فيما الفضوليون يجتمعون في الشارع، أمام النوافذ المشرعة، ليروا المذود

المضاء بمصابيح متعددة الألوان وضعها جواكين الذي شرب، في ذلك اليوم المجيد، حتى الثمالة، من شراب العانستين المحلى.

كان المذود، حسب الاعتقاد السائد يومذاك، يمثل مولد المسيح في حظيرة فقيرة في فلسطين البعيدة. لكن، ومع الأسف! لم تعد أرض الشرق القاحلة الآن، سوى تفصيل وسط العالم المتنوع حيث تمتزج بشكل ديمقراطي المشاهد والشخصيات الأكثر تنوعاً، التي تعود إلى العهود الأكثر اختلافاً في التاريخ. كان هذا العالم يتطور سنة بعد سنة، بحيث كان يرى رجال مشهورون وسياسيون وأطباء أسنان وعسكريون وأدباء وفنانون وحيوانات أليفة أو كاسرة ووجوه القديسين المتشققة إلى جانب البشرات المشعة لنجمات السينما نصف العاريات.

فوق المنصة، أقيمت سلسلة من التلال، في وسطها وادٍ صغير، حيث يوجد مذود فيه مهد يسوع المسيح. كانت أمه مريم جالسة إلى جانبه، والقديس يوسف واقف وهو يُمسك برسن حمار عنيد. لم تكن هذه الشخوص لا الأكبر ولا الأغنى في المذود، لا بل كانت تبدو صغيرة وبائسة إلى جانب الأخرى. لكن بما أنها كانت من المذود الأول الذي أقامتاه، فإن كينكينا وفلورزينيا حرصتا على أن تبقياها. ولم يكن الشيء نفسه مع النجم المذنب الكبير والرهيب المبشر بالولادة الذي كان معلقاً بخيوط بين المذود وسماء من القماش الأزرق المخرم بالنجوم. إنه عمل جواكين الرائع، محط إطراءات أندت عيني صانعه بالدموع. نجمة كبيرة ذات رأس أحمر مصنوعة من ورق السيلوفان، متخيلة ومحققة بحيث يبدو مصدراً للضوء الذي ينير المذود الفسيح.

على مقربة من الزريبة، ثمة بقرات أيقظها الحدث من نومها الهادئ، بالإضافة إلى جياد وقطط وكلاب وديكة وبط ودجاج وحيوانات متنوعة وأسد ونمر وزرافة، كانت جميعها تعبد المولود الحديث. كما كان هناك ملوك المجوس الثلاثة، غاسبار وميلشيور وبالتازار، يرشدهم ضوء نجمة جواكين، محملين بالذهب والبخور واللُبان.

أخذت صور اثنين منهما من، الملكان الأبيضان، من إحدى الروزنامات القديمة. أما الثالث، الملك الأسود، فقد استبدل تمثاله الذي أفسدته الرطوبة، حديثاً بصورة سلطان مراكش، التي نشرت بكثرة في صحف ومجلات تلك الحقبة. فاستبدال ميلشيور المشوه، ليس ثمة أفضل من هذا السلطان المربك في نضاله، والسلاح في يده، من أجل استقلال مملكته.

كان ثمة نهر، خيط رفيع من الماء يجري فوق أنبوب من المطاط مقصوص عند الوسط، ينحدر من التلال إلى الوادي. إنه حقاً شلال تخيله العبقري جواكين وحقّقه. ودروب تتقاطع مع التلال وتتجه نحو الزريبة، دساكر تُقام هنا وهناك. وفي هذه الدروب، أمام المنازل ذات النوافذ المضاءة، كان يتواجد، وسط الحيوانات، رجال ونساء، كانوا بشكل ما، بارزين في البرازيل وفي العالم، إذ إن صورهم كانت تحظى بتقدير المجلات. هناك كان سانتوس دومون إلى جانب إحدى طائراته البدائية، بقبعة رياضية، وبهيئته التي تعلوها مسحة من الحزن. وقربه على المنحدر الأيمن من إحدى التلال، كان هيرودوس وبيلاطس يتسامران. وفي المقدمة ملوك الحرب: الملك جورج الخامس، ملك إنكلترا والقيصر والماريشال جوفر ولويد جورج وبوانكاريه والقيصر نيكولاي. وعلى المنحدر الأيسر كانت تشع إيليونورا دوزي، والتاج على رأسها فيما الذراعان عاريتان. وكان يتداخل روي باروزا وج. ج. سيابرا ولوسيان غيتري وفيكتور هوغو ودون بيدرو الثاني وإميليو ده مينيزيس وبارون ريو برانكو وزولا ودرايفوس والشاعر كاسترو ألفيز وقاطع الطريق أنطونيو سيلفينو، جنباً إلى جنب مع صور الممثلات الملونة التي تنتزع عند رؤيتها في المجلات هتافات الشقيقتين المبتهجتين:

- إنها رائعة للمذود!

في السنوات الأخيرة تزايد بشكل متعاظم عدد فناني السينما، بفضل مساهمة رئيسية من طالبات ثانوية الراهبات. وهدد بشكل جدي، كل من وليام فارنوم، إيدي

بولو، ليا ده بوتي، رودولفو فالنتينو، تشارلي تشابلن، ليليان غيش، رامون نوفارو، وليام س. هارت، باحتلال دروب التلال. وكان يظهر أيضاً فلاديمير إيليتش لينين نفسه، الزعيم المهيب للثورة البلشفية. جوان فولجنسيو هو من قص الصورة من إحدى المجلات وسلمها لفورزينيا، قائلاً لها:

«رجل مهم... لا بد من أن يوضع رسمه في المذود!»

كان ثمة شخصيات محلية أيضاً: المحافظ القديم كازوزا أوليفيرا، الذي تركت إدارته شهرة ملحوظة، والمرحوم الكولونيل هوراسيو ماسيدو، مستصلح الأراضي. ورسم - صنعه جواكين بإلحاح من الدكتور - يمثل أوفينيزيا، غير المنسية. وأخيراً، قبضايات من الطين ومشاهد الغدر ورجال مع بنادق سريعة الطلقات على أكتافهم.

وعلى طاولة إلى جانب النوافذ، كانت تنتشر الجرائد ومقصات ودبق وورق مقوى. ونسيب على عجلة من أمره، يريد الاتفاق على عشاء شركة الأوتوبيس وأطباق الحلوى والأطعمة المالحة. يتذوق شراب الجينيبابو، ويشيد بالتحضيرات للمذود.

«يبدو أن هذه السنة، ستكون رائعة!

- إذا أراد الله...

- ثمة الكثير من الأشياء الجديدة، أليس كذلك؟

- نعم... لا ضرورة لتعدادها!»

جلست الشقيقتان على إحدى الكنبات، فخورتين جداً، مبتسمتين للعربي، بانتظار الافصاح عن سبب زيارته.

«طبعاً... تقدران ما حدث لي اليوم... فالعجوز فيلومينا رحلت لتُقيم مع ابنها في أغوابريتا.

تكلمت الاثنتان في الوقت ذاته:

- لا! مستحيل! صحيح أنها كانت تعلن عن نيتها...»

قالت الاثنتان في الوقت ذاته. هذا نبأ يستحق الانتشار.

- لم أكن انتظر مثل هذا الضرب. والآن بالذات: يوم السوق، يوم الحركة الكثيرة في الحانة. وفوق كل هذا كنت قد أخذت طلبية عشاء لثلاثين شخصاً.

- عشاء لثلاثين شخصاً؟

- يقيمه الروسي جاكوب ومواسير صاحب المرأب، بمناسبة تدشين شركة الأوتوبيس.

- آه! لقد سمعت بذلك. رددت فلورزينيا

- حسناً! لقد سمعت بذلك. قيل إن محافظ إيتابونا سوف يأتي ايضاً. أضافت كينكينا.

- المحافظ الذي هنا، والمحافظ الذي في إيتابونا والكولونيل ميزاييل ومدير مصرف البرازيل والسيد هوغو كوفمان. وفي النهاية هم جميعاً أناس من النخبة.

أرادت كينكينا أن تعرف فقالت:

- هل ترى أن مشروع الأوتوبيس هذا سيتحقق؟

- سيتحقق؟... لقد تحقق... فبعد فترة قصيرة لن يسافر أحد في القطار. إن الفرق هو ساعة...

- هل ثمة خطر؟ سألت فلورزينيا،

- نعم خطر؟

- خطر الانقلاب... لقد انقلبت حافلة في باهيا. قرأت ذلك في الجريدة، ومات ثلاثة أشخاص...

فقالت كينكينا:

- أنا لا أسافر في هذه الأشياء. فالسيارة لم تصنع لي. أستطيع الموت بالسيارة إذا دهستني في الشارع. لكن أن أدخل فيها، فهذا لا...

وردَّت فلورزينيا:

- حتى أن الإشبين أوزيبيو بالأمس، أراد بالقوة أن يُصعدنا إلى سيارته ليسير بنا في جولة. وقد نعتتنا الإشبينة نوكا بالمتخلفتين...

- سوف أراكما تبتاعان سيارة. قال نسيب ضاحكاً.

- نحن... حتى لو كان لدينا مال...

- لكن، هيا إلى موضوعنا.

لقد قاومتا بضراوة، جعلتاه يتضرع، وخلصتا بالقبول، لكن ليس قبل أن تؤكدا أنهما تفعلان ذلك من أجل السيد نسيب فقط، الشاب الفاضل. أين رأيتم توصية عشية إقامة عشاء لثلاثين شخصاً جميعهم مهمون؟ ومن دون الكلام عن اليومين الضائعين على المذود، فلن يتبقى وقت لقص أية صورة بعد. وفوق هذا عليهما العثور على من يساعدهما...

«لقد اتفقت مع خلاسيتين لمساعدة فيلومينا...

- كلا، إننا نفضل الدونا جوكوندينا وبناتها. فنحن معتادتان عليها، وهي تطهو جيداً.

- هل تقبل أن تطهو لي؟

- من؟ جوكونيدنا؟ لا تفكر بهذا يا سيد نسيب، بيتها، أولادها الثلاثة الذين صاروا رجالاً، وزوجها، من سيهتم بهم؟ إنها تقبل العمل معنا، من وقت إلى آخر، بدافع الصداقة...»

طلبتا أجراً باهظاً، نقوداً كثيرة... وحسب السعر الذي طلبتاه، فالعشاء لن يدر أي ربح. ولو لم يكن نسيب قد أعطى وعداً لمواسير والروسي... لكنه كان رجلاً يفي بوعده، ولن يترك صديقيه خائبين، بدون عشاء لمدعويهما. كما أنه لن يستطيع ترك الحانة بدون أطعمة مالحة وحلوى. فلو فعل هذا، سيخسر زبائنه، والخسارة ستُصبح أكبر. لكن ذلك لن يدوم أكثر من بضعة أيام، وإلا فأين سيتوقف؟.

«من الصعب العثور على طاهية جيدة... قالت فلورزينيا.

- ما إن تظهر واحدة حتى يتنازعوا عليها...» أضافت كينكينا.

تلك حقيقة. إنّ طاهية جيدة في إيليوس تساوي ذهباً. والعائلات الثرية كانت تستقدمها من أراكاجو ومن فيرا ده سانتانا ومن استانسيا.

«إذاً، اتفقنا. سأبعث شيكو موليزا للقيام بالمشتريات.

- بأسرع ما يمكن يا سيد نسيب.»

نهض ومد يده إلى العانستين. ألقى نظرة أخيرة إلى الطاولة الملأى بالمجلات وإلى المذود المفكك، وعلى علب الكرتون المليئة بالصور:

«سآتيكما بالمجلات، وأشكركما كثيراً على رفع الضائقة عني...

- لا شكر على واجب. فعلنا ذلك من أجلك. إن ما تحتاجه هو الزواج يا سيد نسيب. فلو كنت متزوجاً لما تعرضت لهذا النوع من التعاسة....

- مع كل تلك الفتيات العازبات في المدينة...المميزات...

- أنا أعرف واحدة ممتازة لك، يا سيد نسيب. فتاة شريفة، ليست من هؤلاء المثقفات اللواتي لا يفكرن إلا بالسينما والرقص... فاضلة، حتى أنها تجيد العزف على البيانو. إنما هي فقيرة...»

كان لدى تينك المرأتين العجوزين هوس في تدبير الزيجات. ضحك نسيب: «عندما أقرر الزواج سآتي مباشرة إلى هنا، لأختار عروساً.»

عن البحث الميؤوس

بدأ بحثه الميؤوس في مرتفع أونياون. كان الرجل ذو الجسم الضخم مدفوعاً إلى الأمام، يتصبب عرقاً، وسترته تحت ذراعيه. جاب نسيب إيليوس من أقصاها إلى أقصاها في ذلك الصباح الأول المشمس بعد الفصل الطويل من الأمطار. كانت ثمة حيوية مرحة تسود الشوارع حيث المزارعون والمصدرون والتجار، يتبادلون

الهتافات والتهاني. كان يوماً من أيام السوق، المتاجر ممتلئة والعيادات الطبية والصيدليات مزدحمة. وفي نزوله وصعوده المنحدرات مجتازاً شوارع وساحات، كان نسيب ينهال بالشتائم.

عند وصوله البيت، في المساء، وقد أضناه التعب من التجوال المضني ومن سرير ريزوليتا، أجرى حساباته لليوم التالي: ينام حتى الساعة العاشرة، حينما يبدأ شيكو موليزا وبيكو فينو بخدمة الزبائن الأُوَل، بعد أن ينظفا الحانة. ثم ينام حتى السادسة، بعد الغداء، حيث يلعب الغامون أو الداما مع نيو غالو والنقيب، ويتحدث مع جوان فولجنسيو، ويطّلع على المستجدات المحلية وأنباء العالم. وبعد أن يُغلق الحانة، يقوم بجولة على الكباريهات وينهي الليل، من يدري؟ مرة أخرى مع ريزوليتا، وبدلاً من هذا، كان يركض في شوارع إيليوس ويصعد أخاديد الرابية... ففي أونياون ألغى الاتفاق مع الخلاسيتين اللتين اتفق معهما لمساعدة فيلومينا في إعداد عشاء شركة الأوتوبيس. إحداهما أعلنت وهي تضحك من فمٍ بلا أسنان، أنها تعرف طهو الأطباق الاعتيادية. أما الأخرى فإنها لا تعرف طهو حتى هذه الأطباق... فالأكاراجي والآبارا، والحلوى والموكيكا لا يصنعها إلا ماريا ده سان جورجي...

سأل نسيب هنا وهناك وانحدر من الجانب الآخر للرابية. إن العثور على طاهية في إيليوس قادرة على ضبط مطبخ حانة كان أمراً صعباً، ومستحيلاً تقريباً.

سأل في المرفأ، مر بمنزل عمه: «ألا تعرفون بالمصادفة، طاهية ما؟»، وسمع عمته تُبدي أسفها: كان لديها واحدة لا بأس بها، مع أنها لم تكن ذات أهمية، تركت الشغل دون أن يعرفوا لماذا ولا إلى أين... وها هي العمة الآن، تطهو بنفسها طالما لم تظهر أخرى. لماذا لا يأتي نسيب لتناول الغداء معهم؟

أخبروه عن واحدة، مشهورة، تعيش في مرتفع كونكيستا، «إنها رائعة»، قال له الذي أخبره، الإسباني فيليبي، الماهر ليس في إصلاح الأحذية والجزمات فقط، إنما في إصلاح السروج أيضاً. كما انه مفوَّه وخصم عنيد في لعب الداما، وسليط اللسان

والقلب ولا يحمل ضغينة، كان يمثل في إيليوس أقصى اليسار، ويُعلن عن نفسه أنه فوضوي، في كل خطوة، مهدداً بتنظيف العالم من الرأسماليين والكهنة مع كونه صديقاً لعدد من المزارعين ويخالطهم في الأكل مع الكاهن باسيليو. كان يغني وهو يضرب الأرض بنعليه ويُنشد أناشيد فوضوية، وحينما يلعب الداما مع نيوغالو، من المستحسن سماع الشتائم التي يوجهانها ضد الكهنة.

لقد أبدى اهتماماً كبيراً بمأساة نسيب ذات العلاقة بالطهو.

«تُدعى ماريازينيا، إنها خارقة.»

ذهب نسيب إلى كونكيستا، كان الأخدود لا يزال زلقاً بسبب الأمطار. وضحك جمع من الزنجيات الصغيرات عندما وقع أرضاً موسِّخاً طرفي سرواله. ومن استعلام إلى استعلام، وجد بيت الطاهية - كان في أعلى المرتفع. إنه منزل من الخشب والزنك. تلك المرة كان يسير بأمل معين. وأكد له السيد إدواردو صاحب البقرات الحلوبة، خصائص ماريازينيا. كانت تعمل في بعض الأوقات في بيته، ولديها مزاج في التذوق. إنما النقص الوحيد فيها، كان الشرب. فهي مدمنة ملحوظة على احتساء العرق. وعندما تثمل لا تطاق. فقد أساءت الاحترام إزاء الدونا ماريانا، ولهذا طردها إدواردو.

«لكن لبيت رجل أعزب مثلك...»

سكيرة أم لا، إذا كانت طاهية جيدة فإنه سيتفق معها. أقله، باتظار العثور على أخرى.

أخيراً، اكتشف الكوخ البائس، وكانت ماريازينيا جالسة عند بابه ، حافيةُ القدمين، تمشط شعرها الطويل وتقصع القمل. إنها امرأة ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمرها، استنفدها الشرب، لكنها لا تزال تحتفظ ببقايا من مَلاحة في وجهها الخلاسي. ظلت تستمع إليه حاملةً المشط بيدها. بعد ذلك ضحكت كأن العرض أطربها:

- أنا، لا. فأنا أطهو لزوجي فقط، ولنفسي. إنه حتى لا يريد سماع كلام بهذا الصدد.

وجاء صوت الرجل من الداخل:

«من، يا ماريازينيا؟»

- إنه طبيب يبحث عن طاهية. يقدم لي عرضاً... يقول إنه يدفع جيداً...

- قولي له بأن يذهب إلى الشيطان الذي يحمله. فهنا لا توجد أية طاهية.

- إنك ترى؟ هو هكذا. إنه حتى لا يريد سماع كلام عن استخدامي. غيرة... يثير شغباً كبيراً لسبب تافه... إنه رقيب في الشركة.

كانت تتحدث بفرح لتظهر كم هي ذات قيمة.

- ما الذي لا تزالين تتعاطينه مع الغريب يا امرأة؟ أطردي الرجل قبل أن أثور...

- من الأفضل أن تذهب لتخصي القط...

عادت إلى تمشيط شعرها، تبحث عن القمل بين خيوط الشعر، وساقاها مبسوطتان للشمس. فهز نسيب كتفيه:

«ألا تعرفين واحدة»؟

لم تُجب. هزت رأسها فقط. وانحدر نسيب من لاديرا فيتوريا عبر المقبرة. كانت المدينة في الأسفل، تلمع تحت ضوء الشمس، وكثيرة الحركة. وكانت الباخرة التابعة لشركة إيتا الواصلة عند الصباح الباكر، تفرغ حمولتها. لعنة البلد: يتكلمون كثيراً في التقدم، وهو لا يمكنه الحصول على أية طاهية:

«من أجل هذا بالضبط، أوضح له جوان فولجنسيو عندما توقف العربي في مكتبة وقرطاسية موديلو ليرتاح، تصبح اليد العاملة صعبة وغالية بسبب الطلب. من يدري قد تجدها في السوق؟

السوق الأسبوعية كانت عيداً، صاخبة ومنوعة. تمتد من الأرض أمام المرسى حتى جوار السكة الحديد، حيث شرائح اللحم المقدد بالشمس والمدخن لخنازير

ونعاج وغزلان وحيوان الباكا وطرائد صيد مختلفة. أكياس من دقيق المنيهوكا. موز بلون الذهب، أبو بورا أصفر، وجيلو أخضر وكيابو وبرتقال. وفي الخيم كانوا يقدمون في أطباق من الصفيح، ساراباتيل، فيجواد، وموكيكا السمك والفلاحون يأكلون، وكؤوس العرق إلى جانبهم.

سال نسيب زنجية بدينة تضع تمثالاً صغيراً على رأسها وعقوداً وأساور، فركت أنفها:

«أعمل لديك؟ لا! لينجني الله...

ثمة عصافير بريش غير اعتيادي، ببغاوات ثرثارة.

- كم تريدين ثمن الأشقر أيتها السيدة؟

- ثمانية آلاف ريال لحضرتك...

- باهظ جداً بشكل غير معقول.

- لكنه ثرثار في الحقيقة، يعرف كل كلمة.

غنَّى الببغاء، كأنه يبرهن تقليده الأصوات «هنا يا سيدي». ومرَّ نسيب بين أكوام من الأطعمة المتخثرة. وكانت الشمس تلمع فوق أثمار الجاكا الصفراء الناضجة. وزعق الببغاء: «تاباريو! تاباريو!». إن أحداً لا يعرف طاهية.

وكان ثمة أعمى مع قرعة على الأرض، يغني على قيثارة، قِصصاً من أوقات الصراعات:

«أمانسيو، رجل مقدام
مطلق نار من الدرجة الأولى
أشد منه إقداماً لا يوجد
إلا جوكا فيريرا
في الليلة المعتمة
إذا التقيا في الأرض القفار

يقول فيريرا: «من هناك؟»
«إنه رجل وليس وحشاً»
يجيب السيد أمانسيو
ويده على البندقية
وترتجف حتى السعادين
في الليلة المعتمة».

كان العميان أحياناً جيدي الاطلاع، لكنهم لا يعرفون صياغة الأخبار. جاء بعضهم من السرتون ويقولون عن طعام إيليوس إنه طاعون. لا يعرفون الطهو، والطعام عندهم هو طعام بيرنامبوكو وليست تلك القذارة هناك، حيث لا أحد يعرف ما هو الطعام الجيد.

عرب فقراء، بائعون جوالون على الطرقات، كانوا يعرضون حقائبهم المفتوحة، حاجيات تافهة، قطعاً رخيصة من قماش الشيت، عقوداً زائفة ومدهشة للنظر، خواتم لماعة من الزجاج، عطوراً تحمل أسماء أجنبية، مصنوعة في سان باولو. وخلاسيات وزنجيات خادمات في البيوت الثرية، كُنّ يتكوّمْنَ أمام الحقائب المفتوحة.

«اشتري يا زبونة، اشتري. إنها رخيصة...» اللفظ مضحك والصوت يُغوي.

مساومات طويلة. عقود على الصدور الزنجية، والأساور في الأذرع الخلاسية. إنه إغراء! وزجاج الخواتم يشع تحت الشمس حتى الماس لا يشع مثله.

«كله حقيقي، من أفضل الأصناف.»

قاطع نسيب نقاش الأسعار، هل يعرف أحد طاهية جيدة؟ نعم يا سيدي، توجد واحدة، جيدة، للفرن والطبخ، لكنها كانت خادمة للآمر دومينغوس فيريرا، وهي لا تعيش حياة خادمة.

بسط البائع الجوال قرطاً أمام نسيب:

«إشترِ، يا ابن الوطن، هدية لامرأتك، لعروسك، لعشيقتك.»

واصل نسيب طريقه، غير مبالٍ بكل الإغراءات. وكانت الزنجيات الصغيرات يشترين بالقيمة المضاعفة ما ثمنه أقل من النصف. وكان رجل، بائع دوّار، مع أفعى أليفة وتمساح صغير، يُعلن الشفاء من كل الأمراض لجمع يتحلق حوله. كان يعرض زجاجة تحتوي على دواء عجائبي، من اكتشاف الهنود في الغابات الأبعد من مزارع الكاكاو.

«يشفي من السعال والرشح والسل والرمل والحصباء والجدري والملاريا والصداع والتهاب اللوزتين وكل الامراض المخزية، ويشفي من النزلات الصدرية والروماتيزم...»

يمكن الحصول على تلك الزجاجة من الدواء بثمن زهيد، ألف وخمسمائة ريال. الأفعى ترتقي ذراع البائع الدوار، والتمساح على الأرض بلا حراك كأنه حجر غريب.

كان نسيب يسأل الناس واحداً واحداً.

«لا أعرف طاهية، أيها السيد. أنا عامل بناء...»

قِلَلُ من الفخّار، جرار، أباريق للماء القراح، قدور من الفخار، طابخو الكوسكوس، وجياد. عجول، كلاب، ديكة، قبضايات مع بنادقهم، رجال يمتطون جيادهم، جنود الشرطة، وصور تحمل مشاهد من الغدر، من الجنازة والزواج، تساوي قرشاً، قرشين، كروزادو، عمل أيدٍ ماهرة وذات معرفة في الأرتيزانا. جرع زنجي بطول نسيب، جرعة واحدة وبصق على الأرض:

«عرق من الصنف الأول، ليتمجد سيدنا يسوع المسيح.»

ثم أجاب عن السؤال المضني:

- لا أدري، كلا يا سيدي. هل تعرف أنت يا بيدرو باكا، طاهية؟ من أجل الكولونيل...

لم يكن الآخر يعرف. ربما في «سوق العبيد» لكن الآن لا يوجد أحد. ولا واحدة من مواطني السرتون حديثي الوصول.

لم يكلف نسيب نفسه عناء الذهاب إلى سوق العبيد خلف السكة الحديد حيث يتجمع المهاجرون القادمون من السرتون، الهاربون من الجفاف، بحثاً عن العمل. هناك كان الكولونيلات يتعاقدون مع عمال وقبضايات، والعائلات تبحث عن خادمة. لكن لم تكن ثمة خادمة في تلك الأيام. ونصحوه بأن يبحث في بونتال.

أقله لم يكن عليه أن يصعد المرتفع، فركب القارب واجتاز المرسى. مشى في الطريق الترابية الممدودة تحت الشمس، فيما كان الأطفال الفقراء يلعبون كرة القدم بكرة صنعوها من جورب. لكن إوكليديس، صاحب مخبز هناك، انتزع منه الأمل:

- طاهية؟ لا تفكر بهذا... لا جيدة ولا رديئة. في مصنع الشوكولاتة يربحن أكثر. وعبثاً البحث.

عاد إلى إيليوس، تَعِباً ونعسان. في هذه الساعة يجب أن تكون الحانة مفتوحة، وفي يوم السوق، الحركة فيها قائمة. إنها تحتاج إلى حضوره، إلى اهتماماته بالزبائن، إلى حيويته، الحديثه، إلى لُطفه... والخادمان - إنهما معتوهان! - بمفردهما لا يُبديان اهتماماً. لكن في بونتال حدّثوه عن امرأة عجوز كانت طاهية تحظى بتقدير، عملت في بيوت متنوعة وتعيش مع ابنة لها متزوجة، قرب ساحة سيابرا. فصمم على أن يجرب حظه:

«بعدها أذهب إلى الحانة...»

كانت المرأة العجوز قد ماتت منذ أكثر من ستة أشهر، وأرادت ابنتها أن تخبره قصة المرض، فلم يكن لدى نسيب وقت للاستماع. لقد اجتاحه شعور بالخيبة، ولو استطاع لذهب إلى منزله لينام. دخل ساحة سيابرا حيث يُقام مبنى المحافظة، ومقر نادي التقدم. كان سيجترُّ أحزانه عندما التقى فجأة الكولونيل راميرو باستوس، جالساً على أحد المقاعد، ، في مواجهة القصر البلدي مستمتعاً بالشمس. دعاه الكولونيل إلى الجلوس إلى جانبه:

- منذ وقت لم أرَك يا نسيب. كيف حال الحانة؟ إنها تتقدم دائماً؟ أقله هذا ما أتمنى.

- حدثت لي اليوم مصيبة يا كولونيل... فطاهيتي رحلت. وقد فتشت في إيليوس بأسرها، رحت حتى إلى بونتال، ولم أعثر على من تُحسن الطهو...

- ليس الأمر سهلاً. يجب أن توصي باستقدامها من الخارج، أو من الحقول...

- مع عشاء الروسي جاكوب غداً...

- إنها الحقيقة. فأنا مدعو، وقد أذهب.

إبتسم الكولونيل، مسروراً بالشمس التي كانت تثير المرح على زجاج نوافذ المحافظة وتدفئ جسمه المتعب.

عن صاحب البلاد الذي تدفئه الشمس

لم يُفلح نسيب في متابعة جولته، فالكولونيل راميرو باستوس لم يترك له المجال. ومن ذا الذي يناقش أمراً للكولونيل عندما كان يصدره وهو مبتسم كما لو أنه يتوسل؟

«ثمة متسع من الوقت. هيا نتحدث قليلاً.»

في الأيام المشمسة كان الكولونيل راميرو باستوس عند الساعة العاشرة تماماً، يعبر الشارع وهو متكئ على عصاه ذات القبضة الذهبية، وبخطى وئيدة لكنها لا تزال ثابتة، قادماً من بيته، يدخل ساحة المحافظة، ويجلس على أحد المقاعد.

«أتت الافعى لتتدفأ تحت الشمس...» قال النقيب وهو ينظر إليه من باب دائرة استيفاء الرسوم، في مواجهة مكتبه وقرطاسية موديلو.

رآه الكولونيل أيضاً، فنزع قبعته وهي من طراز بناما وأحنى رأسه ذا الشعر الأبيض. فأجاب النقيب على التحية بتحية مماثلة.

كانت تلك الحديقة هي أجمل حدائق المدينة. وقالت ألسنة السوء إن للمحافظ اهتمامات خاصة من أجل الأرض المشاع في جوار منزل الكولونيل راميرو. لكن الحقيقة هي أن في ساحة سيابرا كانت تُقام أيضاً عمارة المحافظة، مقر التقدم ودار سينما فيتوريا التي يقيم في الطابق الثاني منها فتيان عازبون، ويوظفون قاعة أمامية لنادي روي باربوزا بالإضافة إلى المباني ذات الطبقتين، وأفضل المنازل في المدينة. ومن الطبيعي أن تكون السلطات العامة ترعى الساحة بحنان خاص. وقد حظيت بالحدائق أثناء إحدى حقب حكومة الكولونيل راميرو.

في ذلك النهار كان الرجل العجوز مرحاً وراغباً بالكلام. ثم أشرقت الشمس أخيراً من جديد. وكان الكولونيل يتحسسها في ظهره المقوس، ففي يديه البارزتي العظام، وداخل قلبه أيضاً. وكانت شمس الصباح تلك، متعته، وترَفه، ومرحه الأفضل في الثانية والثمانين من عمره. وعندما تهطل الأمطار، كان يشعر بأنه تعيس، فيبقى في قاعة الاستقبال، على مقعده المصنوع من الخيزران، مهتماً بالناس، مستمعاً إلى المطالب، واعداً بالحلول. كان عشرات الأشخاص يتوافدون يومياً. لكن عندما يكون النهار مشمساً، كان ينهض عند الساعة العاشرة، معتذراً، كائن من كان موجوداً، يتناول عصاه ويذهب إلى الساحة، حيث يجلس على أحد المقاعد في الحديقة، ثم لا يلبث أن يحضر أحد ما ليغدو في صحبته. وكانت عيناه تتنزهان في الساحة وتتركزان على عمارة المحافظة. كان الكولونيل راميرو يراقب كل ذلك، كأنه مُلكه الخاص. فقد كان ذلك من حقه بمعنى ما، إذ إنه وأنصاره حكموا إيليوس عدة سنين.

إنه عجوز جاف، ومقاوم عنيد للشيخوخة. كانت عيناه الصغيرتان تحتفظان ببريق نفوذ رجل اعتاد على إصدار الأوامر، ولكونه أحد كبار مزارعي المنطقة، فرض نفسه زعيماً سياسياً محترماً ومقداماً. تسلّم الحكم خلال الصراعات على تملُّك الأرض، عندما سقط سلطان كازوزا أوليفيرا. فقد أيد العجوز سيابرا وسلمه هذا المنطقة.

أصبح محافظاً مرتين، والآن هو شيخ إيالي. وكل سنتين يغير المحافظ، في انتخابات على حد الريشة، لكن لا شيء يتغير في الواقع، إذ إن السلطة كان يمارسها الكولونيل راميرو نفسه، من كانت صورته الطويلة، تُرى في القاعة المهيبة في المحافظة، حيث تُعقد المؤتمرات والاحتفالات. وكان أصدقاؤه الاوفياء، وأقرباؤه يخلفونه في المسؤولية، لكنهم لم يكونوا يحركون إصبعهم بدون موافقته. فابنه، طبيب الأطفال والنائب الإيالي، ترك وراءه سمعة جيدة كإداري ناجح. فقد شقّ طرقات وساحات، وزرع حدائق، وأثناء إدارته بدأت المدينة تغير ملامحها.

كان الناس يقولون بأن الامور حدثت على هذا النحو، لكي يسهلوا انتخاب الفتى في المجلس الإيالي. لكن الحقيقة هي أن الكولونيل راميرو كان يُحب المدينة على طريقته، كما يُحب حديقة منزله، وبستان مزرعته. ففي حدائق منزله زرع شجر التفاح وشجر الإجاص، أغراس استقدمت من أوروبا. كان يُحب أن يرى المدينة نظيفة (بهذا الهدف سعى إلى حصول المحافظة على شاحنات)، طرقاتها معبدة ، ذات أرصفة وحدائق، وشبكة جيدة للمجاري. وكان يشجع إقامة البيوت الجميلة، ويبتهج عندما يتحدث الغرباء عن ميزة إيليوس بساحاتها وحدائقها. بيد أنه من جهة أخرى، صم أذنيه، بعناد، عن مسائل معينة، واحتجاجات متنوعة: إقامة مستشفيات، تأسيس مدرسة ثانوية للمحافظة، شقّ أوتوسترادات الداخل، إنشاء ملاعب للألعاب الرياضية. كان ينظر بريبة إلى نادي «التقدم» ولم يشأ سماع كلمةٍ عن تنظيف المضيق بالجرافات. لكنه لم يكن يرعى هذه الأمور إلا عندما كان يشعر أن هيبته مهددة. هكذا كان بالنسبة إلى الأتوستراد، وهو إنجاز المحافظتين، محافظة إيليوس، ومحافظة إيتابونا. وكان ينظر بريبة إلى بعض المشاريع والعادات الجديدة. وبما أن المعارضة كانت مقتصرة على فريق صغير من الناقمين، ضعيف وبدون فاعلية جدّية، كان الكولونيل يفعل ما يريده تقريباً، مع ازدراء كبير للرأي العام. مع هذا، وبالرغم من عناده، كان يشعر في الأوقات الأخيرة أن هيبته غير المناقش فيها، وكلمته التي هي

بمثابة قانون، بدأتا بالاهتزاز. ليس بسبب المعارضة التافهة، ولكن بسبب النمو الذاتي للمدينة والمنطقة اللتين بدتا أنهما تريدان الخروج من تسلط يديه المرتجفتين. ألم تنتقدنه حفيداته أنفسهن لأنه جعل المحافظة ترفض تقديم مساعدة لنادي التقدم؟ وجريدة كلوفيس كوستا، ألم تخش مناقشة مشكلة المدرسة الثانوية؟ وكان يسمع حديث الحفيدات: «جدنا شخص متخلف!».

كان يتفهم ويقبل بالكباريهات، وببيوت بائعات الهوى، وبالعربدة الجامحة لليالي إيليوس. فالرجال بحاجة إلى ذلك، وهو أيضاً كان شاباً. لكن ما لم يفهمه هو ناد لفتيان ولفتيات يثرثرون حتى ساعة متأخرة، ويرقصون مثل هذه الرقصات الحديثة، بحيث أن نساء متزوجات يدُرنَ في أذرعٍ أخرى ليست أذرع أزواجهن، إنها قلة حياء! فالمرأة للعيش داخل المنزل لترعى أولادها وأسرتها. والشابة العزباء هي فقط لانتظار الزوج، وعليها أن تجيد الخياطة والعزف على البيانو، وإدارة المطبخ. لم يستطع رغم كل جهوده، أن يمنع تأسيس النادي. إن موندينيو فالكون هذا، القادم من الريو، قد تحرر من رقابته، ولم يأتِ لزيارته ولا لاستشارته، فكان يقرِّر حسب ما يشاء، ويفعل ما يريد.

كان الكولونيل يشعر بارتباك، أن المصدّر عدوه، ويسبب له وجع رأس. كانا، في الظاهر يحتفظان بعلاقات ممتازة. إذ عندما يلتقيان، وهذا نادر الحدوث، يتبادلان كلمات رقيقة، والتأكيدات على الصداقة وعلى وضع كل منهما نفسه في تصرف الآخر. لكن موندينيو هذا بدأ يحشر أنفه في كل الأمور، وكان عدد الأشخاص المحيطين به يتكاثر، وكان يتحدث عن إيليوس، وعن حياة المدينة وازدهارها كما لو أنها من صلاحياته، كما لو أن لديه سلطة ما. كان ينتمي إلى أسرةٍ مُعتادة على القيادة في جنوب البلد، فلدى شقيقيه مكانة ومال. وبالنسبة إليه، فالكولونيل راميرو كان غير موجود. ألم يكن هذا تصرفه عندما قرر فتح جادة على الشاطئ؟ لقد ظهر على حين غرة في المحافظة مع التصاميم، كمالك لمساحات من الأرض، لمشاريع كاملة.

زوَّده نسيب الكولونيل بالأخبار الجديدة. وكان هذا الأخير على علم بجنوح الباخرة التابعة لشركة إيتا.

«وصل على متنها مونديني فالكون. قال إن مسألة المضيق...

- إنه رجل غريب!... قال الكولونيل مقاطعاً. أي شيطان جاء يبحث عنه في إيليوس حيث لم يخسر شيئاً؟ «كان ذلك الصوت القاسي للرجل الذي أحرق مزارعاً، واقتحم دساكراً، وصفى أناساً بدون شفقة. فارتعد نسيب.

«غريب...»

كأن إيليوس لم تكن أرضاً للغرباء، للناس القادمين من كل الأنحاء. لكن الأمر كان مختلفاً. فالآخرون قد وصلوا بِضعَةٍ، وانحنوا سريعاً أمام سلطة آل باستوس. كانوا يريدون أن يكسبوا مالاً فقط، وأن يتمركزوا، وأن يدخلوا الغابات. ألم يُبدوا اهتماماً «لتقدم المدينة والمنطقة»؟ ألم يقدّموا آراءً بصدد احتياجات إيليوس؟ فقبل بضعة أشهر كان كلوفيس كوستا، وهو صاحب مجلة أسبوعية، يبحث عن الكولونيل راميرو باستوس. كان يريد أن يُنشئ شركة لإصدار جريدة يومية. لديه آلات طباعة، موجودة في باهيا، ويحتاج إلى رأس المال. زوده بتوضيحات مطولة: جريدة يومية تعني خطوة جديدة في تقدم إيليوس، وستكون الجريدة الأولى في المنطقة الداخلية من الولاية.

كان الصحافي يسعى لاكتتاب على المال بين المزارعين، فيصيرون جميعاً شركاء في الجريدة، جهازاً في خدمة الدفاع عن مصالح منطقة الكاكاو. لكن الفكرة لم تعجب راميرو باستوس. دفاع ضد من أو ضد ماذا؟ من كان يهدد إيليوس؟ الحكومة، على سبيل المثال؟ المعارضة كانت شيئاً تافهاً، مقرفاً... بدت الجريدة اليومية له ترفاً أجوف. وإذا كان محتاجاً لأي شيء آخر، فهو على استعداد للمساعدة. لكن من أجل جريدة يومية، كلا...

خرج كلوفيس يائساً. وشكا لتونيكو باستوس، الابن الآخر للكولونيل، وهو

الكاتب العدل في المدينة. كان يستطيع الحصول على قليل من المال من مزارع أو من آخر. لكن رفض راميرو يعني رفض الأغلبية. سوف يسألونه عندما يتكلم معهم:

«بِكَم اكتتب الكولونيل راميرو؟»

لم يفكر الكولونيل في الموضوع بعد ذلك. كانت مسألة الجريدة اليومية هذه خطراً على سلطته. يكفي ألا يحقق يوماً طلباً لكلوفيس، لتصير الجريدة في المعارضة: فتتدخل في المشاريع البلدية، وتبعثر سمعته، وتمرِّغها في الوحل. وبرفضه وضع نهائياً، حجراً فوق الفكرة. وكل الذي قاله حينما جاء تونيكو ليلاً ليحدثه في المسألة، راوياً له شكوى كلوفيس:

«هل أنت بحاجة إلى جريدة يومية؟ أنا أيضاً لست بحاجة. إذاً، فإيليوس ليست بحاجة.» وتكلم عن أمور أخرى.

ولكم كانت مفاجأته عظيمة، عندما رأى» على أعمدة الساحة وعلى الجدران، إعلانات عن الظهور المقبل للجريدة، فاستدعى تونيكو:

«ما قصة هذه الجريدة؟

– جريدة كلوفيس؟

– أجل. ثمة أوراق تقول إنها سوف تصدر.

– آلات الطباعة وصلت ورُكزت.

– كيف هذا؟ لقد رفضتُ دعمي! فمن أين حصل على المال؟ في باهيا؟

– بل هنا بالذات يا أبي. موندينيو فالكون...»

ومن شجع على تأسيس نادي التقدم، ومن زود فتيان التجارة بالمال لتأسيس أندية كرة القدم؟ إن ظل موندينيو فالكون كان يخيم في كل الأنحاء، واسمه يرن بإلحاح متزايد في أذني الكولونيل. لا يزال العربي نسيب يتكلم حتى الآن، عنه وعن وصوله معلناً عن قدوم مهندس وزارة النقل لدرس قضية المضيق. من كلفه باستقدام

المهندسين، من عهد إليه مهمة حل مشكلات المدينة؟ ومنذ متى يمارس سلطة فيها؟»

«من كلفه بهذه المهمة؟»

إستجوب صوت العجوز الخشن، نسيب كأن هذا الاخير يتحمل أي مسؤولية.

«آه، أنا لا أعرف شيئاً عن هذا... إني أبيع السمك بالسعر الذي اشتريته...»

كانت أزهار الحديقة الملونة تلمع في ضوء النهار الرائع، والعصافير تغرد على الأشجار المحيطة. اكفهر وجه الكولونيل، ولم يعد لدى نسيب الشجاعة للانصراف؛ وفجأة بدأ يتكلم. إذا كانوا يظنون أنه انتهى، فهم مخدوعون. فهو لم يَمُتْ بعد، وليس هو عديم النفع. يريدون صراعاً؟ سيكون لهم ذلك! فهل قام بغير هذا في حياته؟ كيف زرع حقوله ووضع علامات على التخوم الشاسعة لمزارعه، وبنى حكمه؟ فهو لم يرث عن والديه، ولا ترعرع في ظل أخويه، في العواصم الكبرى مثل موندينيو فالكون هذا... كيف قضى على خصومه السياسيين؟ لقد شق طريقه في الغابة، البارابيللوم بيده والمسلحون يتبعونه. أي مواطن في إيليوس مُسن، يستطيع أن يقص ذلك. فلم ينس أحد حتى الآن هذه القصص. وموندينيو فالكون هذا، مضلل جداً. لقد جاء من الخارج، ولا يعرف تاريخ إيليوس، كان من الأفضل له أن يستعلم مسبقاً...

كان الكولونيل يضرب إسمنت الرصيف بطرف عصاه، ونسيب يستمع بصمت.

قاطعه الصوت الودود للمدرس جوزويه:

– صباح الخير أيها الكولونيل. إنك تتشمس؟

ابتسم الكولونيل ومد يده إلى الشاب:

– أتحدث مع الصديق نسيب. إجلس. في سني، كل ما تبقى لي هو أن أتشمس...

– ما هذا يا كولونيل. إن قلة من الشبان توازيك.

– كنت أقول لنسيب إني ما زلت غير مدفون. هناك من يفكر هنا بأني لم أعد أساوي شيئاً...

– لا أحد يفكر بهذا أيها الكولونيل. قال نسيب.

غيَّر راميرو باستوس الموضوع، فسأل جوزويه:

– كيف تسير الأمور في ثانوية إينوش؟

كان جوزويه مدرِّساً ونائباً لمدير الثانوية.

– إنها تسير حسناً، حسناً جداً، لقد سويت أوضاعها قانونياً. لإيليوس الآن ثانويتها. هذا نبأ عظيم.

– سُويت أوضاعها قانونياً؟ لم أكن أعلم... فالحاكم أرسل من يقول لي إن ذلك لن يكون قبل بدء السنة، وإن الوزارة لا تستطيع أن تفعل ذلك قبل هذا الوقت. فذلك ممنوع. ولقد أبديتُ اهتماماً كبيراً بالقضية.

– في الواقع أيها الكولونيل، تنجز تسوية الأوضاع القانونية، مبدئياً، في بداية السنة دائماً، قبل بدء الصفوف. لكن إينوش طلب من مونديني فالكون حينما ذهب إلى الريو...

– آه!

– ... وحصل من الوزير على استثناء. والآن لامتحانات هذه السنة، سيكون للثانوية مفتش اتحادي. وهذا نبأ عظيم لإيليوس...

– لا شك في ذلك... لا شك في ذلك.

كان المدرّس الشاب يواصل كلامه، ونسيب يتحيَّن الفرصة للانصراف، لكن الكولونيل لم يكن يستمع إليهما. كان تفكيره بعيداً. أي شيطان كان يفعله ابنه ألفريدو في باهيا؟ نائب أيالي، يدخل القصر ويتحدث مع الحاكم في أية ساعة. أي شيطان يفعله؟ ألم يُرسله هو ليطلب تسوية أوضاع الثانوية؟ له ولا لأحد غير إينوش والمدينة كانت ستحصل على تسوية أوضاع الثانوية لو أن الحاكم المستنهض من قبل ألفريدو، كان في الواقع مهتماً بالأمر. فهو لم يعد يذهب إلى باهيا تقريباً في الأوقات الأخيرة. فقّد كانت جلسات مجلس الشيوخ والسفر بمثابة تضحية. وها هي النتيجة: طلباته من الحكومة تنام في الوزارات، تجرجر في المسالك العادية للبيروقراطية، وأثناء ذلك...

الثانوية ستُسوى أوضاعها القانونية من كل بد في بداية السنة القادمة، بعث الحاكم يقول له، إن طلبه سيستجاب بسرعة. كان راضياً وقد أبلغ الخبر إلى إينوش مركزاً على السرعة التي استجاب بها الحاكم لطلبه.

«في السنة المقبلة، سوف تحظى ثانويتك بالرقابة الاتحادية.»

شكره إينوش، لكنه أضاف: «من المؤسف أننا لم نحصل عليه مباشرة، يا كولونيل. فلسوف نخسر سنة، وسيذهب أولاد كثيرون إلى باهيا.

- مضت المهلة يا عزيزي، ففي منتصف السنة، يستحيل الحصول على الاعتراف. ما عليك سوى الانتظار قليلاً.

والآن، فجأة، يأتي هذا النبأ. الثانوية، سُويت أوضاعها خارج نطاق المهلة، وذلك بفضل جهد موندينيو فالكون. لسوف يذهب إلى باهيا، ليُسمع الحاكم بعض الكلمات... فهو لن يقبل أن يتم التعامل معه بسخرية ولا أن يجري التلاعب بسطوته؟ ما الذي يقوم به ابنه، بحق الشيطان، في المجلس النيابي للولاية؟ فهذا الفتى لا يحظى حقاً بأي إمكانية ليصبح سياسياً. كان طبيباً جيداً، إدارياً جيداً لكنه كان مائعاً، لن يصير مثله، لن يعرف كيف يفرض إرادته. والآخر تونيكو لا يفكر إلا بالنساء، ولا يريد أن يعرف شيئاً عدا ذلك...

«إلى اللقاء يا بني. قل لإينوش إني أبعث إليه بالتهنئة. كنت أنتظر النبأ من لحظة إلى أخرى...»

بقي وحيداً في الساحة. لم يعد يشعر بمتعة الشمس، واكفهر وجهه. كان يفكر في الأيام السابقة، حينما كانت هذه الأمور يسيرة الحل، عندما كان أحدٌ ما يسبب إزعاجاً، يكفي استدعاء خلاسي فيعده بنقود، ويلفظ له اسم الشخص. أما اليوم فالأمر مختلف. لكن موندينيو فالكون مخدوع. فإيليوس تتغير كثيراً في هذه السنوات... هذه حقيقة. والكولونيل راميرو كان يسعى لإدراك هذه الحياة الجديدة، إيليوس هذه الجديدة التي تولد من رحم إيليوس الأخرى التي كانت مدينته. لقد اعتقد أنه

فهمها، شعر بمشكلاتها، وباحتياجاتها. ألم يجمّل المدينة، وينشىء ساحات وحدائق، ويعبد شوارع، ويشق حتى الأوتوسترادات بالرغم من تعهداته للإنكليز ذوي السكة الحديد؟ فلماذا إذاً، هكذا فجأة، تبدو المدينة هاربة من يديه؟ لماذا بدأ الجميع يفعلون ما يريدون، لحسابهم الخاص، بدون الاستماع إليه، بدون أن ينتظروا أوامره؟ ماذا كان يجري في إيليوس يجعل المدينة غير مفهومة منه ويخرجها من سلطته؟

لم يكن رجلاً يترك نفسه ينهزم بدون صراع. كانت تلك بلاده، ولا أحد صنع من أجلها أكثر من راميرو باستوس، لا أحد سينتزع منه عصا القيادة، أياً كان. كان يشعر أن عهداً جديداً من الصراع يقترب مختلفاً عن صراع تلك العهود السابقة، وربما أكثر صعوبة.

نهض وانتصب كأنه يشعر قليلاً بثقل السنين. كان بوسعه أن يكون أكثر تقدماً في العمر، لكنه لم يكن بعد مدفوناً. وما دام حياً فهو الذي يأمر هناك.

ترك الحديقة واجتازها إلى القصر. أدى له الجندي المتأهب عند الباب، التحية، فابتسم الكولونيل راميرو باستوس.

التآمر السياسي

في الساعة ذاتها التي كان الكولونيل راميرو باستوس يدلف فيها إلى مبنى المحافظة، والعربي نسيب يصل إلى حانة فيزوفيو بدون أن يكون قد عثر على الطاهية، كان موندينيو في منزله على الشاطئ يروي للنقيب:

«إنها معركة يا عزيزي. سوف لن تكون سهلة أبداً.

أبعد الفنجان، ومد ساقيه ثم تمطّى على المقعد. كان قد مرّ سابقاً إلى المكتب، ودعا صديقه إلى البيت ليتحدثا عن أخباره الجديدة. ارتشف النقيب جرعة من القهوة، وأراد معرفة التفاصيل:

«لكن، من أين جاءتك كل هذه المقاومة؟ في النهاية، إيليوس ليست مجرد دسكرة. إنها محافظة تدر أكثر من ألف كونتو.»

– ما هذا يا صديقي؟ الوزير ليس كليّ القدرة. عليه أن يهتم بمصالح الحكام. وحكومة باهيا تريد الاستماع إلى كل شيء إلا عن مضيق إيليوس. فكل كيس من الكاكاو يخرج من المرفأ يعني مالاً للأرصفة هناك. وصهر الحاكم مرتبط بجهاز موظفي الأرصفة. قال لي الوزير: «يا سيد مونديينو، سوف تسبّب لي المشاكل مع حاكم باهيا.»

– هذا الصهر غير لائق، وهو ما لا يريد الكولونيلات أن يفهموه. حتى اليوم كانوا يتناقشون حول جنوح باخرة إيتا. إنهم يؤيدون حكومة تنتزع كل شيء من إيليوس ولا تعطينا شيئاً.

– بخلاف ذلك... يمكن القول إن السياسيين عندنا لا يقومون بشيء.

– إيه نعم! إنهم يضعون المصاعب بوجه الأشغال الضرورية للمدينة. إنها بلادة بدون اسم. وراميرو باستوس يضم ذراعيه إلى صدره، ويفتقر إلى رؤية، والكولونيلات يسيرون على منواله.

إن العجلة التي سادت في مكتب مونديينو، وجعلته يهمل عملاءه، ناقلاً مواعيده التجارية المهمة إلى ما بعد الظهر قد اختفت الآن، وهو يجني قلة صبر النقيب. كان عليه أن يترك الآخر يقدم له الزعامة السياسية، يجعله يتوسل، مأخوذاً بالمفاجأة، ويتوسل اليه بإلحاح. نهض ومشى حتى النافذة، ورمق البحر الذي يتكسر عند الشاطئ، والنهار الشمس.

«أتساءل أحياناً، يا نقيب، لماذا جئت لأزج نفسي هنا؟ أخيراً كان بوسعي أن أتمتع بالحياة، في الريو وفي سان باولو. وحتى الآن سألني أخي النائب إميليو: «أما تعبت بعد من جنون إيليوس هذه؟ لا أدري ما الذي جعلك تدخل في هذا النفق.» أنت تعلم أن عائلتي تتاجر بالبنّ، أليس كذلك؟ منذ سنوات عديدة...»

كان يدق بأصابعه على النافذة كمن يعزف على قيثارة، وهو ينظر إلى النقيب:

«لا تفكر بأني أشكو، فالكاكاو عمل جيد، رائع. لكنك لن تستطيع المقارنة بين الحياة هنا والحياة في الريو. ومع هذا، لا أريد الإياب. فهل تعرف لماذا؟

كان النقيب يتمتع في تلك الساعة، بالحميمية مع المُصدِّر. كان يشعر أنه معتز بتلك الصداقة المهمة:

«إني أعترف بفضولي، وهو ليس فضولي فقط، إنما فضول جميع الناس. لماذا جئت أنت إلى هنا، فهذا أحد الغاز البلاد...

– لماذا جئت، ليس لهذا الأمر أهمية. أما لماذا بقيت، فهذا هو السؤال الذي يجب أن يُسأل. عندما نزلت من الباخرة هنا واستضفت في فندق كويليو، كانت لدي في اليوم الأول، الرغبة في الجلوس عند الممر، والشروع بالبكاء.

– كل هذا التأخر...

– إسمع: أعتقد أن هذا هو بالضبط ما أمسك بي. إنه هو بالضبط... بلاد جديدة، غنية، حيث كل شيء سيتحقق، كل شيء يبدأ. كل ما كان على وجه العموم رديئاً يجب أن يتبدل. إذا جاز القول، ثمة حضارة ستقام.

أيده النقيب:

– حضارة ستُقام، قول حسن...» قديماً، في زمن الشغب، كان يقال إن الذي يصل إلى إيليوس لن يغادرها أبداً. فالأقدام تلتصق بعسل الكاكاو، وتبقى حبيسة إلى الأبد. ألم تسمع أنت هذا الكلام؟

– بالطبع سمعته! لكن بما أني مُصدِّر ولست مزارعاً، أعتقد أن قدميَّ بقيتا حبيستين في وحل الشوارع. إنها أعطتني رغبة في البقاء لأنشئ شيئاً ما. لا أدري إذا كنت تفهمني.

– كلياً.

– واضح أني لو لم أكسب مالاً، لو لم يكن الكاكاو تجارة جيدة كما هي، لما بقيت. لكن هذا وحده لم يكن كافياً لاستبقائي. أعتقد أن لديّ روح الطليعي.

قال ذلك وضحك.

- لهذا فأنت تتدخل في أمور كثيرة؟ إني أفهم... تشتري أراضي، تشق طرقات، تبني بيوتاً، توظف مالاً في المشاريع المختلفة...

عدد النقيب أعمال موندينيو وقدر، في الوقت نفسه، مدى اتساعها. كان المُصدّر حاضراً تقريباً في كل ما أنجز في إيليوس: إنشاء الفروع الجديدة للمصارف، شركة الأوتوبيس، الجادة على الشاطئ، الجريدة اليومية، الفنيون القادمون من أجل تشذيب أشجار الكاكاو، المهندس المعماري المجنون الذي أشاد بيوتاً وأصبحت الآن هي النموذج، فتزايد عمله.

وأضاف ضاحكاً مع تلميح إلى الراقصة الواصلة في باخرة إيتا عند الصباح:

«حتى فنانة مسرح قد جلبت...

- جميلة، أليست كذلك؟ مسكينان! التقيت الاثنين في الريو وهما لا يدريان ماذا يفعلان. كانا يريدان السفر لكن لم يكن لديهما نقود حتى لشراء بطاقة السفر. لقد تحولت إلى متعهد فني...

- في هذه الظروف يا عزيزي، ليس لك أي فضل. حتى أنا كنت لاقوم بالأمر نفسه. يبدو أن الزواج ينتمي إلى الأخوية...

- أية أخوية؟

- أخوية القديس كورنيليوس، أخوية الأزواج المستقيلين، الطيبين بطبيعتهم...»

«ماذا...؟ ليسا متزوجيْن. سأل موندينيو مستغربا» هؤلاء الناس لا يتزوجون. يعيشان معاً، لكن كل واحد منهما على حدة. ماذا تظن أنها تفعل عندما لا تجد مكاناً لترقص؟ بالنسبة إلي، ليس سوى كسر رتابة الرحلة. فقد انتهت الآن. إنها بتصرفكم. معها يكفي أن تدفع يا عزيزي.

- الكولونيلات سوف يفقدون عقولهم... لكن لا تخبرهم بأنهما غير متزوجيْن. فالمثل الأعلى عند كل كولونيل هو أن ينام مع امرأة متزوجة. إنما إذا أراد أحد أن ينام

مع نسائهم، فهنا... لكن لنعد إلى موضوع المضيق... هل أنت حقاً مستعد للمضي قدماً في الأمر؟

- بالنسبة إلي، إنها الآن مسألة شخصية، ففي الريو، أقمتُ اتصالاً مع شركة بواخر شحن سويدية. إنهم مستعدون لإنشاء خط مباشر إلى إيليوس، حالما يصبح المضيق في ظروف تؤهله لمرور السفن بغاطس معين.

كان النقيب يستمع بانتباه، ويجتر أفكاراً معينة تقلقه منذ وقت طويل، مشاريع سياسية معينة. وقد حانت الساعة لوضعها قيد التنفيذ. إن قدوم موندينيو إلى إيليوس كان بَرَكة من السماء. لكن كيف يستقبل هو مثل هذه الاقتراحات؟ كان ضرورياً أن يمضي بحذر، ويفوز بثقته، فيقنعه.

وكان موندينيو يجلس بوداعة بإعجاب الآخر، ومأخوذاً بالثقة استرسل في حديثه:

«أنظر يا نقيب، عندما قَدِمت إلى هنا...» توقف برهة كما لو أنه تساءل عن جدوى ما سيقوله.» كان ذلك أشبه بالهروب.» وران صمت جديد. «ليس من الشرطة! بل من امرأة. ذات يوم سأروي لك القصة بكاملها، وليس اليوم. أنت تعرف ما هو العشق؟ لهذا جئت وتركت كل شيء. كانوا قد حدثوني عن إيليوس، عن الكاكاو. فجئت لأرى كيف هو، ولم أرحل قطّ. والباقي أنت تعرفه: شركة التصدير، حياتي هنا، الصداقات الطيبة التي أقمتها، والحماسة التي لدي تجاه البلاد. ليس ذلك من أجل المشاريع أو المال فقط، إنك تفهم؟ كان بوسعي أن أربح مثل ربحي هنا أو أكثر في تصدير البن. لكنني هنا أفعل شيئاً ما، أنا شخص محترم، أتعرف؟ أفعل كل ذلك بيدي...»

ونظر إلى يديه الناعمتين اللتين كان يعتني بهما جيداً وأصابعهما المطلية بطلاء الأظفار كأنهما يدا امرأة.

«بالمناسبة، أريد أن أحدثك...

- انتظر. دعني أُنهي حديثي. جئت لأسباب حميمة، ;هارب. لكن إذا كنت قد

بقيت فبسبب شقيقيَّ، فأنا أصغر الثلاثة، الولد الأخير، الأصغر وقد وُلدت قبل الأوان. فكل شيء كان قائماً، ولم أكن بحاجة لبذل أي جهد للحصول على أي شيء. كان لزاماً عليّ أن أترك الأمور تجري. إنما كنت فقط الثالث دائماً. أولاً الاثنان الآخران. لكن ذلك لم يكن ليعنيني.

كان النقيب يسبح في الفرح، ووصلت تلك الاسرار في الوقت المناسب. لقد جعل نفسه صديقاً لموندينيو فالكون منذ وصول المصدّر إلى إيليوس ، عندما أسس هذا الاخير مؤسسته التجارية. وكونه جابياً اتحادياً، استدعي لتوجيه الرأسمالي. راح يرافقه، ويشكل له مرشداً. أخذه إلى مزرعة ريبيرينيو، إلى إيتابونا، إلى بارانجي، إلى آغوا بريتا، شرح له عادات البلاد، حتى أنه أوصى له على نساء.

وكان موندينيو بدوره رجلاً بدون موقف، ودوداً، طيب المعشر. شعر النقيب في البدء أنه فخور فقط بالحميمية إزاء ذلك الثري القادم من الجنوب، من عائلة معروفة في الأعمال والسياسة، شقيق نائب، وله أقرباء دبلوماسيون. أخوه الأكبر كان مرشحاً لأن يصبح وزيراً للعدل. إنما بعد ذلك، مع مضي الوقت ومضاعفة نشاط موندينيو، بدأ يفكر ويخطط: هوذا رجل قادر على مواجهة آل باستوس، وإلحاق الهزيمة بهم...

«كنت طفلاً مدللاً. لم يكن لدي ما أفعله في المجتمع، فالشقيقان يحلان كل شيء. عندما أصبحت رجلاً، بقيت بنظرهما طفلاً. تركاني ألهو، فسيصل دوري في ما بعد، «ساعة مسؤوليتي» كما كان يقول لوريفال...

تجهّم وجهه عند كلامه عن أخيه البكر. «هل تفهمني؟ لقد تعبت من كوني لا أفعل شيئاً لأني الأخ الأصغر. ربما لم أقاوم قطّ، واستسلمت لتلك الميوعة، وللحياة الرغيدة... وهنا ظهرت تلك المرأة... مسألة لا حل لها...» كانت عيناه الآن قد اتجهتا نحو البحر، أمام النافذة المفتوحة، بيد أنهما كانتا تنظران إلى ما بعد أفق الذكريات والصور التي كان وحده يتبينها.

«جميلة هي؟

إبتسم موندينيو فالكون ابتسامة قصيرة:

– كلمة جميلة إهانة عند التكلم عنها. هل تعرف ما هو الجمال يا نقيب؟ الكمال المطلق؟ فامرأة مثلها لا توصف بالجميلة.»

مرر يده على وجهه كمن يبدد رؤى:

– أخيراً... في الجوهر، أنا راضٍ. فأنا اليوم لم أعد شقيق لوريفال أو إميليو ميناديس فالكون. إنما أنا هو نفسي. وهذه هي بلادي، ولدي مؤسستي، وسأقلب أيها النقيب، إيليوس، رأساً على عقب، وأجعل منها...

قاطعه النقيب:

– ... عاصمة كما كان يقول الدكتور اليوم، أكمل النقيب.

– هذه المرة، نظر إليَّ شقيقاي بشكل آخر. كانا قد فقدا الأمل برؤيتي أعود فاشلاً، خفيض الرأس. الحقيقة هي أنني ما كنت سيئاً إلى هذا القدر، أليس كذلك؟.

– لا بأس؟ تباً، لقد وصلت بالأمس، وها أنت المصدِّر الأول للكاكاو.

– لم أبلغ هذا حتى الآن. فآل كوفمان يصدّرون أكثر. وستيفسون أيضاً. لكنني سأتخطاهم. غير أن الذي يشدني أكثر هو هذه البلاد التي هي في طور الإنشاء، بداية كل شيء. كل شيء فيها جاهز لأن يُعمل ، بوسعي أن أفعل كل ذلك. أقله، أضاف مصححاً، أن أساعد في إنجازه. هذا أمر محفزٌ لرجل مثلي.

– هل تعلم ما يروون الآن؟

نهض النقيب ومشى في القاعة. لقد أزِفت اللحظة المناسبة.

«ماذا؟ كان موندينيو ينتظر، ويخمن كلمات الآخر.

– إن لديك طموحات سياسية. حتى اليوم...

– طموحات سياسية؟ ما فكرت بذلك قط، أقله بشكل جدّي. لم أفكر سوى بجني المال، ودفع تقدم البلاد.

– كل هذا جميل جداً، وكله شرف لك. لكنك لن تستطيع أن تفعل نصف ما تفكر به طالما لم تمارس السياسة، ولم تسع إلى تغيير الوضع القائم.

- كيف؟ كان ورق اللعب على الطاولة واللعب قد بدأ.

- أنت نفسك قلت: على الوزير أن يُلبي طلب الحاكم. والحكومة لا تُبدي اهتماماً، والسياسيون هنا حمير وحشية. والكولونيلات لا يرون شبراً أبعد من أنوفهم. بالنسبة إليهم المسألة هي زرع الكاكاو وجنيه. والباقي لا يهمهم. ينتخبون بُلهاء للمجلس، ويصوتون لمن يأمر به راميرو باستوس. والمحافظة من يدي ابن راميرو إلى يدي عرابه.

- لكن الكولونيل مع ذلك يفعل شيئاً ما...

- يعبّد شوارع، يفتح ساحات، يزرع زهوراً. هذا كل ما في الامر. أوتوسترادات؟ لا فائدة من التفكير فيها. فمن أجل إنشاء أوتوستراد إلى إيتابونا خيض صراع عنيف. فقد التزام مع الإنكليز أصحاب السكة الحديد. وهكذا دواليك... أما المضيق؟ فلديه التزام مع الحاكم... كأن إيليوس قد توقفت منذ عشرين سنة...»

كان موندينيو الآن هو الذي يُصغي بصمت، فيما النقيب يتكلم بلهجة تنم عن المحبة، يريد الإقناع. وفكر موندينيو: إنه على صواب، لم تعد حاجات الكولونيلات تتماشى والبلاد السريعة التقدم.

«أعترف أنك على صواب...

- بالطبع أنا على صواب! «ربت النقيب كتف المُصدِّر وقال: يا عزيزي، حتى لو أنك لا تريد ذلك، فما عليك إلا الانخراط في السياسة...

- ولماذا؟

- لأن إيليوس ، وأصدقاءك، والشعب يدعونك!.

تكلم النقيب بأبهة، وهو يبسط ذراعه كأنه يلقي خطاباً، فأشعل موندينيو فالكون لفافة:

- إنه أمر باعث على التفكير... ورأى نفسه يصل إلى المجلس الاتحادي، منتخباً نائباً عن أرض الكاكاو، تماماً مثلما قال لإيمليو.

- لا يمكنك أن تتصور...، عاد النقيب إلى الجلوس، راضياً عن نفسه. لا يتكلمون على شيء آخر. جميع الذي يهتمون بتقدم إيليوس، وإيتابونا، والمنطقة بأكملها. أناس كثيرون، يستحيل إحصاؤهم.

- هذا أمر يستدعي المناقشة. لا أقول نعم ولا أقول لا. فلا أريد أن ألقي بنفسي في مغامرة مضحكة.

- مغامرة؟ لو قلت لك إنها ستكون أمراً سهلاً، وإنها لن تكون معركة، فإنني أكذب عليك. ستكون ثمة قسوة، لا شك في ذلك. لكن الشيء المؤكد هو أن بوسعك الفوز بفارق كبير.

- إنه أمر يستحق التفكير... ردد موندينيو فالكون.

ابتسم النقيب. فموندينيو كان بادي الاهتمام. ومن هنا إلى أن يلتزم لم يبق سوى خطوة. وفي إيليوس لا أحد سوى موندينيو فالكون قادر على مواجهة حكم الكولونيل راميرو باستوس. وحده يستطيع الثأر للنقيب فقط. أليس آل باستوس هم الذين تغلبوا على العجوز كازوزينيا وأرغموه على تدمير نفسه في صراعات سياسية تافهة، بحيث لم يبق لديه ما يترك للنقيب أي فنتيم من إرثه، فاضطر إلى العيش على راتب وظيفة عامة؟

ابتسم موندينيو فالكون، فالنقيب كان يقدِّم له السلطة، أو أقله، وسائل الحصول عليها. هذا ما كان يرغب به تماماً.

«إنه أمر يستدعي التفكير؟ فالانتخابات تقترب. ويجب البدء به حالاً.

- هل تفكر حقاً بأنني سأحظى بتأييد، وهل هناك أناس مستعدون للسير معي؟

- عليك أن تقرر فقط. أنظر: قصة المضيق هذه يمكن أن تصبح حاسمة. وهي مسألة تُثير الشعب كله، وليس الشعب هنا فقط، إنما شعب إيتابونا وشعب إيتابيرا، والداخل بأسره. وسترى. سيترك وصول المهندس أثراً عميقاً.

- وبعد المهندس، ستأتي الجرافات والقاطرات...

– ولمن تدين إيليوس في كل هذا؟ هل رأيت الورقة التي بين يديك؟ أفضل من لعبة ورق ملغومة. هل تعرف ما هو التدبير الذي ستتخذه؟

– أي تدبير؟

– سلسلة مقالات في الدياريو تفضح الحكومة، والمحافظة، وتبيّن أهمية مسألة المضيق. أُنظر، لدينا جريدة أيضاً.

– مهلاً، إنها ليست لي. دفعت مالاً للمساعدة، لكن ليس لكلوفيس كوستا أي التزام معي. وأعتقد أنه صديق لآل باستوس. أقله صديق تونيكو، وهما متلازمان...

– إنه صديق لمن يدفع له أكثر. أتركه لي.»

أراد المصدّر أن يوضح آخر تردد له:

«هل يساوي الأمر حقاً هذا العناء؟ فالسياسة دائماً قذرة جداً... لكن إذا كانت لخير البلاد... كان يشعر أنه مضحك بعض الشيء، وأضاف: ربما تكون مسلية.

– يا عزيزي، إذا أردت أن تحقق مشاريعك وأن تخدم إيليوس، فليس لديك وسيلة أخرى. فالمثالية وحدها لا تكفي.

– هذه هي الحقيقة....

طُرق الباب، فذهبت الخادمة لتفتحه. واذا بالدكتور ذي الملامح الجريئة يهتف:

«ذهبت إلى مكتبك لأهنئك بسلامة القدوم، فلم أجدك، ثم جئت إلى هنا لأرحب بك.»

كان العرق يتفصد منه، من تحت القبة المقلوبة والقميص ذي الصدر المنشى.

«ماذا رأيك يا دكتور، إذا رشحنا موندينيو فالكون في الانتخابات المقبلة؟

«أسرع النقيب في القول. فرفع الدكتور ذراعيه هاتفاً:

«نبأ عظيم! مؤثر! «واستدار نحو المصدّر:

«إذا كان بوسع مساعداتي المتواضعة أن تفيدك بأي شيء...»

تطلع النقيب إلى موندينيو كأنه يقول له: «أرأيت أني ما كذبت عليك؟ أفضل رجال إيليوس....

- لكنه لا يزال سراً يا دكتور.

جلس الثلاثة، وشرع النقيب يشرح الأواليات السياسية للمنطقة، العلاقات بين مالكي الأصوات، والمصالح الفاعلة. فالدكتور إيزكييل برادو مثلاً، وهو رجل له أصدقاء كثيرون بين المزارعين، كان غير راضٍ عن آل باستوس الذين لم يجعلوه رئيساً للمجلس البلدي...

عن فن الكلام
على حياة الآخر

شمّر نسيب عن ساعديه، وراح يراقب الزبائن. كانوا جميعهم تقريباً في تلك الساعة أناساً غرباء، جاؤوا إلى المدينة من أجل السوق الأسبوعي. كان ثمة بعض المسافرين من باخرة إيتا عند مرورها ترانزيت إلى موانئ الشمال. فالوقت لا يزال مبكراً على زبائنه الاعتياديين. أمسك بيكو فينو، وانتزع الزجاجة من يديه:

«ما هذا؟ إنها زجاجة من الكونياك البرتغالي.

- أهل سبق أن رأيتم مثل هذا؟ دفع بموظفه إلى طاولة البيع. قدم لهؤلاء الفلاحين كونياكاً حقيقياً؟...» تناول زجاجة أخرى عليها البطاقة نفسها والشكل نفسه، إنما الكونياك البرتغالي فيهاممزوج بالكونياك الوطني، خدعة من العربي لزيادة الأرباح.

- إنها ليست لهؤلاء، كلا يا سيد نسيب، فهي لشخصيات الباخرة.

- وما الفارق؟ هل هم أفضل من الآخرين؟ الكونياك النقي والفيرموث الخالص، ونبيذ البورتو والماديرا، هي مخصصة لزبائن معينين، زبائن كل يوم، وللأصدقاء. إنه لا يستطيع الابتعاد عن الحانة. فالخادمان يبدآن على الفور بوضع أقدامهما بأيديهما. وإذا لم يكن حاضراً سوف ينتهي بخسارة أمواله. فتح صندوق التسجيل. هذا اليوم، سيكون يوماً مليئاً بالحركة وبالتعليقات أيضاً. فرحيل فيلومينا لم يسبب له خسارة مادية وتعباً فقط، إنما انتزعت منه أيضاً هدوء النفس ومنعته من تركيز انتباهه على الأمور الجديدة المتعددة، إضافة إلى كثير من الأمور القابلة للتعليق عليها عندما يصل الأصدقاء! بالنسبة لنسيب، لا شيء أكثر لذة - إذا وضعنا جانباً المرأة والطعام - من أن التعليق على المستجدات، وإطلاق التحليلات حولها. فالتكلم على الحياة الحميمة كان فناً سامياً، المتعة القصوى للمدينة. فن يبلغ أقصى تأنقه عند العوانس. « إن مجلس الألسنة السامة منعقد» كما يقول جوان فولجنسيو عند رؤيته لُهن أمام الكنيسة، في ساعة طلب البركة. ولكن أليس في مكتبة وقرطاسية موديلو، حيث يفرض جوان فولجنسيو سيطرته بين الكتب والدفاتر وأقلام الرصاص وأقلام الحبر، كانت تجتمع «المواهب» المحلية إلى الألسنة الجارحة كألسنة العوانس؟ فهناك في الحانات، وقرب أرصفة المرفأ، وفي جولات البوكر، في كل الأنحاء، كانوا يتكلمون على الحياة الحميمة، ويعلقون على الأحداث.

حتى أن أحدهم قال لنيوغالو إن مغامراته في بيوت العاهرات أصبحت موضعاً للنقاشات. أجاب بصوته الأخن:

«يا بني، أنا لا أبدي اهتماماً. أعرف أنهم يتكلمون عليّ، فهم يتكلمون على كل الناس. فأنا أجهد، كمواطن صالح، لأن أزودهم بمواضيع للنقاش.»

كان ذلك موضوع لهو المدينة الرئيسي. وبما أنهم جميعاً لا يحوزون على طبع هزلي كنيوغالو، فأحياناً كانت تحدث مشاجرات في الحانات، حيث يطلب بعض المتعالين تفسيراً، ملوحين بمسدساتهم. بحيث لم يكن ذلك فناً مجانياً بدون خطر.

في ذلك اليوم، كانت ثمة أمور كثيرة يجري التعليق عليها: أولاً قضية المضيق، وهو موضوع معقّد، متداخل في تفاصيل مختلفة، مثل جنوح الباخرة التابعة لشركة إيتا، وقدوم المهندس، ونشاط مونديني فالكون («ما الذي يريده هذا الرجل؟» كان الكولونيل مانويل داس أونساس يتساءل)، والثورة العنيفة للكولونيل راميرو باستوس. كان هذا الموضوع المعقد وحده مشوقاً بما يكفي. لكن كيف ينسون زوج الفنانين، المرأة الفائقة الحسن وذاك الأمير القميء بسحنته الشبيهة بسحنة فأر جائع؟ إنه موضوع دقيق ومغر، أفسح في المجال لنُكات النقيب وجوان فولجنسيو، ولتعليقات نيوغالو الساخرة، ولقهقهات ممتعة. ولم يلبث تونيكو باستوس، أن أخذ يلاحق الراقصة، لكن هذه المرة كان يتقدمه مونديني فالكون. ولم يكن المصدِّر قد أتى بها بالتأكيد شغفاً برقصاتها، وبسيجار زوجها. ثمة عشاء شركة الأوتوبيس في اليوم التالي ومعرفة لماذا لم يُدعَ فلان وفلان. ثم، النساء الحديثات العهد في الكباريه، وقضاء الليل مع ريزوليتا...

تعمد نيوغالو المجيء إلى الحانة. فلم يكن يأتي عادة في مثل هذا الوقت. كان عليه أن يكون في دائرة جباية الرسوم:

«إقترفت حماقة أثناء العودة إلى البيت بعد وصول باخرة إيتا. فقد نمت حتى الآن. أعطني كأساً، سأذهب إلى العمل...»

قُدِّم له المزيج الاعتيادي من الفيرموث والعرق.

ابتسم نيوغالو قائلاً: «والعوراء، هيه؟ لقد كنت عظيماً البارحة ، أيها العربي، عظيماً جداً! «ثم أكد بعد ذلك في تحقيق واقعة ما: «نوعية النسوة على تَحسن، لا شك في هذا.

- ما رأيت قط امرأةً بهذه الخبرة...»

وأسر له نسيب ببعض التفاصيل:

«لا أصدق!مستحيل!»

وصل الزنجي الصغير تويسكا مع صندوق مسح الأحذية، جالباً رسالة من الشقيقتين دوس ريز: كل شيء كان مُعداً، وبوسع نسيب أن يصبح مرتاحاً. وبعد الظهر سترسلان طبقين.

«بمناسبة الكلام على الاطباق، قدم لي شيئاً ما مع الكأس... شيئاً ما يثير الشهية.

- ألا ترى أنه لا يوجد؟ بعد الظهر فقط. لقد رحلت طاهيتي...

«لماذا لا تتعاقد مع ماشادينيو أو «مس» بيرانجي؟» قال له نيوغالو ممازحاً.

كان يعني الشخصين المختلفين رسمياً في المدينة. الخلاسي ماشادينيو، الدائم النظافة والهندام، وهو «غاسل ثياب محترف» كانت العائلات تعهد إلى يديه الرقيقتين بالبذلات المصنوعة من قماش الكتان، والبذلات المصنوعة من قماش الشيت الأبيض، والقمصان الرقيقة، والياقات الصلبة. والزنجي المخيف، خادم في بنسيون كايتانو، يُرى شكله في الليل على الشاطئ ساعياً وراء انحرافاته. وكان الفتيان يقذفونه بالحجارة، صارخين بلقبه «مس بيرانجي! مس بيرانجي!».

غضب نسيب من هذه النصيحة الساخرة:

«إذهب واعبث في مكان آخر!...»

- أنا ذاهب حالاً، ذاهب إلى الكتب. سأنجز عملي، وأعود بعد قليل ، وأريد أن أعرف ما الذي جرى ليلة أمس، بكل التفاصيل.

بدأت الحركة في الحانة تتزايد. وشاهد نسيب من بين الجموع على الشاطئ النقيب والدكتور يسيران إلى جانب موندينيو فالكون. كانوا يتحدثون بارتياح، والنقيب يؤشر، ومن آن لآخر يقاطعه الدكتور. وكان موندينيو يُصغي، موافقاً بهز رأسه. ثمة أمر ما...

فكر نسيب. أي شيطان كان يفعله المصدّر في البيت (إذ كان قادماً من البيت بالتأكيد) في تلك الساعة برفقة الإشبيينين؟ لقد نزل من الباخرة في ذلك الصباح، وتغيب شهراً تقريباً. كان على موندينيو البقاء في مكتبه مستقبلاً الكولونيلات، مناقشاً

أعماله، ومشترياً كاكاو. إن موندينيو فالكون هذا يبتدع المفاجآت، يفعل كل شيء بشكل مختلف عن الآخرين. ها هو قادم، كأن لا أعمال لديه تتطلب حلاً، ولا زبائن ليلبّي طلباتهم. إنه يتحدث بارتياح واضح مع صديقيه.

سلم نسيب صندوق التسجيل لبيكو فينو، وتقدم باتجاه الرصيف.

«هل عثرت على طاهية؟ سأله النقيب وهو يهم بالجلوس.

– لقد تسكعت في إيليوس كلها... حتى ولا أثر...

– كونياك يا نسيب. من الصنف الحقيقي، هيه! طلب موندينيو.

– وبعض أقراص السمك المقدد...

– بعد الظهر فقط...

– ما هذا التدهور أيها العربي ؟

فضحك النقيب:

– سوف تخسر زبائنك. سنغير الحانة... قال النقيب ممازحاً.

– سيكون كل شيء موجوداً بعد الظهر. أوصيتُ الشقيقتين دوس ريز.

– حسناً...

– حسناً؟ إنهما تتقاضيان ثروة... إنني أخسر نقوداً.»

– إن ما أنت بحاجة إليه يا نسيب، هو تحديث حانتك، وشراء ثلاجة ليكون عندك ثلج خاص بك، وآلات حديثة... نصحه موندبنيو فالكون.

«ما أنا بحاجة إليه، هي طاهية...

– إبعث بطلب واحدة من سيرجيبي.

– وبانتظار ذلك؟»

كان يراقب الجو التآمري للأشخاص الثلاثة، الابتسامة الراضية من النقيب، والحديث المتقطع، والمنتهي بشكل مفاجيء. وصل شيكو موليزا بطبق الشراب فجلس نسيب:

- يا سيد موندينيو، أي شيطان فعلته للكولونيل راميرو باستوس؟

- للكولونيل؟ لم أفعل شيئاً. لماذا؟

كان دور نسيب أن يتصنع إفشاء السر:

- لا شيء....

ربت النقيب البادي الاهتمام ظهره، وقال بلهجة الشخص المسيطر:

- أفصح أيها العربي. ماذا حدث؟

- التقيته اليوم، أمام المحافظة، كان جالساً يتمتع بدفء الشمس. حديث يذهب وحديث يأتي، فأخبرته أن السيد موندينيو وصل اليوم، وأن المهندس سيأتي... أثرت حفيظة العجوز، كان يريد أن يعرف ماذا يريد السيد موندينيو بهذا، ولماذا يتدخل في ما لا يُطلب منه.

قاطعه النقيب:

- أرأيتم؟ قاطعه النقيب. القنال...

- ليس هذا فقط. فعندما كان يتكلم وصل المُدرِّس جوزويه وأخبره أن الثانوية حصلت على اعتراف رسمي بها. وهنا انتفض الرجل. يبدو أنه قد طلب من الحكومة ذلك لكنه لم يحصل على شيء. فضرب الأرض بعصاه، ثائراً على الحياة.

تمتع نسيب بصمت الأصدقاء، بالانطباع الناجم عن روايته. لقد ثأر من جوهم التآمري الذي وصلوا فيه إلى الحانة. وسوف لن يتأخر في معرفة ما كانوا يدبرون. وتكلم النقيب:

- غاضب، هيه؟ سوف يغضب أكثر، هذا المشعوذ العجوز. يعتقد أنه مالك لكل شيء هنا...

وقرر الدكتور:

- بالنسبة إليه، فإيليوس جزء من مزرعته. ونحن أهالي إيليوس مجرد أجراء، ومتعاقدين... أضاف الدكتور.

لم يقل موندينيو فالكون شيئاً. كان يبتسم. وأمام باب دار السينما ظهر ديوجينيس والزوج من الفنانين. شاهدوا الآخرين جالسين إلى الطاولة، عند رصيف الحانة، فاتجهوا إلى هناك.

– هذا هو الأمر بالضبط. فأنت يا سيد موندينيو بالنسبة إليه شخص «غريب».

سأل المُصدِّر:

– «غريب»؟ قال المصدر.

– نعم، غريب. هذه كانت الكلمة التي استعملها.

لمس موندينيو فالكون ذراع النقيب وقال: «باستطاعتك البحث عن الرجل أيها النقيب. لقد اتخذت قراري. هيا نعزف الموسيقى لكي نرقص العجوز...» وجَّه هذا الكلام إلى نسيب.

نهض النقيب وأفرغ كأسه. فيما وصل الزوج من الفنانين. وفكر نسيب: أي شيء كان الآخرون يخططون له؟ حيا النقيب رفيقيه:

«أعذراني، كنت خارجاً لأمر طارىء.

نهض الرجال عن الطاولة، أبعدوا الكراسي.

كانت آنابيلا تبتسم بشكل مثير، تحت المظلة المفتوحة. وبسط الأمير، يده الطويلة النحيلة، والمتوترة. فسأله الدكتور:

«متى العرض الأول؟

– غداً... سوف ننظم الأمر مع السيد ديوجينيس.»

أوضح مالك القاعة، بصوته المتردد والمتذمر، كصوت مغني تراتيل دينية:

– أعتقد أنه يستطيع أن يكون راضياً. فالأولاد يُحبون ألعاب الخفة هذه، وحتى الناس الكبار يحبونها. لكنها...

– ولماذا لا؟ أجابه موندينيو فيما كان نسيب يقدم كؤوساً جديدة.

حَرَش ديوجينيس لحيته قائلاً:

- أنت تعلم يا سيدي أننا في مكان لا يزال متخلفاً. ورقصاتها هذه، وهي عارية تقريباً، لا تشجع العائلات على الحضور.

وأكد نسيب:

- ستمتلئ القاعة بالرجال...

كان ديوجينيس مضطرباً، لماذا لا يوضح لهم؟ إنه لا يريد الاعتراف بأن ذلك يجعله هو البروتستانتي والحيي، مُهاناً برقصات آنابيلا الجريئة:

«هذا جيد في الكباريه... وليس ملائماً لدار السينما.»

اعتذر الدكتور، المجامل والمهذب، عن المدينة أمام الفنانة المبتسمة:

- أعذرينا أيتها السيدة. بلد متخلف لا يستوعب الجرأة في الفن. إنهم يرون هذا غير أخلاقي...

وقال صوت لاعب الخفة الأبح والعميق كأنه خارج من القبر:

- إنها رقصات فنية.

- واضح، واضح... لكن.

- إذن! سيد ديوجينيس... علق موندينيو.

- في الكباريه تستطيع أن تربح أكثر. لتعمل مع زوجها في دار السينما، وبعدها ترقص في الكباريه...

إن عبارة تربح أكثر لفتت نظر الأمير... وأرادت آنابيلا معرفة رأي موندينيو:

«ما الذي تقترحه؟

- لا بأس، أليس كذلك؟ سحرٌ في دار السينما، ورقص في الكباريه... تمام...

- وصاحب الكباريه؟ هل سيبدي اهتماماً؟

- سوف نعرف هذا عاجلاً...

ثم توجه إلى نسيب:

– نسيب، إعمل لي معروفاً: استدع ولداً يدعى زيكا ليما، أريد التحدث إليه. بسرعة، ليأت حالاً.

نادى نسيب الزنجي الصغير تويسكا الذي خرج راكضاً. فموندينيو كان يمنح بقشيشاً بسخاء. وفكر العربي في الصوت الآمر للمُصدِّر. كان يشبه صوت الكولونيل راميرو باستوس عندما كان لا يزال أصغر سناً، عندما كان يأمر ويُملي القوانين. سوف يحدث أمر ما.

تزايدت الحركة، فوصل زبائن جدد بعثوا الحيوية في الطاولات. وكان شيكو موليزا يركض من جانب إلى آخر. وحضر نيوغالو مجدداً، وانضم إلى الجمع. كما حضر الكولونيل ريبيرينيو وعيناه تلتهمان الراقصة. كانت آنابيلا تتوهج بين جميع أولئك الرجال، وكان الأمير ساندرا، بسِحْنَةِ مَنْ هو قليل التغذية، وشريف جداً، من على مقعده، يجري حسابات للأموال التي سيكسبها هنا... إنها ساحة يمكن العيش فيها والانتعاش مجدداً.

«فكرة الكباريه هذه ليست سيئة.

– أي فكرة؟ أراد ريبيرينيو أن يعرف.

– سوف ترقص في الكباريه.

– وفي دار السينما ؟

– في دار السينما، لن يكون سوى أعمال السحر للعائلات، وفي الكباريه رقصة النقب السبعة...

– في الكباريه؟ رائع... ستثير هيجاناً... لكن لماذا لا ترقص في دار السينما؟ لقد فكرت...

– رقصات حديثة يا كولونيل. النقب تتساقط الواحد تلو الآخر...

– واحد بعد الآخر؟ السبعة كلها؟

– العائلات قد لا تُحب ذلك...

- آه! هذا مثير... واحد بعد الآخر... كلها؟ من الأفضل حقاً في الكباريه... أكثر حيوية.»

ضحكت آنابيلا، وحدقت إلى الكولونيل بعينين واعدتين. وكرر الدكتور:

- بلاد متخلفة. حيث يُطرد الفن إلى الكباريهات.

- حتى طاهية لا يعثر المرء عليها. أبدى نسيب أسفه.

هبط المدرِّس جوزويه الشارع برفقة جوان فولجنسيو. إنها ساعة الكؤوس فاتحة الشهية. كانت الحانة تغصُّ بالناس. وكان نسيب ذاته مضطراً إلى التنقل بين الطاولات، يقدم الطلبات. ويحتج الزبائن على الأطعمة المالحة والحلوى، والعربي يكرر توضيحاته، ويكيل اللعنات على العجوز فيلومينا. وأراد الروسي جاكوب وهو يتصبب عرقاً، ومنبوش الشعر الأشقر، أن يعرف مآل عشاء اليوم التالي:

«لا تقلق، فلست عاهرة لأنقض تعهداتي.»

جوزويه، الرجل الاجتماعي جداً، قبَّل يد آنابيلا. واحتج جوان فولجنسيو الذي لم يكن يختلف إلى الكباريه، على احتشام ديوجينيس:

- فضيحة، أمر تافه! إنه تديُّن هذا البروتستانتي.»

كان موندينيو فالكون يجوب بنظره الشارع منتظراً عودة النقيب. وبين الفينة والأخرى، كان هو والدكتور يتبادلان النظرات. وكان نسيب يتابع بنظراته، قلة صبر المصدِّر. إنهما لن يخدعانه. لا بد أن أمراً ما كان يجري الإعداد له.

سحبت نسمة ريح من البحر مظلة آنابيلا التي تركتها مفتوحة إلى جانب الطاولة. اندفع نيوغالو وجوزويه والدكتور والكولونيل ريبيرينيو، للإمساك بها. وحدهما موندينيو فالكون والأمير ساندرا بقيا جالسين. لكن الذي أتى بها هو الدكتور إيزكييل برادو الذي وصل وعيناه منتفختان من السكر.

«تحياتي، سيدتي...

تنقلت عينا آنابيلا، ذات الرموش السوداء، من رجل إلى آخر، وتوقفتا طويلاً على ريبيرينيو.

«أناس مرموقون! «قال الأمير ساندرا.

جاء تونيكو باستوس من دائرة الكاتب العدل، وارتمى بين ذراعي مونדينيو فالكون، معرباً له عن مشاعر الصداقة.

«والريو، كيف تركتها؟ هناك فقط يقدرون معنى الحياة...»

كان يرمق آنابيلا بنظرة ازدراء، بنظرة رجل من المدينة، غازية ولا تقاوم.

«من سيقدّمني؟ سأل بتعال.»

كان نيوغالو والدكتور جالسين إلى جانب لوحة الغامون. وإلى طاولة أخرى، كان شخص يخبر نسيب بروائع إحدى الطاهيات، توابل مثل توابلها لم أر قطّ... إنما كانت في رسيفي، تعمل خادمة عند عائلة كوتينيو، من ولاية بيرنامبوكو وهي عائلة معروفة.

«ما فائدتي من كل ذلك؟

غابرييلا في الطريق

تغير المشهد. ففي كآتنغا غير المضيافة كانت تتابع الأراضي الخصبة، والمراعي الخضراء، والغابات الكثيفة التي كان عليهم أن يجتازوها، والأنهار والجداول، والمطر المتساقط بغزارة. باتوا الليل في جوار إنبيق تحيطه حقول قصب السكر المتمايل تحت الريح. أعطاهم أحد العمال معلومات تفصيلية عن الطريق الذي يجب أن يسلكوه. أقل من نهار من المسير وسيكونون في إيليوس. فينتهي السفر وتبدأ حياة جديدة.

«كل المهاجرين من السرتون يخيمون قرب المرفأ، على جانبي السكة الحديد، في نهاية مخيم المعرض.

– جئتم تبحثون عن عمل؟ سألهم الزنجي فاغونديس.

- من الأفضل الانتظار. فلن يطول الوقت حتى يأتي عاجلاً أناس ليتفقوا معكم، على العمل في حقول الكاكاو أو في المدينة...

- في المدينة، أيضاً؟ سال كليمينتي باهتمام، والهارمونيكا على كتفه، والقلق بادٍ في عينيه.

- طبعاً نعم. لمن لديه مهنة: بنّاء، نجار، دهّان منازل. ففي إيليوس تبدد أموال كثيرة، لتشييد المنازل.

- هذا كل شيء؟

- هناك مجال للعمل أيضاً في مستودعات الكاكاو، في أرصفة المرفأ.

- أما أنا فسأذهب إلى الأدغال، قيل إن هناك بوسع الرجل أن يكسب الكثير من المال. قال رجل من السرتون، قوي البنية، وفي منتصف العمر.

- في الماضي، كان الأمر على هذا النحو. أما اليوم، فهو أكثر صعوبة.

فقال الزنجي فاغونديس وهو يمرر يده على مسدسه، كأنه يداعبه:

- قيل إن رجلاً يحسن إطلاق النار يحظى بقبول جيد...

- كان هذا في وقتٍ سابق.

- ولم يعد كذلك؟

- في بعض الأحيان يطلبون مثل هؤلاء.»

لم يكن كليمينتي يجيد أي حرفة. كان كل ما يحسن عمله هو العمل في الحقل والزرع واقتلاع الأعشاب والحصاد. وفوق كل هذا، فقد عرف كيف يحشر نفسه في حقول الكاكاو. لقد سمع كثيراً من القصص عن أناس جاؤوا مثله، بعد أن ضربهم الجفاف، فهربوا من السرتون يتضورن جوعاً، فأثروا في تلك الأرض خلال وقت قصير. كان هذا ما يقولونه في السرتون. فشهرة إيليوس جابت العالم، والعميان يُنشدون مآثرها على قيثاراتهم، والبائعون الجوالون يتحدثون عن تلك الأراضي

ذات الوفرة والباعثة على الإقدام، فهناك الرجل يسوي أوضاعه بين إغماضة عين وفتحها، ولم يكن ثمة زراعة أكثر فلاحاً من زراعة الكاكاو. ينحدر المهاجرون زمراً من السرتون والجفاف حتى أخمص أقدامهم، تاركين الأرض القاحلة حيث ينفق القطيع ولا تنمو المزروعات، معتمدين على معالم الطريق في اتجاههم إلى الجنوب.

كثيرون بقوا في الطريق فلم يتحملوا الرعب. وآخرون ماتوا عند دخولهم منطقة الأمطار حيث التيفوئيد والملاريا، والجدري، كانت بانتظارهم. وكان يصل منهم واحد من بين عشرة أشخاص، وأفراد العائلات المتبقون يصلون منهكين من التعب تقريباً. لكن قلوبهم كانت تنبض بالأمل في ذلك اليوم الأخير من المسيرة. وبعد جهد قليل يبلغون المدينة الغنية واليسيرة المنال. أرض الكاكاو حيث النقود كالنفايات في الشوارع...

كان كليمينتي يحمل أشياء كثيرة، فعدا ممتلكاته - الهارمونيكا وكيس من القماش مليء حتى منتصفه - كان يحمل صرة غابرييلا. كان المسير بطيئاً، وكان معهم عجائز. وحتى الشبان كانوا عند حدود التعب، فلم يستطيعوا الاستمرار. كان بعضهم يزحف تقريباً مدعوماً بالأمل فقط.

كانت غابرييلا وحدها تبدو غير آبهة بالمسير، وقدماها كأنهما تنزلقان على الطريق التي شقت للتو بالساطور، عبر الغابة العذراء. وكأن لا حجارة وجذوع أشجار مقطوعة، وأغصان متشابكة. كان غبار الدروب في الكآتنغا يغطيها كلياً بحيث يتعذر عليها أن تميز مواقع قدميها. وفي الشّعر الذي لم تتسلل إليه قطعة من مشط، كان يتراكم غبار كثير. كانت تبدو امرأة بلهاء ضائعة في الدروب. لكن كليمينتي كان يعرف حقيقتها، ويُلم بكل جزء من كيانها. عندما التقى الفريقان، في بدء الرحلة، كان لايزال مرئياً لون وجه غابرييلا وساقيها ، والعطر يفوح من شعرها المتأرجح فوق عنقها. وحتى الآن، من خلال الوسخ الذي كان يغطيها، كان يتبينها كما رآها في اليوم الأول ، مستندة إلى شجرة، بجسدها الممشوق، ووجهها المبتسم، تقضم جوافة.

«يبدو أنك لم تأت من مكان بعيد....»

ضحكت:

«ها قد وصلنا. إنه مكان قريب. الوصول رائع.»

واكفهر وجهه القاتم أكثر فأكثر:

«لا أرى ذلك، كلا.

رفعت إلى وجه الرجل القاسي، عينيها اللتين كانتا تارة وَجِلَتين وبريئتين، وطوراً وقحتين ومحرضتين:

«ولماذا لا ترى ذلك؟ ألم تخرج لتأتي من أجل العمل في الكاكاو، لتكسب نقوداً؟ إنك لا تتكلم ابداً على شيء آخر.»

- تعرفين جيداً لماذا. دمدم بغضب. فبالنسبة إلي، هذا الطريق يمكن أن يستمر العمر كله. إني غير مكترث...»

في ابتسامتها اكتئاب مؤلم لم يبلغ درجة الحزن، كما لو أنها تآلفت مع مصيرها:

«كل ما هو حسن، وكل ما هو سيء أيضاً، لا بد أن يبلغا نهايتهما.»

تصاعد في داخله غضب. ومرة أخرى، سيطر على صوته، ردد السؤال الذي لم يتوقف عن طرحه عليها في الطريق وخلال ليالي الأرق:

- أحقاً لا تريدين مرافقتي إلى الغابات؟ نستصلح حقلاً، نغرس الكاكاو معاً نحن الاثنين؟ وبعد قليل من الوقت سيكون لنا حقلنا نحن، وتبدأ الحياة من جديد...»

كان صوت غابرييلا حنوناً لكنه قاطع:

«سبق وعبرت لك عن نيتي. سأبقى في المدينة، فلم أعد أريد أن أعيش في الغابة. سأتعاقد على العمل كطاهية أو غاسلة أو خادمة.»

وأضافت تروي مرحة:

«لقد عملت خادمة في منزل أناس أثرياء، وتعلمت الطهو.

- هنا، سوف لن تحسني وضعك. أما في الحقل، فستتدبر أمورنا معاً...»

لم تُجب. تابعت الطريق قفزاً برشاقة. كانت تبدو كمجنونة بذلك الشعر الفوضوي، مكسوة بالوسخ... قدماها مجروحتان، والأسمال الممزقة تغطي جسدها، لكن كليمينتي كان يراها ممشوقة القوام ورائعة الجمال، بشعرها المنسرح ووجهها الناعم وساقيها الطويلتين وصدرها الناهد. بيد أن وجهها بقي مقطباً. كان يتمنى الاحتفاظ بها إلى الأبد. كيف يعيش من دون حرارة غابرييلا؟

عندما التقى الفريقان، في بداية الرحلة، انتبه سريعاً إلى الفتاة. لقد جاءت مع خال لها، رجل مريض ومنهك، ينتفض طوال الوقت من السعال. في الأيام الأولى، كان يراقبها من بعيد، من دون أن تكون لديه الشجاعة للاقتراب منها. كانت تتنقل من شخص إلى آخر، تتحدث وتساعد وتؤاسي.

في ليالي كآتنغا المسكونة بالأفاعي والخوف، كان كليمينتي يتناول الهارمونيكا ويملأ العزلة بأنغامها. وكان الزنجي فاغونديس يروي قصصاً عن الإقدام وعن أعمال المسلحين. فقد سبق أن عاش مع اللصوص وتورط بقتل عدد من الناس. كان يرمق غابرييلا بنظرة ثقيلة ومذعنة ، وكان يطيعها فوراً عندما كانت تطلب منه الذهاب لملء صفيحة الماء.

كان كليمينتي يقترب من غابرييلا، لكنه لم يجرؤ على توجيه الكلام إليها. فاقتربت هي منه ذات ليلة، بخطاها الراقصة وعينيها البريئتين، وتجاذبت معه الحديث، فيما كان خالها نائماً مع إحدى نوبات ضيق التنفس. لقد أسندت ظهرها إلى إحدى الأشجار. وروى الزنجي فاغونديس:

«ثمة خمسة جنود، خمسة شرطيين، تم ذبحهم بالسكين كي لا يهدرون الذخيرة...»

وفي الليلة المظلمة والمخيفة، كان كليمينتي يُحسُّ بحضور غابرييلا بالقرب منه. لم يكن يجرؤ أن ينظر إلى الشجرة التي كانت تسند ظهرها إليها ، شجرة أومبوزيرو. توقفت أنغام الهارمونيكا، وغاب صوت فاغونديس، فقالت غابرييلا بصوت خفيض:

«لا تتوقف عن العزف، قد يلاحظون ذلك»

عزف لحناً من السرتون. كان شديد الاضطراب ومحطم القلب. وبدأت الفتاة تغني بصوت هامس. كان الليل ينصرم والنار تحولت إلى جمر عندما استلقت إلى جانبه كأن شيئاً لم يحصل. كان الليل شديد الظلمة بحيث لم يريا حتى بعضهما.

ومنذ تلك الليلة العجائبية، كان كليمينتي يعيش في الرعب من فقدانها. فكر في البدء أنها بعد الذي جرى، لن تتركه، وسوف تجرب حظها معه في غابات أرض الكاكاو هذه. لكن سرعان ما خاب أمله. فأثناء المسيرة تصرفت حياله كأن لا شيء حدث بينهما، وكانت تعامله بالطريقة نفسها التي تعامل بها الآخرين. إنها ذات طبيعة مرحة وتحب المزاح. تتبادل الكلام اللطيف حتى مع الزنجي فاغونديس، وتوزع الابتسامات وتخص بها كل الذين يريدونها. لكن عندما يخيم الليل، وبعد أن تكون قد اهتمت بخالها، تجيء إلى الركن القصي الذي يكون فيه، وترقد إلى جانبه، كأنها لم تعش إلا لهذا، طوال النهار. وإذ تستسلم كلياً ليديه، فإنها تغرق في الزفرات، تتأوه وتضحك.

في اليوم التالي، عندما أراد أن يفصح عن مشاريعه المستقبلة، وهو المأسور بغابرييلا كما لو أنها قطعة منه، اكتفت بالضحك مستهزئة منه، ومضت لتساعد خالها الذي بات أكثر تعباً ونحولاً.

ذات مساء اضطروا للتوقّف عن المسير. كان خال غابرييلا في آخر أيامه، يبصق دماً، ولا يستطيع تحمل المزيد من السير. فألقى به الزنجي فاغونديس على ظهره كأنه كيس، وحمله طيلة قسم من الطريق. كان العجوز يتنفس بصعوبة، وغابرييلا إلى جانبه. وعند العشية مات وهو يبصق الدم من فمه، فيما طيور البغات السوداء تحلق فوق جثمانه.

فكر كليمينتي للمرة الأولى بأن يفهمها، إذ رآها يتيمة وحيدة، تعاني عوزاً، وحزينة، وليست أكثر من فتاة فقيرة، لا تزال تقريباً طفلة، بحاجة إلى الحماية. فاقترب منها وتحدث طويلاً عن مشاريعه. لقد حدثه كثيرون عن أرض الكاكاو تلك التي

يقصدونها، وعرف أناساً خرجوا من ولاية سيارا بدون قرش وعادوا بعد سنوات قليلة من نزهتهم، جامعين الأموال، وهذا ما سوف يفعله. كان يريد أن يستصلح الغابة، فيزرع الكاكاو ويحصل على أرض له ويربح ما فيه الكفاية. وستذهب معه غابرييلا، وحينما يظهر كاهن في تلك المجاهل، سيتزوجان. لكنها كانت تقول لا برأسها. ولم تعد تطلق ضحكتها الساخرة. كانت تقول فقط:

«لن أذهب إلى الدغل، يا كليمينتي.»

مات كثيرون آخرون وبقيت جثثهم في الطريق، طعاماً لطيور البغات. لقد انتهت الكآتنغا وبدأت الأراضي الخصبة، وتساقطت الأمطار. كانت تواصل ممارسة الجنس معه، والتأوه والضحك والاستلقاء على صدره العاري. كان كليمينتي يتكلم بمرارة وحزن متزايدين، ويوضح لها مزايا مشروعه. لكنها كانت تكتفي بالضحك وتومئ برأسها مجددة رفضها. وذات ليلة دفعها بشكل فظ بحركة فجائية:

«أنت لا تحبينني!»

فجأة، ظهر الزنجي فاغونديس، لا أحد يعرف من أين، السلاح في يده وعيناه تلمعان. قالت له غابرييلا:

– لم يحدث شيء يا فاغونديس.»

ارتطمت بجذع شجرة قرب المكان الذي كانا راقدين فيه. خفض فاغونديس رأسه ومضى. ضحكت غابرييلا، فارتفع الحنق داخل كليمينتي، فاقترب منها وأمسكها من رسغيها، فسقطت على الأجمة وجرحت وجهها:

«إني أرغب في قتلك وقتل نفسي...

– لماذا؟

– لأنك لا تحبينني.

– أنت أبله...

– ماذا أفعل يا إلَهي؟

:

- لا أكترث... قالت وهي تجذبه إليها.

عندها، في ذلك اليوم من أيام السفر، وهو يشعر بالغثيان والضياع، انتهى باتخاذ قراره. سيبقى في إيليوس، ويتخلى عن خططه. فالأمر الوحيد المهم الذي يريده هو البقاء إلى جانب غابرييلا.

- ما دمت لا تريدين الذهاب معي، سأجد وسيلة للبقاء في إيليوس. إنما ليست لدي مهنة، وعلاوة على حراثة الأرض، لا أجيد القيام بشيئ...»

أخذت يده في حركة غير متوقعة، فشعر بأنه منتصر وسعيد.

- لا يا كليمينتي، لا تبق. لماذا؟

- لماذا؟

- لقد جئت لتكسب مالاً، ولتزرع حقلاً، ولتصبح ذات يوم صاحب مزرعة. لقد قلت إنك تحب ذلك. فلماذا تبقى في إيليوس وتعيش في ضائقة؟

- لكي أراك فقط، لنكون معاً.

- وإذا لم أستطع رؤيتك؟ من الأفضل أن تمضي في طريقك، وأنا أمضي في طريقي. ربما نلتقي مرة ثانية. وعندما تصبح، رجلاً ثرياً، لن تتعرف إلي.

كانا يقولان ذلك بهدوء، كأن الليالي التي كانا يمارسان الجنس فيها معاً غير محسوبة، وكأنهما يعرفان بعضهما بشكل عابر فقط.

«لكن، يا غابرييلا...»

لم يعرف ماذا يجيبها، فقد نسي الذرائع والإهانات، والرغبة في أن يضربها لكي يعلمها ألا تمزح مع رجل. ولم يستطع سوى القول:

- إنك لا تحبينني...

- لقاؤنا كان حسناً. فقد كانت الرحلة قصيرة.

- أحقاً لا تريديني أن أبقى؟

– لماذا؟ لتعيش في الفقر؟ لا شيء يستأهل ذلك. لديك هدفك. إمض وحقق قدرك.

– وأنت، ما هو هدفك؟

– لا أريد الذهاب إلى الدغل. والباقي لا يعرفه سوى الله.

ظل صامتاً، يُحس وجعاً في صدره، ورغبة في قتلها، ووضع حدٍّ لحياته قبل أن تبلغ الرحلة نهايتها. ابتسمت:

«لا تهتم، يا كليمينتي.»

القسم الثاني

عزلة غلوريا

(تتنهد أمام نافذتها)

«متخلفون وأميون، غير قادرين على استيعاب

الأزمنة الجديدة، التقدم، الحضارة. هؤلاء الرجال

لا يستطيعون بعد أن يحكموا...»

(من مقالة للدكتور في جريدة دياريو ده إيليوس)

رثاء غلوريا

في صدري حمية،
آه! حمية في صدري.
(من سيحترق فيها ؟)
طمرني الكولونيل بالخيرات.
ثروات لا تحصى:
أثاث لويس الخامس عشر
لتجلس عليها مؤخرتي،
وقميصاً من الحرير النقي،
وبلوزة بيضاء من القطن الناعم.
لا يوجد صدار يستوعب،
أكان من الساتين أم من الحرير
أو من القطن الأكثر نعومة.
النار تشتعل
هنا في صدري الوحيد.

***

عندي مظلة للشمس
ومال للإنفاق.
ومن المتاجر الأغلى سعراً

أشتري منها على الحساب.
لدي كل ما أرغب،
لكن النار تحرق صدري.
ماذا يفيد كل ما عندي
إذا كنت لا أملك ما أرغب؟

النساء يدرن وجوههن،
والرجال يتطلعون إليّ من بعيد:
فأنا غلوريا، امرأة كولونيل المجد،
وعشيقة المزارع.
الشرشف الأبيض من اللينو،
وفي صدري حريق.
أتمرغ وحيدة على هذا المخدع،
فيما النار تحرق ثديْي.

ساقاي ملتهبتان، وفمي
يحترق من الظمأ. أواه!
فأنا غلوريا، جميلة المُزارع،
التي تلهب النار قلبها
والتي، على شرشف مخدعها،
تضطجع مع الوحدة.

عيناي متخمتان بالاشتياق،

ثدياي يفوحان بعطر الخزامى،
والنار في داخلي.
لكن هذه النار التي ترهقني
تولد من الجمر الذي
تؤججه عزلة النغم في
صدر غلوريا العذب.
عن سره لن أنبس بكلمة،
وعن جمرته المشتعلة، لن أتكلم.

آه! أودّ طالباً،
شاربه على وشك النمو.
أود جندياً مقداماً،
ببذلة عسكرية.
أود حباً، أود،
لأطفاء هذه النار التي تحرقني،
لوضع حد لعزلتي.

إدفع بابي وادخل،
فقد نزعت القفل،
ولا مفتاح لإقفاله.
تعال إذن، أطفئ هذا الجمر،
واحترق في هذه النار.
امنحني قليلاً من الحب.

فلدي الكثير أمنحه إياه.
تعال وارقد في هذا السرير.

في صدري حرارة، تكمن!
آه! حرارة تكمن في صدري.
(من سيحترق فيها ؟).

إغواء من النافذة

يقع منزل غلوريا عند زاوية الساحة. وغلوريا تُشبك ذراعيها على النافذة في المساء، ونهداها متوثبان كأنهما معروضان للمارة. وكان هذا الأمر وغيره يثير الفضيحة لدى العانسات اللواتي يأتين إلى الكنيسة ويفسحن في المجال للتعليقات ذاتها كل يوم، عند ساعة العظة المسائية.

«قلة حياء...

– الرجال يرتكبون الخطيئة حتى بدون إرادتهم، بمجرد التطلع اليها.

– حتى الأولاد يفقدون عفة أعينهم.»

وتجرأت دوروتيا القاسية، الغارقة في السواد وذات الفضيلة، العذراوية، حتى على الهمس مدفوعة بتسام قدسي:

«لقد كان باستطاعة الكولونيل كوريولانو أن يُسكن هذه المرأة في شارع أقل ازدحاماً. أتى ليقيم معها على مرأى من أفضل العائلات في المدينة، وتحت أنوف الرجال...

– وعلى مقربة من الكنيسة، بحيث يوجه إهانة إلى الله.»

من الحانة المزدحمة بالرواد ابتداءً من الساعة الخامسة مساءً، كان الرجال يصوّبون أعينهم إلى نافذة غلوريا في الجانب الآخر من الساحة... وكان المدرِّس جوزويه ذو ربطة العنق الزرقاء المرقطة على شكل الفراشة، والشعر الملمع بالكريم، طويل («مثل شجر الأوكاليبتو المنعزل» كما وصف نفسه في إحدى قصائده)، وبيده ديوان شعر، يجتاز الساحة ويسير على رصيف منزل غلوريا. في الزاوية في عمق الساحة، في وسط حديقة صغيرة معتنى بها جيداً، مزروعة بورود ونرجسيات مع شجرة ياسمين عند الباب، ينتصب المنزل الجديد للكولونيل ميلك تافاريس، وهو موضوع أثار نقاشات في مكتبة وقرطاسية موديلو. كان منزلاً على النمط الحديث وهو الأول الذي شيد من قبل المهندس الذي استقدمه مونديينو فالكون، وانقسمت بشأنه آراء المثقفين المحليين، واستمرت المناقشات بشكل دائم، حول خطوطه الناصعة والبسيطة المتناقضة مع المنازل ذات الطبقتين، المفتقرة إلى الجمال، والمنازل القديمة الواطئة، من العهد الكولونيالي.

في الحديقة، كانت تحلم، راكعة بين الزهور، وهي أجمل منها، مالفينا ابنة ميلك الوحيدة، طالبة في ثانوية الراهبات ومحط اشتهاء جوزويه. وفي كل الأمسيات، عندما تنتهي الدروس والنقاش اللازم في مكتبة وقرطاسية موديلو، يأتي المدرس ليمشي في الساحة. فيمر عشرين مرة أمام حديقة مالفينا، وعشرين مرة يثبت نظره على الفتاة في إعلان أخرس. وفي حانة نسيب كان الزبائن الاعتياديون يتبعون هذا التجوال اليومي بإطلاق التعليقات الساخرة:

- المدرس مثابر عنيد.

- يريد أن يحقق استقلاله ويفوز بحقل كاكاو من دون أن يتكبد عناء زرعه.

وكانت العانسات، عند رؤيتهن له قادماً إلى الساحة مرتبكاً، يتعاطفن معه ومع هيامه المتوقد وغير المتبادل، يقلن:

- ها هو يقوم بالتكفير عن خطاياه...

«أنا أعرفها جيداً: فتاة وقحة تتوهم أنها ذات أهمية. ماذا يمكنها أن تنتظر أفضل من شاب ذكي جداً؟

- لكنه فقير...

- زواج المال لا يجلب السعادة. إنه شاب طيب جداً، زاهر بالآداب، حتى أنه ينظم أشعاراً...»

وكان جوزويه، على مقربة من الكنيسة، يخفف خطاه المسرعة، فينزع القبعة عن رأسه وينحني، عند تقديم التحية للعانسات...

«شاب كثير التهذيب. شاب لائق...

- لكنه يعاني ضعفاً في الصدر...

- قال الدكتور بلينيو إنه لا يشكو من شيء في الرئة.. مجرد نحول فقط.

- إنها فتاة متعجرفة. ذاك أن لديها وجهاً جميلاً وأباً ثرياً. والشاب المسكين، متيم جداً...» انطلقت تنهدة من الصدر المتغضن.

كان جوزويه الملاحق بالتعليقات اللطيفة من العانسات، والآراء غير العادلة المذاعة في الحانة، يقترب من نافذة غلوريا. ومن أجل رؤية مالفينا الجميلة والباردة، يقوم في نهايات المساء، بتجواله ذاك عشرين مرة، بخطى متباطئة، وفي يده ديوان شعر. لكن عند مروره كان نظره الرومانطيقي يتركز على ثديي غلوريا الناهدين المعلقين في النافذة، كأنهما فوق طبق أزرق. ومن النهدين يرتفع إلى الوجه الأسمر المحروق، ذي الشفتين الغليظتين الشهوانيتين، والعينين اللتين ترسلان دعوة دائمة. كانتا تلهبان، برغبة مادية آثمة، عينيْ جوزويه الرومانطيقيتين فتورد الحمية وجهه الشاحب. وللحظة فقط، إثر الإغواء العابر من النافذة ذات السمعة السيئة، تعود عيناه إلى التعبير عن التضرع وخيبة الأمل، ويصبح وجهه أشد امتقاعاً. لكن الوجه والعينين تبقى متوجهة نحو مالفينا.

وكان المدرِّس جوزويه ، ينتقد هو أيضاً، في صميمه، الفكرة التعيسة للكولونيل

كوريولانو ريبيرو المزارع الغني، لإسكانه عشيقته الشهية جداً والعارضة نفسها جيداً، في ساحة القديس سيباستيان، وفي الشارع الذي يقع فيه منزل الكولونيل ميلك تافاريس. فلو كان ذلك في شارع آخر، أكثر بعداً عن حديقة مالفينا، لكان بوسعه، ربما، المخاطرة في ليلة بلا قمر، ليستوفي الوعود المقروءة في عيني غلوريا المتوسلتين وعلى شفتيها المنفرجتين.

«ها هي المقرفة تراقب الفتى...»

كانت العانستان بثوبيهما الطويلين الأسودين المغلقين عند الرقبة، وبشاليهما الأسودين على الكتفين، تبدوان كطائرين ليليين متوقفين أمام فناء الكنيسة الصغيرة. إنهما تريان حركة رأس غلوريا وهي تتابع جوزويه في مروره حتى منزل الكولونيل ميلك.

«إنه فتى لائق. غير أن عينيه على مالفينا.»

– سأنذر للقديس سيباستيان لكي تحبه مالفينا. قالت، كينكينا المدورة الشكل، وقد أضاءت شمعة على نيته.

– وأنا سأجلب أخرى...» أضافت فلورزينيا النحيلة المتضامنة دائماً مع أختها.

كانت غلوريا تتنهد وتتأوه في النافذة. كانت تمتزج الرغبة والكآبة والتمرد في التأوهات التي لا تلبث أن تموت.

كان قلبها مليئاً بالتمرد ضد الرجال بشكل عام. فهم جبناء خبثاء. ففي ساعات الحرارة الشديدة بعد الظهر،عندما تكون الساحة خالية ونوافذ البيوت العائلية مغلقة، إذا ما مر رجل بمفرده أمام نافذة غلوريا المشرعة، يبتسم لها، ويتوسل نظرة منها، يتمنى لها مساء طيباً بمشاعر مرئية. لكن، إذا ما صدف أن تواجد أحد في الساحة، حتى ولو امرأة عانس، أو كان مصحوباً بأحد، تراه يدير وجهه وينظر إلى الجانب الآخر، بتعمد، كأنه يشمئز من رؤيتها في النافذة، بنهديها المتوثبين، النافرين من

بلوزتها المصنوعة من القماش المطرز. حتى الذين كانوا يوجهون لها عبارات الغزل عند مرورهم بمفردهم، كانوا يرتدون قناع الحشمة المهانة.

كانت غلوريا ترغب أن تغلق النافذة بوجوه مثل هؤلاء، لكن ياللأسف! لم يكن بإمكانها ذلك. فهذا الوميض من الرغبة المتجاوبة في أعين الرجال كان كل ما تمتلكه في عزلتها. إنه فيض قليل جداً لارواء ظمأها وسد جوعها. بيد أنها إذا اقفلت النافذة بوجوههم ستفقد حتى تلك الابتسامات، وتلك النظرات الوقحة، والكلمات الوجلة الهاربة. فلم تكن ثمة امرأة متزوجة في إيليوس، حيث المرأة المتزوجة تعيش داخل بيتها، تعتني بأسرتها، مصانة جداً وغير مستهلكة كتلك العشيقة. والكولونيل كوريولانو لم يكن رجلاً يحتمل المزاح، إذ كانوا يخافونه لدرجة أنهم لم يكونوا يتجرأون حتى على توجيه التحية للمسكينة غلوريا. جوزويه وحده كان مختلفاً. كان نظره يضطرم عشرين مرة كل مساء، عند مروره تحت نافذة غلوريا، وينطفئ برومانطيقية أمام بوابة مالفينا. وكانت غلوريا تلاحظ غرام المدرِّس ولا تتعاطف أيضاً مع الفتاة الطالبة، غير المبالية بالحب الشديد، وتجدها مقرفة وبلهاء. ومع أنها كانت تعرف شغف جوزويه، فذلك لم يمنعها عن الابتسام له، ودائماً تلك الابتسامة الواعدة والمجانية، لأنه لم يدر وجهه عنها قطّ، حتى عندما تكون مالفينا أمام بوابة المنزل الجديد تحت شجرة الياسمين المزهرة. آه، لو كان لديه قليل من الشجاعة، ليدفع، عند منتصف الليل، الباب القائم على الشارع والذي تتركه غلوريا دائماًمفتوحاً، إذ، في حال، على حين غرة، من يدري؟... عندها، ستجعله ينسى الفتاة المتكبرة.

ولم يكن جوزويه يجرؤ على دفع الباب الصلب القائم على الشارع. إن أحداً لم يكن يجرؤ على ذلك، خوفاً من ألسنة العانسات الحادة، ومن أهالي المدينة الذين يلوكون الحياة الخاصة للآخرين بالسوء، أو الخوف من الفضيحة، لكن فوق كل هذا، الخوف من الكولونيل كوريولانو ريبيرو. فالجميع يعرفون قصة جوكا وشيكينيا.

في ذلك اليوم، وصل جوزويه مبكراً جداً، في فترة القيلولة، فيما الساحة مقفرة،

ورواد الحانة اقتصروا على بعض البائعين الجوالين والدكتور والنقيب اللذين كانا يتنافسان في لعبة الداما. فقد أعطى إينوش، التلاميذ عطلة، عند فترة بعد الظهر، ليحتفل بالتسوية القانونية لثانويته. فبعد أن اجتاز السوق، شاهد المدرس جوزويه وصول جمع كبير من المهاجرين إلى «سوق العبيد»، ثم مكث فترة في مكتبة وقرطاسية موديلو، وها هو الآن يتناول مزيجاً من الشراب في الحانة متحدثاً مع نسيب:

- أعداد المهاجرين كبيرة! والجفاف يلتهم السرتون.

أبدى نسيب اهتمامه بالأمر:

- وبينهم نساء أيضاً؟

أراد المدرس أن يعرف سبب ذلك الاهتمام:

«هل أنت مفتقد للمرأة إلى هذه الدرجة؟

- لا تمزح. لقد رحلت طاهيتي، وأنا أبحث عن طاهية أخرى. وأحياناً من بين هؤلاء المهاجرين تأتي إحداهن...

- نعم، ثمة نساء كثيرات، أجل. الأمر مرعب! ناس متسخون، يرتدون أسمالاً ممزقة، وكأنهم مصابون بالطاعون...

- سأذهب بعد قليل إلى هناك، لأرى إذا كنت ألتقي إحداهن...

لم تظهر مالفينا عند البوابة. وبدا جوزويه فاقد الصبر. فأخبره نسيب:

«الصغيرة في الجادة، على الشاطئ. لقد ذهبت بنزهة، منذ برهة، مع بعض زميلاتها..»

دفع جوزويه الحساب، ثم نهض، وواكبه نسيب بنظره وهو يسير. لا بد أن يكون شعور المرء بأنه متيم، شيئاً حسناً. حتى عندما لا تبدي الفتاة كثير اهتمام إزاءه، فالأمر لا يزيده إلا رغبة. سينتهي ذلك بالزواج ولو بعد حين.

ظهرت غلوريا في النافذة، فسطعت الرغبة في عيني نسيب. فلو تركها الكولونيل

يوماً سيكون ثمة سباق لم يُر مثيل له في إيليوس. حتى حينها، لن يستطيع أن يصل إليها، فالكولونيلات الأثرياء لن يسمحوا له بالاقتراب منها...

وصلت أطباق الحلوى والأطعمة المالحة، وبات زبائن الكؤوس فاتحة الشهية، راضين. بيد أنه، أي نسيب، لن يستطيع الاستمرار في دفع تلك الثروة إلى الشقيقتين دوس ريز. وحينما تتضاءل الحركة في الحانة، في وقت العشاء، سيذهب إلى مخيم المهاجرين. من يدري، فقد يكون محظوظاً ويلتقي بطاهية؟.

فجأة قُطع هدوء المساء بصراخ ولغط أناس كثر يتكلمون سوية. توقف النقيب عن اللعب وحجر الداما في يده. فخطا نسيب خطوة إلى الأمام، وتزايد الصراخ. وبدا الزنجي الصغير تويسكا الذي كان يبيع الحلوى التي تعدها الشقيقتان دوس ريز، راكضاً وهو قادم من الجادة، والطبق المتوازن على رأسه. والتفت النقيب والدكتور بفضول، ونهض زبائن عن مقاعدهم. وشاهد نسيب جوزويه ومعه بعض الأشخاص، يتحركون بسرعة في الجادة. وأخيراً سمعوا الزنجي الصغير تويسكا يقول:

«الكولونيل جيزوينو قتل الدونا سينيازينيا والدكتور أوزموندو. إنهما يتخبطان بالدماء..» أبعد النقيب طاولة اللعب وخرج راكضاً تقريباً، يرافقه الدكتور. وبعد لحظة من التردد أسرع نسيب خطاه ليلحق بهما.

عن القانون القاسي

انتشر نبأ الجريمة بلمح البصر. فمن مرتفع أونياون إلى مرتفع كونكيستا، وفي المنازل الأنيقة على الشاطئ وفي أكواخ جزيرة الأفاعي في بونتال وفي ماليادو، في المساكن العائلية، وفي بيوت النساء العموميات، كانوا يعلقون على الحدث. وبالإضافة إلى ذلك، كان اليوم يوم السوق، والمدينة تغص بالناس القادمين من الداخل، من الدساكر والحقول، ليبيعوا ويشتروا. وفي المتاجر ومحلات البقالة، في

الصيدليات وفي العيادات الطبية، في مكاتب المحامين، في منازل مصدري الكاكاو، في كنيسة القديس سيباستيان الرئيسية، لم يكن ثمة موضوع آخر. فما أن انتشر الخبر حتى تدافع الناس بأعداد كبيرة إلى الحانات، وخصوصاً إلى حانة فيزوفيو القائمة على مقربة من مكان المأساة. وأمام منزل طبيب الأسنان، وهو شاليه صغير من الخشب على الشاطئ، تجمع عدد من الفضولين، حيث كان شرطي يقف عند الباب، يزودهم التوضيحات. وقد أحاطوا الخادمة البلهاء يسألونها عن التفاصيل. كذلك فتيات ثانوية الراهبات اللواتي كن يستعرضن على رصيف الشاطئ، كن يتهامسن بالأسرار. فاستغل المدرس جوزويه ذلك ليقترب من مالفينا، ما أثار لدى جمع الفتيات قصص الغرام المشهورة: روميو وجولييت، إيلويزا وآبيلاردو، ديرسيو وماريليا.

ثم ما لبث جميع أولئك الناس أن انتهوا في حانة نسيب، شاغلين الطاولات ومعلقين ومناقشين. وكانوا، جميعهم، إلى جانب المزارع. ولم يرتفع صوت واحد - حتى صوت المرأة التي كانت في فناء الكنيسة - للدفاع عن الفاتنة المسكينة سينيازينيا. ومرة أخرى أظهر الكولونيل جيزوينو أنه رجل قوي، مصمم، شجاع وطاهر الذيل، مثلما برهن على ذلك خلال غزو الأرض. وحسبما كانوا يقولون، كثيرة هي الصلبان في المقبرة وعلى جوانب الطرق التي كانت تشهد لمآثر مسلحيه الذين لم تُنس شهرتهم. وهو لم يقتصر على استخدام مسلحيه، إنما قادهم شخصياً في مناسبات مشهورة، مثل ذلك اللقاء مع رجال المرحوم النقيب فورتوناتو بيريرا عند نقطة تقاطع الموت الجميل، في دروب فيراداس الخطرة. لقد كان رجلاً لا يعرف الخوف وعنيداً.

جيزوينو ميندونسا هذا، المتحدر من آل ميندونسا المعروفين القادمين من ولاية الآغواس، وصل إلى إيليوس وهو لا يزال فتى، عند نشوب الصراعات على الأرض. لقد استصلح غابات وزرع حقولاً، محتكماً إلى الرصاص في تملك الأرض. فنمت ممتلكاته، وبات اسمه محترماً. تزوج غويديس، الفائقة الجمال في المحلة، وهي

من أسرة قديمة في إيليوس، يتيمة الأب، ورثت أرضاً مزروعة بالكاكاو، على مقربة من أوليفنسا. وإذ كانت أصغر من زوجها بعشرين سنة تقريباً، جميلة، زبونة دائمة لمتاجر الأقمشة والأحذية، منظمة رئيسية لاحتفالات كنيسة القديس سيباستيان، كانت سينيازينيا تقضي وقتاً طويلاً في المزرعة، ومنذ زواجها، لم تعط سينيازينيا أي مادة لألسنة السوء العديدة. وفجأة، في ذلك النهار المشرق الرائع، في ساعة القيلولة الهادئة، أفرغ الكولونيل جيزوينو ميندونسا مسدسه في جسدي زوجته وعشيقها، مغرقاً المدينة في الانفعال وعائداً بها مرة أخرى إلى الجو القديم، حيث كانت إراقة الدم مسالة مألوفة. نسي نسيب ذاته معضلة البديل، طاهيته. والنقيب والدكتور أيضاً نسيا اهتماماتهما السياسية، والكولونيل راميرو باستوس نفسه، الذي أُخبر بالمصيبة، تخلى عن التفكير في موندينيو فالكون، ما إن أبلغ الخبر. انتشر النبأ بسرعة الضوء، وتزايد الاحترام والإعجاب اللذان أحاطا شخصية المزارع النحيل الجسم والمكتئب جداً. لأن إيليوس كانت هكذا: شرف الزوج المخدوع لا يمكن غسله إلا بالدم.

هكذا كان الوضع في منطقة خرجت لتوها من المشاجرات والصراعات الدائمة، حيث الطرق لقوافل البغال، وحتى للشاحنات كانت تتبع مسير المسالك التي شقها المسلحون، المعلمة بصلبان الذين سقطوا في المكائد، حيث الحياة البشرية لا تملك إلا قيمة ضئيلة، لم تكن تعرف قانوناً آخر لخيانة الزوجة غير الموت العنيف. إنه قانون قديم، جاء من عهود الكاكاو الأولى. لم يكن على الورق، ولم يكن مدوناً في مواد القانون. ومع هذا، كان موجوداً، وأشد فاعلية من الشرائع وهيئة المحلفين التي التأمت لتقرير مآل القاتل، والمؤكد بالإجماع كل مرة، إنه موضوع فوق القانون المكتوب الذي يأمر بالحكم على من يقتل نظيره.

بالرغم من المضاربة الحديثة لدور السينما المحلية الثلاث، وحفلات الرقص والعشاء الراقص في نادي التقدم ومباريات كرة القدم في فترات بعد الظهر من أيام الآحاد، والندوات - أدباء من باهيا، وحتى من الريو، لائذون بإيليوس يصطادون

بعض الأوراق النقدية من فئة الألف ريال في البلد الجاهل والثري - كانت جلسات المحلفين التي تعقد مرتين في السنة، لا تزال الأكثر حيوية والأكثر إثارة للتسلية. فثمة محامون مشهورون مثل الدكتور إيزكييل برادو والدكتور ماوريسيو كاييريس، والمحامي بالممارسة جوان بيشوتو ذي الصوت المدوي، وهم خطباء يثيرون تصفيق الناس، مفوهون، كانوا يجعلون الحضور يرتعدون ويبكون.

الدكتور ماوريسيو كاييريس وهو رجل مثابر على الذهاب إلى الكنيسة ويحب الكهنة، رئيس أخوية القديس جرجس، كان اختصاصياً في الاستشهاد بالكتاب المقدس. فقبل أن يدخل الكلية كان طالباً داخلياً في إحدى الثانويات ، يحب الجمل اللاتينية، وثمة من كان يعتبره وافر المعرفة مثل الدكتور. وفي المحكمة كانت المبارزات الخطابية تستمر في الإجابات والردود حتى ساعات الفجر الأولى، فتشكل التظاهرات الثقافية الأكثر أهمية في إيليوس.

كان الناس يراهنون بمبالغ طائلة على البراءة أو الإدانة. فأهالي إيليوس يحبون المقامرة ويستخدمون كل شيء ذريعة لذلك. وفي مناسبات أخرى، أصبحت الآن نادرة، كانت نتيجة هيئة المحلفين تفسح المجال لإطلاق الرصاص ولسقوط ضحايا جديدة. فالكولونيل بيدرو براندون على سبيل المثال، قُتل على درج المحافظة، عند تبرئته من قبل المحلفين. وابن شيكو مارتينيز الذي كان الكولونيل ومسلحوه قد قتلوه بصورة بربرية، حقق العدالة بيديه.

لم تكن تُقبل أية مراهنة، على كل حال، عندما تلتئم هيئة المحلفين لإصدار قرار حول جريمة قتل بسبب الخيانة الزوجية، فالجميع يعرف أن البراءة الإجماعية للزوج المهان ستكون النتيجة الحتمية والعادلة. كانوا يذهبون للاستماع إلى الاتهام والدفاع فقط ، وأيضاً بأمل الاطلاع على التفاصيل القاسية والمضحكة، المدرجة في الملف أو من مرافعات المحامين. أما إدانة القاتل فلن تحصل أبداً! فقد كان هذا ضد شريعة البلد التي تقضي بغسل الشرف الملطخ للزوج بالدم.

كانوا يعلقون ويتناقشون حول مأساة سينيازينيا وطبيب الأسنان بحماسة كبيرة. يختلفون في روايات الحادث، يتناقضون في التفاصيل، لكنهم جميعاً متفقون في أمر واحد: إعطاء الحق للكولونيل وتمجيد سلوكه الذكوري.

عن الجوربين الأسودين

في أيام سوق ألفيرا، وفي حانة فيزوفيو بالذات، كانت الحركة أكثر أهمية من العادة. بيد أنه بعد ظهر، شهد تدفقاً للرواد بشكل غير اعتيادي، حيوية احتفالية مرحة. وعلاوة على المدمنين على الكؤوس فاتحة الشهية ، والناس القادمين إلى السوق، جاء أشخاص كثيرون للحصول على الأخبار الجديدة والتعليق عليها. وكانوا يذهبون حتى الشاطئ، يتلصصون على بيت طبيب الأسنان، ثم يُلقون مرساتهم في الحانة:

«لا أحد كان يتوقع ذلك! فقد كانت تقضي وقتها في الكنيسة...»

كان نسيب يتنقل من طاولة إلى أخرى، يحثُّ الخدم على العمل ويحسب في ذهنه الأرباح. جريمة صغيرة كهذه كل يوم، ويصبح بوسعه شراء حقول الكاكاو التي يحلم بها.

ضرب موندينيو فالكون موعداً لكلوفيس كوستا للالتقاء في حانة فيزوفيو. كان جالساً يبتسم بلا مبالاة، قلقاً على مشاريعه السياسية التي استسلم لها جسداً وروحاً. هكذا هو دائماً: فعندما يُقرر أن يفعل شيئاً، لا يستكين للراحة ما لم يره محققاً. لكن النقيب كما الدكتور، كانا يبدوان غير مهتمين إلّا بقضية الجريمة، كما لو أن حديث الصباح لم يحدث. وأبدى موندينيو أسفه لموت طبيب الأسنان ، جاره على الشاطئ وأحد رفاقه النادرين في حمام البحر، المعتبر في حينه، فضيحة في إيليوس. أما الدكتور، ذو الطبع العجول، فكان منشرحاً تماماً في مناخ تلك المأساة، واتخذ شقاء سينيازينيا ذريعة للتذكير بأوفينيزيا، شقاء الأمبراطور.

«كانت الدونا سينيازينيا أيضاً قريبة لآل آفيلا، أسرة النساء الرومانطيقيات. يجب أن تكون قد ورثت مصير ابنة العم، دعوتها إلى الشقاء.

أراد تاجر من ريو دو براسو - وصل إلى إيليوس من أجل سوق الفيرا، ساعياً لأن ينقل إلى دسكرته أكثر التفاصيل تكاملاً عن الجريمة، أن يعرف:

- أي أوفينيزيا؟ من هي تلك المرأة؟»

«إنها إحدى جداتي. رائعة الجمال تعيسة. ألهمت الشاعر تيودورو ده كاسترو. وأحبت الدون بيدرو الثاني. وقد ماتت من شدة حزنها لعدم ذهابها معه.

- إلى أين؟

-إلى السرير. إلى أين بحق السماء...؟ أجابه فولجنسيو ممازحاً.

«إلى البلاط. إنه لم يبد اهتماماً بأن تصير عشيقته. وكان على شقيقها أن يحجر عليها بسبعة مفاتيح. الشقيق هو الكولونيل لويس أنطونيو دافيلاس، أحد أبطال حرب البارغواي. وهي قد ماتت حزناً. وفي الدونا سينيازينيا كان ثمة دم من أوفينيزيا، دم آل آفيلا الموسوم بالمأساة!»

حضر نيوغالو مرتبكاً، وأطلق النبأ وسط الحضور:

«كانت ثمة رسالة مغفلة، وجدها جيزوينو في المزرعة.

- من كتبها؟

ضاعوا في تأملات التفكير، وانتهز مونديتيو الفرصة ليسأل النقيب بصوت خفيض:

«وكلوفيس كوستا؟ هل تحدثت معه؟

- كان يكتب نبأ الجريمة، حتى أنه أخَّر الجريدة. فاتفقت معه على أن يكون الموعد ليلاً، في بيتك.

- إذاً، إني ذاهب...

- تذهب؟ مع قصة كهذه؟

- أنا لست من هنا يا عزيزي...» علق المُصدِّر مبتسماً.

كان الذهول عاماً إزاء تلك اللامبالاة المفرطة من أجل طبق من تلك الأطباق الدسمة ذات المذاق النادر. وعبر موندينيو الساحة، فالتقى جمع الفتيات من ثانوية الراهبات اللواتي كان يقودهن كقافلة، المدرِّس جوزويه. وعند اقتراب المُصدِّر، لمعت عينا مالفينا، وابتسم فمها، ثم سوت فستانها. وجوزويه السعيد برفقة مالفينا، هنأ موندينيو مرة أخرى، بتسوية أوضاع الثانوية:

«إيليوس تدين لك كثيراً بهذه المأثرة الجديدة...

- أية مأثرة؟ إنه أمر يسير جداًا!... إنه يُشبه أميراً يوزع المنافع، والألقاب النبيلة والمال والمعروف.

وسألته إيراسيما، وهي سمراء نارية تمارس مغازلات عند بوابة فناء بيتها:

- والسيد، ماذا يفكر بصدد الجريمة؟

اقتربت مالفينا لتصغي إلى الإجابة. ففتح موندينيو ذراعيه:

«أمر محزن دائماً أن يعرف المرء بموت امرأة جميلة. وعلاوة على ذلك، موت مريع كهذا. فالمرأة الجميلة كائن مقدس.

- لكنها كانت تخدع زوجها. ردت سيليستينا، وهي شابة ناضجة وتكاد تكون عانساً.

- بين الموت والحب، أفضل الحب...

- وأنت أيضاً أيها السيد، تنظم قصائد؟ سألت مالفينا مبتسمة.

- من؟ أنا؟ كلا أيتها الآنسة، إني لا أملك هذه الموهبة. فالشاعر، هنا، هو مدرِّسنا.

- لقد قدرت ذلك.، فما سبق وقلته، أيها السيد، يشبه الشعر...

- عبارة جميلة، لا شك في ذلك. أيد جوزويه.

أول مرة ينتبه موندينيو إلى مالفينا. إنها فتاة جميلة، لم ترفع عينيها عنه. إنهما عميقتان وغامضتان.

اقتربت منه سيليستينا بحيث كادت تلمسه:

«تقول هذا أيها السيد، لأنك عازب.

– وأنت أيضاً أيتها الآنسة، ألست عزباء؟»

ضحك الجميع فودعهم موندينيو، لكن عيني مالفينا لاحقتاه مستغرقتين في التفكير. وأطلقت إيراسيما ابتسامة غير محتشمة تقريباً:

– آه للسيد موندينيو هذا...

وبما أن المُصدِّر كان يبتعد في طريقه إلى البيت، أردفت:» يا للغلام الفائق الجمال!»

في الحانة كان آري سانتوس السمج، أحد معلقي جريدة دياريو ده إيليوس وهو موظف في أحد بيوتات التصدير ورئيس نادي روي باربوزا، جالساً إلى الطاولة، فهمس قائلاً:

«كانت عارية تماماً...

– عارية كلياً.

– كليّاً؟ سال النقيب بصوت مفعم بالشهوة.

وسمع صوت النقيب النهم:

– نعم، كلياً... الشيء الوحيد الذي كانت تحمله هو جورباها الأسودان.

– أسودان؟ قال مصدوماً.

– جوربان أسودان، أوه! «علق النقيب وهو يمتص شفتيه.

«فاسقة... قال الدكتور ماوريسيو كاييريس متهماً.

– لا بد أنها كانت امراة رائعة.» تخيل العربي نسيب، فجأة، الدونا سينيازينيا عارية، بجوربيها الأسودين، وتنهد.

لقد تم تسجيل هذا التفصيل في محضر التحقيق. فطبيب الأسنان المفرط في أناقته كان بدون شك شاباً من العاصمة، مولوداً ومتخرجاً في باهيا، التي جاء منها إلى إيليوس بعدما حاز على درجته قبل أشهر معدودة، مأخوذاً بشهرة البلاد الغنية والناجحة. وقد كان وضعه جيداً. استأجر ذلك الشاليه على الشاطئ، وهناك أقام عيادته في القاعة الأمامية. وكان بوسع المارة أن يروا من النافذة الواسعة، من العاشرة إلى منتصف النهار، ومن الثالثة إلى السادسة مساءً، المقعد الجديد ذا المعدن اللامع من إنتاج ياباني، وطبيب الأسنان الأنيق مرتدياً مريلة بيضاء، يعتني بأفواه الزبائن. كان والده قد أعطاه مالاً لإنشاء العيادة. وكان يزوده في الأشهر الأولى بمبلغ ثابت لمساعدته على تسديد النفقات. كان تاجراً قوياً في باهيا، يملك متجراً في شارع تشيلي. كانت هذه العيادة موجودةً في واجهة الصالون، لكن المزارع عثر على زوجته في غرفة المنامة، مرتدية - كما أخبر آري وبيَّن في الوقائع - «الجوربين الأسودين الغادرين» فقط. أما بالنسبة إلى طبيب الأسنان أوزموندو بيمنتيل، فقد كان حافياً كلياً، بدون جوربين من أي لون، وبدون أي لباس يغطي شبابه المزهو، والغازي. لقد أطلق المزارع طلقين ناريين حاسمين على كل منهما. وهو رجل ذو تصويب أُطرِيَ عليه، إذ اعتاد التصويب بدقة في ظلمة الطرق في ليالي الصراعات والكمائن.

لم يعد نسيب قادراً على القيام بأي شيء. كان شيكو موليزا وبيكو فينو يتنقّلان من طاولة إلى أخرى في الحانة الممتلئة، يخدمان الزبائن، صائدين من حين لآخر، تفاصيل من الأحاديث. وكان الزنجي الصغير تويسكا يمد يد المساعدة، وهو بادي القلق، يريد أن يعرف من سيسدد له حساب الحلوى الأسبوعي المطلوب من طبيب الأسنان الذي كان يترك له في منزله كل مساء، قرطاً من حلوى الذرة والآيبين، وكاسكوز المانيهوكا أيضاً. وكان نسيب من آن لآخر، وهو ينظر إلى الحانة تغص بالزبائن الذين يستهلكون الحلوى والأطعمة المالحة من الطبق المرسل إليهم من

قبل الشقيقتين دوس ريز، يشتم العجوز فيلومينا. في يوم كهذا مليء بالأخبار الجديدة وبهذا القدر من الأحداث، ترتأي الرحيل، تاركة إياه من دون طاهية.

فيما العربي نسيب يمضي من طاولة إلى أخرى، مشتركاً في الأحاديث، محتسياً مع الأصدقاء، لم يكن يستطيع الاستسلام كلياً إلى متعة التعليقات حول المأساة، كما كان يرغب بالتأكيد، لأنّ القلق على الطاهية التي يفتّش عنها يحزنه. إن قصصاً كتلك، عن الغراميات المحرمة والانتقال المميت، مع تفاصيل جد دقيقة، جوربين أسودين، رباه! إنها لا تحدث كل يوم. وهو مضطر إلى الخروج بحثاً عن الطاهية في وسط المهاجرين القادمين إلى سوق العبيد.»

كان شيكو موليزا الكسول الذي لا يمكن إصلاحه، يمر مع كؤوس وزجاجات وأذناه متيقظتان، ويتوقف ليصغي. فاستعجله نسيب:

– إمش يا كسلان...

فيتوقف أمام الطاولة، وهو أيضاً كان ابن الله، يريد الاستماع إلى الأخبار الجديدة، والاطلاع على تفاصيل الجوربين الأسودين.

جوربان رائعان يا عزيزي، مصنوعان في الخارج... بضاعة غير متوافرة في إيليوس...

– بالتأكيد كان هو من أوصى عليهما من باهيا، من متجر أبيه.

– ماذا؟ فتح الكولونيل مانويل داس أونساس فاه مذهولاً من الدهشة.

«ونرى مثل هذه الامور في هذه الدنيا!...

– كانا ملتصقين عندما دخل جيزوينو. حتى أنهما لم يسمعاه...

– مع أن الخادمة، حينما شاهدت جيزوينو أطلقت صرخة قوية...

– في مثل هذه اللحظات، لا يُسمع شيء... قال النقيب.

– حسناً فعل! لقد حقق العدالة...»

بدا الدكتور ماوريسيو كمن يجلس في هيئة المحلفين وأردف قائلاً:

«لقد فعل ما كان سيفعله أي واحد منا، في مثل هذه الحال. لقد تصرف كرجل فاضل: فهو لم يولد ليحمل قرون خيانة زوجته، والوسيلة الوحيدة للتخلص منها، هي التي استخدمها.

كان الحديث ينتشر، ويتناقلونه من طاولة إلى أخرى. ولم يرتفع صوت أي امرئ في ذلك الاجتماع الصاخب، حيث يجتمع بعض وجهاء المدينة، يدافع عن التهاب أنوثة سينيازينيا، خمس وثلاثون سنة من الرغبات النائمة تستيقظ فجأة على الكلام المعسول من طبيب الأسنان، وتتحول إلى عشق مضطرم. فكلام طبيب الأسنان المعسول وشعره المتموج، عيناه الفوارتان والحزينتان مثل عيني تمثال القديس سيباستيان المتوفى بالسهام على المذبح الرئيسي في الكنيسة الصغيرة في الساحة، إلى جانب الحانة.

آري سانتوس، رفيق طبيب الأسنان في الجلسات الأدبية في نادي روي باربوزا حيث تلقى قصائد ويُقرأ نثر في صباحات أيام الآحاد، كمنتدى مختصر، كان يخبر كيف بدأ كل شيء: أولاً، رأت في أوزموندو شبيهاً بالقديس سيباستيان، قديس إيمانها، بالعينين ذاتهما، تماماً.

«هذا هو شأن من يقضي يومه محشوراً في الكنيسة... هذا ما ينتهي اليه... عقّب نيوغالو المناهض المعروف للإكليروس.

- هذا صحيح... عقب الكولونيل ريبيرينيو.

إن امرأة متزوجة تعيش متشبثة بقفطان الكاهن هي مومس...»

حشو ثلاثة أسنان، والصوت العذب لطبيب الأسنان على إيقاع المحرك الياباني، كلمات جميلة أكثر غنى في الاستعارة والتشبيه، من الشعر عينه...

«كان موهوباً، أكد الدكتور. فقد أسمعني ذات مرة بعض القصائد الكاملة، ذات قواف رائعة، جديرة بأولافو بيلاك.»

كانت مختلفة جداً عن زوجها الفظ والدائم الاكتئاب والذي يكبرها بعشرين عاماً، فيما طبيب الأسنان يصغرها باثنتي عشرة سنة! وتانك العينان الضارعتان كعيني القديس سيباستيان... رباه! أي امرأة تقاوم، وفوق هذا كله، امرأة في عنفوان العمر، مع زوج عجوز يعيش في الحقل أكثر مما يعيش في البيت، شبع من زوجته، ومجنون بالسوداوات الحديثات القدوم إلى المزرعة، والخلاسيات النضرات، خشن التصرف، وأكثر من ذلك، إنها امرأة لم تنجب أولاداً لتفكر فيهم وترعاهم. فكيف تقاوم؟

– دعك من الدفاع عن هذه الفاقدة للحياء يا عزيزي السيد آري سانتوس... فالمرأة الشريفة قلعة حصينة. قاطعه الدكتور ماوريسيو كاييرس معلقاً.

– الدم... قال الدكتور، بصوت جنائزي وكأنه مصاب بلعنة أزلية. الدم المريع لآل آفيلا، دم أوفينيزيا.

– ها أنت تعود إلى مسألة الدم... تريد أن تقارن مغامرة أفلاطونية لم يتم فيها سوى تبادل النظرات من دون أي نتيجة، بهذه العربدة القذرة. مقارنة آنسة نبيلة بريئة بغانية، وأمبراطورنا الحكيم، نموذج الفضيلة، بطبيب الأسنان الفاسق هذا؟

– من يقارن؟ أتكلم فقط عن الوراثة، عن دم أهلي...

– إني لا أدافع عن أحد. أنا أروي فقط. أكد آري.

لقد تضاءل اهتمام سينيازينيا شيئاً فشيئاً باحتفالات الكنيسة، وراحت تشارك في حفلات الشاي الراقصة في نادي التقدم...

– إنه انحلال العادات. قاطعه ماوريسيو. تابع المعالجة تاركاً المحرك جانباً، مستبدلاً المقعد ذا المعادن اللماعة في العيادة، بسرير غرفة النوم المصنوع من الخشب الأسود.»

كان شيكو موليزا الواقف حاملاً بيده زجاجة وكوباً، يجمع بانتباه، التفاصيل،

وعيناه المراهقتان كانتا مفتوحتين، وفمه ينفرج عن ابتسامة بلهاء. وانتهى آري سانتوس بجملة بدت له محكمة:

«هكذا حول القدر سيدة شريفة، متدينة وخجولة، إلى بطلة مأساة...

- بطلة؟ دعك من الشعر. هل تريد تبرئة الآثمة؟ أين ترانا سنقف؟.

قال الدكتور ماوريسيو وهو يبسط يده بحركة مهددة، ثم أردف: كل هذا ناتج من الانحراف في العادات التي تهدد بغزو بلادنا: حفلات وأمسيات راقصة، لقاءات حميمة في كل الأنحاء، مغازلات في ظلمة دور السينما. إن السينما تعلم كيف يُخدع الأزواج، إنه انحراف.

ضحك جوان فولجنسيو وقال:

- ماذا يا دكتور، لا تضع اللائمة على السينما ولا على حفلات الرقص. فقبل أن توجد كل هذه، كانت النساء تخون أزواجهن. هذا يعود إلى زمن حواء والأفعى...»

أيده النقيب. فالمحامي كانت لديه رؤاه. والنقيب أيضاً لم يعذر المرأة المتزوجة التي تنسى واجباتها، لكن على من يضع اللائمة؟ على نادي التقدم ودور السينما... لم لا يضعها على أزواج معينين يُهملون زوجاتهم، ويعاملونهن كخادمات، فيما يقدمون كل شيء، جواهر وعطوراً وثياباً باهظة الثمن، والرفاهية، للبغايا، للنساء المومسات اللواتي يتكفلون بمعيشتهن، أو الخلاسيات اللواتي خصصوا لهن البيوت؟ يكفي التطلع إلى هناك، إلى الساحات بالذات: تلك الرفاهية التي تتمتع بها غلوريا التي ترتدي أفضل من أي سيدة، يا ترى، هل الكولونيل كوريولانو يتصرف بهذا الكرم مع زوجته؟

«يجب الإقرار بأن هذه الأخيرة هي عجوز شمطاء... أنا لا أتكلم عليها، بل على ما يجري بشكل عام. صحيح أم لا؟

- إن المرأة المتزوجة هي للعيش في المنزل، للاعتناء بالأولاد، والاهتمام بالزوج والأسرة...

- والبغايا لهدر الأموال؟

وكي لا يفسر كلام النقيب بشكل سيء من قبل المزارعين الحاضرين، غيّر جوان فولجنسيو مجرى النقاش:

- من لا أراه أنا مذنباً كثيراً، هو طبيب الأسنان. وأخيراً، فطبيب الأسنان كان عازباً، شاباً، خالي القلب. وإذا رأت فيه المرأة شبهاً بالقديس سيباستيان، فأي ذنب اقترفه؟ إنه لم يكن حتى كاثوليكياً. وشكل مع ديوجينيس الثنائي البروتستانتي في المدينة...

- لم يكن كاثوليكياً يا دكتور ماوريسيو.

وتساءل المحامي:

- لماذا لم يفكر، قبل أن يعبث مع المرأة بشرف الزوج الفاضل؟ قال المحامي.

- المرأة هي الإغواء، إنها الشيطان، تدير رأس الرجل.

- وتعتقد أنها ألقت بنفسها هكذا، بين ذراعيه، بدون أي شكل من أشكال الالتماس؟ وأنه لم يفعل شيئاً، البريء المسكين؟

أثار النقاش بين المثقفين الاثنين المدهشين اهتمام الحضور، المحامي وجوان فولجنسيو، واحد مهيب وعدواني، مدافع متعصب عن الأخلاق، والآخر طيب ومهذار، محب للمزاح والسخرية، لا يُعرف منه، عندما يتكلم، الجد من المزاح. كان نسيب يعبد الاستماع إلى مناقشة كهذه، وخصوصاً أن من بين الحاضرين الذين يستطيعون الاشتراك فيها، الدكتور، النقيب، نيوغالو وآري سانتوس...

كلا، فجوان فولجنسيو لم يكن يرى سينيازينيا قادرة على أن تُلقي بنفسها بين ذراعي طبيب الأسنان، هكذا من دون أي التماس. أن يكون هذا الاخير قد أسمعها جملاً معسولة، فهذا أمر معقول. لكنه يتساءل: ألم يكن أقل التزام من قبل طبيب أسنان جيد هو أن يتودد قليلاً إلى الزبائن الذين يعتريهم الخوف أمام حفارات الأسنان والمحرك والمقعد المخيف؟ كان أوزموندو طبيباً ناجحاً، من أفضل أطباء الأسنان

في إيليوس، من ينكر ذلك؟ ومن ينفي أيضاً الخوف الذي اعترى أطباء الأسنان؟ إنها جمل تقال لخلق جو لإبعاد الخوف، لاستلهام الثقة.

«إلتزام طبيب الأسنان هو معالجة الأسنان وليس إلقاء القصائد على الزبونات الجميلات يا صديقي. وما أُؤكده وأعيد تأكيده، هذه العادات الفاسدة من البلاد الساقطة على وشك أن تغزونا... سمٌّ أو بالاحرى وحل جنسي بدأ يتسرب إلى مجتمع إيليوس...

– إنه التقدم يا دكتور.

– أنا أدعو هذا التقدم فجوراً...» قال ذلك وألقى على الحانة نظرة قاسية جعلت شيكو موليزا يرتعد من الخوف.»

عن أي عادات تتكلم أيها السيد؟ صاح نيوغالو بصوته الأخنّ. عن الحفلات الراقصة، عن السينما... فأنا أعيش هنا منذ عشرين عاماً، عرفت إيليوس دائماً، بلداً للكباريهات وللإفراط في السُّكر، وللقمار، وللنساء الغواني... فهذا ليس من الآن. فقد كان موجوداً دائماً.

– هذه أمور خاصة بالرجال، لا يعني أنني أؤيدها. لكنها لا تؤثر على العائلات مثل هذه الأندية حيث ترقص الفتيات والسيدات، متناسيات التزاماتهن العائلية. والسينما هي مدرسة للفساد...»

طرح النقيب الآن سؤالاً أخيراً: كيف يمكن لرجل – وهذه أيضاً هي قضية شرف – أن يرفض امرأة جميلة، مسحورة بكلماته، مشبهة إياه بقديس من الكنيسة، ورأسها يدور من جراء العطر المنبعث من بين تموجات الشعر الأسود، ترتمي بين ذراعيه، أسنانها محشوة لكن قلبها على الدوام جريح؟ وللرجل أيضاً شرفه كذكر. وبنظر النقيب كان طبيب الأسنان ضحية أكثر منه مذنباً، وخليقاً بالرحمة أكثر من الإدانة.

«ماذا كنت لتفعل يا دكتور ماوريسيو، لو أن الدونا سينيازينيا، بذلك الجسد الذي حباها الله به، وهي عارية وبجوربين أسودين، ألقت بنفسها فوقك؟ هل كنت لتخرج راكضاً طالباً الإغاثة؟»

بعض المستمعين - العربي نسيب والكولونيل ريبيرينيو، وحتى الكولونيل مانويل داس أونساس بشعره الأبيض - وزنوا السؤال ووجدوه غير قابل للإجابة. كان الجميع قد عرفوا الدونا سينيازينيا، شاهدوها تجتاز الساحة، واللحم حبيس الفستان الضيق، ذاهبة إلى الكنيسة، والجدية تكسو سحنتها... شيكو موليزا الذي نسي الخدمة، تنهد أمام رؤية سينيازينيا عارية، ملقية بنفسها بين ذراعيه. ولهذا طرده نسيب:

- إذهب واخدم الزبائن أيها الولد. أين رأيت مثل هذا؟

كان الدكتور ماوريسيو يشعر أنه في هيئة المحلفين:

«خَسِئْت!»

لم يكن الطبيب هو البريء الذي يروي النقيب عنه (كاد يقول «الزميل النبيل») ولكي يرد عليه سيبحث في التوراة، في سفر الأسفار، عن نموذج يوسف...

«أي يوسف؟

- الذي أغوته امرأة الفرعون...

- هذا الشخص كان عاجزاً...» قال نيوغالو ضاحكاً.

صوب الدكتور ماوريسيو عينيه على موظف دائرة الجباية:

«هذه النوادر لا تتوافق مع جدية الموضوع. إن المدعو أوزموندو لم يكن بريئاً أبداً. قد يكون طبيب أسنان جيداً، لكنه كان أيضاً خطراً على العائلات في المدينة...»

ووصفه كأنه أمام هيئة المحلفين والقضاة: مُتكلم جيد، أنيق اللباس - ولم كل هذه الأناقة في بلاد يسير فيها المزارعون بسراويل الركوب والجزمات الطويلة السيقان؟ ألم يكن ذلك برهاناً على التحلل في العادات المسؤول عن التحلل الأخلاقي؟ -

منذ وصوله إلى المدينة، كشف عن نفسه كراق راقص تانغو فخري أرجنتيني.

آه! هذا النادي الذي فيه الفتيان والفتيات ونساء متزوجات، يدورون متلاصقي الاجساد... ونادي التقدم هذا، من الأفضل أن ينادوه نادي المداعبة... ففيه ينتفي الشرف والحشمة... أي غزل كان أوزموندو يمارسه، في أشهره الثمانية في إيليوس، حيث أن نصف دزينة من أكثر الفتيات العازبات جمالاً، كان يقفز عليهن من واحدة إلى أخرى، بقلبه الخالي. لماذا لم يكن يهيم بالفتيات اللواتي في سن الزواج؟ إنه يريد امرأة متزوجة. فيولم لنفسه مجاناً إلى طاولة غير مائدته. إنه محتال من هؤلاء الذين بدأوا يظهرون بكثرة في شوارع إيليوس.

- تلعثم وهز رأسه، وبدأ يستثير التصفيق الذي لم يكن ينقصه في هيئة المحلفين بالرغم من المنع المتكرر من قبل القاضي.

- وفي الحانة أيضاً لم تكن تنقصه الهتافات... وأيده مانويل داس أونساس:

- - إنه لقول حسن...

- - لا شك في ذلك. هذا هو بالضبط... كان نموذجاً جيداً، وجيزوينو تصرف كما يجب. أضاف ريبيرينيو.

-

- - أنا لا أقبل هذا الرأي. رد النقيب. لكن الحقيقة أنك يا دكتور ماوريسيو مع آخرين كثيرين غيرك، ضد التقدم.

-

- - منذ متى التقدم هو مرادف لقلة الحياء؟

- - أنتم ضده. جيد. لكن دعكم من الحديث عن قلة الحياء، في بلد يعج بالكباريهات والمومسات، حيث لكل رجل ثري عشيقته. أنتم ضد السينما، وضد النادي الاجتماعي وضدالحفلات العائلية. إنكم تريدون أن تبقى النساء مسجونات في بيوتهن، في المطبخ...

- البيت قلعة المرأة الفاضلة...

- بالنسبة إلي، لست ضد أي من هذا. قال الكولونيل مانويل داس أونساس محاولاً التفسير. أنا اعترف أنني أحب السينما لأسلي نفسي عندما يكون الفيلم كوميدياً. أما أن أرقص، فكلا، لم أعد في السن اللائقة لذلك. لكن هذا شيء، وأن أعتقد بأن للمرأة المتزوجة الحق في أن تخدع زوجها، هو شيء آخر.

- ومن قال هذا؟ من يوافق عليه؟

حتى النقيب، الرجل ذو التجارب الذي سكن في الريو ويرفض الكثير من عادات إيليوس، لم تكن لديه الشجاعة ليضع نفسه في مواجهة القانون الشرس. وهو من الشراسة والقسوة بحيث أن الدكتور فيليسمينو المسكين، وهو طبيب وصل إلى إيليوس قبل بضع سنين ليحاول التطبيب، لم يستطع الاستمرار هناك بعد أن اكتشف غراميات زوجته ريتا مع الاختصاصي بالزراعة راوول ليما، وهجرته من أجل عشيقها. كان بالأحرى سعيداً، للفرصة غير المتوقعة في التحرر من المرأة التي لا تطاق، والتي لم يدرِ هو نفسه لماذا تزوج بها. لقد شعر في أحايين كثيرة بالرضا المفرط، إذ عندما اكتشف الخيانة الزوجية، ركض الاختصاصي بالزراعة المضلل بصدد رغباته، وهو شبه عارٍ في شوارع إيليوس.

انتقام فيليسمينو لا يبدو أفضل منه، كان مرعباً جداً وغير اعتيادي، فقد تخلى للعشيق عن مسؤولية تبذير ريتا، وحبها للترف، وتسلطها الذي لا يطاق.

لكن إيليوس لم تكن تحظى بمزاج مرح، فلم يفهمه أحد، إذ اعتبروه وغداً، جباناً، وغير أخلاقي، فتلاشى زبائنه الذين كانوا في بداية تكونهم، ووُجد من رفض التعاون معه، ولقبوه بـالثور المدجن. ولما لم يكن من وسيلة أخرى أمامه، رحل إلى الأبد.

عن القانون
المتعلق بالعشيقات

في ذلك اليوم، في الحانة المضطربة والمحتفلة تقريباً، استعيدت إلى الذاكرة قصص كثيرة، عدا مغامرة الدكتور فيليسمينو المحزنة. وهي قصص في مجملها مرعبة، عن الحب والخيانة، والانتقامات التي تثير الرعدة، وبما أنه ليس بالإمكان تجنب حدوثه بسبب قربه من غلوريا الواقفة أمام النافذة وهي قلقة ومتفردة، وبسبب خادمتها التي تجولت بين الجموع على الشاطئ، قبل أن تذهب إلى الحانة لاصطياد المعلومات، ذكر بعضهم بالمسألة الذائعة الصيت لجوكا فيانا وشيكينيا. من الواضح أنه لم يكن حادثاً يمكن تشبيهه بحدث تلك الأمسية، لأن الكولونيلات لا يطبقون حكم الإعدام إلا في حالات الخيانة الزوجية. وبالنسبة إليهم، لم تكن العشيقة تستحق مثل هذا العقاب. هذا كان خاصة، رأي الكولونيل كوريولانو ريبيرو.

عندما كان يكشف أحدهم خيانة الفتاة التي يعيلها - سواء أكان بدفع إيجار الغرفة، والطعام والترف في بنسيونات البغايا، أم بإسكانها في بيت مفروش في شارع لا يرتاده الناس بكثرة - يكتفي بالتخلي عنها واستبدالها بأخرى ليتمتع بالملذات التي كانت توفرها له. ومع هذا وقعت حوادث إطلاق رصاص وقتل، أكثر من مرة، بسبب عشيقات. ألم يجر تبادل إطلاق النار ، على سبيل المثال، في حانة العرق الذهبي بين الكولونيل أنانياس والتاجر إيفو، المعروف بالنمر لحذاقته في المركز المتقدم لنادي فيرا كروز لكرة القدم، من أجل جوانا، القادمة حديثاً من ولاية بيرنامبوكو، والتي يحمل وجهها آثار الجدري؟

كان الكولونيل كوريولانو ريبيرو من أوائل الذين اندفعوا إلى الغابات وزرعوا الكاكاو، وقليلة هي المزارع التي يمكن مقارنتها بمزرعته، ذات الأرض الخصبة، حيث بدأت أشجار الكاكاو تُعطي إنتاجاً في ثلاث سنوات. إنه رجل ذو نفوذ واسع،

وإشبين الكولونيل راميرو باستوس، وقد سيطر على واحدة من أغنى المناطق في إيليوس، وهو ذو عادات بسيطة ويحتفظ بتقاليد الأزمنة القديمة، مكتئب بسيط في احتياجاته، ترفه الوحيد هو العشيقة في البيت الذي أسكنها فيه. ويعيش معظم وقته تقريباً في المزرعة، ويظهر في إيليوس ممتطياً جواده غير حافل بالراحة في القطار والأوتوبيسات الحديثة العهد، مرتدياً سروالاً فضفاضاً وسترة مطروقة بالأمطار، ويعتمر قبعة تليق بسن محترمة، وينتعل جزمتين متسختين بالوحل. إن ما كان يحبه هو الحقل وزراعات الكاكاو، وإصدار الأوامر للعمال، والتوغل في الأدغال. وكانت الألسنة السيئة تقول إنه في المزرعة، يأكل الأرز في أيام الآحاد أو في أيام العطلات فقط. كان اقتصادياً لدرجة أنه يكتفي بالفاصولياء وبقطعة من القديد، وهي وجبة العمال. ومع هذا فإن أسرته تعيش في باهيا برفاهية كاملة، في بيت كبير على المضيق، وابنه في مدرسة الحقوق، وابنته في الحفلات الراقصة التي تقيمها الجمعية الرياضية. لقد شاخت الزوجة بسن مبكرة في أزمنة الصراعات، في ليالي القلق عندما كان يغادر الكولونيل في مقدمة المسلحين.

كان جوان فولجنسيو يقول عندما ينتقد أحدهم الإهمال الذي ترك فيه الكولونيل زوجته، وحيدة في باهيا لا يزورها إلا في ما ندر: «ملاك الطيبة، شيطان البشاعة...»

حتى عندما كانت عائلته تسكن في إيليوس - في المنزل الذي تقيم فيه الآن غلوريا - لم يتخل الكولونيل قطّ عن أن تكون له عشيقة للمائدة والمخدع. أحياناً، عند وصوله من المزرعة، كان يتوجه إلى الفرع وهناك يترجل عن جواده، حتى قبل أن يذهب لرؤية عائلته. كان ترفه، وفرحه في الحياة، أولئك السوداوات والخلاسيات اللواتي هن في نضارة العمر، يعاملنه كأنه ملك.

وما إن بلغ أبناؤه السن الذي فيه يدخلون الثانوية، نقل الأسرة إلى باهيا. وكان يتوقف في منزل عشيقته. وهناك يستقبل الأصدقاء، ويُنجز أعماله، ويناقش في السياسة، ويتمدد على أرجوحة، ويدخن سيكارة ملفوفة بورق الذرة. وابنه بالذات -

عندما كان يقفز في أيام العطلات إلى إيليوس وإلى المزرعة - كان عليه أن يبحث عنه هناك. وكان، هو الرجل الذي يقتصد القرش، مبسوط اليدين بالنسبة إلى عشيقاته. يجب أن يراهن ينعمن في الترف، ويفتح لهن حسابات في المتاجر.

قبل غلوريا، كثيرات غيرها حصلن على النعم الحسنة من الكولونيل، في معاشرةٍ كانت عموماً تدوم وقتاً معيناً. وكانت العشيقة مسجونة في المنزل، لا تخرج منه إلا قليلاً، منعزلة، لا يحق لها إقامة الصداقات ولا الزيارات وكانوا يقولون عنه إنه «وحش من الغيرة».

«لا أحب أن أدفع للمرأة من أجل الآخرين...» كان يجيب من يناقش معه هذه المسألة.

لقد كانت المرأة، هي التي تهجره دائماً تقريباً ، حيث تتعب من حياة الرق تلك، ومن أن تعيش عبدة تغذى جيداً وترتدي ثياباً أنيقة. بعضهن كن يتوقفن في بيوت الدعارة، وأخريات يعدن إلى الحقول، وواحدة تسافر إلى باهيا، برفقة بائع جوال. وفي بعض الأحايين كان الكولونيل هو الذي يمل، إذ كان بحاجة إلى لحم جديد. وكان يكتشف دائماً تقريباً في مزرعته بالذات أو في الدساكر، خلاسية صغيرة لطيفة، فيطرد السابقة. وفي هذه الحالة، كان يكافئها جيداً. فقد جهز لواحدة من هؤلاء، عاشت معه أكثر من ثلاث سنوات، دكاناً في شارع سابو. ومن وقت لآخر كان يذهب إلى هناك، يزورها فيجلس معها ويتحدثان، ويبدي اهتماماً بسير العمل.

وعن عشيقات الكولونيل كوريولانو كانت تروى قصص مضاعفة. واحدة منها هي شيكينيا، على سبيل المثال، في ريعان الشباب وخجولة. فتاة صغيرة في السادسة عشرة من عمرها، تبدو خائفة من كل شيء، نحيلة، عيناها الطيبتان بارزتان من الوجه، اكتشفها الكولونيل وجاء بها من أراضيه إلى أحد البيوت في شارع جانبي. وهناك كان يربط جواده الذي بلون القرفة، عند قدومه إلى المدينة. كان الكولونيل في الخمسين، وكانت شيكينيا شديدة الحياء، وتنزعج من اهتمامه شخصياً بشراء الأحذية وقطع

القماش، وقوارير العطر، لها. وحتى في ساعات الحميمية الكاملة، كانت تناديه باحترام «السيد» و«الكولونيل». وكان كوريولانو، يسيل لعابه من الفرح.

في يوم الزياح، التقى بشيكينيا، جوكا فيانا، وهو طالب في العطلة، فبدأ يدور حول المنزل الشحيح الإنارة. حذره أصدقاؤه من الخطر. لا أحد يتورط مع واحدة من عشيقات كوررلويانو. فالكولونيل لم يكن رجلاً يحتمل المزاح. لكن جوكا فيانا الطالب في السنة الثانية في الحقوق، هز كتفيه مستهزئاً. تبخر خجل شيكينيا أمام الشارب الجسور للطالب، والثياب الأنيقة، والوعود بالحب، وبدأت تفتح النافذة التي كانت دائماً مغلقة تقريباً عندما لا يكون المزارع موجوداً.

وذات ليلة، فتحت الباب، فدخل جوكا شريكاً للكولونيل في مخدع عشيقته، شريكاً من دون رأس مال، ومن دون التزامات، جانياً أفضل المكاسب في حمى العشق الذي بات بسرعة، معروفاً ويتناوله الناس بالتعليق في المدينة بأسرها.

ولا زالت، حتى اليوم، تستعاد تلك القصة بأصغر تفاصيلها، في مكتبة وقرطاسية موديلو، في أحاديث العانسات، وأمام طاولات الغامون. واذ فقد جوكا الحس بالحيطة، راح جوكا فيانا يدخل في وضح النهار، إلى المنزل الذي يدفع إيجاره كوريولانو. وتحولت شيكينيا الخجولة إلى عاشقة جريئة، وبلغت الذروة عندما بدأت تخرج ليلاً وهي متأبطة ذراع جوكا، فيضطجعان معاً على الشاطئ المقفر تحت ضوء القمر. وكانا يبدوان كطفلين، هي في سنيها الستة عشر، وهو في سنيه العشرين غير المكتملة، خارجين من قصيدة رعوية.

وصل خلاسيو الكولونيل في بدء الليل، فاحتسوا بنهم زجاجات عرق في حانة تونينيو كارا ده بوي واطلقوا تهديدات ومضوا إلى منزل شيكينيا، حيث كان العاشقان يلعبان ألعاب الحب في المخدع الذي دفع الكولونيل ثمنه، وهما كعاشقين، يشعران بالأمان، يبتسم أحدهما إلى الآخر، سعيدين. وكان الجيران القريبون يسمعون

الضحكات والتنهدات المتقطعة، ومن مرة إلى أخرى، صوت شيكينا في تأوه: «آي، يا حبي!».

دخل الخلاسيون الفناء وسمع الجيران القريبون والبعيدون همهمات جديدة. استيقظ الشارع كله على الصراخ. واجتمع الناس أمام المنزل. وحسب ما يروى، نال كل من الفتى والفتاة ضرباً مبرحاً، وجز شعر الاثنين، ضفائر شيكينيا الطويلة، وشعر جوكا فيانا الأشقر المتماوج، وبأمر من الكولونيل المطعون بشرفه، اختفوا منذ تلك الليلة وإلى الأبد، من إيليوس.

لقد بات جوكا فيانا الآن مدعياً عاماً في جيكيتي، ولم يعد إلى إيليوس حتى بعد أن تخرج. وعن شيكينيا لم يبق ثمة أي أثر.

وبعدما شاعت هذه القصة، لم يعد يجرؤ أحد على اجتياز باب عشيقته، من دون دعوة صريحة من الكولونيل؟ وعلاوة على كل هذا، فالباب الثقيل لمنزل غلوريا هو الأكثر إثارة للذة والبريق من جميع العشيقات اللواتي لاذ بهن كوريولانو.

كان الكولونيل يشيخ، وقوته السياسية لم تعد كما كانت، لكن مثل جوكا فيانا وشيكينيا لا يزال قائماً، وكوريولانو نفسه يتكفل بالتذكير به عندما يبدو ذلك ضرورياً. وكانت ثمة وقائع حديثة العهد في دائرة الكاتب العدل تونيكو باستوس.

وغد لطيف

تونيكو باستوس، الرجل الأنيق بامتياز في المدينة، وذو العينين السوداوين والشعر الرومانطيقي ذي الخيوط الفضية، والسترة الزرقاء والسروال الأبيض، والحذاء اللامع، دخل الحانة بخطى لامبالية، في اللحظة التي لفظوا اسمه فيها. خيم صمت مطبق على الحلقة، فسأل مشككاً:

- عما كنتم تتكلمون؟ سمعت اسمي؟

– عن النساء، عمَّن يمكن أن نتكلم؟ أجاب جوان فولجنسيو. وأثناء الكلام عن النساء، فإن إسمك يذكر. لا يمكن تجنب ذلك...

انفرج محيا تونيكو عن ابتسامة، فَجَرَّ إليه كرسياً. إن شهرته كزير نساء لا يقاوم، كانت سبب حياته. وبينما كان أخوه ألفريدو الطبيب والنائب يعاين الأطفال في عيادته في إيليوس، ويُلقي خطباً في المجلس، في باهيا، كان هو يجوب الشوارع، متورطاً مع عشيقات المزارعين، جاعلاً لهم – للمزارعين – قروناً في مخادع عشيقاتهم. إن أية امرأة حديثة الوصول إلى المدينة، ما دامت جميلة، ستجد على الفور، تونيكو باستوس يدور حول تنورتها، قائلاً لها كلمات غزلية رقيقة وجريئة. الحقيقة هي أنه كان يحظى بنجاح في هذا المضمار ويُضاعف هذا النجاح في الأحاديث عن النساء. وكان صديقاً لنسيب. ويجيء عموماً في فترة القيلولة، عندما تكون الحانة فارغة، فيُدهش العربي بقصصه، وبغزواته، وبغيرة النساء بسببه. ولم يعجب نسيب قط في إيليوس شخص أكثر منه.

كانت الآراء منقسمة حول تونيكو باستوس. اعتبره بعضهم فتى طيباً، وصولياً قليلاً ومعجباً بنفسه قليلاً، لكنه ذو حديث شيق، ومسالم في أعماقه. وآخرون يرونه حماراً وممتلئاً بالغرور، وغير قادر، وجباناً، كسولاً وقنوعاً. لكن لُطفه كان غير خاضع للنقاش. فتلك الابتسامة كانت لرجل راضٍ بحياته، وحديثه ذو غواية. حتى النقيب نفسه كان يقول عندما يتكلمون عنه:

«إنه نذل لطيف، نوعية سيئة لا تقاوم.»

لم يتمكن تونيكو باستوس من اجتياز السنة الثالثة في الهندسة، مع أنه بقي سبع سنوات في جامعة ريو، حيث أرسله الكولونيل راميرو، بسبب فضائحه في باهيا. وإذ تعب من إرسال الأموال إليه، وفقد الأمل من رؤية ذلك الابن متخرجاً، وممارساً المهنة بنزوة، طلب منه الكولونيل العودة إلى إيليوس، وهيأ له أفضل دائرة كتابة عدل في المدينة والعروس الأكثر ثراءً.

إنها ثرية، ابنة وحيدة لأرملة، يتيمة مزارع مات بالرصاص قبل نهاية الصراعات بقليل. وكانت الدونا أولغا، فوق كل هذا، متبرمة. فتونيكو لم يرث شجاعة أبيه، وقد شوهد أكثر من مرة ممتقعاً ومتأتئاً عندما يتورط في المضايقات في شوارع النساء. لكن حتى هذا بالذات لا يمكن أن يفسر خوفه من زوجته. إنه الخوف، بدون شك، من أن تسبب له فضيحة تسيء إلى العجوز راميرو، الرجل المعتبر والمحترم. إذ إن الدونا أولغا كانت تهدده دائما بإثارة فضيحة. فكانت ذات لسان سليط، وتعتقد أن جميع النساء كن يتعقبن تونيكو. وكان الجيران يسمعون يومياً تهديدات السيدة البدينة، والمواعظ التي توجّهها إلى الزوج:

«إذا ما عرفت يوماً أنك تنام مع امرأة أخرى...»

في بيتها، لم تكن الخادمات تستمر طويلاً. فالدونا أولغا تشك في الجميع، فتصرفهن لقاء أقل ذريعة، فيمضين بالطبع وهن طامعات بزوجها الجميل. وكانت تنظر بريبة إلى فتيات ثانوية الراهبات، إلى السيدات في الحفلات الراقصة في نادي التقدم. وأصبحت غيرتها أسطورية في إيليوس. إن غيرتها وقلة تهذيبها، وتصرفاتها الوحشية، هي سبب حماقاتها الهائلة، وليس معرفتها بمغامرات تونيكو. تشك بذهابه إلى بيت النساء عندما كان يخرج ليلاً ليعالج المسائل السياسية كما يوضح لها. ستقلب العالم رأساً على عقب لو عرفت شيئاً. لكن تونيكو كان ذا دهاء، ويعثر دائماً على وسيلة لخداعها، ولتهدئة غيرتها. لم يكن ثمة رجل أكثر منه حيطة، عندما كان يخرج بعد العشاء مع زوجته بجولة في جادة الشاطئ، ويتناول البوظة في حانة فيزوفيو أو يأخذها إلى السينما.

كان الناس يقولون عندما يشاهدونه يمر، مشيرين إلى هيئته المحترمة جداً، وإلى بدانة أولغا التي تكاد تفجر ثيابها:

«أنظروا كيف يبدو جاداً، مع فيلته...»

لكنه كان، بعد عدة دقائق من إعادتها إلى البيت في شارع باراليليبيدس، حيث

تقبع أيضاً دائرة كتابة العدل، يصبح شخصاً آخر عندما يخرج ليحادث الأصدقاء ويعالج الشؤون السياسية. كان يرقص في الكباريهات، يتعشى في بيوت النساء التي يُمارس فيها الحب حيث تتشاجر العشيقات ويتبادلن الإهانات، ويصل بهن الأمر إلى التماسك بالشعر.

«ذات يوم سينهار البيت... كانوا يقولون. فاذاعرفت الدونا أولغا، ستكون نهاية العالم.»

وكاد يحدث هذا مرات عديدة. لكن تونيكو باستوس حشر نفسه في شبكة من لأكاذيب، يهدئ بها ظنونها. ولم يكن السعر الذي يدفعه رخيصاً من أجل مركزه كرجل لا يقاوم، كزير نساء رقم واحد في المدينة.

«ماذا تقول أنت عن هذه الجريمة؟ سأله نيوغالو.

- إنه الرعب بعينه، هه! إن أمراً كهذا...»

أخبروه عن الجوربين الأسودين، فرمش عينيه، ثم عادوا إلى تذكر قضايا مشابهة، مثل مسألة الكولونيل فابريسيو الذي طعن زوجته بمدية، وأرسل زعرانه ليُطلقوا النار على العشيق عندما كان عائداً من اجتماع ماسوني. إنها عادات قاسية، تقاليد الثأر والدم. قانون صارم.

والعربي نسيب أيضاً، بالرغم من اضطراباته - لقد تبخرت حلوى الشقيقتين دوس ريز وأطعمتهما المالحة - اشترك في الحديث. وكدأبه، ليقول إن في سورية، بلد ذويه، كان الوضع أيضاً أكثر رعباً. وقف لصق الطاولة، يسيطر على الحضور بجسده الضخم. وخيّم الصمت على الطاولات الأخرى ليسمعوه بشكل أفضل:

- في بلاد أبي، الوضع أسوأ... هناك شرف الرجل مقدس، وبهذا لا أحد يمزح. وذلك تحت طائلة...

- طائلة ماذا، أيها العربي؟

جال النظر ببطء نحو السامعين من زبائنه وأصدقائه، وأخذ وضعاً دراماتيكياً، ثم قدم رأسه الكبير إلى الأمام:

- هناك المرأة عديمة الحياء تنتهي بالسكين، تقطع إرباً على مهل...

وقال صوت نيوغالو الأخن:

- تُقطع إرباً...

اقترب نسيب منه بوجهه المتجهم ووجنتيه الكبيرتين البريئتين، وتصنع هيئة قاتل، وفتل طرف شاربه:

- أجل أيها الإشبين نيوغالو. لا أحد هناك يرضى بقتل المرأة عديمة الشرف بهذا الشيء، طلقتين أو ثلاث طلقات نارية صغيرة عليها وعلى الرجل السيىء. فهناك بلاد الرجل الفحل. وبالنسبة إلى المرأة فاقدة الحياء فإن التعامل معها غير ذلك: المرأة تقطع إرباً، ويبدأ ذلك بطرف ثدييها...

- بطرف ثدييها؟ يا للبربرية! حتى الكولونيل ريبيرينيو بدأ يرتجف.

- أية بربرية؟ إنه لا شيء. فالمرأة التي تخون زوجها ليست جديرة بأقل من هذا. فأنا لو كنت متزوجاً وزوجتي مرّغت لي جبيني، آه! كنت سأطبق القانون السوري: تقطيع جسدها إرباً... ما كنت لأفعل أقل من هذا.

أبدى اهتماماً وتأثراً:

- والعشيق؟ سأل الدكتور ماوريسيو كابيريس باهتمام لافت.

- ذاك الذي لطخ شرف جاره؟

استمر واقفاً، مرتعباً تقريباً، ورفع يده ثم أطلق ضحكة ضئيلة وعميقة، وأردف: «الشقي، آه!... يمسكه جيداً بعض الرجال من أولئك السوريين الجبليين القساة، وينزعون سرواله ويبعدون ساقيه عن بعضهما... والزوج مع الموسى ذات الحد القاطع...

وأنزل يده بحركة سريعة يروي البقية...

- ماذا؟ لا تقل لي هذا!

- هكذا يا دكتور، يخصونه... بكل الشروط الفنية.

مرر جوان فولجنسيو يده على ذقنه: «عادات غريبة يا نسيب. في النهاية، لكل بلاد عاداتها...

- أمر مروع. قال النقيب. نظراً لطباع الأتراك، يجب أن يكون هناك الكثير من الخصيان...

- لكن ما الذي دفعهم إلى التسلل إلى بيوت الآخرين ليستولوا على ما لا يخصهم؟ أعلن الدكتور ماوريسيو مؤيداً.

- ثم إن الامر يتعلق بشرف العائلة.

انتصر العربي نسيب، فابتسم، ونظر إلى زبائنه بحنو. كان يحب تلك المهنة، صاحب حانة، تلك الأحاديث، المناقشات، جولات الغامون والداما، ولعب البوكر.

«هيا إلى جولتنا في اللعب...» قال النقيب.

- ليس اليوم. الحانة تعج بالزبائن. وبعد قليل سأخرج لأبحث عن طاهية.

وافق الدكتور، ومضى ليجلس مع النقيب أمام الطاولة، وذهب نيوغالو معهما، ليلعب مع الفائز. وفيما هم يضربون أحجار اللعب على الطاولة، كان الدكتور يخبرهم:

«حدثت فضيحة مشابهة مع أحد آل آفيلا... تعلق بامرأة أحد متزعمي العمال، فكانت فضيحة اكتشفها الزوج...

- وهل خُصي قريبك؟

- من تكلم عن الخصي؟ لقد قدم الزوج مسلحاً، لكن والد جدي أطلق النار قبل أن...»

كانت الحلقة تتقلص شيئاً فشيئاً مع اقتراب ساعة العشاء. وقدم ديوجينيس

وزوج الفنانين كما في الصباح، قادمين من الفندق إلى دار السينما. وأراد تونيكو باستوس مزيداً من التفاصيل:

- أهي وقف على موندينيو؟

ومن طاولة الغامون، أعلمه النقيب وهو يشعر بأنه مُخوّل من موندينيو:

- كلا ليس له علاقة بها. إنها طليقة كعصفور، بتصرفك...

صفّر تونيكو من بين أسنانه. ألقى عليهم زوج الفنانين تحية المساء، وابتسمت آنابيلا.

- سأذهب إلى هناك لأحييها باسم المدينة...

- لا تدمج المدينة بهذا، أيها المحتال.

- حاذر موسى الزوج... علق نيوغالو ممازحاً.

- سأذهب معك... قال الكولونيل ريبيرينيو.

بيد أنهما لم يذهبا، إذ حضر الكولونيل أمانسيو ليال، فساد الفضول القوي: لقد عرف الجميع أن جيزوينو اختبأ في بيته، إثر الجريمة، بعدما روى غليله وثأرَ، وانسحب الكولونيل بهدوء، ليتجنب توقيفه بالجرم المشهود. فاجتاز المدينة التي تحركها سوق الفيرا، من دون أن يسرع الخطى، وقصد منزل صديقه ورفيقه من أزمنة الماضي المضطرب. ثم أرسل يعلم القاضي أنه سيمثل أمامه في اليوم التالي. ولكونه أعلم بذلك سلماً على الفور، احتفظ بحريته حتى يحين صدور الحكم، كما كانت العادة في القضايا المشابهة. بحث الكولونيل أمانسيو بعينيه عن شخص، واقترب من الدكتور ماوريسيو:

«هل يمكن أن تمنحني لحظة من وقتك، حضرة الدكتور؟»

نهض المحامي، وسارا معاً إلى الجناح الخلفي من الحانة، وقال له المزارع أمراً ما، فهز ماوريسيو رأسه، وعاد ليأخذ قبعته:

«بالإذن منكم. يجب أن أنسحب.»

وحيّاهم الكولونيل أمانسيو:

- مساء سعيداً يا سادة.

سارا في شارع سيل أدامي حيث يقطن أمانسيو في ساحة المجمع المدرسي. وقف بعض الزبائن الأكثر فضولاً من سواهم ليشاهدوهما يصعدان الشارع صامتين وجادين كأنهما يواكبان زياحاً أو جنازة.

- سيتفق مع الدكتور ماوريسيو ليدافع عنه.»

- سيكون بين أيدٍ طيبة. سوف نسمع في الجلسة العهد القديم والعهد الجديد.

- في الواقع... لا يحتاج إلى محامٍ، فبراءته مضمونة.

عاد النقيب، وحجر الغامون في يده، وأطلق العنان لكراهيته:

«ماوريسيو هذا كيس من النفاق... إنه أرمل فاسق.

- يقولون إنه لا توجد زنجية صغيرة تستطيع أن تطفىء شهوته.

- لقد سمعت كلاماً كهذا...

- ثمة واحدة، في مرتفع أونياون، تأتي كل ليلة تقريباً إلى بيته.

عند باب دار السينما عاد الأمير وآنابيلا إلى الظهور، وديوجينيس يقودهما بوجهه الحزين. وبيد المرأة كتاب.

«إنهم يأتون إلى ها هنا...» قال الكولونيل ريبيرينيو هامساً.

نهضوا عند اقتراب آنابيلا، وقدموا مقاعدهم. وراح الكتاب، وهو ألبوم مغلف بالجلد، يمر من يدٍ إلى أخرى، يتضمن قصاصات من صحف وآراء مخطوطة حول الراقصة.

«بعد حفلتي الأولى، أريد آراءكم جميعاً، أيها السادة.»

بقيت واقفة ولم تقبل الجلوس. تستند إلى كرسي الكولونيل ريبيرينيو، وأردفت:

- سنذهب إلى الفندق.

كانت حفلتها الأولى في الكباريه في تلك الليلة بالذات، وفي اليوم الآخر،

سيعرضان هي والأمير، في دار السينما، عروضاً في ألعاب الخفة. سينومها مغناطيسياً، وكان هائلاً في قراءة الأفكار. وقد انتهيا من إقامة عرض أمام ديوجينيس، واعترف صاحب دار السينما بأنه لم ير قبلاً أمراً مشابهاً. في فناء الكنيسة، كانت العوانس المنفعلات جداً من الجريمة الثنائية، يحملقن في المشهد، ويشرن إلى المرأة:

«واحدة أخرى لقلب رؤوس الرجال...»

- سمعت أن جريمة وقعت اليوم، ها هنا؟ سألت آنابيلا بصوت رقيق.

- صحيح. ثمة مزارع قتل زوجته وعشيقها.

- يا للمسكينة... صرخت آنابيلا متأثرة. وكانت هذه، الكلمة الوحيدة التي أبدي فيها أسفاً على مصير سينازينيا الحزين في هذا المساء الزاخر بالتعليقات.

«إنها عادات إقطاعية... نحن لا نزال نعيش هنا، في القرن الماضي. علق تونيكو باستوس ملتفتاً إلى الراقصة.

كان الأمير يبتسم بازدراء. وأومأ برأسه موافقاً، ثم جرع العرق نقياً: فهو لم يكن يحب الشراب الممزوج. وأعاد جوان فولجنسيو الألبوم بعد أن قرأ الإطراءات لعمل آنابيلا.

انصرف الفنانان. كانت تريد الإخلاد إلى الراحة قبل الحفلة الأولى.

«أنا بانتظاركم جميعاً اليوم في الباتاكلان.

- سنكون هناك بالتأكيد.»

ملأت العوانس فناء الكنيسة، وهُنَّ يستقبِحْنَ ويُهَمْهِمْنَ. إنها بلد الضياع إيليوس هذه... وأمام بوابة الكولونيل ميلك تافاريس، كان المدرِّس جوزويه يتحدث مع مالفينا. وغلوريا تتنهد في نافذتها منفردة. كان المساء يهبط على إيليوس. وبدأت الحانة تفرغ من الناس. وغادر الكولونيل ريبيرينيو في إثر الفنانين.

استند تونيكو باستوس إلى طاولة البيع قرب صندوق آلة التسجيل، وكان نسيب

يرتدي سترته، ويعطي أوامر لشيكو موليزا وليبكو فينو. وتونيكو يحدق بذهول إلى عمق الكأس الفارغة تقريباً.

«إنك تفكر في الراقصة؟ ذلك طعام مترف، ومن اللازم أن تنفق بتبذير... فالمنافسة ستكون كبيرة. وريبيرينيو يضع عينه عليها...

– كنت أفكر بسينيازينيا. الأمر مرعب يا سيد نسيب...

– كنت قد خُبِّرتُ عن علاقاتها مع طبيب الأسنان. أقسم بأنني لم أصدق. كانت رصينة جداً.

– أنت ساذج. كان يخدم نفسه بنفسه، كشخص مألوف للحانة. فملأ الكأس مجدداً، وطلب وضعه على الحساب. سيدفع في نهاية الشهر. وأردف:

– لكن كان بالوسع أن تكون المسألة أسوأ، أسوأ تماماً.»

خفض نسيب صوته مشدوهاً:

«أنت أيضاً، تصطاد في تلك المياه؟»

لم تكن لتونيكو الشجاعة ليؤكد. كان يكفيه أن يزرع الشك والشبهة. فقام بحركة من يده. وقال صوت نسيب بخبث:

«كانت تبدو رصينة جداً... على المرء أن يرى عن قرب، هذه الرصانة كلها... وأنت أيضاً، اعترف ؟

– لا تكن ذا لسان سيىء أيها العربي. دع الموتى في سلام.»

فتح نسيب فاه. كان سيقول شيئاً ما، ولم يقل. تنهد فقط. إذا فطبيب الأسنان لم يكن الأول... هذا الملعون تونيكو، بشعره الأبيض، زير النساء، كما هو، احتضنها أيضاً، تناول ذلك الجسد. كم مرة رافقها هو، نسيب، بعيني الشراهة، والتقدير عندما كانت سينيازينيا تمر أمام الحانة إلى الكنيسة.

«ولهذا لا أتزوج ولا أتورط مع امرأة متزوجة.

– ولا أنا... قال تونيكو.

- ساخر...»

اتجه نسيب إلى الطريق:

«سوف أرى، قد أعثر على طاهية. فقد وصل بعض المهاجرين، من يدري، قد توجد واحدة مناسبة بينهم.»

كان الزنجي تويسكا، تحت نافذة غلوريا، يخبرها بالأمور الجديدة، بتفاصيل الجريمة، بأمور سُمعت في الحانة، والخلاسية تداعب شعر الولد الأجعد، وتقرصه في وجهه. ونظر النقيب إلى المشهد بعدما ربح جولة اللعب:

- يا لهذا الزنجي الصغير السعيد!.

ساعة الغسق الحزينة

فيما هو يسير في طريق السكة الحديد، في ساعة الغسق الحزينة، يعتمر القبعة ذات الطرفين العريضين ومسدسه في حزامه، كان نسيب يتذكر سينيازينيا. ومن داخل البيوت كانت تتسرب ضجة أواني الطاولات ، والضحكات والأحاديث. كانوا يتحدثون بالتأكيد عن سينيازينيا وأوزموندو. وتذكر نسيب بحنو، أنه يرغب، خفية، لو يُدان هذا الشقي جيزوينو ميندونسا، الشخص المتعجرف والسمج، من قبل العدالة، وهو أمر مستحيل بالتأكيد مع أنه يستحق ذلك. عادات قاسية هذه عادات إيليوس...

كل تلك المكابرة من نسيب، قصصه المرعبة عن سورية، المرأة المقطعة بالسكين، العشيق المخصي بالموسى، كان كله مجرد لغو. كيف يستطيع أن يرى أن بوسع امرأة فتية وجميلة أن تستحق الموت لخداعها رجلاً عجوزاً وقاسياً، غير قادر بالتأكيد على أن يزودها بالحنان، بكلمة رقيقة؟ إن أرض إيليوس هذه، بلاده، كانت بعيدة كثيراً عن أن تكون متحضرة، تتكلم كثيراً عن التقدم، عن المال الذي يجري طليقاً، عن الكاكاو الذي يشق الطرقات ويشيد الدساكر، ويبدل سمات المدينة، لكي

تبقى قائمة، العادات القديمة، وذلك الرعب. لم تكن لنسيب الشجاعة لأن يقول هذه الأمور بصوت مرتفع، إنما موندينيو فالكون وحده يستطيع أن يأتي بهذه الجرأة. لكنه في هذه الساعة المكتئبة من العتمة الهابطة، كان يفكر، ويجتاحه الحزن، فيشعر أنه تَعِب.

بسبب هذه الأمور وغيرها، لم يتزوج: حتى لا يصبح مخدوعاً، ولا يقتل، ويريق الدم الخاص، ويُدخل خمس رصاصات في صدر المرأة. كان يتمنى كثيراً أن يتزوج... كان يشعر بفقدان الحنان، والرقة، والعائلة، والبيت المليء بالحضور الأنثوي يعود إليه عند منتصف الليل بعدما يغلق الحانة. التفكير يلاحقه من آن لآخر، مثلما يلاحقه الآن وهو في طريقه إلى «سوق العبيد». لم يكن رجلاً يبحث عن عروس. فلم يكن لديه وقت لذلك، فكل يومه كان في الحانة. وكانت حياته العاطفية تقتصر على العلاقات الغرامية القصيرة إلى حد بعيد، مع عشيقات يلتقي بهن في الكباريهات، نساء له ولسواه في الوقت ذاته، مغامرات سهلة لا تستوعب حباً. وعندما كان لا يزال فتياً، كان لديه حبيبتان أو ثلاث. لكن بما أنه لم يكن بوسعه آنذاك، أن يفكر في الزواج ، فاقتصر ذلك على أحاديث بلا طائل، ورسائل صغيرة تعين موعداً في دور السينما، وقبلات خجولة متبادلة في الحفلات أثناء النهار.

اليوم، لم يعد لديه وقت للمغازلات. فالحانة تشغل وقته طوال اليوم. كان يريد أن يكسب مالاً، يفلح في عمله، ليستطيع شراء أراضٍ يزرع فيها الكاكاو. وكجميع أهالي إيليوس، كان نسيب يحلم بحقول الكاكاو، بأرض تنمو فيها الأشجار ذات الثمار الصفراء كالذهب، وتساوي ذهباً. ربما يفكر إذ ذاك بالزواج، لكنه يكتفي بتصويب عينيه إلى السيدات الجميلات اللواتي يسرن في الجادة، إلى غلوريا غير المرتدة عن نافذتها، إلى اكتشاف نساء حديثات العهد في المدينة، مثل ريزوليتا، فيضاجعهن.

ابتسم عند تذكره المرأة القادمة من ولاية سيرجيبي في الأمس، عينها الحولاء

قليلاً، وخبرتها في السرير. هل سيذهب ليراها مجدداً تلك الليلة أم لا؟ إنها تنتظره بالتأكيد، في الكباريه، لكنه كان تعباً وحزيناً. وفكر مجدداً في سينيازينيا: مرات عديدة بقي مسمراً أمام الحانة، وهو يراها تمر في الساحة، تدخل الكنيسة. عيناه ترغبان ملكية المزارع، تلطخان الشرف الحميم بالتفكير الذي لم يعد يستطيع أن يلطخه بالأفعال والتصرفات المجنونة. لم يكن يجيد الكلمات العذبة كالقصائد، ولم يكن لديه شعر متموج، ولا يرقص التانغو الأرجنتيني في نادي التقدم. ولو فعل ذلك لكان هو ربما ممدداً وسط الدم، مثقوب الصدر بالرصاص، إلى جانب المرأة المرتدية جوربين أسودين.

كان نسيب، يسير في الغسق، ومن آنٍ إلى آخر، عندما يجيب عن تحية المساء، كان تفكيره يشطُّ بعيداً. الصدر المثقوب بالرصاص، وثديا العشيقة الأبيضان الممزقان بالرصاص. لقد رأى المشهد. الجثتان جنباً إلى جنب، عاريتان وسط الدم، وهي بجوربيها الأسودين بلا رباطين تبدو أكثر أناقة. إنهما جوربان من نسيج شفاف يحبسان اللحم الأبيض من دون مساعدة أي شيء. جميل! جميل ومحزن. تنهد نسيب، فلم يعد يتبين طبيب الأسنان أوزموندو إلى جانب سينيازينيا. كان يرى نفسه، نسيب، إنما أكثر نحولاً وأصغر بطناً، ممدداً، وهو ميت، مقتولاً، إلى جانب المرأة، يا للجمال! الصدر ممزق بالرصاص. تنهد مجدداً. القلب الرومانطيقي، والقصص المرعبة التي كان يرويها لم تكن تعني شيئاً. حتى ولا المسدس الذي يحمله في حزامه ككل الرجال في إيليوس، في ذلك الزمن. إنها عادات البلد... إن ما كان يحبه حقاً هو أن يأكل جيداً، وأطباقاً كثيرة متعددة التوابل، وأن يشرب جعته المثلجة، وأن يلعب جولة حامية من الغامون، ويجتاز أوان الفجر وهو يجوس بعينيه طرف أوراق اللعب في البوكر، وجلاً من أن يخسر في اللعب أرباح الحانة التي سيودعها في المصرف آملاً شراء الأراضي، وأن يزيف الشراب ليكسب أكثر، فيزيد بحرص بعض آلاف الريالات على حسابات الذين كانوا يسددون شهرياً، وأن يصطحب أصدقاء الكباريه،

وينهي الليل في أحضان أي ريزوليتا، عشيقة بعض الأيام. كان يحب هذه الأمور، والسمراوات المحروقات اللون، وأن يتحدث أيضاً ويضحك.

كيف اتفق نسيب مع طاهية
أو عن الطرق المعقدة للحب

ترك وراءه سوق الفيرا حيث الخيم المفككة، والبضائع المكدّسة، واجتاز البنايات والسكة الحديد. قبل بدء مرتفع كونكيستا كان يُقام سوق العبيد. هكذا كان بعضهم منذ زمن بعيد، يطلق على المكان الذي يخيم فيه المهاجرون الذين ينتظرون العمل. وبقي الاسم، ولا أحد دعاه باسم آخر. كان يتجمع أهالي السرتون الهاربون من الجفاف، الأكثر فقراً من بين الذين تركوا بيوتهم وأراضيهم لنداء الكاكاو. ثمة مزارعون يتفحصون القطيع الحديث العهد، ويضربون جزماتهم بالسياط. فأهالي السرتون يتمتعون بشهرة كونهم عمالاً جيدين.

كانوا رجالاً ونساء، منهكين ويتضورون جوعاً، ينتظرون، ثم ينظرون إلى السوق البعيدة، حيث يوجد كل شيء، فيملأ الأمل قلوبهم. لقد تمكنوا من التغلب على الدروب، الكآتنغا، الجوع والأفاعي، وأمراض الملاريا، والتعب. بلغوا أرض البحبوحة، فاعتقدوا أن أيام الشقاء قد ولّت. سمعوا قصصاً مدهشة عن الموت والعنف، لكنهم كانوا يعرفون أن سعر الكاكاو يرتفع، وأن رجالاً من السرتون وصلوا قبلهم، إلى الطرف الآخر، يلوحون بسياط ذي قبضات فضية، ويملكون حقولاً واسعة من الكاكاو.

انفجر شجار في داخل السوق، فتراكض الناس، ولمعت مدية مع آخر شعاع من الشمس، ووصل الصراخ إليهم. كانت جميع الاسواق تنتهي هكذا، بسكارى

وضجيج. ارتفعت من بين أهالي السرتون أنغام من آلة هارمونيكا، وصوت امرأة تغني لحناً حزيناً أنيقاً.

أرسل الكولونيل ميلك تافاريس إشارة إلى عازف الهارمونيكا، فسكتت الآلة:

«متزوج أنت؟

- كلا.

- هل تريد العمل عندي؟ وأشار إلى رجال آخرين سبق واختارهم. عازف جيد ليس كثيراً على مزرعة. إنه يبهج الحفلات... كان يتمتع بابتسامة مقنعة. ويقولون عنه إنه يحسن اختيار رجال جيدين للعمل، أفضل من أي شخص آخر. كانت مزارعه في كاشويرا دو سول، وكانت قوارب كبيرة تنتظر إلى جانب جسر السكة الحديد.

- تريد تاجراً أم أجيراً؟

- حسب الاختيار. لدي غابات أريد اقتلاعها، ويلزمني أجراء.

كان القادمون من السرتون، يفضلون العمل كتجار، يغرسون الكاكاو الجديد، والحصول على إمكانية كسب المال لحسابهم وعلى حسابهم.»

تفحص نسيب الرجال الذين اتفق معهم الكولونيل، واستحسن الاختيار. كان يحسد مالك الأراضي هذا، الذي يتنقل بجزمتيه، يتفق مع الرجال من أجل الفلاحة، فيما هو يبحث عن امرأة ليست فتية كثيراً، جادة قادرة على أن تؤمن له نظافة البيت الصغير في لاديرا ده سان سيباستيان، وتطهو الطعام وتغسل الثياب وأطباق الحانة.

- إن إيجاد طاهية هنا، ليست مسألة سهلة...» قال ميلك.

كان نسيب يبحث بالغريزة، بين القادمات من السرتون، عن واحدة شبيهة بفيلومينا، بعمرها تقريباً، وبطبعها المتمرد. شد الكولونيل على يده مودعاً، فالقوارب تنتظر وقد امتلأت بحمولتها:

«جيزوينو تصرف كما يجب. إنه رجل شريف...»

ونسيب أيضاً، زفه أخباره الجديدة:

«يبدو أن مهندساً قَدِمَ ليدرس المضيق.

- سمعت بذلك. إنه وقت ضائع، فهذا المضيق ليس قابلاً للإصلاح.»

خرج نسيب سائراً بين القادمين من السرتون. شبّان وعجائز كانوا يحدجونه بنظرات يلمع فيها الأمل. ونساء جميعهن تقريباً معهن أولاد يتمسكون بتنانيرهن. وأخيراً انتبه إلى واحدة في الخمسين من عمرها، ضخمة الجسم، قوية البنية، من دون رجل:

«بقي في الطريق... سيدي!

- أتحسنين الطهو؟

- ليس لخدمة المائدة.»

رباه، أين أعثر على طاهية؟ لا أستطيع الاستمرار بدفع ثروة للشقيقتين دوس ريز. والآن في أيام الحركة، اليوم أعمال قتل، وغداً دفن... والأسوأ من ذلك، هو أنه يجب أن أتغدى وأتعشى في فندق كويليو حيث الطعام قذر ومن دون نكهة. الحل الوحيد هو أن أوصي على الطعام من أركاجاو، وأدفع أجرة الانتقال. توقف أمام امرأة عجوز، عجوز لدرجة أنها بالتأكيد لم يبق لها وقت إلا للموت حالما تبلغ البيت. كانت منحنية على عصا. كيف تمكنت من اجتياز الطريق الطويل إلى إيليوس؟ تأثر كثيراً بوضعها، فهي عجوز ومتيبسة، بقية إنسانة. ما أكثر الشقاء في هذا العالم...

ظهرت امرأة أخرى ترتدي أسمالاً بائسة، ومغطاة بالوساخة بحيث كان يستحيل رؤية ملامحها وتحديد عمرها. شعرها منبوش، ومتسخ بالغبار، والقدمان حافيتان. كانت تأتي بقرعة ماء، سلمتها إلى المرأة العجوز ذات اليدين المرتجفتين، التي شربتها بقلق:

«ليجازيك الرب...

- لا داعي لذلك أيتها الجدة...»

كان صوتها صوت شابة، ربما هي من كانت يغني عندما وصل نسيب.

اختفى الكولونيل ميلك ورجاله وراء عربات السكة الحديد، وتوقف عازف الهارمونيكا لحظة، وأشار مودعاً. رفعت المرأة ذراعها، هزت يدها، وعادت إلى المرأة العجوز مجدداً، وأخذت منها القرعة الفارغة. كانت ستنصرف، فسألها نسيب وهو لا يزال متاثراً بمنظر تلك المرأة العجوز الواهنة:

«هل هي جدتك؟

- كلا أيها الشاب.» توقفت وابتسمت. عندها فقط، عرف نسيب أنه يتعامل في الواقع مع امرأة فتية لأن عينيها لمعتا عندما كانت تبتسم.

- لقد صادفوها في الطريق، منذ أربعة أيام.

- من هم؟

- الذين كانوا هناك...» أشارت بإصبعها إلى جمع من الناس ، وأطلقت مجدداً ضحكة نقية، بلورية، غير متوقعة:

«خرجنا معاً، من المكان نفسه. فالجفاف قتل كل ما هو كائن حي، ويبس كل ما يشبه الماء، وحول الشجر إلى حطب يابس. وفي الطريق كان الناس يلتقون آخرين. الجميع هاربون.

- هل أنت قريبة لهم؟

- كلا أيها الشاب. إني وحيدة في هذه الدنيا. كان خالي قادماً معي فأسلم الروح قبل أن يصل إلى جيريموابو. بما يسمى السل...

وضحكت كأن ذلك كان أمراً يدعو إلى الضحك.

- ألستِ أنت من كنتِ تغنين منذ وقت قصير؟

- نعم، أنا أيها الشاب. كان ثمة شاب عازف، اتفقوا معه على العمل في الحقل. قال إنه سيثرى هنا. الناس تغني، تنسى الأوقات الرديئة...

كانت يدها تمسك بالقرعة، وتسندها إلى ردفها. تفحصها نسيب من تحت الوساخة. كانت تبدو قوية ونشيطة.

- ما هو الشيء الذي تحسنين القيام به؟

- قليل من كل شيء، أيها الشاب.

- تغسلين الثياب؟

- ومن لا يعرف؟ قالت بدهشة. يكفي أن يوجد الماء والصابون.

- والطهو؟

- لقد كنت طاهية، وحتى في بيت أناس أثرياء... وضحكت من جديد كأنها تذكرت أمراً ما، مسلياً.

ربما لأنها ضحكت، استنتج نسيب أنها غير ملائمة. فهؤلاء الناس القادمون من السرتون، الجائعون، كانوا قادرين على إطلاق أية كذبة من أجل الحصول على عمل. ما الذي تعرفه عن الطبخ؟ تشوي طائر الجابا وتطهو الفاصولياء، لا أكثر من ذلك. فهو بحاجة إلى امرأة مسنة، رصينة، نظيفة ونشيطة، مثل العجوز فيلومينا. وطاهية جيدة تفهم في التوابل، في القطر للحلوى. استمرت الفتاة واقفة، منتظرة، تحدق إلى وجهه، فهز نسيب يده بدون أن يجد ما يقوله:

«حسناً... إلى مناسبة أخرى. حظاً طيباً.»

استدار لينصرف، فسمع وراءه صوتاً حنوناً ومليئاً بالحرارة:

- يا للشاب الجميل!

توقف، لم يذكر أن أحداً رآه جميلاً، باستثناء العجوز ثريا، أمه، في أيام الطفولة. كانت صدمة له تقريباً.

«مهلاً.»

ثم عاد يتفحصها. كانت قوية، فلماذا لا يجربها؟

«هل تحسنين الطهو حقاً؟

- خذني أيها الشاب وسوف ترى...»

إذا لم تكن تحسن الطهو، فسوف تساعده، أقله، في ترتيب البيت، وغسل الثياب.

«كم تريدين أن تكسبي؟

- أنت من يعرف، أيها الشاب. فادفع ما تريد...

- لنر أولاً ما الذي تحسنين عمله، وبعد ذلك نتفق على المرتب. هل يناسب هذا؟

- بالنسبة إلي، كل ما تقوله يناسبني.

- خذي صرّتكِ إذاً.»

ضحكت مجدداً، مظهرة أسنانها البيضاء المصقولة. كان تعباً وقد بدأ يرى أنه قام بعمل غبي. لقد أشفق على القادمة من السرتون، وسيأخذ عبئاً إلى بيته. لكن فات الأوان للندم. لو أنها تعرف أن تغسل أقله.

عادت بصرَّة صغيرة من القماش. لم تكن تملك الا القليل، فخرج نسيب يمشي على مهل وكانت ترافقه والصرة بيدها، وتسير بخطى قصيرة وراءه. وحالما خرجا من السكة الحديد، أدار رأسه وسألها:

- ما هو اسمك حقاً؟

- غابرييلا، لخدمتك أيها السيد.

واصل السير، هو في المقدمة، مفكراً من جديد بسينيازينيا، باليوم المضطرب، وبجنوح الباخرة وجريمة الموت، فضلاً عن أسرار النقيب والدكتور وموندينيو فالكون. ثمة أمر يحاك. سوف لن يتمكنوا من خداعه. فالخبر لن يلبث أن يظهر. في الحقيقة، إن نبأ الجريمة قد أنسى هو أيضاً، الجو التآمري للثلاثة، وغضب الكولونيل راميرو باستوس. لقد هزت الجريمة الجميع، وكل ما عداها أصبح في الصف الثاني. طبيب الأسنان المسكين، الفتى اللطيف، دفع غالياً ثمناً لشهوته امرأة متزوجة. الخوض مع نساء الآخرين كان مجازفة كبرى، تنتهي برصاصة في الصدر.

ليأخذ تونيكو باستوس الحيطة، وإلا فذات يوم سيحدث له أمر مشابه. هل نام حقيقة مع سينيازينيا أم كان ذلك لغواً منه، وزهواً ليترك انطباعاً لديه؟ على أي حال، تونيكو كان يخاطر، ويوماً ما ستحدث له مصيبة. وكان نسيب يفكر: من يدري؟ ربما يستحق العناء، أن يتعرض المرء لكل المخاطر من أجل نظرة، تنهيدة، قبلة من امرأة.

كانت غابرييلا تسير على بعد خطوات وراءه، مع صرّتها، وقد نسيت كليمينتي، وهي فرحة لخروجها من كومة المهاجرين، من المخيّم النَتِن. كانت تسير ضاحكة بعينيها وفمها، وقدماها الحافيتان تزلقان تقريباً على الأرض، ولديها رغبة في غناء أهازيج السرتون، ولم تنشدها لأن الشاب الجميل والحزين قد لا يحبها.

عن القارب في الغابة

«قيل إن الكولونيل جيزوينو قتل زوجته وطبيب أسنان كان ينام معها. فهل هذا حقيقة أيها الكولونيل؟ سأل أحد المجذفين ميلك تافاريس.

- أنا أيضاً سمعت ذلك ، قال آخر.

- إنها لحقيقة. أجل. لقد ضبط زوجته في السرير مع طبيب الأسنان، فقتل الاثنين.

- النساء حشرات فاسدة، فهن سبب كل مصائبنا...»

انطلق القارب في النهر، وتزايد اتساع الغابة في الضفتين. وكان أبناء السرتون يتطلعون إلى المنظر الطبيعي البكر، وقلوبهم يتملكها رعب غامض. وكان الليل يهبط من

الأشجار على الماء المرعبة. كان القارب كبيراً بحجم سفينة، يجري مشحوناً بأكياس الكاكاو، ويعود مليئاً بالمؤن. والمجذفون ينحنون بجهد غير اعتيادي، ويتقدمون ببطء. أحدهم أضاء مصباحاً عند الدفة، فخلق الضوء الأحمر أشباحاً معتمة في النهر.

«هناك في ولاية سيارا وقع حادث مشابه... أخذ أحد أبناء السرتون يروي.

- النساء مخادعات. ولا أحد يعرف أبداً ما يدور في رؤوسهن؛ عرفت امرأة تبدو قديسة، ولا أحد يستطيع أن يتصور...» قال الزنجي فاغونديس.

كان كليمينتي صامتاً. فجرّ ميلك تافاريس الأُجراء الجدد إلى الحديث، لأنه يريد أن يعرف ، مزايا ونقائص كل واحد من عماله، وماضيهم. وكان أبناء السرتون يروون القصص المتشابهة؛ الأرض نفسها القاحلة المحروقة بالجفاف، حقول الذرة والمنيهوكا الضائعة، المسيرة اللامتناهية. كانوا بسطاء في السرد. وصلت إلى هناك أخبار إيليوس: الأرض الغنية، سهولة الحصول على المال، زراعة المستقبل، الضجيج وحوادث الموت. وعندما ضربهم الجفاف، تركوا كل شيء واتجهوا إلى الجنوب. كان الزنجي ماغونديس أكثرهم ثرثرة، فروى مآثره. وهم أيضاً كانوا يحبون الاستماع.

«يبدو أن ثمة غابات للاقتلاع...

- للاقتلاع، يوجد الكثير. لكن للتحديد لم يعد يوجد شيء. فكل أرض لها مالك. قال احد المجذّفين ضاحكاً.

لكن ميلك تافاريس، خفف من وطأة الخبر إذ قال:

- لكن لا يزال ثمة مال ليكسبه المرء، ومال كثير للرجل العامل.

إنما ذلك الوقت الذي كان فيه الفرد يصل بيدين ملوحتين مذوداً بالشجاعة والتصميم، فيذهب إلى الغابة ليزرع حقلاً، قد انتهى. ذلك الوقت كان طيباً، يكفي أن يكون لديه الشجاعة، فيتقدم، ويصفي أربعة أو خمسة أشخاص من الذين لديهم النوايا نفسها، فيصبح مواطناً ثرياً.

- سمعت عن ذلك الوقت ومن أجل هذا جئت. قال الزنجي فاغونديس.

- أنت لا تحب المحراث يا أسمر؟ سأله ميلك.

- أنا لا أمقته، أيها السيد. لكنني أحسن استعمال قضيب النار. قال ذلك ضاحكاً

وهو يداعب بندقيته الرشاشة. «ثمة غابات كبيرة هناك في سلسلة جبال بافوريه، على سبيل المثال. إنها أرض صالحة للكاكاو لا تضاهيها أرض أخرى.

- إنما يجب أن تشتري كل شبر من الغابة. فكل شيء محدد ومسجل. وأنت نفسك أيها السيد لديك أراض هناك.

- قطعة صغيرة... اعترف ميلك. شيء تافه. سأبدأ باقتلاع الغابة في العام المقبل، إذا أراد الله.

- إيليوس اليوم لا تساوي شيئاً، فهي ليست كما كانت قبلاً. إنها تتحول إلى مهمة، قال احد المجذفين بأسف.

- ولهذا السبب لا تساوي شيئاً؟

- كان الرجل يساوي، في الماضي، مقدار شجاعته. أما اليوم، من يجمعون الثروات هم الباعة الجوالون الاتراك وأصحاب المتاجر الإسبانيون. لم يعد الوضع كما كان سابقاً.

- لقد تغير ذلك الزمن. أوضح ميلك. والآن حل التقدم، واختلفت الأمور. لكن لايزال الرجل العامل يتدبر نفسه، إذ لا زال ثمة مكان لكل الناس.

- لم يعد يستطيع المرء أن يطلق الرصاص في الشارع، فهم يعتقلونه فوراً.»

كان القارب يجري بتمهل صعوداً، وخيالات الليل تغطيه، وتصل إلى الأسماع صرخات الحيوانات من الغابة، الببغاوات تحدث جلبة أصوات فجائية من على الأشجار. وحده كليمينتي بقي صامتاً، فيما الجميع يشتركون في الحديث، يروون وقائع، يتناقشون حول إيليوس.

«هذه البلاد سوف تنمو أكثر في اليوم الذي يبدأ فيه التصدير مباشرة.

- تماماً.»

لم يفهم أبناء السرتون، فأوضح لهم ميلك تافاريس:

- كل الكاكاو إلى الخارج، إلى إنكلترا، إلى ألمانيا، إلى فرنسا، إلى الولايات

المتحدة، اسكندينافيا، الأرجنتين، يخرج من مرفأ باهيا. أموال كثيرة، ضرائب ورسوم التصدير، كلها تبقى في العاصمة. ولا ترى إيليوس حتى البقايا. المضيق كان ضيقاً، ضحلاً. إنما بالعمل الشاق وحده - وجد حتى من يقول إنه لا توجد وسيلة - سيصبح ممكناً جعله قادراً على استيعاب عبور البواخر الكبيرة. وعندما تأتي بواخر الشحن الكبيرة لتجلب الكاكاو من مرفأ إيليوس، عندها يمكن التكلم في الواقع على التقدم.

«يتكلمون الآن على شخص يدعى السيد مونديني فالكون يا كولونيل، يقال إنه سيجد حلاً، وإنه رجل ملعون.

- إنك تفكر بالفتاة؟ سأل فاغووندس كليمينتي.

- إنها لم تقل لي حتى كلمة وداع ولم تنظر إلي مودعة.

- لقد قلبت رأسك، فلم تعد أنت نفسك.

- كيف يتجاهل الناس حتى ولا كلمة وداع!

- المرأة هي هكذا بالضبط. لا تساوي شيئاً.

- إنه رجل ذو طموح كبير. لكن كيف سيجد حلاً لمسألة المضيق. إذا كان الإشبين راميرو باستوس نفسه لم يفلح؟ «قال ميلك متحدثاً عن مونديني فالكون.

داعبت يد كليمينتي الهارمونيكا، وفي قعر القارب سمع صوت غابرييلا مغنياً، فنظر إلى ما حوله، كمن يبحث عنها. كانت الغابة تحيط بالنهر، والأشجار تبعث تشويشاً من تشابك الأغصان والصراخ المفزع والنعيب الباعث على التشاؤم من طيور البوم، إنها وفرة في الاخضرار المتحول إلى سواد، لم تكن مثل الكاآتنغا الرمادية والعارية.

مد أحد المجذِّفين إصبعه مشيراً إلى مكان في الغابة:

«هنا كان تبادل إطلاق الرصاص بين أونوفري ومسلحي السيد أمانسيو ليال حيث قتل حوالى العشرة أشخاص.»

يمكن للمرء أن يكسب مالاً في تلك الأرض، إذا كان لا يخشى من العمل. أكسب مالاً ثم أعود إلى المدينة بحثاً عن غابرييلا. يجب أن أجدها، مهما كان الأمر.

- الأفضل هو ألا تفكر بها. إنزعها من رأسك.» قال له فاغونديس ناصحاً.

راحت عينا الزنجي تجوب الغابة، وتكلم بصوت رقيق على غابرييلا.

- انزعها من رأسك، فهي امرأة ليست لك وليست لي. إنها ليست مومساً.

- لقد دخلت عقلي، حتى لو أردت فلن أستطيع.

- إنك لمجنون. فهي ليست المرأة التي يمكن أن تعيش معها.

- ما الذي تقوله؟

- لست أدري... بالنسبة إلي هي هكذا. بوسعك النوم معها، تفعل أموراً لكن أن تحوزها حقاً، أن تصبح مالكها، مثل ما تملك الآخر، فهذا لا أحد يستطيعه أبداً.

- ولماذا؟

- لا أدري. الشيطان هو الذي يعرف. لا يوجد تفسير لذلك.

أجل، فالزنجي فاغونديس على صواب. كانا ينامان معاً في الليل، وفي اليوم التالي كانت تبدو كأنها لا تذكره، فتنظر إليه مثلما تنظر إلى الآخرين، وتعامله مثلما تعامل غيره. كمن لم يكن له أية أهمية.

الخيالات تغطي القارب وتحيط به. وتبدو الغابة أنها تقترب أكثر فأكثر، مغلقة نفسها عليهم، ونعيب طيور البوم يقطع العتمة. إنها ليلة بدون غابرييلا، جسدها الأسمر، ضحكتها التي بلا معنى، وفمها الشبيه بالبيتانغا لم يقل له حتى وداعاً. إنها امرأة يصعب فهمها. وجع يصعد إلى صدر كليمينتي. وأيقن فجأة أنه لن يراها ثانية، ولن يأخذها بذراعيه، ولن يسحقها بصدره، ويسمع أنّات الحب الصادرة عنها.

في صمت الليل، رفع الكولونيل ميلك تافاريس صوته، وأمر كليمينتي:

«إعزف شيئاً ما للناس أيها الفتى، لننسى الوقت.»

تناول الهارمونيكا، ومن بين الأشجار طلع القمر فوق النهر. كان كليمينتي يتبين

وجه غابرييلا. وتلمع أضواء الفوانيس والمصابيح من بعيد. وارتفعت الموسيقى ببكاء رجل ضائع، منعزل إلى الأبد، وكانت غابرييلا في الغابة، تضحك، مع أشعة القمر.

غابرييلا مخدرة

أخذها نسيب إلى منزله في لاديرا ده سان سيباستيان. وحالما وضع المفتاح في القفل ظهرت الدونا آرميندا في النافذة وهي تهمهم:

«ما هذا الذي حصل يا سيد نسيب؟ كانت تبدو أنيقة جداً، تقوم بأعمال الزخرفة، وكل مساء في الكنيسة. ولهذا أقول دائماً...» وقعت عيناها على غابرييلا، فتابعت بجملة مقطوعة.

«جئت بها كخادمة، للغسل والطهو.»

تفحصت الدونا آرميندا، المهاجرة، من رأسها إلى أخمص قدميها، كأنها تقيسها، وتزنها، ثم قدمت لها خدماتها:

- إذا احتجت لأي شيء يا ابنتي، يكفي أن تناديني. فعلى الجيران أن يساعد بعضهم بعضاً، أليس كذلك؟ إنما اليوم لن أبقى في الليل. إنه يوم الجلسة في بيت الإشبين ديودورو، اليوم الذي يتحدث فيه المرحوم معي... حتى أنه قد يكون بالإمكان أن تظهر الدونا سينيازينيا... كانت عيناها تتنقلان من غابرييلا إلى نسيب. ثم أردفت: «إنها شابة، هيه؟ الآن لم تعد تريد عجائز مثل فيلومينا...» كانت تضحك بخبث. فقال نسيب:

- كانت هي من وجدت...

- نعم، كما كنت أقول، بالنسبة إلي لم تكن مفاجأة. حتى أنني منذ أيام، رأيت طبيب الأسنان في الشارع، وبالمصادفة كان يوم الجلسة، بعد مضي أسبوع بالضبط

على ذلك. تطلعت إليه وسمعت صوت المرحوم في أذني قائلاً: «كما هو هنا مفعم بالحياة، موته داهم». وفكرت أن المرحوم يمزح. لكن اليوم، عندما علمت بالأمر، أدركت أن المرحوم كان يحذرني.»

توجهت إلى غابرييلا، فيما دخل نسيب إلى المنزل:

«إذا احتجت إلى أي شيء، ناديني فقط. وغداً ستتحادث، إني هنا لأساعد السيد نسيب، فهو لي بمثابة قريب. إنه رب عمل ابني شيكو...»

رافقها نسيب إلى غرفة في الجناح الخلفي التي كانت تشغلها قبلاً فيلومينا، وأوضح لها العمل: ترتيب المنزل، غسيل الثياب المتّسخة، طهو طعامه. لم يتكلم على الحلوى والأطعمة المالحة للحانة. يريد أن يرى أولاً أي نوع من الطعام تحسن صنعه. أراها غرفة المؤونة حيث ترك شيكو موليزا المشتريات من السوق.

«إذا أردت أي شيء، اسألي الدونا آرميندا.»

كان على عجلة من أمره، فالليل أزف والحانة بعد قليل ستصبح ممتلئة من جديد، وعليه أن يتناول العشاء أيضاً. في الغرفة، كانت غابرييلا بعينيها المنفتحتين تنظر إلى البحر الليلي. إنها تشاهده للمرة الأولى. وقال لها نسيب عند الانصراف:

- خذي حماماً، فأنت بحاجة إليه.

في فندق كويليو، التقى موندينيو فالكون والنقيب والدكتور يتعشون معاً. فجلس إلى مائدتهم بشكل طبيعي، وأخبرهم حالاً عن الطاهية. استمع إليه الآخرون بصمت، وأدرك نسيب أنه قطع عليهم حديثاً هاماً. تحدثوا عن جريمة الأمس. كان قد بدأ عشاءه عندما انتهى الآخرون وانسحبوا. بقي مفكراً. كان هؤلاء الثلاثة يهندسون أمراً ما. أي شيطان يمكن أن يكونه؟

في تلك الليلة لم تمنحه القاعة أي لحظة للراحة. فالطاولات كانت ممتلئة، وجميع الناس يريدون التعليق على ما حدث. وعند حوالى الساعة العاشرة، ظهر النقيب والدكتور مصحوبين بكلوفيس كوستا مدير جريدة دياريو ده إيليوس. كانوا

قادمين من منزل موندينيو فالكون، وأعلنوا أن المصدّر سيحضر إلى الباتاكلان عند حوالى منتصف الليل من أجل حفلة الافتتاح لآنابيلا. تحدث كلوفيس والدكتور بصوت خافت، وكان نسيب يصيخ السمع.

إلى طاولة أخرى، كان تونيكو باستوس يتحدث عن مأدبة حقيقية، في بيت أمانسيو ليال، مع أصدقاء متنوعين لجيزوينو ميندونسا، خصوصاً الدكتور ماوريسيو كاييريس المكلف بالدفاع عن الكولونيل. إنه احتفال فخم مع نبيذ برتغالي، حيث الطعام والشراب متوافران بكثرة... اعتبر نيوغالو ذلك حماقة. فجثمان زوجته لم يبرد بعد. فهذا التصرف غير لائق... وروى آري سانتوس عن مأتم جثمان سينيازينيا في منزل بعض الأقارب:

- جنازة حزينة وبائسة. لم يشارك فيها سوى نصف دزينة من الأشخاص. أما جنازة أوزموندو، فحدث ولا حرج. لقد بقي جثمان طبيب الأسنان، ساعات بمفرده مع الخادمة. فقد مر هو من هناك. وفي النهاية، كان يعرف الميت، ويتودد إليه بشكل حميم في جلسات نادي روي باربوزا.

«سأذهب بعد قليل إلى هناك...» قال النقيب. ثم أضاف:

- كان شاباً طيباً ولم تكن تنقصه الموهبة. كان يجيد نظم القصائد...»

- وأنا أيضاً، سأذهب. قال نيوغالو متضامناً.

ذهب نسيب مع آخرين، بدافع الفضول، ، بعدما تضاءلت الحركة في الحانة عند حوالى الساعة الحادية عشرة. وكان أوزموندو، بوجنتيه الخاليتين من الدماء، يبتسم وهو ميت. تأثر نسيب كثيراً بهذا المشهد:

«لقد أصابته الطلقات في قلبه وفي صدره.»

ثم ذهب أخيراً إلى الكباريه، ليبدي الإعجاب بالراقصة، ولينزع من رأسه رؤية الميت. فجلس إلى طاولة مع تونيكو باستوس حيث كان الناس يرقصون حوله. وفي

غرفة أخرى منفصلة، كانوا يلعبون القمار. وجاء الدكتور إيزكييل برادو وهو رجل طويل القامة، فجلس معهما، وقال مشيراً بسبابته إلى صدر نسيب:

- قالوا لي إنك متيم بتلك العوراء؟

كان يشير إلى ريزوليتا وهي ترقص مع أحد الباعة الجوالين.

- متيّم؟ كلا. كنت معها أمس، وكان هذا كل شيء.

- لا أحب التدخل بغراميات الأصدقاء، ولهذا سألتك. ولكن ما دام الأمر هكذا... إنها امرأة فتية وجميلة. أليست كذلك؟

- ومارتا يا دكتور إيزكييل؟

- أصبحت بليدة، لقد ضربتها، ولن أذهب إلى هناك اليوم.

تناول كأس تونيكو، واحتسى جرعة. كانت المشاجرات الدائمة بين المحامي وعشيقته الشقراء التي كانت تعيش معه منذ بضعة أعوام، طبق المدينة اليومي، وتحصل كل ثلاثة أيام. وبقدر ما كان يضربها، وهو سكران، كانت تتمسك به أكثر، وتسعى إليه، متيمة، في الكباريهات وفي بيوت البغاء، وتنتزعه أحياناً من سرير امرأة أخرى.

كانت عائلة المحامي تعيش في باهيا، وهو منفصل عن زوجته.

نهض عن كرسيه مترنحاً، وحشر نفسه وسط الراقصين، وفصل ريزوليتا عن الذي كان يراقصها. قال تونيكو باستوس:

- ستقع مشاجرة.

لكن البائع الجوَّال كان يعرف الدكتور إيزكييل، فتخلى له عن المرأة، وراح يبحث بعينيه عن أخرى. حاولت ريزوليتا أن تقاوم، لكن إيزكييل أمسك برسغها، وأخذها بين ذراعيه.

- فقدت وجبتك يا نسيب... علق تونيكو باستوس ساخراً.

– إنه يقدم لي معروفاً، فأنا لا أريد اليوم شيئاً منها. إنني منهك من التعب. وحالما ترقص، سأخرج. لقد أمضيت يوماً أركض فيه مثل كلب.

– والطاهية؟

– نجحت بتدبير واحدة، من أهل السرتون.

– شابة؟

– لا أدري... مع كل تلك الوساخة التي تغطي جسدها فبالكاد رأيتها. هؤلاء الناس ليس لديهم عمر يا سيد تونيكو، حتى الفتيات تبدين مسنّات.

– جميلة؟

– كيف أعرف؟ إنها مائعة، قذرة، شعرها مكسوٌّ بالغبار. قد تكون شيطانة، فبيتي ليس كبيتك، حيث تبدو الخادمة فتاة مجتمع.

– ستكون كذلك إذا ما تركتها أولغا. لكن يكفي أن يكون للمسكينة وجه كائن بشري، حتى ترميها في الشارع وتغرقها بالإهانات.

– الدونا أولغا لا تمزح، وحسناً تفعل. فأنت لا تترك على هواك.

قام تونيكو باستوس بحركة تواضع مزيف:

«لا تبالغ أيها الرجل. من يسمعك تتكلم...»

وصل موندينيو فالكون مع الكولونيل ريبيرينيو، فجلسا إلى جانب النقيب.

«والدكتور؟

– لا يأتي أبداً إلى الكباريه، حتى ولا بالقوة.»

اقترب من نسيب:

«تخليت عن العشيقة لإيزكييل؟ همس نيوغالو في أذن نسيب.

– إن كل ما أريده اليوم هو النوم.

– أنا ذاهب إذا إلى بيت زيلدا. قيل لي إن هناك امرأة من ولاية بيرنامبوكو، بدينة.

وصفق بلسانه مضيفاً: «ربما ستظهر هنا...

- واحدة ذات ضفائر؟

- نعم. وذات ردفين كبيرين...

وأوضح تونيكو:

- إنها في التريانون. هي هناك كل ليلة... وهي محمية من قبل الكولونيل ميلك، وقد استقدمها من باهيا. وهو مجنون بها...

- لقد ذهب الكولونيل اليوم إلى مزرعته. قال نسيب. رأيته بنفسي عندما وصل. كان يتفق مع عمال في «سوق العبيد».

سأمضي أنا إلى التريانون...

- قبل الراقصة؟

- بعدها مباشرة.»

كان الباتاكلان والتريانون هما الكباريهان الرئيسيان في إيليوس، يرتادهما مصدرون، مزارعون، تجار، ومسافرون يمثلون شركات كبيرة. لكن في الشوارع الجانبية توجد حانات يختلط فيها عمال المرفأ، وأناس قادمون من الحقول، والمومسات الرخيصات. كان القمار معلناً في كل هذه الحانات، والمكاسب مضمونة.

كانت جوقة موسيقية تبعث الحيوية في الرقصات. فمضى تونيكو لينتزع امرأة، ونيوغالو ينظر إلى الساعة. كان وقت الراقصة، وهو فاقد الصبر. كان يريد الذهاب إلى التريانون ليرى ذات الضفائر، المرأة التي تخص الكولونيل ميلك.

وعندما أزفت الساعة الواحدة فجراً، توقفت الجوقة الموسيقية، وأُطفئت الأنوار، ولم يبق إلا بضعة مصابيح زرقاء. ثم جاء أناس كثيرون من قاعة القمار، وانتشر بعضهم على الطاولات، ووقف آخرون إلى جانب الأبواب. ظهرت آنابيلا من الجناح الخلفي للكباريه وبيدها مراوح ضخمة من الريش، تغطيها وتكشفها مداورة، مظهرة الأجزاء المثيرة من جسدها.

كان الأمير المرتدي السموكنغ يعزف على البيانو، وآنابيلا ترقص وسط القاعة، مبتسمة للزبائن. كان عرضاً ناجحاً. وكان الكولونيل ريبيرينيو يطلب المزيد، ويهتف. ثم عادت الأنوار إلى الإضاءة، فشكرت آنابيلا المصفقين، وهي ترتدي لباساً من النسيج القطني بلون البشرة.

«هذا مقرف... علق نيوغالو. يعتقد الناس أنهم يرون لحماً، فيما هو قماش وردي اللون...»

انسحبت آنابيلا وسط عاصفة من التصفيق والهتاف، لتعود بعد دقائق في عرض ثان أكثر إثارة، متدثرة بحجب متعددة الألوان كانت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، كما أعلن موندينيو. وخلال أقل من دقيقة، سقط الحجاب الأخير وأُضيئت الأنوار مجدداً، فظهر الجسد النحيل عارياً تقريباً، إلا من غلالة صغيرة جداً وقطعة قماش حمراء فوق النهدين الصغيرين. فضجت القاعة بصوت جماعي مطالبة بالمزيد، ومرت آنابيلا راكضة بين الطاولات، والعيون مشدودة إليها. عندئذ، أمر الكولونيل ريبيرينيو بإنزال الشمبانيا.

- الآن أصبحت المشاهدة ممتعة... حتى نيوغالو كان متحمساً.»

جلس الأمير وآنابيلا إلى طاولة موندينيو فالكون. وقال ريبيرينيو «كل هذا على حسابي». ثم عادت الجوقة إلى العزف، وتشبث الدكتور إيزكييل بريزوليتا وهو يتعثر بالمقاعد. وصمم نسيب على الانصراف. أما تونيكو باستوس الذي كانت عيناه على آنابيلا، فقد انتقل إلى طاولة موندينيو، واختفى نيوغالو.

ابتسمت الراقصة ورفعت كأس الشمبانيا:

- بصحة الجميع! بتقدم إيليوس!

صفقوا لها مستحسنين. وفي الطاولات القريبة كان الناس يتهيّجون على جسدها. هبط نسيب الدرج، واجتاز الشوارع الصامتة.

كان الضوء يتسرب من نافذة منزل الدكتور ماوريسيو كاييريس، الذي كان يدرس ملف قضية جيزوينو، ويجمع المعطيات للدفاع. فتذكر نسيب النيَّات الدنيئة التي عبّر عنها المحامي في الحانة. وإذ به يسمع ضحكة امرأة تخرج من ثقوب النافذة، ويموت صداها في الشارع. فقد سبق له أن سمع الأرمل يستقدم إلى بيته، في الليل، زنجيات صغيرات من المرتفع. ومع ذلك، لم يكن بوسع نسيب التخمين، ما إذا كان المحامي في تلك الساعة، ربما لسبب مهني خالص، يفرض على سوداء من أونياون، خلاسية صغيرة، منذهلة، أن تنام مرتدية جوربين أسودين من القطن فقط، ولا شيء سواهما.

«إن المرء يرى العجب في هذا العالم!» والسوداء تضحك بأسنانها المفترقة والمسوسة.

أحس نسيب بتعب نهاره المضني. لقد تمكن أخيراً من اكتشاف سبب ذلك الذهاب والإياب لموندينيو، ووشوشاته مع النقيب والدكتور، ومقابلته السرية مع كلوفيس. فقد كانوا يبحثون قضية المضيق. فوجئ بمقاطع من الأحاديث، وحسب ما يقولون، سيصل مهندسون، وجرافات، وقاطرات. ليتألم من يتألم، فإن بواخر كبيرة أجنبية ستدخل مباشرة إلى المرفأ لتجلب الكاكاو، ويبدأ التصدير المباشر. من سيتعرض للألم؟ ألم يكن، مثلاً، الصراع مفتوحاً مع آل باستوس، مع الكولونيل راميرو؟ كان النقيب يرغب دائماً في التحكم بالسياسة المحلية. لكنه لم يكن مزارعاً، ولم يكن يملك مالاً للإنفاق. كانت صداقته لموندينيو فالكون معروفة. كانت الاوضاع تبشر بحصول أحداث خطيرة. ولم يكن الكولونيل راميرو رجلاً، بالرغم من تقدمه في السن، يشبك ذراعيه ويستسلم من دون معركة، ولم يشأ نسيب التدخل في هذه القصة. كان صديقاً للطرفين، لموندينيو وللكولونيل، للنقيب ولتونيكو باستوس. وصاحب الحانة لا يستطيع التورط في السياسة. فهي لا تسبب إلا الخسارة. وهي أشد خطراً من التورط مع امرأة متزوجة.

إن سينيازينيا وأوزموندو لن يُشاهدا لا القاطرات ولا الجرافات في المرفأ، تحفر

المضيق. لن يريا هذه الأيام الزاخرة بالتقدم التي يتكلم عنها مونDينيو. هذا العالم هو هكذا، مصنوع من الأفراح والأحزان.

استدار حول الكنيسة وبدأ يصعد المرتفع بتمهل. هل نام تونيكو باستوس حقاً مع سينيازينيا؟ أم أنها كانت مزحة ليترك انطباعاً؟ إن نيوغالو يؤكد أن تونيكو يكذب بشكل فاضح. على العموم لم يكن يورط نفسه مع امرأة متزوجة. مع عشيقة، أجل، فلم يكن يحترم صاحبها، إنه شخص محظوظ، خصوصاً مع تلك الأناقة، والشعر الفضي، والصوت الخافت. فنسيب كان يحب أن يكون مثله، يحظى بنظرات الرغبة من قبل النساء، ويثير غيرتهم العنيفة. أن يكون محبوباً بجنون، مثلما أحبت ليديا، عشيقة الكولونيل نيكوديموس، تونيكو. كانت تبعث إليه الرسائل، وتجتاز الشوارع لتراه، وتتأوه له من دون أن يحفل بها، وهو طافح بهذه العبادة من المرأة. فمن أجله كانت ليديا تجازف كل يوم بوضعها، من أجل نظرة، أو كلمة منه. لم يكن تونيكو يحترم عشيقة أي كان، ما عدا غلوريا، والجميع يعرفون لماذا. لكن مع امرأة متزوجة، لم يُعرف عنه أنه قد تورط.

أدخل المفتاح في القفل، وتنفس فجأة بصعوبة. كانت الغرفة مضاءة. هل هناك لص؟ أم أن الخادمة الجديدة نسيت أن تطفئ الضوء؟ دخل بهدوء وشاهدها نائمة على المقعد، وشعرها الطويل متناثر على كتفيها. فبعد أن غسلته وسرحته تحول إلى شعر طليق، أسود، ملتف الخصلات. وكانت ترتدي أسمالاً لكنها نظيفة، أخذتها من الصرة بالتأكيد. وأظهر خرق في تنورتها قسماً من فخذها الذي بلون القرفة، وكان نهداها يرتفعان ويهبطان بشكل خفيف حسب إيقاع الرقاد، وتعلو شفتيها ابتسامة طفولية.

«يا إلهي...! «تسمر نسيب واقفاً مكانه دون حراك، غير مصدق عينيه، ينظر إليها بدهشة لا حدود لها. كيف يمر هذا الجمال غير مرئي تحت غبار الدروب؟ كانت مثل

لوحة فنية، بذراعيها المتدليتين، ووجهها الأسمر المشرق، ممددة على ذاك المقعد تغط في نوم عميق. ترى، كم تبلغ من العمر؟ جسد امرأة شابة، لكن بملامح طفلة.

«رباه، يا لهذا المشهد!» همس العربي مأخوذاً بإعجاب شبه ديني.

استيقظت خائفة على صدى صوته، لكنها ابتسمت حالاً، وبدت الغرفة كلها تبتسم معها. ثم وقفت، ويدها تسوي الأسمال التي ترتديها، متواضعة ومشعة كشعاع قمر.

«لماذا لم تذهبي إلى السرير، لِمَ لم تنامي؟ كان هذا كل ما لدى نسيب ليقوله.

- أنت لم تقل لي شيئاً، أيها الشاب...

- أنا! شاب؟

فقالت بصوت مترنم بلهجة الشمال الشرقي:

- نعم، سيدي... لقد غسلت الثياب ورتبت البيت. ثم انتظرتك، فاستسلمت للنوم.

كان صوتها يغني كصوت نوردستين. وكان يفوح منها عطر القرنفل، ربما من شعرها، من يدري، قد يكون من عنقها.

«هل تحسنين الطهو حقاً؟»

كان الضوء والظل يتراقصان على شعرها، وهي تخفض عينيها وتفرك أسفل رجلها اليمنى، كما لو كانت ذاهبة إلى الرقص.

«أجل يا سيدي. لقد عملت في بيت أناس أثرياء فعلموني. حتى أنني أحب الطهو...»

ابتسمت ومعها ابتسم كل شيء، حتى العربي نسيب ترك نفسه يسقط على مقعد.

- إذا كنت تحسنين الطهو حقاً، سأجعل لك مرتباً جيداً. خمسون ألف ريال في الشهر. فهنا يدفعون عشرين أو ثلاثين كحد أقصى. وإذا بدا الشغل مرهقاً بالإمكان

إحضار فتاة لتساعدك. لم تشأ فيلومينا العجوز استخدام أي فتاة، ولم تقبل قط. كانت تقول إنها ليست على مشارف الموت لتحتاج إلى مساعدة.

- وأنا أيضاً لا أحتاج.

- والمرتب؟ ماذا تقولين ؟

- أقبل أي شيء تقترحه، أيها الشاب...

- سنرى كيف سيكون الطعام غداً. سأرسل الصبي ليجلبه في وقت الغداء... سآكل في الحانة... والآن...»

كانت تنتظر والابتسامة على شفتيها، وضوء القمر ينير شعرها، ورائحة القرنفل تلك، تفوح... منها.

«... والآن اذهبي لتنامي فالوقت أصبح متأخراً.»

عندما انسحبت، كان نسيب يراقب ساقيها، وجسدها المتراقص وهي تمشي، والقسم الذي بلون القرفة من فخذها. التفتت إليه بوجهها:

«إذاً، ليلة سعيدة، أيها الشاب...»

عندما كانت تتوارى في عتمة الممشى، وبدا لنسيب أنه سمعها تضيف بصوت خافت: «شاب جميل...» نهض وكاد يناديها. كلا. لقد قالت له ذلك عند المساء، في السوق. وإذا ما ناداها، فقد يخيفها. إنها تبدو بريئة، وربما كانت لا تزال عذراء... فكل شيء في وقته. خلع نسيب بنطاله وعلقه على المقعد، ثم نزع قميصه. بقي العطر في الغرفة، عطر القرنفل. سيشتري لها في اليوم التالي فستاناً من الشيت، وخفيْن أيضاً. سيقدمها هدية من دون أن يحسم ثمنها من المرتب.

جلس على السرير يفك شريط حذائه. كان يومه معقداً. فقد شهد أموراً كثيرة. ارتدى قميص النوم. إنها سمراء جميلة، خادمته هذه. يا للعينين، رباه... وذات لون محروق كالذي يحبه. نام وأطفأ الضوء. تغلب عليه النعاس. نعاس مضطرب. رأى نفسه في المنام مع سينيازينيا وهي عارية، مرتدية جوربين أسودين، ومستلقية على

متن باخرة أجنبية تدخل المضيق وهي ميتة. هرب أوزموندو بالأوتوبيس، وأطلق جيزوينو النار على تونيكو. وظهر مونديني فالكون مع الدونا سينيازينيا، وهي حية مرة أخرى، تبتسم لنسيب، وتمد ذراعيها. لكن الدونا سينيازينيا ظهرت في الحلم، بوجه الخادمة الجديدة الأسمر. إنما نسيب لم يستطع بلوغها، فخرجت لترقص في الكباريه.

عن الجنازات والمآدب مع معترضتين لسرد قصة نموذجية

كانت الشمس عالية في السماء، عندما استيقظ نسيب على زعيق الدونا آرميندا:

– هيا نشاهد الجنازتين يا ابنتي. إنهما جديرتان بالرؤية!

– هذه الساعة، كلا... فالشاب لم ينهض بعد.

نهض من السرير: كيف يخسر الجنازة؟ خرج من الحمام مرتدياً ثيابه، وكانت غابرييلا قد انتهت من وضع إبريقيْ القهوة والحليب المتصاعد منهما البخار على الطاولة. وفوق الخوان المطرز، كوسكوس الذرة مع حليب جوز الهند، وموز الأرض المقلي، وإنيام، وآيبين. بقيت واقفة عند باب المطبخ، متسائلة:

– يجب أن تقول لي ما الذي تحبه، أيها الشاب.

التهم قطعاً من الكوسكوس، وعيناه مليئتان بالحنو. فسمَّره الشره إلى المائدة، وحثه الفضول على الإسراع. أزفت ساعة الجنازة. ذلك الكوسكوس، يا إلهي! وشرائح الموز المقلي، شهية. انتزع نفسه عن الطاولة بجهد. كانت غابرييلا تشد شعرها بشريط من القماش، ليصبح مثبتاً فوق عنقها الأسمر.

خرج نسيب راكضاً تقريباً إلى الحانة. وكان صوت غابرييلا يرافقه في الطريق مغنياً:

«لا تذهب إلى هناك يا حبي،

فهناك منحنى،

قد تتعثر وتسقط،

وتكسر غصن الوردة».

كانت جنازة أوزموندو المقبلة من الساحة تصل إلى جادة الشاطئ.

«لا يوجد ما يكفي من الناس حتى ليمسكوا بمقابض التابوت...» علّق أحدهم.

- إنها حقيقة خالصة. كان صعباً أن يتخيل المرء جنازة هزيلة بمشيعيها كهذه. لقد اقتصرت على الأشخاص المقربين جداً من أوزموندو، وكانت لديهم الجرأة لمرافقته في آخر نزهة له في شوارع إيليوس. فإن حَمْلَ طبيب الأسنان إلى المقبرة كان يعتبر مجابهة للكولونيل جيزوينو وكذلك للمجتمع. كان آري سانتوس، النقيب، نيوغالو، وأحد محرري دياريو ده إيليوس وقلة غيرهم، يتناوبون مقابض التابوت.

لم يكن للميت عائلة في إيليوس، لكنه في الأشهر التي قضاها هنا، أقام علاقات كثيرة. كان رجلاً يندمج بالآخرين، محبوباً، يختلف إلى حفلات الرقص في نادي التقدم، واجتماعات نادي روي باربوزا والحفلات الراقصة العائلية، وحفلات الرقص في الحانات والكباريهات. ومع هذا كان يسير إلى المقبرة كرجل تافه، بدون أكاليل ودموع. أحد التجار تسلم برقية من والد أوزموندو الذي طلب منه اتخاذ الاحتياطات كافة من أجل دفن ابنه، معلناً أنه سيصل في أول باخرة. فأوصى التاجر على تابوت وقبر، واتفق مع بعض الرجال في المرفأ على حمل النعش في حال عدم حضور أي صديق. ولم ير من الضروري إنفاق المال على الأكاليل والورود.

لم تكن علاقات نسيب وطيدة مع أوزموندو. فقد توقف طبيب الأسنان مرة أو مرتين في الحانة، إذ إن مكانه المفضل كان مقهى «شيك». تناول كأساً، ودائماً مع

آري سانتوس أو مع المدرِّس جوزويه. كانوا ينشدون القصائد، يقرأون مقطوعات من النثر، ويناقشون في الأدب. أحياناً يحدث أن يجلس العربي معهم، فيصغي إلى فقرات من أنباء الصحف، ومن قصائد تتكلم على المرأة. وكجميع الناس، كان يرى طبيب الأسنان فتى طيباً. ويتحدثون عنه كمنافس مهني، يتزايد عملاؤه باستمرار. وعندما رأى هذه الجنازة التعيسة، وذلك الغياب للناس وللزهور، وذلك النعش الشاحب، شعر نسيب أنه حزين. فهذا، في النهاية، أمر غير عادل، يسيء إلى المدينة كلها. أين هم أولئك الذين كانوا يطرون موهبته كشاعر، والذين كانوا يثنون على خفة يده في استخراج العصب من الأسنان، وأصدقاؤه في نادي التقدم وندماؤه في الحانة؟ كانوا يخافون من أن يعرف الكولونيل جيزوينو؟ ومن أن تعلق العانسات، ومن أن تعتبر المدينة أنهم متضامنون مع أوزموندو؟

اخترق الجنازة فتى كان يوزع منشوراً عن إحدى دور السينما، يعلن عن العرض الأول في تلك الليلة بالذات لـ«الساحر الهندي المشهور»، الأميرساندرا، الأكثر خفة في القرن، الفقير والمنوم المغناطيسي، الحائز على الإعجاب في مسارح أوروبا، والوسيط العالم بالغيب وقارئ الأفكار المدهش مع مساعدته الجميلة، مدام آنابيلا. وطار أحد الإعلانات فوق التابوت عندما حملته الريح. لم يعرف أوزموندو آنابيلا، ولم ينضم إلى بطانة المعجبين بها، ولم يشترك في المنافسة على جسدها.

مرت الجنازة قرب فناء الكنيسة، فانضم نسيب إلى الجمع. لن يذهب إلى المقبرة. فهو لا يستطيع أن يترك الحانة، لأن عشاء شركة الأوتوبيس كان في تلك الليلة ، لكنه، مع ذلك، سوف يرافقها خلال بعض الأحياء، فهو يشعر أنه ملزم بأن يفعل ذلك.

دخلت الجنازة في شارع باراليليبيدوس. فكرة من كانت؟ فالطريق المستقيم والأقصر كان عبر شارع سيل آدامي، فلماذا المرور أمام المنزل الذي يسجّى فيه جثمان سينيازينيا؟ كانت تلك مبادرة النقيب. ومن نافذتها كانت غلوريا تشاهدها

وهي ترتدي روباً فوق قميص النوم، ومر التابوت من تحت نهديها اللذين بالكاد يحجبهما النسيج الشفاف.

عند باب ثانوية إينوش، حيث الأطفال يمارسون الفضول، خلف المدرِّس نيوغالو، كانت النوافذ مليئة بالتعليقات. كان يقف أمام منزل أبناء عم سينيازينيا، بعض الأشخاص الذين يرتدون السواد. وكان نعش أوزموندو يسير متمهلاً بمرافقيه البائسين، والمارّة يرفعون القبعات عن رؤوسهم. فصاح أحدهم من نافذة البيت الذي يخيم عليه الحداد:

- ألم يكن لديهم طريق آخر؟ أولم يكفِ ما سببه من شقاء للمسكينة؟

عاد نسيب من ساحة ماتريز ومكث بضع دقائق في المنزل الذي يسجى فيه جثمان سينيازينيا، حيث التابوت لم يكن قد أغلق بعد، وحيث الشموع والزهور في الغرفة، وبعض الأكاليل، والنساء يبكين. في حين أن لا أحد يبكي من أجل أوزموندو.

«يجب الانتظار قليلاً، لإعطاء الوقت لدفن الآخر.» نصح أحد المشاركين.

كان صاحب البيت، وهو زوج إحدى بنات عم سينيازينيا، يمشي في الممر، من دون أن يُخفي قلقه من هذا التعقيد غير المتوقع في حياته. وأخيراً، لم يكن بوسع الجثمان أن يخرج من بيت جيزوينو، ولا من بيت طبيب الأسنان. ذلك لم يكن تصرفاً شريفاً. فزوجته كانت القريب الوحيد لسينيازينيا التي تعيش في المدينة، والباقون يقطنون أوليفينسا، فهل من وسيلة غير جلب الجثمان إلى هنا والسهر معه؟ وهو بالذات صديق الكولونيل جيزوينو، الذي يرتبط معه بعدد من المشاريع.

«إنها مُصيبة قذرة...» أوضح بأسى.

ليلة كاملة من المضايقات، من دون الكلام على النفقات. من سيتكفل بذلك؟

تأمل نسيب وجه المرأة الميتة، العينين المطبقتين، والمحيا الهادئ، والشعر المتدلي والمنسرح جداً، والساقين المصقولتين جيداً. حوّل نظره، لم تكن اللحظة المناسبة للنظر إلى ساقي سينيازينيا. ظهرت الهيئة المهيبة للدكتور في القاعة. ظل

برهة واقفاً أمام المرأة الميتة، وقال لنسيب، بنبرة قاطعة، تلك الكلمات التي سمعها الجميع.

«كان لديها دم آل آفيلا. إنه دم مقدس، دم أوفينيزيا.» ثم أخفض صوته:» نحن أقرباء».

أمام الأعين المندهشة في الشارع الذي يزدحم بالناس، أمام الأبواب والشبابيك، دخلت مالفينا حاملةً غصناً من الزهور اقتطفته من حديقتها. ماذا أتت تفعل هنا، في جنازة زوجة ميتة بداعي الخيانة الزوجية، هذه الفتاة العزباء، الطالبة، ابنة المزارع؟ حتى لو كانتا صديقتين حميمتين. بدا الاستياء في عيون الحاضرين جلياً. وضعت زهورها عند طرف النعش، ثم حركت شفتيها في صلاة، وخرجت منتصبة الرأس كما دخلت. وقف نسيب فاغراً فاه.

«ابنة ميلك تافاريس هذه، شديدة الثقة بنفسها!

- إنها وجوزويه يتغازلان.»

رافقها نسيب بعينيه، فقد أحب تصرفها. لم يكن يدري ماذا أصابه في ذلك النهار. فقد استيقظ عند الصباح بمزاج غريب: كان يشعر أنه متضامن مع أوزموندو وسينيازينيا، مستاء من غياب الناس في جنازة طبيب الأسنان، ومن احتجاجات صاحب البيت حيث كان مجثياً نعش المرأة القتيل. ثم وصل الأب باسيليو فشد على أيدي الحاضرين، وعلق على الشمس المشرقة، وعلى توقف هطل الأمطار.

أخيراً خرجت الجنازة، وهي أكبر من جنازة أوزموندو لكنها أيضاً بائسة، مع صلوات الأب باسيليو ونحيب العائلة القادمة من أوليفينسا، فتنفس صاحب المنزل الصعداء.

عاد نسيب إلى الحانة متسائلاً، لماذا لم يدفنوا الاثنين معاً، ما دام النعشان قد خرجا في الوقت نفسه، ومن البيت نفسه إلى الحفرة نفسها؟ هكذا كان عليهم أن يفعلوا. إنها حياة رديئة زاخرة بالرياء، في مدينة لا قلب فيها ولا قيمة إلّا للمال!

- إن طاهيتك فتاة جميلة جداً يا سيد نسيب.. جمالها لافت! قال شيكو بصوت واهن.

- إمض إلى الجحيم...! كان نسيب حزيناً.

عرف فيما بعد أن نعش سينيازينيا قد اجتاز بوابة المقبرة في اللحظة نفسها التي انسحب فيها المرافقون النادرون لأوزموندو، وفي الوقت نفسه تقريباً الذي طرق فيه الكولونيل جيزوينو ميندونسا باب منزل قاضي التحقيق بكفّيه، بحضور الدكتور ماوريسيو كاييريس، ليقدم نفسه. وقد وصل المحامي بعد ذلك إلى الحانة، رافضاً أي شراب غير المياه المعدنية.

«ليلة أمس بالغت بالشرب في بيت أمانسيو. لديه نبيذ برتغالي من الصنف الأول...»

ابتعد نسيب لأنه لم يكن يريد أن يسمع تعليقات على حفلة الأمس. ذهب إلى بيت الشقيقتين دوس ريز ليعرف كيف تسير استعدادات العشاء، فوجدهما لا تزالان منفعلتين من الجريمة.

«صباح نهار أمس، كانت التعيسة في الكنيسة.» قالت كينيكينا وهي ترسم اشارة الصليب.

- عندما جئت إلى هنا، كنا قد التقيناها للتو في القداس. انتفضت فلورزينيا قائلة.

- الامر هام جداً... لهذا لا أتزوج.

قادتاه إلى المطبخ، حيث جوكونداينا وبناتها يعملن بنشاط. «لا تقلق بشأن العشاء، فكل شيء يسير على ما يرام».

- بالمناسبة، لقد تدبرت طاهية.

- رائع، هل هي جيدة؟

- تجيد تحضير الكوسكوس. أما الأكل، فسأعرف بعد قليل، في ساعة الغداء.

- ألم تعد تريد الأطباق ؟

- أريدها لبضعة أيام أخرى...

- هذا بسبب مذود الميلاد... سيكون لدينا عمل كثير لننجزه.»

حينما هدأت الحركة في الحانة، أرسل نسيب شيكو موليزا ليتناول غداءه.

«في الإياب، إجلب لي قصعتي المتعددة الطبقات.»

في ساعة الغداء، كانت الحانة فارغة تقريباً، ففتح نسيب الصندوق، وحسب الأرباح والنفقات. كان تونيكو أول القادمين بعد الغداء. تناول شراباً يساعد على الهضم: عرق العسل مع بيتر. تحدثا في ذلك اليوم عن الجنازتين، وبعدها أخبره تونيكو عن النجاحات التي أحرزها في الكباريه البارحة، بعد رحيل العربي. فقد شرب الكولونيل ريبيرينيو كثيراً، لدرجة أنه أُخذ إلى بيته شبه محمول. وعلى الدرج تقيأ ثلاث مرات، موسخاً ثيابه كلها.

- كان متيماً بالراقصة إلى حد الجنون...

- وموندينيو فالكون؟

- انصرف مبكراً. أكد لي أن لا شيء بينه وبينها، وأن الطريق كان حراً. وفي هذه الحال، واضح...

- هل تصارحتم...

- باشرت لعبتي...

- وهي؟

- حسناً، إنها مهتمة. لكنها ما دامت لن تتمسك بريبيرينيو، فستوهم الآخرين بأنها قديسة. لقد فهمت كل شيء.

- والزوج؟

- إنه إلى جانب الكولونيل كلياً. لقد عرف كل شيء عن ريبيرينيو ولا يريد أن يسمع شيئاً عني. أن تضحك زوجته لريبيرينيو، وتخرج لترقص معه بشكل لصيق،

وأن تمسك جبهته لكي يتقيأ، فالنذل يرى ذلك حسناً جداً. لكن يكفي أن أقترب منها ليحشر نفسه بيننا. إنه ليس أكثر من قواد مجاز.

- إنه يخاف من أن تفسد عمله.

- أنا؟ لا أريد سوى الفضلات. أن يدفع ريبيرينيو وأنا أرضى بأيام العطلات... وبالنسبة إلى الزوج فلا تقلق. حتى هذه الساعة يجب أن يكون قد عرف بأنني ابن الزعيم السياسي لهذه البلاد، وأن عليه أن يتصرف معي باستقامة.»

وصل شيكو موليزا مع الغداء، فترك نسيب طاولة البيع، وجلس إلى إحدى الطاولات، وهو يربط منديلاً على عنقه:

«هيا نرى أي نوع هي هذه الطاهية...

- الجديدة؟ اقترب تونيكو سائلاً.

- ما رأيت سمراء أجمل منها قط.» تدحرجت الكلمات بكسل من فم شيكو موليزا.

- وأنت قلت لي بأنها كانت بلهاء، أيها العربي الخبيث. إنك تخفي الحقيقة عن صديقك، هيه؟»

رفع نسيب الغطاء عن القصعة، ثم نشر الصحون.

«أوه! هتف إزاء الرائحة المنبعثة من كبد الدجاج المقلي، واللحم المشوي على نار خفيفة، والأرز والفاصولياء والحلوى المصنوعة من شرائح الموز الدائرية.»

- هل هي حقاً جميلة؟ سأل تونيكو، شيكو موليزا، مستفسراً.

- نعم، بالتأكيد!...

انحنى فوق الأطباق:

«ولا تحسن الطهو، أليس كذلك؟ أيها التركي الكذاب... إن لعابي يسيل...

«ثمة ما يكفي لاثنين. كل لقمة. دعاه نسيب مبتسماً.

فتح بيكو فينو زجاجة جعة ووضعها على الطاولة.

- ماذا كانت تفعل عندما وصلت؟ سأل نسيب، شيكو.

- كانت في حديث طويل مع المرأة العجوز. كانتا تتكلمان على الروحانيات، أو بالأحرى، أمي كانت تتكلم، والخادمة كانت تصغي وتضحك، وعندما تضحك يا سيد تونيكو، تجعل الرأس يدور.

- أوه! قال نسيب بعد الملعقة الأولى. ثم أردف: إنه مَنٌّ من السماء يا سيد تونيكو. الحمد لله، هذه المرة ، ها أني ألقى خدمة جيدة.

- للمائدة وللسرير، هيه، أيها التركي...

شبع نسيب، وبعد أن خرج تونيكو، تمدد كما يفعل كل يوم، على السرير المخصص للقيلولة، في ظل الأشجار في الفناء الخلفي للحانة. ثم تناول صحيفة تصدر في باهيا وصلت متأخرة أسبوعاً تقريباً، وأشعل سيكاراً، ومرر يده على شاربيه، مسروراً بمصيره. فقد تبدد حزن الصباح الذي سببته الجنازتان. فيما بعد، سوف يذهب إلى متجر عمه، ليجلب فستاناً رخيصاً وحذاء نسائياً. ثم يكلف طاهيته تحضير الأطعمة المالحة والحلوى للحانة. لم يفكر أن تلك المهاجرة المغطاة بالغبار، المرتدية أسمالاً، تحسن الطهو... وأن الغبار يخفي كل ذلك البهاء، وكل ذلك الإغواء... فاستسلم للنوم بسلام الرب، وهواء البحر يداعب شاربيه.

لم تكن الساعة قد أعلنت الخامسة مساءً، ودائرة الجباية في حركة عارمة، عندما دخل نيوغالو الحانة، رافعاً بيده عدداً من صحيفة دياريو ده إيليوس وهو متحمس. قدم له نسيب كأساً من الفيرموث، وحضر نفسه للكلام على الطاهية الجديدة، لكن الآخر رفع صوته الأخن:

«لقد بدأ الأمر!

- ماذا؟

- إنها جريدة اليوم. خرجت للتو. إقرأ...»

كان في الصفحة الأولى، موضوع طويل، يحتل عنوانه أربعة أعمدة بحرف

غليظ: «إهمال فاضح في قضية المضيق»، يتضمن هجوماً منظماً ضد المحافظ ألفريدو باستوس، ويقدم هذا الأخير كـ«نائب إيالي منتخب من أهالي إيليوس للدفاع عن المصالح المقدسة لمنطقة الكاكاو»، نسي هذه المصالح، وأصبحت خطاباته البائسة مقتصرة على تمجيد أفعال الحكومة! وينعت المحافظ، شريك الكولونيل راميرو باستوس بـ«الرداءة غير المفيدة»، وبالخنوع النموذجي للزعيم الآمر والناهي». ويعتبر السياسيين في الحكم شركاء في جريمة إهمال مضيق إيليوس. كانت ذريعة هذا المقال، جنوح باخرة إيتا يوم أمس. «إن المشكلة الأكثر أهمية والحاحاً، والذي كان يبدو حلها كذروة وتتويج للتقدم المحلّي، والتي كانت تتوقف عليها الثروة والحضارة أو التأخر والشقاء، هي مشكلة مضيق إيليوس، أي، المشكلة الرئيسة للتصدير المباشر للكاكاو. وهذه المشكلة، لم تكن موجودة بنظر هؤلاء الذين، في ظروف خاصة جداً، اغتصبوا مراكز القيادة في السلطة». ومن هنا جاءت الخطب الحماسية المرعبة، التي كانت تلمح بوضوح إلى موندينيو فالكون، عند الإشارة إلى أن ثمة «رجالاً ذوي إحساس مدني رفيع، كانوا مستعدين إزاء اللامبالاة المجرمة للسلطات البلدية، لأن يأخذوا المشكلة بأيديهم، ويجدوا لها حلاً. إن الشعب، شعب إيليوس هذا، المجيد والذي لا يخاف، ذا التقاليد العريقة، سيعرف كيف يحاكم، ويعاقب، ويجزي!»

«إن الأمر لجدي، يا عزيزي...

- إن الدكتور هو من كتبه.

- يبدو أنه بقلم إيزكييل أكثر منه بقلم الدكتور.

- إنه الدكتور. أنا متأكد. فالدكتور إيزكييل كان سكراناً ليلة أمس، في الكباريه ولسوف تحصل فوضى...

- فوضى؟ إنك متفائل. سيكون جهنمياً. المهم ألا يبدأ اليوم، هنا في الحانة.

- ولماذا هنا؟

- إنه عشاء الأوتوبيسات، هل نسيت؟ سيأتي كل الناس: المحافظ، موندينيو،

الكولونيل أمانسيو، تونيكو، الدكتور، النقيب، مانويل داس أونساس، حتى الكولونيل راميرو باستوس قال إنه ربما سيأتي.

- الكولونيل راميرو؟ إنه لم يعد يخرج ليلاً.

- قال إنه سيأتي. فهو رجل ملعون، ولسوف يأتي حتماً الآن. سترى. من المحتمل أن ينتهي العشاء بشجار...»

كان نيوغالو يفرك يديه: «سيكون الأمر مسلياً...»

ثم عاد إلى دائرة الجباية تاركاً نسيب في جو من القلق. كان صاحب الحانة صديقاً للجميع، وعليه أن يبقى بعيداً عن ذلك الصراع السياسي.

وصل الندلاء المتفق معهم على الخدمة في العشاء، وبدأوا بإعداد القاعة، وتجهيز الطاولات. وفي الوقت نفسه تقريباً، جلس قاضي التحقيق، وتحت إبطه طرد من الكتب، في الخارج مع جوان فولجنسيو وجوزويه الذين أبدوا إعجابهم بغلوريا الواقفة أمام النافذة، واعتبر القاضي ذلك، فضيحة حقيقية. لكن جوان فولجنسيو عبر عن رأي آخر:

- غلوريا أيها الدكتور، ضرورة اجتماعية، ويجب أن تعتبر من المنافع العامة من قبل المحافظة مثل نادي روي باربوزا، «أوتيربي ١٣ أيار/ مايو»، وبيت الإحسان المقدس. فهي تمارس وظيفة هامة في المجتمع. فبمجرد وقوفها أمام النافذة، ترفع إلى مستوى سام، إحدى الظواهر الأكثر جدية في حياة المدينة: حياتها الجنسية. إنها تطور لدى الشبان تذوق الجمال؛ وتمنح الكرامة لأحلام الأزواج ذوي النساء القبيحات - اللواتي، مع الأسف، يشكلن الأغلبية العظمى في مدينتنا- وكذلك لالتزاماته الزوجية، التي، بدونها، تبدو لهم تضحية لا تحتمل.

وكان القاضي أهلاً للموافقة:

«دفاع حسن، يا عزيزي، جدير بمن يقوم به وبمن هو موجَّه إليها. ردّ القاضي مطرياً. لكن، والكلام بيننا، أليس عبثاً حقاً كل هذا الكم من اللحم لرجل واحد

بمفرده؟ خاصة أن هذا الرجل صغير، وبخيل... خصوصاً إذا ما كانت، معروضة طوال اليوم أمام الانظار، كما هو الحال...

- ما الذي تفكِّر به أنت، يا سيدي؟ إن أحداً لا ينام معها؟ هذا خطأ يا عزيزي القاضي، خطأ!

- غير ممكن يا جوان فولجنسيو! فمن يجرؤ؟

- أغلبية الرجال يا صاحب الفضيلة، عندما ينامون مع زوجاتهم يكونون مفكرين بغلوريا فقط. ومعها ينامون.

- إذاً، سيد جوان فولجنسيو، فأنا خمنت في الحال بأننا نتعامل مع تناقض في الرأي...

- بكل الاحوال، فإن هذه السيدة هي مجرد إغواء. قال جوزويه. هذا كله صحيح، إذا لم تعلقك عيناها...»

دخل أحد الرجال وهو يلوح بعدد من ديارو ده إيليوس.

«هل رأيتم؟

- كان جوان فولجنسيو وجوزويه قد قرآه. فاستولى القاضي على الجريدة، ووضع نظارتيه فوق أنفه. على الطاولات الأخرى علقوا أيضاً:

- ماذا تقولون لي؟

- السياسة سوف تشعل النار....

سيكون العشاء طريفاً هذا اليوم.»

وأكمل جوزويه كلامه على غلوريا:

«الرائع في الأمر هو أن أحداً لا يجرؤ على التورط معها. فبالنسبة إلي إنها لغز.

كان المدرِّس جوزويه حديث العهد في البلد. استقدمه إينوش عندما أسس الثانوية، وبالرغم من أنه تكيف على الفور، وأخذ يتردد إلى مكتبة وقرطاسية موديلو وحانة فيزوفيو ويرتاد الكباريهات، ويلقي الخطب في الاحتفالات، وتناول

العشاء في بيوت البغاء، لا يزال يجهل الكثير من قصص إيليوس. وفيما الآخرون كانوا يتناقشون في موضوع دياريو ده إيليوس أخبره جوان فولجنسيو بما حدث بين الكولونيل كوريولانو وتونيكو باستوس قبل مجيء جوزويه إلى المدينة بقليل، حينما خصص الكولونيل منزلاً لغلوريا.

معترضة حول تنبيه

منذ أن استقدم الكولونيل غلوريا وأسكنها في المدينة - روى جوان فولجنسيو، وهو مستودع أحداث وقصص إيليوس - في أفضل منازله، ذلك الذي كانت تقطنه عائلته قبل أن تنتقل إلى العاصمة، مثيراً بذلك غضب العانسات، بدأ أنطونيو باستوس، الكاتب العدل، وزوج امرأة شديدة الغيرة وأب لطفلتين جميلتين، وهو شاب أنيق جداً، يرتدي أيام الآحاد صديرياً، دون جوان البلد، والابن المحبوب جداً للكولونيل راميرو باستوس، يلقي على الخلاسية نظرات طويلة.

لم يكن الامر مجرد تكرار لقصيدة جوكا فيانا وشيكينيا القصصية الملحمية. فهل سبق وسمع جوزويه هذه القصة القديمة؟ هل أخبروه التفاصيل الهزلية والمحزنة؟ محزنة أكثر من كونها هزلية. كان مزاج إيليوس هذا جنائزياً جداً. ففي القضية الراهنة، لم يكن ثمة نزهات على الشاطئ، ولا أيدٍ متشابكة على أرصفة المرفأ، ولم يجازف تونيكو أيضاً بدفع الباب الليلي لغلوريا، إنما سعى لأن يحضر في الأمسيات، باستمرار، إلى منزل العشيقة، مع هدايا من المُلبّس مشتراة من حانة نسيب، وأن يسألها عن صحتها وإذا ما كانت بحاجة إلى شيء ما، فيما النظرات شهوانية والكلمات سُكّرية. وبعد ذلك لم يعد المعلم تونيكو يمرّ.

ثمة صداقة تقليدية تربط الكولونيل كوريولانو بأسرة باستوس. فراميرو باستوس هو عراب أحد أولاده، وكانا في السياسة متحالفين، يقضيان معظم وقتهما معاً. استغل

تونيكو ذلك ليوضح لزوجته، الدونا أولغا، تلك المرأة البدينة جداً والغيورة جداً، بأنه مضطر، من أجل وشائج الصداقة والمصلحة السياسية التي تربطه بالكولونيل، أن يقوم بهذه الزيارات المشبوهة بعد الغداء، إلى البيت المشكوك بأمر قاطنيه.

- إذا كنت مضطراً للذهاب يا تونيكو، وإذا سمح لك الكولونيل بذلك، فاذهب. بالنسبة إلي، دعك من الخجل. لكن كن حذراً! فإذا عرفت أمراً ما، آه! لو عرفت... قالت ذلك بصدرها العارم وتنهداتها الصعبة.

- في هذه الحالة، يا عزيزتي، من الأفضل ألا أذهب إذا كان لديك أي شك. إنما أنا قد وعدت كوريولانو...

لسان من عسل، تونيكو هذا، كما يقول النقيب. وبالنسبة إلى الدونا أولغا، لا يوجد رجل أطهر منه. كم هي مسكينة! إنه مُطارد من قبل جميع نساء المدينة، عشيقات، فتيات عازبات، نساء متزوجات، غانيات، كلهن من دون استثناء. ومع هذا، بسبب الشكوك، ولكي يتجنب الوقوع في التجربة، كانت تضعه تحت رقابتها. إنها لم تكن تتخيل...

هكذا، مع الصبر والملبّس، مضى تونيكو يهيئ السرير حيث سينام. كانوا يهمسون في مكتبة وقرطاسية موديلو وفي الحانة. لكن قبل أن يحدث ما لا بُد من حدوثه، عرف الكولونيل كوريولانو بالزيارات وبقطع الحلوى، والنظرات الواهنة. وإذ حضر بدون توقع إلى إيليوس، في منتصف الأسبوع، دخل من باب منزل تونيكو، حيث توجد أيضاً دائرة كتابة العدل، المكتظة بالناس في تلك الساعة.

رَحَّب أنطونينيو باستوس بالصديق بعبارات فضفاضة وربت كتفه، كأنه رجل طيب جداً ولطيف. شكره كوريولانو على حسن استقباله وعلى كلماته الطيبة، وأخذ كرسياً ليجلس عليه، ثم ضرب سوطه القصير بجزمتيه المتسختين بالوحل، وقال بصوت مهيب:

- يا سيد تونيكو، بلغني أن حضرتك تتسكع حول منزل الفتاة التي أحميها. إني

أقدر كثيراً صداقتك يا سيد تونيكو. فقد رأيتك ولداً في بيت إشبيني راميرو. ولهذا سأقدم لحضرتك نصيحة، نصيحة من صديق قديم: لا تذهب إلى هناك بعد الآن. كنت أحترم كثيراً جوكا فيانا ابن المرحوم فيانا، رفيقي في البوكر. وقد رأيت جوكا صغيراً أيضاً. تذكر حضرتك ما حدث له؟ إنه أمر يبعث على الأسف، مسكين، تورط مع امرأة رجل آخر...

خيَّم صمت قلق في دائرة كتابة العدل. وتلعثم تونيكو:

- لكن، يا كولونيل...

واصل كوريولانو كلامه، من دون أن يغير نبرة صوته، وهو يلعب بسوطه القصير:

- حضرتك شاب جميل ومرفه، لديك كثير من النساء، وهذا لا ينقصك. أما أنا فعجوز مستنفد، وامرأتي الحقيقية لم تعد تصلح... مسكينة! وليس عندي إلا غلوريا بالذات. فأنا أحب هذه الفتاة وأريدها لي فقط، وهذا العمل، التقاط نساء الآخرين لم يكن قطّ من اهتماماتي.

- إني صديقك، ولهذا أعلن لك: «دعك من السير في تلك النواحي.» أضاف مبتسماً.

امتقع وجه الكاتب بالعدل، وخيم صمت كئيب على المكتب، وراح الحضور يتبادلون النظرات. وأكد فيما بعد الكولونيل مانويل داس أونساس الذي كان يحرر وثيقة، أنه اشتمّ رائحة جثة في الجو، وهو من لديه حساسية عالية في شم هذه الرائحة، وكان مسؤولاً عن بعض الجثث في زمن الصراع على الارض.

شرع تونيكو يبرر نفسه: إنها افتراءات، افتراءات بائسة من قبل أعدائه وأعداء كوريولانو. فهو لم يحضر إلى منزل غلوريا إلا ليقدم مساعداته لمحمية الكولونيل التي كانت تعاني ازدراءً من الجميع يومياً. هؤلاء الناس أنفسهم الذين ينتقدون كوريولانو لاستضافتها في ساحة القديس سيباستيان، وفي بيت سكنته عائلته، أناس يديرون وجوههم للفتاة، ويبصقون عند مرورهم، هم الناس الذين يحيكون الآن

مؤامرة. وهو ما كان يريد سوى إبداء تقديره واحترامه علناً للكولونيل. ولم يحدث شيء بينه وبين العشيقة، وحتى أنه لم تكن لديه أي نية في ذلك. إنه لسان من العسل، تونيكو هذا.

- أعرف أنه لم يحصل شيء معها. إذ لو حدث شيء، لما كنت هنا أتحدث معك. فالحديث كان مختلفاً. لكن إذا كانت لديك نية، فأنا لا أضع يدي في النار. بيد أن النية لا تقتلع قطعة من قرن، أو تضع قرناً في أي شخص... فمن الأفضل لحضرتك أن تفعل كما يفعل الآخرون: تدير وجهك لها. وهذا ما أرغب به حقاً، والآن، ما دمت حضرتك قد أُعلمت، فلن نتكلم أكثر في هذا الموضوع.

وعلى الفور، بدأ يتحدث في الأعمال، كأنه لم يقل شيئاً. ثم دخل البيت، فألقى على الدونا أولغا تحية الصباح، وقرص وجنتي الطفلتين. وقد أقلع تونيكو باستوس عن المرور على رصيف غلوريا، ومنذ ذلك الحين عاشت أكثر كآبة ووحدة، وراح الناس في المدينة يتداولون الموضوع. قالوا: « تداعى السرير حتى قبل أن ينام عليه». وأضافوا: «وقد أحدث سقوطه ضجيجاً».

لم يخدم إعلان الكولونيل كوريولانو، تونيكو وحسب، فثمة أناس كثيرون قرروا البقاء على نياتهم، التي تتحول في الليالي الساجية، إلى أحلام مضطربة، يغذيها تأمل صدر غلوريا وهي أمام النافذة، والابتسامة المغمسة بالشهوة»، المنسابة من العينين إلى الفم، «كما أجاد في في وصفها في أشعاره جوزويه ذاته. فمن استفاد في نهاية المطاف من كل هذا؟ إنهن، على حد قول جوان فولجنسيو الذي يختم روايته بهذه الحادثة، الزوجات العجائز والقبيحات؛ إذ كما يقول للقاضي، كانت غلوريا ذات منفعة عامة، وضرورة اجتماعية، رافعة إلى مستوى سام، الحياة الجنسية لمدينة إيليوس هذه التي لا زالت إقطاعية جداً بالرغم من التقدم المؤكد والواسع الانتشار...

الجملة الاعتراضية أغلقت ووصلنا حفل العشاء

بالرغم من فضول نسيب وخشيته، مرّ عشاء شركة الأوتوبيس في سلام وانسجام كاملين؛ فقبل الساعة السابعة، حينما انسحب آخر زبائن الكؤوس فاتحة الشهية، كان الروسي جاكوب يفرك يديه ضاحكاً بكل أسنانه، وهو يدور حول نسيب. وكان أيضاً قد قرأ المقالة في الجريدة وخشي أيضاً من عدم نجاح المأدبة. إنهم عصبيون هؤلاء الناس في إيليوس؛ فشريكه مواسير أستريلا، كان ينتظر في المرأب وصول الأوتوبيس مع المدعوين من إيتابونا، عشرة أشخاص بينهم المحافظ وقاضي التحقيق. والآن جاء هذا الموضوع المشؤوم ليثير الخلاف وانعدام الثقة والانقسام بين مدعويهم.

«لم يكن قد انتهى الكلام بعد، عن هذا الموضوع.

وبما أن النقيب قد حضر قبل المرحلة الاعتيادية من لعبة الداما، فقد أسرَّ لنسيب بأن المقالة كانت مجرد بداية. إنها الحلقة الأولى في السلسلة، وإنهم لن يكتفوا بالمقالات؛ فإيليوس تعيش أياماً عظيمة. ثم حضر الدكتور وأصابعه متسخة بالمداد وعيناه تلمعان زهواً، معلناً أنه منهمك جداً. أما بالنسبة لتونيكو باستوس فإنه لم يعد إلى الحانة، وتأكد أنه استدعي بصورة عاجلة من قبل الكولونيل راميرو.

كان المدعوون الذين وصلوا أولاً مدعوي إيتابونا، وقد أثنوا على الرحلة بالأوتوبيس. فالسفر أُنجز في ساعة ونصف الساعة بالرغم من أن الطريق لم يكن جافاً كلياً بعد. كانوا ينظرون بفضول متعجرف إلى الشوارع، المنازل، الكنيسة، حانة فيزوفيو مخزون المشروبات، سينما ــــ تياترو إيليوس، ويرون أن كل شيء في إيتابونا كان أفضل، فلم يكن ثمة كنائس مثل الكنائس التي هناك، ودور سينما أفضل من دور السينما التي عندهم، وبيوت يمكن أن تضاهي المساكن الجديدة في إيتابونا. فالحانات أغنى بالمشروبات، والكباريهات زاخرة أكثر بالزبائن. في ذلك الوقت

بدأت المنافسة، بين هاتين المدينتين في منطقة الكاكاو، تأخذ أهمية أكبر. فأهالي إيتابونا كانوا يتكلمون على التقدم بدون مقاييس، على النمو المدهش لبلدهم الذي كان منذ بضع سنوات قطاعاً بسيطاً من إيليوس، قرية تُعرف بتابوكاس. كانوا يتناقشون مع النقيب، ويتكلمون على قضية المضيق.

اتجهت بعض العائلات إلى دار السينما لحضور الحفلة الأولى للساحر ساندرا، فشاهدت حركة الحانة، حيث كانت الشخصيات الهامة مجتمعة هناك حول الطاولة الكبيرة. وكان جاكوب ومواسير يستقبلان المدعوين، ثم وصل موندينيو مع كلوفيس كوستا، فحدثت حركة فضول. لقد عانق المُصدِّر، القادمين من إيتابونا الذين كان له بينهم عملاء. والكولونيل أمانسيو ليال بصحبة مانويل داس أونساس، أعلن أن جيزوينو قد غادر بإذن صريح من القاضي، إلى مزرعته حيث يتابع سير القضية. ولم يكن الكولونيل ريبيرينيو يرفع عينيه عن دار السينما آملاً أن يرى آنابيلا تصل. وبات الحديث عاماً فجرى التكلم على الجنازتين، على جريمة الأمس، على الأعمال، على نهاية الأمطار، على احتمالات الموسم، على الأمير ساندرا وآنابيلا، وجرى تجنب حذر لأي إشارة إلى قضية المضيق، وإلى موضوع دياريو ده إيليوس. وبما أن الجميع تهيبوا من بدء العراك، فإن أحداً لم يشأ تحمل مثل هذه المسؤولية.

عندما كادوا يجلسون إلى الطاولة، حوالى الساعة الثامنة، أعلن واحد من باب الحانة:

– ها هو الكولونيل راميرو قادم مع تونيكو.

اتجه أمانسيو ليال لملاقاته، فارتعد نسيب: الوضع بات دقيقاً، والضحكات ترن زيفاً، وهو يتبين مسدسات تحت السترات. كان موندينيو فالكون يتحدث مع جوان فولجنسيو، واقترب النقيب منهما. وكان بالإمكان رؤية المدرِّس جوزويه في الجانب الآخر من الساحة عند بوابة مالفينا.

دلف الكولونيل راميرو باستوس بخطى متعبة، متكئاً على عصاه، إلى الحانة، فتقدم محيياً الجميع كلاً بمفرده. توقف أمام كلوفيس كوستا، وشد على يده:

- كيف يسير الحال مع الجريدة يا كلوفيس؟ هل تحظى بالنجاح؟

- إنها تسير سيراً حسناً يا كولونيل.

تريث قليلاً أمام الجمع المؤلف من موندينيو، جوان فولجنسيو والنقيب، وأراد أن يعرف شيئاً عن رحلة موندينيو، وشكا من أن جوان فولجنسيو لم يعد يحضر إلى منزله في الآونة الأخيرة، وتبادل مع النقيب بعض المزاح. أبدى نسيب إعجابه بالعجوز: لا بد وأن الغضب كان يتآكله من الداخل، ولكنه لم يدعه يظهر. كان ينظر إلى خصومه، هؤلاء الذين كانوا يستعدون للصراع ضد سلطانه، لينتزعوا منه المراكز، كما لو أنهم كانوا فتيانا بلا عقل، لا يشكلون أي خطر على الإطلاق.

أُجلسوه على رأس الطاولة، بين المحافظين. وجاء موندينيو بعدهم مباشرة، بين القضاة، وبدأ تقديم الطعام الذي حضرته الشقيقتان دوس ريز.

في البدء لم يكن أحد على سجيته كلياً. أكلوا وشربوا، تحدثوا، وضحكوا، لكن القلق كان يخيم على الطاولة كما لو أنهم يترقبون حدثاً. لم يلمس الكولونيل راميرو باستوس الطعام، إنما تذوق النبيذ فقط. وكانت عيناه تتنقلان من مدعو إلى آخر. وتصبحان قاتمتين عندما تقعان على كل من كلوفيس كوستا، والنقيب، وموندينيو. وفجأة سأل لماذا لم يحضر الدكتور، وأبدى أسفه لغيابه. شيئاً فشيئاً، صار الحضور أكثر حبوراً وأقل حياءً. فرووا نكاتاً، ووصفوا رقصات آنابيلا، وأثنوا على طعام الشقيقتين دوس ريز.

أخيراً حان وقت الخطابات. كان جاكوب ومواسير قد طلبا من الدكتور إيزكييل برادو أن يتكلم باسم الشركة، مقدماً العشاء، فنهض المحامي، وكان قد شرب كثيراً، وبات لسانه طيعاً، فكلما شرب أكثر تكلم بشكل أفضل. وأسر أمانسيو ليال أمراً للدكتور ماوريسيو كاييريس. لا بد أنه كان يُنبهه ليكون متيقظاً. فإذا أدلى إيزكييل

الذي اهتز ولاؤه السياسي للكولونيل راميرو منذ الانتخابات الأخيرة، بتعليقات على قضية المضيق، عليه، أي ماوريسيو، أن يتصدى له، ويرد عليه. لكن الدكتور إيزكييل، كان في يوم زاخر بالوحي، فأخذ كموضوع أساسي لخطابه، الصداقة بين إيليوس وإيتابونا، المدينتين الشقيقتين في منطقة الكاكاو، المتصلتين الآن أيضاً بشركة الأوتوبيس الجديدة، هذه «العلاقة العظيمة» بين رجال فاعلين مثل جاكوب «القادم من السهوب الجليدية في سيبريا لدفع التقدم في هذه المجاهل البرازيلية» - جملة جعلت عيني جاكوب نديتين -، في الواقع وُلد في غيتو في مدينة كييف - «ومواسير الرجل الذي جعل نفسه بجهده الذاتي، نموذجاً للعمل المشرف - كان مواسير يحني رأسه، بتواضع، فيما كانت ترن هتافات التأييد حوله - تابع مغدقاً المدائح للحضارة والتقدم، ومثنياً على مستقبل المنطقة، المدعوة إلى «بلوغ أعلى قمم الثقافة بسرعة».

حيّا محافظ إيليوس وهو خبير شراب ورجل رائع، شعب إيتابونا الذي كان ممثلاً جيداً للمناسبة. وشكر ببضع كلمات، محافظ إيتابونا الكولونيل أريستوتيليس بيريس ونظر إلى الفراغ، غارقاً في أفكاره. ثم نهض الدكتور ماوريسيو كايريس. وإذ أطلق العنان لقريحته، استخدم التحلية من الكتاب المقدس، وأنهى كلامه برفع كأسه لشرب نخب «مواطن إيليوس الأساسي، من تدين له كثيراً منطقتنا؛ إنه الرجل المحترم ذو المزايا غير الاعتيادية، الإداري النشيط، أب العائلة النموذجي، الزعيم والصديق الكولونيل راميرو باستوس». فشرب الجميع نخبه، وتبادل مونديينو الأنخاب مع الكولونيل. ولم يكد الدكتور ماوريسيو يجلس، حتى وقف النقيب والكأس في يده. وأراد هو الآخر أن يقدم نخباً، فقال إنه يغتنم هذه الحفلة التي تسجل خطوة إلى الأمام في تقدم منطقة الكاكاو، ليرفع كأسه نخب رجل وصل من مدن الجنوب الكبرى ليوظف في هذه المنطقة ثروته وطاقاته الهائلة، ورؤيته كرجل دولة، ووطنيته. هذا الرجل الذي تدين له إيليوس وإيتابونا كثيراً، والذي التصق اسمه بشركة الأوتوبيس هذه بشكل غير منظور، كما بكل ما قام به سكان إيليوس ، في هذه السنوات الأخيرة،

نخب رايموندو مينديس فالكون. وبدوره شرب الكولونيل نخب المُصدّر. وقد قيل فيما بعد إن أمانسيو ليال، كانت يده خلال خطاب النقيب كله، على زناد مسدسه.

ولم يحدث شيء آخر. إنما أدرك الجميع أن مونديينو فالكون تسلم ابتداءً من ذلك اليوم، زعامة المعارضة وبدأت المعركة. ليس صراعاً مثل صراعات الزمن الغابر زمن غزو الأرض. ولم تعد الآن، البنادق الرشاشة ، والكمائن وإحراق دوائر السجلات الرسمية والسجلات المزورة، هي التي تحسم. وقال جوان فولجنسيو للقاضي:

- بدلاً من الرصاص، والخطب... هذا أفضل.

لكن القاضي أبدى شكوكاً:

- إن هذا سوف ينتهي برصاصة، وسترى.

انسحب الكولونيل راميرو باستوس على الفور، مصحوباً بتونيكو، وتوزع آخرون على طاولات المشرب، وتابعوا الشرب. وفيما شكّل بعضهم حلقة للعب البوكر في الغرفة الخلفية، اتجه البعض الآخر إلى الكباريهات. وكان نسيب يتنقّل من فريق إلى آخر، منشطاً الخدم، والمشروب يسيطر. وفي وسط ذلك الاضطراب، تسلم رسالة من ريزوليتا جاء بها أحد الأولاد. كانت تريد رؤيته بدون تأخر في تلك الليلة، وستنتظره في الباتاكلان، وقد وقعت «قطتك الصغيرة ريزوليتا»، فابتسم العربي راضياً. وقرب صندوق المحاسبة كانت اللفة التي أتى بها إلى غابرييلا: فستاناً من الشيت، وخفّين.

عندما انتهت حفلة السينما، امتلأت الحانة. لم يعد نسيب يعرف ماذا عليه أن يعمل. فالنقاشات الآن حول المقالة تسود على الأحاديث. وكان لا يزال ثمة من يتكلم على جريمة الأمس، والعائلات تثني على الساحر. لكن الموضوع في جميع الطاولات تقريباً، كان مقالة دياريو ده إيليوس، ودامت الحركة حتى ساعة متأخرة.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، حينما أغلق نسيب صندوق التسجيل واتجه إلى الكباريه.

كانت آنابيلا جالسة إلى الطاولة مع ريبيرينيو وإيزكييل وآخرين، تطلب آراءهم بألبومها. فكتب نيوغالو الرومانطيقي: «أنت أيتها الراقصة، تجسيد للفن بالذات». وأضاف الدكتور إيزكييل وهو في سكر شديد: «إنني أتوق لأن أصبح مهرجاً فنياً.» وكان الأمير ساندرا يدخن سيكاراً طويلاً من العاج المزيَّف، وراح ريبيرينيو الحميم جداً، يربت ظهره، ويروي له قصة مزرعته.

كانت ريزوليتا تنتظر نسيب، ولما وصل اصحبته إلى أحد أركان القاعة، وأخبرته عن مآسيها وأحزانها: فهي منذ الصباح تشعر أنها مريضة، إذ ظهر مجدداً التعقيد القديم الذي يجعلها تعاني آلاماً موجعة، مما اضطرها إلى أن تستدعي الطبيب. ولم تكن تمتلك نقوداً، حتى ولا ثمن الأدوية. ولم يكن ثمة من تطلب منه، فهي لا تعرف أحداً تقريباً. لذلك التجأت إلى نسيب، إذ كان لطيفاً جداً في تلك الليلة... فناولها العربي ورقة نقدية وهو يهمهم، وداعبت شعره:

- سأشفى سريعاً، بعد يومين، أو ثلاثة، ولسوف أستدعيك...

بعد ذلك انصرفت مسرعة - هل كانت حقاً مريضة أم أنها تمثيلية لتأخذ ماله، وتمضي لإنفاقه على طالب أو بائعٍ جوال في عشاء يتوسطه النبيذ؟ كان نسيب يشعر أنه منفعل، إذ كان ينتظر النوم معها، فبين ذراعيها ينسى نهار الجنازتين الكئيب، والمنهك والمقلق بالمأدبة والمؤامرات السياسية. إنه يوم يشعر الإنسان فيه بالضعة. وعندما انتهى بتلك الخيبة، أمسك باللفّة التي جاء بها لغابرييلا... كانت الأضواء مطفأة، وظهرت الراقصة مرتدية ريشها. ونادى الكولونيل ريبيرينيو النادل، طالباً شمبانيا.

ليلة غابرييلا

دخل الغرفة، وخلع حذاءه. لقد أمضى قسماً كبيراً من يومه واقفاً، متنقلاً من طاولة إلى أخرى. من الممتع خلع الحذاء والجوربين ثم تحريك أصابع القدمين، والمشي بضع خطوات حافياً، وإدخال قدميه في شبشبه الزغيبي القديم.

كانت تختلط في رأسه مشاعر وصور متنوعة. يجب أن تكون آنابيلا قد أنهت وصلتها، وهي الآن إلى الطاولة مع ريبيرينيو تحتسي الشمبانيا. لم يحضر تونيكو باستوس في تلك الليلة. والأمير؟ إنه يدعى إدواردو داسيلفا، وفي بطاقته كان مكتوباً: «فنان». إنه نذل. يتملق المزارع، ويدفع بزوجته إلى أحضان هذا الأخير ليتاجر بجسدها. رفع نسيب كتفيه. ربما هو مجرد شيطان بائس، وربما لا تعني آنابيلا شيئاً كثيراً له، مجرد ارتباط عارض بسيط، في العمل. فذلك هو عمله الذي منه يحصل على خبزه. إن سحنته تشي بأنه قد عانى جوعاً شديداً، لكنه تحصيل خبز قذر، بلا شك، وهل ثمة تحصيل للخبز نظيف؟ ولماذا يحكم عليه ويدينه؟ من هو أوزموندو، ومن هم رفاقه في الحانة، في الأدب، في حفلات الرقص في نادي التقدم، في الأحاديث عن النساء، جميعهم مواطنون شرفاء لكنهم غير قادرين على حمل جثمان الصديق إلى المقبرة؟... فالرجل المستقيم كان النقيب. يا للمسكين! من دون أي مورد عدا وظيفة الجابي الاتحادي، من دون حقول الكاكاو، ويحتفظ بآرائه ويواجه أياً كان. لم يكن صديقاً حميماً لأوزموندو، وهناك كان في الجنازة، يُمسك أحد مقابض التابوت. وخطاب العشاء؟ لقد صفع باسم مونديئيو وجه الجميع، في حضور الكولونيل راميرو باستوس.

ارتعد نسيب عند تذكره العشاء، ، إذ كان يمكن أن يحصل إطلاق نار، لكنه، من حسن الحظ قد انتهى بسلام. على كل حال، إنها البداية فقط. النقيب ذاته قال هذا. فلدى موندينيو المال، والنفوذ في الريو، وأصدقاء في الحكومة المركزية. فهو

ليس «قذارة تافهة» مثل الدكتور هونوراتو، طبيب مُسِنّ، ضعيف، ورغم كونه زعيم المعارضة، يجير خدماته لراميرو، وهو يطلب منه وظائف لأبنائه. سوف يستقطب موندينيو كثيراً من الناس، يقسم المزارعين أصحاب الأصوات، ويسبب أذى. فلو نجح كما كان يعد، في استقدام المهندس والجرافات لتنظيف المضيق من الركام... لاستطاع تسلم مقدرات إيليوس، ووضع آل باستوس في المنفى. كما أن العجوز كان في نهايته، وألفريدو وجد في المجلس النيابي لكونه ابنه، وهو طبيب جيد للأولاد ولا شيء أكثر. وبالنسبة إلى تونيكو... فهو لم يولد من أجل السياسة، ليعطي أوامر ويلغي أوامر، ليعمل ويزيل. إنه لا يهتم إلا بالنساء، حتى أنه لم يحضر إلى الكباريه في تلك الليلة. بالتأكيد، كي لا يواجه النقاشات حول المقالة، فلم يكن رجل مشاجرات.

هز نسيب رأسه. إنه صديق الجميع. صديق النقيب وتونيكو، صديق أمانسيو ليال والدكتور، معهم يشرب، ويلعب القمار، ويتحدث، ويذهب إلى بيوت النساء. ومنهم يجيء إليه المال الذي يكسبه. والآن ها هم منقسمون، كل واحد منهم إلى جانب. وهم لم يتفقوا سوى على أمر واحد: المرأة الخائنة تستحق القتل.، حتى النقيب ذاته لم يدافع عن سينيازينيا، ولا حتى ابن عمها الذي من بيته خرج جثمانها إلى المقبرة. أي شيطان جاء بابنة الكولونيل ميلك تافاريس إلى هناك، تلك التي يتوق إليها جوزويه متيماً. وهي الفتاة ذات الوجه الجميل، المطبقة الشفتين، والعينين القلقتين كأنهما تحملان سراً، نوعاً من اللغز؟

قال مرة جوان فولجنسيو عندما رآها مع زميلاتها الأخريات، وهي تشتري الشوكولاتة من الحانة:

«هذه الفتاة هي مختلفة عن الأخريات، فلديها شخصية.»

لماذا هي مختلفة، ماذا يقصد جوان فولجنسيو، وهو رجل لامع جداً، بكلمة «شخصية»؟ الحقيقة أنها ظهرت في المأتم، حاملة زهوراً. فأبوها يزور جيزوينو «ويأخذه في الأحضان»، كما قال هو نفسه لنسيب في سوق العبيد، فيما الابنة، الفتاة

العزباء والطالبة التي تنتظر العريس، تذهب إلى نعش سينيازينيا؟ أي شيطان جعلها تتصرف هكذا؟ الجميع منقسمون، الوالد إلى جانب، والابنة إلى جانب آخر. هذا العالم معقد، فليفهمه من يريد، أما هو، فهذا فوق طاقته، إنه ليس أكثر من صاحب حانة، فلماذا يفكر بكل هذا؟ كان عليه أن يكسب المال ليشتري ذات يوم، حقول كاكاو. سيشتري إذا ساعده الله. وعندها، ربما يستطيع النظر إلى وجه مالفينا، ويحاول فك رموزها، أو أقله، يخصص منزلاً لعشيقة صنو غلوريا.

كان عطشاناً، فمضى يشرب ماء من الجرة في المطبخ. رأى اللفة ذات الفستان والخفين التي جلبها من متجر عمه. ظل متردداً، من الأفضل أن يسلمها إياها في اليوم التالي، أو يضعها على باب الغرفة الصغيرة في الجناح الخلفي لتجدها الخادمة عندما تستيقظ. كأنه عيد الميلاد...

ابتسم وأخذ اللفة. في المطبخ جرع من الماء جرعات كبيرة، لقد شرب كثيراً من الخمرة في ذلك النهار، وكذلك خلال العشاء، وهو يساعد في الخدمة.

كان القمر في أعالي السماء يضيء الفناء المزروع بشجرة المامون والغوايا، وكان باب غرفة الخادمة مفتوحاً... ربما بسبب الحر. في عهد فيلومينا كان يغلق بالمفتاح، فالعجوز كانت تخشى اللصوص، إذ كانت ثروتها لوحات القديسين. ويتسلّل ضوء القمر إلى داخل الغرفة. فاقترب نسيب، ووضع اللفة عند حافة السرير، سينتابها الخوف عند الصباح، وربما في الليلة المقبلة...

تفحصت عيناه العتمة، فرأى بقية ضوء القمر تصعد إلى السرير، وتضيء شريحة من فخذها. ثبت نسيب نظره، وأصبح مهتاجاً. كان يرغب أن ينام هذه الليلة بين أحضان ريزوليتا، وبهذا الأمل ذهب إلى الكباريه، وقد كان قد اختبر قبلاً الخبرة التي تمتلكها، كمومس من مدينة كبيرة. وبقيت لديه الرغبة الثائرة. إنه الآن يرى جسد غابرييلا الأسمر، والفخذ الخارج من السرير. وما يتخيله تحت الغطاء المرقع هو أكثر مما يراه، فالغلالة الممزقة بالكاد تغطي البطن والنهدين. نهد خرج نصفه من

محبسه، وراح نسيب يتصور النهد الآخر وقد شعر بالدوار بسبب عطر القرنفل الذي كان يفوح من جسدها.

انتفضت غابرييلا في نومها، واجتاز العربي الباب. كان متردداً، ولا يملك الجرأة على لمس الجسد النائم. لماذا يسرع؟ قد تصرخ، وقد تحدث فضيحة، أو ترحل. فيصبح بدون طاهية، ولن يعثر على مثلها. من الأفضل أن يترك اللفة على حافة السرير. وفي الصباح التالي، يتأخر في مغادرة البيت، فيفوز بثقتها، وشيئاً فشيئاً ينتهي باستمالتها إليه.

وضع اللفة بيده المرتجفة، فانتفضت غابرييلا فاتحة عينيها. وكادت تتكلم، لكنها شاهدت نسيب واقفاً وهو يرمقها. وبحثت بيدها، بصورة عفوية، عن الغطاء، بيد أن كل ما استطاعت فعله- بسبب الحياء أو الشر؟ - هو جعله ينزلق عن السرير. نهضت من وسطه، وجلست تبتسم بخجل. لم تحاول إخفاء النهد الذي بات الآن مرئياً في ضوء القمر. فتلعثم نسيب:

«جئت لك بهدية. وكنت سأضعها على سريرك. لقد وصلت الآن...

ابتسمت، كان خوفاً أم لتشجعه؟ كله جائز. كانت تبدو طفلة، يظهر فخذاها ونهداها وكأن المسالة عادية، وكأنها لا تعرف شيئاً عن تلك الأمور، وكأنها كلها براءة. أخذت اللفة من يده.

«أنا شاكرة لك، أيها الشاب، ثوابك من عند الله.»

فكّت العقدة. ونسيب يحدق إليها بعينيه. وبسطت الفستان على جسدها، مبتسمة. ثم لمسته بيدها:

«إنه جميل...»

ثم رمقت الخفين الرخيصين، فيما نسيب بدأ يتنفس بصعوبة.

«أنت طيب جداً يا سيدي...»

تصاعدت الرغبة إلى أحشاء نسيب، وشدت على خناقه. فاضطرب نظره،

وجعله عطر القرنفل يشعر بالدوار. تناولت الفستان لتراه بشكل أفضل. فبرز مجدداً عريها الخمري .

«إنه جميل... بقيت مستيقظة، منتظرة تعليماتك عن طعام الغد. مضى الوقت، استسلمت إلى الرقاد...

- كان لدي عمل كثير.» كانت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة.

- مسكين... ألست تعباً؟

ثنت الفستان، ووضعت الخفين على الأرض.

«أعطنيه، سأعلقه في المسمار.

لمست يده يد غابرييلا، فضحك:

- يدك شديدة البرودة...»

لم يستطع التحمل أكثر، فأمسك بساعدها، فيما راحت اليد الأخرى تبحث عن النهد الذي برز في ضوء القمر لتداعبه. فانتفضت الفتاة مهتاجة وجذبته إلى جسدها وراحت تتمتم وهي ملتصقة به:

- أوه يا سيدي الجميل... ما...!

كان عطر القرنفل يملأ الغرفة، وكانت الحرارة التي تنبعث من جسد غابرييلا، تلفُّ نسيب، وتأجج شهوته، وكان ضوء القمر يموت على السرير. وعبر التنفس والآهات، وفي حمى القبلات المتواصلة، كان صوت غابرييلا المتقطع يهمس متمتماً:

- يا سيدي الجميل...!

الجزء الثاني

أفراح وأحزان إحدى بنات الشعب في شوارع إيليوس، من المطبخ إلى المذبح (بالأحرى لا يوجد مذبح بسبب التعقيدات الدينية) عندما كان المال يسيل بوفرة ويبدّل الحياة، مع حصول وانفكاك أخرى، تنهدات الحب وصراخ الغيرة، الخيانات السياسية والمحاضرات الأدبية، الاغتيالات، الفرار، الجرائد المحترقة، المعركة الانتخابية ونهاية العزلة، رجال الغابات، طاه حرّ واحتفالات نهاية السنة، ثلاثي الرعويات وسيرك تافه، كيرميس وغوّاصون، نساء ينزلن مع رسوّ كل باخرة، مسلحون مع طلقات الرصاص الأخيرة، مع بواخر الشحن الكبيرة في المرفأ، والقانون المنتهك، ومع زهرة ونجمة.

أو غابرييلا: قرنفل وقرفة

القسم الثالث

سرّ مالفينا

(ولدت من أجل قدر عظيم،

لكنها سجينة حديقتها)

الأخلاق تضعف، والعادات تتفسخ،

والمغامرون يأتون من الخارج...

(من إحدى خطب الدكتور ماوريسيو كاييريس)

أنشودة لحث مالفينا على الرقاد

نامي، يا ابنتي، نامي.
في سريرك، وأنت نائمة،
ستبحرين على متن مركب.

إني سجينة في حديقتي
ومقيّدة بالأزهار.
النجدة! إنهم يغرقونني
النجدة! سوف يقتلونني.
النجدة! سوف يزوّجونني،
وفي بيت سيدفنونني:
في المطبخ، لأطهو،
وفي الفوضى، لأرتب،
وعلى البيانو، لأعزف،
وفي القداس، لأعترف،
النجدة! سوف يزوّجونني،
وفي السرير سيحبّلونني

في سريرك، وأنت نائمة،
ستبحرين على متن مركب.

زوجي، سيدي،
في حياتي سيتحكم.
وسيتحكم في ثيابي ،
وفي عطري سيتحكم.
سيتحكم في رغباتي،
وفي نومي سيتحكم.
سيتحكم في جسدي،
وفي روحي سيتحكم.
من حقه أن يقتلني،
ولا يحق لي سوى البكاء.

في سريرك، وأنت نائمة،
ستبحرين على متن مركب.

النجدة! خذوني من هنا.
أريد زوجاً لأحبه،
لا أريده لأحترمه.
أياً كان هو، لا يهم؟
شاباً وفقيراً، أو شاباً وثرياً،
جميلاً أو قبيحاً، أم خلاسياً،

المهم أن يأخذني من هنا.
فلا أريد أن أصير عبدة.
النجدة! خذوني من هنا.

في سريرك، وأنت نائمة،
سوف تبحرين على متن مركب.

على متن مركب سأبحر.
مع رفيق أو بمفردي.
مباركة كنت أو ملعونة،
سأغادر لأتزوج.
على متن مركب سأغادر.
سأغادر لأهب نفسي،
على متن مركب سأغادر.
سأغادر لكي أعمل،
على متن مركب سأغادر.
سأغادر لأعثر على ذاتي
الى الأبد سأغادر.

نامي، يا ابنتي، نامي
وحلمكِ الجميل احلمي.

غابرييلا مع زهرة

تفتحت براعم الأزهار في ساحات إيليوس، وفي المرتفعات الجبلية: ورودٌ وأقحوان وداليا ومرغريتا وآذريون، ونمت، وسط المرج الاخضر، تويجات بتلة «سيدات الساعة الحادية عشرة» ذات التوقيت الذي ينافس بدقته ساعة المحافظة، ناثرة نقاطاً حمراء على العشب الأخضر. وعلى ضفتي نهر ماليادو، وسط الغابة في الأدغال الندية، في أونياون وكونكيستا، انفجرت نباتات الأوركيديا الرائعة. بيد أن العطر الذي فاح من المدينة وغمرها، لم يأتِ لا من الحدائق، ولا من الأدغال، ولا من الزهور المعتنى بها، ولا من الأوركيديا البرية. فقد كان من المستودعات والأرصفة، ومن بيوتات التصدير. كان عطر حبيبات الكاكاو المجفف، قوياً بحيث يسبب الدوار للقادمين من الخارج، ولكنه مألوف لسكان إيليوس بحيث إن أحداً لم يعد يشعر به. لقد كان ينتشر فوق المدينة، وفوق النهر والبحر.

في الحقول، كان ثمر الكاكاو يبلغ مرحلة النضوج، ناشراً على المنظر سلسلة اللون الأصفر، ما يضفي عليه جواً من البهجة. فأوان جني المحصول يقترب، والموسم عظيم لدرجة أنه لم يشاهد مثله قطّ.

أعدت غابرييلا طبقاً كبير الحجم من الحلوى، وآخر أكبر منه، من الآكاراجي والآبارا، وأقراص السمك المجفف، والأطعمة المقليّة، فيما الزنجي الصغير تويسكا وهو يدخن عقب سيكارة، كان يروي لها الأخبار عن أحاديث الحانة، وغيرها من الأحداث الصغيرة، التي تهمه بشكل خاص: أحذية مونذينيو فالكون العشرة ، مباريات كرة القدم على الشاطئ، السرقة التي تعرض لها متجر الأقمشة، الإعلان عن الوصول القريب للسيرك «البلقاني الكبير» مع فيل وزرافة وجمل، وأسود ونمور. وكانت غابرييلا تضحك، وهي تصغي، وأصبحت مهتمة بأخبار السيرك:

«هل سيأتي حقاً؟

– يوجد إعلان على الأعمدة.

– ذات مرة، في بلدي، ذهبت مع عمتي لأشهد سيركاً. كان هناك رجل يأكل ناراً.»

استرسل تويسكا بطرح المشاريع: عندما يصل السيرك سيصحب المهرّج في جولته بالمدينة، ممتطياً ظهر حمار. هكذا كان يحدث دائماً، في كل مرة ينصب السيرك خيمته في بؤرة سوق السمك. وعندما يسأل المهرّج: من هو المهرّج؟ يجيبه الأولاد: «إنه سارق نساء...»

كان المهرّج يضع له علامة بالكلس على جبينه ، ليدخل مجاناً إلى العرض ليلاً، أو ليساعد العاملين في السيرك في إعداد حظائر الحيوانات، الأمر الذي يجعله عنصراً مفيداً وحميماً. وفي مثل هذه المناسبات كان يتخلّى عن صندوق مسح الأحذية.

«ذات مرة، استدعاني مدير السيرك وطلب مني أن أذهب معه.

– كعامل على المسرح؟»

«كلا، كفنان. مبدياً الامتعاض من الاهانة.

– ما الذي كان عليك أن تفعله؟»

لمع وجهه الاسود:

«لأساعد بالظهور مع القرود عندما يأتي دورها، ولأرقص أيضاً.. إنما لم أذهب بسبب أمي.» (الزنجية رايموندا، المشلولة بسبب الروماتيزم، كانت غير قادرة على ممارسة مهنتها كغسّالة، فكان ابناها يعيلان العائلة: فيلو، سائق الأوتوبيس، وتويسكا، الملم بفنون مختلفة.)

«وهل تحسن الرقص؟

– ألم تشاهديني قط؟ أتريدين مشاهدتي؟

على الفور، بدأ يرقص. كان الرقص في داخله، القدمان تبدعان خطوات، الجسم طليق، واليدان تصفقان الإيقاع. كانت غابرييلا تنظر إليه، ثم مثله، لم تستطع

أن تتمالك نفسها، فتركت الأطباق والطناجر والأطعمة المالحة والحلوى، ورفعت تنورتها بيدها. ها هما يرقصان الآن معاً، الزنجي الصغير والخلاسية، تحت شمس الفناء. لم يكن ثمة أحد غيرهما في العالم. وفي لحظة ما، توقف تويسكا واستمر يضرب بيديه على وعاء معدني فارغ ، فيما كانت غابرييلا تدور على نفسها وتنورتها تتطاير، وذراعاها تروحان وتجيئان، وجسدها ينبسط ثم يلتئم، وردفاها يدوران، وفمها يبتسم.

«يا إلهي! الأطباق...»

ملأوها بسرعة، وضعوا الحلوى فوق الأطعمة المالحة، وكلها على رأس تويسكا الذي خرج وهو يصفّر لحن الرقص. وكانت قدما غابرييلا لا تزالان ترسمان بعض الخطوات، فالرقص جميل جيد.. لكن صوت غليان انبعث من المطبخ، فركضت.

عندما شعرت أن شيكو موليزا دخل البيت المجاور، كانت على أهبة الاستعداد. فتناولت القصعة ذات الطبقات، وانتعلت الخفّين، ثم اتجهت إلى الباب. سوف تأخذ الطعام لنسيب، وتساعده اثناء غياب الخادم. عادت عندئذٍ، فقطفت وردة من حديقة الفناء، ووضعت الزهرة وراء أذنها، فشعرت بالوريقات المخملية تلمس وجهها.

كان الإسكافي فيليبي- فوضوي بذيء عند شتمه الكهنة، لكنه مهذب جداً كنبيل إسباني عندما يتكلم مع سيدة - هو الذي علّمها تلك الطريقة في التدلل. وكما يقول «إنها أجمل أساليب الغنج».

- جميع فتيات إشبيلية يضعن وردة حمراء في الشعر...

إنه يطرق الجلد في إيليوس منذ عدة سنوات، ومع ذلك، لا يزال يخلط كلمات إسبانية مع لغته البرتغالية. في الماضي، نادراً ما كان يحضر إلى الحانة. إذ كان يعمل كثيراً، يصلح السروج والسيور، يصنع أسياط ركوب الخيل، ويضع نعالاً للأحذية والجزمات. وفي أوقات الفراغ يقرأ كتيّباً ذا غلاف أحمر، يناقش في مكتبة وقرطاسية موديلو. ولم يكن يأتي إلى الحانة سوى أيام الآحاد، ليلعب الغامون والداما، حيث

كان خصماً يهابونه. الآن، يأتي، كل يوم، قبل ساعة الكؤوس فاتحة الشهية. عندما وصلت غابرييلا، أحنى الإسباني رأسه ذا الشعر الأبيض المتمرد، مظهراً طقم أسنان كاملاً لرجل شاب:

«لتحيا العزوبية، أوليه...»

وأحدث بأصابعه صوتاً كرنة الصنّاجات. زبائن آخرون أيضاً، كانوا عابرين في السابق، تحولوا إلى دائمين يأتون يومياً. فشهدت حانة فيزوفيو نجاحاً فريداً. وانتشرت بسرعة، منذ الأيام الأولى، شهرة الأطعمة المالحة والحلوى التي تعدها غابرييلا ، بين المدمنين على الكؤوس فاتحة الشهية، فجلبت الزبائن من حانات المرفأ، ما أحدث الذعر لدى بلينو أراسا صاحب حانة العرق الذهبي. وكان نيوغالو وتونيكو باستوس والنقيب، الذين كانوا يشاركون نسيب غداءه، كل بمفرده، ، كانوا يقولون أشياء رائعة عن طاهيته. وكانت أطباق الآكاراجي، والأطعمة المقليّة الملفوفة بأوراق شجر الموز، وفطائر اللحم الشهية، مغناة نثراً وشعراً – في الشعر لأن المدرِّس جوزويه خصص لها قصيدة رباعية، حيث جمع القافية، المقلاة مع المشروب الكحولي، والطاهية مع المرأة الفاتنة. وموندينيو فالكون طلب من نسيب إعارته إياها يوم قدّم عشاء في مسكنه لمناسبة مرور عرضي لباخرة تابعة لشركة إيتا في إيليوس، على متنها صديق له، عضو في مجلس الشيوخ عن ولاية الآغواس.

كانوا يأتون من أجل الكؤوس فاتحة الشهية، والبوكر ذي الأحجار، والآكاراجي المشبع بالفلفل، وأقراص السمك المجفف المالحة التي تفتح الشهية. وتزايد العدد، بعضهم يجيئون بآخرين، حسب الأخبار الرائجة بصدد النوعية الممتازة لتوابل غابرييلا. كثيرون أصبحوا يطيلون بقاءهم بعد ساعة مغادرتهم العادية ويؤخرون عشاءهم، منذ أن أصبحت غابرييلا تجلب إلى الحانة قصعة نسيب ذات الطبقات.

كانت الهتافات ترتفع عند دخولها: مشيتها الراقصة، عيناها منخفضتان، وابتسامتها التي كانت شفتاها توجهها إلى جميع الأفواه. وكانت عند دخولها،

تلقي تحية الصباح وهي تسير بين الطاولات، وتمضي رأساً إلى طاولة البيع، لتودع القصعة ذات الطبقات. وكما هو مألوف، فإن الزبائن نادرون في مثل هذه الساعة ، ما عدا بعض المتأخرين المستعجلين للعودة إلى بيوتهم. لكن الزبائن الدائمين كانوا يطيلون، أكثر فأكثر، ساعة تناول فاتح الشهية بانتظار مجيء غابرييلا إلى الحانة، حيث يشربون الكأس الأخير بعد وصولها.

– أنزل واحداً من «ذيل الديك» يا بيكو فينو.

– كأسان من الفيرموث هنا...

– وكانت حجارة اللعب ترنّ على اللوح المغطّى بطبقة من الجلد وتدور على الطاولة:

– سنخرج لمرحلة. نلتهم الملوك بنقلة واحدة...

وكانت غابرييلا تساعد في الخدمة، لكي تنهي الحركة بأسرع وقت، وإلا فالطعام سيبرد في القصعة، ويفقد مذاقه..وكان الخفّان يحتكان بالإسمنت، والشعر مشدوداً بشريط من القماش، والوجه بدون مساحيق، والردفان راقصين، وكانت تتنقَّل بين الطاولات، فيقول لها أحدهم، كلمات غزل، وآخر يحدّق إليها بعينين متوسلتين، والدكتور يربت يدها بكفّه يناديها بـ «ابنتي». وهي تبتسم لهذا وذاك، تبدو طفلة، لو لم يكن ردفاها طليقين.

اجتاحت الحانة حيوية، كأن حضور غابرييلا أحالها مضيافة وحميمة. ومن طاولة البيع كان نسيب يراها تظهر في الساحة، والوردة وراء أذنها، مشدودة إلى شعرها. وكانت عينا العربي شبه مغمضتين. القصعة ذات الطبقات ملأى بالطعام الشهي، وفي تلك الساعة يشعر بالجوع، وهو راضٍ لكونه لم يلتهم الرقائق المحشوة باللحم، وفطائر القريدس، والأقراص التي تصطف على الأطباق. إن وصول غابرييلا يعني دورة المشروب في جميع الطاولات تقريباً، وارتفاع المكسب. وأكثر من ذلك، كان ابتهاجاً لعينيه أن يراها عند منتصف النهار، فيذكر الليلة الماضية، ويتخيّل الليلة القادمة.

تحت طاولة البيع كان يقرصها، ويمر يده من تحت تنورتها، ويلمس صدرها. فتضحك غابرييلا آنئذٍ خفية. كان ذلك لذيذاً.

ويتوسل النقيب:

- تعالي، انظري هذه اللعبة يا تلميذتي...

كان يناديها بالتلميذة، في جو أبوي مزيَّف، منذ اليوم الذي حاول فيه أن يعلّمها الأمور الغامضة في لعبة الغامون، فيما الحانة شبه فارغة. فضحكت وهزّت رأسها. فما عدا «لعبة الحمار» لم تستطع تعلّم أية لعبة أخرى. لكنه في خلاصات المراحل الطويلة في اللعب المتباطئ من أجل رؤيتها لدى وصولها إلى الحانة، كان يصرّ على حضورها في الرمايات الحاسمة:

- تعالي إلى هنا لتزوديني الحظّ..

وأحياناً كان الحظ من نصيب نيوغالو، والإسكافي فيليبي أو الدكتور:

- شكراً لكِ يا ابنتي. ليجعلك الرب أكثر جمالاً مما أنتِ فيه.

ويربت الدكتور يدها برقة. فيحتج النقيب وهو يتخلّى عن الجو الأبوي:

- أكثر جمالاً؟ مستحيل!.

لم يكن نيو غالو يقول شيئاً، إنما ينظر إليها فقط، ويثني الإسكافي فيليبي على الوردة وراء أذنها:

- آه! يا سنواتي العشرون...

ويتوسل لجوزويه، لماذا لم يَنظُم قصيدة لتلك الزهرة، لتلك الأذن، لتينك العينين الخضراوين؟ ويجيب جوزويه بأن قصيدة شيء زهيد. سوف ينظم لها أنشودة ملحمية.

وكانوا ينتفضون حينما تدق الساعة الثانية والنصف، فيبدأون بالخروج، تاركين إكراميات دسمة يجمعها بيكو فينو بأظفاره القذرة والشرهة. كانوا مدفوعين بالساعة كأنهم ملزمون، من دون مشيئتهم، فتفرغ الحانة، ثم يجلس نسيب ليأكل. وكانت

تخدمه، وتملأ له الكوب ماء. ويضيء الوجه الأسمر حينما يطري أطباقها، بعد أن يشبع، بين دفعتي تجشؤ - كان يوضح: «إن هذا جيد للصحة»- .

تجمع طبقات القصعة، ويحضر شيكو موليزا عائداً، إذ يحين وقت بيكو فينو للذهاب إلى الغداء. فتحضِّر غابرييلا سرير القيلولة في أرض خلف الحانة، مزروعة بالشجر، مطلّة على الساحة. وبعد أن تقول له «إلى اللقاء يا سيد نسيب» تعود إلى البيت.

يشعل العربي سيكاراً من نوع «القديس فيليكس»، ويتناول صحف باهيا المتأخرة أسبوعاً عن يوم صدورها، ويظل يرمقها وهي تختفي في منعطف الكنيسة، بمشيتها الراقصة، بردفيها... لم تعد تضع الزهرة وراء أذنها مدخلة إياها في شعرها. لقد وجدها في سرير القيلولة، هل سقطت عرضاً، عندما انحنت الفتاة،أم أنها انتزعتها من وراء أذنها، وتركتها هناك عن قصد؟.

وردة قانية مع رائحة القرنفل، عطر غابرييلا.

عن الضيف المنتظر غير المرغوب

حضر النقيب والدكتور مبكرين إلى حانة فيزوفيو، يرافقهما رجل ثلاثيني، منبسط الوجه ذو هيئة رياضية. وقبل أنْ يقدّماه، خمّن نسيب بأنه المهندس. لقد عُثر أخيراً على هذا المواطن المنتظر جداً والمثير للنقاش...

- الدكتور رومولو فييرا، مهندس من وزارة النقل.

- يشرفني لقاؤك، يا دكتور. أنا في خدمتك...

- كل الشرف لي أنا.

لقد جاء أخيراً الرجل المنتظر، ذو الوجه المحروق بالشمس، والشعر المقصوص كالأقرع، وندب صغير على جبينه. شدّ على يد نسيب بقوة. وابتسم الدكتور سعيداً جداً كأنه يرى قريباً له أو امرأة نادرة الجمال. وتندر النقيب:

- هذا العربي مؤسسة بذاته. فهو من يسممنا بمشروبه الزائف، ويسرقنا في البوكر، ويلم بتفاصيل حياة كل منا.

- لا تقل هذا أيها النقيب. ما الذي سيظنه الدكتور؟

- إنه صديق طيب وشخص مفعم بالخير. قال النقيب مصححاً.

كان المهندس، ينظر بنوع من الريبة إلى الساحة والشوارع والحانة ودار السينما، وإلى البيوت القريبة التي تطل من نوافذها عيون فضولية.

جلسوا حول الطاولات على الرصيف. وظهرت غلوريا من النافذة، مبللة من الاستحمام، وشعرها مبعثر، كأنهامستيقظة لتوها. شاهدت الغريب، فركزت نظرها عليه، ثم ركضت إلى الداخل لتتبرّج.

- امرأة ذات جمال إلهي! هيه؟ راح النقيب يفسر للمهندس سر عزلة غلوريا.

أصر نسيب على أن يخدمهم بنفسه، فجلب قطعاً من الثلج في طبق، لأن الجعة كانت مبردة. أخيراً، وصل المهندس. جريدة دياريو ده إيليوس أعلنت بالأمس، في صفحتها الأولى، وحروف بارزة، وصوله هذا اليوم على متن باخرة تابعة للشركة الباهيانية. ويضيف النبأ بفجاجة: «سنرى كيف ستتحول إلى ابتسامة صفراء، ابتسامة الحمقى والحسَّادين البلهاء ، أنبياء القمامة أولئك الذين، بحماستهم اللاوطنية، كانوا ينفون ليس احتمال مجيء مهندس وحسب، إنما عدم وجود أي مهندس من الوزارة... اليوم ستقفل أفواه النمامين، وستظهر الأمور على حقيقتها». لقد جاء المهندس مباشرة إلى باهيا، ومنها تابع إلى إيليوس حيث وصل عند الفجر.

أعلنت الصحيفة الخبر بشكل استفزازي، مما أثار عاصفة غضب في صفوف الخصوم. لكن الحقيقة هي أن المهندس قد تأخر كثيراً في الوصول. فقد مضت ثلاثة أشهر على إعلان قدومه الفوري. ويذكر نسيب جيداً ذلك اليوم، لأن فيه غادرت فيلومينا العجوز، وفيه اتفق مع غابرييلا-، أعلن مونديمنيو فالكون على الملأ، عند

نزوله من الباخرة التابعة لشركة إيتا، أن مسألة المضيق سوف تدرس وسيجري حلّها، ما أمّن له نفوذاً أكيداً. وقد شكل الوصول الوشيك لمهندس الوزارة بداية انطلاق هذا الحل. ولّد ذلك إحساساً في المدينة، أقله، بحيوية الاحساس الذي ولدته جريمة الكولونيل جيزوينو ميندونسا، وكانت، في الوقت عينه، قد انطلقت الحملة السياسية لانتخابات بداية السنة المقبلة. قاد المعارضة موندينيو فالكون على رأس عددٌ من الأشخاص النافذين. وركزت صحيفة دياريو ده إيليوس التي كان يرى، في رأس صفحتها الأولى إشارة «صحيفة إعلامية غير سياسية »، هجوماً على إدارة البلدية وعلى الكولونيل راميرو باستوس، وراحت تسخر من الحكومة الإيالية. وكتب فيها الدكتور سلسلة مقالات، وتهكمات لاذعة، ملوّحاً بالمهندس المعلن عن مجيئه، كسيف فوق رأس آل باستوس.

كان موندينيو فالكون يعقد، في مكتبه الكائن فوق الطابق الارضي والمليء بأكوام بتخزين الكاكاو، لقاءات مع أعداد كبيرة من المزارعين، لكن ليس للحديث على مواضيع تجارية بسيطة، بيع الموسم، وكيفية الدفع. إنما كان يناقش في السياسة، يقترح تحالفات، ويفضح خططاً ويعرض الانتخابات كأنه فائز بها. وكان الكولونيلات يصغون متأثرين بكلامه. فآل باستوس كانوا يسيطرون على إيليوس منذ أكثر من عشرين سنة، وكانوا يحظون بمساندة الحكومات الإيالية المتعاقبة ودعمها. إلّا أن باع موندينيو كانت طويلة: مصدر قوته كان من الريو، من الحكومة الاتحادية. ألم ينجح، بالرغم من معارضة حكومة الولاية، في الحصول على مهندس ليدرس قضية المضيق هذه، التي يتم حلها حتى ذلك الحين؟ أما كان يؤكد أنه سيجد حلاًّ لها في فترة وجيزة؟

الكولونيل ريبيرينيو الذي لم يكن يبدي اهتماماً قطّ لأصواته، فكان يعطيها دون مقابل إلى راميرو باستوس، انضم الآن إلى حزب الزعيم الجديد، وانخرط في السياسة للمرة الأولى. وإذ أثارته الحماسة، راح يجوب الداخل ليؤثر في الفلاحين

الصغار ويجتذب المؤيدين. كان البعض يزعم أن تلك الصداقة السياسية قد وُلدت في سرير آنابيلا، الراقصة التي استقدمها المصدّر إلى إيليوس، التي تركت شريكها الساحر لاعب الخفة، لترقص للكولونيل بصورة خاصة. إنها «مجرد شائعات مؤذية» فكر نسيب. وتأكيداً على حيادها السياسي النموذجي، كان تونيكو باستوس يضاجعها فيما الكولونيل يجوب القرى والدساكر، كما كانت تخون الاثنين عندما يرسل موندينيو فالكون، الذي كان يحب التغيير، في طلبها. فعلى هذا الأخير كانت تعتمد في النهاية، في حال حدوث أي ازعاج لها في هذه البلاد المخيفة، حيث العادات كانت مخيفة جداً.

مزارعون آخرون، خصوصاً الأكثر شباباً، من الذين كانت التزاماتهم تجاه الكولونيل راميرو باستوس حديثة العهد، لم تكن مرتبطة بصلة الدم. فكانوا يؤيدون تحليل المشكلات وحاجات إيليوس التي كان يقدمها موندينيو فالكون، كما التدابير التي كان يقترحها: شق الطرقات، استثمار قسم من العائدات في المناطق الداخلية (آغوا بريتا، بيرانجي، ريو دو براسو، كاشويرا دو سول)، إنجاز شبكة السكة الحديد التي تربط إيليوس بإيتابيرا، التي لا تنتهي الاشغال فيها.

«يكفينا ساحات وحدائق... إن ما يلزمنا هو الطرقات!»

كانوا متأثرين بشكل رئيسي، بأفق التصدير المباشر في حال جرى تنظيف المضيق وإصلاحه، ما يتيح مرور البواخر ذات الحمولة الكبيرة، فتزداد مداخيل المحافظة، وتصبح إيليوس عاصمة حقيقية. بضعة أيام ويكون المهندس هنا...

لكن الحقيقة، مضى الوقت، ومضت الأسابيع والأشهر، والمهندس لم يصل. ففترت حماسة المزارعين، ولم يبق ثابتاً إلّا ريبيرينيو، فكان يناقش في الحانات، يقدم الوعود ويوجه التهديدات. وتساءلت «جريدة الجنوب» أسبوعية آل باستوس، عن» هذا المهندس الشبح، اختراع الغرباء الطموحين وذوي النيّات السيئة، الذين لا يستند نفوذهم إلا على نقاشات المقاهي». ولم يستطع حتى النقيب ذاته، وهو روح كل ذلك

التحرك، إخفاء انفعاله، فكان متوتراً، وغاضباً وعلى طاولة الغامون، يخسر الدور تلو الآخر.

ذهب الكولونيل راميرو باستوس إلى باهيا بالرغم من أن أصدقاءه وابنيه لم ينصحوه بهذا السفر الخطر بسبب تقدمه في السن. رجع بعد أسبوع منتصراً، وجمع أنصاره في بيته.

كان أمانسيو ليال يخبر بصوته الرقيق، من كان يريد أن يسمع، أن حاكم الولاية أكد للكولونيل راميرو عدم وجود أي مهندس معيّن من قبل الوزارة لمضيق إيليوس. لأن هذه المشكلة، حسب قوله، غير قابلة للإصلاح، وقد درسها مليّاً ناظر النقل في الولاية. فلا يمكن حقاً، القيام بأي شيء، ومحاولة حلها ستكون مضيعة للوقت. فالوضع يقضي بإقامة مرفأ جديد لإيليوس في «موليادو» خارج المضيق، ما يفترض أعمالاً ضخمة يستحيل الشروع فيها إلّا بعد عدة سنوات من الدراسات، شرط أن تتوفر مبالغ ضخمة، ومساندة مشتركة من قبل السلطات الاتحادية، والإيالية والبلدية. فمن أجل تنفيذ أعمال بمثل هذا الحجم، يجب أن تجري الدرسات عليه ببطء وتأنّ كبيرين، ولا يمكن ذلك بوسيلة أخرى. كانت هذه الدراسات متنوعة وطويلة وصعبة، لكنها قد بدأت وعلى شعب إيليوس أن يصبر قليلاً...

نشرت «جريدة الجنوب» مقالة حول مستقبل المرفأ ، تشيد فيها بالحاكم والكولونيل راميرو باستوس. وعن المهندس، كتبت «إن هذا الأخير قد فشل في المضيق إلى الأبد»... وأمر المحافظ، باقتراح من راميرو، بزرع إحدى الساحات بالزهور إلى جانب البناية الجديدة لمصرف البرازيل.

وفي كل مرة كان أمانسيو ليال يلتقي فيها النقيب أو الدكتور، كان يسألهما بابتسامة ساخرة:

«متى سيصل مهندسكم هذا ؟»

«يضحك أفضل من يضحك أخيراً.» يجيبه الدكتور بخشونة.

«إنك لا تخسر شيئاً إذا انتظرت؟ «يضيف النقيب:

«كم هو الوقت اللازم للانتظار؟»

وينتهون بأن يحتسوا معاً جرعة يجبرهم أمانسيو على دفع ثمنها.

- أنا سوف أدفع عندما يصل المهندس.

حاول أن يتبادل مع ريبيرينيو مثل هذ المزاح ، بَيْدَ أن الأخير انتفض صارخاً بأعلى صوته في الحانة:

- أنا لا أحب هذه الترهات. هل تريد المراهنة؟ راهن فوراً بالمال. أن أراهن بعشر كنتوات على أن المهندس سوف يأتي.

وقال الصوت الرقيق ذو العين المعطوبة:

- عشرة كونتوات؟ أنا أراهن، أضع عشرين مقابل عشرتك وأعطيك مهلة سنة، إلّا إذا كنت تريد أكثر؟

لعب نسيب وجوان فولجنسيو دور الشهود. وأصرّ النقيب على أن موندينيو كي يذهب إلى الريو، ويلح على الوزير. رفض المصدّر. فالموسم قد بدأ ولا يستطيع ترك أعماله في تلك اللحظة، سيما وأن الرحلة غير ضرورية، إذ إن مجيء المهندس مؤكد، وما يحصل هو مجرد تأخير لأسباب بحت إدارية. فلم يكشف لهم الصعوبات الحقيقية، والصفعة التي تلقاها، عندما علم من رسالة وصلته من صديق له، أن الوزير تراجع عن وعده إزاء احتجاجات حاكم باهيا. استخدم موندينيو كل علاقاته، باستثناء عائلته بالذات، من أجل حل المسألة. كتب رسائل وبعث بكمية من البرقيات وقدم التماسات وأطلق وعوداً. حتى أن أحد أصدقائه قام بزيارة إلى رئيس الجمهورية، وثمة أمر لم يعرفه موندينيو قطّ، هو أن نفوذ لوريفال وإميليو كان العامل الحاسم للخروج من المأزق. وعندما علم رئيس الجمهورية باسم كاتب الطلب وبذويه من السياسيين النافذين في سان باولو، قال للوزير:

- في نهاية الأمر، الطلب محق. والحاكم في نهاية ولايته، وهو على عداء مع

كثير من الناس، ولا أدري إذا ما كان بإمكانه أن ينتخب خلفه. فيجب ألا ننحني دائماً لإرادة حكام الإيالات.

عاش مونديينو في جو من الخوف أفقده اتزانه. فإذا خسر هذه المباراة، لن يكون أمامه شيء يفعله سوى إعداد حقائبه والرحيل عن إيليوس. إلا إذا أراد العيش مجللاً بالعار، وموضعاً للسخرية والتندر، فيعود مطأطأ الرأس، فاشلاً ليعيش تحت أجنحة شقيقيه... فتوقف تقريباً عن الذهاب إلى الحانات وإلى الكباريهات، حيث أصبح عرضة للسخرية والنميمة.

تونيكو باستوس الشديد التحفظ نفسه، الذي كان يتجنب التطرق لتلك المسألة أمام مناصري مونديينو، لم يستطع أن يقاوم رغبته بتعكير مزاج خصومه السيئ. وذات مرة، جرى سوء تفاهم بينه وبين النقيب، فاضطر جوان فولجنسيو إلى التدخّل ليحول دون الوصول إلى القطيعة بينهما. اقترح تونيكو فيما هما يشربان ويتحدثان:

«لماذا، بدلاً من المهندس، لا يأتي مونديينو براقصة أخرى؟ هذا يكلف جهداً أقل ويقدم في الوقت عينه خدمة للأصدقاء...»

في تلك الليلة ذاتها، حضر النقيب صدفة إلى منزل المصدّر، فاستقبله مونديينو من دون حماسة:

- أعذرني يا نقيب، فلديّ أناس في البيت. إنها شابة وصلت من باهيا على متن الباخرة اليوم، وأنا منهمك في مشاغل العمل...

- لن آخذ من وقتك إلا دقيقة. - أثارت النقيب قصة تلك العشيقة المستقدمة من باهيا. هل تعرف ما قال تونيكو باستوس اليوم في الحانة؟ إنه لا يمكنك القيام إلا باستقدام نساء إلى إيليوس. نساء ولا أكثر من ذلك... أما استقدام مهندس، فلا.

- نكتة موفقة! لكن لا تقلق... قال مونديينو ضاحكاً.

- كيف يمكنني ألّا أقلق؟ الوقت يمضي والمهندس...

– أعرف كل ما ستقوله يا نقيب... هل تظن أنني أبله، وأنني أقف مكتوف اليدين؟

– لماذا لا تلجأ إلى شقيقيك؟ فلديهما نفوذ...

– أبداً. ثم إن ذلك لن يفيد. لقد أرسلت اليوم إنذاراً حقيقياً. فاذهب واسترح واعذرني على طريقة استقبالي إياك.

– أنا هو من جاء في وقت غير مناسب...» سمع خطوات امرأة تمشي في الغرفة.

«واسأل تونيكو إذا كان يفضلها شقراء أم سمراء...»

بعد عدة أيام، وصلت برقية من الوزير معلنة اسم المهندس وتاريخ إبحاره إلى باهيا. فاستدعى موندينيو النقيب والكولونيل ريبيرينيو والدكتور. «المذكور هو المهندس رومولو فييرا». فتناول النقيب البرقية، ووقف:

– سأضعها تحت أنف تونيكو وأنف أمانسيو...

ورفع ريبيرينيو يديه:

– عشرون صندوقاً من دون جهد... هيّا نحتفل: سهرة صاخبة غير مألوفة في الباتاكلان.

استعاد موندينيو البرقية. لم يدع النقيب يأخذها وطلب منهم الاحتفاظ بالسر لعدة أيام أُخر. فالإعلان في الجريدة عندما يصبح المهندس في باهيا، أشد تأثيراً. وفي داخله، كان يخشى هجوماً من الحاكم وتراجعاً جديداً من الوزير. بعد أسبوع واحد، وعندما أخبره المهندس من باهيا، عن وصوله على متن باخرة الشركة الباهيانية المقبلة، طلب موندينيو الاجتماع مجدداً بأصدقائه، وأطلعهم على الرسائل والبرقيات المتبادلة. كانت المعركة قاسية على حكومة الولاية. فهو لم يضعهم في التفاصيل سابقاً خوفاً من إثارة الذعر لديهم. ولهذا لم يضعهم أمام التفاصيل. لكن الآن، ما داموا قد انتصروا، فخليق بهم أن يعرفوا كل تأثير هذا النصر وثمنه.

في حانة فيزوفيو طلب ريبيرينيو تقديم المشروب لجميع الناس، وعاد النقيب إلى الظهور بمزاجٍ طيب، ورفع كأسه نخب صحة «الدكتور رومولو فييرا محرر مرفأ إيليوس». انتشر النبأ، ثم صدر في الجريدة، واستعاد مزارعون متنوعون حماستهم، وسجّل ريبيرينيو والنقيب والدكتور بطاقات عليها عبارات مقتضبة. فعلت حكومة الولاية كل شيء لتمنع قدوم المهندس. قامرت بنفوذها كله وبقوتها كلها. واهتم الحاكم شخصياً ، بسبب صهره، بالمسألة. ومن الذي انتصر؟ هل هو الذي بيده الولاية، رئيس الحكومة، أم مونديني فالكون الذي لم يغادر مكتبه في إيليوس؟ بنفوذه الشخصي أفشل المصدّر حكومة الولاية. هذه هي الحقيقة غير القابلة للنقاش. كان المزارعون يهزّون رؤوسهم متأثرين بما حصل.

كان الاستقبال في المرفأ احتفالياً، وبما أن نسيب استيقظ متأخراً، وهو ما يحدث له الآن بشكل متكرر، فلم يستطع الحضور. لكنه عرف كل شيء حالما وصل إلى الحانة، من فم نيوغالو. كان هناك على الرصيف، مونديني فالكون وأصدقاؤه وعدد من المزارعين، وعدد كبير من الفضوليين أيضاً. ولكثرة ما تحدثوا عن هذا المهندس، أحبوا أن يروا كيف هو. فقد تحوّل تقريباً إلى كائن خارق القدرة الطبيعية. حتى أن كلوفيس كوستا أحضر معه مصوراً. فجمع هذا الأخير كل الحاضرين حول المهندس، ووضع رأسه تحت قماش أسود، واستغرق نصف ساعة ليلتقط الصورة. ولسوء الحظ، فقدت هذه الوثيقة التاريخية. لقد احترق الفيلم. فالرجل لم يكن يحسن التصوير إلا داخل محترفه.

«متى يبدأ العمل؟ سأله نسيب .

– سريعاً. الدروس التمهيدية. يجب انتظار المساعدين والأدوات الضرورية. إنهم قادمون بسرعة في باخرة تابعة لشركة لويد.

– هل سيستغرق ذلك فترة طويلة من الوقت؟

– من الصعب التنبؤ... شهراً ونصف الشهر، شهرين، لا أدري حتى الآن...»

«الشاطئ جميل. هل هو جيد لحمام البحر؟ لاحظ المهندس.

- جيد جداً...

- لكنه خالٍ...

- لا يوجد هنا مثل هذه العادة. موندينيو فقط كان يقوم بذلك، وأحياناً فيما مضى مع المرحوم أوزموندو، وهو طبيب أسنان قُتل... في الصباح الباكر...»

«لكنه غير ممنوع؟ قال المهندس ضاحكاً.

- ممنوع؟ طبعاً لا! إنما ليس مألوفاً.»

كانت فتيات ثانوية راهبات اليوم المقدس، تغتنم المناسبة لتسرن في السوق التجارية وتتبضعن، وتدخلن الحانة سعياً للملبّس والأقراص المحلّاة، وكانت بينهن مالفينا الرائعة الجمال والرصينة.

«الشبيبة الطالبة، أمهات العائلات في المستقبل، إيراسيما، إيلوييزا، زليخة، مالفينا...» قدّمهن النقيب إلى المهندس الذي سلم عليهن بالأيدي، مبتسماً، وأطراهن.

«بلاد الفتيات الجميلات...

«لقد جعلتنا ننتظرك طويلاً فاعتقدنا بأنك لن تأتي أبداً. قالت مالفينا وهي تحدّق إليه بعينيها المليئتين بالغموض.

- لو عرفت أنني كنت منتظراً من آنسات جميلات بهذا القدر، لجئت منذ وقت بعيد، حتى لو لم أكن معيّناً...

يا للعينين اللتين تمتلكهما تلك الفتاة! فجمالها الفتّان لم يكن في الوجه وفي أناقة الجسم فقط، إنما من الإشعاع الذي ينبثق من أعماق ذاته أيضاً.»

غادر الفريق المرح، والتفتت مالفينا مرتين. فأعلن المهندس:

«سأغتنم هذه الشمس وآخذ حماماً في البحر.»

«تعال إلى القاعة حوالى الحادية عشرة، الحادية عشرة والنصف...في الوقت

الذي يتناولون فيه الكؤوس فاتحة الشهية، وهناك ستلتقي نصف سكان إيليوس...»

كان يقيم في فندق كويليو. وشوهد يمرّ بعد قليل، متدثراً بروب الاستحمام، متجهاً إلى الشاطئ. فنهضوا يراقبونه وهو ينزع عنه ثوب الاستحمام. كان جسمه الرياضي عارياً إلّا من سروال السباحة، فركض إلى البحر يشق الموج بضربات سريعة من ذراعيه. وجلست مالفينا على مقعد في الرصيف على الشاطئ، تراقبه بعينيها.

كيف بدأ اضطراب المشاعر لدى العربي نسيب

قرأ نسيب بعض الأسطر في الجريدة، وهو ينفث دخان سيكار «القديس فيليكس» المعطّر. وعلى العموم، لم يكن يدخن السيكار كله، ولا يقرأ كثيراً في جرائد باهيا اليومية، كان يغفو بسرعة، يهدهده نسيم البحر، مثقلاً بالأطعمة الشهية التي التهمها بشَرَهٍ مع توابل غابرييلا التي لا تضاهى. كان يغط سعيداً، وينساب غطيطه من بين شاربيه الكثيفين. نصف الساعة تلك من النوم، في ظل الأشجار، كانت إحدى لذات حياته، الهادئة بدون قلق ومن دون تعقيدات ومن دون مشكلات خطيرة. لم تكن، يوماً، أعماله تسير بهذا القدر من النجاح. فالحانة تزدهر باطراد ويتزايد عدد روادها، فيزداد رصيده في المصرف، ويصبح واقعاً، حلمه بقطعة الأرض حيث سيزرع الكاكاو. لم يقم قط بعمل مربح أكثر من اتفاقه مع غابرييلا في سوق العبيد. من كان يتصور أنها ستكون طاهية حاذقة، ومن كان يتخيل أنها تخفي تحت الأسمال المتسخة كل تلك النعومة والجمال، جسداً حاراً جداً، وذراعين ملؤهما الحنان، وعطر القرنفل الذي يجعل الرأس يدور؟...

في ذلك اليوم، عندما وصل المهندس، خيَّم جو من الفضول على الحانة. عمليات تعارف، تحيات، إطراءات بالجملة - «إنك سبّاح من الدرجة الأولى» -

كانت تطول بحيث كل الناس في إيليوس تأخروا بالذهاب إلى الغداء. أجرى نسيب جردة حساب تقديرية لمدخول الحانة منذ إعلان قدوم المهندس. عادت غابرييلا إلى البيت بعد أن طلبت منه:

«هل تسمح لي أن أذهب إلى السينما اليوم؟ سأذهب برفقة الدونا آرميندا...»

أخذ من الصندوق ورقة نقدية بقيمة خمسة آلاف ريال «مظهراً سخاءه»:

«إدفعي بدل الدخول عنها...»

وراح ينظر إليها وهي مسرعة بالمغادرة تضحك من الفرح (كان لا يتوقف عن قرصها ولمسها حتى أثناء تناول الطعام) ويعد الأيام: ثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً بالضبط. أحاديث سرية ومراهنات وتحريض وتشكيك وأمل لدى موندينيو واصدقائه كما لدى الكولونيل باستوس ومناصريه السياسيين. ساد جو من الضغط المتزايد:

مرّت أيام بدت فيها الحانة كمرجل على وشك الانفجار. إذ إن النقيب وتونيكو بالكاد يوجه واحدهم الكلام للآخر ، وكذلك الكولونيل أمانسيو ليال والكولونيل ريبيرينيو بالداد أخذا يتبادلان التحية.

وليرى المرء كيف هي أمور الحياة، فإن تلك الأيام قد مضت هادئة، باطمئنان كامل للروح، بفرح رقيق لنسيب. وربما هي الأيام الأكثر سعادة في حياته كلها. ما نام قط وقت القيلولة بمثل هذا الاطمئنان. ويستيقظ ضاحكاً مع صوت تونيكو الذي يتخلّف بعد الغداء لتناول قدر إصبع من الخمر يساعد على الهضم، شيء من الحديث قبل فتح دائرة كتابة العدل. وبعد ذلك بقليل ينضم إليهما جوان فولجنسيو، وهو في طريقه إلى المكتبة القرطاسية. كانوا يتكلون على إيليوس والعالم. فبائع الكتب كان يهتم في المسائل الدولية، وتونيكو يعرف كل شيء يشير إلى نساء المدينة.

هكذا كانت الأمور في الحياة بالنسبة إلى نسيب، مضت هذه الأيام بجو من الهدوء والفرح والعذوبة. لربما كانت من أسعد أيام حياته.

لم يكن يوماً بهذا الصفاء اثناء نومه وفي قيلولته. كان يستيقظ منفرج الاسارير

على صوت تونيكو الذي كان يأتي باستمرار بعد الغداء ليأخذ جرعة من البيرة لتسهيل الهضم والعودة لفتح مكتبه. بعد ذلك بقليل ينضم إليهما جوان فولجونسيو الذي يعود بعدها إلى المكتبة. كانوا يتحدثون عن إيليوس وعن العالم بأكمله. فصاحب المكتبة كان على اطلاع على الشؤون العالمية وتونيكو كان يعرف كل شيء عن الوسط النسائي في المدينة.

لقد استمر انتظار وصول المهندس ثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وهو بالضبط الوقت الذي مضى على اتفاقه مع غابرييلا. ففي ذلك اليوم قتل الكولونيل جيزوينو ميندونسا، الدونا سينيازينيا وطبيب الأسنان أوزموندو. بيد أن نسيب تأكد في اليوم التالي فقط من أن غبرييلا تجيد الطهو. ابتسم نسيب متذكراً ذلك، وهو في سرير القيلولة، والجريدة مرمية على الأرض، والسيكار مطفأ،... ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً من أكل الطعام الذي تحضّره. لا يوجد في إيليوس بأسرها، طاهية يمكن أن تقارن بها. ثلاثة أشهر وستة عشر يوماً وهو ينام معها، ابتداءً من الليلة الثانية، عندما أنار ضوء القمر فخذها في ظلمة الغرفة وظهر نهدها من قميص نومها الممزق....

في ذلك المساء، وربما بسبب الحركة غير العادية في الحانة أو الحاسة الناجمة عن حضور المهندس، لم يتمكن نسيب من النوم. في البدء لم يبدِ اهتماماً خاصاً لا إلى نوعية الطعام ولا إلى جسد المهاجرة في الليالي المحرقة. فقد كان قانعاً بالتوابل وبتنوع الأطباق. ولم يكتشف قيمتها الحقيقية إلّا عندما بدأ عدد الزبائن في الازدياد، وعندما اضطر إلى زيادة عدد الأطعمة المالحة والحلوى، إذ تعاقبت الإطراءات ، ولمّا قام بلينيو أراسا الذي كانت وسائله التجارية من أكثر الوسائل عرضة للنقاش، بتقديم عرض لغابرييلا.

أما بالنسبة إلى جسدها ــــ مع نار الشبق تلك التي تستنزفها في السرير، جنون تلك الليالي التي تنصرم بلا نوم - فقد تعلق بها بشكل لاشعوري. ففي الأوقات الأولى، حينما كان يصل إلى البيت، لم يكن ينضم إليها إلّا في بعض الليالي، إذ تكون

ريزوليتا تعبة أو مريضة، وهو لا يشعر لا بالتعب ولا بالنعاس، فيقرر النوم معها، لعدم وجود أمر آخر يفعله. لكن عدم الاكتراث هذا لم يدم طويلاً فسرعان ما ألف هذه الطريقة في الطعام التي تتبعها غابرييلا، بحيث عندما دعي إلى العشاء مع نيوغالو ليلة ميلاده، شعر بالفارق في نوعية التوابل، بحيث لم يتناول شيئاً من ذلك الطعام. وأخذ يكرر الذهاب، دون أن ينتبه، إلى الغرفة المطلة على الحديقة. فقد نسي ريزوليتا صاحبة الخبرة الطويلة، ولم يعد يتحمل حنانها الزائف وهوسها وشكاويها الدائمة، وحتى تلك المعرفة في الحب التي تستخدمها لتبتز منه المال. فتوقف عن رؤيتها وعن الإجابة على رسائلها. ومنذ ذلك الحين، مضى شهران تقريباً، لم يعدْ له امرأة غير غابرييلا. فهو الآن يقضي كل الليالي في غرفتها، محاولاً الخروج من الحانة مبكراً قدر المستطاع.

كان وقتاً جميلاً!، شهور من الحياة المرحة واللحم المشبع والطاولة الجيدة، ذات المرق مع نفس راضية وسرير مميز. وفي لائحة مزايا غابرييلا، المركّزة ذهنياً لدى نسيب في ساعة القيلولة، يندرج حب العمل والتحسس بالاقتصاد. كيف كان لها الوقت الكافي والقوى الكافية لغسل الثياب وترتيب المنزل - نظيف لدرجة أنه لم يكن كذلك قطّ! - وطهو الأطباق للحانة، والغداء والعشاء لنسيب؟ فضلاً عن أنها في الليل تكون نضيرة وغير مرهقة، رطبة بالرغبة، ليست سلبية بل متطلبة، ليست أبداً متعبة، ووسنانة أو مكتفية. تبدو أنها تقرأ أفكار نسيب، فتتقدم فتستبق رغباته. وكانت تحضر له المفاجآت: أطعمة معيّنة كان يحبها كثيراً ويتطلب تحضيرها جهداً كبيراً - سلطعون بالطحين، فاتابان، أرملة الخروف -زهور في كأس إلى جانب صورته على الطاولة الصغيرة في قاعة الاستقبال، إعادة ما يبقى لديها من النقود بعد شراء الحاجيات من السوق، وأخيراً اقتراحها المجيء إلى الحانة لتساعده.

في السابق، كان شيكو موليزا، عند عودته من الغداء، هو الذي يجلب القصعة ذات الطبقات التي تعدها فيلومينا. كان ينتظره بفارغ الصبر. وكان يبقى لمفرده مع

بيكو فينو، ليخدم آخر زبائن الكؤوس الفاتحة للشهية. وذات يوم، من دون أن تعلمه، حضرت غابرييلا إلى الحانة ومعها القصعة ذات الطبقات. جاءت لتطلب منه إذناً للذهاب إلى جلسة روحية دعتها إليها الدونا آرميندا. وبقيت تساعده في الخدمة، ثم راحت تأتي كل يوم.

قالت له في تلك الليلة:

«من الأفضل أن أجلب لك الطعام بنفسي، يا سيدي، وهكذا تأكل في وقت مبكر، وأقوم أنا بمساعدتك. هل تمانع؟»

كيف يمكن أن يمانع طالما أن حضورها يشكل جاذباً للزبائن؟ وأدرك نسيب على الفور: إنهم يمكثون وقتاً أطول، ويطلبون كأساً أخرى، والزبائن الذين يأتون عرضاً يصبحون زبائن دائمين، فيأتون كل يوم، ليروها، ليقولوا لها شيئاً و ليبتسموا لها ويلمسون يدها. وفي النهاية ماذا كان يهمه من أمرها؟ كانت مجرد طاهية يضاجعها بدون أي التزام. كانت تعد له الطعام، وسرير القيلولة، وتترك وردة مع عطرها. أشعل نسيب القانع بحياته، سيكاراً وتناول الصحف ونام في سلام مقدس من الرب، فيما نسيم البحر كان يداعب شاربيه الناميين.

لكنه مع بداية بعد ظهر هذا اليوم، لم يستطع أن ينام. كان يراجع في ذهنه موازنة الأشهر الثلاثة والأيام الثمانية عشر تلك، التي أهاجت المدينة، ووفرت السكينة لنسيب. وكان يجب، مع هذا، كان بوده أن يغفو عشر دقائق أقله بدلاً من البقاء متذكراً أموراً تافهة لا أهمية لها. وفجأة شعر أن شيئاً ينقصه. وربما لهذا السبب لم يستطع النوم. كان ينقصه الوردة التي كان يجدها بعد ظهر كل يوم على سرير القيلولة. وبالفعل، لقد رأى قاضي التحقيق، رغم الكرامة التي يتمتع بها مركزه، ينتزعها من وراء أُذن غابرييلا ويضعها في عروة سترته... رجل مسن، في الخمسين من عمره، يغتنم الاضطراب القائم حول المهندس، ليسرق الوردة. قاضٍ...! لقد خشي من أن تقوم غابرييلا بردة فعل على تصرفه. لكنها تظاهرت بعدم الانتباه. إن هذا القاضي

يأخذ الأمر جدياً. فهو لم يكن يأتِ قطّ إلى الحانة من قبل، في ساعة تناول الكؤوس فاتحة الشهية. كان يحضر فقط، عند المساء أحياناً مع جان فولجنسيو أو مع الدكتور ماوريسيو. أما الآن فإنه يتجاهل جميع المحاذير، ويحضر كل ما استطاع، كان هنا، يشرب كأساً من نبيذ البورتو، ويغازل غابرييلا.

كان نسيب يراقبه مستغرباً: إنه يغازل غابرييلا!. نعم، إنه يغازلها... أدرك ذلك فجأة. ولم يكن وحده. فكثيرون آخرون أيضاً... لماذا يتأخرون إلى ما بعد وقت الغداء، مثيرين المشاكل في بيوتهم؟ إلا لرؤيتها، ليبتسموا لها، ليقولوا لها نكاتاً، ليلمسوا يدها، ليقدموا لها وعوداً؟ من يدري؟.

عن الوعود، كان نسيب يعرف فقط وعداً قدمه بلينو أراسا، لكن ذلك وُجه إليها كطاهية. فعندما بدأ زبائن العرق الذهبي ينتقلون إلى فيزوفيو، عرض بلينيو على غابرييلا مرتباً أكبر. أنما لم يحسن اختيار الوسيط، إذ عهد بالرسالة إلى الزنجي الصغير تويسكا الوفي لحانة فيزوفيو، والمخلص لنسيب. وهكذا كان العربي نفسه هو الذي أوصل الرسالة إلى غابرييلا التي ابتسمت قائلة:

«كلا، لا أريد...إلا إذا طردتني، سيد نسيب...»

أخذها بين ذراعيه، وكان الوقت ليلاً، وغلّ في حرارة جسدها، وزاد لها مرتبها عشرة آلاف ريال، فقالت:

«أنا لم أطلب شيئاً...»

وأحياناً كان يشتري لها قرطين لأذنيها ودبوساً لصدرها وتذكارات رخيصة، بعضها لا يكلفه شيئاً إذ كان يجلبها من متجر عمه، ويسلمها إيّاها في الليل، فتحنو عليه وتشكره بضعة، وتقبّل راحة يده في حركة شرقية تقريباً:

«شاب طيب، أنت يا سيدي...»

دبوس بعشرة توستون، قرطان بألف وخمسمائة، تلك كانت مكافآت ليالي الحب والتنهدات ونشوات نار لا تخمد... أعطاها مرتين قطع قماش تافه، مع زوج

من الأخفاف. وهي أشياء قليلة مقابل مظاهر العناية والرقة التي تقدمها له غابرييلا: الأطباق التي تحوز على إعجابه، عصير الفواكه، القمصان الناصعة البياض والمكويّة جيداً. والوردة الساقطة من شعرها على سرير القيلولة. من فوق، سام، وبعيد، كان يعاملها بشكل متعال وفوقي ويبقي مسافة بينهما وكأنه كان يدفع لها كامل عملها، وكأنه يؤدي لها معروفاً بمضاجعتها.

الآخرون في الحانة يتوددون لها، ربما في منزل منحدر لاديرا سان سيباستيان أيضاً، ويرسلون إليها رسائل، ويقدمون لها عروضاً. لماذا لا يكون هكذا؟ ليسوا كلهم يستعملون تويسكا كحامل للرسائل، فكيف سيعرف، هو نسيب؟ ماذا يفعل قاضي التحقيق في الحانة سوى محاولة إغوائها؟ فهو قد تخلّى عن عشيقته السوداء الريفية القبيحة بسبب الأمراض التي كانت تعانيها.

عندما بدأت غابرييلا تأتي إلى الحانة، استبشر خيراً، هو، الأبله. فلم يفكر إلا بالقروش التي يكسبها لقاء دورات الشراب المتكررة، من دون أن يفكر في خطر هذا الإغواء الذي يتجدد يومياً؟ هل يمنعها من المجيء؟ يجب ألّا يفكر بذلك، فهذا يجعله يخسر مالاً. لكن عليه أن يبقيها تحت ناظريه، ويوليها اهتماماً أكثر ويشتري لها هدية أفضل ويعدها بزيادة جديدة. إن طاهية جيدة أمر نادر في إيليوس، فلا أحد يعرف ذلك أفضل منه وكثير من العائلات الثرية وأصحاب حانات وفنادق يطمعون بخادمته، وهم مستعدون لإعطائها رواتب عالية. ثم إنه كيف سيستمر في الحانة بدون أطعمة غابرييلا المالحة والحلوة؟ وبدون ابتسامتها اليومية وحضورها للحظات عند منتصف النهار؟ كيف سيعيش هو من دون غداء وعشاء غابرييلا، ومن دون الأطباق العاطرة والمرق الداكن اللون من الفلفل والكوسكوس عند الصباح؟

وكيف يعيش من دونها، محروماً من ابتسامتها الخجولة والصريحة، ومن لونها المحروق كلون القرفة وعطرها القرنفلي وشبقها واستسلامها له بحرارة، ومن دون

صوتها الحنون وهي تقول عنه «شاب جميل»، والاستسلام الليلي مثل الموت في ذراعيها، ومن ذلك الحر المنبعث من نهديها ومن نار فخذيها، كيف؟

وشعر آنئذٍ بكل ما كانت تعني له غابرييلا. يا إلهي! ما هذا الذي يجري؟ لماذا كل هذا الخوف المفاجيء من فقدانها؟ لماذا كان نسيم البحر أصبح ريحاً جليدية تجعل شحمه يرتجف؟ كلا، إن مجرد فكرة فقدانها أمر لا يطاق، فكيف أعيش من دونها؟.

لن يستطيع أبداً أن يحب طعاماً غير طعامها، مصنوعاً بأيدٍ أخرى، متبّلة بأصابع أخرى. آه! مطلقاً! لن يستطيع أبداً أن يرغب بهذا، بقدر ما يرغب، بقدر ما يحتاج، من دون إحساس سريع ودائم، بأن امرأة أخرى تنقصه، حتى لو كانت أشد بياضاً، وأكثر أناقة ومدللة جداً، وأكثر ثراءً أو متزوجة. ماذا كان يعني هذا الخوف، هذا الرعب، من أن يفقدها، وهذا الغضب المباغت ضد الزبائن الذين يرمقونها، ويقولون لها أشياء، ويلمسون يدها، ضد القاضي لص الزهور، الذي لم يكن يحترم مركزه؟.

كان نسيب يتساءل قلقاً عما كانت مشاعره في الحقيقة تجاه غابرييلا. ألم تكن مجرد طاهية عادية، خلاسية جميلة، بلون القرفة، ينام معها لأنه يستمتع بذلك؟ أم أنه كان شيئاً آخر؟ لم يكن لديه الشجاعة ليبحث عن جواب.

صوت تونيكو باستوس - «لحسن الحظ! «قال وهو يتنفس الصعداء - جاء لينتزعه من هذه الأفكار المضطربة والمخيفة. لكنه عاد ليغوص فيها ويغرق بعنف مرة أخرى.

ما إن أسندا ظهريهما إلى طاولة البيع، وقُدم لتونيكو شرابه المر، حتى قال له نسيب ليزيل اكتئابه:

«إذن، وصل الرجل أخيراً... لقد نجح مونديتيو في إثارة الانتباه، هذه هي الحقيقة.»

رمقه تونيكو الحزين، بعينين رديئتين:

«لماذا لا تهتم بحياتك أيها السيد التركي؟ من يحذره هو صديق.، لماذا لا تهتم بما يعنيك؟»

هل كان تونيكو يتجنب موضوع المهندس فقط، أم أنه كان يعرف أمراً ما؟

«ماذا تقصد من وراء هذا؟.

«إنتبه لكنزك. ثمة من يريدون سرقته.

- كنزي؟

- غابرييلا أيها الجاهل. حتى أنهم يريدون أن يخصصوا لها بيتاً.

- القاضي؟

- هو أيضاً؟ سمعتهم يتحدثون عن مانويل داس أونساس.»

ألا يمكن أن تكون وشاية من تونيكو؟ فالكولونيل العجوز كان لصيقاً بموندينيو... لكن ذلك كان حقيقة أيضاً. فهو يحضر الآن إلى إيليوس بشكل دائم، ولا يبتعد عن الحانة. ارتعد نسيب. هل هي الريح الجليدية التي تهب من البحر؟ تناول من طاولة البيع زجاجة كونياك من دون مزج، وقدّم لنفسه كأساً مترعة. وأراد أن يجر تونيكو إلى الحديث أكثر، غير أن الكاتب العدل أظهر كراهيته لإيليوس:

- قرية ملعونة متخلّفة يثير فيها حضور مهندس، ضجة كبيرة.

عن الأحاديث والأحداث مع الأبهة المرعبة

بعد ظهر ذلك اليوم، تزايدت مشاعر الحنين والشوق في صدر نسيب، كما لو أن غابرييلا لم تعد موجودة، ولم يعد بالإمكان تجنب رحيلها. فصمم على أن يشتري لها تذكاراً. إنها بحاجة إلى زوج من الأحذية، وقد كانت تمشي حافية القدمين طوال الوقت في المنزل، وتأتي بخفّين إلى الحانة، وهذا غير ملائم.

ذات مرة، قال لها نسيب بلهجة حاسمة، بينما كانا يتدحرجان على السرير وهو يدغدغ قدميها: «يجب أن أجلب لك زوجاً من الأحذية». فالأوقات التي قضتها حافية في الحقول، والسير من السرتون باتجاه الجنوب، لم تفقدها شكلهما. كانت تنتعل حذاء رقمه ٣٦، وكانت قدماها مفلطحتين قليلاً فقط، والإصبع الكبير مضحك، يميل إلى جانب. إن كل تفصيل يتذكره كان يملأه رقة وأسفاً وكأنه قد أضاعها.

نزل الشارع وفي يده الأحذية الصفراء الجميلة، فرأى مكتبة وقرطاسية موديلو في غليان. لم يستطع المقاومة. كان حقاً بحاجة إلى التسلية، فاتجه إلى هناك.

كانت المقاعد القليلة أمام طاولة البيع كلها مشغولة، وكان ثمة أناس واقفين. فأحس بفضول شديد لمعرفة ما يجري. كانوا يعلّقون على وصول المهندس، وتطورات الصراع السياسي المقبلة. أسرع الخطى، فشاهد الدكتور إيزكييل برادو يحرّك ذراعيه. سمع عند وصوله كلماته الأخيرة:

«... عدم احترام للمجتمع وللشعب...»

غريب!.. إنهم لا يتكلمون على المهندس. كانوا يعلقون على العودة غير المتوقعة للكولونيل جيزوينو ميندونسا إلى المدينة من مزرعته التي لجأ إليها منذ مقتل زوجته وطبيب الأسنان. فمنذ لحظات، مر أمام المحافظة، ودخل منزل الكولونيل راميرو باستوس. كان المحامي يستهجن هذه العودة التي يعتبرها إهانة لكرامة أهالي إيليوس. ضحك جوان فولجنسيو:

- ما بالك يا إيزكييل، منذ متى ترى الناس هنا يشعرون بالاهانة من وجود القتلة الطليقين في الشارع؟ فلو أجبر جميع الكولونيلات المجرَّمين بالقتل على أن يعيشوا في المزارع، لفرغت الشوارع ، وأقفلت الكباريهات والحانات أبوابها، وأصبحت إيليوس مقفرة وصديقنا نسيب الحاضر هنا، سيتضرر هو ايضاً.

لم يوافق المحامي. فإن عدم موافقته عائد لالتزامه، إذ إن والد أوزموندو اتفق

معه لإدانة جيزوينو في المحكمة، لأن التاجر لم يكن يثق بالمدّعي العام. ففي القضايا الجرمية مثل تلك، الموت بسبب الخيانة الزوجية، فالإدانة لا تغدو أكثر من شكلية بسيطة.

إن والد أوزموندو وهو تاجر ثري وذو علاقات قوية في باهيا، حرّك إيليوس خلال أسبوع؛ فبعد الدفن بيومين، انطلق من إحدى البواخر مرتدياً لباس الحداد الكامل. كان يعبد ذلك الابن الأكبر، الذي كان تخرجه الحديث العهد مناسبة لإقامة حفلات كبرى. وكانت زوجته مفجوعة، فاضطر إلى معالجتها. فقد جاء إلى إيليوس مستعداً لكل الإجراءات كيلا يترك جريمة القتل من دون عقاب. وعلى الفور انتشر الخبر في المدينة. فحركت شخصية الأب الغامضة أناساً كثيرين. في هذا الوقت، حصلت واقعة غريبة. ففي جنازة أوزموندو لم يكن ثمة أحد تقريباً، وبالكاد بلغ المشيعون عدد مقابض التابوت. فأول قرار اتخذه الوالد، هو إقامة مراسم جنازة ضريح ابنه. فأوصى على عدد كبير من أكاليل الزهور، واستدعى راعياً بروتستانتياً من إيتابونا. ثم وجه دعوات إلى جميع أولئك الذين، لسبب أو لآخر، كانوا قد أقاموا علاقات مع أوزموندو. حتى منزل الشقيقتين دوس ريز طرقه، وقبعته بيده، والألم باد في عينيه الجافتين. إذ إن كينيكينا، في إحدى ليالي وجع الأسنان الجنوني، ذهبت إلى عيادة طبيب الأسنان ليعالجها.

وفي البهو، روى التاجر للعانستين شذرات من طفولة أوزموندو ومواظبته على الدروس. وتكلم على الوالدة المسكينة المحطمة، الفاقدة بهجة العيش والتي كانت تروح وتجيء في المنزل كأنها مجنونة. وانتهى الثلاثة بالبكاء، ثم شاركتهم الخادمة الهرمة في الممشى. أرتاه الشقيقتان المذود، وأشادتا بطبيب الأسنان:

«إنه شاب طيب، مهذب جداً!»

وحدث أن كان الموكب الديني إلى المقبرة ناجحاً تماماً على العكس من الجنازة. فقد شارك فيه الكثير من الناس: تجار، نادي روي باربوزا بكل ثقله، مدراء

نادي التقدم، المدرّس جوزويه، وآخرون عديدون. وكانت الشقيقتان دوس ريز هناك، مزهوتين جداً ومع كل منهما غصن صغير من الزهور. لقد استشارتا الأب باسيليو: ألن تكون خطيئة زياة قبر ميت بروتستانتي ؟

«الإثم هو ألّا يصلَّى على الموتى...» أجاب الكاهن بلهجة حاسمة.

صحيح أن الأب سيسيليو، بهزاله وسحنته الخلاسية، استنكر تصرفهما. لكن الأب باسيليو عندما عرف ذلك، هدأ من روعهما:

«سيسيليو مدع، يفضل عقوبات الجحيم على أفراح السماء. لا تخافا، فأنا أغفر لكما يا ابنتيْ.»

كان يسير إلى جانب الوالد المفجوع والمصمم، الدكتور إيزكييل والنقيب ونيوغالو وموندينيو فالكون بالذات. ألم يكن هو تقريباً جاراً لطبيب الأسنان ورفيقه في حمامات البحر؟ حُملت الأكاليل الجنائزية التي كانت مفتقدة في الجنازة إلى جانب عدد وفير من أكاليل الزهور التي رُفض وضعها على النعش. وحفر على بلاطة الرخام التي تغطي القبر إسم أوزموندو وتاريخ الولادة والوفاة، وكي لا تنسى الجريمة، تمَّ نقش كلمتين بالإزميل: «المقتول غدراً». بدأ الدكتور إيزكييل إجراءات الدعوى. وإذ كان في البدء قد طلب السجن الاحترازي للمزارع اصطدم برفض القاضي، فقدم طعناً إلى محكمة باهيا التي لم تكن قد أصدرت حكمها بعد. قيل إن والد أوزموندو وعده بمبلغ قيمته خمسين مليون ريال- ثروة ! - إذا نجح في وضع الكولونيل في السجن.

لم تدم طويلاً التعليقات على جيزوينو ميندونسا. فموضوع اليوم المثير كان المهندس. ولم يتمكن إيزكييل من أن يوصل سخطه المدفوع جيداً إلى قاعة المحكمة، فانتهى هو أيضاً إلى الحديث حول قضية المضيق وظروفه.

«حسناً فعل لكسر تهور هذا «القبضاي» العجوز.

- لا تقل لي إنك أنت أيضاً ستؤيد موندينيو فالكون؟ قال جوان فولجنسيو.

– وما الذي يمنعني؟ أجاب المحامي. فقد تبعت آل باستوس في وقت جنوني، ورافعت في قضايا عديدة لهم، وعلى ماذا حصلت في المقابل؟ انتخابي لمنصب المستشار؟ بإمكاني أن أُنتَخَب معهم أو من دونهم، قدر ما أريد. وعندما يحين وقت اختيار رئيس للمجلس البلدي فإنهم يفضلون الأمّي ميلك تافاريس، مع أن إسمي كان مطروحاً، وهذا كان أمر موافق عليه.

– حسناً تفعل. قال نيوغالو بصوته الأخنّ. فلموندينيو فالكون ذهنية أخرى. فبعد انتخابه نائباً سوف تتغير أمور كثيرة في إيليوس. فلو كنتُ رجلاً ذا نفوذ لوقفت بين أصدقائه.

وعلق نسيب:

– المهندس لطيف. من الطراز الرياضي، هيه؟ يبدو فناناً سينمائياً أكثر منه مهندساً... إنه سيدير رؤوس كثيرات من البنات...

– هل هو متزوج؟ سأل جوان فولجنسيو.

– منفصل عن زوجته... أكمل نيوغالو.

كيف عرفوا تلك التفاصيل الحميمة عن المهندس؟

– هو نفسه أخبر بذلك بعد الغداء، حينما أتى به النقيب إلى المكتبة القرطاسية. فسّر جوان فولجنسيو. زوجته كانت مجنونة، وقد وُضعت في أحد المصحات.

– أتعرفون من يتحدث مع موندينيو في هذه اللحظة ؟

سأل كلوفيس كوستا الذي كان حتى الآن صامتاً، وعيناه في الشارع، ينتظر رؤية الأولاد وهم ينادون على جريدة دياريو ده إيليوس.

– من؟

– الكولونيل ألتينو براندون... إنه سيبيع محصوله هذه السنة إلى موندينيو. وربما سيبحث معه مسألة الأصوات التي يؤمنها له... ثم تغيّرت رنّة صوته. لماذا لم توزّع الجريدة حتى الآن؟

- الكولونيل ألتينو براندون، من ريو دو براسو... أكبر مزارع في المنطقة بعد الكولونيل ميزاييل. ومعه تصوّت كل المنطقة.إنه ورقة هامة في اللعبة السياسية.

كان كلوفيس كوستا يقول الحقيقة. ففي مكتب مونديينو كان المزارع الغارق في الكنبة الملساء المصنوعة من الجلد، بجزمتيه ومهمازيه، يتذوق مشروباً فرنسياً قدّمه له المصدّر.

«إذن، يا سيد مونديينو، فالكاكاو هذه السنة يبعث على البهجة. وما حضرتك بحاجة إليه، هو المجيء إلى هناك ، إلى المزرعة، وقضاء بضعة أيام معنا. إنه منزل فقير، لكن إذا رغبت بأن تمنحنا هذا الشرف فلن تموت جوعاً، بفضل الله. سترى الحقول مثقلة بالثمار الصفراء اللماعة. إني بدأت القطاف. هذه الوفرة في الكاكاو تبعث البهجة في العينين.

«أقبل دعوتك. سأمضي أحد أيام الآحاد معك... ربت المصدّر ساق المزارع.

- تعالَ يوم السبت، فيوم الأحد لا يعمل الرجال، ويمكن أن تعود يوم الاثنين إذا شئت. واضح أن البيت بيتك...

- إتفقنا. سأكون يوم السبت هناك. الآن أستطيع الخروج قليلاً، كنت منهمكاً هنا بقصة مجيء المهندس.

- قيل إن الشاب قد وصل، فهل هذا صحيح؟

- صحيح أيها الكولونيل. ومنذ الغد سيبدأ الاهتمام بالمضيق. هيىء نفسك لترى عما قريب كاكاو مزارعك يخرج من إيليوس إلى أوروبا، إلى الولايات المتحدة...

- هكذا إذن... من كان ليقول...» ابتلع جرعة أخرى من المشروب، وهو يرمق مونديينو بعينيه الحصيفتين، ثم تابع: «من الصنف الأول، هذا العرق، شيء رائع. فهو ليس من هنا، أليس كذلك؟» وتابع من دون أن ينتظر الجواب:

- قيل أيضاً إن حضرتك ستكون مرشحاً في الانتخابات؟ لقد أخبرت بهذا الأمر الجديد، فلم أصدق.

«ولماذا لا، أيها الكولونيل؟ «كان موندينيو راضياً لكون الرجل العجوز قد دخل في الموضوع، وأضاف:- تُرى ألا أملك المواصفات المطلوبة؟ هل لديك انطباعاً بهذا السوء عني؟

- أنا؟ أفكر سوءاً بحضرتك؟ لينجني الرب ويحفظني. فحضرتك أكثر من جدير إنما...» وحدق إلى كأس المشروب، وعرضها للشمس، ثم أكمل:

- إنما حضرتك مثل هذا العرق، لست من هنا...» كان يراقبه خفية بطرف عينه.

هزّ المصدّر رأسه. تلك الحجة لم تكن جديدة. فقد اعتادها. وبات الرد عليها عادةً، نوعاً من التمرين الثقافي:

«وأنت، هل وُلدت هنا يا كولونيل؟

- أنا؟ أنا من ولاية سيرجيبي، إني «لص جياد». كما يقول هؤلاء الأولاد هنا.

كان يتفحص انعكاس الشمس على البلّور. ثم تابع: إنما مضى على وصولي إيليوس أكثر من أربعين سنة.

- أنا هنا منذ أربعة أعوام فقط، خمسة تقريباً: ولست أقلّ عنك مواطنية. ومن هنا لن أخرج أبداً...

تطور الجدال، فعدد جميع المصالح التي تربطه بالمنطقة، الإنجازات التي وضعها أو التي ساعد على إنجازها، وصولاً إلى قضية المضيق ومجيء المهندس. وكان المزارع يصغي، وهو يعد لفافة من ورق مصنوع من قشور الذرة وتبغ ملفوف، ومن آن لآخر كانت عيناه المتقدتان تتفحصان وجه موندينيو كأنه يزن إخلاصه.

- إن فضلك ذو أهمية كبيرة... فثمة آخرون يصلون إلى هنا، ولا يتحدثون إلّا عن كسب المال، ولا يفكرون بشيء آخر. إنما حضرتك تفكر في كل شيء، في احتياجات البلاد. والمؤسف أن حضرتك غير متزوج.

- لماذا يا كولونيل؟ قال ذلك وهو يتناول الزجاجة، كأنها عمل فني، ليسكب منها في الكأس مجدداً.

– لتعذرني حضرتك... هذا المشروب شيء رائع، لكن، لأكون صريحاً مع حضرتك، إني أفضل زجاجة عرق... هذا الشراب مخادع، ذو رائحة، محلّى بالسكر، حتى ليبدو شراباً خليقاً بالمرأة، ومن هو قوي ككلب، يسكر بدون أن ينتبه. أما العرق فسرعان ما يعرف، لا يخدع أحداً.

تناول موندينيو من الخزانة زجاجة عرق:

– كما تريد أيها الكولونيل. لكن لماذا ينبغي أن أكون متزوجاً؟

– إذا وافقتني حضرتك، سأقدم لك نصيحة: تزوج بفتاة من هنا، ابنة هذه البلاد. إني لا أقدّم ابنتي. فبناتي الثلاث متزوجات زيجات موفقة، بفضل الله، بيد أن كثيراً من الفتيات هنا وفي إيتابونا أهل للزواج. وهكذا يعرف الجميع أن حضرتك لست هنا بزيارة، لمجرد اغتنام الفرص.

– الزواج أمر جدي أيها الكولونيل. يجب العثور أولاً على المرأة التي تحلم بها، فالزواج يولد من الحب.

– أو من الحاجة، أليس كذلك؟ في الحقول يتزوج العامل حتى من جذع القضيب إذا ارتدى تنورة. ليكون له امراة في البيت، ينام معها، ويتحدث معها أيضاً. فللمرأة نفع كثير، إنك لا تتصور. إنها تساعد حتى في السياسة. تعطي المرء ولداً، تفرض الاحترام. وللباقي هناك العشيقات...

«إنك تريد أن تدفعني ثمناً مرتفعاً جداً للانتخابات. وإذا تعلق الأمر بزواجي فإني منذ الآن منهزم. لا أريد الفوز هكذا أيها الكولونيل. أريد الفوز ببرنامجي.» قال موندينيو.

إذن، كلّمه، كما فعل مع كثيرين قبله، على مشكلات المنطقة، مقدّماً الحلول، ومشيراً إلى طرقات وآفاق بحماسة معدية.

– أنت على حق مئة بالمئة. وكل الذي قلته حضرتك هو كلام الانجيل، حقيقة بحتة. من يستطيع مخالفتك؟»

كان يحدّق إلى الأرض، وشعر نفسه متأثراً بحالة الإهمال الذي يعيشه الداخل المنسي من قبل آل باستوس. فقال:

«إذا كان لدى الشعب هنا حد أدنى من الحس السليم فلسوف تفوز. أما إعطاؤك حق قدرك من قبل الحكومة فهذا أمر لا طاقة لدي للغوص فيه.

إبتسم موندينيو، مفكراً أنه قد أقنع الكولونيل الذي أضاف:

- لكنْ هناك أمر واحد: أنت لديك الحق، لكن لدى الكولونيل راميرو الصداقات. فقد أفاد كثيراً من الناس ولديه أقارب كثر وعرّابون، جميع الناس معتادون على التصويت حسب رغبته. أتريد سماع رأيي. لماذا لا تجري اتفاقاً معه؟

- أي اتفاق أيها كولونيل؟

- أن تعقدا اتفاقاً. أنت بأفكارك وبعينيك، للرؤية الصائبة، وهو بنفوذه وناخبيه. ثم إن لديه حفيدة جميلة، أنت لا تعرفها؟ اختها لا تزال فتاة صغيرة.... هما ابنتا الدكتور ألفريدو.

نفد صبر موندينيو:

- ليس هذا هو الموضوع، يا كولونيل. فأنا أفكر بطريقة، أنت تعرف أفكاري-، والكولونيل راميرو يفكر بأخرى. فبالنسبة إليه، الحكم يعني تعبيد الشوارع وإقامة الحدائق في المدينة فحسب. أنا لا أرى إمكانية لاتفاق بيننا. فقد كنت أقترح عليك برنامجاً للعمل، للإدارة. إني لا أطلب أصواتك لي، إنما لإيليوس ولتقدم منطقة الكاكاو.

راح المزارع يداعب رأسه ذا الشعر المشعث:

- جئت إلى هنا لأبيعك الكاكاو يا سيدي موندينيو. بعت بيعاً جيداً. وأنا راضٍ. وأنا مسرور أيضاً بهذا الحديث معك. ، فقد أصبحت على بينة من أفكارك. وتابع: إني أصوّت لراميرو منذ أكثر من عشرين سنة. ولم أكن بحاجة إليه في أيام المشاغبات. فعندما وصلت إلى ريو ده براسو لم يكن ثمة أحد. والذين ظهروا بعد ذلك كانوا

بعض ذوي المؤخرات القذرة، فطاردتهم من دون أن أحتاج إلى مساعدة. لكني معتاد على التصويت لراميرو. إنه لم يسئ إليّ قطّ. وذات مرة إذ أراد بعضهم ايذائي، وجد الحق إلى جانبي.»

همّ موندينيو بالكلام، غير أن حركة من الكولونيل منعته:

«إنا لا أعدك بشيء. فأنا لا أعد إلّا بما أفي. لكننا سنعود إلى التحدث. وهذا أضمنه لحضرتك.»

ثم انسحب تاركاً المصدّر ثائراً، آسفاً على الوقت الضائع، على جزء كبير من فترة ما بعد الظهر. هكذا قال للنقيب الذي حضر بعد لحظات من مغادرة سيد ريو ده براسو:

«عجوز غبي يريدني أن أتزوج إحدى حفيدات راميرو باستوس. لقد أنفقت لغتي اللاتينية بلا طائل.» لا أعد بشيء لكني أعود إلى التحدث مرة أخرى». كان يقلّد الصوت المنغّم للمزارع.

- قال إنه سيعود؟ علامة ممتازة. فيا عزيزي، أنت حتى الآن لا تعرف كولونيلاتنا وفوق كل هذا لا تعرف ألتيتو براندون. إنه ليس من الذين يطلقون الكلام جزافاً. لكن قال لك بوجهك إنه في المعسكر المعادي لو لم يترك كلامك انطباعاً لديه. وإذا أيّدنا...

طال الحديث في المكتبة القرطاسية. فكان قلق كلوفيس كوستا يزداد أكثر فاكثر. مضت أربع ساعات ولم يظهر باعة الصحف مع دياريو ده إيليوس.

«سأذهب إلى إدارة التحرير لأرى ماذا يجري.»

دخلت فتيات من ثانوية الراهبات، بينهن مالفينا، فقطعن. وتفحصن كتب «المكتبة ذات اللون الوردي». فاهتم بهن جوان فولجنسيو. كانت مالفينا تجوب بعينيها رفوف الكتب، وتقلّب صفحات من روايات إيسا ده كيروس ووآلويزيو دي إزيفيدو، فاقتربت منها إيراسيما بضحكات خبيثة: «عندي في المنزل رواية «جريمة

الأب آمارو». احتفظت بها لأقرأها، فأخذها أخي قائلاً إنها ليست مناسبة لفتاة...

- أخوها كان طالب طب في باهيا -

- ولماذا يستطيع هو قراءتها، وأنتِ لا تستطيعين؟ «كان يشع من عيني مالفينا، ذلك النور الغريب المتمرد:

«هل لديك «جريمة الأب آمارو» يا سيد جوان؟

- نعم، لديّ. هل تريدين شراءها؟ إنها رواية عظيمة...

- نعم، سأشتريها. كم ثمنها؟»

- «ستشترينها؟ وما الذي سيقولونه؟ قالت إيراسيما متأثرة بشجاعة صديقتها،

- وماذا يهمني؟

اشترت ديفا رواية للفتيات، واعدة بإعارتها إلى الأخريات. فطلبت إيراسيما من مالفينا:

- هل تعيرينني إياها في ما بعد؟ لكن لا تخبري أحداً. سأقرأها في بيتكِ بالذات.

وعلّق أحد الحاضرين:

- فتيات اليوم هؤلاء... حتى أنهنّ يشترين كتباً غير أخلاقية. ولهذا هناك قضايا مثل قضية جيزوينو.

«لا تقل كلاماً غبياً يا نيكا، فأنت لا تفقه شيئاً. إن الكتاب جيد جداً. ولا شيء فيه غير أخلاقي. وهذه الفتاة ذكية. قال جوان فولجنسيو بصوت حازم قاطعاً الحديث.

- أراد قاضي التحقيق أن يعرف، فيما هو يجلس على المقعد الذي تركه كلوفيس،

من هي الذكية؟

- كنا نتحدث عن إيسا ده كيروس، سيدي. قال جوان فولجنسيو وهو يشد على يده.

- إنه مؤلف تثقيفي معرفي...»

بالنسبة إلى القاضي، كان جميع المؤلفين كثيري المعرفة. وكان يشتري كتباً بكميات كبيرة، فيجمع القانون والأدب والعلم والروحانيات. وكانوا يقولون، إنه يشتري ليزيّن مكتبته، ويترك انطباعاً في المدينة، وهو لا يقرأ أياً منها. وكان جوان فولجنسيو قد اعتاد أن يسأله:

«إذن حضرة القاضي، هل أحببت أناتول فرانس؟

- إنه كاتب واسع المعرفة. - يجيبه القاضي بهدوء...

- ألا ترى أنه وقح نوعاً ما ؟

- عديم الاحترام؟ نعم، نوعاً ما، بَيد أنه واسع المعرفة...»

أعاد حضور القاضي، القلق إلى رأس نسيب. هذا العجوز الفاسق... ماذا فعل بوردة غابرييلا، أين تركها ؟ كانت ساعة توافد الزبائن إلى الحانة، فتوقّفت الأحاديث.

«وأنت يا صديقي العزيز، قال القاضي مبدياً اهتمامه بنسيب، لقد عثرت على خادمة جيدة. أقدّم لك تهانيّ. بالمناسبة،ما اسمها؟»

خرج نسيب وهو يتمتم: عجوز فاسق... وفوق ذلك، يسأل عن اسم غابرييلا! عجوز وقح، بدون احترام للمركز الذي يشغله. ومع هذا يتكلمون عن ترقيته..

عندما بلغ الساحة، رأى مالفينا تتحدث مع المهندس في جادة الشاطئ. كانت الفتاة جالسة على أحد المقاعد، وروමولو واقفاً إلى جانبها. كانت تضحك بصوت عال. لم يسمع نسيب قطّ ضحكاً كهذا. كان المهندس متزوجاً وزوجته مجنونة في مستشفى المجانين. لن تلبث مالفينا أن تعرف ذلك. ومن الحانة كان جوزويه أيضاً يراقب المشهد، مسحوقاً، يسمع القهقهة البلّورية وهي ترنّ في عذوبة المساء. فجلس نسيب إلى جانبه يلاطفه في حزنه، ويتضامن معه.ولم يسعَ المدرّس الشاب إلى إخفاء الألم المفرط الذي يقضم روحه.

فكر العربي في غابرييلا. إن القاضي، الكولونيل مانويل داس أونساس وبلينيو أراسا وآخرين كثيرين يحومون حولها. جوزويه نفسه لم يفعل أقل منهم، إنه يكتب

لها قصائد. وكان الهدوء اللانهائي يغطي الساحة. إنه مساء إيليوس الساجي. وغلوريا أمام النافذة تشبك ذراعيها، فيما جوزويه الثائر من الغيرة، ينهض، وينظر إلى النافذة الممنوعة حيث يعرض الدانتيل والنهدان، فينزع قبعته ليحيي غلوريا في حركة عفوية وفاضحة.

كانت مالفينا تضحك على الشاطئ. إنه مساء لذيذ مفعم بالاطمئنان. ويأتي الزنجي الصغير تويسكا راكضاً في الشارع، يحمل أخباراً طيبة وسيئة، ويقف لاهثاً قرب الطاولة:

– سيد نسيب! يا سيد نسيب!

– ماذا وراءك يا تويسكا؟

– أضرموا النار في دياريو ده إيليوس.

– ماذا؟

– في المبنى؟ في الآلات؟

– كلا يا سيدي. في الصحف. جمعوها كومة في الشارع، وألقوا عليها الكيروسين. كانت شعلة نار كأننا في ليلة القديس يوحنا...

عن النار والماء
في الصحف والقلوب

استطاع بعض المحظوظين إنقاذ أعداد كاملة تقريباً من الجريدة، سحبوها من بين الرماد المبلل. وما لم تلتهمه النار تبلل بالماء الذي أحضره العمال والموظفون والمتطوعون بمشيئتهم، بالصفائح والدلى، لإطفاء المحرقة. انتشر الرماد في الشارع، وطيّره الهواء، مع رائحة الورق المحروق. وارتقى الدكتور طاولة نُقلت من إدارة التحرير، وهو ممتقع من الغضب، مضطرب الصوت، ليوجّه خطاباً إلى الفضوليين

الذين تجمعوا أمام دياريو ده إيليوس: يا أرواح توركيمادا، نيرونات تجارة الأقمشة، جياد كاليغولا، أردتم محاربة الأفكار والانتصار عليها، والقضاء على نور التفكير المكتوب بالنار المجرمة التي يضرمها الحارقون، الظلاميون الجهلة!»

راح بعض الأشخاص يصفقون، وأخذ جمهور الأولاد يثير الضجيج، فيصيحون ويصفقون ويصفّرون. وإزاء هذه الحماسة الشديدة، بسط الدكتور الذي نسي «المونوكل» في جيب سترته، ذراعيه انفعالاً، نحو الهتافات.

– أيها الشعب، يا شعبي في إيليوس، أرض الحضارة والحرية! لن نسمح لهم أبداً، إلّا إذا داسوا على جثثنا، أن يأتوا إلى هنا ليقيموا محاكم التفتيش السوداء بهدف مطاردة الكلمة المكتوبة. إننا سنقيم المتاريس في الشوارع، والمنابر على تقاطع الطرقات...»

كان الكولونيل أمانسيو ليال يسمع خطاب الدكتور الملهب ، من حانة «العرق الذهبي» في الجوار، وهو جالس إلى طاولة قرب أحد الأبواب. فلمعت عينه السليمة، وقال للكولونيل جيزوينو ميندونسا مبتسماً:

«لقد هبط الوحي اليوم على الدكتور...

– لم يقل شيئاً عن آل آفيلا حتى الآن. إن خطاباً له من دون آل آفيلا لا يفيد بشيئ...» قال جيزوينو مستغرباً.

من هناك، من تلك الطاولة، كانا يشاهدان تطور الأحداث كلها، وصول المسلحين، قبضايات استقدموا من المزارع، وتمركزوا على مقربة من الجريدة منتظرين ساعة الصفر. وما إن خرج الأولاد، من المطابع حاملي الأعداد حتى وجدوا أنفسهم محاصرين. إلّا أن بعضهم كان قد بدأ ينادي:

«دياريو ده إيليوس. أنظر الدياريو... وصول المهندس. وجه الحكومة في الأرض...»

عندما انتهوا من مصادرة الأعداد من الأولاد المرعوبين، دخل بعض المسلحين

إلى إدارة التحرير والمطابع، وخرجوا مع ما تبقّى من الطبعة. وعلم في ما بعد أن العجوز أسندينو، وهو مدرّس فقير للغة البرتغالية، ويكسب بعض النحاسات خارج نطاق عمله، من خلال إجراء مراقبة على مقالات كلوفيس كوستا، وعلى التعليقات والأخبار، قال وهو مرتعد من الخوف، ويداه مضموتان إلى بعضهما في تضرّع:

- لا تقتلوني، فلديّ عائلة....

كان كل شيء معداً سلفاً وصفائح الكيروسين في شاحنة متوقفة إلى جانب الرصيف. فاندلعت النار وشبت في لهيب مرتفع، تهدد بالتهام واجهات البيوت. وقف الناس أمام المشهد من دون أن يفهموا ما يجري. وكي لا يفقد المسلحون عاداتهم ويؤمنون انسحابهم، أفرغوا بنادقهم في الهواء كي يفرقوا الناس المتواجدين، ثم استقلوا الشاحنة، وعبروا شوارع وسط المدينة بسرعة جنونية بحيث كاد يدهس المصدّر ستيفسن، ثم اختفى في اتجاه الأوتوستراد.

تجمع الفضوليون عند أبواب المتاجر والمخازن، ومشوا إلى الجريدة. بقي أمانسيو وجيزوينو جالسين: كانت طاولتهما في موقع استراتيجي. أما أمانسيو فقد قال بصوته الرقيق إلى الشخص الذي كان يقف أمام الباب حاجباً عنهما الرؤية:

- تنحى قليلاً، إعمل معروفاً...

وبما أن الرجل لم يسمع، شدّه من ذراعه:

- أخرج، قلت لك...

وبعد أن مرت الشاحنة، أمسك أمانسيو بكوب الجعة، وابتسم لجيزوينو:

- العملية منجزة جيداً...

واستمرا في الحانة، من دون إيلاء أهمية للفضول الذي يحيط بها، وللناس الذين يقفون على رصيف الجهة الأخرى من الشارع ليشاهدوهما. وقد تعرّف أناس متعددون إلى رجال أمانسيو وجيزوينو وميلك تافاريس. والذي كان يوجه كل شيء،

ويوجه الرجال، يدعى لويرينيو، وهو متبنى من قبل أمانسيو، مشاغب محترف، يقضي وقته في إثارة المشاجرات في بيوت الدعارة.

وصل كلوفيس كوستا بعدما بدأت النار تحاصر. فانتزع مسدسه من وسطه، ومثّل دوراً بطولياً عند باب إدارة التحرير. فعلّق أمانسيو بقرف من الطاولة في الحانة:

«حتى إنه لا يعرف كيف يمسك المسدس...»

شيئاً فشيئاً توافد الأصدقاء ونظموا ذلك اللقاء العام. وخلال الوقت المتبقي من المساء جاءت شخصيات كثيرة تعلن تأييدها. فحضر مونديميو مع النقيب واحتضن كلوفيس كوستا.

«إنها مصاعب المهنة...» قال الصحافي.

في ذلك المساء، لم يكن الزنجي الصغير تويسكا هو الذي وقف تحت نافذة غلوريا، ليشبع نهمها للأخبار، إذ كان منهمكاً بدرجة قصوى في قيادة عصبة من الأولاد أمام إدارة التحرير. بل كان المدرِّس جوزويه بوجهه الممتقع أكثر من أي وقت مضى، هو من فقد كل حذره وتقديره، وكانت عيناه الرومانطيقيتان مصبوغتين بلون الحداد.

مرّت مالفينا مع المهندس في الجادة. كان رومولو يشير إلى البحر، لعله يزودها بمعلومات عن مهنته، والفتاة تصغي باهتمام، وتضحك بين الفينة والأخرى. جرّ نسيب جوزويه إلى الجريدة، لكن المدرِّس لم يمكث سوى بضع دقائق فقط، إذ ما كان يهمه في الواقع هو ما يجري على الشاطىء بين مالفينا والمهندس. وها هما العانستان واقفتان عند باب الكنيسة، مع الأب سيسيليو، تعلّقان على الحريق. أثارت ضحكة مالفينا قبالة البحر، وهي غير مبالية بالصحف المحروقة، غضب جوزويه. في النهاية، ألم يكن المهندس هو المسؤول عن هذا الحادث؟ ألم يكن على القادم الجديد أن يولي الاهتمام إلى هذا الاضطراب في المدينة. فها هو يتحادث مع مالفينا بلامبالاة ملحوظة.

اجتاز جوزويه الساحة ومرّ بين العانستين، ثم اقترب من نافذة غلوريا، وانفتحت شفتا الخلاسية المعافتان بابتسامة شهوانية.

«نهارك سعيد.

- نهارك سعيد أيها الاستاذ. ما الذي يجري؟

- أضرموا النار في مطبعة دياريو ده إيليوس. أناس من آل باستوس، بسبب هذا المهندس الأبله الذي وصل اليوم...»

- الشاب الذي يتحدث وحبيبتك؟ قالت غلوريا وهي تنظر إلى جادة الشاطىء.

- حبيبتي؟ هذا خطأ. إنها مجرد معرفة بسيطة. في إيليوس امرأة واحدة فقط هي التي تسبب الأرق...

- من هي؟ هل أستطيع معرفتها؟

- هل أستطيع القول؟

- لا تكن خجولاً...

عند باب الكنيسة، كانت العانستان تفتحان وتغمضان أعينهما، وفي الجادة، كانت مالفينا غير مكترثة.

غابرييلا في العربة

كان في المدينة هرّ شارد، متوحش تقريباً. متسخ الجلد بالوحل، يركض وراء هررة الجوار، مصارع بلا منافس مع سمة مغامر. يسرق من جميع مطابخ اللاديرا، مكروه من ربات البيوت والخادمات، خفيف الحركة وقليل الثقة بالآخرين. ولم يستطع أحد قطّ أن يضع يده عليه. ماذا فعلت غابرييلا لاستمالته، وجعلته يرافقها بموائه، ويأتي ليرقد في ثني تنورتها؟ ربما لأنها لا تطرده بالزعيق والمكانس حينما يحضر مجازفاً وحذراً، بحثاً عن الفضلات في المطبخ. كانت ترمي إليه بقطع من

نفايات اللحم وذيل السمك وأمعاء الدجاج. فألف ذلك، وها هو الآن يقضي القسم الأكبر من النهار في الفناء، نائماً في ظل شجرات الغوايابا. ولم يعد يبدو كثير النحول وقذراً. وبالوسع الحديث عن حريته في لياليه التي يجري فيها في المرتفع وفوق السطوح، متحللاً ومتناسلاً. وعندما تعود غابرييلا من الحانة، وتجلس لتتناول الغداء، يجيء هو ويحرش (يحفّ) جسمه بساقيها ثم يأخذ في الجرش. كان يمضغ بدون شهية القطع التي تقدمها له، ويموء شاكراً حينما تمد غابرييلا يدها وتداعب رأسه.

كانت تلك معجزة حقيقية بالنسبة إلى الدونا آرميندا. فهي لم تتصور قط أن بالإمكان تطويع حيوان متوحش كهذا، وجعله يأتي ويتناول الطعام من اليد، ويترك الآخرين يأخذونه بالحضنِ، وينام بين ذراعي أحد ما. كانت غابرييلا تضغط على الهرّ بنهديها وتدفع وجهها إلى الوجه المتوحش، فيكتفي بالمواء الصامت، وعيناه شبه مطبقتين، وهو يحرشها بمخالبه برفق. وبالنسبة إلى الدونا آرميندا كان ثمة تفسير واحد: إن غابرييلا كانت وسيطاً ذا رائحة شمّ قوية، ماسة غير مصقولة يجب أن تُهَذَّب في «الجلسات» لتصبح جهازاً كاملاً للاتصالات التي تتم مع الما وراء. أي شيء آخر غير «السائل» الذي لديها لا يستطيع تطويع حيوان بهذه الوحشية؟

وإذ جلست الاثنتان عند عتبة الباب، المرأة العجوز تصلح الجوارب، وغابرييلا تداعب الهرّ، حاولت الدونا آرميندا إقناعها:

«يا ابنتي، يجب أنْ تحضري جميع الجلسات. فبالأمس، سألني عنكِ العرّاب ديودورو «لماذا لم تعد تلك الأخت؟ فلها روح مرشد من الدرجة الأولى. كان ورائي على الكرسي». هذا ما قاله، كلمة بكلمة. وللمصادفة، كنت أفكر بالأمر نفسه. فالعرّاب ديودورو يفهم كل المسألة. وإن لم يبدُ عليه ذلك، فلكونه لا يزال شاباً. لكن تلك المسألة هي صميمية مع الأرواح التي يراها بمفرده. يصدر لها الأوامر ويلغيها. بوسعكِ أنتِ أن تأتي وتصبحي حتى وسيطة تعرفين بالغيب...

- لا أريد... لا أريد يا دونا آرميندا. من أجل ماذا؟ ثم إنه من الأفضل أن نترك الموتى بسلام. لا أحب هذا، لا أريد...» كانت تحرش بطن الهرّ، وتداعبه. فقالت الدونا آرميندا:

«أنت تخطئين يا ابنتي، لإن مرشدكِ لن يستطيع نصحكِ هكذا، وأنتِ لا تفهمين ما يقوله. سوف تسيرين في الحياة مثل امرأة عمياء، لأن الروح هي التي تقود الأعمى حقاً. إنها تنير الطريق أمام الناس، فيتحاشون السقطات...

- ليس عندي روح يا دونا آرميندا، ثم ما هي هذه السقطات؟

- ليست مسألة السقطات فقط، إنما النصائح التي يقدّمها. بالأمس كانت عندي ولادة عسيرة، ولادة الدونا أمبارو. كان الطفل في وضع مقلوب، لا يريد الخروج. وأنا لا أدري ماذا أفعل، فجاء السيد ميلتون بقصة استدعاء الطبيب. فمن هو الذي ساعدني؟ إنه زوجي المرحوم الذي كان يرافقني، لم يتركني. وهناك فوق - أشارت إلى السماء - إنهم يعرفون كل شيء حتى الطب. فقد كان يقول لي في أذني، وأنا أفعل. فولد الطفل كالعجل!....

- جميل أن تكوني قابلة... تساعدين الأبرياء الصغار على الولادة.

- من سيزوّدكِ بالنصح؟ وأنتِ التي بحاجة إليه كثيراً...

- لماذا أنا بحاجة إليه يا دونا آرميندا؟ إني أعرف كل شيء...

- أنتِ يا ابنتي معتوهة، أعذريني إذا كنت أقول لكِ هذا. معتوهة كبيرة. لا تعرفين كيف تستفيدين مما أعطاكِ إياه الله.

- لا تقولي هذا يا دونا أرميندا، فأنا لا أفهم ما تقولين. فكل ما عندي أستفيد منه. حتى الحذاء الذي أعطاني إياه السيد نسيب، أذهب به إلى الحانة. على الرغم من أنني لا أحبه، كلا. أحب الخفّين أكثر. لا أحب السير بالحذاء...

- من الذي يتكلم على الحذاء، أيتها البلهاء؟ إذاً، فأنتِ لا ترين كيف أن السيد نسيب منحن تحت قدميك، مذهول من الإعجاب، فقد غيرت حياته...»

ضحكت غابرييلا وهي تضغط على الهر بصدرها:

«السيد نسيب شاب طيب، فممَّ أخشى؟ إنه لا يفكر بطردي، إنما أريد أن أجعله راضياً دائماً...

وخزت الدونا آرميندا إصبعها بالإبرة بسبب الانهماك الشديد، وقالت:

– لقد وخزت إصبعي... إنك أشد غباءً مما فكرت. فالسيد نسيب يستطيع أن يعطيكِ كل شيء... فهو ثري، السيد نسيب! لو طلبتِ حريراً لأعطاكِ. ولو طلبتِ بنتاً لمساعدتك في العمل، لاتفق حالاً مع اثنتين. إذا طلبتِ مالاً فإنه يعطيكِ المال الذي تريدين.

–لست بحاجة إلى المال ... بم يفيدني؟

– هل تعتقدين أن الحياة ستكون كلها جميلة؟ فإذا لم تغتنمي الفرصة الآن، سيفوت الأوان في ما بعد. إني قادرة على أن أقسم يميناً بأنكِ لا تطلبين شيئاً من السيد نسيب. أليس كذلك؟.

– ما يلزمني للذهاب إلى السينما عندما تذهبين أنتِ. ما الذي أطلبه أكثر من ذلك؟ وإذ فقدت الدونا آرميندا هدوءها، ألقت الجورب مع البيضة الخشبية، فجزع الهرّ وحدّق إليها بعينين شريرتين. وقالت:

«كل شيء! كل شيء يا ابنتي، كل شيء تريدينه يعطيكِ إياه.»

– لو أحسنتِ التصرف، بوسعه أن يتزوج بكِ... همست لها بصوت خافت.

– يتزوج بي؟ لماذا؟ لا أحتاج لهذا يا دونا آرميندا، فلمَ أتزوج؟ على السيد نسيب أن يتزوج بفتاة مستقيمة، من عائلة ذات حضور. فلماذا ينبغي عليه الزواج بي؟ إنه ليس بحاجة إلى ذلك...

– وأنتِ أليست لديكِ رغبة بأن تصبحي سيدة، تديرين بيتاً، تخرجين متأبطة ذراع زوجكِ، ترتدين ثياباً أنيقة ومن أفضل الأنواع، وأن يكون لكِ حضور؟.

– أن أكون قادرة على انتعال الحذاء طوال اليوم... كلا، لا أحب انتعال الحذاء.

وأن أتزوج بالسيد نسيب، فقد أقدر على أن أحب ذلك، أن أبقى الحياة كلها أطهو له، أساعده...

كانت تبتسم، تحث الهرّ على الجرش، وتلمس أنفه المبلل والبارد. ثم أضافت:

«لكن، هه! لدى السيد نسيب مشاغل كثيرة أخرى. وهو لن يتزوج بأول امرأة مثلي كانت ضائعة عندما التقاني ... لا أريد التفكير بهذا يا دونا آرميندا. يجب أن يكون مجنوناً.

- إني أقول لكِ يا ابنتي: يكفي أن تريدي، أن تعرفي كيف تأخذين الأمور بحنكة، فتعطين وترفضين وتتركينه والماء في فمه. إنه وجل، فابني شيكو أخبرني أن القاضي تكلم عن تخصيص منزل لكِ. لقد سمع نيوغالو يقول ذلك والسيد نسيب مستعد لأن يقدم لك قلبه.

- لا أريد...» غابت الابتسامة عن شفتيها. «فأنا لا أحبه. هذا القاضي عجوز بدون هيبة...»

- ثمة آخر...» همست الدونا آرميندا.

كان الكولونيل مانويل داس أونساس بمشيته التي ألفها في الحقول، يصعد الشارع، فتوقف أمام المرأتين، ورفع قبعته المصنوعة من القش، وأخذ يمسح عرقه بمنديل ملوّن:

«صباح الخير.

- صباح الخير أيها الكولونيل. أجابت الأرملة.

- هذا هو بيت نسيب، أليس كذلك؟ عرفته بسبب الفتاة. وأشار إلى غابرييلا، ثم أردف:

- إنني أبحث عن خادمة، سوف أستقدم عائلتي إلى إيليوس... ألا تعرفان واحدة؟

- خادمة، لماذا يا كولونيل؟

- من أجل الطهو...

- أمر صعب هنا.

- كم يدفع لكِ نسيب؟

رفعت غابرييلا عينيها البريئتين:

- يدفع ستين ألف ريال، أجل يا سيدي...

- إنه يدفع جيداً، لا شك.

لاذ المزارع بصمت طويل، ونظر إلى الممشى. كانت الدونا آرميندا تجمع خرقها، فحيته وأخذت تسترق السمع من وراء باب منزلها. فشق الكولونيل فمه عن ابتسامة راضية:

- في الحقيقة، لست بحاجة إلى خادمة. فحينما تأتي العائلة، أستقدم واحدة من الحقل. لكنه من المؤسف أن تكون فتاة سمراء جميلة مثلكِ غارقة في المطبخ.

- لماذا أيها السيد الكولونيل؟

- إنكِ تفسدين يديكِ. إن ترك تنظيف الطناجر عائد إليكِ. وإذا شئتِ فبوسعي أن أعطيكِ كل شيء: بيتاً محترماً، خادمة، حساباً مفتوحاً في المتجر، فأنا أحب المرأة الرائعة الجمال.

نهضت غابرييلا وهي تبتسم، كأنها تشكره تقريباً.

- بماذا تجيبين على اقتراحي؟

- أعذرني أيها السيد. أنا أرفض. لأمر هو هكذا، فلا تأخذه على محمل السوء. أنا مرتاحة هنا، ولا ينقصني شيء. عن إذنك أيها الكولونيل...»

من فوق التلة الواطئة، في عمق الفناء، ظهر رأس الدونا آرميندا وهي تنادي غابرييلا:

«رأيتِ أيَّ مصادفة؟ أما كنت أقول لكِ؟ ويريد أيضاً أن يخصص لكِ بيتاً...

- لا أحبه... حتى ولو كنت ميتة من الجوع.

- إن الأمر كما أقول لكِ: يكفي أن ترغبي...

- لا أريد شيئاً على الاطلاق.»

كانت راضية بما تمتلكه: فساتين الشيت، الأخفاف، الأقراط، دبابيس الصدر، السّوار، وما كانت تحب الأحذية، إنها تشد على قدميها. راضية بالفناء، بالمطبخ وموقده، وبالغرفة الصغيرة التي تنام فيها، وبالفرح اليومي في الحانة مع أولئك الشبان اللطفاء - السيد تونيكو، المدرِّس جوزويه، السيد آري - وأولئك الرجال المهذبين - السيد فيليبي، الدكتور، النقيب - راضية بالزنجي الصغير تويسكا صديقها، وبهرّها الذي استمالته من المرتفع.

إنها راضية بالسيد نسيب. كان النوم معه ممتعاً، رأسها يرتاح على صدره الكثيف الشعر. تتحسس على فخذيها ثقل ساق رجل بدين وكبير، شاب جميل، بشاربيه اللذين يدغدغان عنقها. شعرت غابرييلا برعشة. كان النوم مع رجل جيداً، لكن ليس مع رجل عجوز من أجل بيت وطعام، وفستان وحذاء. بل مع رجل شاب، تنام معه من أجل المتعة، رجل قوي وجميل مثل السيد نسيب.

هذه الدونا آرميندا، مع كل روحانيتها تصبح مجنونة! فأي فكرة حمقاء هي فكرة الزواج من السيد نسيب! فمجرد التفكير به أمر ممتع، آه! بالتاكيد. أتأبط ذراعه وأخرج معه في الشارع، نتمشى حتى ولو بحذاء ضيّق، ثم ندخل السينما، وأجلس ملتصقة به، مسندة رأسي إلى كتفه الناعمة كأنها وسادة. أو نذهب إلى حفلة، أرقص معه ، وخاتم الزواج في إصبعي...

ماذا يفيد التفكير؟ إنه لا يساوي ذلك العناء... فالسيد نسيب كان خليقاً بالزواج من فتاة فاضلة، غارقة بأكملها في الحلي، تنتعل حذاء وترتدي جورباً من الحرير ويضوع منها العطر. فتاة عذراء غير مدمنة على الرجل. إن غابرييلا صالحة للطهو، لترتيب البيت، ولغسل الثياب، وللمضاجعة مع رجل، غير عجوز وقبيح، وليس من أجل المال، لأنها تحب ممارسة الحب. كليمينتي في الطريق، نيزوينيو في الحقل،

وزيه دو كارمو أيضاً. وفي المدينة بيبينو، وهو شاب طالب كثير الثراء! كان يأتي بهدوء على رؤوس أصابع قدميه خوفاً من أمه. وكانت طفلة خالها. كانت طفلة، وفي الليل خالها العجوز والمريض....

على ضوء الفانوس

كان العمال بظهورهم العارية، تحت الشمس المحرقة وبمناجل ملتصقة بقضبان طويلة، يجمعون جوز الكاكاو، فتسقط الثمرات الصفراء في ضجيج أصم، فتجمعها النساء والأطفال ويشقونها بأنصال المدي، ثم يكوّمون حبوب الكاكاو الرخوة ويضعونها في السلال، لتنقل إلى المراكب على ظهور البغال.

كان العمل يبدأ مع ظهور أشعة النهار وينتهي مع هبوط الليل، عندما تكون الشمس في ذروتها، فيأكلون بسرعة، شريحة مشوية من اللحم المقدد مع الدقيق، وجاكا ناضجة، وترتفع أصوات النساء في أغاني العمل الموجعة.

حياتي قاسية، غضبي مرّ،
أنا زنجي، عامل.
قل لي، سيدي الكولونيل
قل لي، إعمل معروفاً،
متى سوف أجني أنا
آلام حبي؟.

تُجيب جوقة الرجال في الحقول:

سأجني الكاكاو
من شجرة الكاكاو.

كان صراخ قادة القوافل، يستحث البغال على الإسراع في المسير كي تبلغ قافلة الكاكاو الأخضر، الطريق: «إيه! أيتها البغلة اللعينة! أسرعي يا ديامانتي». وكان الكولونيل ميلك تافاريس يمتطي جواده، يتبعه رئيس العمال، يعبر الحقول ليقوم بجولات تفتيش على العمل، فيترجّل عن جواده، ويتذمر من النساء والأطفال:

«ما هذه الميوعة؟ أسرِعوا، ايها السيدة، البحث عن القمل وحده يلزمه الوقت!»

وتيرة الضربات التي كانت تشق قشرة ثمار الكاكاو المركزة على راحة اليد، ونصل المدية المشحوذ يهدّد الأصابع في كل ضربة. ويصبح أكثر سرعة أيضاً» إيقاع الأغنية الذي يخرج من الحقول حيث يحفز القاطفين:

في الكاكاو كثير من العسل
وفي الحقل كثير من الزهر.
قل لي سيدي الكولونيل،
قل لي إعمل معروفاً،
متى سأذهب لأنام
في سرير حبي؟.

بين الأشجار، في دروب الخلاسيين الذين يدوسون أوراق الشجر اليابسة، يتزايد صوت الرجال. وهم يقطفون بسرعة أكثر:

سأقطف الكاكاو
من شجرة الكاكاو.

كان الكولونيل يتفحص الأشجار، ورئيس العمال يصرخ بالعمال، والعمل اليومي المضني يستمر. فجأة توقف الكولونيل ميلك تافاريس عن الحركة وسأل:

– من قام بالقطاف هنا؟

ردد رئيس العمال السؤال. استدار بعض العمال ليروا ما الامر فأجاب الزنجي فاغونديس:

«أنا.

– تعال إلى هنا!»

أشار بيده إلى أشجار الكاكاو، حيث، بين الأوراق الكثيفة، وعلى الأغصان الأكثر ارتفاعاً، كان يُرى جوز منسي:

«هل أنت صديق للقرود؟ أوتعتقد أنني أزرع الكاكاو من أجلها؟ كسول تافه لا تصلح لشيء.

– أجل، لم أَر.

– إنك لم تر لأنه ليس حقلك، فلست الذي يخسر المال. انتبه من الآن فصاعداً.»

وعندما تابع طريقه، رفع الزنجي فاغونديس منجله، وبعينين هادئتين وطيبتين شيّع الكولونيل. ماذا كان بوسعه أن يجيب؟ فميلك انتزعه من أيدي الشرطة وهو ثمل في إحدى المرات التي ذهب فيها إلى الدسكرة، وأحدث شغباً كثيراً في بيت المومسات. لم يكن هو الرجل الذي يسمع الإهانات صامتاً. لكنه لا يستطيع الرد على الكولونيل. ألم يأخذه منذ وقت غير بعيد إلى إيليوس ليضرم النار في بعض الصحف، أمر طريف، أوَلم يُجْزِل له المكافأة؟ أوَلم يقل له إن زمن الشغب يعود، وهي أوقات جيدة لرجل يتحلّى بالشجاعة ويجيد التصويب الدقيق مثل الزنجي فاغونديس؟ في تلك الفترة كان يقطف الكاكاو، ويرقص فوق الحبوب التي تجف في المراكب، ويعرق في السقيفة الدافئة، مغطساً قدميه في خزانات التخمير. لكن حصول هذا الشغب تأخر، ولم يؤدِ الحريق في المدينة إلى تسخينه. وحتى الآن كان راضياً عن الوضع. كان يراقب الحركة، يمضي في الشاحنة، ويطلق بعض الطلقات في الهواء لمجرد التضليل، ويلقي نظرة على غابرييلا عند عودته. فيما كان ماراً أمام

إحدى الحانات، سمع ضحكاً، لا يمكن أن تكون إلّاها. كانوا يقتادونه إلى أحد البيوت حيث يبقى ساعة قبل تنفيذ المهمة. وقد أجاب الشاب الذي كان يقودهم، والملقّب بلويرينيو، على تساؤله:

«إنها طاهية العربي، فتاة فاتنة.»

خفف الزنجي فاغونديس الخطى وتسلل ليراها، فحثّه لويرينيو على الإسراع غاضباً:

«هيّا أيها الأسمر. لا تتصرف هكذا، ستفسد الخطة. هيّا، لنمضِ.»

عند عودته إلى المزرعة في ليلة كثيفة النجوم، بينما كانت أصوات الموسيقى تغني الوحدة، أخبر كليمينتي. كان الضوء الأحمر المنبعث من الفانوس يبعث صوراً في عتمة الحقول، وكان هو يشاهد وجه غابرييلا، وجسدها الذي كان يرقص بساقيها الطويلتين، وقدميها الرشيقتين.

«كانت جميلة، ليتك رأيتها...

- هي تعمل في حانة؟

- إنها تطهو للحانة. تعمل عند عربي، وهو رجل بدين وجهه كوجه العجل. وكانت أنيقة، نظيفة، تنتعل خفّين.

بالكاد كان يرى ، على ضوء الفانوس، كليمينتي يصغي محني الرأس، صامتاً مفكراً.

«كانت تضحك عندما مررت. تضحك وهي تنظر إلى أحد الرجال، رجل ثري. أنت تعرف يا كليمينتي؟ كانت تضع وردة وراء أذنها، لم أرَ مثيلاً لها قط.»

غابرييلا، مع وردة وراء أذنها، تتلاشى في ضوء الفانوس. انغلق كليمينتي على نفسه كسلحفاة في غلافها.

«وضعوني في عمق منزل الكولونيل. رأيت زوجته، مخلوقة عليلة، تبدو كصورة قديسة. ورأيت ابنته أيضاً. جمالها مبهر، لكنها متعجرفة، تمر قربنا بدون أن تكترث

بنا. إنها فتاة جميلة، لكني أقول لك يا كليمينتي، لا يوجد مثل غابرييلا. ما الذي لديها يا كليمينتي؟ قل لي...

ما الذي لديها؟ كيف يعرف؟ فالنوم معهاملتصقة بصدره، في ليالي الطريق، في السرتون، وفي الكآتنغا، ثم في المراعي الخضراء لم تفده بشيء. لم يتعلم شيئاً، ولم يكتشف شيئاً. مع ذلك، كان لديها شيء، من المستحيل أن ينساه. لونها القرنفلي؟ أم عطرها؟ طريقتها في الضحك؟ كيف يعرف؟ تنبعث منها حرارة تحرق البشرة، وتحرق داخل الجسد. إنها أتون.

«كان ذلك حريق ورق، انخمد في لحظة. كنت أريد الذهاب لأرى غابرييلا، لأتحدث معها. فلم أجد وسيلة على الرغم من أنني أردت ذلك بشدة.

- إنك لم ترها منذ ذلك الوقت؟»

كان ضوء الفانوس يلتهم الظل، والليل يصبح أكثر سواداً من دون غابرييلا. والاثنان حالمان حزينان في صمت. أخذ الزنجي فاغونديس الفانوس ومضى لينام. وفي عتمة الليل الكثيفة الهائلة، احتضن كليمينتي غابرييلا، وجهها يبتسم، قدماها سريعتا الخطى، فخذاها سمراوان، نهداها منتصبان، بطنها ليلي، وعطرها ولونها قرنفلان. أخذها بين ذراعيه وحملها إلى السرير المصنوع من الأغصان وضاجعها، ثم استلقت على صدره.

حفلة رقص
وقصة إنكليزية

أحد أكبر النجاحات الهامة في ذلك العام في إيليوس كان تدشين المركز الجديد للجمعية التجارية. مركز جديد كان في الواقع الأول من نوعه، إذ إن الجمعية أُسست منذ أربع سنوات، وكانت تمارس أعمالها حتى الآن في مكتب آتاولفو باسوس،

رئيسها وممثل شركات جنوب البلاد. لقد بدأت الجمعية، في الأوقات الأخيرة، تلعب دوراً متزايداً في حياة المدينة، حيث كانت تعزز التقدم عبر مبادراتها ونفوذها. المركز الجديد، وهو بناء من طبقتين، يقع في جوار حانة فيزوفيو في الشارع الذي يصل ساحة القديس سيباستيان بالمرفأ. وطُلب من نسيب تأمين المشروب والحلوى والأطعمة المالحة من أجل حفلة التدشين، وهذه المرة لم يكن هناك بد من الاتفاق مع خلاسيتين لمساعدة غابرييلا، لأن الطلبية كانت هامة.

سبقت انتخابات المديرية حفلة الانتقال. في السابق، كان يجب الإلحاح على التجار والمستوردين والمصدّرين، من أجل السماح باعتماد أسمائهم لهيئة مكتب المديرية. والآن أصبحوا يتنازعون المراكز: فهي تمنح النفوذ، والتسليفات في المصارف، وحق إبداء الرأي حول إدارة المدينة. ثمة لائحتان، إحداهما من قبل رجال آل باستوس، والأخرى من قبل أصدقاء موندينيو فالكون. هكذا هو الوضع بالنسبة لأي أمر. آل باستوس من جانب، وموندينيو من الجانب الآخر. وقد ظهر في جريدة دياريو ده إيليوس بيان موقع من المصدّرين وتجار متعذدين، وأصحاب مكاتب استيراد، مقدّماً لائحة يتزعمها آتاولغو باسوس كمرشح لإعادة انتخابه، مع موندينيو لمركز نائب الرئيس، والنقيب لمركز الخطيب الرسمي. واستُكملت اللائحة بأسماء معروفة. ونشرت «جريدة الجنوب» بياناً مماثلاً، موقعاً، من عدة أعضاء مهمين في الجمعية يساندون لائحة أخرى، برئاسة آتاولغو باسوس الذي كان اسمه يحظى بموافقة الجميع: فلم يكن يهتم بالسياسة، وله تدين الجمعية بتقدمها. وكنائب للرئيس، السوري معلوف، صاحب أكبر متجر في إيليوس، وهو صديق حميم لراميرو باستوس الذي كان قد بدأ في أرضه قبل ذلك بسنين طويلة، بفتح حانة لبيع المواد الغذائية، في أرض راميرو باستوس الذي أصبح صديقه الحميم. وكخطيب رسمي، الدكتور ماوريسيو كاييريس. وعلاوة على اسم آتاولفو باسوس، تردد اسم

آخر في كلتا اللائحتين يعيّن للمركز المتواضع نفسه كأمين رابع: العربي نسيب أ. سعد. كان من المتوقع حدوث نزاع شديد لأن القوى كانت متعادلة. لكن آتاولفو وهو رجل بارع وذكي جداً، أعلن أنه لا يقبل ترشيحه إلا إذا تفاهم المتنافسون ودخلوا في اتفاق من أجل تأليف لائحة وحيدة، تضم أشخاصاً من الفريقين. ولم يكن من السهل إقناعهم. ومع هذا، كان آتاولفو يتمتع بالمقدرة على اجراء المصالحات. فزار موندينيو وأشاد بحبه للعمل في سبيل المصلحة العامة ومن أجل البلاد والجمعية. قال له إنه يشرفه أن يكسبه كنائب للرئيس. لكن المصدّر لم يكن يرى أن الجمعية التجارية يجب أن تبقى بعيدة عن الصراعات السياسية، وكأنها أرض محايدة تستطيع فيها القوى المناهضة لبعضها أن تتعاون من أجل خير إيليوس والوطن؟ إن ما كان يقترحه هو دمج اللائحتين، وإنشاء نيابتي رئاسة، وأمانتين ومقعدي خازنين وخطيبين وأميني مكتبة. فالجمعية وهي عامل تقدم، ذات برنامج كبير يتطلّب الوفاء به لتجعل إيليوس مدينة حقيقية، تسمو فوق الانقسامات السياسية المؤسفة.

وافق موندينيو على الاقتراح القاضي بالتنازل، معلناً استعداده لبسط يده في مسألة ترشيحه لنائب الرئيس. ومع هذا، يجب استشارة أصدقائه، وبخلاف الكولونيل راميرو، فهو لم يكن يصدر أوامر، ولا يقرر شيئاً من دون الاستماع إلى أنصاره.

«أعتقد أنهم سيوافقون. هل تكلمت مع الكولونيل؟

- أردت الاستماع إليك أولاً وسأذهب لزيارته عند المساء.

مع الكولونيل راميرو كانت المسألة أكثر صعوبة. فالعجوز بدا في البداية غير مكترس لأي نقاش، فثار قائلاً:

«غريبٌ من دون جذور في البلاد. لا يملك غرسة واحدة من الكاكاو...

- وأنا أيضاً، ليس عندي غرسة أيها الكولونيل.

- الأمر مختلف بالنسبة إليك. فأنت هنا منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. وأنت

رجل خير، والد أسرة، لم تأتِ إلى هنا لتدير رأس أحد، ولم تجلب رجلاً متزوجاً ليعارك بنات الناس، ولا تريد تغيير كل شيء كأن لا شيء ذا قيمة من كل ما هو موجود.

- أيها الكولونيل. أنت تعرف أنني لست سياسياً، حتى أنني لست ناخباً. أريد إقامة علاقات طيبة مع الجميع، أتعامل مع الطرفين. لكن المؤكد أن أموراً كثيرة يجب أن تتغير في إيليوس. فلم نعد نعيش في تلك الأوقات من الماضي. ومن الذي غيّر أموراً في إيليوس أكثر منك أيها الكولونيل؟»

هدأت ثائرة العجوز التي كادت تنفجر، مع الكلمات الأخيرة لتاجر الجملة:

«أجل، من غيّر أكثر مني في إيليوس؟ قال مكرراً. هنا كانت نهاية العالم، دسكرة بائسة. عليك أن تتذكر. فاليوم لا توجد مدينة في الولاية تضاهي إيليوس. فلماذا لا ينتظرون موتي أقله؟ فأنا على قيد خطوة من القبر. لماذا هذا النكران للجميل في نهاية حياتي؟ أي سوء أتيته، بماذا أهنت هذا السيد مونديينو الذي، يمكن القول، إنني لا أعرفه؟»

لم يعرف آتاولفو باسوس بماذا يجيب. وأصبح صوت الكولونيل الآن مرتعشاً، صوت رجل عجوز على وشك أن ينتهي.

- لا تفكر إنني ضد تغيير أشياء معينة، واستبدالها بأخرى، لكن لماذا هذا التسرع، هذه الخيبة كأن نهاية العالم تقترب؟ ثمة وقت لكل شيء.- برز مجدداً مالك الأرض راميرو باستوس الذي لا يُقهَر، ثم أضاف:

- أنا لا أشكو. فأنا رجل صراع، لا أخاف. وهذا السيد مونديينو يفكر أن إيليوس بدأت عندما نزل من الباخرة هنا. يريد أن يطمس الأمس، وهذا لن يستطيع أحد أن يفعله. فلسوف يعاني مرارة هزيمة سيمنى بها، وسيدفع لي غالياً ثمن هذه النذالة... إنس، سوف أفوز عليه في الانتخابات، وبعدها ألقيه خارج إيليوس، ولن يمنعني أحد.

- في هذا أيها الكولونيل، أنا لا أتدخل. فكل ما أرغب فيه هو حل مسألة الجمعية. فلماذا نورّطها في هذه الخصومات؟ وأخيراً، الجمعية شيء غير ذي بال،

لا تهتم إلا بالأعمال، بمصالح التجارة، فإذا تحوّلت إلى خدمة القضية السياسية فإن الماء سيجري من تحتها. فلماذا نبدد القوى الآن بهذه التفاهة؟

- ما هو اقتراحك؟

أوضح، وأصغى الكولونيل راميرو باستوس، وذقنه مستند إلى عصاه، ووجهه المتغضن حليق جيداً، وبقية من الغضب تلمع في عينيه:

- حسناً، لا أريد أن يقولوا إنني دمرت الجمعية. وأنت تحوز على إعجابي. فاذهب واسترح، وأنا أوضح للإشبين معلوف. يصير الاثنان متساويين، فلا يوجد شرط في ما يتعلق بالنائب الأول والنائب الثاني للرئيس.

- متساويان، شكراً أيها الكولونيل.

- هل تحدثت مع السيد موندينيو عن هذا؟

- ليس حتى الآن. كنت أود الاستماع إليك أولاً، والآن سأكلمه.

- قد لا يوافق.

- إنك، وأنت السيد قد قبلت، فلماذا يرفض هو؟

إبتسم الكولونيل راميرو باستوس: لقد كان هو الأول.

وهكذا وجد نسيب نفسه منتخباً أميناً رابعاً للجمعية التجارية في إيليوس، رفيقاً لآتاولفو وموندينيو ومعلوف، والصائغ بيمينتا، وأشخاص مهمين آخرين، كما الدكتور ماوريسيو والنقيب. وتطلّب حل مشكلة الخطيب الرسمي من آتاولفو باسوس جهداً أكثر من الباقين كلهم تقريباً. فقد كلّفه إقناع النقيب بقبول مركز أمين المكتبة، وهو المركز الأخير في اللائحة، لكن ألم يكن هو خطيباً رسمياً لأوتيربي ١٣ أيار/ مايو؟ فالدكتور ماوريسيو لم يكن خطيباً لأي جمعية. وفوق هذا، مع الملاحظة الجوهرية التي صُوّت عليها من أجل المكتبة، فمن غير النقيب قادر على المنافسة الكفوءة لاختيار الكتب وحيازتها؟ ففي الواقع إن مكتبة إيليوس العامة مسألة جدية، حيث الشبان والشيوخ يأتون للمطالعة ويتثقّفون، وهي مفتوحة الأبواب أمام جميع السكان.

«هذا إطراء لي منك. فجوان فولجنسيو، والدكتور هما مؤهلان كلياً...

- لكنهما غير مرشحين، والدكتور ليس عضواً في الجمعية، وجوان لا يقبل مناصب... فلا أحد سواك، وإلا فمن سنعيّن؟ أنت خطيب على كل حال، وحتى الأفضل في المدينة.»

كانت حفلة تدشين المركز وتنصيب اللجنة الادارية الجديدة، جديرة بالرؤية والتعليق عليها. فعند المساء، مع الشمبانيا والخطب في القاعة الكبرى التي تحتل الطابق الأرضي حيث يجب أن تمارس المكتبة وظيفتها، عُقِدَت اجتماعات وندوات (في الطابق الثاني بقيت الأقسام المتنوعة وأمانة السر) ونصب المديرون الجدد. وأوصى نسيب على ثياب جديدة خاصة بالحدث، ربطة عنق صارخة الألوان، حذاء لامع، وخاتم «سوليتير» في إصبعه، حتى ليقال كولونيلاً صاحب مزارع.

في الليل أُقيمت الحفلة الراقصة، مع «بوفيه» أمّنها هو - (أخذ بلينيو أراسا يروّج بأن نسيب استغل مركزه ليقبض نقوداً كثيرة، وهذه كذبة غير محققة) - فكانت متنوعة وشهية. كان ثمة مشروبات للاختيار، ووفرة في العرق. وفي المقاعد المسندة إلى الجدران كانت الفتيات في ضوضاء ضاحكة ينتظرن من ينتزعهن للرقص. وفي قاعات الطابق الثاني، المفتوحة والمضاءة، كان سادة وسيدات يتذوقون حلوى غابرييلا وأطعمتها المالحة، وهم يتحدثون، قائلين إنه حتى في باهيا تُقام حفلة جد مميزة كهذه.

وكانت أوركسترا الباتاكلان تعزف الفالز والتانغو والفوكستروت والبولكا العسكرية. في تلك الليلة لم يجر رقص في الكباريه، لكن ألم يكن موجوداً في الجمعية جميع الكولونيلات والتجار والمصدّرين وموظفي التجارة وأطباء ومحامين؟ لقد نامت الكباريه وهي مقفرة، فيها امرأة أو أكثر في انتظار بلا طائل...

كانت نساء عجائز وشابات يتوشوشن في قاعة الرقص، يسهبن في التفاصيل عن الثياب والحلي والزينات، ويتطرقن بالنميمة إلى علاقات حب، متوقعات أعراساً.

وكانت مالفينا، التي ترتدي أجمل ثوب جلبته من باهيا، الفضيحة الحيّة والباعثة على التعليق. فلم يعد أحد في المدينة يجهل وضع مهندس المضيق كرجل متزوج، منفصل عن زوجته. الحقيقة هي أنها مجنونة لا يُرجى شفاؤها، نزيلة مستشفى للمجانين. غير أن الذي يثير الاهتمام، هو أنه كان رجلاً لا يحق له التطلّع إلى فتاة عزباء، في سن الزواج. ماذا لديه ليقدّمه لها علاوة على العار، أقلّه يتركها مضغة في أفواه الناس، من دون أن يترتب على ذلك زواج أبداً. مع هذا، لم يتركا بعضهما، فكانا الثنائي الأكثر استمراراً في الحفلة الراقصة، من دون أن يضيعا رقصة فالز ولا رقصة بولكا ولا رقصة فوكستروت؛ كان رومولو يجيد رقص التانغو الأرجنتيني حتى أفضل من المرحوم أوزموندو. وبدت مالفينا بوجنتيها المتوردتين، وعينيها العميقتين، غارقة في حلم، خفيفة تكاد تطير بين ذراعي المهندس الرياضيتين. وأُطلقت شائعة من المقاعد المسندة إلى الجدران، وارتقت السلالم، وانتشرت في القاعات تقول إن الدونا فيليسيا والدة إيراسيما السمراء النارية ذات المغازلات عند بوابة المنزل، قد منعت ابنتها من التعاطي مع مالفينا. وكان المدرِّس جوزويه يمزج المشروبات، ويتكلم بصوت مرتفع، مبدياً لامبالاة ومرحاً. وكانت أنغام الموسيقى تختصر في الساحة، وتتسرب من نافذة غلوريا الراقدة مع الكولونيل كوريولانو الذي قدم ذلك المساء. فهو لا يختلف إلى حفلات الرقص، لأنها تنظم للشبان. فقد كانت حفلة رقصه في سرير غلوريا.

نزل موندينيو فالكون إلى قاعة الرقص، وقرصت الدونا فيليسيا، إيراسيما، وهي تسرّ لها:

«السيد موندينيو ينظر إليك. إنه قادم ليدعوك إلى الرقص.»

كادت تدفع ابنتها إلى ذراعيّ المصدِّر. لا يوجد في إيليوس بأسرها أفضل من هكذا فرصة! مصدّر الكاكاو، زعيم سياسي وشاب عازب، أجل، عازب، بوسعه أن يتزوج.

«هل تسمحين لي بهذا الشرف؟ سألها موندينيو.

- بكل سرور.» نهضت الدونا فيليسيا قليلاً لتحييه.

استندت إليه إيراسيما ذات الامتلاء الشديد، الخائرة والمنافقة. فأحس موندينيو بنهدَي الفتاة، وبفخذيها تلامسه، فضغط عليها برفق. ثم قال لها:

«أنت ملكة الحفلة...»

استندت إليه إيراسيما أكثر، وأجابت:

- أنا لست محظوظة... لا أحد يتطلّع إليّ.»

ابتسمت الدونا فيليسيا وهي على مقعدها. فإيراسيما تنهي دروسها في ثانوية الراهبات في نهاية السنة، وقد حان الوقت لتتزوج.

مثّل تونيكو، الكولونيل راميرو باستوس في الحدث عند المساء. كان ابنه الآخر ألفريدو في باهيا، منهمكاً في المجلس. وفي الحفلة الراقصة ليلاً، كان تونيكو مصحوباً بالدونا أولغا ذات السمنة المسحوقة بفستان بلون الورد وشكل المراهقة، مضحك! ومعهما جاءت ابنة شقيقه الكبرى ذات العينين الزرقاوين ، والبشرة الناعمة. وكان تونيكو الشديد الامتقاع والمحترم، والذي لا يتطلّع إلى النساء، منهمكاً في الدوران حول ذلك الجبل من اللحم الذي وهبه إياه الله والكولونيل راميرو كزوجة.

احتسى نسيب شمبانيا، ليس من أجل زيادة استهلاك المشروب الغالي وكسب نقود أكثر، إنما لينسى معاناته وليهرب من الخوف الذي لم يعد يبارحه، والمخاوف التي تلاحقه نهاراً وليلاً. فالدائرة التي تحيط بغابرييلا تتزايد وتضيّق الخناق عليه. فكانوا يوجهون إليها الرسائل الشفهية والتذاكر الغزلية. وكانوا يعرضون على هذه الطاهية التي لا تضاهى، رواتب لا تصدق. وعلى تلك الفتاة التي لا مثيل لها منزلاً مفروشاً وكل الأثاث الفخم في المتاجر.

منذ أيام قلائل، عندما شعر نسيب أنه أقل حزناً من السابق، بسبب انتخابه أميناً رابعاً، حدثت له مسألة كشفت مدى جرأة هؤلاء الناس.

ووصلت الوقاحة لدى زوجة المستر غرانت، مدير السكة الحديد، إلى حد أنها ذهبت إلى بيت نسيب لتقدم عرضاً لغابرييلا. كان غرانت هذا إنكليزياً مسناً، نحيل الجسم وصامتاً، يقطن إيليوس منذ عام ١٩١٠، كانوا يعرفونه ويدعونه ببساطة «مستر». وكانت زوجته غرنغا، طويلة وشقراء، ذات تصرفات حرة وذكورية نوعاً ما، لا تتحمل إيليوس، وتعيش في باهيا منذ عدة سنوات. ولم يبق من الأوقات التي قضتها في المدينة سوى صورتها الظلية الشبابية يومذاك وملعب لكرة المضرب أقامته على أرض تابعة للسكة الحديد، وغزاها العشب بعد مغادرتها. وفي باهيا كانت تقيم مآدب عشاء في منزلها في جادة بارا، وتنطلق بالسيارة وتدخن السكائر، وقيل إنها كانت تستقبل عشاقها في وضح النهار. أما المستر فلم يكن يغادر إيليوس. كان يعشق العرق الجيد المصنوع هنا، ويلعب البوكر، ويسكر كل أيام السبت بدون تخلف في «العرق الذهبي» ويذهب في أيام الآحاد إلى الصيد في الجوار. وكان يعيش في منزل جميل محاط بالحدائق، وحيداً مع امرأة هندية أنجبت منه ولداً. وعندما كانت تحضر الزوجة إلى إيليوس مرتين أو ثلاث مرات في السنة، كانت تجلب الهدايا للهندية الرصينة والصامتة كإله وثني. وما إن أكمل الولد السادسة من عمره حتى أخذته الإنكليزية معها إلى باهيا حيث علّمته كأنه ابنها. وفي أيام الأعياد، كان علم إنكلترا يرفرف على سارية زرعها المستر في الحديقة، لأن غرانت كان في إيليوس نائب القنصل لصاحبة الجلالة البريطانية المعظمة.

كيف عرفت الانجليزية بغابرييلا وهي قد وصلت لتوها إلى المدينة ؟ أرسلت من يشتري لها الحلوى وأطعمة مالحة من الحانة، وصعدت في اليوم التالي إلى لاديرا سان سيباسيتان، فطرقت باب نسيب، وانتظرت وهي تتفحص الخادمة المبتسمة:

- Very well. (بالانجليزية في النص الاصلي)

إنها امرأة واثقة بنفسها، قيل عنها أمور رهيبة: تشرب أكثر من الرجال، وتذهب إلى الشاطئ شبه عارية، وتحب المراهقين في بداية مرحلة نضوجهم، وأنه مثلية.

عرضت على غابرييلا أن تأخذها إلى باهيا، وتعطيها مرتباً غير ممكن الحصول عليه في إيليوس، وتؤمن لها اكثر الثياب أناقة وتمنحها عطلة كل أيام الآحاد. لقد جاءت من دون مقدمات وطرقت باب منزل نسيب. يا للإنجليزية الوقحة...

والقاضي، ألم يعتد الآن أن يتمشى في المنحدر بعد جلسات المحكمة ؟ كثر هم الذين يحلمون بتخصيص منزل لها، واتخاذها عشيقة؟ وآخرون، أكثر تواضعاً، كانوا يطمحون لقضاء ليلة فقط مع غابرييلا، خلف صخور الشاطئ حيث يتمشى في الظلمة الأزواج المشبوهون. لقد أصبحوا أكثر جرأة، وفقدوا عقولهم في الحانة، بحيث راحوا يقدمون لها العروض. وتزايدت النزهات على رصيف منزل نسيب. ووصلت الاشاعات إلى اذنيه. فكل مساء كان لدى تونيكو أمر جديد ليخبره إياه، ونيو غالو أيضاً حذره من الخطر المتزايد:

«كل امرأة، حتى الأكثر وفاءً، لديها حدود...»

الدونا آرميندا بتصوراتها ومصادفاتها، قالت له إن غابرييلا بلهاء في رفضها عروضاً مغرية.

«وأنت أيها السيد لن تستاء فيما لو رحلت، أليس كذلك ؟

لن يستاء... لكنه لم يكن يفكر بأمر آخر! كان يبحث عن حلول، ويفقد النوم، فلم يعد ينام قيلولته ويتجشأ مخاوفه في سرير القيلولة. ربا، حتى الشهية بدأ يفقدها، إنه يهزل!.

بعد أن حظي بترحيب في الحفلة، ربتوا ظهره، واحتضنوه ثم هنأوه. وأغرق في الشمبانيا مخاوفه والأسئلة التي كانت تملأ صدره. ماذا كانت تعني غابرييلا في حياته، وإلى أين يجب أن يمضي ليحتفظ بها؟ كان ينشد رفقة جوزويه الكئيبة، وأعلن له المدرّس الغارق في الفرموث.

«لم، بحق الشيطان، لا يوجد عرق في هذه الحفلة القذرة.»

أين هي كلماته العذبة وأشعاره المقفاة؟.

وكان ثمة أيضاً خبران مثيران في الحفلة. أحدهما عندما لفت انتباه موندينيو الذي ملَّ بسرعة إيراسيما السهلة المنال - (لم يكن الرجل الذي يغازل عند الأبواب أو في حفلات السينما لفترات ما بعد الظهر، من أجل قبلات ومداعبات) - الفتاة الشقراء ذات البشرة الرقيقة كصدفة اللؤلؤ، والعينين الزرقاوين بلون السماء.

«من هي؟ سأل مستفسراً.

- جيروزا، حفيدة الكولونيل راميرو، ابنة الدكتور ألفريدو.»

ابتسم موندينيو. بدت له الفكرة مسلّية. كانت مراهقة رائعة الجمال، إلى جانب عمها والدونا أولغا. فانتظر موندينيو أن تبدأ الاوركسترا عزفها واتجه إلى تونيكو، ولمس ذراعه:

- أتسمح لي بأن ألقي التحية على السيدة زوجتك وابنة أخيك؟

تلعثم تونيكو بالتعريف، لكنه سرعان، ما سيطر على نفسه. إنه رجل متحضر. تبادلا كلمات فيها الكثير من الودّ، وسأل موندينيو الفتاة:

«هل ترقصين؟»

أجابت بإشارة قصيرة من رأسها، مبتسمة. دخلا الحلبة. وكانت الحماسة شديدة في القاعة إذ إن بعض الأزواج الذين كانوا يستديرون ليتمكنوا من الرؤية بشكل أفضل، أضاعوا نسق خطاهم. فازداد همس السيدات، ونزل أناس من الطابق العلوي للمشاهدة.

«إذن، أنت هو الغول أيها السيد؟ لا يبدو عليك ذلك...»

- لست سوى مجرّد مصدّر بسيط للكاكاو. قال موندينيو ضاحكاً.

شاركت الفتاة في الضحك، واستمر الحديث.

النبأ المثير الآخر كان آنابيلا. وهي فكرة جوان فولجنسيو الذي لم يشاهدها قطّ ترقص، إذ لم يكن يختلف إلى الكباريهات. فعند منتصف الليل، بينما كانت الحفلة تمضي بحميمية أكثر، أطفئت تقريباً جميع الأضواء، وباتت القاعة شبه معتمة، أعلن آتاولفو باسوس:

«الراقصة آنابيلا، الفنانة المعروفة في الريو.»

رقصت بالريش والنقب للفتيات وللسيدات اللواتي كن يصفقن بحماسة فائقة. واعترى ريبيرينيو وهو إلى جانب زوجته، الإحساس بالنصر. وكان الرجال الحاضرون يعرفون أن ذلك الجسد الرقيق والبارع الحركة كان مخصصاً لهم، كانت ترقص له بدون رداء، وبدون ريش وبدون نقب.

أعلن الدكتور المهيب على سبيل التأكيد:

«إن إيليوس تدخل الحضارة بخطوات عملاقة. فمنذ أشهر قليلة كان الفن منبوذاً في الصالونات. وكانت تيربسيكوري الموهوبة هذه، مبعدة إلى الكباريهات، كان الفن منفياً إلى أمكنة تجمع القذارات.!

لقد انتزعت الجمعية التجارية الفن من تلك الأمكنة، وأعادته إلى حضن أكثر العائلات احتراماً. وتعالت الهتافات، ودوى التصفيق.

أساليب قديمة

وفى موندينيو أخيراً وفى بالوعد الذي قطعه إلى الكولونيل ألتينو، وقام بزيارة إلى مزارعه. ليس يوم السبت المحدد، إنما بعد أكثر من شهر وبإلحاح من النقيب. فموظف الجباية أبدى اهتماماً كبيراً لاستمالة ألتينو قائلاً إنه إذا كسبه فلسوف يحصل على تأييد مزارعين عديدين مترددين خصوصاً بعد تنفيذ دراسات المضيق.

لا يوجد شك بأن وصول المهندس - هزيمة لحكومة الولاية - هو طلق ناري محقق من قبل موندينيو. وجاء رد الفعل العنيف من آل باستوس، حيث أحرقوا طبعة من دياريو ده إيليوس، ليؤكد هذا الأمر، ففي الأيام التي تلت ذلك، حضر بعض الكولونيلات إلى مكتب المؤسسة المصدّرة، للتضامن مع موندينيو، وتقديم تأييدهم له. وكان النقيب يسطر أرقاماً في عمود، ويجمع أصواتاً على الورق. ولأنه يعرف

العادات السياسية المتحكمة، كان يدرك أن نصراً ضئيلاً لا يقدم لهم شيئاً. فإثبات أصالة النواب والمحافظ والمستشارين البلديين من قبل المجلس النيابي الإيالي، لا يمكن أن يحصل إلا بنصر وحشي، ساحق. وحتى هكذا لم يكن من السهل الحصول على هذا الاثبات. ومن أجل هذا كان يعتمد على صداقات المصدر في مركز المداولات الاتحادي، وعلى نفوذ عائلة مينديس فالكون. لكنه يجب إحراز نصر بفارق كبير، وبدون ذلك لن تُربح المعركة.

عاد الهدوء، أقلّه ظاهرياً، بعد الأحداث الأخيرة. وفي أوساط معينة في إيليوس، تزايد التعاطف مع موندينيو. وكان الناس يتخوفون من عودة الأساليب العنفية مع حريق الصحف. طالما أن آل باستوس يسيطرون، كانوا يقولون، فلن نشهد نهاية مملكة القبضايات. لكن النقيب كان يعرف أن هؤلاء التجار، وهؤلاء الشبان في المتاجر والمخازن، وهؤلاء العمال في المرفأ، لا يمثلون سوى أصوات قليلة؛ فأكثرية الأصوات تخص الكولونيلات، وخصوصاً المزارعين الكبار ومالكي المناطق الشاسعة، عرّابي أعداد كبيرة من الناس، وأسياد الآلة الانتخابية. أجل، هؤلاء هم من يقررون.

كان بيت الكولونيل ألتينو براندون في ريو دو براسو، إلى جانب المحطة، محاطاً بالشرفات، وجدرانه مكسوة بالنباتات المتعرشة، وبحديقة مكسوة بالأزهار المتنوعة ، وبالأشجار المثمرة. بدى موندينيو مفاجأ وتساءل إذا ما كان موظف الجباية على حق عندما قال إن المزارع طراز نادر في إيليوس، فهو ذو ذهنية منفتحة. فلم تتم المحافظة في تلك المنطقة على عادة إقامة البيوت الكبيرة المعروفة في مزارع قصب السكر، ومحتوياتها الغالية وترفها. ففي الحقول والدساكر، تفتقر بيوت الكولونيلات أحياناً إلى الرفاهية الفطرية. وفي المزارع ترتفع البيوت فوق أعمدة خشبية ترقد تحتها الخنازير. وعندما لا يكون الأمر كذلك، فالزريبة تكون قريبة دائماً، كدفاع ضد هجوم الأفاعي ذات السم المميت، لأن الخنازير تقتلها، فهي محصّنة ضد

السم بطبقة سميكة من الدهن. ففي عهد المشاغبات كان ثمة زهد في العيش بدأ،منذ بعض الوقت، يتلاشى في إيليوس وإيتابونا حيث بدأ الكولونيلات يشترون ويبنون مساكن جيدة، وشاليهات وحتى قصوراً. فأبناؤهم الطلاب في كليات باهيا هم الذين أجبروهم على التخلي عن عادات التقتير.

«إنه شرف كبير لنا...» قال الكولونيل وهو يقدّم له زوجته في قاعة الزوار المؤثثة جيداً، وعلى جدرانها تُرى صورتان ملوّنتان لألتينو ولزوجته عندما كانت شابة.

ثم أخذه إلى غرفة الضيافة، وهي غرفة فخمة مع فراش من الصوف وثير، وأغطية مطرزة من الكتّان ، حيث رائحة الخزامى المحروقة تعطر الجو.

«إذا كنت حضرتك لا تزال موافقاً، فإني أقترح أن نركب الخيل بعد الغداء مباشرة، ليكون لدينا متسع من الوقت لرؤية العمل في الحقول. فننام في آغواس كلاراس، وفي الصباح نستحم في النهر، ونقوم بجولة على الجياد لنرى المزرعة. ثم نتغدى طريدة هناك، ونعود إلى هنا للعشاء.

«رائع. إني موافق كلياً.»

كانت مزرعة أغواس كلاراس تقع على مسافة فرسخ من البلدة. وكان الكولونيل ألتينو يملك مزرعة أخرى أبعد منها، حيث كان ثمة غابة لم تقتلع بعد.

تعاقبت الأطباق على المائدة، سمك من النهر، طيور مختلفة، لحم العجل، لحم الخروف، لحم الخنزير، إضافة إلى ما يتناولونه في أيام الآحاد مع العائلة، حيث يقدم العشاء للمدعوين. وفي المساء (بعد أن شاهد موندينيو العمال في القطاف، في أماكن تجفيف الكاكاو الرخو، في المراكب، في رقصة الخطوات الصغيرة التي تحرك الكاكاو وتوجهه إلى الشمس) أجريا في المزرعة نقاشاً طويلاً على ضوء مصابيح الكيروسين حيث كان ألتينو يروي له قصص القبضايات وأحداث الأوقات القديمة عندما كانوا يغزون الأرض. ، اشترك بعض العمال الجالسين على الأرض في الحديث، وذكروا تفاصيل كثيرة. وأشار ألتينو إلى أحد الزنوج:

«هذا يعمل معي منذ خمسة وعشرين عاماً. فقد حضر إلى هنا للاحتماء، كان أحد اتباع آل بادارو. ولو وجب عليه أن يعاقَب على الرجال الذين قتلهم، فلن يكفيه عمره كله.

إبتسم الزنجي مظهراً أسنانه الناصعة، وهو يمضغ قطعة من التبغ، ويداه مليئتان بالثآليل، وقدماه مغطتان بطبقة مؤلفة من العسل الجاف للكاكاو:

- ما الذي سيفكره الشاب عني سيدي الكولونيل؟

أراد موندينيو أن يتحدث في السياسة، ليكسب المزارع الثري إلى جانب قضيته. لكن ألتينو تجنب الموضوع، إنما أشار فقط - وهذا خلال الغداء في ريو دو براسو - إلى الحريق الذي أضرم في مطبعة دياريو ده إيليوس. وكي يعلن رفضه قال:

«عمل مؤسف جداً... كان هذا ملائماً للزمن الذي قد مضى، والحمد لله. فأمانسيو رجل طيب، لكنه عنيف كالشيطان، ولا أدري كيف بقي حياً حتى الآن. لقد جُرح ثلاث مرات في المشاغبات، وصار بعين واحدة، وذراع واحدة. ولا تمكن معالجته. وميلك تافاريس أيضاً لم يكن يتحمل المزاح، هذا من دون أن نتكلم على جيزوينو، يا للمسكين... إن أحداً ليس حرّاً بأن يقترف مصيبة، فليس لدى جيزوينو وسيلة أخرى، لكن لماذا جاء الآن ليتورّط في إحراق جريدة؟ إنه عمل مؤسف جداً...»

«لكن لتعذرني، قال وهو يبحث عن الحسك في السمك، إذا قلت لك بأنك أنت أيضاً، لم تتصرّف بشكل صحيح. هذا هو شعوري.

- لماذا؟ لأن الجريدة كانت عنيفة؟ فالحملة السياسية لا تخاض بتوجيه الإطراءات إلى الخصوم.

- القول بأن جريدتك ملتزمة، هذا أكيد: ثمة مواضيع يتمتع المرء بقراءتها... فقد بلغني أن الدكتور هو الذي يكتبها، وهذا لديه دماغ في رأسه أكثر من إيليوس بأسرها. وهو رجل ذكي!... أنا أحب الاستماع إليه وهو يتكلم. حول هذه النقطة أنت

مصيب. فالجريدة هي لشتم العدو وسحقه. هذا مؤكد، حتى أني قد اشتركت فيها. إنما أنا لا أتكلم على هذا، كلا.

- عمّ تتكلم، إذن؟

- يا سيد موندينيو، إحراق الجريدة كان عملاً مؤسفاً جداً. لا أؤيده، كلا. لكن ما داموا قد أحرقوها، فقد كنت أمام الحائط، مثل جيزوينو، هل كان يريد قتل زوجته؟ إنه لم يكن يريد ذلك. لكنها وضعت له قروناً، فكان عليه أن يقتلها، وإلا ظلّ مجللاً بالعار كحصان مخصي في السهل، كعجل يجرّ عربة. فلماذا لم تحرق حضرتك جريدتهم، ليس الأعداد، إنما المؤسسة، لماذا لم تفجّر الآلات؟ أعذرني، هذا هو الذي كان ينبغي أن تفعله ، وإلّا فإنهم سيقولون إن حضرتك رجل طيب وما يتبع ذلك، في حين أن حكم إيليوس وإيتابونا يلزمه رجل قوي وحاسم، وليس رجلاً يحني رأسه.

- أيها الكولونيل، لست جباناً، بوسعك أن تؤمن بذلك، لكن مثلما قلت يا سيدي، إن هذه الأساليب تتوافق مع زمن مضى. ومن أجل تغييرها بالضبط والانتهاء منها، ولجعل إيليوس بلداً متحضراً، انغمست في السياسة. وفوق هذا، أين أعثر على القبضايات، فأنا لا أملكهم.

- حسناً، لا تقل هذا... فلديك أصدقاء، أناس عازمون مثل ريبيرينيو.أنا نفسي أعددت بعض الرجال قائلاً: من يدري، قد يحتاجهم السيد موندينيو، ويطلب مني استعارتهم...»

كان هذا هو كل ما تحدثا به حول السياسة. لم يكن موندينيو يعرف بماذا يفكر. فلديه انطباع بأن الكولونيل يعامله كطفل، يتسلّى به. وفي الليل حاول موندينيو في الحقل، أن يسوق الحديث إلى السياسة، فلم يجب ألتينو، تكلم على الكاكاو. عاد إلى ريو دو براسو، بعد غداء شهي حيث قدم لحم طرائد متنوعة، كوتيا، باكا، وعول، ولحم من أشهى الأنواع، جميعها، عرف موندينيو في ما بعد، أنه لحم القرد من فصيلة جوبارا. وفي الدسكرة كان ثمة عشاء رائع مع مزارعين وتجار والطبيب والصيدلي

والكاهن وبقدر ما وجد أشخاص يتمتعون ببعض الأهمية في المحلة. واستدعى ألتينو عازفي الهارمونيكا والكمان، ومرتجلي المحاورات الزجلية، وبينهم أعمى مدهش في إيقاع القافية. وسأل الصيدلي موندينيو كيف تجري السياسة. ولماذا لم يكن لديه وقت ليجيب قاطعه ألتينو بفظاظة:

– إن السيد موندينيو جاء إلى هنا للزيارة وليس من أجل الخوض في السياسةثم تحدث في أمر آخر».

عندما عاد المصدّر يوم الاثنين، تساءل عما كان يدور في رأس الكولونيل ألتينو براندون هذا؟ فقد قدم هو بنفسه ليبيعه الكاكاو، أكثر من عشرين ألف طنّ، متجاهلاً ستيفنسون. وكان ذلك بالنسبة إلى موندينيو مشروعاً تجارياً من الدرجة الأولى. ولم يكن للكولونيل التزامات كبيرة مع آل باستوس، ومع هذا لم يشأ سماع كلام عن السياسة. فإما أنه، موندينيو، لم يفهم شيئاً، وإما أن العجوز مجنون. هل يريده أن يضرم النار في المباني ويدمِّر الآلات وربما يقتل بشراً.

كان النقيب يؤكد له أنه لا يفهم شيئاً عن الكولونيلات وعن طريقة تعاملهم وتصرفهم. وحول اقتراحه الثأر من جريدة الجنوب وحرق أعداد دياريو ده إيليوس السخيف، قال مفكراً:

«إنه ليس مخطئاً قط، وقد فكرت بهذا انا أيضاً. فالحقيقة هي أن هؤلاء الناس التابعين لآل باستوس محتاجون لدرس. لشيء ما يظهر للشعب هنا أنهم لم يعودوا أصحاب البلاد كما في السابق. لقد فكرت بهذا طويلاً، حتى إني تحدثت مع ريبيرينيو.

– حذار ايها النقيب! دعنا لا نرتكب حماقةً. إننا سنرد على أعمال العنف بتأمين الجرّافات والقاطرات للمضيق.

– ومتى سينتهي مهندسك هذا من الدروس ويأمر باستقدام الجرّافات؟ لم أرَ مثل هذه المماطلة وهذا التأخير في حياتي...

– الأمر ليس سهلاً، إنه يتطلّب أياماً معدودة. إنه يعمل طوال النهار ولا يضيع دقيقة واحدة، ليس بالوسع الإسراع أكثر من ذلك.

- إنه يعمل نهاراً وليلاً، نهاراً في المضيق، وليلاً عند بوابة ميلك تافاريس. فقد افتتن بابنته، إنه حب لصيق... قال النقيب:وهو يبتسم.

- من حق هذا الشاب أن يتسلّى...

بعد أسبوع تقريباً من زيارة ريو دو براسو، لمح موندينيو فيما هو خارج من أحد اجتماعات المديرية في نادي التقدم، الكولونيل ألتينو، من الخلف، عند مقربة من بيت راميرو باستوس. ولمح أيضاً الشقراء جيروزا في النافذة. فرفع قبعته، وحيّاها بإشارة من يده. فقد بدا في الأمر نوع من الفكاهة، ، لأن ريبيرينيو، عشية اليوم السابق، طَرد من غواراسي، وهي قرية قريبة من المزرعة، وكيل آل باستوس وهو موظف في المحافظة. وقد وصل الرجل إلى إيليوس وهو في ذروة البؤس مسحوقاً، مرتدياً ثياباً مستعارة، واسعة جداً على جسمه، حيث كان عليه أن يسلك الطريق سيراً على قدميه وعارياً كدودة...

عصفور السوفريه

لم يعد بوسع نسيب الاستمرار، وقد فقد الاطمئنان والبهجة ومذاق العيش. تخلّى حتى عن فتل طرفَي شاربيه المتدليَين الآن فوق فمه حيث غابت ضحكته. كان دائم التفكير. ولا شيء مثله يستهلاك الرجل، وينتزع منه النعاس والشهية ويجعله هزيلاً وسمجاً ومكتئباً.

شبك تونيكو باستوس ذراعيه فوق طاولة البيع، فقدّم له نسيب مشروبه المر، وتطلّع ساخراً من هيئة صاحب الحانة المسحوق:

«أنت تتهاوى أيها العربي. تبدو لي شخصاً آخر.

أومأ نسيب برأسه موافقاً ومحبطاً، وعيناه الواسعتان مسمّرتان على الكاتب العدل الأنيق. فقد ازداد تقديره لتونيكو في الأوقات الاخيرة هذه. كانا دائماً صديقين، إنما بعلاقات سطحية، وأحاديث عن نساء الحياة، والذهاب إلى الكباريه، والكؤوس

التي يتناولانها معاً. وفي الفترة الأخيرة، وبالأحرى منذ ظهور غابرييلا، نشأت بينهما حميمية أكثر عمقاً. فمن بين جميع الذين يختلفون إلى الحانة يومياً لتناول الكؤوس الفاتحة للشهية، كان تونيكو هو الوحيد الذي يبقى رزيناً عندما كانت عند الظهيرة والزهرة وراء أذنها. كان يحييها بتهذيب، ويسألها عن صحتها، من دون أي كلمات مهموسة، ولا يحاول أن يمسك يدها. كان يعاملها كأنها سيدة محترمة، جميلة ومرغوبة إنما غير سهلة المنال. عندما وظفها نسيب كان يخشى منافسة تونيكو أكثر من أي رجل لآخر . ألم يكن الغازي الذي لا منافس له، وملوع القلوب؟

العالم هكذا، مخيب للأمل وصعب. فتونيكو كان يحافظ على رزانة واحترام رفيعين في حضور الفاتنة غابرييلا. والجميع كان يعرف علاقات العربي مع الخادمة الرائعة الجمال. والحقيقة إنها، رسمياً، ليست أكثر من طاهيته، ولا يوجد أي التزام آخر بينهما. ما شكل ذريعة ليمطروها، حتى أمام ناظريه، بالكلمات العذبة، ويحيطوها بالعبارات المعسولة، ويضعون في يدها قصاصات الورق. لقد قرأ القصاصات الأولى بانزعاج، ثم طواها ككرة ورق وألقاها مع النفايات. أما الآن فهو يمزقها بغضب. كانت تزداد باطراد ، حتى أن بعضاً منها كانت تتجاوز حدود اللياقة. لكن تونيكو، أثناء ذلك، قدّم له برهاناً لصداقة حقيقية، محترماً إيّاها كأنها سيدة متزوجة، زوجة كولونيل. إذا لم تكن تلك صداقة فهي دلالة تقدير؟ فنسيب لم يهدده كما فعل معه الكولونيل كوريولانو بشأن غلوريا. ومع هذا، فتونيكو وحده لم يكن مصدر شكوى بالنسبة إليه. وله فقط فتح قلبه المتألم كشوكة غليظة.

«أسوأ ما في هذه الدنيا، سوء التصرف.

– أين هي الصعوبة؟

– ألا تراها؟ إني أتآكل في داخلي، وهذا يأكل لحمي. صرت كالأبله. يكفي أن أقول لك إني نسيت في الأمس أن أدفع سنداً، فتأمل كيف صرت...

– العشق ليس مزاحاً...

- العشق؟

- أليس كذلك؟ فالحب هو أفضل وأسوأ ما في الدنيا.»

العشق... الحب... كان يناضل ضد هاتين الكلمتين خلال أيام وأيام، إذ كانتا تسيطران على تفكيره عند ساعة القيلولة. وهو لا يريد أن يقيم مدى مشاعره، ويعترف بالواقع كما هو. كان يعتقد أن المسألة مجرد مغازلة أقوى من المغازلات الأخرى، ويلزمها وقت أطول أطول، لكي تزول. لكنه لم يسبق أن عانى من مغازلة كما يعاني الآن. كما لم يسبق أن شعر يوماً بمثل هذه الغيرة، وبمثل هذا الخوف والرعب من افتقادها. وهذا الرعب المثير لم يكن من البقاء بدون الطاهية الشهيرة التي بيديها السحريتين يكمن القسم الأكبر من نجاح الحانة الحالي. إنه لم يعد يفكر بهذا الشأن، فهذه الأمور المقلقة دامت وقتاً قصيراً. وهو بالذات قد فقد الشهية، وصار ضجراً بشكل مخيف...والذي يحدث هو أنه أصبح من المحال أن يتصوّر أنه سيبقى ليلة واحدة من دون غابرييلا، من دون حرارة جسدها. حتى في الأيام التي لم يكن ممكنا ممارسة الجنس فيه معها، كان ينام في سريرها، فتحتضنه إلى صدرها، وينساب عطر القرنفل في أنفه.

في تلك الليالي لم يستطع أن ينام، كان يتمدد كابتاً رغبته لليالي الزفاف الحقيقية التي تتجدد كل شهر. فإذا كان هذا ليس حباً، عشقاً يائساً، فماذا يمكنه أن يكون ؟ وإذا كان حباً، وإذا استحالت الحياة من دونها، فما هو الحل؟ فـ«كل امرأة حتى الأكثر وفاءً لديها حدود». قال له نيوغالو، وهو رجل صاحب مشورة، والآخر صديقه أيضاً. ليس رصيناً مثل تونيكو، إذ كان يرمق غابرييلا بعينين مستجديتين. لكنه لم يتجاوز ذلك، ولم يقدم لها عروضاً.

«يجب أن يكون الأمر هكذا. سأقول لك يا تونيكو. بدون هذه المرأة لا أستطيع العيش سأصبح مجنوناً إذا تركتني...

- وما الذي ستفعله؟

- لا أدري...»

كان وجه نسيب حزيناً. فقد أضاع ذلك الشباب المشرق على الوجنتين السمينتين. بدا طويلاً مغتماً، جنائزياً تقريباً.

- لماذا لا تتزوج بها؟

وانتفض تونيكو فجأة، كأنه يخمّن ما بداخل قلب صديقه.

- إنك تمزح؟ لا يُمزح بهذا الأمر....

نهض تونيكو، وطلب وضع كؤوس الشراب المر على حسابه، وقذف بقطعة نقدية لشيكو التي التقطها:

- لو كنت مكانك، لكان هذا ما أفعله...

في الحانة الخاوية، كان نسيب يفكر. ماذا بوسعه أن يفعل غير ذلك؟ فقد أصبح بعيداً ذلك الزمن الذي كان يعود فيه إلى غرفته ضجراً، تعباً من ريزوليتا ونساء أخريات. الزمن الذي كان يعطيها،على سبيل الدفع، دبابيس للصدر بقيمة عشرة قروش، خواتم رخيصة ذات فصوص من الزجاج. أما الآن فإنه يقدم إليها هدايا، مرة أو مرتين في الأسبوع: قطعاً من القماش لأثوابها وقوارير العطر ومناديل للرأس وخواتم وسكاكر من الحانة. لكن ما قيمة كل ذلك أمام عرق منزل مجهز، وحياة ترف بدون عمل، كمثل غلوريا التي تنفق الأموال في المتاجر، وترتدي أفضل من الكثير من السيدات، من زوجات رجال أثرياء؟ كان يجب أن يقدّم لها شيئاً أسمى، شيئاً أكثر أهمية، قادراً على تحطيم عروض القاضي ومانويل داس أونساس، وريبيرينيو الذي بات الآن فجأة من دون آنابيلا. فقد رحلت الراقصة، لأن تلك البلاد كانت تخيفها. فالخوف الذي أثاره ضرب موظف المحافظة الذي كان ريبيرينيو متورطاً فيه، والذي ينذر بأحداث أكثر خطورة جعلتها تتخذ هذا القرار. فأعدت حقائبها خلسة، وابتاعت خفية بطاقة

سفر على متن باخرة تابعة للشركة الباهيانية وغادرت بعد أن ودعت موندينيو فقط. فقد ذهبت إلى بيته عشية سفرها، فأعطاها مليون كونتو. كان ريبيرينيو في الحقل، ولم يعرف بالخبر إلا عند عودته. وقد أخذت معها خاتماً من البرلنتي وسلسلة من الذهب ومجوهرات تساوي أكثر من عشرين كونتو. في الحانة علّق تونيكو:

«أصبحنا أرملين أنا وريبيرينيو. فقد حان الوقت ليدبِّر لنا موندينيو أمراً آخر....»

عاد ريبيرينيو إلى غابرييلا، فالبيت عنده جاهز وما عليها إلا أن تقرر. وسيعطيها أيضاً خاتماً من البرلنتي وسلسلة من الذهب. كان نسيب يعرف كل هذا. فالدونا آرميندا، أخبرته كل شيء ليس دون أن تمدح جارتها:

- ما رأيت امرأة مستقيمة مثلها قط... فتأمّل. إن هذا يجعل أيّة امرأة تفقد رأسها. لا بد وأنها مغرمة. لديها حب لشخص أكثر من حبها لنفسها. فأية امرأة غيرها كانت لتتدثر بالترف أكثر من أميرة...»

لم يكن يشك بمشاعر غابرييلا. ألم تقاوم كأن لا شيء يهمها؛ كل الوعود والعروض؟ كانت تضحك منهم، فلا تغضب حينما يلمس يدها الأكثر جرأة من بينهم، ويمسكها من حنكها. ولا كانت تعيد الرسائل التي يوصلنها اليها. لم تكن فظة بل كانت تعبر عن شكرها لكلمات الثناء. لكنها لم تكن تكترث لأحد، ولا تتذمّر، ولا تطلب منه شيئاً. تقبل الهدايا وهي تصفّق بيديها، بابتهاج. أولم تكن تغرق كل ليلة بين ذراعيه، ملتهبة، لا تمل، جاهزة للتكرار، وهي تناديه «سيدي الشاب الجميل ؟

«لو كنت مكانك، لكان هذا ما أفعله»... من اليسير الكلام عندما يتعلق الامر بالآخرين. لكن كيف يتزوج من غابرييلا وهي طاهية خلاسية بلا عائلة، بلا أصل، عثر عليها في «سوق العبيد»؟ الزواج لا يكون زواجاً، إلّا من آنسة ذات جهاز محترم ونشأة راقية وعذرية لم تمس. ماذا سيقول عمه وعمته الفاقدة للصبر وأخته وصهره المهندس الزراعي المتحدر من أسرة صالحة؟ ماذا يقول آل أشقر، أقاربه الأثرياء،

ملّاكو الأرض والآمرون في إيتابونا؟ وأصدقاؤه في الحانة. موندينيو فالكون، أمانسيو ليال، ميلك تافاريس،الدكتور، النقيب، الدكتور ماوريسيو، الدكتور إيزكييل؟ ماذا تقول المدينة؟ إن مجرد التفكير بذلك مستحيل، عبث. ومع هذا، كان يفكر بذلك.

حضر إلى الحانة، ذات يوم، فلّاح يبيع عصافير. وكان في القفص عصفور السورفيه ، يطلق تغريده الحزين والحنون. جميل وقلق، بلونيه الأسود والأصفر لم يتوقف لحظة عن الغناء. وارتفعت ارتعاشات غنائه. كان الاستماع إليه عذباً. فبدا له أثر على وجهي شيكو موليزا وبيكو فينو.

كان مؤكداً أنه سيفعل أقله شيئاً واحداً: سيوقف مجيء غابرييلا إلى الحانة عند الظهر. إن ذلك سيسبب الخسارة للحانة. صبراً... سيخسر نقوداً، لكن سيكون الوضع أسوأ لو خسرها هي. فقد كانت تشكل إغواءً يومياً للرجال، حضورها مثير. فكيف يمكن ألّا يحبها وألّا يشتهيها المرء حينما يراها؟ كان نسيب يتحسسها في أطراف أصابعه على شاربيه المتدلّيين وعلى جلد فخذيه، وعلى باطن قدميه. كان يبدو أن عصفور السورفيه يغني له، فغناؤه كان حزيناً جداً. لماذا لا يشتريه لغابرييلا؟ وما دامت سوف تمنع من المجيء إلى الحانة، فإنها بحاجة إلى التسلية.

إشترى عصفور السورفيه. فلم يعد بوسعه أن يفكر أكثر من ذلك ولا أن يتالم أكثر من ذلك.

غابرييلا والعصفور السجين

«أوه! ما أجمله!»

صاحت غابرييلا بصوت موسيقي لما رأت عصفور السورفيه. فوضع نسيب القفص على أحد المقاعد، وأخذ العصفور يضرب قضبان القفص بجناحيه.

«إنه لكِ... ليكون لكِ رفيقاً.»

جلس على المقعد، فافترشت غابرييلا الأرض عند قدميه.أخذت يده الكبيرة المكسوة بالشعر وقبلت راحتها في تلك الحركة التي تذكّر نسيب، ولا يدري لماذا بالضبط، ببلاد ذويه، جبال سورية. ثم أسندت رأسها إلى ركبتيه، فمرر يده على شعرها. وتابع عصفور السورفيه المطمئن، تغريده.

«هديتان دفعة واحدة... كم أنت جميل!.

– هديتان؟

– نعم، العصفور الصغير، وما أحببته أكثر مجيئك شخصياً لتقدمه لي. فعادة لاتعود إلا بعد هبوط الليل....

وسيخسرها... «كل امرأة، حتى الأكثر وفاءً لديها حدود». نيوغالو كان يريد القول: «ثمن». بدت تلك المرارة على وجهه وغابرييلا، التي رفعت عينيها لتتكلم معه، لاحظت:

«أنت حزين يا سيد نسيب... أنت لست هكذا عادة... كنت دائماً مرحاً ومبتسماً. لماذا يا سيد نسيب؟»

ماذا بوسعه أن يقول لها؟ إنه لا يعرف كيف يتصرف لكي يحافظ عليها، كي يبقيها لنفسه إلى الأبد؟ وجدها فرصة سانحة ليتكلم على الذهاب اليومي إلى الحانة.

«لديّ أمر أود أن أقوله لكِ.

– تكلم إذن يا سيدي...

– ثمة أمر لا أحبه وهو يقلقني.

جزعت:

– هل الطعام رديء؟ أم الثياب غير مغسولة جيداً؟ قالت بقلق شديد.

– لا شيء من هذا. إنه أمر آخر.

– وما هو؟

– ذهابكِ إلى الحانة. لا أحبه. وهو لا يروق لي...»

– إني أذهب لأساعدك، حتى لا يبرد الطعام. لهذا السبب أذهب. قالت بذهول.

– أنا أعرف ذلك. لكن الآخرين لا يعرفونه...

– إيه نعم. أنا لم أفكر بهذا... وجودي في الحانة عمل غير ملائم، أليس كذلك؟ فالآخرون لا يحبون ذلك، طاهية في الحانة... لم أفكر بهذا، كلا.»

فأجاب منتهزاً الفرصة:

– هذا هو بالضبط. بعضهم لا يحفلون فيما البعض الآخر يحتجون.

أصبحت عينا غابرييلا حزينتين. وعصفور السورفيه راح يصرخ بصوت عال، ويغرد تغريدات تمزق الاحشاء. وعينا غابرييلا أصبحتا حزينتين جداً.

– أي سوء أتيته؟

لماذا يعذبها، لماذا لا يقول لها الحقيقة فيخبرها عن غيرته، ويفصح لها عن حبه، ويناديها «بيبي»، كما كان يرغب وكما كان يناديها في تفكيره؟

«ابتداء من نهار غد سأفعل ما يلي: سأدخل من الجناح الخلفي لأقدم لك الطعام فقط. لن أظهر لا في القاعة ولا حتى في الجانب الخارجي.»

ولم لا؟ هكذا يمكنه أن يراها باستمرار، أن يشعر بها إلى جانبه، أن يلمس يدها، وفخذها، ونهدها. يلتصق بها، يلمس يدها، ساقها، نهدها. ألا يساوي حضورها شبه الخفي إجابة سلبية عن العروض المغرية، والكلمات المعسولة؟

– أتحبين الذهاب إلى الحانة؟

– أشارت برأسها أن نعم. كانت تلك ساعة نزهتها وحريتها. كانت تحب المسير تحت الشمس والقصعة ذات الطبقات بيدها، والمشي بين الطاولات، وسماع الكلمات التي تتغزل بجمالها، والإحساس بالنظرات الزاخرة بالنوايا! ليس من الرجال العجائز. وليس العروض بتقديم منزل التي كان يقدمها الكولونيلات. كانت تحب أن تشعر أنها محط للأنظار مرغوبة ومرحب بحضورها. كان ذلك نوع

من التحضير لليل، الذي يشعرها وكأنها محاطة بجو من الرغبة. وفيما هي بين ذراعي نسيب تستعيد رؤية الشبان الجميلين: السيد تونيكو، السيد جوزويه، السيد آري، السيد إيبامينونداس ومحاسب المتجر. هل أحدهؤلاء كان ليتذمر؟ لم تكن تعتقد ذلك. إنما أحد أولئك الرجال العجائز القبيحين، الغاضبين لأنها لم تعيره أي انتباه.

«حسناً، بوسعكِ إذن الذهاب. لكنكِ لن تقومي بالخدمة، بل ستبقي جالسة وراء طاولة البيع.»

ستحظى أقلّه بالنظرات والابتسامات، ثم لا بد من أن يتقدم أحد من طاولة البيع ليكلمها.

«سأعود...» أعلن نسيب.

- بهذه السرعة...

- كان يمكن ألّا آتي...»

أحاطت غابرييلا بساقي نسيب وجمدتهما. فهو لم يضاجعها في النهار قطّ، كان يقوم بذلك دائماً في الليل. أراد النهوض، فتمسكت به صامتة وشاكرة.

«تعالي إلى هنا... هنا...»

جذبها نحوه... كانت هي المرة الأولى التي يمتلكها في غرفة نومه، وعلى سريره، كأنما هي زوجته وليست طاهيته. وعندما نزع عنها فستانها الهندي وتدحرج جسدها العاري فوق السرير مظهراً نهدين صلبين وردفين ممتلئين، وعندما أمسكت برأسه وقبلت عينيه، عندئذ سألها وتلك المرة الأولى:

«قولي لي: هل تحبينني كثيراً؟»

خرجت ضحكتها كغناء عصفور، زغردة مستمرة:

- يا للشاب الجميل... أحبك كثيراً...

كانت غابرييلا مستاءة من قصة ظهورها في الحانة. لماذا يتركها تتعذب، ولا يصارحها بالحقيقة؟

– لم يحتجّ أحد على حضورك في الحانة. فأنا هو من لا يريد. لهذا أنا حزين. الجميع يكلمك. وكلهم يقولون لكِ سخافات، يمسكونكِ من يدك، ولا يبقى إلا أن يجذبوك إلى هناك ويلقوك أرضاً...»

ضحكت، إذ وجدت ذلك مسلياً:

– لا تكترث... فأنا لا أصغي إليهم...

– حقاً؟»

جذبته غابرييلا إليها، فغطس بين نهديها وهمس: «بيبي»... وفي لغة الحب عنده، التي كانت عربية، قال لها وهو يحتضنها: من اليوم وصاعداً أنتِ «بيبي»، وهذا هو سريركِ، وهنا ستنامين. فأنت لستِ طاهية على الرغم من أنكِ تطهين. فأنتِ سيدة هذا المنزل، شعاع الشمس، ضوء القمر، ركن العصافير. أنتِ تدعين «بيبي!»....

– «بيبي» اسم لأجنبية؟ نادني «بيبي»، تكلم معي بعد بهذه اللغة... إنني أحب الاستماع إليها.

عندما غادر نسيب المنزل، جلست غابرييلا أمام القفص. السيد نسيب كان ودوداً، قالت لنفسها، وهو يغار عليها. ابتسمت وهي تدخل إصبعها بين قضبان القفص. جزع العصفور وهرب. إنه يغار، أمر غريب... هي لم تكن تشعر بالغيرة، وإذا شاء، فإنه يستطيع الذهاب مع امرأة أخرى. في البداية هكذا، إنها تعلم ذلك. يرقد معها ومع غيرها، إنها لا تبدي اهتماماً. يستطيع الذهاب مع امرأة أخرى. ليس بقصد البقاء، إنما بقصد النوم معها فقط. لدى السيد نسيب غيرة. أمر مضحك! ماذا ينقص منها إذا ما لمس جوزويه يدها؟ أو السيد تونيكو، الشاب الجميل، البالغ الرصانة على مرأى من السيد نسيب، مع أنه يحاول، من وراء ظهره، تقبيل عنقها؟ وإذا طلب السيد إيبامينونداس موعداً منها، أو أعطاها السيد آري سكاكر، وأمسك بها من ذقنها؟ فقد كانت كل ليلة، تنام معهم جميعاً، ، معهم ومع الذين قبلهم أيضاً، ما عدا خالها، عندما كانت بين ذراعي نسيب. مرة مع واحد منهم، وأخرى مع آخر، ولكن غالباً مع الشاب

بيبينو ومع م. تونيكو. لقد كان مجرد التفكير بذلك أمراً ممتعاً. كم هو جميل الذهاب إلى الحانة، والمرور بين الرجال. كانت الحياة جميلة، يكفي أن تعيشها: أن تتدفأ بأشعة الشمس، وتأخذ حماماً بارداً. أن تمضغ ثمرة الغوايابا وتأكل المنغا المشرّحة، وتقضم الفلفل، وتمشي في الشوارع، وتنشد القصائد الرباعية، وتنام مع شاب، ثم تحلم بشاب آخر.

«بيبي»، أحبت الاسم. فالسيد نسيب عظيم جداً، من كان يقول؟ حتى في الساعة التي يتكلم فيها لغة الأجنبي... تحرقه الغيرة... كم هذا مضحك! إنها لا تريد أن تجرح شعوره، فقد كان رجلاً طيباً جداً معها! لتكن حريصة فإنها لا تريد التسبب له بالألم. إنما لا تستطيع البقاء من دون الخروج من البيت، من دون الذهاب إلى النافذة، من دون المشي في الشارع. أن تبقى بفم مطبق وضحكة خامدة، من دون سماع صوت الرجل والتنهد المخنوق وإشعاع العيون. «لا تظلمني يا سيد نسيب، فلن أقوى على ذلك».

كان العصفور يضرب قضبان القفص. منذ متى هو سجين؟ ليس منذ زمن طويل، بالتأكيد. فلم يتسن له الوقت ليعتاد على ذلك. من يمكنه أن يعتاد على العيش سجيناً؟ كانت تحب الحيوانات، تمنحها صداقتها. هررة، كلاب، حتى دجاج. في قريتها،كان لديها ببغاء في الحقل، تحسن الكلام. ماتت جوعاً قبل خالها. إنها لا تريد عصفوراً سجيناً في قفص أبداً. إنه يجلب لها الأسى. لكنها لم تفصح عن ذلك كي لا تجرح شعور السيد نسيب. لقد أراد أن يقدم لها هدية، رفقةً في البيت، سورفيه مغرّداً. كان غناؤه محزناً جداً، والسيد نسيب حزين أيضاً. إنها لا تريد جرح شعوره، عليها أن تكون حذرة. لا تريد أن تسبب له ألماً، ستقول له إن العصفور قد هرب.

مضت إلى الفناء، وفتحت القفص أمام شجرة الغوايابا. كان الهرّ نائماً، فطار عصفور السورفيه مرفرفاً بجناحيه، مغرّداً لها. كانت ارتعاشاته واضحة ومرحة!

ابتسمت غابرييلا، واستيقظ الهرّ.

المقاعد ذات المتكآت المرتفعة

المقاعد الثقيلة النمساوية، ذات المتكآت المرتفعة السوداء والمستديرة، والجلد المعالج بالنار، بدت كأنها معلّقة هناك لتكون مرئية ومعجباً بها، وليس للجلوس عليها. وبالنسبة إلى أي شخص آخر، فإنها تخيفه. وأبدى الكولونيل ألتينو براندون، وهو واقف، دهشته مرة أخرى إزاء القاعة. فعلى الجدار كما في منزله، صورتان ملونتان - إنجازات من صناعة سان باولو المزدهرة - للكولونيل راميرو وزوجته المتوفاة، ومرآة بين الاثنتين. وفي كل ركن يوجد تجويف فيه قديسون. وفي مكان الشموع، مصابيح كهربائية صغيرة، زرقاء، خضراء، حمراء، شيء بالغ الجمال. وفي الجدار الآخر، حُصر صغيرة يابانية من الخيزران، حيث تُرى فيها بطاقات بريدية، وصور أقارب وطوابع. وفي عمق الغرفة، بيانو مغطى بشال أسود عليه رسوم أزهار بلون الدم.

عندما حيّا ألتينو جيروزا، من الرصيف، وسألها إذا كان الكولونيل راميرو باستوس موجوداً ويمكن أن يمنحه دقيقتين، أدخلته الفتاة إلى الممشى الذي يفصل بين الغرفتين الأماميتين. هناك سمع الحركة تتزايد في المنزل: كانوا يسحبون مزاليج النوافذ ويعرّون المقاعد المحمية بأغطية من القماش، والمكنسة ومنفضة الريش. تلك الغرفة تُفتح في أيام العيد فقط، عيد ميلاد الكولونيل، ذكرى تسلم المحافظ الجديد سلطاته، واستقبال السياسيين المعروفين في باهيا، أو في زيارة غير عادية ومعتبرة جداً.

ظهرت جيروزا في الباب، ودعته إلى الدخول:

- هل تريد الدخول، أيها الكولونيل؟

كان نادراً ما يجيء إلى بيت راميرو باستوس، ودائماً في أيام الاحتفالات. ومن جديد أبدى إعجابه بالغرفة المترفة، فهي برهان واضح على ثراء الكولونيل وسلطانه.

«جدي سيأتي حالاً...»

ثم ابتسمت جيروزا وانسحبت بانحناءة من رأسها. «فتاة جميلة، حتى إنها تبدو أجنبية لشدة ما هي شقراء، وبشرتها البيضاء التي تبلغ حد الزرقة. إن موندينيو فالكون هذا غبي. لماذا كل هذه المشادات إذا كان بالإمكان حل كل شيء بهذه السهولة؟»

سمع خطوات راميرو باستوس المجرجرة، فجلس.

«حسناً، تحية! أي معجزة هذه؟ لمن أنا مدين بهذا الشرف؟»

تصافحا بالأيدي. فوجئ ألتينو بالعجوز: كيف اعتراه الوهن في الأشهر الأخيرة، منذ أن رآه للمرة الأخيرة. قبلاً كان يبدو كجذع شجرة، كأن العمر لا يترك أثراً عليه، غير مبال بالعواصف والرياح، مزروعاً في إيليوس كما لو أنه سيتحكم فيها إلى الأبد. فلم يبق له من تلك الهيبة المهيبة إلا النظرة المسيطرة. فيداه ترتجفان بسرعة وكتفاه مقوستان، وخطواته باتت مترنّحة.

- حضرتك، تبدو أكثر فأكثر صلابة.... قال ألتينو مبالغاً.

- إني أصنع من الضعف قوة، هيّا نجلس.

كان متكأ المقعد مستقيماً. قد يكون جميلاً لكنه غير مريح. كان يفضّل الكنبات الناعمة الموجودة في مكتب موندينيو، ذات الجلد الأزرق، المنجدة، والتي يغرق الجسم فيها بطراوة، وهي مريحة لدرجة أنها تنتزع من الجالس الرغبة في النهوض والانصراف.

- أعذرني على سؤالي: في أي عمر حضرتك؟

- أقترب من الثالثة والثمانين.

- عمر جميل. ليعطك الله سنوات إضافية من الحياة يا كولونيل.

- في عائلتي يموت المرء متأخراً. فجدي عاش تسعاً وثمانين سنة، ووالدي اثنين وتسعين.

- إني أذكره.

- حفيدتاك صارتا شابتين... قال عندما دخلت جيروزا حاملة فناجين القهوة.

- تزوجت متأخراً في السن، وهو ما حدث لألفريدو وتونيكو وإلا لكان عندي أولاد أحفاد، وكان يمكن أن يكون عندي حتى أحفاد أحفاد.

- لن يتأخر ابن الحفيد... مع هذه الحفيدة الرائعة الجمال...

- جائز.

عادت جيروزا مجدداً، واستعادت الفناجين، وأعطت علماً:

- جدي، وصل العم تونيكو ، ويسأل إذا كان بوسعه القدوم إلى هنا.

تطلع راميرو إلى ألتينو:

«ماذا تقول أيها الكولونيل؟ أتفضل أن نبقى لوحدنا؟

- مع سيد تونيكو لا يهم، إنه ابنك.

- قولي له أن يأتي...»

حضر تونيكو بكامل أناقته، فنهض ألتينو واندمجا في جو ودود حار. وفكر المزارع: «إنه مقرف».

- حسناً يا كولونيل، إني أراك في هذا البيت بكثير من الرضا. فأنت قلّما تحضر...

- أنا رجل غابة. لا أخرج من ريو ده براسو إلا حينما لا يكون لي خيار، ومن هناك إلى أغواس كلاراس...

- كيف المحصول هذه السنة، هيه، أيها الكولونيل؟ قال تونيكو مقاطعاً.

- ليمجّد الرب. لم أرَ كاكاو كهذا... لقد جئت إيليوس وصممت على أن أقوم بزيارة الكولونيل راميرو. فنتحدث ببعض الأمور التي أفكر فيها. ففي الحقل يفكر الناس أثناء الليل... حضرتك تعرف كيف يستغرق الناس في التفكير، وبعدها يرغبون الحديث عنها...

- كلّي آذان صاغية يا كولونيل.

- حضرتك تعرف بأني لم أشأ يوماً أن أتورط في المسائل السياسية سوى مرة

واحدة اضطرارياً. إنك تذكر عندما كان السيد فيرمو محافظاً، كانوا يريدون دس أنوفهم في ريو ده براسو، ويعينون فيها ممثلاً للسلطة. فجئت لأتكلم معك في تلك المناسبة...

تذكّر راميرو الحادثة. مفوض الشرطة وهو أحد رجاله، نقل نائب مفوض ريو ده براسو المحمي من قبل ألتينو، وعيّن مكانه عريفاً في الشرطة العسكرية. فحضر ألتينو إلى إيليوس، ليحتج لدى راميرو. تعود هذه الحادثة إلى حوالى اثني عشر عاماً. كان يريد نقل العريف، وإعادة محميّه إلى مركزه. وقد وافق راميرو. لقد تم ذلك الاستبدال من دون أن يستشار، ومن دون موافقته، حينما كان يمارس وظيفته في مجلس الشيوخ في باهيا.

«سأستدعي العريف.» قال واعداً.

– لا لزوم لذلك. فقد عاد في القطار ذاته الذي عدت أنا فيه، يبدو أنه يخشى البقاء. لست أدري تماماً لماذا، فلست واقفاً على جلية الأمر بشكل كافٍ. لكني سمعت أنهم فعلوا بعض الأمور المضحكة معه، صبيان. وأفكر بأنه لا يريد العودة. فمن الضروري إلغاء التعيين، وإعادة إشبيني مجدداً. فالسلطة بلا قوة لا تساوي شيئاً...»

وهكذا تم ذلك. وتذكّر راميرو الحديث الصعب. فألتينو هدد بالقطيعة، وبتأييد المعارضة. فماذا يريد الآن؟

«واليوم أعود مجدداً لأتدخل بما لا يعنيني. فلم يطلب مني أحد أن أقدم قسماً. لكني أبقى في حقلي، أفكر دائماً في الأمور التي تحدث في إيليوس. وحتى إذا لم يتدخل الناس فالأمور هي التي تتداخل مع الناس. ولأنه، في النتيجة، من يدفع تكاليف السياسة؟، هم المزارعون أنفسهم الذين يعيشون في الحقل يقطفون الكاكاو. ولهذا أنا قلق...

– ما الذي تفكر فيه بصدد الوضع؟

- أفكر بأنه سيىء. فحضرتك كنت دائماً محترماً. منذ سنين عديدة وأنت الزعيم السياسي وهذا ما أنت جدير به. من يجرؤ على نكران ذلك؟ فلن ينكر أحد، لينجني الرب.

- الآن، إنهم ينكرون. حتى إنهم ليسوا أناساً من هنا. رجل غريب جاء واندس في إيليوس ولا أحد يعرف لماذا. وشقيقاه اللذان هما رجلان مستقيمان أخرجاه من مؤسستهما، ولا يريدان حتى مجرد رؤية وجه هذا المرتد. لقد جاء ليقسّم ما كان متحداً، جاء يجزّئ ما كان مجتمعاً. إذا حاربني النقيب فهذا معقول، إذ حاربت أباه وأسقطته من الحكومة. فلديه أسبابه، ولهذا لم أتخلّ قطّ عن التعاطي معه، عن تقديره. لكن على السيد موندينيو هذا أن يقنع بالمال الذي يجنيه. فلماذا يحشر أنفه في هذا؟»

أشعل ألتينو لفافة بورق مصنوع من الذرة، ومر بنظره على مصابيح تجويف القديسين:

«إضاءة ممتازة، هناك في بيتي صور بعض القديسين المكرَّمين من قبل سيدة المنزل. فهي تنفق شموعاً بشكل لا يحصى. سوف أوصي بوضع بعض الأضواء الشبيهة بهذه. إن إيليوس بلد غريب أيها السيد الكولونيل. ومن نحن بالضبط؟ لا أحد منا ولد هنا. والناس ههنا ماذا يساوون؟ الدكتور تيرانتي رجل لامع، أما الآخرون فهم الفضلات؛ إنهم لا يصلحون إلا كنفايات. ولهذا نقول إننا سكان المدينة الأوائل، وأبناؤنا هم الذين من إيليوس. عندما وصلنا إلى هذه الغابة المخيفة، ألم يكن بوسعهم أيضاً القول إننا لسنا أكثر من غرباء؟

- إني لا أتكلم لأسبب لك الإهانة. أعرف أيها السيد أنك بعته إنتاجك من الكاكاو. لم أكن أعرف أنكما صديقان، ولهذا تكلمت. بيد أني لا أتراجع. وما قلته قد قيل. فلا تقارن نفسك به أيها الكولونيل. أنا لا أقارن نفسي به. لقد جئنا إلى هنا عندما كان هذا الذي هنا لا يزال لا شيء. والأمر كان مختلفاً. فكم مرة خاطرنا بأرواحنا،

ونجونا من الموت؟ وأسوأ من هذا، كم مرة أمرنا بانتزاع حياة الآخرين؟ ألا يساوي هذا، إذن، شيئاً؟ فلا تقارن نفسك به أيها الكولونيل، ولا تقارنني به. (توقف، بجهد إرادي، صوت الرجل العجوز عن الاهتزاز والتلعثم، فكان الصوت الآمر القديم) هل جازف يوماً بحياته؟ نزل من الباخرة ومعه مال، فأقام مكتباً، يشتري ويصدّر. فأي حياة انتزعها؟ من أين جاء بحق التحكم هنا؟ إننا قد انتزعنا حقنا.

- صحيح أيها الكولونيل. كل هذا صحيح غير أنه من زمن آخر. فنحن قاسينا في العمل ولم نبدِ اهتماماً، الوقت ينصرم، والأمور تتغير. وفجأة يفتح الناس عيونهم فإذا كل شيء مختلف.»

كان تونيكو الصامت والحذر، يصغي. وهو نادم تقريباً لمجيئه إلى القاعة. وفي الممشى كانت جيروزا تعطي الأوامر للخادمات.

«ما هو الاختلاف؟ إني لا أفهمك...»

- سأقوله لحضرتك. في الماضي كانت القيادة سهلة. كان يكفي أن يكون لديك قوة. لقد كان الحكم يسيراً، أما اليوم فكل شيء تبدّل. إننا كسبنا السلطان، وحضرتك قلت ذلك، بإراقة الدماء. لقد كسبت لتضمن حيازة الأراضي، وكان هذا ضرورياً. لكننا فعلنا ما كان يجب أن نفعله. وقد نما كل هذا، فإيتابونا أصبحت كبيرة جداً مثل إيليوس. وبيرانجي وآغوا بريتا وماكوكو وغواراسي تتحوّل إلى مدن. وكل واحد يريد أن يصبح دكتوراً أو مهندساً زراعياً أو طبيباً أو محامياً. الجميع يشكون. تُرى هل لا نزال نحسن القيادة، ولا يزال بالوسع ممارستها؟

- ولماذا هكذا، الإكثار من الدكاترة، الإكثار من التقدم؟ فمن صنع ذلك؟ إنه أنت أيها السيد الكولونيل، وخادمك. ليس شخصاً غريباً. الآن وقد حصل ذلك، فبأي حق يصبحون ضد من قام به؟

- نحن نغرس شجرة الكاكاو، نرعاها لتنمو، ونجني الجوز. نشطرها، ثم نضع الثمر في أماكن التجفيف، فتجف في المواعين، في المستودعات، ثم نضعها على

ظهور البغال، ونرسلها إلى إيليوس، فتباع إلى المصدّرين. الكاكاو عندما يجف تفوح رائحته، إنه أفضل كاكاو في الدنيا، ونحن الذين صنعناه. لكن هل نستطيع صنع الشوكولاته، هل نحسن ذلك؟ كان يجب أن يأتي السيد هوغو كوفمان من هناك، من أوروبا. وهكذا بالضبط يُصنع مسحوق الكاكاو. حضرتك يا كولونيل فعلت كل هذا. فكل ما لدى إيليوس، وما تساويه إيليوس، مدين لك. معاذ الله أن أنكر، فأنا أول من يعترف، لكن حضرتك فعلت كل ما تحسن فعله، وما بوسعك أن تفعله.

– وما الذي تطلبه إيليوس علاوة على ما نفعله؟ ماذا علينا أن نفعل؟ وبصراحة أقول، لا أرى هذه الحاجات، إلاّ إذا بينتها لي بإصبعك.

– سوف تراها بنفسك. إيليوس أجمل من حديقة. لكن بيرانجي وريو دو براسو وآغوا بريتا؟ إن الشعب يطالب، يفرض. فنحن قد شققنا الطرق بواسطة العمال، والمسلحين، لكن الآن تلزمنا طرق جديدة لا يستطيع القبضايات أن يشقوها. لكن أسوأ ما في الأمر هو المضيق. وهذه القصة عن المرفأ. فلماذا قاومت هذا الأمر أيها الكولونيل راميرو باستوس؟ لأن الحاكم طلب منك ذلك ؟ إن ما يريده جميع السكان، ضمان عظمة هذه المنطقة، هو أن يصدّر الكاكاو من هذا المرفأ إلى كل أنحاء العالم، أن نتوقف عن دفع تكاليف النقل إلى باهيا. ومن هو الذي يدفع ؟ إنهم المصدّرون، والمزارعون.

– لدينا التزامات. وعلى كل منا أن يفي بما تعهد به. لأن المرء إذا لم يفِ بالتزاماته، يزول احترامه. إني دائماً أفي بالتزاماتي. وأنت أيها السيد تعرف هذا. الحاكم توسل إليّ، أوضح لي الأمر. أبناؤنا في ما بعد سيقيمون المرفأ، سيكون المضيق في ماليادو. لكل شيء أوانه.

– لقد حان الوقت، لكن حضرتك يرفض أن يفتح عينيه. في زمننا، لم تكن ثمة دور سينما، وكانت طرق العيش مختلفة. وهي تتغير كثيراً أيضاً، والأشياء الجديدة كثيرة بحيث أننا لما نعد نعرف ماذا نفعل. في الماضي، كان يكفي لكي تحكم،

أن تصدر الأمر، أن تفي بالتزاماتك تجاه الحكومة. أما اليوم فلم يعد يكفي ذلك. حضرتك تفي بالتزاماتك مع الحاكم، إنت صديقه، ولهذا لم تعد محترماً كما في السابق. فالشعب لا يهمه ذلك. إنه يريد حكومة تتفهم احتياجاته. لماذا يستطيع السيد موندينيو أن يقسم الناس، لماذا ثمة أناس يتبعونه؟

- لماذا؟ لأنه يشتريهم بوعده لهم الخيرات والجنّات، ولأن هناك أشخاص عديمو الحياء لا يفون بالتزاماتهم.

- أعذرني أيها السيد الكولونيل، فهذا ليس صحيحاً، كلا. ما هو الذي يستطيع أن يقدمه وحضرتك لا تستطيعه؟ مكان في اللائحة، نفوذ، تعيين، هيبة؟ إن حضرتك تستطيع أكثر منه. إن ما يقدمه هو أنه يريد أن يعمل، أن يحكم حسب مقتضيات الزمن.

- يحكم؟ منذ متى كسب انتخابات؟

- إنه ليس بحاجة لأن يكسبها. لقد شق طريقاً على الشاطئ، أسس جريدة، ساعد على شراء الأوتوبيسات، جلب وكالات لمصارف، ومهندساً للمضيق. فما هذا؟ تنفيذ كل ذلك ليس حكماً؟ إن حضرتك تصدر أوامر للمحافظ، للمفوض، للسلطات في الدساكر. لكن الذي يحكم منذ وقت، هو موندينيو فالكون. ولهذا جئت إلى هنا لأن بلداً لا يمكن أن يكون له حكومتان. لهذا خرجت من وكري لأتكلم مع حضرتك، فإذا استمر هذا الوضع، ستكون له عواقب وخيمة. وقد بدأت أنت. إذ أرسلت حضرتك من يضرم النار في جريدة، وكادوا يقتلون أحد أتباعك في غوراسي. كان هذا مقبولاً في زمن آخر، ولا يمكن أن يصير بشكل آخر. لكن بالنسبة إلى اليوم، فهذا سيىء. لهذا جئت أتكلم معك، وطرقت باب بيتك.

- ماذا جئت لتقول لي؟

- لا يوجد إلا وسيلة واحدة لإصلاح الوضع. وسيلة واحدة ولا أرى غيرها.

- ما هي، قل لي؟»

كان صوت الكولونيل يرنّ بقسوة، فهما الآن يبدوان تقريباً عدوّين وجهاً لوجه.

«أنا صديقك أيها الكولونيل. أصوّت لك منذ عشرين سنة. لم أطلب منك شيئاً قط. مرة واحدة شكوت وكنت على صواب. لقد جئت إلى هنا كصديق.

- وأنا شاكر لك. بوسعك الكلام.

- لا يوجد إلا وسيلة واحدة، وهي الدخول في اتفاق؟.

- من؟ أنا؟ مع هذا الغريب؟ من تظنني ايها الكولونيل؟ إني لم أعقد اتفاقاً عندما كنت شاباً وكانت حياتي في خطر. أنا رجل نزيه، ولن أنحني الآن وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الموت. فلا تتكلم معي بهذا.

بيد أن تونيكو تدخل. فتلك الفكرة عن الاتفاق تحظى برضاه. ومنذ بضعة أيام ذهب مونديني إلى مزرعة ألتينو. وبالطبع كان العرض منه.

- دع الكولونيل يتكلم يا أبي. فقد جاء كصديق، وعليك أن تصغي إليه. فإما أن تقبل وإما لا، وهذا أمر آخر.

- لماذا حضرتك لا تتسلم إدارة القضية؟ ولماذا لا تدعو مونديني إلى حزبك؟ لماذا لا تجمع الكل، وحضرتك في المقدمة؟ إن أحداً لا يريد لك السوء في إيليوس، حتى ولا النقيب. لكن إذا واصلت حضرتك كما أنت، فإنك ستخسر.

- هل لديك عرض ملموس يا كولونيل؟ سأله تونيكو.

- عرض، لا. إني لم أشأ التحدث مع السيد مونديني بأمور سياسية. قلت له فقط، إني لا أرى إلا طريقة واحدة، اتفاقاً بين الاثنين.

- وهو، ماذا قال؟ أراد تونيكو وهو بادي الاهتمام وفضولي، أن يعرف.

- لم يقل شيئاً، وأنا أيضاً لم أطلب جواباً. لكن إذا وافقت يا كولونيل راميرو، ففي أيّ وضع سيكون إذا لم يقبل؟ وإذا مددت له يدك، فكيف يستطيع أن يرفض؟

دفع تونيكو المقعد الثقيل مقترباً من ألتينو:

- من يدري فقد تكون أيها السيد على صواب...»

قطع صوت الكولونيل راميرو باستوس المنفعل، الحوار:

«أيها الكولونيل ألتينو براندون، إذا كان هذا ما جئت من أجله إلى هنا فقط، فزيارتك قد انتهت...

- أبي! ما هذا؟

- وأنت أطبق فمك. فإذا أردت بركتي إياك والتفكير في أي اتفاق، ويا أيها الكولونيل أعذرني. إني لا أود إهانتك، كنت دائماً أكنّ لك الود. وفي هذا البيت أنت السيد، تأمر كأنه بيتك. فلنتكلم على أمر آخر إذا شئت. أما على الاتفاق فلا. إسمع ما أقوله لك: بوسعي أن أصبح وحيداً، حتى أن بوسع ولديّ أن يتخلّيا عني وينضما إلى هذا الغريب. بوسعي أن أغدو من دون صديق، أو مع صديق واحد فقط، لأن الإشبين أمانسيو لن يتخلّى عني، وأنا متأكد. بوسعي البقاء بمفردي، ولن أعقد اتفاقاً. وقبل أن أموت لن يتسلم أحد شؤون إيليوس. والذي صلح بالأمس، بالإمكان أن يصلح اليوم. حتى ولو وجب عليّ أن أموت والسلاح بيدي. حتى ولو كان عليّ مرة أخرى، ليغفر لي الرب، أن أرسل من يقتل. ومن هنا إلى سنة، ستجري انتخابات. وأنا سأفوز أيها الكولونيل، حتى ولو كان جميع الناس ضدي، ولو أصبحت إيليوس مرة أخرى ملاذاً لقطاع الطرق، ومسرحاً للشغب.

رفع صوته المرتعد، ثم وقف وأردف:

- سوف أفوز!

ونهض ألتينو أيضاً، فتناول قبعته:

- جئت بسلام طيب، وحضرتك لا تريد أن تصغي إليّ. إني لا أريد الخروج من بيتك عدواً لحضرتك، فأنا أكنّ لك تقديراً كبيراً. لكن أخرج بدون التزام، فلست مديناً لك، وأنا حرّ في أن أصوّت لمن أريد. وداعاً يا كولونيل راميرو باستوس.

أحنى العجوز رأسه، وبدت عيناه من زجاج. ورافق تونيكو، الكولونيل إلى الباب:

– والدي عنيد، لا يتزحزح عن موقفه. لكنني ربما أستطيع...

شدّ ألتينو على يده، وقطع له جملته:

– سينتهي هكذا وحيداً، مع اثنين أو ثلاثة من أصدقائه الأكثر إخلاصاً له.

ثم نظر إلى الشاب الأنيق. إنه بلا تأثير، وأردف:

– إني أفكر بأن موندينيو مصيب. فإيليوس بحاجة إلى ناس جدد ليحكموها. سأبقى معه. لكن واجب حضرتك أن تبقى إلى جانب أبيك، فتطيعه. إن أي شخص غيرك يحق له أن يفاوض، وأن يطلب عقد اتفاق، وحتى أن يطلب السماح، لكن ليس أنت. فليس لديك إلا أمر واحد لتفعله، هو أن تبقى إلى جانبه، حتى ولو استدعى الأمر أن تموت. وخلاف ذلك فلا شيء لديك لتفعله.»

بعد أن حيّا جيروزا، الشقراء الفضولية، من نافذة غرفة أخرى، غادر الدار.

عن الشيطان الطليق في الشوارع

«إلى أي مدى ستصل الامور! ...وكأن الشيطان يسير طليقاً في إيليوس! أين رأيتِ فتاة عزباء تفسح المجال لرجل متزوج لمغازلتها؟ أعلنت دوروتيبا الشرسة في فناء الكنيسة وسط العانسات.

– اما المدرّس، المسكين! لم يبق أمامه سوى أن يفقد عقله. إنه يسير مكتئباً لدرجة إثارة الشفقة...قالت كينكينيا بأسى.

– إنه شاب مهذب، يمكن أن يمرض. أضافت فلورزينيا. فلم يعد بصحة جيدة.

– وهو أيضاً مهرج مضحك. وقد دفعه الحزن لأن يتمشى تحت نافذة تلك المخزية... حتى وإن توقف على الرصيف ليتكلم معها. لقد قلت للأب باسيليو...

– ماذا؟

- إيليوس تصير أرض الضياع، وذات يوم سيعاقبها الرب. يرسل لعنة فيقتل كل ما هو شجرة كاكاو...

- وهو، بماذا أجاب؟

- قال إنني صاحبة فم شرير ولا أتمنى سوى الشر. وثارت ثائرته علي.

- وأنت أيضاً، ذهبت حالاً لتكلميه... وهو مالك حقل. لماذا لم تكلمي الأب سيسيليو؟ فهذا الفقير، ليس لديه خطيئة.

- لقد فعلت ذلك. وقال لي: «دوروتيبا، الشيطان يجول بحرية في إيليوس. إنه يحكم بمفرده». وهي الحقيقة.»

أَشحنَ وجوههن كي لا يشاهدن غلوريا في النافذة، تعلو الابتسامات وجهها وهي تنظر نحو حانة نسيب. نظرة ترى فيها الإثم، وتجسيداً للشيطان.

في الحانة، كان النقيب المنتصر يعلن النبأ المثير: الكولونيل ألتينو براندون، صاحب ريو ده براسو، وهو رجل يملك أكثر من ألف صوت، انضم إلى موندينيو. وقد زار مؤسسة التصدير ليخبر موندينية بقراره. وسأله موندينيو وهو بادي الدهشة لانقلاب الكولونيل غير المتوقع:

- ما الذي دفعك لاتخاذ هذا القرار أيها الكولونيل؟ كان يفكر بذرائعه التي لا تدحض وبأحاديثه المقنعة، فأجاب ألتينو:

«المقاعد ذات المتكآت العالية.»

لكن في الحانة، كانت قد وصلت أخبار المقابلة السيئة وثورة راميرو. وقد بولغ في الوقائع: كانوا يقولون إنه، بعد مشادة عنيفة، طرد السياسي العجوز ألتينو، من بيته، وأن هذا الاخير كان موفداً من قبل موندينيو ليقترح عقد اتفاق، ويطلب هدنة ويلتمس الرأفة. لقد كان وراء هذه الرواية تونيكو المنفعل الذي أعلن أن شوارع إيليوس ستعود كما في الماضي إطلاق رصاص وأعمال قتل. وحسب روايات أخرى من قبل الدكتور ونيوغالو الذين قابلا الكولونيل ألتينو، إن راميرو فقد صوابه عندما قال

له مزارع ريو ده براسو بأنه يعتبره مهزوماً من الآن، حتى قبل الانتخابات، وأنذره بأنه سيصوت لموندينيو. فاقترح تونيكو اتفاقاً مهيناً لآل باستوس رفضه راميرو. وتقاطعت الروايات حسب طبيعة التعاطفات السياسية. ومع هذا فإن أمراً واحداً كان مؤكداً، وهو أنه بعد مغادرة ألتينو، أسرع تونيكو ليستدعي طبيباً، هو الدكتور ديموستينيس، ليعالج الكولونيل راميرو الذي يعاني ضعفاً عاماً. إنه يوم التعليقات والمناقشات والتوتر العصبي. وطُلب من جوان فولجنسيو القادم من المكتبة القرطاسية، إبداء رأيه، فقال:

«أنا أفكر مثل الدونا دروتيبا. لقد جاءت لتقول لي إن الشيطان يسير بحرية في إيليوس. فهي لا تعرف بالضبط إذا ما كان مختبئاً في بيت غلوريا أم هنا، في الحانة. أين تخبىء هذا الملعون يا نسيب؟

ليس الشيطان فقط، بل الجحيم بكامله كان يحمله العربي في داخله. فلم يفده بشيء الاتفاق الذي عقده مع غابرييلا. كانت تجيء وتبقى خلف صندوق التسجيل، حاجز موقت ومسافة قصيرة لرغبة الرجال. كانوا يلمسونها بمرافقهم وهم يحتسون الخمرة وقوفاً، لصق طاولة البيع. فتكون حولها ما يشبه الاجتماع، فأصبح الوضع غير لائق. ووصلت الوقاحة مع القاضي حد قوله لنسيب:

- إستعد يا عزيزي، سوف أسرق منك غابرييلا، فحاول أن تجد طاهية غيرها.

- هل تركت لديك بعض الآمال يا دكتور؟

- سوف تعطيني... إنها مسألة وقت وتدبير.

مانويل داس أونساس الذي لم يكن يخرج قبلاً من الحقول، بدا أنه قد نسي مزارعه في عز فترة القطاف. حتى أنه أرسل من يعد غابرييلا بقطعة أرض. إن العانس كانت على حق. فالشيطان يتجول في إيليوس، ويلعب برؤوس الرجال. وسيصل إلى رأس غابرييلا أيضاً؛ فمنذ يومين قالت له الدونا آرميندا:

- مصادفة، حلمت أن غابرييلا قد رحلت وفي اليوم نفسه أرسل الكولونيل مانويل داس أونساس من يقول إنها إذا وافقت، فلسوف يسجِّل حقلاً باسمها.

رأس المرأة ضعيف، يكفي النظر إلى الساحة، فهناك مالفينا على مقعد في الجادة تتحدث مع المهندس. ألم يقل جوان فولجنسيو إنها الفتاة الأكثر ذكاءً في إيليوس، ذات الشخصية وكل شيء؟ ألم تفقد عقلها في مغازلة رجل متزوج على مرأى من الجميع؟

مشى نسيب إلى طرف الرصيف العريض للحانة. فيما هو تائه في أفكاره، ذعر عندما شاهد الكولونيل ميلك تافاريس يخرج من بيته ويسير باتجاه الشاطئ.

«أنظروا! «صاح مستهجناً.

سمعه بعض الزبائن، فالتفتوا ليروا ماذا حصل.

«إنه يتوجه نحوهما...

- سوف تحدث مشكلة...»

ورأت الفتاة بدورها أباها يقترب فوقفت. لا بد أنه وصل من الحقل في تلك الساعة، إذ لم يخلع جزمتيه. وفي الحانة تركوا الطاولات في الداخل ليراقبوا المشهد.

امتقع وجه المهندس حين أنذرته مالفينا:

«أبي قادم إلى هنا.

- ماذا نحن فاعلان؟ «قالها بصوت مخنوق.

توقف قربهما ميلك تافاريس ذو الوجه الصارم والسوط في يده، وعيناه على ابنته. وكأنه لم يرَ المهندس، حتى أنه لم ينظر إليه، فقال لمالفينا بصوت بدَا كأنه صفعة بسوط:

- هيّا إلى البيت! حالاً.

ورنّ السوط بقرقعة جافة على الجزمة.

ظلّ واقفاً وهو يتطلّع إلى ابنته تمشي في خطى بطيئة. ولم يتحرك المهندس، فساقاه ترتجفان، والعرق يتصبب من جبينه ويديه. وعندما توارت مالفينا وراء البوابة ، رفع ميلك السوط ووضع طرفه الجلدي على صدر رومولو:

- علمت أنك أنهيت دروسك عن المضيق، وأنك أبرقت طالباً الاستمرار لتدير الأشغال. فلو كنت مكانك، لما فعلت هذا، وإنما لكنت أبرقت طالباً من يحلّ محلي وما كنت لأنتظر وصوله. هناك باخرة بعد غد. سحب السوط ورفعه، ثم لمس طرفه وجه رومولو. إن المهلة التي أعطيها لك تنتهي بعد غد.

ثم أدار له ظهره، والتفت عندها إلى الحانة كمن يستقصي دافع التجمهر الضئيل في الجانب الخارجي منها. وسار إلى هناك، فجلس الفضوليون وبدأوا أحاديث سريعة، متطلّعين بطرف أعينهم.

وصل ميلك، وربت ظهر نسيب:

- كيف تسير هذه الحياة؟ قدّم لي كأساً من الكونياك.

ورأى جوان فولجنسيو، فجلس إلى جانبه:

- مساء الخير يا سيد جوان. قيل لي إنك تقوم ببيع كتب رديئة لابنتي فأطلب منك معروفاً: لا تبعها بعد أي كتاب. الكتاب هو كتاب المدرسة الثانوية فقط، أما الكتب الأخرى فلا تصلح لشيء، إنها تخدم الانحراف عن الطريق السوي فقط.

أجاب جوان فولجنسيو وهو هادىء جداً:

- إذا أراد الزبون الشراء فأنا لا أتخلّى عن البيع له. أما الكتاب الرديء، فماذا تقصد بذلك ؟ إن ابنتك لم تشتر إلا كتباً جيدة، لأفضل المؤلفين. وأنتهز الفرصة لأقول لك إنها فتاة ذكية، وقديرة جداً. ومن اللازم أن تفهمها، يجب ألّا تعاملها كأي واحدة.

- البنت هي ابنتي، فدع لي أمر معالجتها. فأنا أعرف الدواء لأمراض معينة. أما بالنسبة إلى الكتب، جيدة أم رديئة، فإنها لن تشتري بعد الآن.

- هذا عائد إليها.

- وإليّ أيضاً.

رفع جوان فولجنسيو كتفيه كأنه يغسل يديه من الظروف. وصل بيكو فينو

بزجاجة الكونياك فاحتسى ميلك جرعة، وهمّ بالنهوض. فأمسك به جوان فولجنسيو من ذراعه:

– إسمع يا كولونيل ميلك: تكلم مع ابنتك بهدوء وتفهم، فهي ربما تصغي إليك. وإذا استعملت العنف فقد تندم في ما بعد.

بدا أن ميلك يقوم بجهد ليضبط نفسه:

– يا سيد جوان، لو لم أكن أعرفك، ولو لم أكن صديقاً لأبيك، ما كنت لأصغي إليك. فدع البنت لي. إني لست معتاداً على الندم. وفي كل الحالات، أشكرك على لفت انتباهي.

ضرب بالسوط جزمته واجتاز الساحة. فنظر إليه جوزويه من إحدى الطاولات وانتقل ليجلس على المقعد الذي تركه، إلى جانب جوان فولجنسيو:

«ماذا سيفعل؟

– سيرتكب حماقة، دون شك.» وحدّق إلى المدرّس بعينيه الطيبتين: «لا شيء مفاجىء في هذا، وأنت أيضاً لا تكترث؟ إنها فتاة ذات شخصية مختلفة عن الأخريات ويعاملونها كأنها بلهاء...»

اجتاز ميلك بوابة البيت ذي النمط الحديث. وفي الحانة، عادت الأحاديث إلى ألتينو براندون، وإلى الكولونيل راميرو، وإلى الاضطرابات السياسية، واختفى المهندس من المقعد في الجادة. ولم يبق إلا جوان فولجنسيو وجوزويه ونسيب، واقفين على رصيف الشارع، منتظرين خطوات المزارع.

في البهو، كانت زوجته بانتظاره، وهي منقبضة من الخوف، تشبه صورة قديسة معذبة. الزنجي فاغونديس كان على صواب.

– أين هي؟

– صعدت إلى غرفتها.

– أطلبي إليها أن تنزل.

إنتظر في القاعة وهو يضرب الجزمة بالسوط. فدخلت مالفينا، وبقيت أمها في باب الممر. لقد وقفت مالفينا أمامه وهي مرفوعة الرأس، فخورة، مقررة، تترقب. وكانت الأم تترقب أيضاً، والخوف في عينيها.

فمشى ميلك في البهو:

«ماذا لديكِ لتقوليه؟

– بشأن ماذا؟

– الشأن الذي تعرضتِ له.

– أنا أبوكِ، فاخفضي رأسكِ. صرخ بصوت عال. إنكِ تدركين عما أتكلم. كيف تفسرين لي هذا الغزل؟ فإيليوس لا تتكلم عن أمر آخر. حتى إلى الحقل وصل الكلام. ولا تقولي لي إنكِ ما كنتِ تعلمين أنه رجل متزوج، فهو لم يخفِ ذلك. ماذا لديكِ لتقوليه؟

– ماذا يفيد القول؟ فأنت لن تدرك ذلك. هنا لا يستطيع أحد أن يفهمني. لقد قلت لك يا أبي، أكثر من مرة بأني لن أقبل زواجاً يختاره الأهل. فلن أدفن نفسي في مطبخ أي مزارع، ولن أصير خادمة لأي دكتور في إيليوس. أريد أنْ أعيش حسب طريقتي، وعندما أتخرّج من المدرسة الثانوية في نهاية السنة، أريد أن أعمل، سأدخل أحد المكاتب.

– الامر لا يعود لك. عليكِ أن تفعلي ما آمرك به.

– سأفعل ما يروق لي.

– ماذا؟

– ما يروق لي...

– أغلقي فمكِ أيتها الشقية!

– لا تصرخ بي، فأنا ابنتك ولست عبدتك.

– مالفينا، لا تردي هكذا على والدكِ.» قالت أمها جزعة.

أمسك ميلك بها من رسغها، وصفعها على وجهها بيده، فزأرت مالفينا:

«إذن، سوف أرحل معه، كن على علم بذلك.

غطت أمها وجهها بيديها:

- آي، رباه!»

رفع السوط، ولم يكترث بمكان الضرب:

- كلبة! وانهال بالضرب على ساقيها، على ردفيها على ذراعيها، على وجهها، على صدرها. ومن شفتيها المشققتين اللتين ينساب الدم منهما، زعقت مالفينا:

«تستطيع أن تضربني. لكني سأرحل معه!

- لن يكون هذا حتى ولو اقتضى الأمر قتلكِ.»

وقذفها إلى الكنبة بدفعة قوية، فسقطت أرضاً، ومجدداً رفع ذراعه وأخذ السوط يهوي ويرتفع، وكان يصفّر في الهواء.

كان زعيق مالفينا يُسمع في الساحة، فيما كانت أمها تتضرّع باكية، بصوت مذعور:

«يكفي، ميلك، يكفي...»

بعد ذلك، اندفعت فجأة نحو الباب وأمسكت بيده:

«لاتقتل ابنتي.»

فتوقف وهو يلهث. وكانت مالفينا الآن تنزف على الكنبة.

- «هيا إلى غرفتك! وحتى إشعار آخر، لن تخرجي منها.

وفي الحانة، كان جوزويه يضغط على يديه، ويعضّ شفتيه، ونسيب يشعر أنه مسحوق، أما جوان فولجنسيو فكان يهزّ رأسه. وبقية من في الحانة كانوا في صمت كأنهم غائبون. وغلوريا أمام نافذتها، كان يعلو وجهها ابتسامة حزينة.

ثم قال أحدهم:

- لقد توقف عن ضربها.

العذراء على الصخرة

صخور سوداء تبرز من البحر. وعلى جانبها الصخري تتكسر الأمواج تاركة زبداً أبيض. وتظهر أعداد من السرطان ذات المخالب المخيفة من الحفر الخفية. في الصباح وفي المساء، كان الأولاد يتسلقون الصخرة بخفة، يلعبون أدوار القبضايات والكولونيلات. وفي الليل يُسمع ضجيج الماء وهو يعض الصخر، من دون كلل، وأحياناً يتولد ضوء غريب في الشاطئ، يرتفع إلى الصخرة فيضيع في المخابئ، ثم يظهر مجدداً في المرتفعات. ويقول الزنوج إن تلك الأعمال الغامضة من فعل عرائس البحر، من أمهات الماء المشتاقة، السيدة جانياينا، المتحولة ناراً خضراء. وتدور التنهيدات وتأوهات الحب في ظلمة الليالي. والأزواج الأشد فقراً والمكونة من متسولين محتالين وبغايا بلا مأوى، يفترشون الشاطئ ليمارسوا الجنس مختبئين بين الصخور، متدحرجين على الرمال. وكان البحر الهائج يهدر أمامهم ، وتنام وراءهم المدينة الشرسة.

في ضوء القمر كان ثمة خيال شخص نحيل ومقدام، يقفز فوق الصخور. إنها مالفينا، حافية القدمين، وحذاؤها بيدها، ونظراتها مقررة، في ساعة تكون فيها الفتاة عادة في سريرها، نائمة وتحلم بالدروس والحفلات، والزواج. كانت مالفينا تحلم مستيقظة وهي تتسلق الصخور.

كان ثمة تجويف في الصخر حفرته العواصف، مقعد عريض مقابل المحيط، يجلس عليه المحبون، وأقدامهم متدلية فوق المحيط. وفي الاسفل كانت الأمواج تتكسر وتبسط أيادي من الزبد الأبيض وهي تنادي. هناك جلست مالفينا، تعد الدقائق، وتنتظر بقلق.

كان والدها قد مر بغرفتها وهو صامت وقاسٍ. فأخذ كتبها ومجلاتها، وبعض بعض أوراقها. ولم يترك إلا بعض جرائد باهيا، والألم، وتمرد اللحم المضروب

والكدمات الزرقاء الليلكية. رسالة الحب الصغيرة - «أنت الحياة التي وجدتها، الفرح المفقود، الأمل الميت، أنت كل شيء بالنسبة لي» - كانت تحتفظ بها في صدرها. وكانت أمها قد وصلت أيضاً تحمل لها طعاماً، وتزودها بنصائح. وتكلمت عن موتها. فهل هي حياة هذه، بين والد كهذا وابنة كهذه، بين بريئين عدوين، وإرادتين لا تتزعزعان وخنجرين غير مستلين؟ كانت تتوسل إلى القديسين بأن يسمحوا لها أن تموت. آه! حتى لا ترى القدر الذي لا يُقهر يتحقق، وتحل اللعنة التي لا ترحم.

احتضنت الأم ابنتها، فقالت لها مالفينا:

- لن أكون تعيسة مثلك يا أماه.

- لا تتفوهي بأشياء بلهاء.

لم تقل بعد ذلك شيئاً. فقد حانت ساعة الحسم. ستغادر مع رومولو، ستذهب لتعيش.

أبوها قاسٍ مثل صخر أصمّ، يمكن أن ينكسر غير أنه لن ينحني. عندما كانت طفلة صغيرة، سمعت في الحقل قصصاً، حالات تُروى عن أزمنة الصراعات، عن الليالي في الطرق مع الرجال الخلاسيين المسلحين الذين يأمرهم والدها. بعد ذلك، رأت، لسبب أحمق، قطيعاً يهرب ويحطم السياج ويقتحم المراعي. لقد تشاجروا مع آل ألفيس جيرانهم في الأرض. فجرى تبادل كلام جارح بينهم، فبدأوا العراك؛ كمائن، مسلحون، إطلاق نار، دماء من جديد.

كانت مالفينا لا تزال ترى عمها آلويزيو مسنداً ظهره إلى سور المنزل، وكتفه نازفة. كان أصغر من ميلك بكثير، جميلاً ومرحاً. كان رجلاً رقيقاً، يحب الحيوانات، الجياد، البقر، ويربي كلاباً، ويغني في البهو، ويحمل مالفينا ويلاعبها. كان يحب الحياة. وكان ذلك في شهر حزيران. وبدلاً من مشاعل الفرح والأسهم النارية والمفرقعات، كان هنك إطلاق الرصاص في الطرقات، وكمائن في الغابة. وجه أمها الشاحب، هكذا عرفته مالفينا دائماً بسبب الليالي التي كانت تقضيها بلا نوم في زمن

المعارك الدامية ، قبل أن تولد، وبسبب الخوف من ميلك، وأوامره التي يزعق بها، ورغبته التي يفرضها على الآخرين.

كانت تضمد كتف عمها الذي اخترقته الرصاصة. فلم يقل ميلك سوى هذه الكلمات:

«أمن أجل هذا الأمر التافه عدت إلى المنزل؟ والرجال؟

– عادوا معي...

– ما الذي قلته لك؟

رمقه آلويزيو، وعيناه تتوسلان، ولم يجب.

– ما الذي قلته لك؟ ليحدث ما يحدث. لا تترك قطعة الأرض غير المشجرة. فلماذا تركتها؟

كانت يد أمها ترتجف فوق الضماد.كان عمها رجلاً رقيقاً، فهو لم يكن رجل مشاجرات ولا إطلاق الرصاص في الليل. كان يخفض رأسه.

– ستعود، أنت والرجال، حالاً.

– سيهاجمون مجدداً.

– هذا كل ما أتمناه. عندما يهاجمون، سوف أذهب مع رجال آخرين، وأحيط بهم من الخلف، وأنهيهم. ولو لم تهرب مع الطلقة الأولى لكنت قد انتهيت منهم.

وافق عمها. ورأت مالفينا المشهد: امتطى آلويزيو جواده، نظر إلى البيت وإلى الشرفة وإلى الزريبة الهاجعة والكلاب التي كانت تنبح، نظرة أخيرة، للمرة الأخيرة. خرج مع الرجال الخلاسيين فيما الآخرون كانوا في البؤرة ينتظرون. وحينما تعالى صوت إطلاق الرصاص، أعطى والدها الأمر:

– هيا!

ثم عاد منتصراً، منهياً آل ألفيس. وكان جثمان عمها على الجواد، ووجهه إلى الأرض. كان رجلاً جميلاً زاخراً بالفرح.

ممن ورثت مالفينا هذا الحب للحياة، هذا الشوق للعيش، هذا الرعب إزاء الخضوع وإحناء الرأس والتكلم بصوت خفيض في حضور ميلك؟ ربما منه. إنها كرهت منذ وقت مبكر، البيت والمدينة والقوانين والعادات والحياة الوضيعة لأمها المرتعدة أمام ميلك والموافقة على الأعمال من دون أن تستشار مسبقاً. فقد كان يصل ويقول آمراً:

«إستعدي. اليوم سنذهب إلى دائرة الكاتب العدل تونيكو للتوقيع على وثيقة.»

لم تكن تسأل أي وثيقة. وإذا ما كانت تشتري أم تبيع؟ ولا تحاول أن تعرف. كانت الكنيسة وسيلة سلواها الوحيدة. فلميلك جميع الحقوق، وهو الذي يقرر كل شيء. أما أمها، فإنها تهتم بالبيت. كان هذا هو حقها الوحيد. فوالدها في الكباريهات وفي بيوت البغاء، ينفق المال على العشيقات ويقامر في الفنادق وفي الحانات ويعاقر الخمرة مع الأصدقاء. وأمها تتعفن في البيت، تسمع وتطيع. نحيلة ومذلّة، موافقة على كل شيء، فقدت الإرادة، ولا تسيطر حتى على ابنتها. وكانت مالفينا تقسم، وهي بعد فتاة صغيرة، أن الأمر لن يكون معها هكذا. إنها لن تخضع. وكان ميلك ينفذ رغباتها، ومرات يدرسها وهو مرتاب. يعترف لها بتفاصيل معينة، في رغبتها في أن تكون. لكنه كان يصر على أن تكون مطيعة. وعندما قالت له إنها تريد أن تدرس المرحلة الثانوية بعد التكميلية، قرر:

– لا أريد ابنة دكتورة. إذهبي إلى ثانوية الراهبات، لتتعلمي الخياطة، الحساب، القراءة، والعزف على البيانو. فأنتِ لست بحاجة إلى غير ذلك. إن المرأة التي تصبح دكتورة هي امرأة مجنونة وتريد أن تضيع نفسها.

استطاعت أن تراقب حياة السيدات المتزوجات الشبيهات بأمها، الخاضعات للسيد. إنها أسوأ مما لو كنّ راهبات. وكانت مالفينا تقسم لنفسها أنها لن تترك أحداً يحبسها، أبداً، أبداً، أبداً.

كن يتحدثن في فناء الثانوية، فتيات ضاحكات، بنات آباء أثرياء. كان أشقاؤهن

في باهيا، في المدارس الثانوية والكليات. كان لديهم الحق في مخصصات شهرية، وإنفاق المال، ويفعلون كل ما يروق لهم. أما هن، فلم يكن لديهن إلا ذلك الوقت القصير من المراهقة، حفلات نادي التقدم: المغازلات التي لا طائل منها، الرسائل المتبادلة، القبلات الوجلة المغتصبة في حفلات فترة بعد الظهر في السينما، وأحياناً تكون أكثر عمقاً، عند بوابات المنازل. وذات يوم يصل الأب برفقة أحد أصدقائه. تنتهي المغازلات وتبدأ الخطوبة. وإذا لم تشأ، فإن الوالد يجبرها على ذلك. وقد يحصل أن تتزوج إحداهن من حبيبها إذا رغب الوالدان الفتى. لكن شيئاً لا يتغير في الواقع. فالزوج المجلوب، المختار من الوالد، أو العريس المرسل من القدر، متشابهان. وبعد أن تتزوج الفتاة، لا يكون ثمة فرق. الزوج هو المالك، السيد الذي يسن قوانين، ويريد أن يكون مطاعاً. فله كل الحقوق وعليها الواجبات والاحترام. إنهن حارسات شرف العائلة واسم الزوج ومسؤولات عن داخل البيت، وعن الأبناء.

كانت كلارا الصديقة الحميمة لمالفينا أكبر منها في السن، ومتقدمة عليها في الثانوية. كانتا تضحكان معاً وتتهامسان في الفناء. لم توجد قطّ فتاة أكثر منها فرحاً، ولا أكثر منها زخماً بالحياة. رائعة الجمال، معافاة، وراقصة تانغو، تحلم بالمغامرات. شديدة العشق والرومانسية، وشديدة التمرد والاندفاع! لقد تزوجت عن حب، هكذا كانت تفكر أقلّه. فلم يكن العريس مزارعاً ذا ذهنية متخلفة. كان دكتوراً، متخرجاً من كلية الحقوق ويقرض الشعر. لكن كل شيء كان متشابهاً. ماذا حل بكلارا؟ أين كانت؟ أين اختفت بهجتها، اندفاعها، أين دفنت خططها: مشاريعها الكثيرة؟ كانت تذهب إلى الكنيسة، تهتم بالبيت، تنجب أولاداً، حتى أنها ما كانت تضع المساحيق على وجهها. فالدكتور لم يكن يريد ذلك.

وهكذا كانت دائماً، هكذا استمرت، كأن لا شيء تبدل، والحياة لا تتغير، والمدينة لا تنمو. في الثانوية كن يتحمسن لقصة أوفينيزيا، عذراء آل آفيلا التي ماتت حباً. لم تكن تريد البارون، رفضت صاحب مزارع السكر وتصنيعه. لكن أخاها لويس أنطونيو كان يطرح عليها مطامعه. وكانت تحلم بالأمبراطور.

كانت مالفينا تكره تلك البلاد، مدينة الوشوشات، والقال والقيل. كانت تكره تلك الحياة وتناضل ضدها. بدأت القراءة، وجوان فولجنسيو كان يوجهها، ويدلّها على الكتب. واكتشفت عالماً آخر أبعد من إيليوس، حيث الحياة جميلة، وحيث المرأة ليست عبدة. المدن الكبرى حيث تستطيع أن تعمل، وأن تكسب خبزها وحريتها. لم تكن تنظر إلى رجال إيليوس. كانت إيراسيما تدعوها «عذراء البرونز» وهو عنوان رواية، لأنها لم تتخذ لها محبين. كان جوزويه يدور حولها، فهو قادم من الخارج، كان يكتب قصائد وينشرها في الصحف. وكانت إيراسيما تقرأ بصوت مرتفع في فناء الثانوية «مهداة إلى م. اللامبالية». وذات يوم، حينما أقدم زوج مخدوع على قتل زوجته، تحادثت مالفينا مع جوزويه، وتغازلا لبضعة أيام. ربما كان مختلفاً، من يدري؟ لكنه كان مثل الآخرين: إذ أراد بسرعة، أن يمنعها من وضع المساحيق على وجهها، ومن مصادقة إيراسيما: «الجميع يتحدثون عنها بالسوء، فليست هي الصديقة المناسبة لك»، ومن الذهاب إلى حفلة في منزل الكولونيل ميزائيل لم يكن هو مدعواً إليها. وكل هذا حدث في أقل من شهر.

من إيليوس، لم تكن تحب إلا البيت الجديد، التي اختارت نموذجه من مجلة تصدر في الريو. ونفذ أبوها رغبتها. ولم يكن ذلك ذا أهمية بالنسبة إليه. ثم استقدم موندينيو فالكون ذلك المهندس المجنون الذي لا عمل له في الريو: وكانت تعبد منزل موندينيو. حلمت به أيضاً. هذا، نعم، كان مختلفاً. بوسع هذا أن ينتزعها من هنا، ويأخذها إلى البلاد الأخرى، تلك البلاد التي يتحدثون عنها في الروايات الفرنسية. وبالنسبة إلى مالفينا، لم تكن مسألة حب وهيام يتفجر. فقد كانت تحب من يقدم لها الحق في العيش، من يحررها من الخوف من مصير مشابه لمصائر جميع النساء في إيليوس. كانت تفضل أن تشيخ عانساً، ترتدي اللباس الأسود عند أبواب الكنائس. إنما لم تكن تريد أن تموت مثل سينيازينيا، بطلقة رصاص من مسدس.

انفصل عنها موندينيو، حالما تحسس مصلحته. فتعذبت مالفينا، كان ذلك تدميراً لأمل بدأ ينمو. وأصبح جوزويه لا يحتمل، ملحاحاً ومتسلطاً. وحدث ذلك عندما وصل رومولو وعبر الساحة بثوب الحمام، وشق الأمواج بدفعات عريضة من ذراعيه. هذا، نعم، كان يفكر بوسيلة أخرى، كان تعساً، فزوجته مجنونة. وكان يكلمها على الريو، ماذا يهمه من أمر الزواج، تعاقد بسيط؟ بوسعها أن تعمل، تساعده، تكون عشيقة وسكرتيرة، تدرس في الكلية، إذ إنه يتفهم ذلك، فهي مستقلة، ولا يربطهما معاً إلا الحب. آه! كيف عاشت هذه الأشهر بحرارة... كانت تعرف أن المدينة بأسرها تعلق، وأن في الثانوية لم يكن حديث غير ذلك، وبعض الصديقات كن يبتعدن عنها، وكانت إيراسيما أولاهن. ماذا يهمها؟ كانت تلتقي معه في جادة الشاطئ فينسيان نفسيهما في غمرة الأحاديث. في حفلات فترة بعد الظهر في السينما كانا يقبّلان بعضهما باندفاع، وكان يقول لها إنه وُلد من جديد، عندما تعرف إليها. ميلك في الحقل، ومالفينا في بعض الليالي - حينما ينام أهل البيت - تأتي لملاقاته على الصخور. كانا يجلسان على المقعد المحفور في الصخر، ويدا المهندس تتحسسان جسدها. وكان يهمس بطلبات، بزفرات مخنوقة. لماذا لا يكون ذلك حالاً، هنا على الشاطئ؟

كانت مالفينا تريد الرحيل عن إيليوس، فتصبح له عندما يغادران. كانا يضعان خططاً للفرار. ففي غرفتها وهي مضروبة وحبيسة، قرأت في جريدة تصدر في باهيا: «فضيحة هزت المجتمع الراقي في إيطاليا. الأميرة ألكسندرا، ابنة المرحومة بياتريس من الأسرة المالكة في إسبانيا والأمير فيتوريو، خرجت من بيت والديها ومضت لتعيش بمفردها، حيث تعمل على صندوق تسجيل النقود في أحد بيوتات الأزياء. وذلك لأن والدها يريد لها أن تتزوج بالثريّ الدوق أومبرتو فيسكونتي ده مودرومي، من ميلانو، وهي متيمة بشخص من الشعب، هو الصناعي فرانكو مارتيني». كأنه مكتوب لها. وبطرف القلم، حررت على هامش الجريدة، رسالة إلى رومولو تضرب

له موعداً، وحملتها الخادمة إلى الفندق، وسلمتها إليه، يداً بيد. في تلك الليلة، إذا أراد هو، ستكون له. لماذا قررت الآن نهائياً: ستذهب من هنا. ستذهب لتعيش. فالهم الوحيد الذي تعانيه - في ذلك الوقت اهتمت بذلك - هو أن تجنب والدها المعاناة. وكيف سيعاني هو؟ لم يعد يهمها ذلك الآن.

إنتظرت مالفينا وهي جالسة على الصخرة الرطبة، وقدماها فوق الهاوية. ومن الشاطئ المختفي، كانت تسمع تأوهات من أزواج، وينطلق وميض خاطف من على الرمال. كل ذلك كان بموجب خطة مدروسة في كل تفاصيلها. كانت مالفينا تنتظر بفارغ الصبر. والأمواج تحتها تتكسَّر، ويتطاير الزبد. لماذا لم يأت؟ كان عليه أن يصل قبلها، وفي رسالة مالفينا حددت ساعة معينة، فلماذا لم يأت؟

في فندق كويليو حيث الباب الموصد والرقاد المستحيل، كان رومولو فييرا المهندس الحذق في وزارة النقل والأشغال العامة، يرتعد خوفاً.. كان دائماً غبياً في ما يتعلق بالعلاقة مع النساء. كان يحشر نفسه في المآزق، ويتصرف بشكل رديء لكنه لم يتعلم. يقضي وقته في مغازلة الفتيات العازبات، وقد غادر الريو منذ فترة قصيرة، هرباً من أشقاء غاضبين عنيفين لفتاة تدعى أنطونيتا كان يلتقي بها بشكل دائم. فاجتمع الأربعة ليلقنوه درساً، ولهذا وافق على المجيء إلى إيليوس مقسماً أنه لن ينظر بعد الآن إلى الفتيات اللواتي هن في سن الزواج. كانت هذه المسؤولية في إيليوس صفقة حقيقية، يكسب منها مالاً، وفوق هذا، فإن مونديني فالكون يضمن له مقداراً كبيراً من المال إذا عمل بسرعة، وأنهى التقرير بطلب مستعجل لإيفاد الجرافات. وهكذا فعل، فاتفق مع مونديني في الإلحاح على الوزارة لتتسلم إدارة مصلحة ترميم المضيق وجرفه. ووعده المصدّر أيضاً بمبلغ أكبر يتقاضاه حين تدخل أول باخرة أجنبية المرفأ، إذا نفذ المهمة التي انتدب إليها، فماذا بوسعه أن يرغب أكثر من ذلك؟ ومع هذا، تورط مع فتاة عزباء، متسكعاً في دور السينما، مغدقاً عليها وعوداً

مستحيلة التحقيق. والنتيجة: اضطر إلى أن يبرق ليطلب من يخلفه، وعقد لقاء مزعجاً مع موندينيو. لقد تكفل له بأنه فور وصوله إلى الريو، لن يترك الوزارة تنعم بالسلام ما لم ترسل الجرافات والقاطرات. إن ما ليس بوسعه أن يفعله هو البقاء في إيليوس ليُجلد بالسوط في الشارع أو أن يصاب بطلق ناري في صمت الليل. فأوصد عليه باب الغرفة، وأقسم على أنه لن يخرج منها إلا إلى الباخرة. ثم إن هذه المجنونة تضرب له موعداً على الصخور وهو لا يصدق أن ميلك عاد مباشرة إلى الحقل حيث انتهى القطاف. إنها مجنونة، كان لديه هوس بالمجنونات، ويتورط معهن...

كانت مالفينا تنتظر على أعلى الصخور. كانت الأمواج تحتها تنادي. لن يأتي، فعند المساء يموت تقريباً من الخوف. إنها تفهم الآن. حدقت إلى الرغوة وهي تتطاير. وكان الماء يناديها. وفكرت لحظة بأن ترمي نفسها، فتنتهي كل شيء. لكنها تريد العيش، تريد أن تذهب من إيليوس، أن تعمل، أن تغدو شخصاً ما، فثمة عالم يجب أن تقتحمه. بماذا يفيدها الموت؟ لقد قذفت إلى الأمواج الخطط الجاهزة، إغواء رومولو، كلماته ورسالته التي كتبها لها بعد نزوله من الباخرة بأيام. تحسبت مالفينا للخطأ الذي اقترفته: للخروج من هناك لا ترى سوى طريق واحد، متأبطة ذراع رجل، زوج أو عشيق... فلماذا؟ أليس لأنها كانت لا تزال تحت تأثير إيليوس وعاداتها وبالتالي فاقدة الثقة بنفسها ؟ فلماذا تغادر ممسكة بيد شخص ما، سجينة لالتزام ما، وتحت دين كبير جداً؟ لماذا لا تغادر على قدميها، بمفردها، لتقتحم عالماً جديداً؟ من هذا الطريق، تخرج من النفق وليس من باب الموت. إنها تريد أن تعيش، أن تعيش بحيوية، حرة مثل البحر بدون حدود. حملت حذاءها وانحدرت عن الصخور، وشرعت تضع خططاً. شعرت أنها خفيفة. والأفضل من كل شيء أنه لم يأتِ، فكيف تستطيع العيش مع رجل جبان؟.

عن الحب الأزلي
أو جوزويه يجتاز أسواراً

في سلسلة القصائد المهداة «إلى اللامبالية، الجاحدة، الرائعة، المتكبرة، م...»، المطبوعة بأحرف مائلة في أعلى العمود المقروء جداً، عن أعياد المولد والعمادات والزيجات والوفيات، في دياريو ده إيليوس يؤكد جوزويه بإلحاح، بأبيات استلزمت جهداً كبيراً لكتابتها، خلود حبه المهان. صفات عديدة، كل منها أكثر روعة من الأخرى، كانت تميز هيام المدرِّس. لكن أكثرها إشراقاً وتفاخراً، والمطبوعة بحرف من قياس عشرة في صفحات الجريدة، كانت أزليتها. أزلية مرهقة للمدرِّس الذي لم ينته من تكرار القصائد الاثني عشرية أو المقاطع الصوتية، والبحث عن القوافي. ومع هذا، كان حبه ينمو باطراد، وتحول إلى حب أبدي وخالد، ثم، وفي حمأة الاثارة التي أعقبت مقتل سينازينيا واوزموندو، انكسر كبرياء مالفينا وبدأ الغزل.

لقد كانت مرحلة القصائد الطويلة التي تمجد ذلك الحب الذي لا يحطمه لا الموت ولا تعاقب الاجيال. فقد كتب المدرّس الشاعر، أنه «أبدي مثل الأبدية ذاتها»، «أكبر من الفضاءات المعروفة والمجهولة، وأكثر خلوداً من الآلهة الخالدة.»

قناعة منه أم انسجاماً مع المناسبة - لو كان عليه أن يبحث عن أوزان وقواف لهذه القصائد الطويلة ، لما كانت حياته كلها لتكفيه - انضم جوزويه إلى «أسبوع الفن الحديث» الشهير في سان باولو الذي كانت أصداؤه الثورية قد بلغت إيليوس بعد ثلاثة اشهر من التأخير. والآن لم يعد يقسم إلّا بمالفينا وبالشعر الحديث، متحرراً من عقبات الوزن والقافية، كما كان يقول في المناقشات الأدبية في مكتبة وقرطاسية «موديلو» مع الدكتور وجوان فولجنسيو، ونيوغالو، أو في نادي «روي باربوزا» مع آري سانتوس. وهو أقل كلفة أيضاً، من دون أن يحسب المقاطع الصوتية، في بحثه عن القوافي. وعلاوة على كل هذا ، ألم يكن بيت مالفينا «ذات أسلوب حديث» ؟ وكان يفكر: إننا روحان توأمان، حتى في الذوق.

إن ما هو خارق للمألوف، كون هذه الأزلية التي هي بأبعاد الأزلية بالذات، وهذا الخلود الاسمى من خلود جميع الآلهة مجتمعة، تمكنت من الاستفاضة، هذه المرة في نثر عدواني عندما أوقفت الفتاة المغازلة وقامت بالفضيحة مع رومولو. وكان نسيب متفهماً، بمشاركته المدرس في أحزانه في الحانة. لقد تضامن معه ايضاً، أصدقاؤه في مكتبة القرطاسية وفي النادي. بيد أن ألم جوزويه حطّ، بدون تفسير، على كتف الإسباني الفوضوي الإسكافي فيليبي. فقد كان المصلح الإسباني الفيلسوف الوحيد في المدينة، ذا تصور منظور مكوّن عن المجتمع والحياة والنساء والكهنة. إنه بالأحرى تصور متشائم. لقد مزق جوزويه الكراريس ذات الأغلفة الحمراء وهجر الشعر، وبدأ وظيفته الإبداعية ككاتب. كان نثره معسولاً ومستعاداً: انضم جوزويه إلى الفوضوية جسداً وروحاً، وصار يكره المجتمع القائم، ويشيد بالقنابل والديناميت التي تعيد البناء، ويعلن بصوت مرتفع، الثأر من كل شيء ومن الجميع. وكان الدكتور يمتدح أسلوبه البليغ. وفي أعماقه كان هذا التعظيم موجهاً ضد مالفينا، وقيل ايضاً، بسبب خيبته الدائمة من النساء، وفوق هذا كله، من البنات الجميلات للمزارعين أنصار الزواج الشرعي. «لسن أكثر من عاهرات صغيرات»... وكان يبصق عندما يشاهدهن يسرن، فتيات نضرات في بذلات ثانوية الراهبات، أو غاويات في فساتين أنيقة. لكن الحب الذي كرسه لمالفينا، آه! لقد استمر هذا أبدياً، في النثر التعظيمي، ولن يموت أبداً في صدره، وإذا لم يكن اليأس قد قتله بعد، فلأنه كان ينوي أن يغير بقلمه، المجتمع وقلوب النساء.

إن الذي يحمله لفتيات المجتمع، المتأسس على إيديولوجية الكراريس المضطربة، يقربه من نساء الشعب. وعندما توجه للمرة الأولى إلى نافذة غلوريا المنعزلة - في تصرف ثوري مدهش، وهو العمل النضالي الوحيد لوظيفته السياسية الخاطفة، المتصورة والمتحققة، قبل أن ينضم إلى الفوضوية - قام بذلك لكي يظهر لمالفينا مدى الجنون الذي أغرقها فيه حديثها الفضائحي مع المهندس. لكن ذلك

لم يكن له أي تأثير على مالفينا. وهي حتى لم تلاحظ ذلك، كونها كانت مأخوذة بكلمات رومولو. لكن إذا كان هذا العمل الجبان وغير اللائق، ذو الانعكاس العميق على المجتمع، لم يصبح الموضوع الرئيس لكل التعليقات، فذلك بسبب وقائع مثل مغازلة مالفينا ورومولو بالذات، وحريق أعداد ياريو ده إيليوس وضرب موظف المحافظة.

هنأه فيليبي على تصرفه الشجاع. وهكذا بدأت صداقته للمصلح. كان جوزويه يحمل الكراريس إلى غرفته فوق دار السينما فيتوريا. واحتقر مالفينا، محتفظاً لها، مع هذا، بالحب الأبدي والخالد. فهي لم تكن جديرة بذلك. وأطرى غلوريا، كضحية للمجتمع، وذات النقاء الملطخ، المغتصبة بالقوة، والمنبوذة من التآلف الاجتماعي. كانت قديسة عن حق. كتب كل هذا - من دون أسماء، هذا واضح - في نثر متهور ملأ به الدفاتر. وبما أن الامر لم يكن مجرد محاكاة فقد عانى جوزويه في الواقع، وتخيل في أن يحمل إيليوس إلى قمة الفضائح ، ويصرخ في الشوارع معلناً اهتمامه بغلوريا، وبالرغبة التي توحيها له - كان حبه لا يزال لمالفينا - وبالاحترام الذي هي جديرة به. متحدثاً معها أمام نافذتها، وخارجاً معها متأبطاً ذراعها ليذهب واياها إلى غرفته المتواضعة لتسكن معه حيث يكتب ويقيم. يعيش معها، في حياة المدانين، منقطعاً عن المجتمع، مطروداً من البيوت. ويقذف هذا الرعب بوجه مالفينا، شاكياً: «هل ترين إلى ما انتهيت إليه؟ فأنتِ المذنبة!».

كل هذا قاله لنسيب، وهو يشرب في الحانة. وكان العربي يحدق إليه باحترام. أليس هو نفسه كان يفكر بإرسال كل شيء إلى الجحيم والزواج بغابرييلا؟ لم يسد إليه النصيحة، ولم يحجبها عنه، إنما تنبأ قائلاً:

«ستندلع ثورة.»

كان هذا ما يرغب به جوزويه. بيد أن غلوريا انكفأت عن النافذة مبتسمة، عندما اتجه هو إلى هناك، للمرة الثانية. وأرسلت إليه في ما بعد، مع خادمة، رسالة بخط

سيىء وإملاء أسوأ منه، مبللة بالعطر، تقول في نهايتها: «لا تؤاخذونا على هذه القذارات». في الواقع كانت القذارات كثيرة ما يجعل القراءة صعبة. يجب ألا يقترب من النافذة، فالكولونيل سيعرف أخيراً، وهذا أمر خطير. خاصة في هذه الايام حيث سيصل بين لحظة وأخرى، وسيأتي للعيش عندها. وما إن يغادر العجوز، سوف تعلمه كيف يستطيعان الالتقاء.

تعرض جوزويه لصدمة جديدة. فقد اجتمعت آنئذٍ في خيبته، فتيات المجتمع ونساء الشعب. ومن حسن حظه أن غلوريا لم تقرأ دياريو ده إيليوس. لأنه بصق فيها على حرص غلوريا: «ابصق على النساء الثريات والفقيرات، النبيلات وبنات الشعب، الفاضلات واليسيرات المنال. فلا تحركهن إلا الأنانية والمصلحة الشريرة».

خلال فترة معينة، انهمك في التجسس على مغازلات مالفينا، مكرساً وجوده للمعاناة، والكتابة والشتم، وليعيش دور العاشق الرومنسي المهان. ولم يعد ينظر إلى النافذة المنعزلة. كان يحاصر غابرييلا، يكتب لها أشعاراً في عودة موقتة إلى الشعر المقفى، مقدماً لها رباعية هزيلة فقيرة الترف، لكنها غنية في الفن. كانت غابرييلا تبتسم ، فقد كانت تحب الإصغاء.

لكن في الأمسية التي فيها ضرب ميلك مالفينا، رأى جوزويه وجه غلوريا الحزين، حزين من أجل الفتاة التي تُضرب، حزين من أجل جوزويه المهمل، حزين من أجلها هي في وحدتها المتجددة. فكتب لها على الفور رسالة، ومر قرب النافذة، وهناك تركها.

وبعد مرور بضع ليال، فيما كان الصمت يخيم على الساحة، ويعود آخر المتسكعين ليلاً إلى بيوتهم، اجتاز عتبة الباب الثقيل المفتوح جزئياً. فسحق فمٌ فمه، وأحاطت ذراعان بكتفيه الهزيلتين دافعتين إياه إلى الداخل. فنسي مالفينا، حبه الأبدي والخالد.

وحينما أزف شروق الشمس، ومعه حانت ساعة الذهاب، قبل أن يبدأ المبكرون

صباحاً في التوجه إلى سوق السمك، حينما مدت شفتيها الشهوانيتين لآخر القبلات في ليلة النار والعسل، أعلن لها عن خططه: سيتأبط ذراعها في الشوارع، مواجهاً المجتمع، ويسكن الاثنان في الغرفة الصغيرة فوق دار سينما فيتوريا، في فقر ناسكين، لكن غنيين في الحب... فهو لن يستطيع أن يقدم لها بيتاً مثل بيتها، ولا ترفاً وخادمات، ولاعطوراً وحلياً مثل التي عندها. فهو ليس مزارعاً للكاكاو. إنه مدرِّس متواضع ذو استحقاقات زهيدة. لكن، الحب...

ولم تتركه غلوريا يكمل العرض الرومانطيقي:

«كلا، يا حبيبي، فهذا مستحيل.»

كانت تريد الأمرين معاً؛ الحب والرفاهية، جوزويه وكوريولانو. كانت تعرف امرءً يعرف كيف يعيش معنى البؤس. مذاق الفقر المر. كانت تعرف أيضاً تقلب الرجال. كانت تريد امتلاكه، لكن خفية، من دون أن يعرف الكولونيل كوريولانو، فيفقد ثقته بها. تريده أن يصل في عز الليل، ويخرج عند الفجر. كان يتصنع عدم رؤيتها أمام النافذة، ولا يحييها. هكذا أفضل. فيه طعم الخطيئة وجاذبية الغموض.

«إذا عرف العجوز قُضي علي. فلا بد من الحرص الشديد.»

أجل إنها متيمة، كيف تشكك بهذا الأمر بعد تلك الليلة حيث كانت كالفرس وكالكلبة، ناراً مشتعلة؟ لكنها كانت مغتبطة أيضاً وحذرة، حريصة على أدنى حد من المخاطرة، را غبة بالاحتفاظ بكل شيء. المجازفة كانت موجودة دائماً، لكن يجب اختصارها قدر الإمكان.

«يا حبيبي، سأجعلك تنسى أنني فتاة شريرة.»

- لقد سبق ونسيت...

- هل ستعود الليلة المقبلة؟ سوف أنتظرك...

لم يحلم أن تصير مسألته مع غلوريا على هذا الشكل. لكن ماذا يفيد قوله لها إنه لن يعود؟ حتى في تلك اللحظة، حيث كان لا يزال مجروحاً بسبب المعرفة التي

تحسب فيها مخاطر الحب، وكيف تنتصر عليها، وبسبب الحذاقة الباردة التي بها تجعله يتقبل فضلات الكولونيل، كان جوزويه يشعر أن العودة أمر لا يستطيع تجنبه. فقد كان مقيداً إلى ذلك السرير ذي الأشياء العجيبة واللماعة. ها إن حباً آخر قد بدأ.

ازفت ساعة المغادرة، فابتعد مجتازاً الباب. يجب أن ينام بضع دقائق قبل مواجهة الأولاد، عند الثامنة، في درس الجغرافيا. فتحت بالمفتاح درجاً وأخذت منه ورقة نقدية بقيمة مائة ألف ريال قائلة:

«أود أن أعطيك شيئاً، شيئاً تستطيع أن تحمله لتتذكرني اليوم كله. أنا لا أستطيع شراء أي شيء، فقد يثير الريبة. فاشتره لي...»

أراد الرفض في حركة متعالية. فعضته من أذنه قائلة:

– إشتر حذاءً، وحينما تمشي تفكر أنك تدوس فوقي. لا تقل لا، فأنا أطلب منك.

كانت قد رأت النعل المثقوب في الحذاء الأسود.

– إنه لا يكلف أكثر من ثلاثين ألف ريال...

وتأوهت بين ذراعيه وهي تقول:

– اشتر جوارب أيضاً...

في المكتبة القرطاسية، بعد الظهر، وهو منهك القوى من النعاس، أعلن جوزويه بشكل حاسم، العودة إلى الشعر، الذي بات الآن حسياً، ليغني متع اللحم. وأضاف:

– الحب الأبدي غير موجود. ومع أنه أقوى عشق كان في حياتي، فلا بد أن يحين أجله، وأن ينتهي، ويولد حب آخر.

وأكمل جوان فولجنسيو:

– لهذا بالضبط، الحب خالد. لأنه يتجدد. ينتهي العشق ويبقى الحب.

ومن نافذتها، كانت غلوريا المنتصرة والشهوانية تبتسم للعانسات وهي راضية. لم تعد تغار من أحد، فقد انتهت العزلة.

أغنية غابرييلا

هكذا ارتدت الفستان وانتعلت حذاءها، مع جوربين، وكل ما يلزم لأناقتها، حتى بدت ابنة رجل ثري، من أسرة محترمة. وصاحت الدونا آرميندا:

- لا يوجد في إيليوس من يصل إلى قدميك. لا متزوجة ولا فتاة، ولا عشيقة. لا أرى أحداً.

دارت غابرييلا حول نفسها بسرعة أمام المرآة، معجبة بنفسها. أن تكون جميلة أمر حسن. يجنّ الرجال بها، يهمسون لها بعبارات من صوت مسحوق. إنها تحب الإصغاء إذا كان الذي يقول لها ذلك هو شاب.

- السيد جوزويه يريد أن أذهب لأسكن معه، تصوري يا سيدتي! إنه شاب جميل جداً...

- ليس عنده مكان ليسقط فيه ميتاً، مدرّس للأولاد. لا تفكري بهذا. بوسعك الاختيار.

- لا أفكر، كلا. إني لا أحب العيش معه. حتى لو...

- هكذا يريدك الكولونيل، من دون أن نحسب القاضي، ومن دون أن نتكلم على السيد نسيب، وهذا يحتضر...

إبتسمت، وقالت:

- لماذا، لا أدري، كلا... السيد نسيب طيب. إنه الآن لا يتوقف عن تقديم الهدايا لي. هدايا كثيرة... إنه ليس عجوزاً ولا شيء من هذا!.... فلماذا كل هذه الأشياء؟ إنسان طيب مثله...

- لا تندهشي إذا طلبك للزواج...

- لا لزوم لذلك، فلماذا ينبغي أن يطلب؟ إنه ليس بحاجة.

إكتشف نسيب أن بين أسنانها سناً مثقوبة، فأرسلها لتعالجها ووضع سن ذهبية.

اختار هو بالذات طبيب الأسنان (تذكر أوزموندو وسينيازينيا) إنه عجوز نحيل البنية في شارع المرفأ. بعد أن ترسل الأطباق وتعد عشاء نسيب، تذهب إلى طبيب الأسنان مرتين في الأسبوع، مرتدية فستانها القطني. الآن، اشرفت المعالجة على نهايتها ، فالسن قد عولجت. مع الأسف. كانت تجتاز المدينة، وجسدها يتمايل، تتطلع إلى واجهات المحال، وإلى الشوارع المزدحمة بالناس الذين تحتك بهم عند مرورها. وكانت تسمع كلمات، وعبارات تتغزل بها. شاهدت السيد إيبامينونداس يقيس قماشاً، يبيع نسيجاً. وعند عودتها توقفت في الحانة، الملأى في ساعة الكؤوس فاتحة الشهية. استاء نسيب:

«ماذا جئت تفعلين؟

– مررت لأرى فقط...

– ترين من؟

– لأرى السيد نسيب...»

لم تكن بحاجة لأن تقول أكثر من ذلك، فقد زال كل شيء. وكانت العانستان تتطلعان، والرجال يتطلعون والأب باسيليو جاء من الكنيسة ليباركها ويقول لها:

«ليباركك الله، يا وردتي، وردة أريحا.»

لم تكن تعرف ما المقصود من ذلك. لكنه كان جميلاً. إنه يوم لذيذ، يوم الذهاب إلى طبيب الأسنان. في قاعة الانتظار كانت تستغرق في التفكير. السيد الكولونيل مانويل داس أونساس، يا للقب المضحك، العجوز العنيد، بعث إليها برسالة: إذا أرادت فإنه يضع باسمها حقلاً مزروعاً، في دائرة الكاتب العدل. حقل... لو لم يكن السيد نسيب طيباً جداً، والعجوز عجوزاً جداً، لقبلت. ليس من أجلها، بماذا يفيدها؟ لماذا الحقل؟ إنها لا تريده لها بالذات... إنما لتعطيه لكليمينتي، فهو يريد ذلك بشغف... أين حط رحاله، كليمينتي؟ ألا يزال في حقل والد الفتاة الجميلة صاحبة المهندس؟ لقد اخطأ إذ كان يجلد الفتاة المسكينة بالسوط، ماذا فعلت لتستحق ذلك؟ لو كان لديها حقل لأعطته لكليمينتي، كم سيكون ذلك حسناً... لكن السيد نسيب لن

يتفهم ذلك، لن تتركه من دون طاهية. لو لم يكن من أجل هذا، لكان بوسعها القبول. العجوز كان قبيحاً، لكنه يقضي في الحقل متسعاً من الوقت، وفي هذا الوقت يستطيع السيد نسيب القدوم ليؤاسيها ويضاجعها...

ثمة تفكير بأمور سخيفة. التفكير أحياناً حسن، وأحياناً ليس كذلك، التفكير في الميت، في الحزن، لا تحبه، كلا. لكنها فجأة أخذت تفكر في الذين ماتوا في الطريق، وفي خالها من بينهم. مسكين خالها، كان يضربها وهي صغيرة. اندس في فراشها وكانت لا تزال ابنة صغيرة. كانت زوجة خالها تشدّها من شعرها، تشتمها بأسماء قبيحة، وكان هو يدفعها ويعطيها قطعاً من الكريما. لكنه لم يكن سيئاً، كان فقيراً جداً، ولا يستطيع أن يكون طيباً. كانت تحب كثيراً التفكير بأمور مرحة. التفكير في الرقصات في الحقل، والقدمان الحافيتان تخبطان على الأرض. في المدينة المضيئة حيث كانت، بعد موت زوجة خالها، في البيت الثري للناس المتكبرين. التفكير ببيبينو. هذا كان حسناً.

انتهت من معالجة سنها، يا للأسف! إنها سن ذهبية. السيد نسيب قديس. دفع لطبيب الأسنان من دون أن تطلب. إنه قديس، يمنحها هدايا، هدايا كثيرة، لماذا؟ عندما كان يراها في البار كان يغضب ويغار... أمر غريب.

«ماذا تفعلين هنا؟ هيا امضي إلى البيت...»

كانت تعود إلى البيت، مرتدية الفستان ومنتعلة الحذاء، مع الجوربين وبقية عناصر أناقتها. وأمام الكنيسة، في الساحة، كان الأطفال يلعبون ضمن حلقة. وبنات السيد تونيكو الشقراوات الشعر يشبهن الذرة. أولاد المدعي العام، الولد الذي يعاني من ذراعه، أولئك الأصحاء أولاد جوان فولجنسيو وأولاد الأب باسيليو بالتبني. والزنجي الصغير تويسكا وسط الحلقة يغني وهو يرقص:

«الوردة باتت مريضة،
والقرنفل قام بزيارتها.
فأغمي على الوردة،
وبكى القرنفل».

تابعت غابرييلا سيرها، فتلك الأغنية كانت تغنيها يوم كانت بنتاً صغيرة. توقفت لتصغي، ولتشاهد دوران الحلقة. قبل موت أبيها وأمها، قبل الذهاب إلى بيت خالها. يا لجمال الأقدام الصغيرة على الأرض وهي ترقص! كانت قدماها تشكوان، تريدان أن ترقصا. لم تستطع المقاومة، كانت تعبد لعبة الحلقة. فخلعت حذاءها، وألقته على الرصيف، وركضت إلى الأولاد، تويسكا من جانب، وروزينيا من الجانب الآخر. وأخذت تدور في الساحة وتغني وهي ترقص:

«بوم، بوم، بوم،

قدم، قدم، قدم

در، در، در.

السرطان سمكة هو».

إنها تغني، تدور، وتصفق براحتي يديها، فغابرييلا فتاة صغيرة.

الزهور والمزهريات

انسحبت المجابهات السياسية أيضاً على انتخابات أخوية القديس جرجس، في قلب الكاتدرائية. واراد المطران بأن يوفق بين المتنافسين، فكرر المحاولة التي زرعها آتاولفو باسوس. فقد كان يحب رؤية الموالين لآل باستوس والمتحمسين لموندينيو مجتمعين حول مذبح القديس المحارب. وعلى الرغم من كونه مطراناً ذا شأنً يعتمر القلنسوة الحمراء، لم يتمكن من ذلك.

الحقيقة هي أن موندينيو لم يأخذ قصة الأخوية على محمل الجد. فقد كان يدفع شهرياً وهذا يكفي. قال للمطران إنه مستعد للتصويت إذا صار تصويت على الاسم الذي يشير إليه، بيد أن الدكتور، وعينه على الرئاسة، لم يتراجع. فقد شرع يحضّر مفاتيحه الانتخابية. وكان الدكتور ماوريسيو كاييريس المتدين، والبالغ التأثير، مرشحاً لأن يعاد انتخابه، وهو مدين بهذا للمهندس أيضاً.

تركت نهاية الحب المضطرب صدى واسعاً في المدينة. وبالرغم من أن الحوار على الشاطئ بين ميلك ورومولو لم يسمعه أحد، فقد روي عنه أقلّه حوالى عشر روايات، كل منها أكثر عنفاً من غيرها وأقل تعاطفاً مع المهندس. حتى أنه شمّر راكعاً على ركبتيه في الجادة، وهو يتضرع طالباً الرحمة، وحُول إلى وحش أخلاقي، يقترف شروراً لا يقدم اعترافاً بها، غاوياً للنساء، خطراً مرعباً على عائلات إيليوس. وخصصت له «جريدة الجنوب» أحد أطول مقالاتها - الصفحة الأولى بأكملها وتتمته على الصفحة الثانية - واكثرها بلاغةً. وجعلت الأخلاق والتوراة وشرف العائلات وفضيلة آل باستوس وحياتهم المثلى وتهتك جميع المعارضين بدءاً بزعيمهم وآنابيلا وضرورة إبقاء إيليوس على هامش تحلل التقاليد التي كانت تنتشر في العالم، من هذه المقالة صفحة مختارات أدبية. وفي الحقيقة عدة صفحات.

- إنها تليق بمختارات من البلاهة...» قال النقيب.

إنه تعبير عن العشق السياسي الذي تذوقونه في إيليوس، وخصوصاً العانسات، عندما كرر الدكتور ماوريسيو مقاطع كبيرة من المقالة، خطاب تسلمه المنصب بعدما أعيد انتخابه لرئاسة الأخوية «... مغامرون قادمون من مراكز الفساد بذريعة القيام بأعمال قابلة للنقاش وغير مفيدة، يريدون إفساد الروح النقية لشعب إيليوس...»، وصار المهندس رمزاً للانحلال، وللضياع الأخلاقي. وربما كان هذا عائداً أيضاً إلى واقع كونه أركن إلى الفرار، بجبن، وهو المرتعد خوفاً في غرفته بالفندق، فركب الباخرة خفية من دون أن يودع حتى الأصدقاء.

لقد قاوم وناضل، ووجد بالتأكيد من يؤيده. ولم يبلغ مالفينا عدم التعاطف الذي أحاطه. واضح أنهم كانوا يتوشوشون حول مغازلتها وحول القبلات في دار السينما وعند البوابة. ووجد حتى من يراهن على عذريتها. لكن ربما لأنه عُرف أن الفتاة قد واجهت والدها الغاضب وهي منتصبة الرأس، وصرخت بوجهه فيما كان ينهال عليها بالسوط، من دون أن تحني عنقها، فإن المدينة تعاطفت معها. وعندما أخذها ميلك

بعد حوالى أسبوعين إلى باهيا، ليدخلها كطالبة داخلية في ثانوية «راهبات الرحمة» رافقها أشخاص عديدون إلى المرفأ، حتى بعض زميلاتها من ثانوية الراهبات. وجلب جوان فولجنسيو كيساً من أقراص الحلوى، وشد على يدها قائلاً:

- تشجعي!

فابتسمت مالفينا، وانكسرت نظرتها الجليدية والسامية في وقفتها كتمثال.

لم تكن قطّ أكثر جمالاً مثلما هي الآن. ولم يذهب جوزويه إلى المرفأ، لكنه أسرّ لنسيب القريب منه إلى طاولة البيع في الحانة:

- لقد سامحتها.

كان غير متزن، وثرثاراً. وباتت وجنتاه أكثر تغضناً، وحول عينيه بقع سوداء كبيرة.

نظر نيوغالو الذي كان حاضراً، إلى نافذة غلوريا الضاحكة وقال:

- أنت أيها المدرّس تخفي أمراً ما. فلا أحد يراك في الكباريه، وأنا أعرف كل ما له علاقة بالنساء في إيليوس، وأعرف عشيق كل واحدة منهن. وليست لك واحدة منهن... فأين حظيت حضرتك بهذه البقع حول عينيك؟

- في الدرس وفي العمل...

- إنك تدرس علم تشريح الأعضاء... وأنا أيضاً أحب عملاً كهذا...

كانت عيناه المرتابتان تنتقلان من جوزويه إلى نافذة غلوريا.

كان نسيب أيضاً بادي الارتياب. فجوزويه كان يبدي لامبالاة مفرطة في علاقته مع المرأة الخلاسية، وتخلى كلياً عن إبداء الظرف مع غابرييلا. ثمة أمر ما...

«هذا المهندس أساء نوعاً ما لموندينيو فالكون...

- لا شيء من هذا له أهمية. فموندينيو سيفوز بالتأكيد، إني قادر على المراهنة.

- ليس أكيداً بهذا القدر. لكنه حتى لو فاز، فالحكومة لن تعترف بفوزه، ولسوف ترى...»

إنضمام الكولونيل ألتينو إلى قضية موندينيو، وقطعه العلاقة مع آل باستوس أثارا آخرين عديدين. وخلال أيام راحت الأخبار تتواتر: الكولونيل أوتافيو من بيرانجي، الكولونيل بيدرو فيريرا من موتونس، الكولونيل آبدياس ده سوزا من آغوا بريتا. وكان الانطباع بأن نفوذ آل باستوس إذا لم يكن قد سقط كلياً، فأقلّه عانى هزة عميقة. وجاء عيد ميلاد الكولونيل راميرو بعد أسابيع مما جرى لرومولو، يبرهن على هذه الاستنتاجات. فلم يسبق أن احتفل بصخب كهذا من قبل قطّ. لقد أيقظت المفرقعات عند الصباح الباكر، المدينة، وصدحت الموسيقى وتعالت الهتافات وعزفت الموسيقى أمام منزله وأمام المحافظة. وأقيم قداس أنشد فيه المطران، وأخوية القديس جرجس بكل ثقلها، والكنيسة غاصة بالناس، وعظة الأب سيسيليو المحتفي، بصوته اللاهب والنسائي، خصصت لمزايا الكولونيل. ولقد جاء مزارعون من المنطقة بأسرها، أريستوتيليس بيريس محافظ إيتابونا. كانت تظاهرة للقوة. واستمرت الزيارات طوال اليوم، محولة المنزل إلى عيد. ففتحت قاعة المقاعد ذات المتكآت المرتفعة. وكان الكولونيل أمانسيو ليال يصدر أوامره بإنزال الجعة في الحانات، معلناً الفوز الانتخابي مهما كان الثمن، ومهما كلف. حتى أن بعض المعارضين قدَّموا التهاني للكولونيل راميرو باستوس، ومن بينهم الدكتور. وقد استقبلهم الكولونيل واقفاً، وهو يريد أن يبين لهم، ليس نفوذه فقط، إنما صحته الحديدية أيضاً. والحقيقة هي أنه في الفترة الأخيرة، ضعف كثيراً. ففي السابق، كان يبدو رجلاً متقدماً في العمر لكنه قوي وصلب، أما اليوم فأضحى عجوزاً ذا يدين مرتجفتين.

لم يذهب موندينيو فالكون إلى القداس، ولم يعانقه شخصياً. فقد أرسل باقة ورد كبيرة إلى جيروزا مع بطاقة كتب عليها: «أتوسل إليك يا صديقتي الشابة، أن تنقلي إلى جدك الفاضل تمنياتي بالسعادة. ومع كوني في المعسكر المناهض له، فإني معجب به».

كان ذلك حدثاً. فجميع الفتيات في إيليوس أصبحن متأثرات جداً. لقد بدا لهن

ذلك قمة الكياسة. أمراً لم يُرَ في البلاد التي تعني المعارضة السياسية فيها عداءً مميتاً. وفوق هذا، أي سمو؟ حتى أن الكولونيل راميرو باستوس نفسه، عند قراءته البطاقة وبعدما نظر إلى الزهور، علّق قائلاً:

- حكيم هذا السيد مونديني! إذ أرسل إلي سلاماً مع حفيدتي، لا أستطيع أن أرفض استقباله...

لفترة قصيرة من الوقت، بلغ به الأمر حد التفكير في اتفاق. وتحسس تونيكو والبطاقة في يده، آمالاً جديدة تتوالد. لكن كل شيء بقي في حاله، فالنزاع يغدو كل مرة أكثر حدةً. ترقبت جيروزا أن يأتي مونديني إلى الحفل الراقص الذي تختم به الاحتفالات، في القاعة الفخمة في المحافظة. ولم تتشجع لدعوته، بَيْد أنها أعلمت الدكتور أن حضور مونديني سيحظى بالقبول.

لم يأت المصدّر. فقد وصلت إليه امرأة جديدة من باهيا، فاحتفى بها في منزله. كان هذا محط تعليق في الحانة، واشترك نسيب فيه أيضاً. فالحلوى والأطعمة المالحة في الحفل الراقص في المحافظة كان موصى بها، وقد تحدثت جيروزا شخصياً مع غابرييلا لتوضح لها ما ترغب فيه، ولدى عودتها قالت لنسيب:

«طاهيتك آية من الجمال يا سيد نسيب. ولطيفة جداً...» عبارة تجعلها مقدسة عند نسيب.

لقد اشترت المشروبات من عند بلينيو آراسا. فالعجوز راميرو لم يشأ إغضاب أحد.

كان نسيب يعلق ويشارك ، لكن من دون حماسة. فلم يستطع أي حدث في المدينة، حدث سياسي أم اجتماعي، حتى ولا عربة الأوتوبيس التي انقلبت في الطريق وجرح أربعة أشخاص فيها - مات أحدهم - أن ينتزعه من مشكلته. ففكرة الزواج بغابرييلا التي قذفها تونيكو ذات مرة، بلا مبالاة، أخذت طريقها. لم ير حلاً آخر.

فقد كان يحبها، هذا مؤكد. إنه حب بدون حدود، ويحتاجها كما يحتاج الماء والأكل والسرير للنوم. والحانة أيضاً لا تستطيع ان تزدهر من دونها. فكل هذا الازدهار - المال الذي يجمعه في المصرف وحقل الكاكاو الذي سيشتريه قريباً سينقلب رأساً على عقب إن هي رحلت. فليقدم على الزواج. إنه لم يعد يخشى ذلك. هل يمكن أن يحظى بأمر أعظم من ذلك؟ فمعها كصاحبة حانة على رأس مطبخ من ثلاث أو أربع طاهيات وهي مشرفة على التوابل فقط، يستطيع نسيب أن يحقق حلماً طالما دغدغه منذ وقت طويل: أن يؤسس مطعماً. فهذا هو ما ينقص المدينة. لقد قال موندينيو فالكون وكرر: إيليوس تحتاج إلى مطعم جيد، فالطعام في الفنادق كان رديئاً وعلى الرجال العازبين اللجوء إلى البنسيونات الرديئة، حيث القصعات الباردة. وحينما تصل البواخر، لم يكن المسافرون يجدون مكاناً يتناولون فيه طعاماً جيداً. أين يُقَدَّم عشاء فاخر، احتفالي، عظيم، غير مألوف، مثل العشاء الذي يقدم في بيوت العائلات؟

هو بالذات، موندينيو، سيكون قادراً على الدخول في المشروع بقسم من رأس المال. وحدث أن زوجاً من اليونانيين كانا يفكران بهذا، ويبحثان عن مكان. وبالتأكيد إذا أدارت غابرييلا المطعم، فإن نسيب سوف يقيمه.

لكن أي تأكيد بوسعه الحصول عليه؟ كان يفكر وهو على سرير الاسترخاء في ساعة القيلولة، ساعة عذابه الأسوأ، والسيكار مطفأ في يده، والمرارة تلسع فمه، والشاربان متدليان، حتى أن الدونا آرميندا منذ قليل، تركته في حذر مخيف. في المرة الأولى أحست غابرييلا أنها قد أُغويت بعرض ما. فالدونا آرميندا وصفت بتفاصيل، بفرح سادي تقريباً، تردد العشيقة عندما استقبلت عرض الكولونيل مانويل داس أونساس. فحقل الكاكاو، مع دزينات الأروبات لم يكن شيئاً قليلاً، ومن لا يتردد أمامه؟ فلا هو ولا الدونا آرميندا يعرفان شيئاً عن كليمينتي، وعن غابرييلا لا يعرفان إلا القليل...

إنه يقضي أياماً كالمجنون، وأكثر من مرة كان يفتح فمه ليكلمها على الزواج. لكن الدونا آرميندا نفسها تؤكد أن غابرييلا ترفض عرضه.

«لم أر مثيلاً لها قطّ... إنها جديرة بخاتم الزواج، جديرة به.»

لم يكن ذلك منتهاها ولا سعرها، لكنه كان قريباً من ذلك. ألم يسبق لها أن حاولت القبول؟ وإذا أضاف الكولونيل مانويل داس أونساس منزلاً على ناصية الشارع إلى جانب شجرات الكاكاو، مع وثيقة ممهورة؟ لا شيء يؤثر في النساء أكثر من أن يكون لهن منزلهن الخاص. تكفي رؤية الشقيقتين دوس ريز وهما ترفضان مبلغاً من المال لبيوتهما، للسكن أو للإيجار. ومانويل داس أونساس يستطيع ذلك تماماً. فالمال كان سريراً للقط في مزرعته، ومع محصول هذه السنة - شيء وفير! - فإن ثراءه يتزايد. كان يبني في إيليوس قصراً حقيقياً لعائلته، حتى أن فيه برجاً يستطيع منه مشاهدة المدينة بأسرها: البواخر في المرفأ، السكة الحديد. إنه مجنون بغابرييلا، يا للعجوز المتصابي. أوصل سعرها إلى أعلى حد ممكن...

لقد حشرته الدونا آرميندا في اللاديرا، وتونيكو يسأله كل يوم، في مطلع فترة بعد الظهر، في الحانة:

«وهذا الزواج، أيها العربي؟ هل صممت؟»

كان قد صمم في أعماقه، كانت المسألة منحلّة. إنما يؤجل ذلك خوفاً مما سيقولونه. هل بوسع، أصدقائه، أن يفهموا ذلك؟ وكذلك عمه، عمته، أخته، صهره، أقاربه الأثرياء في إيتابونا، آل أشقر المتكبرين أولئك؟ وأخيراً ماذا يهمه من ذلك؟ فأقاربه في إيتابونا ما كانوا يأبهون له، وهم متمركزون بالكاكاو الذي يملكونه. وليس مديناً لعمه في شيء، وليذهب صهره إلى الجحيم. أما بالنسبة إلى الأصدقاء، زبائن حانته، شركائه في الغامون والبوكر، فهل أظهروا له مثلاً، باستثناء تونيكو، تقديراً؟ ألم يتحلقوا حول غابرييلا، ويتنازعوا عليها على مرأى منه؟ فأي احترام هو مدين به لهم؟.

في ذلك اليوم، كان قد جرى النقاش طويلاً قبل الغداء، في الحانة، حول الأمور السياسية، ومسألة المضيق. وانتشرت شائعات روجها أناس تابعون لآل باستوس:

وضع تقرير المهندس قيد الحفظ، ودفنت مسألة المضيق مرة أخرى. كان الإلحاح عبثاً، فهي مشكلة من دون حل. وقد صدق كثيرون، إذ لم يروا المهندس لا مع أدواته، ولا قاربه، يتفحص تربة المضيق. وفوق هذا، فقد ركب مونديني الباخرة إلى الريو. واقترح أمانسيو ليال رهاناً آخر على ريبيرينيو، هو عبارة عن عشرين كونتو على أساس أن القاطرات والجرافات لن تأتي أبداً. ومجدداً استدعي نسيب ليكون شاهداً.

ربما لهذا السبب، في الساعة الاعتيادية لتناول المشروب المر، كان تونيكو يبدو ذا مزاج طيب. فقد عاد إلى الحضور في الكباريه، مقيماً علاقة الآن مع مواطنة من ولاية سيارا ذات ضفيرتين سوداوين.

«الحياة جميلة...

– لديك الحق لتكون راضياً. مع امرأة شابة...»

وافق وهو ينظف أظفاره بقشة:

«إني راضٍ حقاً... فأعمال المضيق انتهت... وابنة سيارا نارية...»

لم يكن الكولونيل مانويل داس أونساس، في النهاية، هو صاحب القرار بالنسبة إلى نسيب. إنما كان القاضي بالذات.

«وأنت أيها العربي، دائماً حزين؟

– ماذا أفعل؟

– ستبقى أيضاً أكثر حزناً. خبر سيىء لك.

– ما هو؟ قال بصوت قلق.

– القاضي، يا عزيزي، استأجر منزلاً في بيكو داس كواترو ماريبوزاس...

– متى؟

– مساء أمس...

– لمن؟

– لمن سيكون ؟»

ساد صمت يسمع في ظله تحويم الذباب. وعاد شيكو من الغداء، وقاطعه:

«كلفتني غابرييلا أن أقول لك يا سيدي، إنها ستخرج ولكنها ستعود سريعاً.

- من أجل ماذا تخرج؟

- لا أدري، يا سيدي. يبدو أنه لشراء بعض الأشياء الناقصة.»

كان تونيكو يتطلع بتهكم. فسأله نسيب:

«عندما تتحدث أنت عن أمر الزواج هذا، هل أنت جاد؟ هل ترى ذلك؟

- واضح أنه هكذا. لقد قلت لك: لو كنت أنا...

- هل صممت؟

- لكن يوجد بعض المشكلات، بوسعك المساعدة.

- تعالى لأعانقك، تهاني! أيها التركي المحظوظ!»

بعد العناق، تابع نسيب وهو لا يزال قلقاً:

«ليس لديها أوراق، لقد استقصيت ذلك. حتى ولا سجل ولادة، ولا تعرف متى ولدت... ولا اسم عائلة أبيها. فقد مات ذووها عندما كانت صغيرة ولا تعرف شيئاً. إن خالها من آل سيلفا لكنه كان شقيق أمها. لا تعرف عمرها، ولا تعرف شيئاً. فماذا أفعل؟»

قرّب تونيكو رأسه:

«أنا صديقك يا نسيب، ولسوف أساعدك. فبالنسبة إلى الأوراق، لا تكترث. فأنا أدبر كل شيء. في دائرة كتابة العدل، وثيقة ميلاد، اسم مخترع لها، لأبيها ولأمها... إنما هناك أمر واحد: أريد أن أكون إشبين الزواج...

- إنك مدعو...»

وفجأة وجد نسيب نفسه متحرراً، عادت إليه كل بهجته، أحس بحرارة الشمس، بنسيم البحر العليل.

دخل جوان فولجنسيو في الوقت المحدد. كانت ساعة افتتاح المكتبة القرطاسية. فصاح تونيكو:

«هل تعرف الخبر الجديد؟

- إنها كثيرة... أي منها؟

- نسيب سوف يتزوج...»

فوجئ جوان فولجنسيو وهو الدائم الهدوء:

- هل هي حقيقة، يا نسيب؟ إنك لم تكن خاطباً على ما أعلم. فمن هي السعيدة، هل بالوسع معرفتها؟

- من بوسعها أن تكون؟ خمِّن... قال تونيكو مبتسماً.

فقال نسيب:

- سأتزوج بغابرييلا. أحبها، وسأتزوج بها. ولا أحفل بما يقولون...

- بوسعهم القول إنك ذو قلب نبيل، رجل خير فقط. وغير ذلك لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً. تهاني...»

«أعطني النصيحة: هل ترى أن ذلك سيكون صواباً؟

- لا تعطى النصائح في هذه المسائل، يا نسيب. فإذا كان ذلك صواباً، من يستطيع التكهن؟ إني أرغب أن يكون هذا صواباً، فأنت خليق بذلك.

- إنما...

- إنما ماذا؟

- ثمة أزهار معينة، هل لاحظت ذلك؟ إنها جميلة ويفوح الأريج منها عندما تكون على أغصانها في الحدائق. وإذا وضعتها في الأصص، حتى ولو كانت أصصاً من الفضة، فإنها تذبل وتموت.

- ولماذا ينبغي أن تموت؟»

لا شيء من هذا يا سيد جوان. دعنا من الشعر... إنه سيكون الزواج الأكثر حيوية في إيليوس.» قاطعه تونيكو.

ابتسم جوان فولجنسيو موافقاً:

– أنا أتفوه بالسخافات، يا نسيب. أهنئك من قلبي. وإن تصرفك هذا ينم عن نبل عظيم، من رجل متحضر.

– هيا نشرب الأنخاب.» اقترح تونيكو»

وكان النسيم يهب من البحر، والشمس تسطع ونسيب يصغي إلى تغريد العصافير.

جرافات وعروس

كان الزواج الأكثر حيويةً في إيليوس. ألقى القاضي (ذو العشيقة الجديدة التي استأجر لها منزلاً في بيكو داس كواترو ماريبوزاس عندما خاب أمله من غابرييلا) بضع كلمات يتمنى فيها السعادة لذينك الزوجين الجديدين اللذين جمعهما حب حقيقي يتخطى القناعات الاجتماعية وفروق الموقع والطبقة.

كانت غابرييلا وهي ترتدي الثوب الأزرق السماوي، وعيناها خفيضتان، والحذاء يضيق بقدميها، والابتسامة الخجولة على شفتيها، أكثر إغواءً. فقد دخلت البهو تتأبط ذراع تونيكو، الكاتب العدل وهو في أناقة الأيام العظيمة. وكان البيت في لاديرا ده سان سيباستيان يغص بالناس. فقد جاء الجميع، مدعوون أم غير مدعوين. لم يشأ أي امرئ أن يخسر المشهد. منذ أن كلمها في أمر الزواج، أرسل نسيب غابرييلا إلى بيت الدونا آرميندا. لن يكون ملائماً أن تنام تحت السقف نفسه الذي ينام تحته العريس.

وسألته غابرييلا:

– لماذا؟ ليس أمراً مهماً، كلا...

أجل، إنه أمر مهم. فالآن هي عروسه، وستكون زوجته، جميع مظاهر الاحترام كانت قليلة. وعندما زف إليها الخبر، حينما طلب يدها، أخذت تفكر:

– لماذا يا سيد نسيب؟ لا لزوم لذلك...

- ألن تقبلي؟

- بالنسبة إلى القبول، فأنا أقبل. لكن لا لزوم لهذا. أحب أن يكون الأمر من دون هذا.

اتفق مع خادمتيه، الآن لديه خادمتان: واحدة للترتيب، والأخرى صبية لتتعلم الطهو. بعد ذلك سيفكر في الأمور الأخرى، في المطعم. وأمر بطلاء البيت، وساعدتها عمته على اختيار، الثياب والغلالات والأحذية والجوارب. لقد تقبّل العمّان المفاجأة، فكانا لطيفين، لدرجة أنهما قدما بيتهما لاستضافتها. لكن نسيب لم يقبل. كيف سيبقى تلك الأيام من دونها؟ وكان الجدار الذي يفصل فناء منزله عن فناء منزل الدونا آرميندا منخفضاً. وكعنزة جبلية، كانت غابرييلا تقفز، كاشفة عن فخذيها، لتجيء ليلاً لتنام معه. ولم تشأ أخته وصهره أن يعرفا شيئاً عن الأمر، وظلا مستاءين. وأرسل آل أشقر في إيتابونا هدايا: عاكساً للضوء مصنوعاً بأجمعه من المحار، وهو شيء جدير بالرؤية.

وصل جميع الناس، ليروا نسيب مرتدياً بذلة زرقاء كحلية، وقد نما شارباه، ووضع قرنفلة في عروة سترته، ولمع حذاءه بالدهان. أما غابرييلا المبتسمة فكانت عيناها في الأرض. وأعلن القاضي أنهما زوجان: نسيب أشقر سعد، في الثالثة والثلاثين، تاجر، مولود في فيراداس، مسجل في إيتابونا. وغابرييلا دا سيلفا، في الحادية والعشرين، حرفتها الأعمال البيتية، مولودة في إيليوس ومسجلة فيها.

البيت مليء بالناس، كثير من الرجال وقليل من النساء، زوجة تونيكو التي كانت شاهدة والشقراء جيروزا وابنة أخيه وزوجة النقيب الطيبة والبسيطة جداً والشقيقتان دوس ريز مع كثير من الابتسامات وزوجة جوان فولجنسيو المرحة وهي أم لستة أبناء. أما الأُخر فلم يرغبن في القدوم. أي زواج شاذ كان هذا؟

كان ثمة طاولات غنية بالماكولات وبالمشروبات. ولم يتسع لها البيت لوفرتها، فملأت الردهة. كان الزواج الأكثر حيوية في إيليوس. حتى أن بلينيو آراسا، الذي نسي منافسة الحانات، جلب شمبانيا. وكزواج ديني لم يكن أفضل منه. ويومها فقط، عرف أن نسيب كان مسلماً، إذ إنه في إيليوس قد أضاع الله ومحمداً، ومن دون أن

يكسب المسيح ويهوه. ولم يتقاعس الأب باسيليو، مع هذا، عن المجيء، ليبارك غابرييلا:

- فلينعم الله عليك بالبنين والبنات، يا وردتي، وردة أريحا.

«الأولاد، أنا سأعمدهم، شئت أم لم تشأ...» قال لنسيب مهدداً.

- إنا موافق أيها الأب الجليل...»

كانت الحفلة ستتواصل إلى الليل بالتأكيد، لو لم يصرخ أحد ما من الرصيف عند الغسق الطويل:

«أنظروا، لقد وصلت الجرافات...»

تدافعت الناس نحو الشارع وجاء موندينيو فالكون، وهو في طريق عودته من الريو، إلى حفلة الزفاف، جالباً وروداً لغابرييلا، وروداً حمراء، وعلبة لفائف فضية لنسيب. انطلق نحو الشارع وهو مبتسم المحيا، متجهاً إلى المضيق، حيث كانت قاطرتان تقطران أربع جرافات، وصدى هتاف حماسي، ورد على الهتاف آخرون عديدون، وبدأ الحضور يودع بعضهم بعضاً. كان موندينيو الأول في التوديع، فخرج مع النقيب والدكتور.

إنتقلت الحفلة إلى المرسى، إلى أرصفة النزول من البواخر، وبقيت السيدات لفترة من الوقت فقط، وبقي أيضاً جوزويه، والإسكافي فيليبي. وكانت غلوريا تنظر إلى الرصيف، حتى أنها غادرت نافذتها في ذلك النهار. وعندما تمنت الدونا آرميندا أخيراً ليلة طيبة وخرجت، كان المنزل خاوياً وفوضوياً، والزجاجات والأطباق منثورة في كل مكان. وتكلم نسيب:

- «بيبي...

- سيد نسيب...

- لماذا «سيد» نسيب؟ أنا زوجك ولست سيدك...

فابتسمت، وخلعت حذاءها، ثم بدأت بالترتيب وهي حافية القدمين. فأمسكها من يدها:

- لن يعد بوسعك فعل ذلك، بيبي... قال لها لائماً.

- فعل ماذا؟

- السير من دون حذاء. فأنت الآن سيدة.

اعتراها الفزع.

- ألا أستطيع ذلك؟ ألا أمشي حافية القدمين على الأرض؟

- كلا، لا تستطيعين.

- ولماذا؟

- إنك سيدة، ذات ممتلكات، ومركز.

- لست أنا يا سيد نسيب، فأنا غابرييلا فقط...

أخذها بين ذراعيه، وحملها إلى السرير:

- سوف أعلمك التهذيب.

- يا للشاب الجميل...

وفي المرفأ، كان الجمهور يزعق ويهتف. وظهرت مفرقعات، ولا أحد يعرف أين، وهي ترتفع إلى السماء، ويهبط الليل وضوء المفرقعات يضيء طريق الجرافات. وأخذ الروسي جاكوب البالغ التأثر، يتكلم لغة مجهولة. وكانت القاطرات تصفر، وهي تدخل المرفأ.

القسم الرابع

ضوء قمر غابرييلا

ربما هي طفلة، أو أنها
الشعب، من يدري
لم تتغير المدينة والمرفأ والقرى والدساكر فحسب،
إنما تغيرت أيضاً العادات، وتطور الرجال...

(من اتهام الدكتور إيزكييل برادو،
في محاكمة الكولونيل جيوزينيو ميندونسا.)

غناء صديق غابرييلا

أوه، ماذا فعلت أيها السلطان،
بفتاتي الصغيرة المرحة؟

قصراً ملكياً منحتها
وعرشاً من أحجار كريمة،
وأحذية موشاة بالذهب
والزبرجد والياقوت،
وجمشت لأصابعها،
وفساتين مرصعة بالماس،
وجواري ليخدمنها،
ومكاناً تحت مظلتي
وملكة سميتها.

أوه، ماذا فعلت أيها السلطان
بفتاتي الصغيرة المرحة؟

ما كانت تريد سوى السافان
لتقطف منه الازهار البرية.

ولا تريد سوى مرآة
من الزجاج لترى نفسها فيها.
ما كانت تريد سوى حرارة الشمس
لكي تدع نفسها تحيا.
ما كانت تريد إلا ضوء قمر
بلون الفضة، لترتاح.
ما كانت تريد سوى حب الرجال
لتحب كما يجب.

أوه، ماذا فعلت، أيها السلطان،
بفتاتي الصغيرة المرحة؟

رافقت إلى الحفل الملكي الراقص
فتاتك العزيزة الفرحة
مرتدية ثوب ملكة.
تحادثت مع أميرات
تناقشت مع دكاترة
شربت من أغلى نبيذ
وتذوقت فاكهة من أوروبا
وذراعَي الملك تأبطت
كملكة حقيقية.

أوه، ماذا فعلت، أيها السلطان،
بفتاتي الصغيرة المرحة؟

فلتستعد أفراحها
وحديقة الغوايابا
ورقصاتها التقليدية
وفستانها القطني
وخفيها الخضراوين المتواضعين
وافكارها البريئة
وضحكتها الحرة والصادقة
وطفولتها الضائعة
وتأوهاتها في السرير
وجموحها إلى الحب.
فلماذا تريد ان تغيرها؟
هذا هي اغنية غابرييلا
المصنوعة من القرنفل والقرفة.

شاعر ملهم في صراع مع قلق المال الخسيس

«الدكتور آرجيليو بالميرا، شاعرنا المهيب والملهم، شرف الآداب الباهيانية.» كان الدكتور يقدِّمه بنبرة من الاعتزاز في صوته.

«شاعر، هيه... كان الكولونيل ريبيرينيو ينظر إليه بريبة: مثل هؤلاء الشعراء عموماً ليسوا أكثر من مجرد ادعياء. «إنه لشرف كبير لنا...»

الشاعر الملهم، وهو في الخمسين من عمره، ضخم وسمين، خلاسي يميل لونه إلى الصفاء، متماسك جداً، ذو ابتسامة عريضة وشعر كلبدة الأسد، يرتدي سروالاً مخططاً وسترة وصداراً من قماشين أسوديْ اللون، بالرغم من الحرارة المحرقة،

وأسنان ذهبية متعددة، وهيئة عضو مجلس الشيوخ في الأرياف، كان بكل وضوح معتاداً على تلك الريبة من الرجال الخشنين في البلاد، إزاء ربات الشعر والذين ينتقوهم. سحب بطاقة زيارة من جيب صداره، وتنحنح لجلب انتباه جميع من في الحانة، واطلق لصوته العنان:

«مجاز في العلوم القانونية، والاجتماعية، أو بالأحرى: محامٍ ، ومجاز في الآداب. مدع عام في قطاع موندونوفو، في السرتون الباهياني في خدمتك ايها السيد العزيز.

ثم انحنى وقدم البطاقة إلى ريبيرينيو المذهول. وفتش المزارع عن نظارتيه ليقرأ:

د. آرجيليو بالميرا

مجاز

(في العلوم القانونية والاجتماعية

وفي العلوم والآداب)

مدع عام

شاعر منوه به

مؤلف ستة كتب مكرسة

من قبل النقد

موندو نوفو– باهيا   بارنازو

اضطرب ريبيرينيو كلياً، فنهض عن كرسيه، وتفوه بجمل غير مترابطة:

«حسناً يا دكتور... أنا رهن أوامرك...»

قرأ نسيب البطاقة من فوق كتف المزارع، وتأثر هو أيضاً وأحنى رأسه:

- نعم، يا سيدي، هذا مهم!»

لم يكن الشاعر يحب إن يضيع وقته. وضع الحقيبة الجلدية على الطاولة، وفتحها. كانت إيليوس أكبر مدن المنطقة، وعليه أن يقوم بزيارات كثيرة. فسحب أول رزمة من بطاقات الدخول إلى المحاضرات.

إن ساكن بارنازو الشهير، للأسف، عرضة للتقلبات المادية في هذا العالم البائس ، حيث المعدة تسمو على الروح. وهو يحتفظ بحس عملي واضح، فحينما يخرج في جولة لالقاء المحاضرات يدرس كل ساحة وينتزع منها أقصى ما يستطيع. وعلاوة على هذا، عندما يصل إلى بلاد غنية، يسهل فيها الحصول على المال ، مثل إيليوس، يحاول جاهداً الحصول على بعض الاحتياطات ليعوض عن الخسائر التي يمنى بها في المراكز الأشد تخلفاً، حيث احتقار الشعر والاشمئزاز من المحاضرات، يبلغان حد قلة التهذيب وصفق الباب بوجهه. ولكونه محصن بوقاحة رائعة، لم يكن يدع نفسه يُغلب، حتى في هذه الحالات المغالى فيها. وكان يعود محملاً ودائماً منتصراً تقريباً، أقلّه ببطاقة انتقال.

كانت مخصصاته كمدع عام تكفي فقط، وبشكل هزيل، باحتياجات الأسرة الكثيرة العدد. كانت عائلته، بالفعل، أكثر من ثلاثة أبناء. وكان الشاعر المحترم يخضع للقوانين المكتوبة، الجيدة ربما لعامة الناس، بيد أنها غير مريحة من دون شك للكائنات الاستثنائية مثل «المجاز» آرجيليو بالميرا. فالزواج والاكتفاء بزوجة واحدة على سبيل المثال، قد لا يستطيع شاعر حقيقي أن يخضع نفسه له؟ إنه ما كان ليرغب في الزواج قط بالرغم من العيش حوالى عشرين سنة، قديماً مع المشاكسة أوغوستا، التي أصبحت اليوم عجوزاً ، في ما كان يمكن تسميته منزله الرئيسي. فقد أهداها كتابيه الأولين: «الزبرجد» و«الماس» (جميع عناوين كتبه أحجار كريمة أو شبه كريمة) وهي أعطته، في المقابل، خمسة أبناء أقوياء.

ليس باستطاعة شاعر ملهم يقدّس ربات الشعر أن يكرس نفسه لربة لواحدة فقط. فهو بحاجة إلى تجديد منابع إلهامه، وهو كان يفعل ذلك بكل جرأة. إذ إنه التقى

امرأة في طريقه فاوحت له بسرعة قصيدة في سريره. ومع ربتي إلهام أخريين أنتج عائلة وكتباً. ومن أجل رايموندا، وهي زهرة خلاسية مراهقة متخصصة في الخدمة على الموائد، وهي الآن أم لثلاثة من أبنائه، نقش الفيروز والياقوت. أما السفير والتوباز فقد خص بهما كليينتيا، وهي أرملة غير قانعة بوضعها، أنجبت له هيركولس وأفروديت. وواضح أنه في كل هذه المجلدات المكرسة، توجد قوافٍ لملهمات أخر متعددات أقل شأناً. ومن الممكن أيضاً أن يكون أبناء آخرون عدا العشرة المسجلين والمعمدين جميعاً بأسماء الآلهة وأبطال الإغريق، من أجل إلحاق الفضيحة بالكهنة. عشرة أصحاء من آل بالميرا، بأعمار مختلفة، واثنان (يجمع إلى أبنائه العشرة ولدين للمرحوم زوج كليمينتيا) من ذوي الأفواه الشرهة في ابتلاع الطعام، ورثة شهية والدهم الأسطورية، وهم، بحب تغيير المشهد ورؤية أرض جديدة، الذين حملوا الشاعر إلى ذلك الحج الأدبي خلال العطلات القضائية، مع مخزون من الكتب ومحاضرة أو محاضرتين في حقيبة هائلة الحجم سوداء ينحني تحتها كتفا أقوى الحمالين.

– بطاقة واحدة فقط؟ لا تتصرف بهذا الشكل... يجب أن تأتي برفقة زوجتك. والأولاد، في أي سن هم؟ في الخامسة عشرة. إنهم حساسون إزاء تأثير الشعر والأفكار المستوعبة في محاضرتي. وبالأحرى هي مهذبة بمغالاة ومعنية بتجسيد روح الشباب.

وسأله ريبيرينيو، عند تذكره محاضرات ليوناردو موتا الذي قدم إلى إيليوس ذات مرة في إحدى السنين، وحصل على منزل اكتظ بالحضور من دون الحاجة إلى إعطاء بطاقات دخول، وحديثه عن السرتون:

– ألا يوجد فيها تهتك؟ نكات غير ملائمة؟

– من تعتقدني يا سيدي العزيز؟ الأخلاقية الأكثر صلابة... المشاعر الأكثر نبلاً.

– لم أقل ذلك بمعرض النقد. على العكس، أنا أحب هذا النوع. ولأكون صريحاً معك، هذه هي المحاضرات الوحيدة التي أتحملها...ثم اضطرب وكرر الاعتذار: فما أردت قوله، إنها بالأحرى مسلية. فأنا رجل ريفي ليس لدي ثقافة، والمحاضرة

تجعلني عرضة للنعاس. سألت فقط من اجل الزوجة والبنات، وهل استطيع أن أصطحبهما معي؟ وأنهى كلامه بالسؤال عن ثمن أربع بطاقات.»

اشترى نسيب بطاقتين، والإسكافي فيليبي واحدة لليوم التالي في قاعة النبلاء في المحافظة، حيث سيقوم بالتقديم، الدكتور إيزكييل برادو زميل آرجيليو في الكلية.

ثم انتقل الشاعر إلى الوجه الثاني من العملية الأكثر صعوبة. فبطاقات الدخول لم يرفضها أحد تقريباً. لكن الكتاب لم يحظ بالقبول ذاته. وكثيرون فركوا أنوفهم أمام الصفحات التي كان فيها الشعر مكتوباً بحرف طباعي صغير. حتى الذين قرروا الحصول على الكتب، إما بسبب الاهتمام وإما بسبب التعاطف معه، يرتبكون عندما يعرفون الثمن، وكان المؤلف يجيبهم:

«حسب مشيئتكم... فالشعر لا يباع. لم يكن بوسعي أن أدفع ثمن الطباعة والورق والتأليف والتجليد لكي أوزع كتبي مجاناً بيدي كما يريد الشاعر. لكن من يستطيع الهروب من مادية الحياة الرخيصة؟ إن هذا المجلد الذي يجمع أشعاري الأخيرة والأكثر أهمية، عن البلاد من شمالها إلى جنوبها، والتي استقبلت بترحاب في البرتغال، كلفني صحة عينيْ. وحتى الآن لم أفِ الكلفة... في النهاية، القرار لك أيها الصديق العزيز...»

إن التعامل مع مصدّر الكاكاو أو المزارع الكبير، عمل تقني بالغ الاهمية. فقد أعطاه موندينيو فالكون مائة ألف ريال عن كل كتاب، بالإضافة إلى ثمن بطاقة دخول - الكولونيل راميرو باستوس أعطاه خمسين الفاً، وكمكافأة له، اشترى ثلاث بطاقات دخول، ودعاه إلى تناول العشاء بعد يومين. وكان آرجيليو يستعلم مسبقاً عن خصوصيات كل ساحة يزورها. وهكذا عرف بالصراع السياسي في إيليوس، وجاءها متسلحاً برسائل لموندينيو وراميرو، وبالتوصيات للرجال المهمين في الجانبين. كان الشاعر الجليل يملك سنوات عذيدة من الخبرة لكي يدير بصبر وأناة، طبعات كتبه. كان يقدر بسرعة إذا ما كان الشاري قادراً على أن يقرر بنفسه التخلي عن مبلغ مهم، أم عليه أن يساعده باقتراح يعرضه عليه:

«عشرون ألف ريال، وأعطيك توقيعي.»

وعندما كان القارئ المحتمل لا يزال يقاوم، كان يقترح عليه الحد الأقصى:

«بما أنني أقدر اهتمامك بشعري سأتركه لك بعشرة آلاف، حتى لا أحرمك من نصيبك من الأحلام والتصورات والجمال!»

وكان ريبيرينيو، والكتاب في يده، يحك رأسه، ويستشير الدكتور بعينيه ليعرف كم عليه أن يدفع. فما هذه الورطة! نقود ملقاة من النافذة. وضع يده في جيبه، وأخذ عشرين ألف ريال إضافية، إكراماً للدكتور. لكن نسيب لم يشتر كتباً. فغابرييلا بالكاد تجيد القراءة. وبالنسبة إليه، لديه ما يكفي من الشعر الذي يتشدق به جوزويه وآري سانتوس في الحانة. ورفض الإسكافي فيليبي. فقد كان ثملاً كلياً:

- أعذرني أنت أيها الشاعر، فأنا أقرأ النثر فقط، «نثراً محدداً.

شدد على «محدداً «ثم أضاف:

- لا اقرأ روايات! أقرأ النثر عن المعارك، الذي يحرك الجبال ويغير العالم. هل قرأت كروبوتكين؟

تردد الشاعر الشهير. أراد القول نعم، فالإسم كان معروفاً لديه، ثم ارتأى أنه من الأفضل الخروج بجملة عظيمة:

«الشعر فوق السياسة.»

- وأنا أغوط على الشعر أيها السيد. ثم، قال رافعاً إصبعه:

- كروبوتكين هو أعظم الشعراء في كل الأزمنة. أردف بلغة كتلانية صافية لا ينطق بمثلها إلّا عندما يكون متحمسناً أو ثملاً جداً. ولا أعظم منه سوى الديناميت. لتحيا الفوضوية!

كان ثملاً تقريباً، عندما وصل إلى الحانة، وهناك تابع احتساء الخمرة. وهذا يحدث مرة كل سنة. إذ إن قلة تعرف أن هذه هي الطريقة التي يحتفل بها بذكرى موت أحد إخوته رمياً بالرصاص في تظاهرة في برشلونة، قبل عدة سنوات. هذا الأخير، نعم، كان في الواقع فوضوياً مناضلاً، رأسه مليء بالريح والنار، وقلبه بلا

خوف. فجمع فيليبي أوراقه وكتبه، لكنه لم يرفع رايته الممزقة. فقد فضل مغادرة إسبانيا ليهرب من الشبهات التي تحيط به بسبب علاقات القربى. وحتى الآن، بعد مضي أكثر من عشرين سنة، في ذكرى اغتيال اخيه، لا يزال يغلق محترفه ويشرب حتى الثمالة في الذكرى السنوية للعرض والميتات في الشارع، مقسماً على العودة إلى إسبانيا ليفجر قنابل وينتقم لأخيه.

قام بيكو فينو ونسيب بنقل الإسباني إلى الغرفة الخاصة بلعب البوكر حيث يستطيع الشرب حسب مشيئته من دون أن يزعج أحداً. فراح فيلبي يخاطب نسيب:

- ماذا فعلت، أيها المسلم الكافر، بزهرتي الحمراء... بغابرييلا الحلوة؟ كان لها عينان مرحتان، إنها أنشودة، إنها فرح، هي عيد، فلماذا سرقتها لك وحدك فقط، ووضعتها في سجن؟ إنك لبورجوازي قذر...

جلب له بيكو فينو زجاجة من العرق، ووضعها أمامه على الطاولة. وكان الدكتور يفسر للشاعر دوافع السكر عند الإسباني، معتذراً منه. ففيليبي كان عادةً ذا تربية محترمة، إنما مرّة واحدة في السنة...

«أنا أفهم ذلك تماماً. شيء من السكر من وقت إلى آخر، هذا يحدث لأشخاص حتى من الطبقة العليا. وأنا أيضاً لست ضد القليل من الخمرة، أتناول كأساً صغيرة من العرق...

كان ريبيرينيو خبيراً بشان المشروب. فشعر أنه في جو مألوف، وبدأ حديثاً حول أنواع العرق المختلفة. في إيليوس يصنعون نوعاً رائعاً «عرق إيليوس» وكان كله يباع تقريباً لسويسرا حيث يشربونه كما يشربون الويسكي. والمستر- «مدير السكة الحديد الإنكليزي» كان يوضح لآرجيليو بأنه لا يشرب غيره. وكان خبيراً في المادة...

كان العرض يُقاطع مرات عديدة. ففي ساعة الكؤوس فاتحة الشهية، كان الزبائن يصلون ويجري تقديمهم للشاعر. عانقه آري سانتوس وضغط عليه بشدة. إن كثيرين يعرفونه بالاسم، وهو يعرفه من خلال القراءة. فتلك الزيارة إلى إيليوس اندرجت في حوليات الحياة الثقافية للمدينة. وكان الشاعر وهو منتشٍ من المتعة، يشكرهم؛ فيما

جوان فولجنسيو كان يتفحص بطاقته ويدسّها في جيبه بعناية. وبعد أن قام بمهمته في بيع بطاقات الدخول، وقدم كتاباً لآري مع إهداء، وآخر للكولونيل مانويل داس أونساس، جلس آرجيليو، وريبيرينيو وآري يشربون «عرق إيليوس» المنوه به. وفيما كان يشرب كأس العرق مع الأصدقاء الجدد، وإذ تنازل قليلاً عن هيبته كشخصية عظيمة، ظهر الشاعر محدثاً ممتازاً، يروي نكاتاً متنوعة بصوت جهوري، ويضحك بصوت مرتفع، مبدياً اهتمامه بالمسائل المحلية كأنه عاش هنا منذ أمد طويل، ولم ينزل لتوه من الباخرة في ذلك الصباح. بيد أنه كان يقدم نفسه لكل زبون جديد، ويأخذ من حقيبته بطاقات دخول وكتباً. وأخيراً بعد اقتراح نيوغالو، ابتكروا نوعاً من التنظيم ليسهلوا له العمل. فإذا كانت الضحية قادرة على شراء بطاقات الدخول والكتب، فإن الدكتور هو الذي يقوم بالتقديم. وإذا كانت الضحية تريد شراء بطاقات دخول متعددة لكن من دون كتب، فآري سيقدمه. أما بالنسبة إلى الرجل العازب أو الذي يعاني ضائقة مالية، فبطاقة دخول واحدة، وسيكون نيوغالو هو المعرِّف. وهذا يوفر وقتاً. وقد تأخر الشاعر قليلاً في القبول:

- هذه الأمور تخدع عادة... وأنا لدي خبرة في هذا المجال. فثمة شخص لا تفكرون بأنه يهتم بالكتب فيفاجئكم ويشتري واحداً... وفي النهاية، الاسعار متحركة...»

فقَدَ كل رصانته في تلك الحلقة المرحة التي انضم إليها جوزويه والنقيب وتونيكو باستوس، وأكد له نيوغالو:

«هنا يا عزيزي، لا يمكن أن تحصل أخطاء. فنحن نعرف الإمكانات والأذواق، ومستوى أُمّية كل واحد هنا...

دخل الحانة أحد الأولاد ليوزع برنامجاً لسيرك يعلن عن بدء حفلات لليوم التالي. فانتفض الشاعر قائلاً:

«كلا، هذا غير مسموح! فغداً هو يوم محاضرتي. لقد اخترته عن قصد لأن داري السينما تعرضان فيلمين للفتيان، والناس الكبار قلما يشاهدون ذلك.

- لكن يا دكتور، أليست بطاقات الدخول مباعة مسبقاً؟ وهل الدفع يتم على المشاهدة؟ فلا بأس في ذلك. قال ريبيرينيو مطيباً خاطره.

- أوتظنني من الذين يتكلمون للمقاعد الفارغة؟ أم أنني أنشد قصائدي لنصف دزينة من الناس؟ فيا عزيزي، انا لدي اسم لأصونه، اسم ذو رنين معين ودفعة من المجد في البرازيل وفي البرتغال...

- لا تقلق... قال له نسيب وهو واقف إلى جانب الطاولة الشهيرة، فهذا سيرك صغير رديء، قادم من إيتابونا، لا يساوي شيئاً. ولا يوجد فيه حيوانات، أو فنان جيد. الأولاد هم الذين يذهبون إليه فقط...»

كان الشاعر مدعواً إلى الغداء من كلوفيس كوستا. كانت زيارته الأولى إلى إدارة تحرير دياريو ده إيليوس، عندما نزل من الباخرة. وأراد أن يعرف إذا كان الدكتور يستطيع مرافقته في فترة بعد الظهر.

«بالتأكيد، مع كثير من السرور. والآن أيها الصديق العزيز سنذهب إلى منزل كلوفيس.

- تعال لتناول الغداء معنا يا عزيزي.

- لست مدعواً...

- لكني مدعو وأدعوك بدوري. فمآدب الغداء هذه يا عزيزي، يجب ألا تُفوَّت. فهي دائماً أفضل من الأطباق البسيطة العادية التي نتناولها في البيت. هذا من دون الكلام على طعام الفنادق، الرديء والقليل، القليل جداً!.

عندما خرجا، علق ريبيرينيو:

«هذا الدكتور المزدوج هو مخلوق رائع. يجمع المال بكل الاشكال: بطاقات الدخول، الكتب، حفلات الغداء... وهذا لا بد أنه يأكل أكثر من أفعى الجيبولا....

- إنه أحد أكبر شعراء باهيا. أكد آري.

سحب خوان فولجنسيو بطاقة الزيارة وقال:

«بطاقة الزيارة أقلّه، رائعة... لم أر شيئاً كهذا قطّ. «مجاز»... تصوروا! ويعيش

في بارنازو... عدم المؤاخذة يا آري، فمن دون أن أقرأه، لا أحب شعره. لا يمكن أن يكون خارقاً.

كان جوزويه يقلّب صفحات نسخة من «التوباز» التي اشتراها الكولونيل ريبيرينيو، فقرأ قصائد بصوت خفيض، وقال:

«ينقصه النفس. شعر بسيط يعاني فقراً في الدم. وهو متأخر كأن الشعر لم يتطور... اليوم، في زمن المستقبلية!

– لا تقولا ذلك... علق آري مستنكراً. إنه انتهاك للحرمة. اسمع يا جوان فولجنسيو، هذه القصيدة، إلهية. وقرأ العنوان بلهجة خطابية. «دوي الشلال».

لم يستطع أن يقرأ أكثر، لأن الإسباني فيليبي ظهر في القاعة بالكاد قادراً على السير، يتكئ على الطاولات، ويتأتئ ما يفهم منه:

– مسلم، بورجوازي، قذر، أين هي غابرييلا؟ ماذا فعلت بزهرتي الحمراء، بالحلوة...

كانت سوداء فتية، تلميذة طاهية، تحمل كل يوم القصعة ذات الطبقات. وتعثّر فيليبي بالمقاعد. كان يريد أن يعرف أين دفن نسيب عذوبة غابرييلا وفرحها. وحاول بيكو فينو إعادته إلى الغرفة المخصصة للعب البوكر. قام نسيب بحركة من يديه، كمن يحاول أن يعتذر، ولكن أحداً لم يكن يعرف ما إذا كان بسبب الحالة التي كان فيها فيليبي، أم بسبب غياب عذوبة وفرح وزهرة غابرييلا عن الحانة. فنظر الحاضرون بصمت. أين حيوية تلك الأيام الماضية، عندما كانت تأتي، في ساعة الظهر، ووردة وراء أذنها؟ إنهم يشعرون وطأة غيابها، كأن الحانة من دونها قد فقدت الحرارة الحميمية. وقطع تونيكو الصمت:

– هل تعرفون عنوان محاضرة الشاعر؟

– كلا، ما هو؟

– «الدمعة والشوق».

– إنها «شربة مسهِّل» لن تروا مثلها؟. قال ريبيرينو.

أخطاء السيدة سعد

كان هذا آخر السيركات. أحنى الزنجي تويسكا رأسه ووقف أمام الصاري المتارجح، وهو أطول من سارية زورق شراعي. لا يمكن أن نتصور أصغر وأكثر إثارة للسخرية منه. فقماش الخيمة كان مثقوباً بحيث تعتقد نفسك أمام سماء في ليل مليء بالنجوم أو أمام فستان البلهاء ماريا ميدا. وهو بالكاد أكبر من سوق السمك. وكان على الزنجي تويسكا أن يتمتع بولاء لا يتزعزع كي لا يتخلى عن «سيرك الأميركات الثلاث». فأي فرق بينه وبين «السيرك البلقاني الكبير» بفسطاطه المهيب، وأقفاص الكواسر والمهرّجين الأربعة، والقزم والعملاق، والجياد المدرّبة، والبهلوانيين ذوي الجرأة الفائقة. لم يفوت تويسكا المشهد. كان يحني رأسه.

كان قلبه الصغير يحوي غراميات وعبادات: الزنجية رايموندا، أمه التي تحسنت الآن، لحسن حظه، من الروماتيزم، وهي تغسل الثياب وتنشّيها. وروزينيا الصغيرة ذات الشعر الأشقر، ابنة تونيكو باستوس، هيامه السري، والدونا غابرييلا والسيد نسيب، والشقيقتان دوس ريز الطيبتان وشقيقه فيلو بطل الطرق وملك المقود والمهيب في قيادة الشاحنات، والأوتوبيسات، والسيركات. ومنذ أن أصبح مدركاً وواعياً، لم يرتفع في إيليوس فسطاط سيرك من دون أن يستفيد من دعمه المصمم، وإسهامه المفيد: كان يرافق المهرّج في الشوارع، ويساعد العاملين على المسرح، ويقود زمرة من الأولاد المتحمسين، ويقوم بمراسلات وتوصيلات هامة وضرورية. فهو لم يكن يحب السيرك بصفته لهواً سامياً وعرضاً سحرياً أو مغامرة مغرية فقط، بل كان يعمل فيه كشخص يحقق قدره، وإذا لم يكن حتى الآن قد غادر مع أحد هذه السيركات، فذلك عائد إلى روماتيزم رايموندا. إن مساعدته للبيت كانت ضرورية. أما النيكلات التي كان يحصل عليها فهي من وظائف متنوعة: من مسح الأحذية والعمل كنادل عند الحاجة، وبيع الحلوى الشهية التي تصنعها الشقيقتان دوس ريز،

إلى نقل الرسائل الغرامية، والعامل كمساعد ممتاز للعربي نسيب في الأعمال اليدوية عند تقديم أنواع المشروب.

فقد تحسّر عندما شاهد الفقر البالغ للسيرك الواصل حديثاً.

كان سيرك «الأميركات الثلاث» يجر احتضاره على الطرق التي يسلكها. فقد تخلى عن الحيوان الأخير لديه، وهو أسد هرم بلا أنياب، لمحافظة كونكيستا لقاء بطاقات السفر، لأنهم لا يستطيعون إعالته. وفي كل ساحة يتوقفون فيها كان يفرّ فنانون، من دون أن يطالبوا بالرواتب المتأخرة. لقد اقتصدوا في الطعام ما بوسعهم، وقايضوا على الأكل كل ما بحوزتهم، حتى سجاجيد الحلبة. واقتصر الطاقم على عائلة المدير: زوجته وابنتيه المتزوجتين والابنة العزباء والصهرين وقريب لهم كان يبيع التذاكر ثم كان يقود العاملين على المسرح. كان هؤلاء الأشخاص السبعة يتناوبون للقيام بوصلات التوازن والقفزات المميتة، وأكلة السيوف والنار، والسير على الحبال الصلبة وألعاب الخفة. كان المدير العجوز مهرّجاً وساحراً. وكان يعزف الموسيقى لترقص على أنغامها بناته الثلاث.

للحصول على نقود يشترون بها بطاقات القطار. كيف وصلوا إلى إيليوس؟ الله وحده يعلم. كانوا يأملون أن يحصلوا على ما يكفي لشراء بطاقات السفر في الباخرة حتى باهيا حيث يستطيعون الاشتراك مع سيرك أكثر نجاحاً. لقد تسوّلوا في إيتابونا تقريباً. ومن أجل السفر بالقطار، لجأت البنات الثلاث، المتزوجتان والعزباء، وهي أصغرهنّ، إلى الرقص في إحدى الكباريهات.

كان تويسكا خشبة الإنقاذ الإلهية لهم: أخذ المدير الوضيع إلى المفوض (ليحصل على إعفاء من الضريبة المستوفاة من الشرطة) وإلى السيد جوان فولجنسيو (لطبع البرنامج عن طريق الاستدانة) وإلى السيد كورتيس صاحب دار سينما فيتوريا (لاستعارة الكراسي المهملة منذ تجديد السينما، من دون مقابل)، وإلى صاحبة السمعة الرديئة خمّارة «العرق الرخيص» في شارع سابو (للتعاقد حسب نصيحته، مع عاملين من بين أولئك المحتالين)، وقام بدور الخادم في مسرحية «ابنة المهرّج»

(الفنان الذي قدّم الدور من قبل، هجر عمله ومرتبه في إيتابونا، وعمل بائعاً في أحد المخازن).

- اعتراه الذهول حينما أمرني بترديد ما يلقنه لي، ورددت كل شيء تماماً. وهذا مع أنه لم يشاهدني وأنا أرقص...

صفقت غابرييلا بيديها عند الاستماع إليه وهو يروي الحدث الطارئ اليوم، أخبار عالم السيرك السحري.

- تويسكا، ستغدو فناناً حقاً، غداً سأكون هناك، في الصف الأول. وسأدعو الدونا آرميندا وسأتكلم مع السيد نسيب كي يأتي هو أيضاً. إنه يستطيع المجيء، لا بأس إن ترك الحانة لفترة قصيرة من الوقت ليراك... ولسوف أصفق كثيراً ملء يدي.

- وستشاهدني أمي أيضاً. إنها تدخل مجاناً. وربما إذا أتت، قد تتركني أذهب معهم. إنما هذا سيرك فقير جداً... حالتهم سيئة بالنسبة إلى المال. وهم يطهون طعامهم في محل عملهم كي لا ينفقوا المال في الفندق.

لدى غابرييلا أفكار محددة إزاء السيرك.

- كل ما هو سيرك جيد. وقد يكون متداعياً قطعاً صغيرة، لكنه جيد. ولا يوجد أي شيء أفضل من وظيفة السيرك، إن هذا ما أحبه أكثر من أي شيء. وغداً سأكون هناك، لأصفق لك، وسآخذ السيد نسيب. بوسعك أن تعتمد على ذلك.

في تلك الليلة وصل نسيب في ساعة متأخرة جداً. فالحركة في الحانة تواصلت إلى الفجر، حول الشاعر آرجيليو بالميرا، مشكِّلة حلقة كبرى، بعد عروض دور السينما. لقد تعشّى الشاعر النابغة في بيت النقيب، وقام ببعض الزيارات، وباع نسخاً أخرى من «التوباز» وكان مسروراً بإيليوس. فالسيرك البائس جداً شوهد في المرفأ، ولم يكن منافساً له. والحديث في الحانة طال الليل كله. فقد تبيَّن أن الشاعر سكّير مقدام، فأطلق على العرض لقب «شراب الآلهة» و«الأفسنتين الخلاسي ذا اللون النحاسي». وأنشده آري سانتوس بعض القصائد التي حظيت بإطراء النابغة.

«وحي عميق وشكل مستقيم.»

ألقى جوزويه، بناءً على طلب الحاضرين، أشعاراً منظومة على الطراز الحديث ليوقع بالزائر، لكنه لم يفلح:

- جميل جداً! أنا لست من الكورس المستقبلي، لكنني أثني على الموهبة حيثما كانت. فيا لها من حيوية، ويا لها من صور!

استسلم جوزويه. فآرجيليو في نهاية الحسابات، كان اسماً معروفاً. لديه حقيبة محترمة، وكتب معترف بقيمتها الادبية. شكر له رأيه، وطلب إذناً ليقول آخر نتاجاته. وخلال السهرة ظهرت غلوريا أكثر من مرة وهي فاقدة الصبر، لتتجسس على الحانة. وهكذا رأت وسمعت جوزويه ينشد واقفاً، مقاطع تكثر فيها النهود والأرداف المتدحرجة والفروج العارية والقبلات الآثمة والعناق والمضاجعة والعربدة التي لا تُصَدّق. حتى أن نسيب أثنى عليه. وذكر الدكتور اسم تيودورو ده كاسترو، فأمسك آرجيليو بالكأس:

- تيودورو ده كاسترو، تيدورو العظيم! إني أنحني أمام مغني أوفينيزيا، وأشرب نخب ذكراه.

شرب الجميع. وتذكر الشاعر مقاطع من أشعار تيودورو، آتياً بها من هنا وهناك:

مليحة، تتكىء إلى النافذة
أوفينيزيا في ضوء القمر، تطلق الصرخات....

- «تنتحب». قال الدكتور مصححاً.

ذكّرت قصة أوفينيزيا، التي أثيرت بين الأنخاب، بقصص أخرى، خصوصاً قصة سينيازينيا وأوزموندو، ومن ثَمَّ بدأوا برواية النكات. فقد ضحك نسيب كثيراً.. وفتح النقيب جعبته التي لا تنضب. وظهر الشاعر المهيب أيضاً كمحدث جذاب. فصوته المدوي انطلق في قهقهة هزّت الساحة وتكسرت على الصخور. كما شغل أيضاً الحجرة الخاصة بلعب البوكر، حيث كان أمانسيو ليال يلعب بحذاقة مع الدكتور

إيزكييل، والسوري معلوف وريبيرينيو ومانويل داس أونساس. إنها لعبة حماسية من خمسة أشخاص.

وصل نسيب إلى البيت تعباً، من النعاس. فألقى بنفسه على السرير. فاستيقظت غابرييلا كما تفعل في جميع الليالي:

- تأخرت يا سيد نسيب... هل عرفت بما حدث؟

تثاءب نسيب، وحدّقت عيناه إلى جسدها البادي من بين الملاءات، ذلك الجسد ذي الغموض المتجدد يومياً، فولدت لديه شعلة خفيفة من الرغبة بين التعب والنعاس.

- إني ميت من النعاس. ماذا حدث؟

تمدد وهو يحني ساقه على ردف غابرييلا.

- تويسكا فنان الآن...

- فنان؟ أي قصة هذه؟

- في السيرك. سيقدّم...»

كانت يد العربي ترتفع، تعبة، بين فخذيها:

«يقدّم؟ في السيرك؟ لا أدري عما تتكلمين؟

لم يكن بالوسع أن توجد أنباء أكثر إثارة:

- كيف يمكنك أن تعرف؟ «جلست غابرييلا على السرير، فبالنسبة إليها، لا يمكن أن يوجد خبر أكثر إثارة من هذا. «كان هنا بعد العشاء وأخبرني هذا»... قامت ببعض المداعبات لنسيب لتبقيه مستيقظاً فنجحت بذلك.

- أتريدين؟ قال لها بضحكة شهوانية. إذن، سترين.

لكنها حدثته عن تويسكا والسيرك، ودعته إلى السيرك:

- يا سيد نسيب، تستطيع الذهاب غداً معي ومع الدونا آرميندا، لنرى تويسكا. تترك الحانة برهة من الوقت.

- غداً لا توجد وسيلة. ففي الغد سنذهب معاً لسماع إحدى المحاضرات.

- إحدى ماذا يا سيد نسيب؟

- محاضرة، يا «بيبي». وصل أحد الدكاترة، وهو شاعر شهير، ينظم قصائد. عليك أن تستمعي إلى بعضها. إنه مدهش، يكفي القول إنه دكتور مرتين... رجل معرفة. كان جميع الناس يتحلّقون حوله اليوم. شخص يناقش، ينظم قصائد.. شيء رائع. سيلقي محاضرة غداً، في المحافظة. اشتريت بطاقتي دخول، لي ولكِ.

- وكيف هي المحاضرة؟

- آه! إنها شيء راقٍ يا «بيبي». أجابها وهو يفتل شاربيه.

- أفضل من السينما؟

- أكثر ندرة...

- أفضل من السيرك؟

- لا مجال للمقارنة. فالسيرك هو للأولاد أكثر منه لغيرهم... عندما يكون فيه عرض جيد يغدو جديراً بالمشاهدة. لكن المحاضرة لا تتوافر إلا من وقت إلى آخر.

- وكيف هي. فيها موسيقى، رقص؟

ضحك نسيب:

- موسيقى، رقص... وابتسم بحنان. عليك أن تتعلمي أموراً كثيرة يا «بيبي». لا شيء من كل هذا.»

وماذا فيها لتكون أفضل من السينما، ومن السيرك؟

«سأوضح لك، أعيريني انتباهكِ، ثمة رجل، شاعر، دكتور يتكلم على شيء ما.

- يتكلم على ماذا؟

- على أي شيء. إن هذا يتكلم على الدموع والاشتياق. إنه يتكلم والناس يصغون.

فتحت غابرييلا عينين مندهشتين:

- هو يتكلم والناس يصغون. وبعدها؟

- بعدها؟ إنه ينتهي، والناس يصفقون.

- هذه هي فقط؟ لا شيء أكثر؟

- هذه هي فقط، لكن المهم هو ما يقوله...

- وماذا يقول؟

- أشياء جميلة. أحياناً يتكلمون بشكل يُستَعْصَى على الفهم، فلا يفقهه الناس جيداً. وهذا يحدث عندما يكون الكلام أفضل.

- يا سيد نسيب... الدكتور يتكلم، والناس يصغون... والسيد نسيب يقارن ذلك بالسينما، بالسيرك، ما هذا الأمر! انت، السيد نسيب، المثقف جداً! أفضل من السيرك.

- إسمعي يا «بيبي». لقد سبق وقلت لكِ: أنتِ الآن لستِ مجرد خادمة. فأنت سيدة. السيدة سعد. عليك أن تقتنعي بهذا. هناك محاضرة، وسيتكلم دكتور شهير. كل النخبة في إيليوس ستكون هناك. ونحن أيضاً. لا يمكن إهمال أمر بهذه الأهمية من أجل الذهاب إلى سيرك رديء جداً ومشبوه.

- لا نستطيع يا سيد نسيب؟ حقاً؟ لماذا؟

أثار صوتها المفعَم بالحماسة الرغبة لدى نسيب، فضمها إلى صدره بحنان صادق.

- لأننا لا نستطيع يا «بيبي»، ماذا سيقول الناس عنا؟ ذلك الأبله نسيب، الجاهل، لم يأت إلى المحاضرة من أجل الذهاب إلى سيرك قذر. وبعدها؟ فإن جميع الناس في الحانة سوف يناقشون المحاضرة والرجل فيما أنا أروي تفاهات عن السيرك.

- صحيح، أنا أتفهم ذلك، يا سيد نسيب. مع الأسف... المسكين تويسكا! كان يرغب كثيراً في أن يذهب السيد نسيب. وكنت قد وعدته بذلك. لا تستطيع، إنك على حق. ساخبر تويسكا بهذا وأقدم له اعتذاري واعتذارك. ثم ضحكت والتصقت به بشدة.

««بيبي»، اسمعيني. يجب أن تتعلمي، لأنك سيدة، يجب أن تعيشي وأن تتصرفي كزوجة رجل تاجر، وليس كأي امرأة أخرى. عليكِ الذهاب إلى هذه الأماكن التي تتردد إليها النخبة في إيليوس. يجب أن تتعلمي وتتثقفي، فأنت سيدة.

– تريد القول إنني لا أستطيع؟

– لا تستطيعين ماذا؟

– أن أذهب غداً إلى السيرك ؟ أذهب مع الدونا آرميندا.

– لقد قلت لكِ إني اشتريت بطاقتيْ دخول لنا نحن الاثنين. قال ذلك بعد أن سحب يده التي كانت تداعبها.

– إنه يتكلم والناس يصغون. لا أحب ذلك. لا أحب نخبة المجتمع، والناس، ذوي الأناقة المبالغ بها، والنساء المتكبرات. لا أحب ذلك، كلا. فالسيرك جيد جداً! دعني أذهب يا سيد نسيب. وسأذهب إلى المحاضرة ذات يوم.

داعبها مجدداً:

– ليس بالإمكان يا «بيبي». لا يوجد محاضرات كل يوم...

– ولا سيرك...

– لا يمكن التخلف عن المحاضرة. حتى أنهم قد سألوا: لماذا لا تذهبي إلى أي مكان. كل الناس يتكلمون، وليس هذا صواباً.

– لكنني أريد الذهاب، أجل. إلى الحانة، إلى السيرك، السير في الشارع.

– لا تريدين الذهاب إلى حيث لا يجب أن تذهبي. وهذا هو بالضبط ما تريدين فعله. متى ستضعين في رأسكِ أنك امرأتي، وأنني تزوجت بك، وأنك سيدة تاجر مستقر، مقتدر؟ وأنك لست بعد...

– غضبت يا سيد نسيب؟ لماذا؟ لم أفعل شيئاً...

– أريد أن أجعل منك سيدة فاضلة، من الطبقة الأولى. أريد أن يحترمك جميع الناس، ويعاملوك بشكل محترم. وأن ينسوا أنك كنت طاهية، وكنت تسيرين حافية على الأرض، وأنك وصلت إلى إيليوس مهاجرة. وأنهم كانوا يقللون الاحترام لك في الحانة. هل فهمت؟

– لا أملك وسيلة يا سيد نسيب لهذه الأمور. إنها أمور مقرفة. ولديّ حقاً نقائص تجعلني لا أساوي قرشاً، فماذا أفعل؟

- ستتعلّمين، والأخريات، أولئك المغرقات في التبرج، ماذا تظنين فيهن؟ إنهن قادمات من الحقول، ريفيات، إنما تعلَّمن.

ساد الصمت بينهما، وعاد السكون ليخيم فوق السرير. فارتاحت يده على جسد غابرييلا.

- دعني أذهب إلى السيرك يا سيد نسيب. غداً فقط...

- لن تذهبي، لقد قلت لك. سوف تذهبي معي إلى المحاضرة. وانتهى الأمر.

ثم استدار في السرير، أدار لها ظهره، وسحب الشرشف. كان يشعر بفقدان حرارتها، فقد اعتاد النوم وساقه على ردفيها. لكن عليه أن يريها بأنه كان قلقاً من عنادها في معارضته، ومن استمرار رفضها الانخراط في الحياة الاجتماعية والتصرف كسيدة من مجتمع إيليوس، كزوجة له! وفي نهاية الأمر، فهو لم يكن فقيراً بائساً، كان شخصاً مرموقاً، السيد نسيب سعد... مع رصيد في الساحة، وصاحب أفضل حانة في المدينة، ومع مال في المصرف، وهو صديق لكل الناس المهمّين، وأمين «الجمعية التجارية». ويتداولون الآن اسمه حتى لمنصب في مديرية نادي التقدم. وهي، مستغرقة في البيت، لا تخرج إلّا إلى السينما فقط مع الدونا آرميندا، أو معه أيام الآحاد، كأن لا شيء تغيّر في حياتها، وكأنها لا تزال غابرييلا تلك التي لا تحمل اسم عائلة، والتي عثر عليها في «سوق العبيد»، ولم تصبح بعد السيدة غابرييلا سعد. ولكي يقنعها بعدم حمل القصعة ذات الطبقات إلى الحانة، جرى نقاش حاد، حتى أنها قد بكت. أما انتعال الحذاء فولد جحيماً حقيقياً. وكذلك، كي لا تتكلم بصوت مرتفع في السينما، ولا تبدي حميمية مع الخادمات، ولا تضحك بإغراء، كما في السابق، مع كل زبون في الحانة جاء صدفة، وكي لا تضع وردة وراء أذنها عندما يخرجان للتنزه... تترك محاضرة من أجل سيرك رديء!

تقوقعت غابرييلا، ضائعة. لماذا غضب السيد نسيب؟ كان حانقاً، مديراً لها ظهره، حتى أنه لم يلمسها. كانت تشعر بفقدان ثقل ساقه على ردفيها، وحنانه المألوف، والاحتفال معه في السرير. هل غضب لكون تويسكا تعاقد ليصير فناناً من

دون أن يستشيره؟ فتويسكا كان جزءاً من الحانة، وهناك كان صندوقه لمسح الأحذية، ويساعد في الأيام التي يتكاثر فيها الزبائن. لم يكن غاضباً على تويسكا، كلا. كان غاضباً عليها. لماذا لا يريدها أن تذهب إلى السيرك؟ إنه يريد اصطحابها لتصغي إلى الدكتور في قاعة كبيرة في المحافظة. إنها لا تحب ذلك! السيرك، تستطيع الذهاب إليه بالأحذية العتيقة التي تستوعب أصابعها الضخمة. أما في المحافظة فينبغي ارتداء فستان حريري، وانتعال حذاء جديد، ضيق... بحضور كل أولئك اللوردات الملتئمين، وأولئك النساء اللواتي ينظرن إليها بتعالٍ، ويضحكن منها، إنها لا تحب ذلك. لماذا يصرّ السيد نسيب على ذلك؟ لا يريدها في الحانة، مع أنها تحب الذهاب كثيراً... يغار عليها، إنه مضحك. سوف لن تذهب، وستفعل حسب مشيئته، فهي لا تريد إلحاق الإهانة به. وستكون حريصة على ذلك. لكن لماذا يجبرها على أن تفعل أموراً كثيرة من دون معنى، مقرفة؟ إنها لا تستطيع أن تفهم ذلك. فالسيد نسيب كان طيباً، من يستطيع الشك بهذا. من يستطيع إنكار ذلك؟ فلماذا إذن يبقى غاضباً، ويدير ظهره لمجرّد أنها طلبت منه الذهاب إلى السيرك؟ يقول إنها السيدة سعد. كلا، إنها ليست سوى غابرييلا فقط، ولا تحب الطبقة العليا. تحب الشبان الطيبين من الطبقة العليا، تحبهم، نعم، لكن ليس مجتمعين، في مكان مهم. إنهم يصبحون رصينين جداً، ولا يتفوهون بعبارات لطيفة، ولا يتبسمون لها. كانت تحب السيرك ولا يوجد في العالم شيء أفضل منه. وأكثر من ذلك، مع تويسكا المتعاقد كفنان... إذا ما اضطرت إلى ذلك ستموت حسرةً إذا لم تذهب... سوف تهرب إذا ما اضطرت لذلك!

مرر نسيب، فيما هو نائم بقلق، ساقه فوق ردفيها. وما لبث أن هدأ نومه. شعرت بالثقل المألوف ولم تشأ أن تغضبه.

في اليوم التالي، وقبل خروجه من المنزل، أبلغها:

– بعد الكؤوس الفاتحة للشهية عند المساء، سأعود لأتناول العشاء في المنزل، وأتهيأ للمحاضرة. أحب أن أراك بكامل أناقتك مرتدية ثوباً جميلاً، بحيث تغار منك أي امرأة أخرى.

أجل، لأنه اشترى لها وهو يواصل شراء الفساتين الحريرية والأحذية والقبعات وحتى القفازات. قدّم لها خواتم وعقوداً حقيقية وأساور، دون أن يحسب حساباً للنقود. يريدها أن تكون مرتدية ثياباً أنيقة كسيدة ثرية، كأن ذلك يستطيع أن يمحي ماضيها والحروق الناجمة عن الموقد بسبب سوء تصرفها. ها هي الفساتين معلّقة في الخزانة، وهي تمشي بثوب من الشيت، وبخفّين أو حافية القدمين، في جولات مع الهرّ وفي المطبخ. ماذا أفادها وجود الخادمتين؟ لقد طردت مرتبة المنزل، فما الفائدة منها؟ فقد وافقت على تسليم غسيل الثياب لرايموندا، بيد أن ذلك كان لمساعدة والدة تويسكا. والبنت التي في المطبخ، لا تفيد إلا قليلاً.

إنها لا تريد إلحاق الإهانة به. فالمحاضرة كانت محددة في الساعة الثامنة. والسيرك أيضاً. وقالت لها الدونا آرميندا إن المحاضرة المذكورة لن تدوم أكثر من ساعة واحدة. وتويسكا لا يظهر إلا في القسم الثاني من العرض. من المؤسف أن تخسر القسم الأول؛ المهرّج، البهلوان، الشابة فوق الشريط. لكنها لا تريد إلحاق الإساءة به. لا تريد التسبب له بالحزن.

اجتازت، وهي متأبطة ذراع نسيب المندس بثياب الزفاف الزرقاء، ومرتدية ثياباً كأنها أميرة وحذاءً يؤلمها، شوارع إيليوس وارتقت درج المحافظة بارتباك. كان العربي يتوقف ليحيي أصدقاءه ومعارفه، والسيدات يتطلّعن إلى غابرييلا من فوق إلى تحت، متوشوشات، ومبتسمات. وكانت تشعر أنها مرتبكة ومضطربة وخائفة.

في قاعة النبلاء، كان ثمة رجال واقفين، وفي عمق القاعة نساء جالسات. فأخذها نسيب إلى الصف الثاني من المقاعد، وأجلسها ثم خرج إلى الجانب الذي كان فيه تونيكوو نيو غالو وآري يتحدثون. لم تكن تدري ماذا تفعل. وكانت قربها امرأة ديموستينيس مزهوّة، بنظارة بلا ماسكتين، ومعطف من الجلد على الرغم من الحر الشديد! رمقتها بلمحة خاطفة، ثم أدارت رأسها. كانت تتحدث مع امرأة المدّعي العام. وشرعت غابرييلا تنظر إلى القاعة. كانت جميلة، حتى أنها تزعج البصر. وفي لحظة معيّنة التفتت إلى زوجة الطبيب وسألتها بصوت مرتفع:

في أي ساعة تنتهي؟»

ضحكوا من حولها. أصبحت أكثر ارتباكاً من ذي قبل. لماذا أتى بها نسيب؟! إنها لم تكن تحب ذلك.

«إنها لم تبدأ بعد.»

أخيراً، اعتلى رجل طويل القامة منتفخ الصدر، المنبر مع الدكتور إيزكييل، حيث وُضع مقعدان وطاولة مع إبريق من الزجاج وكوب. وصفَّق الجميع. فجلس نسيب إلى جانبها. نهض الدكتور إيزكييل وسعل ثم ملأ الكوب ماء.

«أيها السيدات، والسادة: اليوم هو يوم محدد بالأحمر في صفحة الحياة الفكرية في إيليوس. فمدينتنا المتحضرة تستضيف، بفخر وحماسة، الشاعر الملهم، آرجيليو بالميرا، المعترف بثقافته...»

«هو كان يتكلم وكان الناس يصغون.» كانت غابرييلا تصغي. ومن حين لآخر كانوا يصفّقون، وهي أيضاً تصفّق معهم. كانت تفكر في السيرك، لا بد أنه قد بدأ. لحسن الحظ كان يتأخر دائماً نصف ساعة أقلّه. لقد ذهبت مرتين إلى «السيرك البلقاني الكبير»، مع الدونا أرميندا، قبل الزواج. يحدد الوقت في الساعة الثامنة ولا يبدأ إلّا بعد الثامنة والنصف. كانت تنظر إلى الساعة الكبيرة الشبيهة بالخزانة، في عمق القاعة، التي كانت تحدث ضجيجاً عالياً، الامر الذي كان يسليها. كان الدكتور إيزكييل يتكلم جيداً، وهي لا تميّز الكلمات. إنه صوت داوٍ مهدئ، يثير النعاس، تقطعه تكتكات الساعة، والعقربان يسيران. أربك تصفيق كثير حرصها، فسألت نسيب وهي بادية الحماسة:

– هل انتهت المحاضرة؟

– انتهى التقديم. والمحاضرة ستبدأ الآن.

نهض الرجل ذو الصدر المنشّى، فحيّوه بالتصفيق.فانتزع من جيبه كمية مريعة من الأوراق. ثم وقف إلى الطاولة، ومرر يده على شعره. سعل مثل الدكتور، إنما بشكل أقوى، وشرب جرعة ماء. ودوى في القاعة صوت كقصف الرعد:

– الآنسات اللطيفات، زهور الخمائل في هذه الحديقة المزهرة التي هي

إيليوس. السيدات الفاضلات اللائي خرجتنَّ من الركن المقدس لمنازلكن لتصغين إليّ وتصفّقن لي. السادة اللامعون، أنتم الذين أشدتم على حافة الأطلسي هذه الحضارة الإيليوسية...

وهنا توقف ليشرب ماء، ويسعل ثم يمسح العرق بالمنديل، إنه لن ينتهي أبداً، مفعَم كلياً بالقصائد. بعض الكلمات كقصف الرعد فوق القاعة. وأخذ الصوت يبدو عذباً، فقد جاءت قصيدة:

«دموع أم على جثمان ابنها الصغير الذي استُدعي إلى السماء من قبل الكلّي القدرة، الدمعة الأكثر قدسية. اسمعوا جيداً: «دمعة أم، دمعة...»

كان النعاس صعباً معه. كانت تغمض عينيها تحت تأثير إيقاع القصيدة، تنحي بنظرها عن الساعة، والتفكير في السيرك، عندما اتهى الخطاب فجأة ودوى الصوت. انتفضت غابرييلا وسألت نسيب:

«سينتهي قريباً؟

همس لها بأن تصمت! لكنه هو بدوره أحس بالنعاس. وأدركت غابرييلا ذلك جيداً. فبالرغم من هيئته المتيقظة، وعينيه المحدّقتين إلى الدكتور المحاضر، والقوة التي كانت تظهر من آن لآخر في القصائد الطويلة، كانت رموش نسيب يضرب بعضها بعضاً، وعيناه تُغْلَقان، فيستيقظ على التصفيق ليساهم فيه، ويعلّق لزوجة الدكتور ديموستينيس الجالسة إلى جانبه:

- يا للموهبة!

رأت غابرييلا عقربيْ الساعة عند التاسعة، فالتاسعة وعشر دقائق، ثم التاسعة وخمس عشرة دقيقة. لا بد أن يكون القسم الأول من السيرك على وشك الانتهاء. حتى لو بدأ الساعة الثامنة والنصف فإنه سينتهي في التاسعة والنصف. في الحقيقة يوجد استراحة، ربما تصل في وقت تستطيع فيه مشاهدة القسم الثاني الذي يقدّم فيه تويسكا. لكن هذا الدكتور لن ينتهي أبداً. نام الروسي جاكوب على مقعده. والولد الذي جلس جنب أحد الأبواب، توارى منذ بعض الوقت. فهنا ليس ثمة استراحة.

كانت كلها دفعة واحدة. إنه أمر لا يحتمل، فلم تشهد مثله قطّ. كان الرجل الضخم يشرب ماءً، وبدأت هي تعطش.

- إني عطشى...

- اصمتي...؟

كان الدكتور المذكور يقلّب صفحات الأوراق، ويتريث وهو يقرأ كلاً منها. وإذا كان السيد نسيب أيضاً لا يحب ذلك، ويغلبه النعاس، فلماذا يأتي؟ يا للأمر الأكثر غرابةً! لماذا يأتي، يدفع ثمن بطاقة دخول؛ يترك الحانة، ولا يذهب إلى السيرك؟ إنها لا تفهم ذلك... وقدغضب، وأدار لها ظهره لأنها طلبت منه عدم المجيء، أمر غريب.

تتالى التصفيق وسمعت ضجة تحريك الكراسي. أسرع الجميع إلى المنبر. فأخذها نسيب إلى هناك. شدّوا على يد الرجل وقالوا له كلمات الاستحسان:

«ساحر! رائع! يا لك من ملهم! يا للموهبة!»

«كم أحببت ذلك... قال له نسيب أيضاً.»

لم يعجبه ذلك ابداً. فقد كان يكذب. إنها تعرف عندما كان يعجبه شيء ما. فقد نام قليلاً. لماذا الإطراء؟ تبادلا التحيات مع المعارف. الدكتور والسيد جوزويه والسيد آري والنقيب، لم يطلقوا سراح الرجل. تونيكو ومعه الدونا أولغا، حمل قبعته، وهو يدنو منهما:

- ليلة سعيدة يا سيد نسيب. كيف حالك يا غابرييلا؟

كانت الدونا أولغا تبتسم. والسيد تونيكو شديد الحذر.

السيد تونيكو هذا، شاب جميل جداً. إنه أجمل الجميع. كان رقيقاً جداً. وعندما تكون الدونا أولغا حاضرة يبدو قديساً من قديسي الكنيسة. وحالما تخرج أولغا، يصبح كلامه معسولاً ورقيقاً، فيلتصق بها ويدعوها «الجميلة» وينفخ لها بالقبلات. اعتاد السير في اللاديرا والتوقف أمام نافذتها. وعندما يراها يعاملها كفتاة تبنّاها منذ الزواج. وكان يقول لها إنه هو الذي أقنع نسيب بالزواج بها. يجلب لها أقراص الحلوى، ويرمقها بعينيه، ثم يمسكها من يدها. إنه شاب جميل جداً.

الشارع مزدحم بالسائرين، ونسيب يسرع الخطى، فالحانة سوف تمتلئ بالزبائن. وقد أسرعت هي من أجل السيرك. حتى أنه لم يوصلها إلى الباب، فانصرف في منتصف اللاديرا المقفرة. وحالما انعطف عند الزاوية، عادت، وهي تركض تقريباً. أصعب شيء عندها هو أن تتجنب رؤية أحد في الحانة. لم تشأ الذهاب عن طريق أونياون، فالطريق مقفر. ذهبت عن طريق الشاطئ، فيما السيد موندينيو يهم بدخول بيته. فظل يرمقها. لقد تجنبت الحانة، سائرة بسرعة، فوصلت إلى المرفأ. كان سيركاً صغيراً، من دون أضواء تقريباً. وكانت تحمل النقود بيدها القابضة عليها. ولم يكن ثمة من يبيعها بطاقة دخول. فأبعدت قماش الباب ودخلت. جلست على قفص الدجاج، وأعارت الانتباه إلى المكان. ذلك كان هو الشيء الجدير بالرؤية. لقد وصل تويسكا وهو جد لطيف، مرتدياً ثياب عبد. فهتفت له غابرييلا، إذ لم تتمالك نفسها. وصرخت:

«تويسكا؟»

لم يسمعها. كانت قصة محزنة، عن مهرّج تعيس، هجرته زوجته السيئة. لكن كانت ثمة مقاطع تبعث على الضحك، فضحكت غابرييلا وهي تهتف لتويسكا، ومن ورائها انبعث صوت، ونفس رجل على عنقها:

- ماذا تفعلين هنا يا ابنتي المتبنّاة؟

كان السيد تونيكو واقفاً إلى جانبها.

- جئت لأرى تويسكا.

- وإذا اكتشف نسيب ذلك؟...

- إنه لا يعرف، كلا... لا أريد أن يعرف. السيد نسيب طيب جداً.

- إبقي، فلن أقول له.

إنتهى السيرك بسرعة، وكان ممتعاً جداً.

«سأوصلك...»

عند باب السيرك، قرر السيد تونيكو:

«سنذهب عن طريق أونياون، وندور حول المرتفع حتى لا نمرّ قرب الحانة.»

سارا مسرعين. وبعد مسافة قليلة لم يعد ثمة أعمدة إنارة. وتكلم معها السيد تونيكو، أوفر الشبان جمالاً، بصوت الولهان.

ترشيحات وغوّاصون

تكرر المشهد خلال أشهر، ويومياً تقريباً... ومع هذا لم يتعب الشعب قطّ في إبداء الإعجاب بالغوّاصين. وكان هؤلاء يبدون بثيابهم المصنوعة من الحديد والزجاج، ككائنات من كواكب أخرى هبطت على المضيق. كانوا يغوصون في المياه، هناك حيث البحر يتحد بالنهر. في الايام الأولى، تحركت المدينة بكاملها من مكانها إلى ضفة أونياون لتشاهدهم عن قرب. وكانوا يتابعون بالهتافات، جميع تحركاتهم: دخولهم في المياه، طريقة عمل المضخات ، التيارات المائية، فقاقيع الهواء. والمحاسبون تركوا طاولات البيع، والعمال هجروا أكياس الكاكاو، والطاهيات تركن المطابخ، والخياطات أهملن الخياطة، ونسيب ترك حانته... وبعضهم استأجروا قوارب، وأحاطوا بالقاطرات. وكان رئيس المهندسين، وهو أحمر الوجه وعازب (طلب موندينيو إيفاد رجل عازب لتجنب الإرباك) كان يُصدِرُ الأوامر.

خافت الدونا آرميندا أمام الأشكال الوحشية:

- يخترعون كل هذه الأمور! فإذا أخبرتُ المرحوم في الجلسة، قد يدعوني بالكاذبة. لم يعش المسكين ليرى. واعترفت غابرييلا:

- كنت أعتقد أنها أكذوبة، وليست حقيقة. الهبوط إلى قعر البحر! أمر لا يصدق.»

كان الناس يتقاطرون إلى ضفة أونياون، تحت شمس محرقة أكثر فأكثر. وكان موسم الكاكاو قد بلغ نهايته، وبدأ يجف في المواعين والمستودعات، وامتلأت

مخازن البيوتات المصدّرة وعنابر البواخر الصغيرة التابعة للشركة الباهيانية وللشركة الساحلية ولشركة لويد.

وعندما تدخل إحداها إلى المرفأ، أو تخرج منه، تبتعد القاطرات والجرّافات عن المضيق. لتعود بعد ذلك مباشرة. كان العمل يتقدم بسرعة. وكان الغواصون هم الإثارة العظيمة في تلك الفترة.

كانت غابرييلا تشرح للدونا آرميندا وللزنجي الصغير تويسكا: «يبدو أن قعر البحر أجمل من الأرض بكثير. فيوجد فيه كل شيء. عليك أن ترى لكي تصدق. وثمة مرتفع أكبر من مرتفع كونكيستا، وأسماك من كل لون، وأعشاب لترعى فيه. وحدائق تضم ازهاراً أجمل من حديقة المحافظة. كما يوجد أشجار وأغراس، وحتى مدن غير آهلة ناهيك عن البخار المتصاعد منها.

أبدى الزنجي الصغير تويسكا شكاً:

- هنا، لا يوجد إلا الرمال. وأعشاب الباراونا. قال تويسكا مشككاً.

- أخرق. أنا أتكلم على عرض البحر، وعلى الأعماق. لقد أخبرني شاب بذلك. كان طالباً، يعيش مع الكتب، ويعرف أشياء كثيرة اخبرني عنها.» وابتسمت لهذه الذكرى.

«يا للمصادفة! هتفت الدونا آرميندا قائلة: لقد رأيت في المنام شاباً يدق على باب السيد نسيب، وبيده مروحة كان يخفي فيها وجهه. سأل عنكِ.

- يا إلهي، دونا آرميندا! ذلك يشبه الرؤيا.»

كانت إيليوس بأسرها تعيش أعمال المضيق. وعلاوةً على الغواصين، فقد أحدثت الآلات المركّزة على الجرافات استغراباً ورهبة. كانت تحرك الرمال، وتشق عمق المضيق، وتفتح قنوات أو توسعها محدثة ضجيج هزّة أرضية، كأنها تقلب حياة المدينة بالذات، وتحدث فيها تغييرًا دائماً.

فقد عدّل، مجرد وصولها توازن القوى السياسية. فكاد نفوذ الكولونيل راميرو باستوس أن ينهار تحت تأثير تلك الضربة الهائلة؛ جرافات وقاطرات ومهندسون

وغواصون وفنيون. وكل جرفة من الآلات في الرمل، حسب ما يقول النقيب، تعني عشرة أصوات تُنتزع من الكولونيل راميرو. وصارت المعركة السياسية أكثر حدة وقسوة منذ الغسق الذي وصلت فيه القاطرات، يوم زفاف نسيب وغابرييلا. تلك الليلة كانت صاخبة. أنصار موندينيو ينشدون أغاني النصر، بينما كان أنصار راميرو يطلقون التهديدات. وحصل شجار في الكباريه. فقد أصيبت دورا كول ده بوم برصاصة في ردفها عندما دخل لويرينيو والمسلحون وهم يطلقون النار على المصابيح. لكن ما كانوا يرغبون فيه، كما ذكر الجميع، وهو ضرب رئيس المهندسين وإجباره على مغادرة إيليوس، قد فشل. ففي الاضطراب القائم، استطاع النقيب وريبيرينيو سحب الاختصاصي ذي اللون الأحمر، الذي أظهر، بالأحرى، ميله للعراك، إذ شجّ رأس أحد خصومه بزجاجة ويسكي. وحسب ما أخبر لويرينيو بالذات، فالخطة كانت سيئة التنظيم، ووضعت في الساعة الأخيرة.

في اليوم التالي، اعلنت جريدة دياريو ده إيليوس على الملأ أن ملّاك الأرض القدامى، المهزومين سلفاً، يعودون مجدداً إلى الممارسات التي كانت سائدة منذ ثلاثين سنة. لكن أقنعتهم قد سقطت: فهم ليسوا أكثر من زعماء عصابات مسلحة. لكنهم يخطئون إذا فكروا أنه باستطاعتهم أن يخيفوا المهندسين الكفوئين والفنيين الموفدين من قبل الحكومة من أجل شق قناة المضيق، نتيجة لجهود هذا الفاضل الدافع إلى التقدم، رايموندو مينديس فالكون، على الرغم من الصراخ اللاوطني لقطاع الطرق الممسكين بالسلطة. كلا، إنهم لن يخيفوا أحداً. وأنصار نمو منطقة الكاكاو، يرفضون مثل هذه الأساليب في الصراع. بيد أنهم إذا ما جُرّوا من قبل خصومهم النتنين، فسيعرفون كيف يردون في الوقت المناسب. إن أي مهندس آخر لن يُطرد من إيليوس، فهذه المرّة لن تفيد الذرائع والتهديدات. لقد كان مقال عدد دياريو ده إيليوس مثيراً.

نزلت عصابات من المسلحين من مزرعتي ألتينو براندون وريبيرينيو. وخلال بعض الوقت، كان المهندسون يطوفون في الشوارع مصحوبين بحرّاس غرباء.

وشوهد لويرينيو ذو السمعة السيئة، بعين مصابة بالكدمات، وهو يقود أيضاً قبضايات أمانسيو ليال وميلك تافاريس. كان بينهم زنجي اسمه فاغونديس. لكنه، باستثناء بعض المشاجرات في بيوت البغاء وفي بعض الأزقة الضيقة، ولم يحدث شيء يستحق الذكر. فتواصلت الأعمال، وازداد إعجاب السكان بالعاملين في القاطرات والجرافات.

كان عدد المزارعين الذين أعلنوا تأييدهم لمونحينيو يتزايد باطراد، وتحقق توقع الكولونيل ألتينو: سينتهي راميرو باستوس وحيداً. وبدأ ابناه وأصدقاؤه يتنبهون للوضع.ولم يبق أمامهم سوى الامل بأن تتضامن الحكومة، في عدم الاعتراف بانتصار المعارضة إذا حدث هذا. وفي هذا الأمر كان يتكلم في بيت الكولونيل راميرو ابناه (كان الدكتور ألفريدو موجوداً في إيليوس) واثنان من أصدقائه المقربين: أمانسيو وميلك. ينبغي أن يهيئوا انتخابات على الطريقة القديمة: السيطرة على المنصات واللجان الانتخابية، وتقارير النتائج، أي انتخابات على الورق. سيضمنون فيها المنطقة الريفية. لكن لسوء حظهم فإن الوضع في إيليوس وإيتابونا كان صعباً. فمن الصعوبة بمكان توظيف أساليب قديمة كهذه في المدينتين المهمتين، من دون حدوث بعض المجازفات. لكن ألفريدو أخبرهم أن الحاكم قدّم له ضمانات مطلقة: لن يحصل موندينيو وجماعته أبداً على الاعتراف حتى ولو فازوا في الانتخابات. إنه لن يسلّم منطقة الكاكاو، المنطقة الأكثر ثراءً وازدهاراً في الولاية، لأيدي المعارضين، لِيَدَيْ طامح مثل موندينيو. إنها فكرة عبثية.

كان الكولونيل العجوز يصغي، وذقنه على قبضة العصا الذهبية، وعيناه اللتان اختفى الضوء منهما، كانتا تضيقان. إن نصراً بهكذا ظروف ليس نصراً، فهو أسوأ من هزيمة. لن يحتاج إلى هذا أبداً. فدائماً كان يربح بفوهة أقلام الاقتراع. كانت الأصوات له. وسيعاقب خصومه بالمقصلة في ساعة الاعتراف بالسلطات. فهذا أمر ليس بحاجة إلى القيام به. إن ألفريدو وتونيكو وأمانسيو وميلك يتكلمون الآن على هذا الأمر بهدوء، من دون أن يُبدوا اهتماماً للإذلال المرهق الذي يقترحونه.

«لن نكون بحاجة إلى كل هذا. سنكسب بالتصويت!»

كانت واقعة ترشيح موندينيو فالكون نفسه كنائب اتحادي، حافزاً على الحماسة. فالخطر سيكون أكبر لو أنه تجرأ ونازعهم على المحافظة، لأن ذلك كان سيجعل منه شعبياً ويكسِبَه نفوذاً. فالقسم الأكبر من الناخبين هم سكان المدن، إذا لم يكن العدد الأكبر منهم، كانوا سيصوّتون له، وسيكون انتصاره مؤكداً.

«إن إجراء انتخابات صورية هنا، على الورق، سيكون أمراً صعباً»، قال ميلك تافاريس.

لكن انتخاب موندينيو نائباً اتحادياً بحاجة لأصوات المنطقة كلها، القطاع السابع الانتخابي الذي لا يشمل إيليوس فقط، إنما أيضاً بيلمونتي وإيتابونا وكانافييراس وأونا، وهذه محافظات تزرع الكاكاو وتنتخب نائبين: أحدهما، بأصوات إيتابونا وإيليوس وأونا. وهذه الأخيرة تقدم أصواتاً زهيدة وقليلة. ولكن إيتابونا اصبحت توازي اليوم وزن إيليوس، وسيدها الاساسي من دون منازع هو الكولونيل أريستو تيليس بيريس، المدين بوظيفته السياسية لراميرو باستوس. ألم يكن راميرو هو الذي جعله نائباً مفوضاً لقطاع تابوكاس القديم؟

«أريستو تيليس سيصوّت حسب أوامري.».

علاوة على هذا، فالنواب الاتحاديون ليسوا تابعين للسياسة البلدية وللمرشحين من قبل العواصم فقط. فالانتخاب لم يكن شكلياً بحتاً: فقد عين أولئك نتيجة ترتيبات بين الحاكم والحكم الاتحادي. والنائب الحالي لمدينتي إيليوس وإيتابونا (الأخير كان منتخباً بأصوات بيلمونتي وكانا فييراس) حضر إلى المنطقة مرّة واحدة فقط، بعد الانتخابات الأخيرة. كان طبيباً مقيماً في الريو محمياً من شيخ اتحادي. ولهذا المنصب، لم يكن لموندينيو أي إمكانية. حتى لو كسب في إيليوس، فإنه سيخسر في إيتابونا وفي أونا. وفي داخل المحافظة ستكون الانتخابات مزوَّرة.

«سوف يتيه في الغابة من دون كلب. استنتج أمانسيو.

وأصرّ راميرو:

«لكنه من الضروري أن يهزم، وأن يسحق! «، ولبيدأ ذلك بإيليوس. أريده ان يهزم بشكل لا قيامة بعده.» قال روميرو بإصرار.

سيكون النقيب مرشحاً لمنصب المحافظ، والدكتور إيزكييل برادو نائباً إيالياً. وعن ترشيح المحامي كان راميرو يبدي سخرية. فألفريدو سيكون منتخباً بالتأكيد. إن إيزكييل ملائم لهيئة المحلفين وللمرافعة، وليلقي خطاباً في يوم العيد. وإذا نُزع هذا عنه، فهو فاسد جداً، عربيد وذو فضائح مع النساء. وفوق هذا هو بحاجة، مثل موندينيو، لأصوات كل القطاع الانتخابي.

- إنه لا يشكل خطراً. قال أمانسيو جازماً.

- من الأفضل له أن يتعلم ألا يغيّر حزبه...

النقيب ليس بحاجة إلا لأصوات محافظة إيليوس. إنه خصم خطر، وراميرو بالذات يعترف بذلك. فمن الضروري إلحاق الهزيمة به في داخل المحافظة إذا كان قادراً في المدينة على الفوز. فوالده كازوزينيا الذي هزمه آل باستوس، ترك أسطورة في حياة المدينة، رجل خير، إداري نموذجي. وأول شارع مرصوف كان هو الذي رصفه، وحتى اليوم يدعى «الشارع المرصوف» والساحة الأولى والحديقة الأولى أيضاً. لقد كان وفيّاً حتى التعصب، وبقي موالياً لآل بادارو، وأنفق كل ما كان يملك لمقارعة آل باستوس، في معركة من دون توقع منظور. ويستمر اسمه مُشاراً إليه كمثال للطيبة وللصداقة العميقة. ولم يستفد النقيب من هذه الأسطورة التي تحيط بذكرى أبيه وحسب، إنما هو بالذات كثير التعاطف مع الناس. مولود في إيليوس. وبما أنه نشأ في البيئات الراقية، فهو يحمل رائحة الحضارة، وهو خطيب مفوَّه، يتمتع بشعبية كبيرة. ومن كازوزينيا بقي له حب التصرفات الرومانطيقية والبطولية.

«إنه ترشيح خطر... قال تونيكو معترفاً.

- إنه رجل محبوب ومرموق جداً. وافقه ميلك

- هذا مرتبط بمن سيكون مرشحنا.»

اقترح راميرو باستوس اسم ميلك، ألم يكن هو رئيس المجلس البلدي؟ والإشبين أمانسيو، ولم يكن يقبل منصباً سياسياً، ولهذا لم يعرض عليه. وميلك أيضاً رفض:

– أشكرك جداً، لكني لا أريد. وحسب ما أرى يجب ألا يكون المرشح مزارعاً...

– ولماذا؟

– الشعب يريد أناساً مثقفين، ويقال إنه لا وقت للمزارعين لينهمكوا في الإدارة، وإنهم لا يفقهون كثيراً، أيضاً. وهم مصيبون. فليس لدينا وقت بالفعل...

– إنها لحقيقة. قال تونيكو، فالشعب يطالب بمحافظ أكثر جدارة، يجب أن يكون رجلاً من المدينة.

– من؟

– لماذا لا يكون تونيكو؟ اقترح أمانسيو.

– أنا؟ لينجني الله. فلم أولد لهذا. وإذا كنت قد تدخلت في السياسة فبسبب والدي. لينجني الله، من أن أصير محافظاً. إني مرتاح كثيراً في موقعي.»

رفع راميرو كتفيه، فإبداء الرأي بهذا الافتراض لا يساوي شيئاً. تونيكو في المحافظة... إلا إذا كان ذلك من أجل تعبئة مقر المحافظة بالمومسات. وقال:

«أنا لا أرى سوى اسمين، الدكتور ماوريسيو أو الدكتور ديموستينيس، ولا أرى أحداً غيرهما.

– الدكتور ديموستينيس وصل إلى هنا ولم يمرّ عليه بعد أربع سنوات. جاء بعد موندينيو. وليس هو الاسم الذي يواجه النقيب. قال أمانسيو معترضاً.

– أنا لا أزال أراه أفضل من الدكتور ماوريسيو. فأقلّه، هو طبيب ذو شهرة. وهو يتقدم باتجاه بناء مستشفى. ولدى ماوريسيو الكثير من الأعداء.»

ناقشوا الاسمين، وهم يزنون الحسنات والمساوئ. ثم صمموا على المحامي. مع أن حبه المعروف للمال وطهريته المبالغ فيها والزاخرة بالنفاق، وتديّنه وتمسكه بالكهنة في بلاد ضعيفة الإيمان الديني، جعلته غير شعبي. والدكتور ديموستينيس لم يكن ذا شعبية كبيرة. كانوا يقدرونه كطبيب مشهور، لكنه لم يكن يوجد في المنطقة

شخص أكثر ادعاء منه وأكثر اكتفاءً، وأكثر زخماً بالأفكار المسبقة، وأكثر تصرّفاً كلورد، كما يقال هناك.

«طبيب ممتاز، لكنه أسوأ شربة مسهّل. قال أمانيسو عاكساً الرأي المحلي.

_ لماوريسيو أعداء، لكن ثمة كثيرون يحبونه. وهو يتكلم جيداً. وهو رجل وفي.

لقد تعلّم راميرو في الأوقات الأخيرة أن يقدّر قيمة الوفاء.

- ومع ذلك يمكن إلحاق الهزيمة به.

- يجب أن نكسب. ونكسب هنا في إيليوس. لا أريد أن الجأ إلى الحاكم من أجل أن أقطع رأس أحد ما. أريد أن أكسب!

بلغ به الأمر أن صار شبيهاً بطفل عنيد يطلب لعبة. وأضاف:

- إني قادر على التخلي عن كل ما لدي، كي أحتفظ بنفوذي الخاص.

وتكلم أمانسيو:

- أنت مصيب أيها الإشبين. لكن من أجل هذا، يجب إطلاق بعض القبضايات في المدينة لتخويف الناس.

- سوف نقوم بكل ما هو ممكن، إلا الخسارة في أقلام الاقتراع.

كانوا يتدارسون الأسماء المرشحين للمجلس البلدي. وقد جرت العادة أن ترشح المعارضة مستشاراً. والعادة أيضاً أن العجوز أونوراتو هو مرشح المعارضة الدائم. إنه معارض بالاسم فقط، ويدين بأفضال راميرو. وبلغ به الأمر أن أصبح موالياً للحكومة أكثر من جميع زملائه.

- هذه المرة لم يضعوا اسمه في اللائحة.

- الدكتور مرشح. وشبه مؤكد.

- دعه يترشح. إنه رجل ذو قيمة. وبمفرده، أي معارضة يستطيع أن يقوم بها؟

كانت للكولونيل راميرو نقطة ضعف بالنسبة إلى الدكتور. إنه معجب بمعرفته، درايته بتاريخ إيليوس، ويحب الاستماع إليه وهو يتكلم على الماضي، يروي وقائع

عن آل آفيلا ويدحض مزاعم عن فتيات هذه العائلة. سيعطي للمجلس لمعاناً وينتهي بالتصويت مع الآخرين، مثل الدكتور أونوراتو. حتى في تلك الساعة، حيث الحسابات الانتخابية ليست دائماً متفائلة عندما يرتسم ظل الهزيمة على القاعة، كان راميرو يتصرف بكيد عظيم، ويتخلى بسخاء عن مقعد للمعارضة، ويعيّن أكثر الخصوم نبلاً ليحتله.

وبالنسبة إلى الانتصار، وعد أمانسيو بتحقيق الانتصار.

– دع الأمر لي يا إشبيني راميرو. سوف اهتم بذلك. فطالما انا على قيد الحياة ، لن يستطيع أحد أن يمس كرامتك ويضحك في شوارع إيليوس. إن أحداً لن يتذوق كسب الانتخاب ضدك. دعنا نتصرف انا وميلك.

في الوقت نفسه، وفي ذلك الصيف المحرق، كان أصدقاء موندينيو ينشطون. فريبيرينيو لم يبق في مكان واحد، كان يذهب من قطاع إلى آخر، عارضاً نفسه للسفر إلى المنطقة بأسرها. والنقيب أيضاً ذهب إلى إيتابونا، إلى بيرانجي، إلى آغوا بريتا. وعند العودة، نصح موندينيو في الذهاب إلى إيتابونا بدون إبطاء.

«في إيتابونا حتى العميان لا يصوّتون لنا.

– لماذا؟

– هل رأيت أحداً يتكلم على حكومة ذات شعبية؟ إن هذه الحكومة موجودة. هي حكومة الكولونيل أريستو تيليس في إيتابونا. فالرجل يملك الناس جميعاً بيده، من المزارعين إلى المتسولين.

تبين لموندينيو صحة هذا التأكيد، على الرغم من أنه استُقبل بكثير من الحفاوة في المدينة الجارة. إذ ذهب أشخاص عديدون إلى المحطة في اليوم الذي أعلن فيه وصوله، على نفقتهم. جاء موندينيو في سيارته الجديدة، وهي مركبة مثيرة سوداء امتلأت نوافذها بالفضوليين عند مرورها في الشوارع. واحتفى به مؤيدوه بمآدب غداء وعشاء، وأخذوه في نزهات، إلى الكباريه، إلى نادي غرابيونا وحتى إلى الكنائس. إنما لم يتكلموا على السياسة. وحينما عرض لهم برنامجه الانتخابي، وافق كل منهم:

- لو لم أكن ملتزماً مع إريستو تيليس، لكان صوتي لك.

يا للشيطان، فالجميع كانوا ملتزمين مع إريستو تيليس، وفي اليوم التالي لوصوله، مرّ الكولونيل أريستو تيليس بالفندق لزيارته. لم يكن موندينيو هناك. فترك كلمة ودّية مع دعوة لتناول القهوة في المحافظة. وقرر موندينيو قبولها.

كان الكولونيل أريستو تيليس بيريس رجلاً ضخم الجثة ذا سحنة خلاسية، وذا وجه منقور بالجدري، وذا ضحكة يسيرة وصريحة. إنه مزارع ذو مصادر بسيطة، جنى ألفاً وخمسمائة من الأروبات، وسلطته لا تناقش في إيتابونا. فقد وُلد للإدارة، ولديه في الدم مذاق السياسة. ومنذ أن عُيّن نائب مفوض، لم يفكر أحد قطُّ أن ينازعه الزعامة، ولا حتى المزارعون الكبار في المحافظة أنفسهم.

وكونه قد بدأ عمله إلى جانب آل بادارو، توقع قبل أي شخص، السقوط السياسي للسيد القديم المهزوم في الصراعات على غابات سيكيرو غراندي. فتركهم عندما لم يكن التخلي عنهم بعد عملاً مذموماً، ومع هذا أرادوا قتله فنجا على قيد أنملة. إذ أصاب الطلق الناري أحد القبضايات الذي كان يرافقه. وجعله آل باستوس الممتنون له، نائباً مفوضاً لتابوكاس في ذلك الوقت، وهي دسكرة في جوار أريستو تيليس. وفي وقت وجيز بدأت الدسكرة البائسة تتحول إلى مدينة.

بعد ذلك ببضع سنوات، رفع هو علم انفصال قطاع تابوكاس، ففك ارتباطه بمحافظة إيليوس، وحوّله إلى محافظة إيتابونا. وقد التفّ الشعب كله حول هذه الفكرة. فغضب راميرو باستوس. وفي تلك المناسبة كادت تحل القطيعة بين الاثنين. فمن كان إريستو تيليس ليثير غضب راميرو، فيحاول بتر إيليوس، ويسرق منها قطعة كبيرة؟ لقد تواضع أريستو تيليس وكرّس نفسه له أكثر مما في السابق، وحاول إقناعه. كان الحاكم في ذلك الوقت قال له، في باهيا، إنه لا يقرّ المرسوم إلا إذا حاز على موافقة راميرو. وكان الأمر عسيراً. عليه أن يلحّ، وقد حصل على ما يريد. ماذا كان يخسر راميرو؟ - كان يسأل نفسه. إن تشكيل المحافظة الجديدة لا يمكن تجنبه، سواء أرادوا ذلك أم لا؛ بوسع الكولونيل أن يؤجله، لكنه لا يستطيع منعه. فلماذا لم

يظهر راميرو راعياً للفكرة بدلاً من محاربتها؟ إنه، أريستو تيليس، لم يكن يقصد، سواء أكان نائباً مفوضاً أم محافظاً، إلا التأييد لراميرو. فهذا عدا كونه زعيماً لمحافظة، سيأمر على محافظتين، وهذا هو الفرق الوحيد.

لقد اقتنع راميرو نفسه أخيراً، وحضر احتفالات المحافظة الجديدة. ووفى أريستو تيليس بما وعد به، فاستمر مؤيداً له، بالرغم من احتفاظه بسر مرير، عن الخضوع الذي فرضه عليه الكولونيل. على كل حال، حافظ راميرو على معاملته كأنه لا يزال نائب المفوض الشاب، لتابوكاس.

انخرط أريستو تيليس، كرجل لديه أفكار ومبادرات، في مهمة تطوير إيتابونا. فطرد منها القبضايات وعبّد الشوارع الرئيسة. لم يكن يكترث بالساحات والحدائق، ولم يكرّس نفسه لتجميل المدينة. وفي المقابل، زودها بإضاءة حسنة، وبمصلحة رائعة لجمع النفايات، وشق طرقات تربطها بالدساكر، واستقدم فنيين لتشذيب شجر الكاكاو، وأسس تعاونية للمنتجين، ومنح تسهيلات لتطوير التجارة. لقد تطلّع إلى المناطق، وجعل من القصبة الفتية نقطة التقاء المناطق الداخلية الواسعة بأكملها حتى السرتون.

قام مونDينيو بزيارته في مركز المحافظة حيث كان يدرس خريطة لإقامة جسر جديد فوق النهر يصل شطري المدينة. وكان يبدو أنه ينتظر المصدر، فأمر بطلب القهوة.

«جئت إلى هنا أيها الكولونيل، لأقدم تهاني لمدينتك. إن إنجازك غير اعتيادي. ثم للتحدث في السياسة. وبما أنني لا أحب أن أكون متهوراً، فقل لي حالاً إذا كان الحديث لا يهمك. فقد قدمت لك التهاني.

- ولم لا يا سيد مونDينيو؟ فالسياسة هي غرامي. أنظر يا سيد مونDينيو: لولا السياسة لكنت رجلاً ثرياً. فقد أنفقت كثيراً على السياسة. وأنا لا أشكو، أحب هذا. وهذه هي صراحتي. فليس لديّ أولاد، ولا أقامر، ولا أشرب... نساء، حسناً، من مرة إلى أخرى لا أقوم بواجباتي...»

ثم ضحك ضحكته اللطيفة وأردف:

- السياسة تعني لي إدارة، وللآخرين تجارة ونفوذاً، أما بالنسبة إليّ، فلا، بوسعك أن تصدق.

- أصدق بكل تأكيد. وإيتابونا أفضل برهان.

- إن ما يمنحني رضاءً هو رؤية إيتابونا تنمو. فلننهض بإيليوس يا سيد موندينيو، في يوم من هذه الأيام. لا أقول المدينة، فإيليوس هي المرفأ، لكن المحافظة. فهناك الوضع جيد للعيش وهنا جيد للعمل.

- جميع الذين كلموني عنك أشادوا بمزاياك وسلوكك. إنهم يحترمونك ويحبونك. والمعارضة غير موجودة.

- ليس تماماً أيها السيد، ثمة نصف دزينة تقريباً. واذا بحثت جيداً قد تجد بعض الأفراد الذين لا يحبونني. إنما لا يقولون لماذا. إنهم يسيرون خلفك. ألم يأتوا إليك بعد؟

- لقد جاؤوا طبعاً، لكن هل تعرف ماذا قلت لهم؟ من يريد أن يصوّت لي فليصوّت، لكنني لن أساندهم لكي يؤيدوا الكولونيل أريستو تيليس. فإيتابونا تُخدم جيداً.

- لقد عرفت.. عرفت على الفور... وإني شاكر لك.

ابتسم مجدداً لموندينيو، وأشرق وجهه الخلاسي العريض بودّ. وأضاف:

- من جهتي لقد تابعت اهتمامك، وأثني عليك. متى تنتهي أعمال المضيق؟

- بعد أشهر ويكون بوسعنا التصدير المباشر. إن الأعمال جارية وبأسرع ما يمكن. لكن هناك الكثير لنعمله.

- قصة المضيق هذه أثارت تعليقات كثيرة للجدل. يمكن أن تؤدي إلى انتخابك. لقد درست المسألة وسأقول لك أمراً. إن الحل الحقيقي هو في مرفأ موليادو، وليس في فتح المضيق. بالوسع الجَرْف كما تريد، فالرمال تعود مجدداً. والذي سيحل المسألة هو إنشاء مرفأ جديد في إيليوس، في موليادو.

إذا كان يتوقع من موندينيو أن يعارضه فهو مخطئ:

- أنا مقتنع تماماً. فالحل الحاسم هو في إنشاء مرفأ مولیادو. لكنك يا سيدي هل ترى أن الحكومة مستعدة لإنشائه؟ وكم سنة تعتقد أنه سيستغرق تدشينه بعد أن يبدأ الإنشاء؟ إن مرفأ مولیادو سيغدو معركة قاسية أيها الكولونيل. في حين أن الكاكاو يجب أن يستمر في خروجه من باهيا؟ من يدفع النقل؟ نحن المصدّرين وأنتم أيها السادة معشر المزارعين. لا تفكر أنني أرى الأفضلية للمضيق كحل. والذين يحاربونني، إنما يجادلونني بالمرفأ، وهم بالكاد يعرفون أني أفكر مثلهم. ومن الأفضل أن يكون عندنا المضيق صالحاً ما دام لا يوجد لدينا المرفأ المنشود. سنبدأ التصدير المباشر. لكن، حالما تنتهي أشغال المضيق، سأبدأ النضال من أجل المرفأ. وهناك أمر آخر بعد: إن جرافة ستبقى في إيليوس بصورة دائمة لتضمن بقاء القناة مفتوحة.

- إنني أدرك ذلك...» كان يفكر ولم يبتسم.

«أود أيها السيد أن تعرف أمراً: إذا كنت أمارس السياسة، فذلك للسبب نفسه الذي لديك.

- لحسن حظ إيليوس. من المؤسف أنك لم تبرز دورك في إيتابونا. إذا ما استثنينا طبعاً قضية الأوتوبيسات...

- إيليوس هي مركز الفعل عندي. لكني سواء انتُخبت أم لا، أنوي مد أشغالي كثيراً، وفوق هذا، إلى إيتابونا. وأحد الأمور التي جاءت بي إلى هنا، هو درس إمكان فتح فرع للمؤسسة التصديرية. وسوف أفعل هذا.»

تناولا القهوة. تلذذ أريستو تيليس بالنكهة مع النبأ:

- حسناً جداً إن إيتابونا بحاجة لأناس مقدامين.

- حسناً، لقد تحدثنا، قلت لك يا كولونيل ما كان عليّ أن أصرّح لك. فلم آتِ لأطلب أصواتاً، لأنني اعرف أنك على علاقة حميمة جدّاً معالكولونيل راميرو باستوس. وكنت مسروراً جدّاً لرؤيتك.

- لماذا كل هذه العجلة؟ إنك لم تكد تصل... من قال لك إني كنت على علاقة طيبة مع العجوز راميرو؟

- لكن جميع الناس يعلمون هذا... في إيليوس يقولون إن أصواتك تضمن الانتخابات للنائب الاتحادي وللنائب الإيالي. أو لتكن، الدكتور فيتور ميلو والدكتور ألفريدو باستوس.»

ضحك أريستو تيليس كأنه كان مبتهجاً كلياً:

«هل لديك أيها السيد بعض الدقائق لإضاعتها؟ سأروي لك بعض القصص وهي جديرة بأن تسمعها.»

صاح بالموظف طالباً مزيداً من القهوة:

«هذا المدعو الدكتور فيتور الذي هو نائب اتحادي لم نره أبداً. لقد فرضته الحكومة والكولونيل قبل بذلك. ماذا كان بامكاني أن سأفعل؟ لم يكن يوجد من أصوّت له، حتى لو شئت. فالمعارضة في إيليوس وإيتابونا انتهت مع موت كازوزا. هذا المدعو الدكتور، بعد أن انتُخب حضر إلى هنا وهو في طريقه إلى مكان آخر. وعندما رأى المدينة ابدى اشمئزازه. لقد رأى كل شيء قبيحاً. سألني ماذا كنت أفعله غير إقامة الحدائق. أجبته بأنني لم أكن بستانياً، كنت محافظاً، ولم يعجبه ذلك. ولأقول الحقيقة، إنه لم يحب شيئاً. ولم يرغب رؤية الطرقات ولا أشغال جمع النفايات، لا شيء. فلم يكن لديه وقت. طلبت اعتمادات لأمور مختلفة. أرسلت عالَماً من الرسائل. هل لحظ هذه الاعتمادات في الموازنة؟ كلا. هل أجاب على رسائلي؟ كلا. كل ما قام به هو التكرم بإرسال بطاقة في نهاية السنة، يتمنى لي فيها أعياداً طيبة. يقال إنه سوف يرشح نفسه من جديد. لكن في إيتابونا لن ينال صوتاً واحداً.»

كان مونديني يهم بالتكلم، فضحك الكولونيل، ثم تابع:

«الكولونيل راميرو رجل مستقيم حسب طريقته. هو الذي جعلني نائباً مفوضاً هنا منذ عشرين سنة. قال لجميع الناس إني مدين له بما وصلت إليه، فهل تريد معرفة الحقيقة؟ لم يكن بوسعه أن يهزم آل بادارو إلا لأنني بقيت معه. ويقولون أمراً آخر، هو أنني تخليت عن آل بادارو لأنهم كانوا خاسرين. فقد تركتهم عندما كانوا لا يزالون غير خاسرين. كانوا في طريقهم إلى الخسارة، هذه حقيقة. لكنني تركتهم لأنهم لم

يعودوا جديرين بأن يحكموا. فالسياسة لهم كما أنت اليوم، أيها السيد، بالنسبة إلى الكولونيل.

- إنك تريد أن تقول...

- تريث قليلاً، لن ألبث أن أنتهي. لقد وافق الكولونيل على انفصال إيتابونا. ولو لم يوافق لتأخر الانفصال ولاستمرت الحكومة في المناورة. ولهذا كنت أؤيده. لكنه يفكر بأنني كنت ملزماً بذلك. وحينما بدأت أنت بالتدخل في أمور إيليوس، بدأت أنا الاهتمام بك. وأمس، عندما وصلت أنت إلى هنا، قلت لنفسي: سيسعى إليك حفنة من الأوباش، وسنرى ماذا يفعل، وسيكون البرهان مجدداً (ضحك ضحكته الخفيفة). فيا سيد مونديني، إذا كنت تريد أصواتي، فهي لك. ولا أطلب منك شيئاً، فليست هي صفقة. إنما هناك أمر واحد: أنظر إلى إيتابونا أيضاً، فمنطقة الكاكاو منطقة واحدة. تطلّع إلى هذه المنطقة الداخلية المهملة.»

كانت مفاجاة مونديني شديدة بحيث لم يستطع إلا أن يقول هذه الكلمات:

«معاً أيها الكولونيل، سنفعل أموراً عظيمة.

- والآن، احتفظ بهذا لنفسك. عندما يقترب موعد الانتخابات أكثر، سأتولى أنا بالذات القيام بالإعلان.

مع هذا، لم يكن الانتظار ممكناً، فيما الحرص والحكمة يتحكمان فيه. فقد استدعاه الكولونيل راميرو إلى إيليوس ليبلغه اللائحة الحكومية. فتحادث أريستو تيليس مع أصدقائه الأكثر نفوذاً، ثم استقل الأوتوبيس إلى إيليوس.

لم يأمر الكولونيل راميرو بأن تُفتح له قاعة المقاعد ذات المتكآت المرتفعة. سلّمه ورقة بأسماء:

«الدكتور فيتور ميلو لمقعد نائب اتحادي». وتتابعت اللائحة. فقرأ أريستو تيليس بتمهل، كأنه يتهجّى الأحرف. ثم ردّ له الورقة:

- هذا الدكتور، أيها الكولونيل، لن يحصل على صوتي حتى لو هبطت السماء على رأسي. إنه ليس أهلاً لأي شيء. فقد طلبت منه أشياء كثيرة ولم ينفذ شيئاً.»

تكلم راميرو بصوته المفعم بالسلطان، كمن يؤنب ولداً غير مطيع.

«لماذا لم توجه المطالب إليّ؟ فلو طلبت بواسطتي لما رفض لك طلب. الذنب ذنبك. وبصدد التصويت له فهو مرشح الحكومة، وسوف ننتخبه. إنه التزام الحاكم.

- إلتزامه هو، وليس التزامي.

- ماذا تريد أن تقول؟

- لقد قلت لك أيها الكولونيل. لن أصوّت لهذا الشخص.

- ولمن ستصوّت؟

جاب أريستو تيليس القاعة بعينيه، ثم ركّزهما أخيراً على راميرو:

«لموندينيو فالكون.»

فنهض العجوز، مستنداً إلى العصا، وهو ممتقع الوجه:

«هل تتكلم بجد؟

- كما أقول لك.

- إذن، أخرج من هذا المنزل - وأشار بإصبعه إلى الباب - وبسرعة!»

خرج أريستو تيليس هادئاً، ولم يستبد به الغضب. مضى مباشرة إلى إدارة تحرير دياريو ده إيليوس وقال لكلوفيس كوستا:

«بوسعك أن تنشر في الجريدة أني انضممت إلى موندينيو.»

جاءت جيروزا لتجد جدها متهالكاً على أحد المقاعد:

«جداه! ما هذا؟ ماذا بك؟»

وأخذت تصيح لأمها وللخادمات، وتستدعي طبيباً. إستعاد العجوز قواه فطلب منها:

- إستدعي إشبيني أمانسيو، بسرعة. فلا ضرورة للطبيب، لست بحاجة إليه.»

- أجبره الأطباء على ملازمة الفراش. وأوضح الدكتور ديموستينيس لألفريدو وتونيكو:

«لا بد أنه قد تعرض لانفعال شديد. عليه أن يتجنَّب هذه الأمور. انفعال آخر من هذه الانفعالات ولن يستطيع قلبه أن يقاوم.»

وصل أمانسيو ليال، إذ بلغه النبأ عندما كان يهم بتناول غدائه، فترك عائلته المذعورة وجاء.

دخل غرفة راميرو في الساعة نفسها التي كانت توزَّع فيها جريدة دياريو ده إيليوس. كان فيها عنوان عريض جداً في الصفحة الأولى «إيتابونا تؤيد برنامج موندينيو فالكون»! وكان أريستو تيليس قد وصل وهو بصحبة المصدّر من زيارة إلى الجرافات والقاطرات في المضيق وقد رأى الغواصين يغوصون إلى قاع المياه، وشاهد الحفارات تأكل الرمال كأنها حيوانات خرافية. وضحك ضحكته اليسيرة: «معاً سننشئ مرفأ مولیادو». قال موندينيو.

أصابه الطلق الناري في صدره عندما كان هو وموندينيو يجتازان بؤرة الأرض في أونياون، قادمين إلى حانة نسيب لتناول مشروب ما.

«أنا لا أشرب كحولاً...» قال عندما أصابته الرصاصة.

خرج زنجي راكضاً إلى المرتفع حيث كانت زمرة بانتظاره. ولحق به شخصان من شهود العيان. وأغاث المصدّر محافظ إيتابونا، فتلوّث قميصه بالدم الحار، وأدركهما أشخاص تجمهروا حولهما.

وكانت تُسمع صرخات من بعيد:

– أمسكوه! أمسكوا القاتل! لا تتركوه يهرب.

عن المطاردة الكبيرة

كان بعد ظهر ذلك اليوم، أكثر إثارة من المساء الذي قُتل فيه أوزموندو وسينيازينيا. ربما منذ نهاية الضوضاء، منذ أكثر من عشرين عاماً، لم يطرأ أي حادث أثار وأهاج، ليس المدينة وحسب، إنما المحافظات المحاذية، المنطقة الداخلية

بأسرها. ففي إيتابونا، كان ذلك نهاية الدنيا. وبعد محاولة الاغتيال بساعات قليلة، وصل إلى إيليوس آتون من المدينة بالسيارات. ووصل أوتوبيس المساء محملاً فوق قدرته على الاستيعاب. وأنزلت شاحنتان مسلحين. إنها حرب تبدو على وشك الاندلاع.

«حرب الكاكاو سوف تستمر ثلاثين عاماً.» قال نيوغالو متنبئاً.

لقد نُقل الكولونيل أريستو تيليس بيريس إلى المستشفى الذي لا يزال قيد البناء، والذي يملكه الدكتور ديموستينيس. كانت بعض الغرف وقاعة الجراحة فقط، تمارس وظائفها. دعا وصول الجريح إلى التئام النخبة الطبية. ولم يشأ الدكتور ديموستينيس، وهو صديق سياسي للكولونيل راميرو، أن يتحمل مسؤولية العملية. فقد كانت حالة أريستو تيليس خطرة، وما الذي سيقولونه لو مات الرجل بين يديه؟ كان الدكتور لوبيز، وهو طبيب ذو شهرة واسعة وزنجي مثل الليل، الشخص الودود، هو الذي أجرى العملية بمساعدة اثنين من زملائه، وحينما وصل أطباء إيتابونا، موفدين على وجه السرعة من قبل الأقارب والأصدقاء، كانت العملية قد انتهت. فغسل الدكتور يديه بالكحول:

«الآن، الأمر عائد إليه، إلى مقاومته.»

كانت الحانات ملأى والشوارع مزدحمة. ثمة توتر عام. جريدة دياريو ده إيليوس مع مقابلة مؤثرة عن أريستو تيليس، انتُزعت في دقائق من أيدي الأولاد. فقد بيع العدد بعشرة توستونات. والزنجي الذي أطلق الرصاصة اختبأ في أكمة مرتفع أونياون، ولم تُعرف هويته. أحد شهود الحادثة، وهو عامل بناء في إحدى الورش، أكد أنه رآه، أكثر من مرّة، بصحبة لويرينيو، في الشوارع الخلفية، وفي كباريه «باتي فوندو» ذي المستوى الرديء. والشخص الآخر الذي ركض مطارداً المجرم وكاد أن يتلقى طلقاً نارياً، لم يكن قد رآه من قبل. لكنه وصف لباسه: سروال من قماش وقميص منقوش بمربعات على النمط البلغاري. وبالنسبة إلى الذين أمروه بذلك، فكانوا معروفين وكان الناس يتهامسون بأسمائهم في صوت خفيض.

بقي موندينيو في المستشفى طوال العملية. وأرسل سيارته لاستقدام زوجة أريستو تيليس من إيتابونا. ثم أرسل بعد ذلك سلسلة من البرقيات إلى باهيا وإلى الريو. وضرب بعض القبضايات من رجال ألتينو براندون وريبيرينيو، وهم في المدينة منذ وصول القاطرات، نطاقاً حول المرتفع مع أوامر بجلب الزنجي حياً أو ميتاً. وحضرت الشرطة المحلية، فاستمعت إلى موندينيو، وأوفد المفوض جنديين للبحث في الجوار. واتهم النقيب، وهو أيضاً في المستشفى، الكولونيلات: راميرو وأمانسيو وميلك بأنهم هم من أصدروا الأمر بالقتل. لكن المفوض رفض تسجيل تصريحاته، لأنه لم يكن شاهداً. لكنه سأل موندينيو إذا كان يتبنى تصريحات النقيب:

«ماذا يفيد ذلك؟ لست ولداً، فأنا أعلم أن السيد الملازم (كان المفوض ملازماً في الشركة العسكرية) لن يتخذ أي إجراء. والمهم هو اعتقال المجرم. فهو سيقول لنا من سلّحه. وهذا بالضبط ما سوف نفعله.

- إنك تهينني أيها السيد.

- أهينك؟ لماذا؟ سوف أطردك من إيليوس. بوسعك إعداد حقائبك.» كان يتكلم برنّة الصوت نفسها التي يتكلم بها كولونيل الأزمنة الأخرى.

في حانة نسيب، كان العربي يهرول من طاولة إلى أخرى، ليستمع إلى التعليقات، «لا يتمّ تغيير في المجتمع من دون إراقة دم. أعلن جوان فولجنسيو. فهذه الجريمة علامة سيئة لراميرو باستوس. فلو صُفي الرجل، لكان بوسعه ربما تقسيم إيتابونا. لكن نفوذ أريستو تيليس سيزداد الآن. إنها نهاية أمبراطورية راميرو الأول الطويلة، البستاني. لن نكون تابعين لتونيكو، المحبوب. سيبدأ حكم موندينيو المرح.

انتشرت الشائعات أيضاً حول حالة الكولونيل راميرو الصحية، بالرغم من السر الذي حاولت عائلته الاحتفاظ به. فتونيكو وألفريدو لم يبتعدا قيد قدم عن سريره. قيل إن العجوز يحتضر. وكذّب الدكتور جوزويه النبأ ليلاً.

كان الدكتور يمر في وضع حرج. مع أنه محركاً رئيساً في حملة موندينيو، تناول العشاء مع راميرو وعائلته بحميمية، في المساء الذي وقعت فيه الجريمة. فقد دُعي

في الأمس، مع آري وجوزويه، للعشاء في منزل الخصم المهاجم، احتفاءً بالشاعر، وقد قيل: المعارضة السياسية لا تغيّر علاقاته الشخصية مع آل باستوس، على الرغم من المقالات العنيفة التي ينشرها، في دياريو ده إيليوس. في ذلك اليوم، كانوا قد ذهبوا في نزهة، هو والشاعر وجوزويه، إلى مزرعة صغيرة ملأى بأشجار الكاكاو عبر بونتال، ليتناولوا غداء من طعام الموكيكا اللذيذة المغمسة بالعرق، قدّمه الدكتور إلفيسيو ماركيز، وهو محام وبوهيمي. ومكثوا وقتاً طويلاً هناك. وقد عادوا إلى الفندق راكضين، لكي يعقد الشاعر ربطة العنق، ثم غادروا فوراً إلى منزل راميرو. وأثارت انتباه جوزويه، الحركة غير الاعتيادية في الشوارع، لكن أحداً لم يعرها كبير أهمية، في حين أن آري سانتوس، في الحانة، اعتقد أن الدعوة قد ألغيت، فلم يذهب إلى هناك.

لا يمكن القول إن العشاء كان مرحاً. كان ثمة جو قلق ومتوتر. لقد عرفوا أن الكولونيل لم يكن بحالة جيدة في الصباح. حتى أن ابنيه لم يرغبا بأن يأتي والدهما إلى الحفلة، ولكن راميرو اصر على الحضور، مع أنه لم يأكل شيئاً. وكان تونيكو صامتاً بصورة غريبة. ولم يستطع ألفريدو البقاء متنبهاً للحديث، فيما كانت زوجته التي تكثر التلفت إلى الخادمات اللواتي يخدمن على المائدة، كان الألم يبدو على عينيها كأنها قد بكت. أما جيروزا فكانت هي التي تثير الحيوية على المائدة، وتذكر والدها ليجيب عندما يتكلمون معه، وتتحدث مع الشاعر والدكتور، بينما يستنطق راميرو الهادئ، جوزويه بصدد طلاب ثانوية إينوش. وعندما كانت المحادثة تخفت أحياناً، يثير راميرو أو جيروزا الحماسة مجدداً.

وفي إحدى هذه المرات، عُقد بين الفتاة والشاعر حوار جرى انتقاده في ما بعد في الحانات. فقد سألته جيروزا بود:

- هل أنت متزوج أيها الدكتور آرجيليو؟

أجاب الشاعر بصوته الهادر:

- كلا يا آنسة.

– أرمل؟ مسكين... لا بد أنك حزين.

– كلا، يا آنسة فلست أرمل...

– لا تزال عازباً؟ لقد حان الوقت لتتزوج يا دكتور آرجيليو.

– لست عازباً يا آنسة.

اغتصبت جيروزا سؤالاً من دون لؤم وهي مضطربة.

– إذن، ما هو وضعك أيها الدكتور آرجيليو؟

– إنني أتخذ صديقة أيتها الآنسة. أجابها وهو يحني رأسه.

كان ذلك غير متوقع، بحيث أن تونيكو الصامت والمكتئب في تلك الليلة، انفجر في قهقهة مدوّية، ونظر إليه راميرو نظرة قاسية، وخفضت جيروزا عينيها فوق الطبق، وأكل الشاعر، ثم سيطر جوزويه بجهد على رغبته في الضحك، لكن الدكتور أنقذ الوضع راوياً قصة عن آل آفيلا.

وفي نهاية العشاء، وصل أمانسيو ليال. وشعر الدكتور أن أمراً غير عادي قد حدث. وفوجئ أمانسيو بوضوح، وهو يراه هناك. فظل مطبقاً ينتظر. وكانت العائلة بأكملها تنتظر. وأخيراً لم يستطع راميرو تمالك نفسه، فسأله:

«هل عرفت نتيجة العملية؟

– يبدو أنه أنقذ.» هذا ما يقولونه.

وأراد الدكتور أن يعرف:

«من؟ «سال الدكتور.

«ألم تعرف شيئاً؟

– جئنا فوراً من مزرعة إلفيسيو.

– أُطلقت النار على الكولونيل أريستو تيليس.

– في إيتابونا؟

– هنا في إيليوس.

- ولماذا؟

- من يدري؟...

- من أطلق النار؟

- لا أحد يدري. يبدو أنه أحد القبضايات، وقد لاذ بالفرار.»

أبدى الدكتور الذي لم يقرأ الجريدة أسفه، ولم يكن يعرف شيئاً:

«يا لهذا الخبر... إنه صديق حميم لك، أليس كذلك أيها الكولونيل؟»

أخفض راميرو رأسه. انتهى العشاء بدون حماسة. وبعد ذلك ألقى الشاعر بعض القصائد لجيروزا. لكن الصمت في القاعة كان ثقيلاً، لدرجة أن جوزويه والدكتور صمما على الانصراف. وأراد الشاعر أن يمكث أكثر، وكان يشرب الكونياك. لكن الآخرين أجبراه على الخروج معهما.

«لِمَ هذه العجلة؟ أناس فاضلون، وكونياك لذيذ.

- إنهم يريدون البقاء بمفردهم.

- ماذا يجري؟»

عرفوا في الحانة، فأسرع الدكتور إلى المستشفى. ولم يبد الشاعر اللامع تعاطفاً:

«لما أرسلوا من يقتل الناس، وبالذات في اليوم الذي قدموا لي فيه العشاء؟ أما كان بوسعهم اختيار يوم آخر؟

- ضرورة ملحة.»

كان الناس يدخلون إلى الحانة، ويخرجون منها. يأتون بأخبار عن النطاق المضروب على مرتفع أونياون، عن التعقبات المنجَزَة، عن المطاردة الكبيرة المنظمة للإتيان بالزنجي حياً أو ميتاً. كان القادمون من إيتابونا، والمسلحون النازلون من الشاحنات، يؤكدون أنهم لن يعودوا من دون رأس قاطع الطريق. إنهم يريدون أن تشاهدهم المدينة. ووصل أيضاً أناس من المستشفى. أريستو تيليس كان نائماً، والدكتور لوبيز يقول إنه من المبكر جداً أن يُصار إلى التوقع، فالرصاصة اخترقت الرئة.

ونسيب أيضاً، ذهب يستطلع على النطاق المضروب على المرتفع، في نهاية المنحدر. أخبر غابرييلا والدونا آرميندا بالأمور الجديدة، فدهشتا لحركة الناس.

«ارسلوا من يقتل محافظ إيتابونا الكولونيل أريستو تيليس. لكنهم أصابوه بجرح فقط. فهو بين الموت والحياة في المستشفى. يقولون إن أناساً محسوبين على الكولونيل راميرو باستوس وعلى أمانسيو أو على ميلك. واختبأ القبضاي في المرتفع. لكنه لن يتمكن من الفرار، إذ يوجد أكثر من ثلاثين رجلاً يقومون بالمطاردة. وإذا قبضوا عليه...

- وماذا سيحدث؟ يأخذونه سجيناً؟ سألت غابرييلا.

- نعم، سجيناً؟ كما يقولون. سوف يأخذون رأسه إلى إيتابونا. حتى أنهم يتسابقون مع المفوض.

كانت الحقيقة هي أن المفوض، مع عنصر، قد حضر إلى أونياون قادماً من ناحية المرفأ، حيث أطلق الزنجي النار، فيما الرجال المسلحون يحرسون المنحدرات. وأراد المفوض أن يصعد إلى المرتفع فلم يدعوه:

- لا أحد يمرّ من هنا.

كان مرتدياً لباسه العسكري ذا الشارات التي تشير إلى رتبة ملازم. والذي كان يمنعه من المرور شاب وقح الملامح والمسدس بقبضة يده.

- من أنت أيها السيد؟

- أنا سكرتير محافظة إيتابونا، أميريكو ماتوس، إذا شئت أن تعرف اسمي.

- وأنا مفوض إيليوس. سأعتقل المجرم.

حول الفتى كان خمسة مسلحين مع بنادقهم السريعة الطلقات.

- تريد اعتقاله؟ لا تدفعني إلى الضحك. فإذا أردت اعتقال أحد، لست مضطراً لصعود المرتفع. اعتقل الكولونيل راميرو، وهذا السافل المدعو أمانسيو ليال، وميلك تافاريس أو المدعو لويرينيو، لستم بحاجة إلى الصعود، فلديكم الكثير لتفعلوه في المدينة.

أتى بحركة، فشهر القبضايات أسلحتهم. وقال الفتى:

– أيها السيد المفوض. إنصرف إذا كنت لا تريد الموت.

ألقى الملازم نظرة خاطفة. كان العنصر قد اختفى. فاستدار نصف دورة:

– ستصلك أخبار مني.

كانت جميع المنحدرات محروسة. إنها ثلاثة، اثنان من جهة المرفأ، وواحد من جهة البحر، حيث يقع بيت نسيب. أكثر من ثلاثين رجلاً مسلحاً من إيتابونا ومن إيليوس، كانوا يطوّقون المرتفع ويفتشون الآجام الكثيفة بالأشجار في الغابة المعتمة، ويدخلون البيوت البائسة منقّبين من أعلى إلى أسفل. وفي المدينة بلغت الشائعات حدها الأقصى. في فيزوفيو، من آن لآخر، يحضر أحد ما ليروي خبراً جديداً آخر: الشرطة تتحمل مسؤولية حماية بيت الكولونيل راميرو حيث يوجد هو وأبناؤه وأصدقاؤه الأكثر قرباً، وخصوصاً أمانسيو وميلك المتحصّنين. وخبر آخر يقول إن أمانسيو نفسه مرّ بالحانة بعد ذلك بدقائق، وميلك كان في الحقل. وشاع مرتين نبأ موت أريستو تيليس، ورووا أن موندينيو هو الذي طلب دعماً بالرجال من الكولونيل ألتينو براندون، وأنه قد أوفد رسولاً بسيارة بحثاً عن ريبيرينيو. لقد انتشرت الشائعات وكلها عبثية، خلال دقائق، فزادت الهيجان، لتحل مكانها بعد ذلك وسريعاً، شائعات أخرى.

وأحدث دخول أمانسيو انطباعاً معيناً. قال: «ليلة سعيدة أيها السادة» كما يفعل عادة، بصوته الرقيق، ومشى إلى طاولة البيع، فطلب كأس كونياك، وسأل إذا كان ثمة مشارك في لعبة بوكر. لم يرغب أحد في اللعب، فسار بين الطاولات وتبادل بعض كلمات مع بعض الموجودين. كان الجميع يشعرون أن الكولونيل يحاول أن يدفع عنه التهمة. ولم يجرؤ أحد حتى أن يتناول المسألة. حيّاهم أمانسيو مرة أخرى، وصعد نحو شارع سيل أدامي باتجاه منزل راميرو.

كان الرجال قد فتشوا جميع المنافذ إلى المرتفع ، باحثين في الكهف ومطوّقين الآجام. ومرّوا أكثر من مرّة على بعد خطوات من الزنجي فاغونديس.

لقد صعد المرتفع وهو لا يزال قابضاً على المسدس. كان ينتظر اللحظة المؤاتية لإطلاق الرصاص. ولوجوده في بؤرة أونياون المقفرة تقريباً، في تلك الساعة، صمم على أن يستهدف القلب. وشاهد الكولونيل يسقط أرضاً، وهو فعلاً ما شاهده لويرينيو في المرفأ. ولحق به شخص فأطلق النار عليه. ثم تسلل بين الأشجار منتظراً هبوط الليل. كان يمضغ قطعة من التبغ. سوف يكسب مالاً وفيراً. وأخيراً... ها هو الشغب قد بدأ. وكليمينتي يعرف قطع الأرض المعروضة للبيع، ولم يكن ينزع ذلك من رأسه، متخيلاً الحصول على حقل صغير معاً. وإذا تصاعدت أعمال الشغب، فإن رجلاً مثله، فاغونديس، ذا شجاعة وتصويب دقيق، سيتدبر أمره في الحياة خلال وقت قصير. كان لويرينيو قال له إنه سيلتقيه في كباريه باتي فوندو عند مطلع الليل، قبل أن يبدأ التحرك. وهناك عند الساعة الثامنة كان فاغونديس هادئاً. فأركن إلى الراحة قليلاً، ثم شرع في المشي إلى أعلى، تتناوبه أفكار بالنزول من الجانب الآخر حالما يهبط الليل، فيتسلل إلى الشاطئ، ويذهب لملاقاة لويرينيو. فمرّ بهدوء أمام عدد من الأكواخ، ووصل به الأمر إلى أن يلقي تحية المساء على امرأة تطرز الثياب. ثم انسل إلى الغابة، وبحث عن مكان يلتجئ إليه، واستلقى مفكراً وهو ينتظر حلول الظلام.

من هناك كان يتبين الشاطئ. دام الغسق طويلاً، وكان بوسع فاغونديس أن يرى، وهو يرفع رأسه قليلاً، الشمس تفتح مروحة حمراء بلون الدم في أقصى البحر. كان يفكر في قطعة الأرض التي يرغب فيها. في كليمينتي، مسكين لا يزال يتكلم عن غابرييلا، ولا يستطيع أن ينساها. إنه لا يعرف أنها قد تزوجت، وهي الآن سيدة ثرية، أخبروه النبأ في المدينة. وتزايدت العتمة ببطء. وساد الصمت المرتفع كله.

عندما همَّ بالنزول شاهد جموع الرجال. فكاد أن يلتقي بهم، فتراجع إلى الغابة. ومن هناك راقبهم وهم يدخلون البيوت. كانوا منقسمين فرقاً. عدد كبير من الناس المسلحين. سمع شذرات من الأحاديث. إنهم يريدون الإمساك به حياً أو ميتاً، ويأخذونه إلى إيتابونا. حك مسدسه. هل كان مهماً إلى هذا الحد، الشخص الذي أطلق عليه الرصاص؟ في هذه الساعة سيكون ممدداً وسط الزهور. فاغونديس كان

حياً، لا يريد أن يموت. هناك قطعة أرض، ستصير له ولكليمينتي؛ أعمال الشغب قد بدأت وحسب، وثمة مال كثير للكسب. والرجال في فرق من أربعة وخمسة يسيرون إلى الغابة.

دخل الزنجي فاغونديس إلى حيث الغابة أشد كثافة. كانت الأشواك تمزق سرواله وقميصه. والمسدس بيده، بقي بضع دقائق متقوقعاً على نفسه في الغابة. ولم يلبث أن سمع أصواتاً:

«مرّ شخص من هنا. إن العشب مُداس.»

ابتعدت الأصوات. واستمر في الغابة المطوقة. اخترقت شوكة غليظة ساقه. وهرب حيوان عندما رآه، وهكذا اكتشف فجوة عميقة تغطيها الاشجار. وهناك دخل إلى عمقها وبقي وقتاً طويلاً. ثم عادت الأصوات تقترب مجدداً:

«لقد مر أناس من هنا أنظر...

- أشواك لعينة.»

ازدادت كآبته مع هبوط الليل. بعد دقائق قليلة، كانت الأصوات تقترب بحيث كان ينتظر أن يرى رجلاً يجتاز ستار الاشجار الهش ويدخل الفجوة. وشاهد من بين الأغصان أحد الحباحب يطير. لم يشعر بالخوف، لكنه بدأ يفقد صبره. سيصل إلى الموعد المضروب متأخراً. تناهت إلى سمعه أحاديث. كانوا يتكلمون على بتره بالسكين. يريدون معرفة من أرسله. لم يكن خائفاً لكنه لا يريد أن يموت الآن وقد بدأت أعمال الشغب. ثم إن هناك قطعة الأرض التي سيشتريها، بالاشتراك مع كليمينتي!.

ساد الصمت بعض الوقت وهبط الليل بسرعة كأنه تعب من الانتظار. هو أيضاً كان تعباً من الانتظار، فخرج من الفجوة، منحنياً إلى الأمام لأن الاشجار كانت منخفضة. راح يراقب بحذر. لا أحد في الجوار. هل تخلّوا عن مقصدهم؟ كان ذلك ممكناً مع حلول الليل. فانتصب وتطلّع فلم ير إلا الأشجار القريبة منه، وما تبقى كان ظلاماً. من السهل أن يسترشد. فأمامه البحر، ووراءه المرفأ. يجب أن يسير إلى

الأمام، فيخرج قرب الشاطئ ويدور حول الصخور، ثم يبحث عن لويرينيو. لن يكون بعد في كباريه باتي فوندو. سوف يتسلّم نقوده التي كسبها عن جدارة، وهو خليق بمكافأة أكبر، بسبب تلك المطاردة. ضوء أحد الأعمدة إلى ناحية اليمين يحدد نهاية طلعة، وآخر في الوسط. على مسافة بعيدة عنه كانت أضواء شحيحة وضئيلة تنبعث من بعض البيوت. وبدأ السير. وما إن سار خطوتين بعيداً عن الغابة، حتى ظهرت الشعلة الأولى التي ترتقي الطريق. وتناهى إلى سمعه هدير أصوات مع الريح. كانوا عائدين مع مشاعل مضيئة. إنهم لم يتخلوا عن مقصدهم كما ظن.

وصلت المشاعل الأولى إلى أعلى، حيث توجد البيوت. توقفوا بانتظار الآخرين، وهم يتحدثون مع السكان، سائلين إذا كانوا قد شاهدوا أحداً.

«نريده حياً لنعاقبه.

- سنأخذ رأسه إلى إيتابونا.»

للمعاقبة... إنه يعرف ماذا يعني هذا. فإذا كان لا بد من الموت، فسيقتل اثنين قبل أن يحدث ذلك. تناول مسدسه من جديد. هذا المتوفى لا بد أن يكون مهماً حقاً. فلو خرج وهو على قيد الحياة، لأصرَّ على مكافأة أكبر.

فجأة، قطع مصباح كهربائي الظلمة، وصفع وجه الزنجي... وانطلقت صرخة:

- هناك!

حدثت حركة رجال يتدافعون. فانحنى الزنجي بسرعة، ودخل الغابة. عند خروجه من الفجوة كان قد كسر أغصان الأجمة. فلم تعد تصلح كمخبأ. كان المطاردون يقتربون منه، فقذف نفسه إلى الأمام، كحيوان أُطلق، مكسراً أشواكاً، ممزقاً لحم الكتفين، إذ كان يسير منحنياً. كانت الاجمة كثيفة وقدماه تتعثران بالحجارة، وكانت الضوضاء تشير إلى وجود رجال كثيرين. هذه المرة لم يكونوا متفرقين. إنهم يسيرون معاً. كانوا قريبين، وكل مرة يقتربون أكثر. كان الزنجي يقطع الغابة الكثيفة بصعوبة، وسقط مرتين. الجروح في جسمه الآن أكثر، ووجهه ينزف. سمع طعنات الساطور تقطع أشجار الغابة، وتناهى إليه صوت يصدر أمراً:

– ليس بوسعه الهروب. الهاوية إلى الأمام. هيا نضيّق الحصار.

وانقسم الرجال. أصبح المنحدر حاداً. وفاغونديس يسير كالقط معتمداً على يديه. بدأ يعتريه الخوف. لن يستطيع الفرار. وهنا من الصعب إطلاق النار، ليقتل اثنين أو ثلاثة، كما كان يرغب، ليقتلوه أيضاً من دون عذاب، ببضع رصاصات في الجسم. الموت لرجل مثله... سُمع صوت من بين ضربات الساطور:

– استعد أيها القاتل. سوف نقطعك إرباً بحد الساطور!

كان يريد الموت بتفريغ شحنة رصاص دفعة واحدة من دون أن يشعر بشيء. فإذا أمسكوه حياً، سوف يعاقبونه... يقتلونه تدريجاً، لأنهم يريدون اسم الآمر بالجريمة. ذات مرة في السرتون، قتل هو وآخرون، عاملاً في الحقل أرادوا معرفة مكان اختباء شخص ما. قطعوا أذنيه، وسملوا عيني البائس. إنه لا يريد أن يموت هكذا. كل ما يرغبه الآن هو فسحة بين الأشجار حيث يستطيع أن ينتظرهم والسلاح بيده، ليقتل ويموت، كي لا يخضع للعقاب مثل ذلك التعيس في السرتون.

ووجد نفسه أمام الهاوية. لم يسقط لأن ثمة شجرة عند الحافة بالضبط. وقد تمسك بها. فنظر إلى أسفل، من المستحيل تبيّن شيء. مشى بمحاذاة الهاوية إلى اليسار، فاكتشف منحدراً عمودياً تقريباً إلى جهة الأمام. تبدو الغابة أقل كثافة، وبعض الأشجار قد نمت... وكان المدى يبتعد. فالمطاردون دخلوا الآن الغابة الكثيفة، إنه الآن أمام الهاوية. فتقدم إلى المنحدر، وبدأ في الانحدار، متقدماً إلى الأمام في جهد البائس. لم يحس بالأشواك وهي تمزق بشرته. أحس، أجل، بأطراف النصال في صدره، في عينيه وفي أذنيه. إنتهى المنحدر، إنه على مسافة مترين من الأرض الصلبة، تمسك ببعض الأغصان وألقى بنفسه أرضاً.

لا يزال يسمع صوت طعنات الساطور. لقد وقع على العشب المرتفع، من دون أن يحدث جلبة تقريباً. جُرحت ذراعه من الإمساك بالمسدس، ثم وقف. أمامه، إلى الجهة السفلى، يوجد فناء. فقفز. خاف هرّ عند رؤيته ، فهرب إلى التلة. انتظر مديراً ظهره إلى عتمة التلة. في الجناح الخلفي للمنزل كانت تنبعث أضواء، فعلّق المسدس

بحزامه واجتاز الفناء. شاهد مطبخاً مُضاءً، وغابرييلا تغسل الأطباق. فابتسم. لم تكن هناك امرأة تضاهيها، جمالاً في الدنيا.

كيف تورطت السيدة سعد
في السياسة منتهكة حياد زوجها التقليدي

ضحك الزنجي فاغونديس، ووجهه متورّم من وخز الأشواك السامة، وقميصه ملوث بالدم، وسرواله بات خرقاً:

- سيقضون الليل مطاردين الزنجي، والزنجي هنا قربك، يعقد حديثاً مع غابرييلا.

وضحكت غابرييلا أيضاً، ثم قدمت له عرقاً مرة أخرى.

- ماذا ينبغي فعله؟

- هناك شاب اسمه لويرينيو. هل تعرفينه؟

- لويرينيو؟ سمعت اسمه يُردد منذ وقت، في الحانة.

- إبحثي عنه، وحددي مكاناً لأجتمع به.

- أين أجده؟

- كان سيتم لقاؤنا في كباريه باتي فوندو وهو مكان جيد للرقص، في شارع سابو. ليس من المتوقع أن يكون هناك حتى الآن. الموعد في الساعة الثامنة، كم الساعة الآن؟ ذهبت لترى الساعة في البهو إذ كانا يتحدثان في المطبخ.

«تجاوزت الساعة التاسعة. وإذا لم يكن هناك؟

- إذا لم يكن موجوداً، فالكولونيل في الحقل. زوجته ذات عقل سيء. إنها لا تساوي شيئاً.

- أي كولونيل؟

- السيد ميلك. أنت تعرفين الكولونيل أمانسيو، إحدى عينيه عمياء؟

– أعرفه جيداً. فهو يذهب إلى الحانة كثيراً.

– إنه يفيد أيضاً. فإذا لم تعثري على المدعو لويرينيو، إبحثي عن الكولونيل ليتدبر وسيلة.»

لحسن الحظ لم تكن الفتاة تنام في مكان عملها. كانت تذهب إلى بيتها بعد العشاء. فأخذت غابرييلا الزنجي فاغونديس إلى غرفة الجناح الخلفي، حيث عاشت شهوراً طويلة. وطلب منها:

«أعطني كأساً آخر.»

أعطته زجاجة العرق.

«لا تشرب كثيراً.

– إذهبي من دون خوف. كأس أخرى فقط لأكمل النسيان. إني لا أعترض إذا مت قتلاً برصاصة. فالناس يموتون وهم يتشاجرون، ويضحكون، راضين. أما التعذيب بالسكين، فلا أريده. إنه موتٌ بغيض، موت محزن وسيىء، ولقد شاهدت رجلاً يموت هكذا. إنها رؤية بشعة.»

أرادت غابرييلا أن تعرف:

«لماذا أطلقت الرصاص؟ ما لزوم ذلك؟ أي سوء سببه لك؟

– لم يفعل شيئاً لي. إنما فعل ذلك للكولونيل. ولويرينيو أمرني. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ فلكل واحد مهنته، وهذه هي مهنتي. كما أني فعلت ذلك أيضاً لشراء قطعة من الأرض، لي ولكليمينتي. لقد اقتنع بذلك.

– لكن الرجل قد نجا، سوف ترى، فلن تكسب شيئاً.»

أوصته بألا يُحدث ضجيجاً، وألا يضيء نوراً، ولا يخرج من الغرفة الصغيرة في الجناح الخلفي. فالمطاردة مستمرة في المرتفع. لقد مر الهر بسرعة في الغابة مضللاً القبضايات. إنهم فتّشوا الغابة شبراً شبراً.

انتعلت غابرييلا حذاءً عتيقاً أصفر اللون. كانت الساعة تشير إلى أكثر من التاسعة والنصف بقليل. ففي تلك الساعة لا تخرج امرأة متزوجة بمفردها في

شوارع إيليوس، الا مومس فقط. إنها لم تفكر بهذا كما لم تفكر بردة فعل نسيب إذا عرف بذلك، ولا بتعليقات الذين يشاهدونها. كان الزنجي فاغونديس طيباً معها في المسيرة، مع المهاجرين. وقد حمل خالها على ظهره قبل أن يموت بقليل. وحينما أوقعها كليمينتي أرضاً بغضب، ظهر ليدافع عنها. فلن تتركه من دون عون، أمام خطر الوقوع بين أيدي المطاردين. القتل كان عملاً رديئاً، لا تحبه. لكن الزنجي فاغونديس لم يكن يحسن أمراً آخر. إنه لم يتعلم، كان يعرف كيف يقتل فقط.

خرجت وأغلقت الباب المطل على الطريق وأخذت معها المفتاح. لم تطأ سابقاً ذلك الشارع. ظلت تسير إلى جانب السكة الحديد، ثم انحدرت إلى الشاطئ. شاهدت الحانة ناشطة الحركة وأناساً كثيرين واقفين. وكان نسيب يمرّ، ويتوقف أمام الطاولات. قطعت الطريق في ساحة روي باربوزا ثم انعطفت إلى ساحة سيابرا. كان في الشارع أناس، بعضهم نظروا إليها بفضول. واثنان ألقيا عليها التحية، إنهما من معارف نسيب، زبونان في الحانة. لكن الناس كانوا منهمكين في حدث العشية، فلم يُبدوا اكتراثاً بها.

بلغت خطَّي السكة الحديد، ووصلت إلى البيوت البائسة في الشوارع الخلفية. نساء ضالّات، من آخر طبقة، مررن بها وأبدين استغراباً. واحدة منهن شدتها من ذراعها:

«أنت جديدة هنا، لم أرك من قبل قطّ... من أين أتيتِ؟

– من السرتون. أين يقع شارع سابو؟ أجابتها غابرييلا بشكل آلي.

– إلى الأمام، هل أنت ذاهبة إلى هناك؟ إلى بيت ميه؟

– كلا. ذاهبة إلى «باتي فوندو».

– أنت ذاهبة إلى هناك؟ إنك لشجاعة فعلاً. فأنا لا أذهب إلى هناك، خصوصاً اليوم حيث جرى عراك كثير. تنعطفين إلى اليمين فتصلين إلى هناك.»

انعطفت إلى اليمين عند الناصية. فأمسك بها زنجي:

«إلى أين تذهبين يا جميلتي؟»

ثم تطلع إلى وجهها، فوجدها جميلة، فقرصها من خدها بأصابعه القوية:

«أين تسكنين؟

- بعيداً عن هنا.

- لا بأس. هيا نذهب لننجب طفلاً.

- لا أستطيع الآن. إني على عجلة من أمري.

- أنت خائفة من أن لا أدفع لك؟ أنظري هنا...»

وضع يده في جيبه، وأخرج بعض أوراق النقد ذات القيمة الضئيلة.

«لست خائفة. لكني على عجلة من أمري.

- وأنا على عجلة من أمري. لقد خرجت من أجل هذا بالضبط.

- وأنا من أجل أمر آخر. دعني أنصرف، وأعود حالاً.

- هل تعودين حقاً؟

- أقسم لك بأن أعود.

- سوف أنتظرك.

- هنا بالذات. بوسعك الانتظار.»

إنصرفت، مسرعة الخطى. وقرب باتي فوندو - حيث كانت تنبعث ضوضاء موسيقية من طبول وكمان، تحرش بها رجل سكران، أراد أن يحتضنها، فدفعته بمرفقها. فقد توازنه، فتمسك بعمود. ومن باب باتي فوندو في شارع ضعيف الإنارة، انبعث صوت أحاديث، قهقهات وزعيق. دخلت، فناداها صوت عند رؤيتها.

«إلى هنا يا سمراء، لنشرب كأس عرق.»

كان رجل عجوز يعزف على الكمان، وفتى يقرع الطبل، ونساء بلغن الكهولة يطلين وجوههن بالمساحيق بإفراط، وبعضهن ثملات، وأُخر خلاسيات في ريعان الشباب. بعضهن ذوات شعر منسرح ووجه نحيل، لم يكنَّ قد أكملن الخامسة عشرة من العمر. وألحّ رجل على غابرييلا لتأتي فتجلس إلى جانبه. وكانت النساء، الطاعنات في السن والشابات، ينظرن إليها بريبة. من أين أتت هذه المنافسة الجميلة والمثيرة؟

وناداها رجل آخر أيضاً، ومشى إليها صاحب الحانة، وهو خلاسي ذو ساق واحدة، فيما الساق الخشبية تُحْدِثُ صوتاً جافاً عندما تدوس الأرض. وشخص يرتدي ثياب بحار، ربما هو واحد من باهيا، أحاط خصرها بذراعه وهمس لها:

«هل أنت حرة يا حبيبتي؟ سأذهب معك...

- لست حرة، كلا...»

وابتسمت له، فقد كان شاباً لطيفاً، ذا رائحة بحر. فقال: «واحسرتاه» ثم شدّها إلى صدره قليلاً، ومضى إلى الداخل بحثاً عن أخرى.

وقف ذو الساق الواحدة أمام غابرييلا:

«أين شاهدت وجهك؟ لقد رأيتك بالتأكيد. أين؟»

- هل يوجد هنا شاب اسمه لويرينيو؟ أريد التكلم معه. إنه لأمر عاجل.» قالت له.

سمعت إحدى النساء السؤال، فصرخت بأخرى:

«إيديت! الغانية تريد لويرينيو!»

تعالت الضحكات في القاعة. وانتفضت البنت ذات الخمس عشرة سنة:

«ما الذي تريده هذه البقرة من فتاي لويرينيو؟»

ومشت باتجاه الباب ويداها على ردفيها، بتحدٍّ.

«لن تعثري عليه اليوم. فقد خُصي الهرّ...» قال رجل وهو يضحك.

انتصبت الفتاة أمام غابرييلا وفستانها يصل إلى فوق ركبتيها فقط:

«ما الذي تريدينه من رجلي، أيتها القذارة؟

- أتكلم معه فقط...»

«من أجل التكلم معه...» بصقت. رأيتك قادمة إلى هنا. إنك تحبينه. كل امرأة تحبه. كلكن عاهرات.»

لم يكن لديها أكثر من خمسة عشر عاماً من العمر. وتذكرت غابرييلا خالها من دون أن تعرف لماذا. تدخلت امرأة أخرى طاعنة في السن.

«دعك من هذا يا إيديت، إنه لا يكترث بك.»

سددت يديها الصغيرتين إلى وجه غابرييلا التي كانت متحسبة لذلك، فأمسكتها من رسغيها النحيلتين وأنزلت لها ذراعيها.

- بقرة! صرخت إيديت.

ثم اندفعت إلى الباب. ونهض جميع من في القاعة ليشاهدوا الشيء الذي يفضلونه على كل ما عداه، وهو عراك النساء. لكن الرجل ذا الساق الواحدة تدخل، فأبعد الواحدة عن الأخرى، ودفع البنت جانباً.

«أخرجي من هنا، وإلا شققت وجهك.»

وأمسك غابرييلا من ذراعها، وأخذها إلى خارج الباب.

«قولي لي أمراً واحداً، ألست امرأة السيد نسيب، صاحب الحانة؟

وافقت برأسها.

«ماذا الذي تفعلينه هنا؟ حب مع لويرينيو؟

- إنني لا أعرفه. لكنني مضطرة إلى التكلم معه. إنه أمر بالغ الأهمية.»

فكر وحيد الساق وتطلّع إليها، إلى عينيها:

«رسالة ما؟ المسألة التي حدثت اليوم؟

- أجل يا سيدي.

- تعالي معي. لكن لا تتفوهي بشيء. دعيني أتكلم.

- نعم أيها الشاب. إنه أمر عاجل. عاجل جداً.»

انعطفا من شارع إلى آخر، ثم وصلا إلى زقاق بلا ضوء. كان الرجل وحيد الساق يسير في المقدمة، فوقف ينتظرها أمام أحد البيوت. ثم طرق على الباب شبه المفتوح، كمن يعلن قدومه، ودخل:

«تعالي معي...»

ظهرت فتاة، عشيقة أحد الرجال وهي لا ترتدي إلا الغلالة، منبوشة الشعر:

«من هي هذه يا ذا الساق الخشبية؟ طعام جديد؟

- أين تيودورا؟

- إنها في الغرفة، لا تريد أن ترى أحداً.

- قولي لها إنني أريد التكلم معها.»

قاست الفتاة العشيقة، غابرييلا من أعلى إلى أسفل، وخرجت تقول:

«لقد جاؤوا إلى هنا.

- الشرطة؟

- بعض المسلحين، يبحثون عنه، أنت تعلم من.»

بعد دقائق، وإثر وشوشة عند الباب المسند إلى إحدى الغرف، عادت مع امرأة أخرى، ذات شعر مصبوغ.

وسألتها المرأة ذات الشعر المرشوش بالأوكسيجين:

«ما الذي تريدينه؟»

تطلّعت الأولى إلى غابرييلا التي تقف صاغية. لكن وحيد الساق اقترب من تيودورا، وأسندها إلى الجدار، وأسرّ بأذنها أمراً ما، فنظر الاثنان إلى غابرييلا.

«لا أدري أين هو. مرّ من هنا فطلب نقوداً وخرج مندفعاً. لقد انصرف منذ ساعة، بعد وصوله بقليل، ولم يشأ أن يُعلم أحداً، ثم جاء بعض المسلحين يطاردونه. ولو وجدوه لقتلوه...

إلى أين ذهب، ألا تعرفين؟

- قسماً بالله، لا أدري.»

اتجها إلى الشارع. وقال لها وحيد الساق عند الباب:

«ما داموا هنا لا يعرفون، فلا أحد يعرف أين هو. والمؤكد أنه قد بلغ الغابة. خارجاً بقارب أو على متن جواد.

«ألا توجد وسيلة لنعرف؟ إنه أمر دقيق.

- لا أرى وسيلة.

- أين يسكن الكولونيل أمانسيو؟

– أمانسيو ليال؟

– هو بالضبط.

– قرب المجمّع المدرسي، هل تعرفين أين؟

– إلى جانب الشاطئ، في نهايته. أعرف. أنا شاكرة لك جداً.

– سأرافقك شطراً من الطريق.

– لا لزوم لذلك.

– حتى تخرجي من هذه الأزقة. وإلا فلن تستطيعي الوصول إلى هناك.»

رافقها حتى ساحة سيابرا، وكان بعض الفضوليين يتلصصون إلى منزل الكولونيل راميرو الذي كان لا يزال مُضاءً. طرح عليها وحيد الساق كثيراً من الأسئلة، فأجابت عرضاً. لم تقل شيئاً. دلفت إلى الشوارع المقفرة، ووصلت إلى المجمّع المدرسي، حيث يقوم منزل أمانسيو، وهو ذو بوابة زرقاء، كما أعلمها صاحب كباريه باتي فوندو. كان الصمت مخيّماً، والأضواء مطفأة. والقمر المتأخر في الطلوع يصعد الآن إلى السماء، مضيئاً الشاطئ العريض وأشجار جوز الهند في الطريق المؤدي إلى مولياذو.

صفّقت، لكنها لم تحصل على نتيجة. وصفقت مجدداً، فنبحت الكلاب في الجوار، وأجابت على النباح كلاب أخرى من مكان أكثر بعداً وصاحت غابرييلا:

يا أصحاب البيت.»

ثم صفقت مرة أخرى بكل قوتها لدرجة أن ذلك قد آلمها. وأخيراً كانت ثمة حركة في الجناح الخلفي من المنزل. فأضيئت الأنوار وسأل شخص ما:

«من؟

– رسول سلام.»

فظهر خلاسي وهو عارٍ، من الحزام إلى ما فوقه، والسلاح بيده.

«هل السيد الكولونيل أمانسيو موجود؟»

– ماذا تريدين منه؟ سألها وهو ينظر إليها بريبة.

- إنه أمر دقيق وعاجل جداً.

- كلا، إنه ليس هنا.

- وأين هو؟

- لماذا تودين أن تعرفي؟ ماذا تريدين منه؟

- لقد قلت...

- لم تقولي شيئاً. دقيق وعاجل... هذا فقط؟»

ماذا بوسعها أن تفعل؟ لا بد من المجازفة:

«لدي رسالة إليه.

- ممن؟

- من فاغونديس...»

تراجع خطوة إلى الوراء، ثم تقدم بعدها، وحدق إليها:

«هل تتكلمين الحقيقة؟

- الحقيقة الخالصة...

- أنظري إلي جيداً: إذا لم تكن تلك هي الحقيقة...

- أسرع، أرجوك.

- إنتظري هنا.»

دخل المنزل، تأخر بضع دقائق، ثم عاد مرتدياً قميصاً، وأطفأ الضوء.

«تعالي معي.»

ثم دس المسدس بين سرواله وبطنه، وظهرت قبضته فقط.

عادت إلى المشي. لم يطرح عليها هذا سوى سؤال واحد:

«وهل استطاع الفرار؟

أجابته برأسها. دخلا شارع الكولونيل راميرو، وتوقفا أمام المنزل المعروف جيداً. في الزاوية، قرب المحافظة، كان جنديان من الشرطة يتطلّعان فتقدما ببضع خطوات باتجاههما. دق الرجل ذو المسدس على الباب. ومن النوافذ المشرّعة كان

ينبعث همس مخنوق بالأصوات. وظهرت جيروزا في النافذة، فنظرت إلى غابرييلا بدهشة هي من الشدة بحيث أنها ابتسمت. واندهش أناس كثيرون عند رؤيتهم لها في تلك الليلة... وأكثر المندهشين الزنجي فاغونديس.

«هل بوسعك مناداة الكولونيل أمانسيو؟ قولي له إن ألتاميرو يريدك.»

ظهر الكولونيل في الباب بسرعة:

«هل هناك أمر ما؟»

كان الجنديان قد وصلا إلى باب المنزل. وسأل أحدهما وهو يرى أمانسيو:

«هل من جديد أيها الكولونيل؟

- لا شيء، شكراً. اذهبا إلى حيث كنتما.»

بعد أن مشيا، أخبره الرجل ذو المسدس:

«هذه ... تريد أن تتكلم معك أيها السيد. إنها من قبل فاغونديس.»

عندها فقط، انتبه أمانسيو إلى غابرييلا وعرفها بسرعة:

«ألست غابرييلا؟ هل تريدين التكلم معي؟ أدخلي، اعملي معروفاً.»

ودخل الرجل أيضاً. رأت غابرييلا من الممشى قاعة الطعام، وشاهدت تونيكو والدكتور ألفريدو يدخنان. وثمة أناس آخرون. انتظر أمانسيو، فأشارت إلى الرجل:

«الرسالة موجهة إليك فقط أيها السيد.

- إذهب إلى الداخل يا ألتاميرو.»

ثم قال لها بصوته الرقيق:

«تكلمي يا ابنتي.

- فاغونديس عندي في البيت. وقد أوفدني إليك لأبلغك ذلك. يريد أن يعرف ماذا يجب أن يفعل. وليكن ذلك سريعاً. فبعد وقت قصير سيعود السيد نسيب.

- في بيتك؟ كيف توقف هناك؟

- جاء هارباً من المرتفع، ففناء البيت يبدأ في المرتفع.

- إنها لحقيقة، لم أفكر بهذا. ولماذا خبأته؟

- إني أعرف فاغونديس منذ وقت. من السرتون.»

ابتسم أمانسيو. وظهر تونيكو في الممشى يعتريه فضول.

«شكراً جزيلاً، لن أنسى ذلك أبداً. أدخلي معي.»

تراجع تونيكو إلى الغرفة. فدخلت هي مع أمانسيو. شاهدت العائلة كلها مجتمعة. كان العجوز راميرو جالساً على كرسي هزاز، وهو ممتقع اللون كأنه ميت، لكن عينيه لامعتان، شبيهتان بعيني أحد الشبان.

وعلى المائدة، كانت الأطباق وفناجين القهوة وزجاجات الجعة لاتزال تُقدم. وفي ركن من القاعة جلس الدكتور ألفريدو، وزوجته وجيروزا. أما تونيكو فكان واقفاً ببلادة، يرمقها بطرف عينه. وكان الدكتور ديموستينيس، والدكتور ماوريسيو، وثلاثة كولونيلات، جالسين. كما كان المطبخ وفناء الجناح الخلفي مليئين برجال مسلحين. إنهم أكثر من عشرين قبضاياً، والخادمات يقدمن لهم الطعام بأطباق من الصفيح.

«جميعكم تعرفونها، أليس كذلك؟ قال أمانسيو. غا... الدونا غابرييلا، السيدة نسيب صاحب الحانة. لقد قدمت إلى هنا لتؤدي لنا معروفاً.»

- إجلسي، إفعلي معروفاً.» وجه كلامه إليها وكأنه صاحب البيت.

عندئذ، ألقى عليها الجميع تحية المساء. فتقدم تونيكو من أحد المقاعد. واتجه أمانسيو إلى الكولونيل العجوز، وتكلم معه بصوت خفيض. فاعترت الحيوية وجه راميرو، ثم ابتسم لغابرييلا:

«مرحى أيتها الابنة. من اليوم فصاعداً أنا مدين لك، وإذا احتجت إلي أحياناً، يكفي أن تأتي إلى هنا. واطلبي مني ومن ولديّ.»

أشار إلى الأسرة في أحد أركان الغرفة، كان ثلاثة جالسين واحد واقفاً، يبدو كأنه صورة، وما كان ينقصهم إلا الدونا أولغا والحفيدة الصغرى.

ثم أردف:

«من الأفضل أن تعرفوا.» موجهاً الكلام إلى ابنيه وزوجة ابنه وحفيدته:

«إذا أسرعت إلينا الدونا غابرييلا ذات يوم، فهي تأمر ولا تطلب. تعال أيها الإشبين.»

ثم نهض وخرج مع أمانسيو إلى غرفة أخرى. مرّ بهما الرجل ذو المسدس، فألقى عليهما تحية المساء، ثم انصرف.

بقيت غابرييلا مرتبكة لا تعرف ماذا تفعل، ولا ماذا تقول، وأين تضع يديها. وابتسمت لها جيروزا آنئذٍ، وقالت:

«لقد تحدثت معك أيتها السيدة مرة، هل تذكرين؟ بسبب الاحتفال بعيد مولد جدي...»

وشرعت جيروزا في الكلام، بيد أنها صمتت بسرعة. لن يكون لائقاً تذكيرها في الوقت الذي كانت فيه طاهية عند العربي!.

«إني أذكر، أجل، لقد طهوت كثيراً من الحلوى، فهل كانت جيدة؟»

– غابرييلا صديقتنا القديمة.» تشجع تونيكو قائلاً. «إنها متبنّاة مني ومن أولغا، إذ كنا الإشبينين عندما تزوجت.»

تكرمت زوجة الدكتور ألفريدو بالابتسام. وسألتها جيروزا:

«ألا تريدين أن أقدم لك حلوى؟ هل تتناولين شراباً؟

– شكراً، لا تزعجي نفسك.»

قبلت فنجان قهوة... وجاء صوت أمانسيو من الغرفة منادياً الدكتور ألفريدو. ولم يلبث النائب أن عاد، ثم دعاها:

«هل تتكرمين بالمجيء معي، من فضلك؟»

وحينما دلفت غابرييلا إلى الغرفة الأخرى، قال لها راميرو:

«يا ابنتي، كان ذلك معروفاً عظيماً أسديته لنا. لكنني أريد أن أكون مديناً لك أكثر. فهل ذلك بالإمكان؟

– إذا كان في الأمر حيلة.

– من اللازم إخراج الزنجي من بيتك، من دون أن يعرف أحد. وهذا لا يمكن أن يتمّ إلا عند الفجر. فيجب أن يبقى هناك مختبئاً، كما أنه لا ينبغي أن يعرف أحد من الأمر شيئاً. فاعذريني إذ أقول لك ذلك، حتى ولا نسيب بوسعه أن يعلم.

- سوف يصل بعد أن يغلق الحانة.

- لا تقولي له شيئاً. دعيه يخلد إلى النوم. وعند الساعة الثالثة، الثالثة بالضبط، انهضي واقتربي من النافذة ثم راقبي الشارع إذا كان هناك بعض الرجال. فالإشبين أمانسيو سيكون معهم. فإذا كانوا موجودين، افتحي الباب ودعي فاغونديس يخرج، فنحن سنهتم به.

- ألن يعتقلوه؟ ألن يؤذوه؟

- بوسعك أن تكوني مطمئنة. سنجنبه القتل.

- إذن، سأنصرف الآن، بالإذن منكم. الوقت بات متأخراً.

- لن تذهبي بمفردك، سأبعث من يرافقك. رافق الدونا غابرييلا إلى البيت يا ألفريدو.»

ابتسمت غابرييلا:

«لا أدري، كلا يا سيدي... بمفردي مع الدكتور ألفريدو في الشارع ليلاً... يجب أن أمرّ عن طريق الشاطئ كيلا ألاحظ من قبل الأشخاص في الحانة... فإذا رآنا أحد ما، ماذا سيفكرون؟ ماذا يفكر ويقول؟ وغداً سيكون السيد نسيب عالماً بالأمر.

- إنك على صواب يا ابنتي. اعذريني، لم أفكر بهذا الأمر.»

ثم التفت إلى ابنه وقال له:

«قل لزوجتك ولجيروزا أن يعدا نفسيهما. فسترافقون أنتم ثلاثتكم، الفتاة. هيا بسرعة.»

فتح الفريدو فمه، كان يهم بالكلام. فكرر راميرو:

«بسرعة!»

وهكذا وصلت غابرييلا في تلك الليلة إلى بيتها مصحوبة بنائب وزوجته وابنته. كانت امرأة النائب تمضي بصمت، وتقضم نفسها من الداخل. لكن جيروزا كانت تتأبط ذراعها، وتكلمها على ألف شيء. ولحسن الحظ كان بيت الدونا آرميندا مغلقاً.

إنه يوم الجلسة. فالقابلة لم تصل بعد، وكان بعض الفضوليين يصعدون الشارع، فالمطاردة تتواصل.

وعاد نسيب بعد منتصف الليل بقليل، وبقي أمام النافذة فترة ليرى مرور المسلحين عائدين من المرتفع. إنما المنافذ المؤدية إلى المرتفع بقيت محروسة. وكان ثمة من يقول إن الزنجي قد سقط في الهاوية. وأخيراً ناما.

منذ وقت طويل لم تغدق عليه غابرييلا هذا الدفق من الحنان. ولم تكن هكذا، جد متوقدة، جد مستسلمة له، وآخذة منه، مثل تلك الليلة. في المدة الأخيرة، حتى هو نفسه أخذ يشكو. إذ كانت تبتعد عنه وتتجنبه كأنها كانت دائماً مرهقة. طبعاً، وإنها ما رفضت قط عندما كان يريد منها ذلك. لكنه لم يعد يثيرها كما في السابق - يداعبها ويلحّ عليها لتغدق عليه الحنان والقدرة - وكان تعباً حينما وصل، فتهالك على السرير. ضحكت لنفسها وتركته ينام، وفخذه فوق ردفيها. عندما كان يسعى إليها، كانت تستسلم له مبتسمة، وتناديه بالشاب الجميل... ثم تتأوّه بين ذراعيه. لكن أين كانت تلك الحيوية السابقة؟ وكأن ما بات الآن لعبة سارة، هو الذي كان جنون الحب، ولادةً وموتاً، غموضاً مكتشفاً كل ليلة ومتجدداً، وكل مرة مشابهة للمرة الأولى، في دهشة الاكتشاف، تبدو أنها ستكون الأخيرة، في غيظ النهاية.

وهو نفسه قد شكا لتونيكو، صديقه الموثوق. وأوضح له الكاتب العدل أن جميع الزيجات تمر بحالات كهذه، يهدأ الحب، فالحب العذب للزوجة، ضنين وغير متواصل، وليس هو بعد، الحب العنيف للعشيقة، الملحاح والمهذار. إنه تفسير حسن، وربما حقيقي، لكنه ليس باعثاً على العزاء.

كان يفكر بأن يتكلم مع غابرييلا بهذا الشأن. لكنها في تلك الليلة، عادت على كل حال، لتتصرف مثلما كانت في السابق. فقد أحرقته حرارتها، سعير مشتعل، لهيب لا يمكن إطفاؤه. نار من دون رماد، حريق من التنهدات والتأوهات. كانت بشرة غابرييلا تحرق بشرته. تلك كانت امرأته، ولم تكن له في السرير فقط، بل كانت محفورة إلى الأبد في صدره، ملتهبة في جسده، في نعل قدميه، في جلدة رأسه، في طرف ذراعيه.

كان يفكر أن الموت سيكون موتاً عذباً بين ذراعيها. فنام سعيداً، وفخذه فوق ردفيْ غابرييلا المتعبيَن.

عند الساعة الثالثة، نظرت غابرييلا إلى الشارع من خلال الشق نصف المفتوح. كان أمانسيو يدخن لصق العمود. والمسلحون في مكان أسفل من مكان وقوفه. فمضت لتأتي بفاغونديس. وعند مرورها أمام غرفة النوم، رأت نسيب منتفضاً في نومه، متحسساً فقدان ردفيها. فدخلت ووضعت وسادة تحت فخذه القلقة. فابتسم نسيب. لقد كان شاباً طيباً جداً!

وانصرف فاغونديس:

«ليكافئك الله ذات يوم.

- اشتر الحقل مع كليمينتي.»

واستعجله أمانسيو: هيا، بسرعة! ثم قال لغابرييلا: مرة أخرى، شكراً.

والتفت فاغونديس في ما بعد، وشاهدها واقفة عند الباب. لم تكن في الدنيا امرأة شبيهة بها. من بوسعها أن تقارن نفسها بها؟

عن مذاق الزواج
وانعدام المذاق فيه

إن تلك الليلة ذات الذكرى التي لا تُنسى، حيث أخذت الأحاسيس أقصى مداها في السرير - غابرييلا المستنْفدة كالنار المشتعلة، ونسيب المولود والمحترق وسط السنة النيران هذه العذبة- كان لها نتائج كئيبة.

فنسيب، وهو في قمة سعادته، اعتقد أن تعود الليالي السابقة، ستعود بعد فجوة طويلة أدت إلى جريان هادىء لمياه النهر. فجوة سببتها ازعاجات غبية وتافهة. وأرجع تونيكو الذي استُشير في الأسرار المزعجة، هذا التغيير إلى الزواج وإلى

الفروقات الحادة والمعقدة بين حب الزوجة وحب العشيقة. قد يكون ذلك ممكناً. لكن نسيب كان يشك في الأمر. فلماذا لم يلاحظ هو هذا التبدل بعد الزواج مباشرة؟ فخلال فترة طويلة، استمرت الليالي المدهشة ذاتها التي كانت تفرض عليه أن ينهض في ساعة متأخرة في اليوم التالي، ويصل إلى الحانة خارج وقت الدوام. أصبح التبدل واضحاً عندما بدأ سوء التفاهم. لا بد أن غابرييلا كانت منزعجة أكثر مما كان يبدو على مظهرها بكثير. ربما ألحّ عليها بشدة، من دون أن يكترث بالطريقة التي باتت بها زوجته، فيريد أن يحوّلها بين يوم وآخر، إلى سيدة من الطبقة العليا، من صفوة أهالي إيليوس، منتزعاً منها بالقوة تقريباً، عادات متجذّرة فيها، من دون أن يتحلّى بالصبر في صدد تهذيبها شيئاً فشيئاً.

كانت تريد الذهاب إلى السيرك، فيجرّها إلى المحاضرة المزعجة والمضجرة حتى النعاس. لم يكن يتركها تضحك لكل شيء وللاشيء كما كانت عادتها. كان يعنّفها في كل لحظة، طوال النهار، لأسباب تافهة، رغبة منه أن تصبح شبيهة بزوجات الأطباء والمحامين والكولونيلات والتجّار. «لا تتكلمي بصوت مرتفع، هذا أمر قبيح». وكان يهمس لها في السينما: «اجلسي بشكل حسن»، «لا تبسطي ساقيك»، «ضمّي ركبتيك بعضهما إلى بعض»، «هذا الحذاء، كلا، انتعلي الحذاء الجديد، لماذا عندك حذاءٌ جديد؟»، «ارتدي فستاناً لائقاً»، «هيا نذهب لنزور عمتي، وانظري اليها كيف تتصرف»، «لا نستطيع أن نغيب عن جلسة نادي روي باربوزا» (الشعراء يلقون قصائدهم، وتُقرأ قصائد وتُتلى أوراق لا تفهمها، ويُحتسى مشروب مريع)، «اليوم سيتكلم الدكتور ماوريسيو في الجمعية التجارية، ينبغي الذهاب» الاستماع إلى الكتاب المقدس كله، يا للأمر المزعج! «سنذهب لزيارة الدونا أولغا، أخشى أن تكون غاضبة، إنها إشبينتنا»، «لماذا لا تضعين مصاغك، فلماذا اشتريناه؟».

إنه يسبب لها الحزن بالتأكيد، من دون أن تظهره على قسمات وجهها وفي تصرفها اليومي. كانت تناقشه، أجل، لكن من دون أن تغير صوتها. تريد أن تعرف لماذا يلح على ذلك، وهي ربما تكون حزينة بعض الشيء، فتطلب منه أحياناً ألا يجبرها على

هذا الأمر. لكنه ينتهي دائماً بأن يجعلها تفعل حسب مشيئته، فترضخ لأوامره، وتنفذ قراراته. لم تعد تتكلم على هذا الأمر، إنما تغيرت في السرير. كأن تلك المناقشات - إنها لم تصل إلى حد المشاجرات - والإلحاحات كانت تخفف من اندفاعها، وتكبح رغبتها، وتبرد صدرها. وإذا ما أراد الحصول عليها فإنما لكي يفتحها كما يفتح تويج زهرة. لكنها لم تعد ظمأى ومتشوقة كما في السابق باستثناء تلك الليلة فقط، عندما عاد متأخراً وهو شديد التعب، في اليوم الذي أُطلق فيه الرصاص على الكولونيل أريستو تيليس، كانت كعهدها من قبل. من يدري، لعلها لا تزال متيّمة به؟ وبعد ذلك عادت المياه إلى مجاريها هادئة؛ تبتسم باطمئنان وتستسلم له فرحة لكن سلبية، وكان هو من يأخذ زمام المبادرة. وقد أمضى ثلاثة أيام على التوالي، عمداً، من دون أن يسعى إليها. كانت تستيقظ عندما تشعر أنه وصل، فتقبّله من وجهه، وتضع ردفيها تحت ساقه، وتنام مبتسمة. وفي اليوم الرابع، لم يستطع التحمل أكثر، فقال لها:

«إنك لم تعودي تبدي حتى اهتماماً...

- لماذا لا أبدي اهتماماً، يا سيد نسيب؟

- لا تهتمين بي. أصل وأنت كما أنت، كما لو أني لم أصل.

- هل أنت بحاجة إلى الطعام، شراب المنغا المبرّد؟

- ليس هذا ما أعنيه! لقد توقفت عن مراعاتي. في الماضي كنت تشدينني إليك.

- ايها السيد نسيب، أنت تصل متأخراً، ولا أدري إذا كنت تريدني، فأصبح مرتبكة، ثم أخلد إلى النوم. لا أريد إزعاجك.»

تلوي طرف الشرشف، وتنظر إلى أسفل، حزينة جداً، كما لم يرها من قبل. فيتأثر نسيب. إنها لا تريد إزعاجه، ولا زيادة تعبه؛ فتتركه يركن إلى الراحة من متاعب النهار. إنها «بيبي» عزيزته...

«ماذا تظنين ؟ قد أصل متعباً، لكني من أجل هذا الأمر أنا دائماً على استعداد، فلم يوهنني السن ولا أعاني من شيء...

– عندما تدعوني، سيد نسيب، ألست تحت تصرفك حالاً؟ عندما أرى أنك ترغب...

– لكنَّ ثمة أمراً آخر أيضاً. في السابق كنت شعلة نار، وريحاً عاصفة. أما الآن فأنت نسيم، هواء.

– لم تعد تحب اللذة التي أقدمها لك؟ هل تشعر بالقرف من «بيبي» التي هي لك!

– أحبك كل مرة أكثر من قبل يا «بيبي». فمن دونك لا أستطيع البقاء. أنت التي تبدين شاعرة بالقرف. لقد فقدت ذلك الجنون.»

كانت تتطلع إلى الشراشف، ولا تنظر إليه.

«ليس ثمة اي سبب. فأنا أحبك كثيراً. بوسعك أن تصدقني يا سيد نسيب. لكن يحدث أحياناً أن أكون تعبة، ولهذا أبدو هكذا...

– وعلى من يقع الذنب؟ لقد خصصت لك خادمة لترتيب المنزل وأنت صرفتها. خصصت لك بنتاً لتطهو، وما عليك إلا إعداد التوابل. ومن هي التي تطهو؟ إنك تريدين أن تفعلي كل شيء كأنك لا تزالين خادمة؟

– أنت طيب جداً، سيد نسيب ، وأكثر من زوج بالنسبة إلي.

«أحياناً، لا أكون كذلك. أغضب منك. لقد ظننت أنك تتصرفين هكذا لهذا السبب. ولكنني أشكو لمصلحتك. أريد أن أراك وقد كونت شخصية لنفسك.

– أحب أن أفعل بمشيئة السيد نسيب، بيد أن ثمة أموراً لا أحسن فعلها، كلا. وبقدر ما أريد ذلك لا يبلغ بي الأمر الحد الذي أحبه. فاصبر على «بيبي» التي هي لك. يجب أن تعذرني كثيراً...»

أخذها بين ذراعيه. فأسندت رأسها إلى صدره. كانت تبكي.

«ماذا فعلت لك يا «بيبي»، لماذا تبكين؟ لن أتكلم بعد على هذا الأمر. كان ذلك من دون إرادتي.»

كانت عيناها تحدقان إلى الشرشف وتمسح دموعها بظاهر كفها. وأسندت رأسها إلى صدره من جديد.

«إنك لم تسئ إليّ، كلا... فأنا هي السيئة. أنت طيب جداً...»

ومن جديد، أخذت تنتظره بالحرارة السابقة، في الليالي التي يجفوها النوم. في البدء، ظل هو المتشبث. فغابرييلا كانت أفضل مما كان يظن. يكفي أن يتكلم فتنتزع منه النعاس والتعب. لكن تعبها كان جلياً، وهو في ازدياد. وقال لها ذات ليلة:

««بيي» يجب أن ينتهي هذا. وسينتهي.

- ما هو يا سيد نسيب؟

- إنك تقتلينني من كثرة العمل.

- لا يا سيد نسيب.

- لم تعودي تتحملين ذلك في الليل... أليس كذلك؟

- أنت رجل نشيط جداً، سيد نسيب! لا أستطيع مجاراتك...

- سأخبرك بامر سيفرحك: لقد أبرمت عقداً من أجل الطابق القائم فوق الحانة، للمطعم. ولم يعد علينا سوى أن ننتظر إخلاء المستأجرين للمكان ، فننظفه ونطليه ونعده بشكل كامل. أعتقد أنه يمكن افتتاحه في بداية السنة. حتى أن السيد مونديني يريد مشاركتي. وأوصى بجلب أشياء من الريو؛ ثلاجة، طباخ لست أدري كيف هو، أطباق وكؤوس غير قابلة للكسر، وسأقبل.»

صفقت بيديها فرحة.

- سوف أوصي باستقدام طاهيتين من أي مكان، ربما من ولاية سيرجيبي... ستديرين العمل فقط. تختارين الأطباق، تشرحين طريقة إعداد التوابل، إنما لا تطهين إلا لي أنا. وغداً سوف تتفقين مع مدبرة جديدة للمنزل.

- لماذا يا سيد نسيب؟ لا لزوم لذلك. فأنا تعبة لأني ساعدت الدونا آرميندا في بيتها.

- فوق كل هذا؟

- كانت مريضة وأنت تعرف ذلك. ما كنت لأترك المسكينة بمفردها. لكنها الآن قد تحسنت. فلا لزوم لمدبرة، لا أحب ذلك.

لم يناقشها، ولم يُلزمها بذلك. كان يفكر بالمطعم. استطاع استئجار الطابق العلوي من المبنى ذي الطبقتين حيث تقبع حانة فيزوفيو في الطابق الأرضي منه. كان الطابق داراً للسينما قبل أن يبني ديوجينيس سينما تياترو إيليوس، فقُسم في ما بعد إلى قاعات وغرف حيث سكن فتيان التجارة. وفي القاعتين الكبيرتين مورست ألعاب القمار على الحيوانات، كان صاحب المبنى، العربي معلوف، يفضل أن يؤجره لمستأجر واحد. والأفضل إذن أن يؤجره لنسيب الذي كان يشغل الطابق الآخر. أعطاه مهلة شهر من أجل الانتقال. فعقد نسيب حديثاً مطولاً مع موندينيو. كان المصدّر مناصراً للفكرة، فدرسا إنشاء شركة. وسحب مجلة من الدرج، وأراه ثلاجات وبرادات، أشياء جديدة مدهشة في المطاعم الأجنبية. واضح أن ذلك كان كثيراً بالنسبة إلى إيليوس. لكنهما سينشئان مطعماً جيداً، أفضل من أي مطعم في باهيا.

في تلك الأيام المليئة بالمشاريع الكثيرة، نسي نسيب، حتى تعب غابرييلا في عملية الحب.

احتسى تونيكو المواظب بعد القيلولة، قبل الساعة الثانية من بعد الظهر بقليل، مشروبه المرّ ليساعده على الهضم (لم يعد يطلب وضع القيمة على الحساب، فهو الآن يشرب من دون أن يدفع، فقد كان إشبين زواج صاحب الحانة) وسأله بصوت خفيض:

«كيف تجري الأمور في البيت؟

- أفضل. إنما غابرييلا متعبة جداً. إنها لا تريد بأي شكل استخدام مدبرة للمنزل. تريد أن تفعل كل شيء بمفردها، حتى أنها تساعد جارتها وتبدو في الليل محطمة، منهكة من النعاس.

- فيجب ألا تجبها على ذلك. فإذا استخدمت امرأة لترتيب المنزل من دون

إرادتها، فسيؤدي ذلك إلى نفورها. ومن جهة أخرى أيها العربي، يبدو أنك لا تدرك أن الزوجة ليست امرأة عاهرة. فحب الزوجة حصيف. ألست أنت الذي تريد من ابنتي بالتبني أن تبدو كسيدة محترمة؟ فابدأ في السرير يا عزيزي. ومن أجل أن تتفنن وترتجل في السرير، ثمة نساء كثيرات في إيليوس... وبعضهن رائعات. لقد تحولت إلى راهب، ولم تعد تذهب إلى الكباريه...

- لا أريد امرأة أخرى...

- وبعد ذلك تشكو من أن زوجتك تعبة...

- عليها أن تجلب خادمة. وليس من المناسب أن ترتب زوجتي المنزل.»

ربت تونيكو كتفه، وكان مؤخراً لا يمكث طويلاً، فلا ينتظر جوان فولجنسيو:

«لا تشغل بالك. فسوف أمر قريباً لأزوّد ابنتي بالتبنّي ببعض النصائح. سأقول لها بأن تستخدم خادمة. فدعني أراها.

- ليكن ذلك. فهي تستمع إليك جداً. إنها تستمع إليك وإلى الدونا أولغا.

- هل تعرف من يحب غابرييلا؟ إنها جيروزا ابنة أخي. تتكلم دائماً عليها. قالت إن غابرييلا أجمل امرأة في إيليوس.

- حقاً...»

ثم تنهد نسيب. كان تونيكو يهم بالانصراف، فمازحه نسيب:

«بدأت الآن تخرج مبكراً... هناك أمر ما... امرأة جديدة، أليس كذلك؟ وتخفي سراً عن صديقك القديم نسيب...

- سوف أخبرك ذات يوم...»

خرج إلى جهات المرفأ. كان نسيب يفكر في المطعم. أي اسم سيطلق عليه؟ اقترح موندينيو «الشوكة الفضية»؛ إنه اسم بلا هيبة. ماذا يريد القول؟ أما هو فكان يحب «مطعم التجارة» وهو اسم لائق.

تنهدات غابرييلا

لماذا تزوج بها؟ لم يكن بحاجة إلى ذلك... في السابق كان الوضع أفضل. إن السيد تونيكو يشجع ذلك وعينه عليها، والدونا آرميندا تذكي النار، فكانت تعبد عقد الزواج، والسيد نسيب كان يريد ذلك خشية فقدانها، خوفاً من أن ترحل.

بلاهة من السيد نسيب. لماذا ترحل، إذا كانت راضية بشكل لا رضاء بعده؟ خوفاً من أن تستبدل المطبخ والسرير وذراعيه ببيت معد من أجلها، في شارع مقفر، من أجل مزارع. حساب في المتجر والمخزن... عجوز مرعب، ينتعل جزمة ومسدسه في الحزام، والمال في جيبه. كان ذلك وقتاً طيّباً... فقد كانت تطهو، تغسل، وترتب البيت، ثم تذهب إلى الحانة حاملة القصعة ذات الطبقات، الوردة وراء أذنها والابتسامة على شفتيها.

كانت تمازح الجميع، وتشعر أن الرغبة كانت تحوم حولها. يغمزونها بأعينهم، يقولون لها نكاتاً، يلمسون يدها، وأحياناً نهدها. والسيد نسيب يحترق من الغيرة. إنه خفيف الظل. وكان السيد نسيب يأتي ليلاً، فتكون في انتظاره، تنام معه، مع جميع الشبان. يكفي أن تفكر بهم، يكفي أن تريدهم. وكان يجلب لها هدايا؛ أشياء من سوق ألفيرا، وأشياء رخيصة من متجر عمه. دبابيس للصدر، أساور، خواتم من زجاج. جلب لها عصفوراً أطلقته، حذاءً ضيقاً ما كانت تحبه... كانت تمشي بخفيها، مرتدية ثياباً فقيرة، وشريطاً من القماش. كانت تحب كل شيء؛ الفناء المزروع بأشجار الغوايابا، المامون والبيتانغا. الشمس التي تبعث الدفء فيها مع هرّها الشرس. التحدث مع تويسكا، أن تدفعه إلى الرقص، وأن ترقص له. السن الذهبية التي أوصى السيد نسيب بتلبيسها لها. الغناء عند الصباح، العمل في المطبخ. المشي في الشارع، الذهاب إلى السينما مع الدونا آرميندا. مشاهدة السيرك، عندما يُقام سيرك في أونياون. كان ذلك وقتاً طيباً، عندما لم تكن بعد السيدة سعد. كانت غابرييلا وحسب. غابرييلا فقط.

لماذا تزوج بها؟ كان زواجها أمراً رديئاً. إنها لا تحب ذلك، لا... الثوب

الجميل، خزانة الثياب الممتلئة، الحذاء الضيق، وأكثر من ثلاثة أزواج من الأحذية. حتى حلى أعطاها. كذلك أعطاها خاتماً يساوي كثيراً من المال. الدونا آرميندا تعرف كم يساوي: يكلف حوالى كونتويين من الريالات. ماذا ستفعل بهذا العالم من الأشياء؟ وكل ما تحبه لا تستطيع أن تفعله؛ لا تستطيع الدوران في الساحة مع روزينيا وتويسكا. لا تستطيع الذهاب إلى الحانة حاملة القصعة ذات الطبقات. الضحك لتونيكو ولجوزويه وللسيد أوري، وللسيد إيبامينونداس؟ لا تستطيع أن تقوم به. السير حافية في حديقة البيت، لا تستطيع أن تفعله. الركض على الشاطئ، والرياح كلها في شعرها، وهي منبوشة الشعر، وقدماها داخل المياه؟ لا تستطيع أن تفعله. الضحك عندما يكون لها رغبة فيه، حيثما كان، أمام الآخرين، لا تستطيع أن تفعله. القول بما يتأتى من فمها، لا تستطيع أن تفعله. كل ما كانت تحبه، لا تستطيع أن تفعل اياً منه. كانت السيدة سعد. إنها لا تستطيع. كان عملاً رديئاً إذ تزوجت.

إنها لم تفكر قطّ بأن تلحق به الإهانة، وتسبب له الحزن أبداً. فالسيد نسيب كان طيباً، ليس بالوسع أن يوجد من هو أفضل منه، لا يوجد نظيره في العالم. كان يحبها، يريدها حقيقة، يا لجنون الحب. إن رجلاً كبيراً جداً، صاحب حانة، ذا مال في المصرف، مجنون بها... كان هذا مضحكاً! لم يكن الآخرون، جميع الآخرين، يحبونها. إنما يريدون مضاجعتها، يضغطون على ذراعيها، يقبلونها من فمها، يتنهدون في صدرها. والآخرون، جميع الآخرين، من دون استثناء عجائز أو شبان، جميلون أو قبيحون، أغنياء أو فقراء، الذين هم الآن، والذين كانوا قبلاً، جميع الآخرين من دون استثناء! ما عدا كليمينتي، وربما بيبينو، بيد أنه كان ولداً. ماذا يعرف عن الحب؟ أما السيد نسيب، آه! إن هذا يعرف الحب. وهي أيضاً تحس نحوه شيئاً في داخلها، مختلفاً عما كانت تحسه إزاء جميع الآخرين. فمع كل الآخرين، من دون استثناء، ولا أي استثناء، حتى ولا كليمينتي بالذات، ولا بيبينو نفسه، كان الأمر من أجل مضاجعتها فقط. وعندما كانت تفكر بشاب تضحك له، تونيكو أو جوزويه، إيبامينينداس، آري، فإنها لم تكن تفكر بأن تكون له إلا في السرير فقط، لتتأوه بين ذراعيه، لتعضه من

فمه، لتتمتع بجسده. لكن مع السيد نسيب تتحسس كل هذا، وأكثر من هذا أيضاً. إنها تتمتع معه، تبقى معه، تسمعه يتكلم، تطهو له الطعام الشهي ليأكل، تحس بساقه الثقيلة على ردفيها، ليلاً، تحب أن تكون في السرير معه ، من أجل أن تستمتع بدلاً من أن تنام. لكن ليس في السرير وحسب، وليس من أجل هذا فقط. بل من أجل كل ما تبقى. معه فقط تحب ذلك. فبالنسبة إليها كان نسيب كل شيء؛ الزوج ورب العمل، العائلة التي لم تكن لها، الأب والأم، الأخ الذي مات إثر ولادته. السيد نسيب كان كل شيء، كل ما تمتلكه. أن يكون المرء متزوجاً، فهو أمر رديء. من السخافة بمكان أن يتزوج المرء. قبلاً كان الوضع أفضل بكثير. فخاتم الزواج في الإصبع لا يغيّر شيئاً من أحاسيسها إزاء نسيب. إنما بصفتها متزوجة تعيش في شجار معه، تلحق به الإهانة وتسبب له الحزن طوال اليوم. لم تكن تحب أن تلحق به الإهانة. لكن كيف تستطيع تجنب ذلك؟ فكل ما كانت غابرييلا تحبه، آه! كان محظوراً على السيدة سعد. وكل ما كان على السيدة سعد أن تفعله، آه! هذه الأمور ما كانت غابرييلا تطيقها، لكنها انتهت بالتخلي عنها كيلا تسبب الحزن للسيد نسيب الطيب جداً. النساء الأُخريات يفعلن ذلك خفية، من دون أن يعرف الزوج، كيلا يلحقن به الإهانة.

في السابق، كان الوضع أفضل بكثير. كان بوسعها أن تفعل كل شيء، وكان يغار عليها، لكنها غيرة رجل عازب، سرعان ما تنقضي وتموت في السرير. كان بوسعها أن تفعل كل ذلك من دون أن يعتريها خوف من أن يُهان. كانت دائماً فرحة. تعيش لتغني، ولديها قدمان لترقص بهما. أما الآن فكل فرح يكلف حزناً. ألا ينبغي أن تزور عائلات إيليوس؟ كانت تغدو مرتبكة وهي ترتدي الحرير، والحذاء يؤلمها، على المقعد الصلب. من دون أن تفتح فمها كي لا تقول ما هو غير ملائم. من دون أن تضحك، تبدو كأنها من خشب، إنها لا تحب ذلك. ماذا تفيدها كل هذه الفساتين؟ وكل هذه الأحذية، والحلى، والخواتم، والعقود والأقراط، وكلها من الذهب، إذا لم يكن بوسعها أن تكون غابرييلا؟ إنها ما كانت تحب أن تصبح السيدة سعد.

الآن لم يعد باليد حيلة، فلماذا وافقت؟ حتى لا تلحق به الإهانة؟ من يدري،

كان خوفها من أن تفقده ذات يوم. لقد أساءت عندما وافقت، فهي الآن حزينة، تعيش لتفعل ما لا يرضيها. والأسوأ من كل شيء، هو أن غابرييلا لا تزال حتى الآن تمتلك شيئاً ما، حياتها لكي تعيشها، آه! إنها تفعل ذلك خفيةً، مسببة له الإهانة والحزن. وصديقها تويسكا لم يعد يأتي ليراها. كان يعبد نسيب ولديه الحق في ذلك. فرايموندا مريضة، وقد أرسلها نسيب إلى بيتها حاملة نقوداً من أجل السوق، كان السيد نسيب طيباً، وتويسكا يرى أن عليها أن تكون السيدة سعد، وليست غابرييلا. ولهذا لم يعد يأتي. فغابرييلا ألحقت الإهانة بنسيب، سببت له الحزن. وصديقها تويسكا، حتى هو لا يدرك ذلك. لا أحد يفهم. فالدونا آرميندا كانت تستغرب ذلك، وتقول إنه من أعمال الأرواح الشريرة. إنها لا تريد أن تتطور. أين كانت ترى كل شيء وهي تعيش برأس محشو بالبلاهات؟ حتى ولا تويسكا كان بوسعه أن يفهم، فكيف بالدونا آرميندا؟

والآن، ماذا بوسعها أن تفعل؟ فنهاية السنة تقترب. مع بومباميو بوي، وطاقم الملوك المجوس والراعيات الصغيرات والمذاود، آه! هي تحب هذا. كانت في الحقل تقوم بدور راعية صغيرة، بثوب بائس جداً. وعلى مقربة من هناك، في بيت دورا (البيت الأخير في طلعة الشارع، حيث تذهب لتجري تجربة على ثيابها إذ كانت دورا خياطة) بدأت التمرينات على موكب الملك، مع راعيات صغيرات، ومصابيح وكل شيء. وقالت دورا:

«من أجل حمل البيرق، علم الملوك المجوس، لا يوجد غير الدونا غابرييلا.»

المساعدات الثلاث كنَّ موافقات. ففرحت غابرييلا وصفّقت بيديها. لم تكن لديها الشجاعة لتتكلم مع نسيب. فكانت تذهب في الليل خفية، تتعلم الريزادو، وكانت كل يوم تنوي أن تقول له، فتؤجل ذلك إلى يوم آخر. وكانت دورا تخيط ثيابها المصنوعة من الساتين، مع مطرزات معدنية، وخرز براق. إنها راعية الملوك، ترقص في الشوارع وهي حاملة البيرق، تغني أراجيز، تقود أجمل طاقم في إيليوس. هي تحب هذا، فقد وُلدت له، آه! غابرييلا! السيدة سعد، لا تستطيع الخروج كراعية في الطاقم. فكانت تتعلم خفية، ولسوف تخرج كراعية الملوك، وترقص في الشوارع.

سوف تلحق به الإهانة، ستسبب له الحزن. ماذا بوسعها أن تفعل؟ آه! ماذا بوسعها أن تفعل؟

عن احتفالات نهاية السنة

حلّت نهاية السنة، ومعها شهور: الميلاد، رأس السنة، الملوك المجوس، احتفالات التخرج الجامعي، احتفالات الكنيسة. فهذه الاخيرة كانت تنظم الكرمس في ساحة حانة فيزوفيو، وتعج المدينة بالطلاب الذين يقضون عطلتهم، وهم وقحون وعمليون، قادمون من ثانويات وكليات باهيا. الحفلات الراقصة في بيوت العائلات، ورقصات السامبا ذات هزات السرة، في البيوت الفقيرة، في المرتفعات، وفي جزيرة الأفاعي. المدينة مبتهجة ومحتفلة، بسكرات العرق، والمشادات في الكباريهات وخمّارات الشوارع الجانبية. الحانات تغص بالناس وكذلك كباريهات الوسط التجاري. السير في بونتال، والنزهات في ماليادو ومرتفع بيرنامبوكو لمشاهدة أعمال الجرافات. محبون، عرسان، الدكاترة يتقبلون، أمام نظر آبائهم وأمهاتهم، زيارات التهنئة. أول أبناء إيليوس ذوو الخاتم والدرجة، أبناء الكولونيلات. إنهم محامون وأطباء، مهندسون، أخصائيون في الزراعة، مدرسات تخرجن هنا بالذات، في ثانوية الراهبات. والأب باسيليو، القانع من الحياة، يعمد ولده السادس بالتبني من عمل الرب في رحم أوتاليا، عرّابته. إنها وفرة في المادة لتعليقات العانسات.

لم يسبق أن شهدت نهاية سنة مثل هذه الحيوية. فالمحصول قد تجاوز ما يستطيع المرء تصوره. والمال كان يدور بسهولة، وفي الكباريهات تُسكب الشمبانيا، وشحنة جديدة من النساء في كل باخرة، والطلاب يقومون بمنافسة مع شبان التجارة والبائعين الجوالين في استمالة الغانيات الخلاسيات، والكولونيلات يدفعون بسخاء موزعين نقودهم أوراقاً نقدية من فئة الخمسمائة ألف ريال. تم تدشين البيت الجديد للكولونيل مانويل داس أونساس كأنه قصر بحفلة مدهشة. بيوت كثيرة لائقة، شوارع جديدة، جادة الشاطئ تنمو في الطريق المغروس بشجرات جوز الهند في ماليادو.

البواخر تصل من باهيا، من رسيفي ومن الريو زاخرة بالحاجات الموصى عليها، والترف يزداد داخل البيوت، متاجر ومتاجر، الواجهات تدعو للشراء، المدينة تزداد، إنها تتغير.

أنجزت في ثانوية إينوش الامتحانات الأولى بإشراف التفتيش الاتحادي. فقد أتى من الريو مفتش، هو صحافي من جريدة الحكومة. كان معلقاً معروفاً، فألقى محاضرة، ومرر الأولاد في الثانوية إليه قصاصات من الورق. وكان هناك أناس كثيرون، فللفتى شهرة كصاحب موهبة عظيمة. وقدّمه جوزويه، فتكلم حول «التيارات الجديدة في الثقافة الحديثة» - من مارينيتي إلى غراسا آرانيا - وكانت تلك شربة مسهّل للمعدة مريعة، ولم يتمكن من فهمه إلا أربعة أو خمسة: جوان فولجنسيو، جوزويه، ونيو غالو إلى حد ما، والنقيب. فهمه آري، لكنه كان ضد آرائه. قارنوه بالطيب الذكر الدكتور آرجيليو بالميرا، المتخرج مرتين، ذي الصوت الرنان. إنه محاضر لامع، من الحماقة أن يُصار إلى المقارنة به. هذا من دون الكلام على أن الشاب القادم من الريو لا يحسن شرب الخمرة، إذ تكفي جرعتان من العرق الجيد المحلي ليسقط سكران. أما الدكتور آرجيليو، فإنه يستطيع أن يوازي أشهر أهالي الضياع في إيليوس. كان سكيراً إذا شرب، وراوي باربوزا، إذا تكلم...

إلا أن المحاضرة المثيرة للنقاش، كانت لها علامتها الحيوية والرائعة. فقد جعلت «مستحيلة المنال» غلوريا، تظهر بدون توقع، في القاعة، وهي مضمّخة بعطر نفاذ الأريج لدرجة أنه ملأ القاعة بأكملها، مرتدية بشكل أفضل من أي سيدة، ثوباً ذا دانتيل أوصت عليه من باهيا، تلوّح بمروحة، كأم عائلة حقيقية - ليس بسبب العمر، إذ كانت في مقتبل العمر، لكن للمظهر والتصرفات الرصينة، والحصافة البادية في العينين، ولعزة النفس المغالى فيها كأم عائلة حقيقية. فالتي كانت تجسدالعزلة القديمة وتتنهد في النافذة، مدعومة بلون بشرة رائع، لم تعدْ تتنهد الآن. حصل همس بين السيدات. وتركت زوجة الدكتور ديموستينيس نظارتيها ورددت بهمس:

«وقحة!»

وزوجة الدكتور ألفريدو، وهي امرأة نائب (إيالي، صحيح، لكنه مرموق) نهضت عندما طلبت منها غلوريا الرائعة، إذناً بالجلوس إلى جانبها في قاعة النبلاء وجلست في مكان آخر آخذة معها جيروزا. فابتسمت غلوريا وهي تجمع ثنيات تنورتها. ثم جاء الأب باسيليو وجلس إلى جانبها، وهو امر لا تلزمه به الحسنة المسيحية!

كان الرجال الذين يصوبون إليها نظرات خائفة، تحت مراقبة زوجاتهم، يحسدون «جوزويه المحظوظ مسترقين نظرات خاطفة. وعلى الرغم من الحرص والتيقظ، كان الجميع في مدينة إيليوس، على علم بالحب المجنون الذي يكنّه مدرّس الثانوية لعشيقة الكولونيل؟ كان كوريولانو الوحيد الذي لم يكن قد اكتشف ذلك.

نهض جوزويه وهو ممتقع الوجه وهزيل، فمسح عرقه الذي لا وجود له، بمنديل حريري، هدية من غلوريا (بطريقة أخرى كان من أجل غلوريا مرتدياً بأناقة من رأسه إلى حذائه) وأنشد كلماته الجميلة، داعياً الصحافي القادم من الريو بـ«الموهبة اللامعة للجيل الجديد، جيل أَكَلَة لحم البشر والمستقبليين». أشاد بالفتى، لكنه فوق كل شيء، قارع الرياء السائد في الأدب السالف وفي مجتمع إيليوس. كان الأدب من أجل إنشاد جمالات الحياة، بهجة العيش، أجساد النساء الرائعة، من دون نفاق. انتهز الفرصة ليلقي شعراً استوحاه من غلوريا، مرعباً وغير أخلاقي. وصفقت غلوريا باعتزاز. وأرادت زوجة ألفريدو الانسحاب، إنما لم تفعل لأن جوزويه قد انتهى، وكانت ترغب بالاستماع إلى الدكتور. لم يفهم أحدٌ ما قاله الدكتور ، لكنه لم يكن غير أخلاقي.

إن مثل هذه الأمور لم تعد تشين أحداً تقريباً، ما دامت إيليوس قد تغيرت كثيراً. «جنة نساء الحياة الرديئة والعادات الفاسدة، فاقدة ذلك الاعتدال، تلك البساطة، تلك الحشمة في الأوقات السابقة»، كما كان الدكتور ماوريسيو المرشح لمنصب المحافظ يقول في خطابه، هو الذي كان يدعو لإعادة ترميم الأخلاق الرصينة. كيف يمكن ان نعتبر حضور غلوريا إحدى المحاضرات فضيحة، عندما ينتشر نبأ فرار مالفينا؟

كان ينزل طلاب من كل باخرة ترسو. لكن مالفينا الطالبة الداخلية في ثانوية الرحمات لم تصل. لقد فكروا أولاً أن ميلك تافاريس حال بينها وبين العطلات ليزيد

من عقابها. لكن، عندما سافر ميلك من دون أن يتوقع أحد ذلك، إلى العاصمة، وعاد بمفرده مثلما غادر، حزين الوجه وقد شاخ عشر سنين، ظهرت الحقيقة. لقد هربت مالفينا من دون أن تترك أثراً، منتهزة الاضطراب الناجم عن مغادرة الطلاب، في العطلات، حيث الثانوية في فوضى.

استدعى ميلك الشرطة، فلم تكن في باهيا. فأجرى اتصالاً مع الريو، فلم يعثروا عليها. ظن الجميع أنها هاجرت مع رومولو فييرا، مهندس المضيق، وهو دافع آخر لها، فلم يكن بالوسع تفسير الفرار المثير، الصحن المملوء بالمرق بالنسبة إلى العانسات. فحتى جوان فولجنسيو فكر هكذا. ولم يبتهج إلا حين عرف أن المهندس، بعد أن استُدعي من قبل الشرطة في الريو، أثبت أنه لا يعرف عن الفتاة شيئاً منذ عودته من إيليوس. لم يعرف ولا يريد أن يعرف. فخيم آنئذٍ الغموض الكامل. إن أحداً لن يفهم من الأمر شيئاً. وتنبأ الناس بعودتها القريبة، نادمة.

لكن جوان فولجنسيو لم يكن يؤمن بعودة الفتاة، طالبة المغفرة:

«إنها لن تعود، أنا متأكد. سوف تمضي قدماً، وهي تعرف ما تفعله.»

بعد ذلك بأشهر عديدة، وفي خضَمّ محصول العام التالي، توارد خبر بأنها تعمل في سان باولو، في أحد المكاتب، وتدرس ليلاً. تعيش بمفردها. فاستعادت أمها الحياة، لكنها لم تخرج من بيتها قطّ. ورفض ميلك الإصغاء ولو لكلمة واحدة:

«لم يعد لدي ابنة!»

لكن كل هذا كان سيحدث فيمابعد. ففي نهاية السنة تلك، كانت مالفينا عبارة عن فضيحة غير مشرّفة، تستخدم في الخطب الحماسية التي يلقيها الدكتور ماوريسيو في حملته الانتخابية.

فالانتخابات ستكون في أيار، لكن المحامي قد انتهز جميع المناسبات لنشر الكلام الجيد، طالباً من شعب إيليوس إعادة الاعتبار إلى الحشمة الضائعة. ومع هذا، فإن أناساً قلائل أبدوا استعدادهم ليفعلوا ذلك؛ فالعادات الجديدة تسللت إلى جميع الأنحاء، حتى تسربت إلى الأسر، شاعرين بخطورتها في نهاية السنة مع مجيء

الطلاب. لقد التصق جميعهم بالنقيب، حتى أنهم قدموا له عشاء في حانة نسيب، «لمحافظ المستقبل - كما حيّاه طالب السنة الثالثة في الحقوق استيفان ريبيرو، ابن الكولونيل كوريولانو، بالرغم من كون أبيه من الأوفياء لراميرو باستوس - الذي سيحرر إيليوس من التخلف، من الجهل وعادات القرية، المرشح لإعلاء التقدم الذي سيضيء بشعاع الثقافة، عاصمة الكاكاو». والأدهى كان ابن أمانسيو ليال، فقد واجه أباه، في مناقشات لا تنتهي:

«ليس ثمة وسيلة يا أبي، يجب أن تتفهم. فالعرّاب راميرو هو الماضي، وموندينيو هو المستقبل - كان يدرس الهندسة في سان باولو، ولا يتكلم إلا على الطرق والآلات والتقدم - لديك الحق في أن تكون معه. أسباب عاطفية وأنا أحترم هذا. أما أنا، فلا أستطيع مرافقتك. يجب أن تدرك أيضاً». كان يتداخل مع مهندسي وفنيي المضيق، وارتدى لباس غواص، وغطس إلى قاع القناة .

كان أمانسيو يصغي إليه، ويثير جدلاً معه، ثم يتركه ينتصر عليه وهو فخور بذلك الابن، الطالب اللامع ذي العلامات العالية في الامتحانات:

«أنت على حق، من يدري. الأزمنة قد تغيرت. إلا أنني قد بدأت العمل مع الإشبين راميرو، وأنت لم تكن قد ولدت بعد. لقد خاطرنا معاً، كنت أنا فتى، وكان هو سيداً. معاً أرقنا دماء ومعاً أثرينا. فلن أتخلى عنه في هذه الساعة. إن الرجل يحتضر، مفعماً بالاشمئزاز.

- إنك على حق. وأنا أيضاً أحب الإشبين. لكن إذا صوّت فلن أصوّت لاتباعه.

كان أمانسيو يقضي أوقات سعيدة عندما، في الصباح الباكر، وهو يستعد ليخرج إلى سوق السمك، صادف ابنه بيرتو، عائداً من مغامراته الليلية. فتحدثا مع بعضهما. فابنه البكر هذا، كان، بمواظبته على دروسه، مصدر اعتزاز له، ورضى. فكان يحذره دائماً ويسدي اليه النصح:

- أنت تتورط مع زوجة فلورينسيو - كولونيل طاعن في السن تزوج بفتاة سورية نارية، في باهيا، لا تزال فتيّة وصاحبة عينين وسيعتين ذابلتين - فتدخل ليلاً

من باب الجناح الخلفي. يوجد نساء كثيرات في إيليوس، في الكباريهات. ألا يكفيك هذا؟ فلماذا تتورط مع امرأة متزوجة؟ إن فلورينسيو لم يولد ليكون رجلاً ذا قرن. فإذا علم... ليست لي رغبة لأخصص قبضايات ليتبعوك، فانتبه من هذا يا بيرتو. إنك تسلبني الاطمئنان - كان يضحك في قرارة نفسه، فابنه الملعون كان يزرع قروناً للمسكين فلورينسيو- .

- الحق ليس عليّ يا أبي. فهي التي تشجعني كثيراً لأغازلها. وأنا لست مخلوقاً من الخشب. لكن كن مطمئناً فهي ستسافر إلى باهيا لتمضية الأعياد. وأخيراً يا أبي، متى ستنتهي في إيليوس هذه العادة في قتل المرأة التي تخون زوجها؟ ما رأيت بلاداً كهذه قطّ! فلا أكاد أبتعد عن بيت ما، عند الساعة الرابعة فجراً، حتى تُفتح جميع النوافذ في الشارع ليتلصص الناس عليّ.

كان أمانسيو ليال يحدّق إلى ابنه بعينه السليمة، وهو زاخر بالرقة:

- معارض لئيم...

كان يزور راميرو كل يوم، بشكل دائم. ويقود العجوز الحملة مدعوماً منه، ومن ميلك ومن كوريولانو، ومن قلة آخرين. وانتهز ألفريدو عطلات المجلس ليسافر إلى المنطقة الداخلية، ويزور ناخبيه. وكان تونيكو عديم النفع، لا يفكر إلا في النساء. كان اماناسيو يصغي لراميرو وهو يتكلم، ويزوده بأخبار مشجعة وغالباً كاذبة. فقد كان يعلم أن الانتخابات خاسرة. ولكي يحتفظ بمكانته، سيكون خاضعاً للحكومة، من أجل معاقبة الخصوم في مجال الاعتراف لهم بالسلطات. لكنه لا يريد أن يتكلم على ذلك. كان يعتبر نفوذه غير قابل للتصدع، ويقول إن الشعب كان معه. وكبرهان على ذلك، كان يشير إلى زوجة نسيب التي قدمت في الليل، لتنقذ اسميهما واسم ميلك، مجنّبة اياهم الظهور أمام الرأي العام متورطين في قضية محاولة اغتيال أريستو تيليس، وهو ما كان سيحدث بالتأكيد لو قُبض على الزنجي من قبل القبضايات، إضافة إلى ذلك الاحتيال الذي لجأت إليه محكمة العدل حيث عيّنت مدعياً عاماً خاصاً لمتابعة القضية.

- حسناً، إني أرى أيها الإشبين، أن الزنجي كان سيموت لكنه لن يتكلم. من المؤسف أن الطلق الناري قد أخطأ.

وعندما شُفي أريستو تيليس واستعاد نفوذه، صرح بأن إيتابونا ستصوت بالإجماع لموندينيو فالكون. فقد خرج من المستشفى أكثر قوة، وذهب إلى باهيا، وأجرى مقابلات مع الصحف. ولم يتمكن الحاكم من التدخل في المسألة. وتحرك موندينيو مع أناس كثيرين في الريو حيث حظيت الجريمة بالضجة اللازمة. وألقى أحد نواب المعارضة خطاباً في المجلس النيابي الاتحادي، تحدث فيه عن عودة عهود قطع الطرق واللصوصية في منطقة الكاكاو. الضوضاء كثيرة والنتيجة ضئيلة. فالقضية صعبة. إذ إن المجرم مجهول. قيل إنه كان أحد القبضايات ويحمل اسم فاغونديس الذي استوفى ثمن العمل المأجور مع شخص يدعى كليمينتي، في مزارع ميلك تافاريس حيث يعملان في اقتلاع الغابة. لكن كيف يثبت ذلك؟ كيف يثبت اشتراك راميرو وأمانسيو وميلك في ذلك؟ لقد انتهت القضية بإحالتها إلى الحفظ، مع المدعي العام الخاص وكل ما له علاقة بها.

- أشخاص محتالون... كان يقول راميرو مشيراً إلى قضاة محكمة الاستئناف.

ألم يحاولوا إقالة المفوض؟ اضطروا إلى إيفاد ألفريدو إلى باهيا ليلح على استبقائه. ذلك ليس لأن المفوض يستأهل البقاء، فهو كسول، متراخٍ، يبول على نفسه خوفاً من المسلحين، يهرب حتى من سكرتير محافظة إيتابونا، وهو فتى. لكن إذا نقلوا الملازم، فإن الذي سيصبح بلا نفوذ، هو نفسه، راميرو باستوس.

كان يتحدث مع أمانسيو، مع تونيكو، ومع ميلك. كانت تلك أفضل لحظات حياته. لأنه كان يقضي القسم الاكبر من النهار مستلقياً على السرير، ليس لديه إلا العظم والجلد والعينان اللتان تستعيدان بريقهما عند التكلم في السياسة. الدكتور ديموستينيس بدوره كان يزوره كل يوم. ومن آن لآخر ليستمع إلى دقات قلبه، ويأخذ ضغطه.

على كل حال، وبالرغم من أنه مُنع من قبل الطبيب، فقد خرج مرة ليلاً ليذهب

إلى تدشين مذود الشقيقتين دوس ريز. لم يكن بوسعه التخلف عن الذهاب. ومن في المدينة يتخلى عن الحضور؟ كان المنزل غاصاً بالناس.

وكانت غابرييلا تساعد كينكينيا وفلورزينيا في الأشغال النهائية؛ تقص صور أشخاص، وتلصقها على الورق المقوّى، وتصنع زهوراً، فقد عثرت في بيت عم نسيب على بعض المجلات من سورية. وهكذا ظهر في المذود الديمقراطي بعض المسلمين؛ باشوات وسلاطين من الشرق. ولكي يرضي جوان فولجنسيو ونيو غالو والإسكافي فيليبي بالابتهاج، بنى جواكين طائرات مائية من الورق المقوّى، كانت معلقة فوق الحظيرة، وكانت هي الشيء الجديد ذلك العام. ولكي يحافظ على حياده (المذود وحانة نسيب والجمعية التجارية كانت الأشياء الوحيدة التي استمرت محايدة إزاء الترشيحات الانتخابية) تضرَّعت كينكينيا للدكتور بأن يتكلم، وفلورزينيا سألت الدكتور ماوريسيو بإلحاح أن يلقي خطاباً.

شخصان ملآ رأسي العانستين بجمل عذبة. وأسرَّ النقيب لهما طالباً صوتيهما، لقاء وعد بالمساعدة الرسمية إذا انتُخب. وقدم لرؤية المذود العظيم أناس من بعيد؛ من إيتابونا، من بيرانجي، من آغوابريتا، حتى من إيتابيرا. عائلات بأكملها. ومن إيتابيرا جاءت الدونا فيرا والدونا آنجيلا اللتان صفّقتا بانفعال:

- يا للروعة!

لكن شهرة المذود التقليدي لم تكن وحدها التي بلغت مدينة نائية. فقد بلغتها أيضاً شهرة مطبخ غابرييلا. ومع كون القاعة تعجّ بالناس، فإن الدونا فيرا لم تركن إلى الراحة طالما لم تتمكن من جرّ غابرييلا إلى أحد الأركان، لتطلب منها وصفات بإعداد المرق، تفاصيل الأطباق. وقد وصلت أيضاً من آغوا بريتا شقيقة نسيب وزوجها. عرفت غابرييلا ذلك من الدونا آرميندا، إذ لم يحضرا إلى بيت الشقيق. وفي حفلة تدشين المذود، كانت شقيقة نسيب تتفحص زوجة أخيها المتواضعة، الجالسة بارتباك على أحد المقاعد. ابتسمت لها غابرييلا بخجل، فأدارت لها السيدة سعد ده كاسترو ظهرها وهي مزهوّة. وباتت غابرييلا حزينة، بسبب ازدراء امرأة الأخصائي في الزراعة،

ولهذا ثأرت لها بعد ذلك بقليل الدونا فيرا، التي أحاطت بها الأخرى وهي تتزلّف لها بضحكات وسلامات، بعد أن قدّمتها لها الدونا آنجيلا. قالت لها الدونا فيرا:

– زوجة أخيك عذوبة خالصة. إنها جميلة جداً ومهذبة... وأخوك محظوظ، إذ حظي بزواج موفق.

وثأر لها أيضاً العجوز راميرو عند دخوله القاعة بمشيته المترنّحة. فقد فتحوا له الصفوف ليمرّ، وأفسحوا له مكاناً أمام المذود. فتكلم مع الشقيقتين دوس ريز، وأشاد بجواكين. وامتدت الأيدي لتصافحه. لكنه رأى غابرييلا، فترك جميع الناس واقترب منها، ثم شدّ على يدها وهو كثير الود:

– كيف حالك يا دونا غابرييلا؟ منذ وقت طويل لم أرك. لماذا لا تزوريننا؟ أريد منك أن تأتي لتتغدي ذات يوم في بيتي بصحبة نسيب.

كانت جيروزا، إلى جانب، جدها، تبتسم لها وتتحدث معها، فيما شقيقة نسيب ترتجف من الغيظ، والكراهية تقضمها. وفي النهاية ثأر لها نسيب أيضاً عندما جاء ليعود بها. السيد نسيب كان طيباً. فعل ذلك عمداً، كانا خارجين يتأبط أحدهما ذراع الآخر، فمرّا على مقربة من الشقيقة والصهر، فقال نسيب بصوت مرتفع ليسمعاه:

– «بيبي»، أنت أجمل النساء، يا امرأتي الصغيرة.

خفضت غابرييلا عينيها. كانت حزينة ليس بسبب اشمئزاز شقيقة الزوج، إنما لأن الشقيقة ما دامت في المدينة، فلن تترك أبداً نسيب يدعها تخرج في طاقم الملوك مرتدية ثياب راعية صغيرة حاملة البيرق.

ستترك أمر التحدث معه إلى حين تقترب نهاية السنة. سوف تمضي في التعلم، كم هو جميل! تغني وترقص. ومن يعلمها كان ذلك الشاب ذو رائحة البحر الذي التقته في كباريه باتي فوندو في ليلة مطاردة فاغونديس. كان بحاراً، وهو الآن يعمل في أرصفة إيليوس، اسمه نيلو. إنه شاب مشبع بالحماسة، معلم من الدرجة الأولى. كان يعلمها الخطوات، كيف تمسك بالبيرق. أحياناً كانا يرقصان بعد التعلم. وفي أيام السبت، كانت الرقصات تستمر حتى الفجر. لكن غابرييلا تعود مبكرة إلى البيت،

قبل أن يعود السيد نسيب... ستترك أمر التحدث معه إلى حين يقترب الموعد أكثر، عشية الاحتفالات تقريباً. وهكذا، فإذا لم يسمح بذلك، فأقلّه تكون قد اغتنمت فرصة التعلم.

اضطربت دورا:

– هل تكلمت معه يا دونا غابرييلا؟ أتريدين أن أكلمه أنا؟ سألتها دورا باضطراب.

لقد انتهى كل شيء الآن، كان ذلك مستحيلاً. فمع شقيقته المتعجرفة في المدينة، سوف لن يدعها نسيب تخرج أبداً مع الطاقم في الشوارع، حاملة البيرق مع يسوع الطفل. وهو مصيب... وهذا أسوأ ما في الأمر؛ فمع الشقيقة في إيليوس، كان ذلك مستحيلاً، ولديه الحق. كم ستلحق به الإهانة، وكم ستسبب له الحزن، إنها لا تستطيع ذلك...

الراعية الصغيرة غابرييلا
أو السيدة سعد
في سهرة عيد رأس السنة

«ماذا ستقول شقيقتي، والأبله صهري؟» كلا يا غابرييلا، كيف سيسمح نسيب بذلك؟ فلن يكون هذا ممكناً بالنسبة إليه، أبداً.

ماذا يقول شعب إيليوس، أصدقاؤه في الحانة، سيدات الطبقة الراقية، الكولونيل راميرو الذي يقدّرها كثيراً؟ مستحيل يا غابرييلا مستحيل التفكير بهذا الأمر، فلم يُرَ عبث أكثر منه. «بيبي» بحاجة إلى أن تقتنع بأنها لم تعد مجرد خادمة فقيرة، من دون عائلة، من دون اسم، من دون تاريخ ميلاد، من دون وضع اجتماعي. كيف يتخيّل المرء السيدة سعد أمام الطاقم، تحمل على رأسها تاجاً مذهباً من الورق المقوّى، ويدور جسمها على نفسه في رقصة الخطوات القصيرة، مرتدية الساتين الأزرق والأحمر، ممسكة بالبيرق، بين اثنتين وعشرين راعية صغيرة يحملن مصابيح، والراعية الصغيرة

غابرييلا الأولى بين الجميع، الملحوظة أكثر من الأخريات؟ مستحيل يا «بيبي»، ما هذه الفكرة البلهاء...

من الواضح أنه كان يجب أن يرى ذلك، يشيد به وهو في الحانة، ويأمر بتقديم دفعة من الجعة. من الذي لم يكن يحب ذلك؟ من ينكر أن ذلك كان جميلاً؟ لكن هل شوهدت أي سيدة متزوجة فاضلة، تخرج للرقص في طاقم الملوك؟ ألا ترى أن دورا مثلاً، لسبب كهذا تخلّى عنها زوجها وتركها أمام آلة الخياطة تخيط الثياب للآخرين، وفوق كل هذا، فإن شقيقته في المدينة، وهي كيس من العجرفة، وصهره ذاك، المنتفخ بخاتمه كدكتور، مستحيل يا غابرييلا، فالكلام لن يجدي شيئاً.

خفضت غابرييلا رأسها موافقة. إنه مصيب، وهي لا تستطيع التسبب له بالحزن على مرأى من صهره الدكتور. فأخذها وأجلسها في حجره:

- لا تكوني حزينة يا «بيي» إضحكي لي. ضحكت، لكنها في قرارة نفسها بكت. بكت في فترة بعد الظهر تلك فوق الفستان المصنوع من الساتين الجميل جداً، الأزرق والأحمر، يا للتناسق في الألوان الذي يسرّ النظر! فوق التاج المذهب، مع نجمة، فوق البيرق مع ألوان الطاقم، يسوع الطفل وحمَله مسمَّران في الوسط. لم تدخل الهدية التي جلبها لها ليلاً عند عودته إلى البيت، العزاء إلى نفسها؛ وشاح غالٍ مطرّز بتخريمات.

- لكي تستعمليه في الحفل الراقص الذي يقام عند استقبال السنة، في سهرة رأس السنة المذكورة. أريدك يا «بيبي» أن تكوني أجمل مَنْ في الحفل. قال لها مواسيا.

لم يكن يجري الحديث على أمر آخر في إيليوس باستثناء سهرة رأس السنة التي تُقام في نادي التقدم والتي ينظمها فتيات وفتيان طلاب. الخيّاطات لم يكنَّ يحسبن حساباً لكثرة الطلبات الموصى بها. الفساتين ترد من باهيا؛ في محلات الخياطين، الثياب الرجالية من نسيج الكتان الأبيض (H.J) لكونه وُضع في التجربة، والطاولات كلها محجوزة حسب الأسبقية. يجيء إلى الحفل حتى المستر مع زوجته التي تأتي لقضاء عيد رأس السنة مع زوجها، كما تفعل كل سنة. وبدلاً من الرقصات الاعتيادية

في البيوت الخاصة، فإن مجتمع إيليوس يجتمع في قاعات نادي التقدم في الحفل الراقص من دون موعد سابق.

في تلك الليلة بالذات يخرج الطاقم بمصابيحه، بأغنياته وببيرقه. ستكون غابرييلا بالوشاح المطرز، ترتدي حريراً، مع حذاء ضيق، في الحفل الراقص، جالسة، خفيضة العينين، مطبقة الفم، من دون أن تعرف كيف ستتصرف. من سيحمل البيرق؟ ستُفاجأ دورا. والسيد نيلو، الشاب ذو رائحة البحر، لن يخفي خيبة أمله. وحدها ميكيكينا ستبدو راضية، وربما سيتسنى لها حمل البيرق.

اعتراها النسيان قليلاً وكفّت عن البكاء عندما أُقيمت مدينة الملاهي في الأرض البور في أونياون. إنها «مدينة ملاهي الصين»، مع عجلة عملاقة، جياد صغيرة، جهاز آلي لألعاب اللهو، وبيت للمجانين، لمعان المعادن، الإفراط في الإضاءة، وقد أثار لغطاً كثيراً بحيث أن الزنجي الصغير تويسكا، المبتعد عنها مؤخراً، لم يقاوم، فحضر ليعلق على الأمر.

«مساء عيد الميلاد لن أذهب إلى الحانة، إنما أمر من هناك. هيا بنا نذهب بعد الظهر إلى مدينة الملاهي، وفي الليل إلى احتفالات الكرمس.» قال لها نسيب.

ذلك، نعم، إنه يستحق العناء. فقد شاهدت كل شيء مع السيد نسيب، وركبت مرتين في العجلة العملاقة. الجهاز الآلي لألعاب اللهو كان ممتعاً جداً، يشعر المرء بالبرد يسري تحت السرة. خرجت من بيت المجانين وهي تشعر بالدوار. وكان الزنجي الصغير تويسكا وهو ينتعل جزمة قصيرة الساق يرتدي، هو أيضاً، ثياباً جديدة!، ويدخل مجاناً لكونه قد ساعد في لصق الإعلانات في شوارع المدينة.

ذهبوا ليلاً إلى احتفالات الكرمس المقامة أمام كنيسة القديس سيباستيان. وهناك كان ، تونيكو والدونا أولغا يتنزهان، فتركها معهما، ووثب إلى الحانة ليرى كيف تسير الحركة فيها. كانوا يبيعون هدايا في الأكشاك. فتيات طالبات كن يأخذن الأمر على عاتقهن. والفتيان يشترون. وثمة مزادات قيمة لمصلحة الكنيسة. وكان آري سانتوس والعرق يتصبب منه، المنادي بالمزاد. وكان يعلن:

- طبق الحلوى، تقدمة من الآنسة اللطيفة إيراسيما، وحلوى مصنوعة بيديها بالذات. كم تعطونني؟

- خمسة آلاف ريال. عرض أحد طلاب كلية الطب.

- ثمانية. زاد مستخدم في التجارة.

- عشرة.» دفع طالب الحقوق.

كان لدى إيراسيما كثير من المحبين. والتنافس كان على بوابة المغازلات، ولهذا بالضبط كان التنافس على طبق الحلوى.

في وقت المزاد، قدم أناس من الحانة ليشاهدوه وليشتركوا فيه، وملأت العائلات الساحة. وكان المحبون يتبادلون الإشارات، والعرسان يبتسمون وهم يتأبطون أذرع بعضهم بعضاً.

«طاقم للشاي، هدية من الشابة جيروزا باستوس. ستة فناجين، ستة صحون، ستة أطباق للحلوى، وقطع أخرى، كم تعطونني؟»

كان آري سانتوس يعرض فنجاناً صغيراً. والفتيات يتبادلن النظرات في منافسة للأسعار. كل منهن ترغب أن تُباع هديتها للقديس سيباستيان بأغلى سعر. وكان المحبون والعرسان ينفقون مالاً، يرفعون العروض ليروهن مبتسمات. أحياناً، كان كولونيلان يختاران تذكاراً واحداً، ثم تزايدت الحيوية، وارتفعت المجازفات حتى بلغت مائة ومائتي ألف ريال. في تلك الليلة، وفي منافسة بين ريبيرينيو وأمانيسو ليال، أعطيت خمسمائة ألف ريال من أجل ست محارم. وكان هذا هدراً، قذفاً بالمال إلى الخارج. المال يطفح لدرجة أنه يجري في شوارع إيليوس. الفتيات المؤهلات للزواج كنّ يشجعن بعيونهن، المحبين المحسوبين عليهن، ليرين بأي هيئة يغدون حينما يعلن المنادي تقدمتها في المزاد. وقد ضربت تقدمة إيراسيما رقماً قياسياً. فطبق الحلوى أُخذ بثمانين ألف ريال. إنها مضاربة من إيبامينودونداس، وهو الشريك الشاب في أحد متاجر بيع الأقمشة سواريس وإخوانه.

مسكينة جيروزا. إنها من دون محب! متوارية في كبريائها، لا تكترث بشبان

إيليوس. وجرى همس حول غرام في باهيا؛ طالب طب في سنته الخامسة. ولو لم تدخل عائلتها في المضاربة – عمها تونيكو والدونا أولغا، أو أحد أصدقاء جدها– فإن طاقم الشاي الذي قدّمته لن يعطي شيئاً. وكانت إيراسيما تبتسم، منتصرة.

«كم تعطونني بطاقم الشاي؟

– عشرة آلاف ريال.» أعطى تونيكو.

وأعطت غابرييلا خمسة عشر ألفاً، مع نسيب مجدداً إلى جانبها. الكولونيل أمانسيو قادر على أن يزيد المضاربة إنما لم يكن هناك، فقد انصرف إلى الكباريه. وتصبب العرق من آري سانتوس وهو على المنصة يصرخ:

«خمسة عشر ألف ريال... من يعطيني أكثر؟

– كونتو من الريالات.

– كم قلت لي؟ من الذي قال؟ رجاءً، عدم المزاح.

– كونتو من الريالات. كرر مونديديو فالكون.

– آه! سيد مونديديو... حسناً، الآنسة جيروزا، هل تتلطفين وتسلمين التقدمة إلى الفارس؟ كونتو من الريالات يا سادتي كونتو من الريالات! سيكون القديس سيباستيان شاكراً كلياً للسيد مونديديو. وكما تعرفون، فإن هذا المال هو من أجل بناء كنيسة المستقبل، في هذا المكان بالذات. كنيسة هائلة ستخلف الكنيسة الحالية. يا سيد مونديديو، المال معي... أنا شاكر لك كثيراً.»

مضت جيروزا لتأتي بصندوق الفناجين وسلّمته للمصدّر، وعلّقت الفتيات المنهزمات على ذلك الجنون. ماذا كان يعني؟ مونديديو هذا المتهرّئ من الثراء، الفتى الأنيق القادم من الريو، يقاتل في معركة مميتة عائلة باستوس. صراع، مع جرائد محترقة، رجال يُضربون، جرائم قتل. يقيم جبهة في وجه العجوز راميرو، فينازعه المراكز، ويسبب له نوبات القلب. وفي الوقت نفسه يعطي كونتو من الريالات، ورقتين نقديتين لامعتين من ذوات الخمسمائة، لقاء نصف دزينة من فناجين البورسلان الرخيص، تقدمة من حفيدة عدوه! كان مجنوناً بالفعل. كيف يدركن؟ فجميعهن، من

إيراسيما إلى ديفا، يتنهدن من أجله، فهو غني وعازب، أنيق وكثير الأسفار. يذهب باستمرار إلى باهيا، وله بيت في الريو... الفتيات يقفن على قصصه مع العشيقات. مع آنابيلا، مع أخريات استُقدمن من باهيا، من الجنوب أحياناً، كنّ يرونهن، أنيقات وطليقات في جادة الشاطئ. لكن تغزلاً بفتاة عازبة، لم يسبق له أن فعل. وبالكاد تطلع إلى أي منهن حتى ولا إلى جيروزا. فموندينيو هذا ثري وأنيق!

- إنها لا تساوي كثيراً. قالت جيروزا.

- أنا رجل خاطئ. وهكذا، على يديك، أصبح أفضل مع القديسين. إني أكسب مكاناً في السماء.

- هل ستذهب إلى سهرة رأس السنة؟ سألته وقد ابتسمت مستسلمة.

- لا أدري حتى الآن. وعدت بقضاء سهرة السنة الجديدة في إيتابونا.

- يبدو أن الجو هناك سيكون حيوياً. وهنا أيضاً سيكون حيوياً.

- أتمنى لكِ أن تتمتعي وتحظي بسنة جديدة سعيدة.

- ولك أيضاً أيها السيد. إذا لم نلتق حتى ذلك الوقت...

كان تونيكو باستوس يسترق السمع. لم يفهم هذا النوع من الحوار. كان لايزال يحلم باتفاق في الساعة الأخيرة، ينقذ نفوذ آل باستوس. فحيّا موندينيو بابتسامة، وردَّ الآخر على تحيته، ثم انسحب بطريقه إلى بيته.

عشية السنة الجديدة، كان موندينيو في إيتابونا، تغدّى مع أريستو تيليس وحضر تدشين سوق الماشية، وهو تحسين مهم يجلب إلى المحافظة تجارة العجول من المنطقة بكاملها. وألقى خطاباً صفقوا له، ثم ركب سيارته وعاد إلى إيليوس، ليس لأنه تذكر جيروزا، إنما لأنه كان يريد قضاء ليلة السنة الجديدة مع أصدقائه، في نادي التقدم. إن ذلك يستأهل العناء. فالحفلة ستكون رائعة، والشعب يقول إنه في الريو فقط يمكن للمرء أن يشاهد حفلاً راقصاً كهذا.

كان الترف يعرض في نسيج الكريب الحريري الرقيق، وفي نسيج التافتا الحريري الصقيل، وفي المخمل، في الحليّ التي تخفي النقص في الأناقة والهيئة

الريفية لدى بعض السيدات، مثل أوراق النقد من ذات الخمسمائة ألف ريال في الجيوب. إنها تخفي التصرف المرتبك للكولونيلات، وكلامهم الغوغائي. لكن سادة الحفل كانوا من الشبان. بعض الفتيان كانوا يرتدون السموكنغ بالرغم من الحر. والفتيات يضحكن في القاعات، يلوحن بالمراوح، يغازلن ويتناولن المرطبات، وتسيل الشمبانيا، والمشروبات الباهظة الثمن. وكانت القاعات مزدانة بشمعدانات وزهور اصطناعية. إنها حفلة كبرى وملحوظة جداً، حتى أن جوان فولجنسيو، عدو حفلات الرقص، قد حضر، هو والدكتور.

ابتسمت جيروزا عندما تبينت مونديني فالكون وهو يتحدث مع العربي نسيب وغابرييلا الطيبة التي بالكاد استطاعت البقاء واقفة. حذاء شقي كان يشد على طرف إصبع قدمها. فقدماها لم تُخلقا لتمشيا منتعلتين حذاء. لكنها كانت جميلة لدرجة أن السيدات المتعجرفات أكثر من سواهن ومن بينهن زوجة الدكتور ديموستينيس، القبيحة والمتباهية، لم يستطعن نكران كون تلك الخلاسية هي أجمل امرأة في الحفلة.

- امرأة تافهة من الشعب، لكنها جميلة. اعترفن على مضض.

إنها ابنة الشعب الضائعة في هذه الضوضاء من الأحاديث التي لا تفهمها، الترف الذي لا يجذبها إليه، الحسد، التعالي، القال والقيل الذي لا تجيده. بعد قليل سيصبح في الشوارع، طاقم الملوك مع الراعيات الصغيرات المرحات مع العلم المطرّز، سيتوقفن أمام البيوت، أمام الحانات، يغنين ويرقصن، ويستأذن بالدخول، فتُفتح الأبواب ويرقصن في القاعات ويغنين، يحتسين مشروباً ويأكلن حلوى. في هذه الليلة من العام الجديد وفي ليلتيْ الملوك، تخرج أكثر من عشرة أطقم وبومبا ميو بوي من أونياون، من كونكيستا، من جزيرة الأفاعي، من بونتال في الجانب الآخر من النهر، لتلعب في شوارع إيليوس.

رقصت غابرييلا مع نسيب، مع تونيكو، مع آري ومع النقيب. وكانت تعود شاعرة بالعذوبة لكن هذه الرقصات، لا تحب أن ترقصها، تدور بين ذراعي فارس.

الرقص بالنسبة إليها شيء آخر، إنه كوكو متحرك، سامبا في حلقة، ماشيشي ذات إيقاع سريع. أو، حسناً، لتكن رقصة بولكا تدفعها الهارمونيكا. أما التانغو الأرجنتيني، الفالس، الفوكستروت، فإنها لا تحبها. وفوق هذا بذلك الحذاء الذي يعض إصبعها الممعوس!.

إنها حفلة مشبعة بالحيوية. جوزويه وحده غير متحمس. كان يتطلع إلى الخارج وهو مستند إلى النافذة والكأس بيده. وكانت غلوريا تتلصص إلى التجمع العرم الذي احتل الرصيف والشارع، وإلى جانبها - كأن ذلك حدث عرضاً - كان كوريولانو تعباً، يريد الذهاب إلى السرير. فحفلته الراقصة، كما يقول هو نفسه، كانت مخدع غلوريا. لكن هذه الأخيرة تريثت وهي ترتدي بأناقة بالغة الترف، وترمق من خلال النافذة وجه جوزويه النحيل. وكانت تتفجّر على الموائد سدادات زجاجات الشمبانيا. وتنازعت الفتيات موندينيو فالكون الذي رقص مع جيروزا، ديفا، وإيراسيما، وانتزع غابرييلا ليراقصها.

أدخل نسيب نفسه في حلقات الرجال، ليتحدث. فلم يكن الرقص يستهويه. جرّ قدميه مرتين، ثلاث مرات في هذه الليلة مع غابرييلا، ثم تركها في ما بعد إلى الطاولة مع زوجة جوان فولجنسيو الطيبة. ومن تحت الخوان خلعت غابرييلا حذاءها، ومررت يدها على قدمها التي تؤلمها. وكانت تجهد نفسها كي لا تتثاءب. وأتت نسوة جلسن إلى الطاولة وبدأن التحدث والضحك شاعرات بحيويتهن مع زوجة جوان فولجنسيو. وأحسنَّ إليها إذ تمنين لها ليلة طيبة، وسألنها عن صحتها. وبقيت صامتة تنظر إلى الأرض.

تونيكو، مثل كاهن في أحد الطقوس الصعبة، يدور مع الدونا أولغا في رقصة تانغو أرجنتيني. فتيان وفتيات كانوا يتضاحكون ويتمازحون وهم يرقصون، فوق كل شي، في القاعة الخلفية حيث منعوا الكهول من الدخول إليها. وكانت شقيقة نسيب وزوجها يرقصان أيضاً، متعاليين، متظاهرين بأنهما لم يرياها.

عند حوالى الساعة الحادية عشرة، حينما كان التجمع قد اقتصر على بعض الأشخاص - كانت غلوريا قد انسحبت منذ وقت طويل مع الكولونيل كوريولانو -

سُمعت من الشارع موسيقى آلة الكافاكينيا والكمان والمزامير والطبول. والأصوات تغني الأهازيج الخاصة برقصة عيد الملوك. فرفعت غابرييلا رأسها، لم يكن بوسعها أن تخطئ. إنه طاقم دورا.

توقف أمام نادي التقدم فسكتت الأوركسترا في الحفل الراقص، وأسرع الجميع إلى النوافذ والأبواب. انتعلت غابرييلا حذاءها وكانت الأولى في الوصول إلى الرصيف. وقد انضم إليها نسيب، وكانت شقيقته وصهره قريبين جداً منهما ومتظاهرين بعدم رؤيتهما.

الراعيات الصغيرات مع مصابيحهن، وميكيكينا مع البيرق. نيلو البحار السابق مع صفارته في فمه، يصدر الأوامر بالغناء والرقص.

ومن ساحة سبايرا، في الساعة ذاتها، قدم «الثور» وراعي القطيع والفلاح وبومبا ميو بوي وهم يرقصون في الشارع، فيما الراعيات الصغيرات يغنين:

«أنا راعية جميلة
جئت لأعبد يسوعاً
في مذود بيت لحم
وأحيي ملوك المجوس».

لم يكن بوسعهم الدخول، ولم تكن لديهم الجرأة على قطع مسار حفل الأغنياء. لكن بلينيو أراسا، وهو يتقدم الندل، جلب زجاجات الجعة ووزعها عليهم. فارتاح «الثور» دقيقة ليتسنى له الشرب، وكذلك الفلاح. ثم عادوا إلى الرقص والغناء، وميكيكينا في الوسط، تحمل البيرق، وتهزّ ردفيها الهزيلين، فيما السيد نيلو يصفر. وامتلأ الشارع بالناس من الحفل الراقص، الفتيان والفتيات يضحكون ويصفقون.

«أنا راعية جميلة
من الفضة والذهب والضوء
أهدهد بغنائي
الطفل يسوع».

لم تعد غابرييلا تتبين شيئاً عدا طاقم الملوك، والراعيات الصغيرات بمصابيحهن ونيلو بصفارته، وميكيكينا ببيرقها. لم تر نسيب، ولم تر تونيكو، لم تر أحداً. حتى ولا ابنة حميها ذات الأنف الوقح. كان السيد نيلو يصفر، والراعيات الصغيرات يمتثلن، والبومبا ميو بوي في المقدمة. وصفر مرة أخرى فأخذت الراعيات يرقصن وميكيكينا تدور ببيرقها في الليل؟

«الراعيات الصغيرات قد أتين

وفي مكان آخر يغنين...».

مضين إلى مكان آخر يغنين ويرقصن في الشوارع. فخلعت غابرييلا حذاءها، وركضت إلى المقدمة حيث انتزعت البيرق من يدي ميكيكينا. ودار جسدها، وانشطر ردفاها، وإذ تحررت قدماها، أبدعتا في الرقص. وسار الطاقم، فهتفت ابنة حميها: «أوه!».

تطلعت جيروزا فشاهدت نسيب يكاد يبكي جامد الوجه، خجلاً وحزناً. عندها تقدمت هي أيضاً فأخذت مصباحاً من إحدى الراعيات وشرعت ترقص. ثم تقدم شاب، ثم شاب آخر، وتناولت إيراسيما المصباح من دورا. وانتزع مونديينو الصفارة من فم نيلو. والمستر وزوجته سقطا في حومة الرقص. وزوجة جوان فولجنسيو، المرحة وأم ستة أولاد، التي تتجسد فيها الطيبة، دخلت الطاقم. وسيدات أُخريات أيضاً، والنقيب، وجوزويه. كان الحفل الراقص بأجمعه في الشارع، يلعب. وفي ذيل الطاقم شقيقة نسيب وصهره الدكتور، فيما غابرييلا في المقدمة والبيرق في يدها.

من النبيلة أوفينيزيا إلى ابنة الشعب غابرييلا

في بداية السنة تلك، تمت إنجازات ومفاهيم، فعرفت إيليوس أموراً جديدة وفضائح. فاعتبر الطلاب أن من واجبهم تحويل التدشين البسيط لمكتبة الجمعية التجارية إلى حفلة تحدد معالم حقبة من الزمن.

- إن ما يريده هؤلاء الأولاد هو الرقص... قال الرئيس آتاولفو شاكياً.

بيد أن النقيب، وهو منظم المكتبة القيّمة بمساعدة جوان فولجنسيو، رأى في فكرة الطلاب فرصة ممتازة من أجل الدعاية لترشيحه لمنصب المحافظ. وعلاوة على هذا، كان مصيباً في قوله، وهو يتجادل مع آتاولفو، إن الشبان لا يبغون اللهو فقط، فتلك المكتبة كانت الأولى في إيليوس (مكتبة نادي روي باربوزا اقتصرت على خزانة ذات رفوف للكتب، وكلها تقريباً في الشعر) وتحوز على معنى خاص، كما بالأحرى، قد أشار الشاب سيلفيو ريبيرو ابن ريبيرينيو، وهو في السنة الثانية بكلية الطب، في خطابه المشحون بالنزوات.

كانت نمطاً من احتفال غير معروف قبلاً في إيليوس. فالطلاب نظموا أمسية أدبية، اشترك فيها العديد منهم، إضافة إلى شخصيات مثل الدكتور، آري سانتوس وجوزويه. وتكلم أيضاً النقيب والدكتور ماوريسيو، الأول كمشرف على المكتبة في الجمعية، والثاني كخطيب رسمي، لأنَّ الاثنين، كانا مرشحين لمنصب المحافظ. والأمر الجديد الأهم هو تضمّنه فتيات من ثانوية الراهبات ومن مجتمع إيليوس، حيث أُلقيت أشعار أمام الجمهور. بعضهن كن خجولات ومضطربات، وأُخريات أخذن الأمر على عاتقهن كمالكات لزمام أنفسهن. وغنّت ديفا التي تمتلك طبقة صوتية صافية ومقبولة، أنشودة ذات فحوى تاريخي. وعزفت جيروزا معزوفة لشوبان على البيانو. ودارت في القاعة قصائد لبيلاك، ولرايموندو كوريّيا، ولكاسترو ألفيز وللشاعر تيودورو ده كاسترو، وقصائد هذا الأخير لتمجيد أوفينيزيا، إضافة إلى قصائد آري وجوزويه التي أُلقيت من قبل الناظمين نفسيهما، وبالنسبة إلى مفتش الثانوية الذي تريث ليزور إيتابونا والدساكر والمزارع حاصلاً على مادة مدفوع ثمنها للجريدة الصادرة في الريو، بدا كل ذلك كاريكاتوراً مضحكاً. لكنه بالنسبة إلى أهالي إيليوس كان حفلاً ساحراً.

«جميل جداً! علقت كينكينا معقبة.

- وحضوره ممتع.» عقبت فلورزينيا موافقة.

وأعقب ذلك، الرقص، هذا واضح. فالجمعية استدعت من بيلمونتي لإدارة المكتبة، الشاعر سوسيجينيس كوستا الذي سيكون له نفوذ ملحوظ في تطور الحياة الثقافية في المدينة.

وعند التكلم على الثقافة والكتب، وتذكّر قصائد تيودورو في أوفينيزيا، كيف يُسْدَل الصمت على نشر بعض الفصول من كتاب الدكتور الخالد: «تاريخ أسرة آفيلا ومدينة إيليوس» بحجم صغير، أُعدّ وطُبع هنا في إيليوس بالذات، في مطبعة جوان فولجنسيو، بإشراف المعلم جواكين؟ ليس بهذا العنوان بالطبع، إذ نُشرت الفصول التي تشير إلى أوفينيزيا وقضيتها المشكوك فيها مع الأمبراطور بيدرو الثاني، وصنّفها الدكتور بتواضع: «عشق تاريخي» وكعنوان فرعي بين معترضتين؛ («أصداء مساجلة قديمة»). إنها ثمانون صفحة، من النثر الصعب العائد إلى القرن الخامس عشر ذي الأسلوب الشبيه بأسلوب كاموينز. وهنا كانت القصة الرومانطيقية في جميع تفاصيلها، مع وفرة في الإشارات إلى المؤلفين وأشعار تيودورو. هو كتيّب جاء ليتوّج بالمجد، الرأس المحترم لابن إيليوس اللامع. والحقيقة هي أن ناقداً من العاصمة، وهو بالتأكيد يشعر بالحسد، رأى في المجلد الهزيل غير المقروء «بلاهة تتجاوز جميع الحدود المقبولة». لكن المذكور فرد ذو طباع سيئة، فأر جائع في التحرير، مؤلف قصائد هجائية ضد أكثر الأمجاد الباهيانية أصالة. وتصحيحاً لذلك، من موندو نوفو، حيث يعمد الدكتور آرجيليو بالميرا إلى بناء أسرته الرابعة، كتب الشاعر المهيب لإحدى جرائد باهيا أيضاً، ست صفحات زاخرة بالإطراء، حيث غنّى عشق أوفينيزيا، «المبشّرة بفكرة الحب الطليق في البرازيل». مع ملاحظة طريفة أخرى بالرغم من مزاجه القليل التأثر بالأدب؛ جاء بها نيو غالو وهو يتحدث في المكتبة القرطاسية مع جوان فولجنسيو:

«هل لاحظت يا جوان، أن جدتنا أوفينيزيا قد تغير جسمها قليلاً في كتيب الدكتور؟ قبلاً، أذكر جيداً أنها كانت هزيلة بلا لحم مثل شريحة من القديد. وفي الكتيب أصبحت بدينة. إقرأ الصفحة الرابعة عشرة. هل تعرف من تشبه الصورة الآن؟ تشبه غابرييلا...»

ضحك جوان فولجنسيو ضحكته الذكية ومن دون سوء:

«من لا يعشقها في المدينة؟ فلو رُشحت لمنصب المحافظ لهزمت النقيب وماغوريسيو، حتى الاثنين معاً. فإن جميع الناس يصوّتون لها.

- لكن ليس النساء...

- ليس للنساء الحق بالتصويت أيها الإشبين. ومع هذا فإن بعض النّسوة يصوّتن. لديها شيء ما لا أحد يحوزه. ألم تر في الحفل الراقص، بالسنة الجديدة؟ من جرّ الناس كافة إلى الشارع، ليرقصوا رقصة عيد الملوك؟ أعتقد أن هذه القوة هي التي تصنع الثورات، تنهض بالمكتشفات. وبالنسبة إليّ لا أحب أكثر من أن أرى غابرييلا وسط حفنة من الناس. هل تعرف بماذا أفكر؟ في زهرة بحديقة، حقيقية، تضوع بالأريج، وسط حفنة من الزهور المصنوعة من الورق...»

تلك الأيام، بالأحرى، أيام نشر كتاب الدكتور، كانت أيام أوفينيزيا وليست أيام غابرييلا. فقد غطت موجة جديدة من الشعبية، ذكرى آفيلا النبيلة التي كانت تتنهد وهي متعشّقة اللحية الملكية. كانوا يتكلمون عليها في البيوت عند ساعة العشاء، وفي نادي التقدم - والآن في حيوية متواصلة للحفلات الراقصة المفاجئة، وحفلات الشاي الراقصة. بين فتيان وفتيات جادة الشاطئ، في الأوتوبيسات، في القطارات، في الخطب والقصائد، في الصحف وفي الحانات، حتى في الكباريهات. إن امرأة إسبانية حديثة القدوم معقوفة الأنف وسوداء العينين، أغرمت بموندينيو فالكون حتى الضياع. لكن المصدّر كان منهمكاً بإحدى مغنيات الموسيقى الشعبية أتى بها من الريو في سفرته الأخيرة، بعد عيد رأس السنة. وإزاء تنهدات الإسبانية ونظراتها الضائعة، أطلق عليها شخص خفيف الظل لقب أوفينيزيا، والتصق بها الاسم، وأخذته معها حتى بعد مغادرتها إيليوس إلى مناجم ولاية ميناس جيرايس.

هذه الأمور الجديدة حدثت في الكباريه الجديد إلدورادو الذي أُقيم في شهر كانون الثاني ليدخل في منافسة جدية مع الباتاكلان والتريانون إذ استورد مباشرة من الريو، منوعات فنية ونساء. إنه ملكٌ لبلينيو أراسا صاحب «العرق الذهبي»، وكان

في المرفأ. ودُشنت أيضاً دار الصحة للدكتور ديموستينيس، بمباركة من الأسقف وخطاب من الدكتور ماوريسيو. غرفة العمليات التي حُمل إليها أريستوتيليس، وكانت الدونا آرميندا قد أُنقذت فيها، كان أول من استضافته بعد التدشين الرسمي، لويرينيو المشهور، مع طلق ناري في الكتف، نتيجة شجار في باتي فوندو. وأُنشئت نيابة قنصلية السويد، وفي المكان نفسه، وكالة لشركة الملاحة باسم معقّد وطويل. وشوهد رجل أجنبي غرنغو طويل القامة، هو وكيل للشركة السويدية، ونائب القنصل، أحياناً بصحبة موندينيو فالكون يتحدثان، ويشرب هو «عرق إيليوس». وكان فندق جديد يُبنى في المرفأ وهو مبنى من خمس طبقات، هائل. وتوجه الطلاب إلى الشعب، بواسطة جريدة دياريو ده إيليوس بإعلان طالبين إليه التصويت لمن يضمن في المحافظة، إشادة الثانوية البلدية، وملعب للألعاب الرياضية، وملجأ للعجزة والمتسولين، ويصل طريق السيارات إلى بيرانجي. وفي اليوم التالي كان النقيب يلتزم، في الجريدة أقلّه، بكل هذا وأكثر.

والأمر الجديد الآخر، كان تحوّل جريدة الجنوب إلى جريدة يومية. والحقيقة هي أنها دامت فترة قصيرة، إذ عادت أسبوعية بعد ذلك ببضعة أشهر. كانت تقريباً سياسية بشكل خاص، تهاجم موندينيو فالكون، أريستو تيليس والنقيب في كل الأعداد. وكانت دياريو ده إيليوس ترد عليها.

وأُعلن عن قرب افتتاح مطعم نسيب. كان مستأجرون عديدون قد انتقلوا من الطابق العلوي. بقي فقط لعب القمار على الحيوانات ومستأجران في التجارة، يواصلان البحث عن مأجور آخر. كان نسيب يستعجلهم، فقد أوصى من الريو، بواسطة موندينيو، شريكه الرأسمالي، على كمية من الحاجيات. والمهندس المجنون صمم داخل المطعم. وبات العربي من جديد فرحاً، ليس بذلك الفرح الكلّي الذي عرفه في أول عهده بغابرييلا، حينما لم يكن بعد يخشى أن تغادره.

إن هذا الأمر يقلقه الآن أيضاً، لكنه، ليصير سعيداً كلياً، يجب أن تصمم هي مرة واحدة على أن تتصرف كسيدة مجتمع.

لم يعد يشكو عدم المبالاة في المخدع. فقد كان بالفعل شديد العناء. ففي فترة العطلات كانت الحانة تعمل بشكل غير معقول. وقد اعتاد هذا الحب لزوجته، لكن بشكل أقل عنفاً، هادئ ولذيذ. لكنها كانت تقاوم بلا مبالاة، وهذه حقيقة، الاندماج في الطبقة العليا المحلية، بالرغم من النجاح الذي أحرزته في ليلة رأس السنة بقصة الطاقم. ففيما كان نسيب يفكر بأن عاقبة ذلك كله ستكون وخيمة، أثمر عن شيء رائع. حتى هو نفسه انتهى بأن يرقص في الشارع، أوَلم تأتِ شقيقته وصهره لزيارتهما بعد ذلك، ويتعرفان إلى غابرييلا؟ فلماذا إذن تستمر مرتدية في المنزل ثياب امرأة فقيرة وتنتعل خفّين وتلاعب الهرّ، وتطهو وترتب وتغني أهازيجها وتضحك بصوت مرتفع أمام جميع الذين يتحدثون إليها؟.

كان يأخذ في الحسبان أن المطعم سوف يهذّبها وتونيكو نفسه كان من هذا الرأي. ومن أجل المطعم كان عليه أن يتفق مع امرأتين أو ثلاث مساعدات طاهيات، بشكل تبدو فيه غابرييلا كسيدة ومالكة، تدير شأن التوابل فقط، وتتعامل يومياً مع أناس ذوي رقي.

وما كان يقلقه أكثر، كونها لا تريد امرأة ترتب البيت. فالبيت كان صغيراً، لكنه مع هذا يتطلب جهداً. وعلاوة على ذلك، يضع في حسبانه أنها ستستمر في الطهو له وللحانة. وكانت السوداء ذاتها تشكو من أن الدونا غابرييلا لا تتركها تفعل شيئاً. إنما تغسل الأطباق فقط، وتحرّك ما هو موجود داخل الطناجر، وتقطع اللحم. لكن غابرييلا هي التي كانت تعد الطعام، ولا تترك الطبّاخ.

وقد حدثت المصيبة ذات مساء هادئ، حينما كان يتمتع باطمئنان كامل للنفس، وأفرحه الخبر الذي تناهى إليه تواً عن انتقال لعب المقامرة على الحيوانات إلى إحدى القاعات في المركز التجاري. كان عليه أن يستعجل خروج المحاسبين في المتجر. ولن تلبث أن تصل في باخرة تابعة للشركة الساحلية أو في باخرة لويد الطلبات الموصى عليها من الريو. وكان قد اتفق مع عامل بناء ودهّان لإحداث تغيير في الطابق المقسّم بجدران فاصلة وقذرة، ليتحوّل إلى طابق جميل، إلى قاعة ناصعة،

مع مطبخ حديث. ولم ترغب غابرييلا، في سماع أي كلام على الطبّاخ المعدني. فقد كانت تصرّ على موقد من تلك المواقد الكبيرة المصنوعة من الفخار والتي يُحرق فيها الحطب. وكان عليه أن يناقش كل ذلك مع عامل البناء والدهّان.

ففي ذلك المساء، أمسك، فجأة، بيكو فينو وهو يأخذ نقوداً من الصندوق. ولم يكن ذلك مفاجئاً، إذ كان نسيب يرتاب به منذ بعض الوقت. ففقد عقله وصفع الفتى عدة صفعات:

«لص، سارق!»

والغريب أنه لم يفكر بصرفه من العمل. أما أن يلقنه درساً ليصلح من شأنه فهذا أجل. لكن بيكو فينو الذي قُذف إلى خلف طاولة البيع بصفعة واحدة، أخذ يشتمه:

«أنت اللص، أيها التركي الغائط! مازج المشروبات والمتلاعب بالحسابات.»

كان يجب أن يسدد إليه بعض الصفعات أيضاً، ومع هذا لم يكن قد فكر بصرفه. فأمسك ببيكو فينو من قميصه ورفعه ثم سدد يده إلى وجهه بقوة:

«كي تتعلم ألا تسرق.»

تحرر بيكو فينو منه ووثب خارج طاولة البيع وهو يبكي ويشتم:

«لماذا لا تضرب أمك؟ أو زوجتك؟

- أخرس، وإلا سأضربك حقيقة.

- تعال واضرب.»

ثم هرب باتجاه الباب وزعق:

«تركي، ديوث، ابن العاهرة! لماذا لا تبدي حرصاً على زوجتك؟ ألا تتحسس قرونك وهي تؤلمك؟»

إقترب منه نسيب وتمكن من الإمساك به.

«ما الذي تقوله؟»

إعترى بيكو فينو خوف من هيئة العربي:

«لا شي، يا سيد نسيب، أتركني...

- ما الذي تعرفه؟ قل أو أهشمك بالكامل.

- إن شيكو موليزا هو الذي أخبرني.

- ماذا؟

- إنها تتعاطى مع السيد تونيكو...

- مع تونيكو؟ أخبرني بكل شيء وبسرعة.

كان يمسك به بقوة شديدة بحيث مزق له القميص.

- كل يوم، بعد أن يخرج من هنا، يدخل السيد تونيكو إلى بيتك.

- إنك تكذب، أيها الشقي.

- جميع الناس يعرفون، ويضحكون منك يا سيدي، أتركني يا سيد نسيب...»

رفع يده عن قميصه، فخرج بيكو فينو راكضاً. وبقي نسيب واقفاً، أعمى، أصم، من دون حركة، من دون تفكير. وهكذا وجده شيكو موليزا عند عودته من معمل الثلج:

«سيد نسيب... سيد نسيب...»

كان السيد نسيب يبكي.

أجبر شيكو موليزا على الاعتراف، في الغرفة المتخصصة للعب البوكر. كان يسمع وهو يغطي وجهه بيديه، فيما شيكو موليزا يسرد أسماء وتفاصيل. ومنذ أن اتفق معها في سوق العبيد. كان تونيكو حديث العهد معها، لكنه بدأ بعد الزواج. وبالرغم من كل شيء، لم يصدق. لماذا لا يكون ذلك كذباً؟ إنه يريد الحصول على أدلة، يرى بعينيه.

وأسوأ ما في الأمر كان أثناء الليل معها، في السرير نفسه. لم يستطع النوم. حينما وصل، استيقظت وابتسمت، ثم قبلته من وجهه. انتزع من صدره المجروح بعض الكلمات:

«إني تعب جداً.»

ثم استدار إلى جانبه وأطفأ الضوء. لقد ابتعد عن حرارة جسدها، مستلقياً على حافة السرير. فاقتربت منه محاولة تركيز ردفيها تحت ساقه. لم ينم طوال الليل، يستبد

به الجنون لاستجوابها، معرفة الحقيقة من فمها، فيقتلها آنئذٍ كما ينبغي أن يفعل رجل من إيليوس. تُرى، ألن يتعذب بعد أن يقتلها؟ كان ذلك مؤلماً من دون حدود، فالفراغ في داخله، كأن الروح قد استُلبت منه.

في اليوم التالي بكَّر في الذهاب إلى الحانة. لم يحضر بيكو فينو. كان شيكو موليزا يعمل من دون أن ينظر إليه، لائذاً بالزوايا. وقبل الساعة الثانية بقليل، حضر تونيكو، فاحتسى مشروبه المرّ، ورأى أن نسيب كان سيىء المزاج.

«قلق في البيت؟

- كلا. كل شيء على ما يرام.»

حسب بساعته خمس عشرة دقيقة بعد خروج تونيكو. فتناول المسدس من الدرج ووضعه في حزامه ثم توجه إلى بيته. فقال شيكو موليزا لجوان فولجنسيو على الأثر وهو منفعل:

«النجدة يا سيد جوان! فالسيد نسيب ذهب ليقتل الدونا غابرييلا والسيد تونيكو باستوس.

- ما هذه القصة؟»

أخبره بكلمات موجزة، فمضى جوان فولجنسيو إلى اللاديرا، وحالما انعطف عند الكنيسة، وسمع صراخ الدونا آرميندا، كان تونيكو يركض إلى جانب الشاطئ، حافي القدمين والسترة والقميص بيده، وكان ظهره عارياً.

كيف انتهك العربي نسيب القانون القديم واستقال بشرف من أخوية القديس كورنيليو المجيدة أو كيف عادت السيدة سعد فأصبحت غابرييلا.

كانت غابرييلا تبتسم وهي عارية، مضطجعة على السرير الزوجي، وكان تونيكو عارياً أيضاً وهو يجلس على حافة السرير، وعيناه كثيفتان بالرغبة. لماذا لم يقتلهما نسيب؟ ألم يكن ذلك هو القانون، القانون القاسي القديم، الذي لا يخضع للنقاش؟ المنَفَّذ دائماً طالما هو يقدّم حالة معينة وحاجة؟.

إن الزوج المخدوع يغسل عاره بدم الآثمين. لم تمض بعد سنة على وضع الكولونيل جوزويه ميندونسا هذا القانون موضع التنفيذ... فلماذا لم يقتلهما؟ أما فكر بأن يفعل ذلك ليلاً، في السرير حينما كان يتحسس ردفيْ غابرييلا وهما يحرقان ساقه؟ ألم يقسم على أن يفعل ذلك؟ فلماذا أحجم؟ أولم يأتِ بالمسدس في حزامه، أولم يأخذه من درج طاولة البيع؟ أولم يرغب بأن يستطيع النظر مرفوع الرأس، إلى أصدقائه في إيليوس؟ ومع هذا لم يفعل.

من الخطأ أن يظن أحد أن ذلك جبن. فلم يكن جباناً، وقد برهن على ذلك مراراً متعددة. ومن الخطأ أن يظن أحد أنه لم يكن لديه متسع من الوقت. فتونيكو خرج راكضاً إلى الفناء وقفز التلة الواطئة، ثم ارتدى سرواله من دون لباسه الداخلي في ممشى بيت الدونا آرميندا المثيرة للفضيحة، بعد أن تفوه، متأتئاً:

«لا تقتلني يا نسيب! كنت أزوّدها بنصائح فقط...»

لم يتذكر نسيب حتى المسدس، فسدد إليه يده الثقيلة والمهانة، وتدحرج تونيكو عن حافة السرير، ثم نهض على الفور بوثبة، وتناول أشياءه من على المقعد ليتوارى. كان لديه متسع من الوقت ليطلق النار، ولم يكن ثمة خطر من أن يخطئ. لماذا لم يفعل؟ لماذا، بدلاً من أن يقتلها، اكتفى بضربها، وهي صامتة من دون أن تنطق بكلمة، بلكمات موجعة، تاركاً كدمات زرقاء معتمة، بنفسجية تقريباً، على بشرتها التي بلون القرفة؟ لم تصرخ، لم تطلق غصة، كانت تبكي صامتة، تُضرب وهي صامتة. وكان لا يزال يضربها حين وصل جوان فولجنسيو، فدثرت نفسها بالشرشف. كان لديه متسع من الوقت للقتل.

من الخطأ أن يظن أحد أن ذلك كان بسبب الإفراط في الحب، في الرغبة الشديدة. ففي تلك اللحظة لم يكن نسيب يحبها ولا يكرهها أيضاً. كان يضربها بشكل آلي كأنه يرخي عروقه، فقد تعذب في مساء وليل البارحة وفي هذا الصباح. كان خاوياً، من دون أي شيء في داخله، كأصص من دون زهرة. كان يتحسس وجعاً في قلبه، كأن أحداً أدخل فيه نصلاً ببطء. لم يشعر بحقد ولا بحب. إنه ألم متفرّد جداً.

لم يقتل لأن القتل لم يكن من طباعه. فجميع تلك الحكايات المرعبة عن سوريا التي كان يرويها إنما كانت من الفم إلى خارجه. بوسعه الضرب إذا كان غاضباً. ويضرب من دون إشفاق، كأنه يستوفي ديناً، حساباً متأخراً. أما أن يقتل فلا يستطيع.

أطاع بصمت، حينما وصل جوان فولجنسيو وأمسكه من ذراعه وقال له:

«يكفي ذلك يا نسيب. تعال معي.»

وعند باب الغرفة، توقف وتكلم بصوت خفيض وهو يدير لها ظهره:

«سأعود ليلاً، ولا أريد أن أجدك هنا.»

أخذه جوان فولجنسيو إلى منزله. وعند دخولهما، أتى بإشارة لزوجته بأن تتركهما لوحدهما. فجلسا في البهو المليء بالكتب، فيما العربي يخفي رأسه بيديه. وظل وقتاً طويلاً لائذاً بالصمت. وبعدها سأل:

«ماذا أفعل يا جوان؟

– ماذا تريد أن تفعل؟

– سأرحل عن إيليوس. فهنا لا أستطيع العيش بعد الآن.

– لماذا؟ لا أجد سبباً لذلك.

– إني مغطى بالقرون، فكيف سأعيش؟

– هل ستتركها حقاً؟

– أما سمعت ما قلته؟ فلمَ تسألني؟ ألأنني لم أقتلها؟ لهذا تظن أني سأواصل وضعي متزوجاً بها؟ هل تعرف لماذا لم أقتل؟ لأني ما عرفت القتل البتة... حتى ولا دجاجة... ولا حشرة الغابة. ما استطعت قتل حيوان رديء.

– أرى أنك فعلت حسناً، فالقتل بدافع الغيرة بربرية. ولا يزال هذا يحدث في إيليوس وحدها، أو بين أناس لا يحوزون إلا قدراً ضئيلاً من التحضر. إنك قد فعلت حسناً.

– سأرحل عن إيليوس...»

ظهرت زوجة جوان فولجنسيو في باب البهو لتعلن له:

«جوان، يوجد أناس يسعون إليك. سيد نسيب، سوف أجلب لك فنجاناً من القهوة.»

تأخر جوان فولجنسيو قليلاً، ولم يلمس نسيب القهوة. كان يشعر خواءً في داخله، لم يكن جائعاً ولا عطشان، إنما متألم. وحضر بائع الكتب، لقد بحث عن كتاب في خزانة الكتب، وقال:

«سأعود بعد دقيقة.»

ثم عاد ليجده في الوضع ذاته، النظرة الذاهلة. فجلس إلى جانبه، ووضع يده على ساقه:

«أرى رحيلك عن إيليوس بلاهة ضخمة.

- كيف أستطيع البقاء؟ ليضحكوا مني؟

- لا أحد سيضحك منك...

- أنت لا تضحك مني لأنك طيب، أما الآخرون...

- قل لي أمراً واحداً يا نسيب: لو كانت هي عشيقتك فقط وليست زوجتك، هل كنت ستكترث؟»

- إنها كانت كل شيء بالنسبة إلي. ولهذا تزوجت، هل تذكر؟ قال نسيب مفكراً.

- أذكر، حتى أنني أنذرتك.

- أنذرتني؟

- تذكّر... قلت لك: ثمة زهور معينة تذبل في الأصص.»

إنها الحقيقة، لم يفكر بذلك قطُّ. لم يوله اهتماماً. أما الآن فهو يدرك ذلك. إن غابرييلا لم تُخلق للأصص، للزواج والزوج. وتابع بائع الكتب:

«لكنها لو كانت مجرد عشيقة فقط؟ هل كنت ترحل عن إيليوس؟ إني لا أتكلم

على العذاب، فالمرء يتعذب لأنه يحب وليس لأنه يتزوج، ولأنه يتزوج فهو يكره ويرحل.

- لو كانت عشيقة لما ضحك أحد مني. تكفي اللكمات. فأنت تدري ذلك مثلما أنا أدري.

- إذن، كن على علم بأنه ليس لديك أي دافع للرحيل. فغابرييلا أمام القانون لم تكن لك يوماً أكثر من عشيقة.

- لقد تزوجت منها أمام القاضي ومع كل ما يتطلبه الزواج من إجراءات. وأنت نفسك كنت حاضراً.

كان جوان فولجنسيو يمسك كتاباً بيده، ففتحه على إحدى الصفحات.

- هذا هو القانون المدني. فاسمع ما تقول المادة ٢١٩، الفقرة الأولى، الفصل السادس، من الكتاب الأول. إنه بشأن حق العائلة في ما خص الزواج. وما سأقرأه يقول هنا إن الزواج باطل حينما يكون ثمة خطأ جوهري في الشخصية.»

كان نسيب يستمع من دون أن يولي كثير اهتمام. ولم يكن يفهم شيئاً من ذلك.

«زواجك باطل وملغى يا نسيب. يكفي أن تريد ذلك فتصبح غير متزوج، وكأنك ما كنت يوماً متزوجاً قطُّ. كأنك كنت تتخذها عشيقة لك.

- كيف هذا، أوضح لي بشكل مباشر. سأل العربي باهتمام.

- إسمع.

- «يُعتبر خطأ جوهرياً في شخصية الزوج الآخر، ما تناول من كيان الزوج الآخر، شرفه وسمعته الحسنة، طالما أن هذا الخطأ في معرفته السابقة يحيل الحياة المشتركة مستحيلة للزوج الآخر الذي تعرّض للتضليل». وإني أذكر أنك أخبرت حينما أعلنت الزواج، بأنها لا تعرف اسم عائلتها، ولا تاريخ مولدها...

- لا شيء، لم تكن تعرف شيئاً...

- وقد عرض تونيكو نفسه ليتدبر الأوراق اللازمة.

- إختلق كل شيء في دائرة كتابة العدل.

- إذن؟ إن زواجك باطل، فقد حدث خطأ جوهري حول الشخصية. لقد فكرت بهذا عندما وصلنا. وبعدها حضر إيزكييل، كانت لديه مسألة تعنيه، فاغتنمت الفرصة لأستشيره. وكنتُ مصيباً. عليك الإثبات بأن الوثائق كانت زائفة فلا تعود متزوجاً، أبداً، وأن الأمر لم يكن أكثر من اتخاذك إياها عشيقة.

- وكيف أثبت ذلك؟

- ينبغي التكلم مع تونيكو، ومع القاضي.

- لن أتكلم بعد مع هذا الشخص...

- هل تريد أن أهتم أنا بذلك؟ اقصد أن أتكلم معه؟ وعن الجانب القانوني يستطيع إيزكييل الاهتمام بذلك إذا شئت. حتى أنه عرض نفسه.

- وهل عرف؟

- لا تبدِ قلقاً بالنسبة إلى هذا. هل تريدني أن أهتم بالقضية؟

- لا أدري كيف أشكرك.

- إذن، فإلى اللقاء القريب. وأنت إبقَ هنا بالذات، إقرأ كتاباً - ربت على كتف العربي - أو إبكِ إذا كان لديك رغبة في ذلك. فليس في ذلك أي عيب.

- سأخرج معك.

- كلا. إلى أين تذهب؟ إبق هنا منتظراً. وسأعود بسرعة.»

لم يكن ذلك سهلاً كما توقع جوانِ فولجنسيو. أولاً كان عليه أن يضبط بعض الإشكالات مع إيزكييل. فالمحامي كان يرفض التحدث إلى تونيكو، وأن يسوّي الأمور حبيّاً.

«إن ما أريده هو وضع هذا الشخص في السجن. سأجعله يعتزل بصفته مزوراً. فهو وأخوه وأبوهما يقولون عني أشياء مريعة. ويجب أن يخرج من إيليوس، فستكون ثمة فضيحة...»

إنتهى جوان فولجنسيو بإقناعه، فذهبا معاً إلى دائرة كتابة العدل. كان الكاتب العدل لا يزال ممتقعاً فنظر إليهما بقلق، وبابتسامة صفراء، مع نكات بائخة.

«لو لم أسرع بالفرار لكان بوسع التركي أن يثقبني بقرونه... ولقد تملكني فزع شديد...»

فأصرَّ بجدية شديدة:

«إن نسيب موكلي، فأطلب منك إبداء الاحترام له.» قال إيزكييل معترضاً بشدة.»

تناقشوا في المسألة. رفض تونيكو في البدء، وبوضوح، أي اتفاق. قال إن تلك لم تكن قضية إلغاء. فالوثائق حتى ولو كانت زائفة، حظيت بالقبول كوثائق حقيقية. ونسيب كان متزوجاً منذ خمسة أشهر من دون أن يحتج على ذلك. فكيف سيعترف هو، تونيكو، علناً بأنه قد زيَّف أوراقاً؟ لم يكن ذلك بعد في زمن سيجيزموندو العجوز الذي كان يبيع شهادات الولادة وسجلات الأرض. فرفع إيزكييل كتفيه، وقال لجوان فولجنسيو:

- أما قلت لك؟

- تونيكو، قال جوان فولجنسيو بهدوء، بالإمكان معالجة ذلك. فلنتكلم مع القاضي. إنه سيجد طريقة لمعالجة الوضع، حتى لا يتسرب تزوير الأوراق إلى العلن، أو أقلّه، كي لا تبدو أنت كمذنب. بوسعك القول إنك تصرفت بحسن نية، وإنك خُدعت من قبل غابرييلا. اخترع قصة ما. وفي النهاية، فإن هذه التي تدعى حضارة إيليوسية، قد شيدت على أساس من الوثائق المزورة.»

لكن تونيكو بقي مقاوماً. لم يكن يرغب في إشراك اسمه بذلك الأمر.

- إنك مشترك يا عزيزي، قال له إيزكييل، وتخفي رأسك. فأمامك أحد اثنين: إما أن توافق وتذهب معنا إلى القاضي لنعالج كل ذلك حبياً، وبسرعة، وإما أنني أبدأ اليوم بالقضية، باسم نسيب، لإبطال الزواج، بسبب خطأ جوهري في الشخصية،

حسب وثائق مزورة منك. مزورة بقصد تزويج عشيقتك التي واصلت التمتع بمفاتنها في ما بعد، مع رجل طيب وفاضل، كنت تقول إنه صديق لك. فأنت تدخل القضية من بابين: التزوير والخيانة الزوجية. وفي كلاهما، مع سابق تعمد وإصرار. إنها قضية حلوة.

- إيزكييل، إفعل معروفاً، هل تريد شقائي؟ رد تونيكو مرتبكاً.

- ماذا ستقول الدونا أولغا؟ وأبوك، الكولونيل راميرو؟ هل فكرت بهذا؟ إنه لن يقاوم أمام الفضيحة، وسيموت من العار؛ فتكون أنت المذنب. إني أنصحك لأني لا أريد حدوث هذا.

- لماذا تورطت في هذا يا ربي؟ لقد أعددت لها الأوراق بقصد المساعدة فقط. وليس لي حتى الآن أي علاقة معها...

- تعال معنا إلى القاضي، وهذا أفضل للجميع. وإلا، إني أنذرك بكل إخلاص، فإن القصة بأكملها ستُنشر غداً في جريدة دياريو ده إيليوس مكتوبة بقلمي، حتى لا تظهر كزير نساء. بقلمي أنا، جوان فولجنسيو...

- لكن يا جوان، كنا دائماً صديقين...

- أعلم. لكنك أهنت نسيب. لو كان ذلك مع زوجة رجل آخر، لما كنت أبدي اكتراثاً. فأنا صديقه وصديق غابرييلا أيضاً. ولسوف أجللك بالعار، سأجعلك مثاراً للسخرية... ومع الوضع السياسي كما هو، فلن تستطيع البقاء في إيليوس.

تداعت عنجهية تونيكو كلها. فالفضيحة ترعبه. الخوف من أن تعرف الدونا أولغا، وأن يلم والده بالأمر. والأفضل حقاً كان ابتلاع البرشانة؛ الذهاب إلى القاضي وإعلامه بتزوير الأوراق.

- إني أفعل ما تريدان. لكن حباً بالله، لنعالج مسألة تزوير الأوراق هذه بأفضل طريقة ممكنة. وفي نهاية الأمر، نحن أصدقاء.

إستمتع القاضي كثيراً بذلك كله:

– إذن يا سيد تونيكو، أنت صديق للعربي، ولكنك من خلفه تضع له قروناً؟ أنا أيضاً، أبديت اهتماماً بها، لكن بعد أن تزوجت، لم أعد أفكر بذلك. فأنا أحترم المرأة المتزوجة.

في قرارة نفسه، كما بيّن لإيزكييل، كانت موافقته على القبول بإبطال الزواج من دون مقاضاة تونيكو، على الرغم من مشيئته، فتركه يستمر كموظف شريف وذي نية حسنة، مضلل من غابرييلا، فبدا كضحية. إنه لم يكن يستلطفه، وكان يرتاب من أن يكون الكاتب العدل الأنيق قد زين له رأسه أيضاً بالقرون، في الأوقات التي كان يبدي فيها حذراً منه، منذ سنتين تقريباً، مع عشيقة القاضي. وفي المقابل كان يحب نسيب، ويريد إسداء المساعدة له، وحينما خرجوا قال القاضي وهو يتحرّى:

– وهي؟ ماذا ستفعل، هيه؟ إنها الآن حرة، ومن دون التزام. فلو لم أخدم بشكل جيد... على كل حال، ينبغي أن تراني لتتكلم معي. فكل شيء الآن متوقف عليها. لأنها إذا لم توافق...

قبل أن يعود إلى البيت، مضى جوان فولجنسيو ليبحث عن غابرييلا، لقد استضافتها الدونا آرميندا. فوافقت على كل شيء، فما كانت تريد شيئاً، من دون أن تشكو حتى من اللكمات، وأشادت بنسيب:

– السيد نسيب طيب جداً... إني ما أردت إلحاق الإهانة بالسيد نسيب.

وهكذا، مع قضية إبطال الزواج التي تمت إجراءاتها بسرعة، من عريضة البدء إلى صدور الحكم، في وقت وجيز جداً، وجد العربي نسيب نفسه عازباً من جديد. لقد كان متزوجاً من غير أن يكون كذلك في الواقع. كما كان منتمياً إلى أخوية القديس كورنيليو من غير أن يكون منتمياً إليها، بصفتها مجتمع العار المجيد للأزواج القابلين بالأمر الواقع.

وهكذا عادت السيدة سعد، غابرييلا.

حب غابرييلا

في مكتبة وقرطاسية موديلو كانوا يعقّبون على القضية. قال نيو غالو:

- إنه حل عبقري. من كان بوسعه التصور بأن نسيب كان عبقرياً؟ أنا الذي كنت أحبه، أحبه الآن أكثر. فإيليوس تحوز أخيراً على رجل متحضر.

- كيف تفسّر أنت يا جوان فولجنسيو، شخصية غابرييلا؟ سأل النقيب. فحسب ما تقول، إنها تحب نسيب حقاً. كانت تحبه وتستمر في حبه. وقلت إن الانفصال لها أصعب بكثير مما هو لنسيب. وإن واقعة وضع القرون له لا تعني شيئاً. كيف هذا؟ فإذا كانت تحبه، لماذا تخونه؟ أي تفسير لديك؟

كان جوان فولجنسيو ينظر إلى الشارع الذي يشهد حركة قوية، ويرى الشقيقتين دوس ريز، المتدثرتين بالوشاحين، فابتسم:

«لماذا التفسير؟ لا أريد تفسير شيء. فالتفسير محدود. ومن المستحيل تحديد غابرييلا، تحليل نفسها.

- جسد رائع وروح عصفور. تُرى هل لديها روح؟»

كان جوزويه يفكر بغلوريا. وأراد النقيب أن يفهم.

«ربما روح طفل.

- روح طفل؟ قد يكون ذلك روح عصفور؟ بلاهة يا جوزويه. فغابرييلا طيبة، سخية، سريعة التأثر، طاهرة. بالوسع أن تتعدد عنها المزايا والنقائص، أما تفسيرها، فأبداً. إنها تفعل ما تحبه، وترفض ما لا يعجبها. لا أريد تفسيرها. بالنسبة إلي يكفي أن أراها، وأعرف أنها موجودة.»

في بيت الدونا آرميندا، وهي جاثمة فوق الخياطة، ولونها لا يزال يتراوح بين البنفسجي والأحمر القاني من الضربات، كانت غابرييلا تفكر. عند الصباح تقفز فوق الجدار، قبل أن تأتي الخلاسية السوداء، فتدخل منزل نسيب، وتكنس ثم تنظف. فالسيد نسيب طيب جداً! لقد ضربها. كان غاضباً. الذنب ذنبها، لماذا قبلت بالزواج؟

الرغبة في الخروج معه في الشارع، ذراعها بذراعه، والخاتم في إصبعها. لعله الخوف من أن تخسره، فذات يوم سوف يتزوج بامرأة أخرى، فتطردها. ولهذا بالتأكيد قبلت. لقد أساءت بذلك. ما كان ينبغي القبول. قبلاً كان فرحاً نقياً.

ضربها بحنق، لديه الحق حتى في قتلها. امرأة متزوجة تخون زوجها لا تستحق إلا الموت. جميع الناس قالوا ذلك، الدونا آرميندا قالت لها، والقاضي أكد. كان هذا بالضبط. فهي تستحق الموت. فقد كان طيباً، ضربها وطردها من البيت فقط. وبعد ذلك سألها القاضي إذا كانت لا تبالي بفسخ الزواج، كأنها ما كانت متزوجة قط. وأنذرها بأنها في هذه الحال، لن يكون لها أي حق في الحانة، في المال المودع في المصرف، في المنزل الكائن في اللاديرا. إن كل ذلك متوقف عليها. فإذا لم تقبل، فالقضية ستتأخر في الدوائر العدلية، وليس بوسع أحد أن يعرف كيف ستنتهي القضية. وإذا هي وافقت... وبأنها لا تريد شيئاً آخر، تأخذ الامور طريق الحل.

«كأنك لم تتزوجي قطُّ.» قال لها القاضي.

ليس بالوسع أن يكون أفضل من ذلك... إذ ما دام الأمر هكذا فلن يكون للسيد نسيب دافع ليتألم كثيراً، ليشعر السيد نسيب بالإهانة. ليس مهماً أن يكون قد سدد إليها هذه اللكمات... حتى ولو قتلها. لن تموت وهي تشعر إزاءه بالغيظ. فهو مصيب. لكنها تهتم لكونها طردت من البيت، وليس بوسعها أن تراه، وأن تبتسم له وتستمع إليه وهو يتكلم، وأن تتحسس ساقه الثقيلة على ردفيها، وشاربيه يداعبانها من عنقها، ويديه تشدان على جسدها، ونهديها ومؤخرتها، وأعلى الفخذين والبطن. إن صدر السيد نسيب مثل وسادة. كانت تحب أن تخلد إلى النوم ووجهها في شعر الصدر العريض. أن تطهو له وتصغي إليه وهو يطري طعامها اللذيذ. إنها لم تكن تحب الحذاء ولا زيارة عائلات إيليوس، ولا الحفلات، ذات الفساتين الباهظة الثمن، والحلي الحقيقية، التي تكلف الكثير من المال. لم تكن تحبها. لكنها تحب السيد نسيب، والبيت في اللاديرا والفناء المزروع بالغوايابا، والمطبخ والبهو وسرير الغرفة.

قال لها القاضي: بعد بضعة أيام لن تكوني قد تزوجت وما كنت متزوجة قبلاً. ما كنت متزوجة قبلاً... ما أخف ظله؟ كان هو القاضي نفسه الذي زوجها، ذلك الذي رغب كثيراً في أن يخصص لها بيتاً. إنه يكلمها حتى الآن بهذا. لكنها لا تريد، فهو عجوز بلا هيبة. لكنه شخص طيب. فإذاً هي لن تصير متزوجة، وما كانت متزوجة إطلاقاً. فلماذا لا تستطيع العودة إلى بيت السيد نسيب، وإلى الغرفة الصغيرة في الجناح الخلفي، والاهتمام بالمطبخ، بغسل الثياب، والترتيب؟.

تقول لها الدونا آرميندا إن السيد نسيب لن يعود أبداً ويتطلع إليها، ويقول لها: صباح الخير، ثم يتكلم معها. لكن لماذا كل هذا، إذا لم يكونا متزوجين وما كانا متزوجين البتة؟ مع بضعة أيام أخرى... كما قال القاضي!.

ظلت تفكر: بوسعها الآن العودة مرة أخرى إلى السيد نسيب. إنها لا تريد أن تسبب له الحزن. لكنها أهانته لأنها كانت متزوجة. وأحزنته لأنها ضاجعت رجلاً آخر على سريرها بصفتها متزوجة. اكتشفت ذات يوم أنه كان يشعر بالغيرة. رجل عظيم مثله كان خفيف الظل. سوف تكون حريصة منذ الآن، حرصاً شديداً، لأنها لا تريد أن يتعذب. إنه أمر كثير الغباء، من دون تفسير؛ لماذا يتعذب الرجال كثيراً حينما تُضاجع امرأة كانوا يضاجعونها كلهم رجل آخر؟ إنها لا تفهم ذلك. فإذا كان للسيد نسيب رغبة، بوسعه الذهاب إلى امرأة أخرى ومضاجعتها، وينام بين ذراعيها. كانت تعرف أن تونيكو ينام مع نساء أخريات. الدونا آرميندا كانت تخبرها بأن لديه نساء كثيرات. لكن إذا كان النوم معه، والمداعبة معه على السرير، جيدة، فلماذا تصر على أن يكون لها وحدها؟ إنها لا تفهم ذلك. كانت تحب أن تنام بين ذراعي رجل. ليس أي رجل وحسب، بل رجل جميل، مثل كليمينتي، مثل تونيكو، مثل السيد نيلو، مثل بيبينو، آه! مثل نسيب. إذا أرادها الشاب أيضاً، إذا تطلع إليها طالباً منها، إذا ابتسم لها، إذا قرصها، فلماذا ترفض؟ لماذا تقول كلا؟ إذا كانوا يريدونها، كل منهم. إنها لا تفهم لماذا. النوم بين ذراعي رجل، والإحساس برعشة الجسد، والفم يعض، والموت من

التنهد، أمر شديد العذوبة. أما أن يغتاظ السيد نسيب ويظل ثائراً، طالما هو متزوج، فهذا تفهمه. ثمة قانون، ولم يكن مسموحاً به. فالرجل وحده من لديه الحق، والمرأة ليس لها ذلك. إنها كانت تفهم هذا، لكن كيف تقاوم؟ فقد كانت لديها رغبة في اللحظة التي فعلت فيها ذلك، من دون أن تتذكر أنه لم يكن مسموحاً به. كان عليها أن تكون حريصة كي لا تلحق به الإهانة، كيلا تسبب له الحزن. لكنها لم تفكر البتة، بأنها سوف تلحق به إهانة كهذه، وحزناً كهذا. من الآن وحتى بضعة أيام، سينتهي الزواج وسيكون منتهياً لاحقاً، ومنتهياً في ما مضى، فلماذا يستمر السيد نسيب حانقاً؟.

كانت تحب بعض الأشياء أكثر من غيرها، شمس الصباح قبل أن تشتد حرارتها، الماء البارد، الشاطئ الأبيض، رمال البحر، السيرك، مدينة الملاهي، السينما أيضاً، الغوايابا والبيتانغا، الزهور، الحيوانات، الطهو، الأكل، المشي في الشارع، الضحك والتحدث: لكن ليس مع السيدات الممتلئات زهواً بأنفسهن. وتحب أكثر من كل شيء، الشاب الجميل، الذي تنام بين ذراعيه، تتأوه وتتنهد.

تحب هذه الأشياء، وتحب السيد نسيب. إنها تحبه حباً مختلفاً. تحبه في السرير لتتأوّه، لتقبل، لتعض، لتتنهد، لتموت ثم تُبعث. لكنها أيضاً تحب أن تنام نوماً حقيقياً، حالمة بالشمس، بالهرّ المتوحش، برمال الشاطئ، بقمر السماء، وتعد الطعام، متحسسة ثقل ساق السيد نسيب على ردفيها. تحبه أكثر، أكثر كثيراً. إنها تشعر بفقدانه، وتتوارى خلف الباب لتتلصص عليه عندما يصل. وكان يصل متأخراً كثيراً، وأحياناً ثملاً. وكانت تحب كثيراً أن تناله مرة أخرى، فينام رأسه الجميل على صدرها، وتصغي إليه حينما يقول لها أموراً عن الحب بلسان أجنبي، وتسمع صوته يهمس: «بيبي»!.

ألأنه وجدها في السرير تبتسم لتونيكو فقط؟ فأي أهمية كبيرة لهذا؟ لماذا يتعذب كثيراً هكذا، إذا ضاجعها شاب؟ إنه لم ينتزع منها أي قطعة، ولن تصبح مختلفة. فقد كانت تحبه بالنمط نفسه، وليس بالوسع أن يكون أكثر. آه! ليس بالوسع

أن يكون أكثر! كانت تشك بأن توجد في العالم امرأة تحب رجلاً بهذا القدر، لتنام معه أو لتعيش معه، أكانت أختاً أو بنتاً، أكانت أماً، عشيقة أو متزوجة، مثلما تحب هي السيد نسيب. كل هذه الأمور، هذا الضجيج كله، لأنه وجدها مع آخر فقط؟ حتى لهذا السبب ما كانت تقلل من حبه، ما كانت تحبه أقل مما يريد، ليتعذب أقل، لأنه لم يكن موجوداً هناك. الدونا آرميندا تقسم على أن السيد نسيب لن يعود إلى ذراعيها أبداً. إنها تريد، أقلّه، أن تطهو له. أين سيأكل؟ والحانة، من سيعد الأطعمة المالحة والحلوى؟ وكذلك المطعم، الذي كان سيفتتحه؟ إنها تريد على الأقل، أن تطهو له.

وتريد، كيف تريد! أن تراه يبتسم بمحياه الكثير الطيبة، بوجهه الحلو. يبتسم وهو قربها، فيأخذها بذراعيه، ويقول لها «بيبي» ثم يدخل شاربيه في عنقها المضمّخة بالعطر. لم توجد في العالم امرأة تحب رجلاً بهذا الوله هكذا، بهذا الحب الشديد، تتنهد لمحبوبها كما تتنهد، وهي ميتة حباً، غابرييلا للسيد نسيب.

كان النقاش يتواصل في المكتبة القرطاسية. وقال نيو غالو:

«الوفاء أكبر برهان على الحب.

- إنه المعيار الوحيد الذي يمكن من خلاله أن تُحسب أبعاد حب ما.» أيده النقيب.

- الحب غير خاضع للبرهنة، ولا يُقاس. قال جوان فولجنسيو. إنه مثل غابرييلا. يكفي أن يكون موجوداً كونك لا تدرك أو تفسر أمراً لا تكون قد انتهيت منه. إني لا أعرف شيئاً عن النجوم، لكني أراها في السماء، وهي من روائع الليل.

عن الحياة المدهشة

تلك الليلة الأولى في البيت من دون غابرييلا، كانت خاوية من حضورها، مؤلمة من تذكرها. فبدلاً من ابتسامتها عند انتظارها له، كانت الضعة التي تجرحه، والتأكيد على أن ذلك الأمر المستحيل وغير المتصوَّر أبداً، قد حدث بالفعل ولم يكن كابوساً.

البيت خاوٍ من دون غابرييلا، لكنه مليء بالذكريات والأحاسيس. كان يرى تونيكو جالساً على حافة السرير. إنه الغضب، الحزن، اليقين بأن كل ذلك قد انتهى وأنها لم تكن هناك، وأنها كانت لرجل آخر، ولن تكون له بعد الآن. إنها ليلة مرهقة، متعبة كأنه يحمل كل ثقل الأرض. طويلة كأنها نهاية العالم، ولن تنتهي. ذلك الألم العميق. ذلك الفراغ. إنه لا يعرف ماذا يفعل ولا يعرف لماذا يعيش، ولماذا يعمل. عيناه جافتان من الدموع، والصدر ممزق بنصل حاد.

جلس على حافة السرير، من المستحيل أن يخلد إلى النوم. لن ينام أبداً في هذه الليلة التي ما كادت تبدأ، ليلة تدوم العمر كله. من غابرييلا ما بقي إلا الأثر العميق في الشراشف، في الفراش. عطر القرنفل يتسرب إلى منخريه. لم يكن يستطيع النظر إلى السرير لأنه يراها مستلقية، عارية، يرى النهدين المنتصبين، تقوس الردفين، الظل المخملي لأعلى الفخذ، الأرض المزروعة في الفرج. لونها الذي بلون القرفة، حيث ترك نسيب لون البنفسج على الكتفين، على الصدر، علامة الشفتين. لقد انتهى النهار إلى الأبد، ولكن تلك الليلة في صدره ستدوم طوال العمر، وشارباه الذابلان كانا متدليين ولن يتماسكا بعد الآن أبداً. الطعم المر في فمه إلى الأبد، مرارة. لن يعود إلى الابتسام، أبداً!

بعد ذلك ببضعة أيام. كان يبتسم في حانة فيزوفيو وهو يستمع إلى نيوغالو مستمطراً اللعنة على الكهنة. كانت الأسابيع الأولى صعبة. أسابيع فارغة من كل شيء، ممتلئة بغيابها. يعود بها كل شيء، وكل شخص. فإذا نظر إلى طاولة البيع فهي هناك، واقفة، والزهرة وراء أذنها. ينظر إلى الكنيسة فيشاهدها قادمة، يشاهد قدميها في الخفين. ينظر إلى تويسكا فيراها في الحلقة ترقص وتغني أهازيج.

يصل الدكتور، فيتكلم على أوفينيزيا. كان يسمع غابرييلا. يلعب النقيب وفيليبي فترنّ ضحكتها البلورية في الحانة. وأسوأ ما في الأمر، في البيت. ففي كل زاوية يراها، تطهو على الطبّاخ، تجلس تحت الشمس عند عتبة الباب، تعض ثمرة الغوايابا في الفناء، تشد وجه الهرّ إلى صدرها، تظهر السن الذهبية، تنتظره تحت ضوء

القمر في الغرفة الصغيرة في الجناح الخلفي. ولم يكن يهتم بأي خصوصية من هذه الذكريات التي تصاحبه خلال أسابيع، في الحانة، في الشارع، في البيت، هي التي ما كان يتذكرها في الوقت الذي كانا فيه متزوجين (أو صديقين، كما يفسر للآخرين: فكل ذلك لم يكن أكثر من اتخاذه لها عشيقة). إنه يذكر فقط غابرييلا الأيام السابقة، غابرييلا تلك الأوقات الأولى. كانت تعذبه، بيد أنها ذكريات لذيذة. ومن وقت لآخر تجرحه في صدره، في اعتزازه بنفسه كفحل (إذ لم تعد تستطيع أن تجرحه في شرفه كزوج، فلم يكن زوجاً لها). إنه يتخيلها بين ذراعي رجل آخر.

كانت الأسابيع الأولى صعبة، فارغة، وهو ميت في داخله. من البيت إلى الحانة، ومن الحانة إلى البيت. أحياناً كان يهم بالتحدث مع جوان فولجنسيو، يسمعه يتكلم على المسائل المختلفة.

ذات يوم أخذه الأصدقاء بالقوة تقريباً، إلى الكباريه الجديد. فشرب كثيراً، أكثر منهم. لكن كانت لديه مقاومة وحشية. فلم يسكر كلياً، وعاد في الليلة التالية. وتعرف إلى روزاليندا، وهي شقراء من الريو، نقيض غابرييلا. فبدأ يعيش ببطء، وينسى. وأصعب ما في الأمر هو النوم مع امرأة أخرى. إذ إن غابرييلا كانت تتوسطهما، وتبتسم. ثم تمد إليه ذراعيها، وتضع ردفيها تحت ساقه، وتلقي رأسها على صدره. لم يكن لأية امرأة أخرى طعمها، رائحتها، حرارتها، موتها وقتلها. وحتى هذا الأمر كان ينقضي شيئاً فشيئاً. فروزاليندا تذكره بريزوليتا، الخبيرة في الحب.

بدأ الآن يأتي ليأخذها كل ليلة، إذا لم تكن ملزمة بالنوم مع الكولونيل مانويل داس أونساس، الذي كان يدفع لها نفقات الغرفة والطعام في بيت ماريا ماشادون. وذات ليلة تغيَّب لاعب في حلقة البوكر، فأخذ الورق ولعب حتى المساء. ثم راح يجلس إلى الطاولات. ويتحدث مع الأصدقاء، وينازع الآخرين لعب الداما والغامون، ويعقب على الأخبار ويناقش في السياسة، ويضحك للنكات، ثم يرويها أيضاً. ويقول إن في بلاد أبيه كان الأمر أسوأ، وكل ما كان يجري في إيليوس يجري أيضاً هناك بشكل أسوأ.

لم يعد يراها في الحانة، وبوسعه أن ينام في سريره. إنما كان عطر القرنفل وحده الذي لا يزال يشعر به. ولم يكن قد دُعي بهذه الكثرة قبلاً، إلى تناول الغداء والعشاء، والمآدب في بيت ماريا ماشادون، وإلى ليالي القصف مع نساء تحت أشجار جوز الهند في بونتال، كأنهم يحبونه الآن أكثر، ويقدرونه أكثر ويحترمونه أكثر.

لم يفكر قطُّ أن ينتهك القانون. فبدلاً من أن يقتلها، تركها تمضي بسلام. وبدلاً من أن يطلق الرصاص على تونيكو اكتفى بتسديد لكمة إليه. تخيل أن حياته ستكون من الآن فصاعداً كجحيم. ألم يفعلوا هكذا مع الدكتور فيليسمينو؟ أولم يرفضوا إلقاء التحية عليه؟ ألم يلقبوه بـ«الثور الهادئ»؟ أولم يجبروه على الرحيل عن إيليوس؟ لأن الطبيب لم يقتل زوجته وعشيقها. فالقانون لم ينفذ. والحقيقة هي أنه، نسيب، أبطل زواجه، في الحاضر والماضي. لكنه لم ينتظر أن يدركوا ذلك ويتقبّلوه. فقد كانت لديه رؤية عن الحانة وهي مقفرة من دون زبائن، وأيدي الأصدقاء ترفضه، وضحكات الهزء به، والصفعات على ظهر تونيكو تهنئه، لكونه سخر من نسيب. فلم يحدث شيء من هذا. إنما الذي حدث خلاف ذلك. فلا أحد تكلم على المسألة، وحينما كانوا يشيرون إليها عرضاً، كان ذلك لإطراء دهائه وحذاقته، وبالطريقة التي أخرج بها نفسه من ذلك الإشكال، وكانوا يضحكون ويسخرون، إنما ليس من نسيب، نعم، بل من تونيكو، هازئين من الكاتب العدل، مع الثناء على حكمة العربي.

وانتقل تونيكو إلى حانة العرق الذهبي مع مشروبه المر اليومي. إذ إن بلينيو أراسا نفسه وجد وسيلة ليفرك في وجهه ما أعلنه نسيب عنه. هذا من دون الكلام على اللكمة التي وجهها اليه جوزويه بقصيدته الهجائية التي تنتقده شعراً ونثراً.

وعن غابرييلا لم يتكلم أحد، لا خيراً ولا شراً، كأنها فوق جميع التعليقات، أو كأنها لم تكن بعد الآن موجودة. فلم ترتفع الأصوات ضدها. حتى أن بعضهم دافعوا عنها. وفي النهاية، هي مجرد عشيقة في منزل مخصص لها، ولديها شيء من الحق في اللهو، لم تكن متزوجة، ولم يكن لها كبير أهمية.

كانت لا تزال في بيت الدونا آرميندا، ولم يعد نسيب يراها. عرف من القابلة أنها كانت تخيط ثياباً لمشغل دورا المزدهر. وعرف من آخرين بالعروض التي تنهال عليها كهطل المطر، في قصاصات من الورق، رسائل وبطاقات. بعث إليها بلينيو أراسا يقول، إنه يقدم لها مرتباً شهرياً، وعاد مانويل داس أونساس مجدداً إلى الدوران حولها. وريبيرينيو أيضاً. وكان القاضي مستعداً لأن يقطع علاقته مع عشيقته، ويخصص لها بيتاً. وحسب ما يقال حتى العربي معلوف، الشديد الرصانة ظاهرياً، كان مرشحاً. والغريب في الأمر أن أياً من العروض لم يكن قادراً على إغرائها. لا بيت ولا حساب في المتجر، ولا حقل مزروع بالكاكاو ولا مال موظف. فقد كانت تخيط لدورا.

إنها خسارة جدية للحانة. فالخلاسية السوداء تعد له طعاماً من دون طعم. والأطعمة المالحة والحلوى تأتي مرة أخرى من عند الشقيقتين دوس ريز، الفاحشتي الثمن، وتفعلان ذلك، فوق كل هذا، كخدمة تؤديانها له. ولم يعثر نسيب على طاهية. يفكر في المطعم، أوصى باستقدام طاهية من ولاية سيرجيبي، لكنها لم تصل بعد. واستخدم فتى يدعى فالتر، لم يكن قد مارس العمل في الحانات، ولا يحسن الخدمة. إنها خسارة لعينة.

وفي ما خص مشروع المطعم، فالشيطان يكاد أن يأخذه. خلال فترة من الوقت، لم يكترث للحانة وللمطعم. فالمحاسبان انتقلا من الطابق الفوقي حينما كان نسيب لا يزال في ذلك المظهر الأول، من اليأس، وعندما كان غياب غابرييلا هو الواقع الوحيد الذي يملأ له فراغ الأيام. لكن، مع استكمال الشهر الأول على الطابق غير المشغول، بعث إليه معلوف وصلاً بالإيجار، فدفع. وكان عليه أن يفكر في المطعم الذي يؤجله حتى الآن. وذات مساء استدعاه مونديني فالكون برسالة، إلى مكتبه في مؤسسة التصدير. وقد استقبله بحفاوة تليق بالصداقة الوطيدة. فمنذ وقت ومونديني لا يحضر إلى الحانة. كان يجوب المنطقة الداخلية، في حملته الانتخابية. لمحه نسيب مرة في الكباريه. تكلما فقط، فقد كان مونديني يرقص.

«حسناً، كيف هي الحياة معك يا نسيب؟ هل أنت ناجح دائماً؟

- عائش.»

وليصفي المسألة تكلم مستطرداً:

«لا بد أنك قد علمت بما حدث. فأنا رجل عازب من جديد.

- كلّموني في الأمر. ما فعلته كان رائعاً. لقد تصرفت كأوروبي. كرجل من لندن، من باريس - كان يتطلع إليه بتعاطف - لكن قل لي شيئاً واحداً، يظل في ما بيننا هنا: لا يزال يؤلمك قليلاً في داخلك، ألا يوجع؟»

إنتفض نسيب، لماذا يسأله ذلك. وواصل موندينيو كلامه:

«أعلم كيف هو الأمر. فقد حدث معي أمر لا أقول إنه مشابه، لكنه يماثله بطريقة معينة. ولهذا السبب جئت إلى إيليوس. ومع الوقت التأم الجرح. لكنه من وقت لآخر، لا يزال يؤلم. حينما يهدد الطقس بالمطر، أليس كذلك؟»

وافق نسيب، شاعراً بالعزاء. فمن المؤكد أن ما حدث لموندينيو فالكون كان مسألة مشابهة لما حدث له. المرأة المحبوبة تخونه مع رجل آخر. لكن هل كان قد عقد عليها زواجاً أو دون زواج؟ كاد يسأله. فهو يشعر أنه بصحبة طيبة.

حسناً، يا عزيزي، أريد أن أكلمك على المطعم. كان ينبغي أن يدشن. والحقيقة هي أن الأشياء الموصى عليها من الريو لم تصل بعد، لكنها مخزَّنة هنا. فقد أُنزلت من باخرة تابعة لشركة إيتا، ولم أشأ أن أزعجك بهذا، إذ كنت مكتئباً، لكن في النهاية، لقد مضى حوالى شهرين على انتقال المستأجرين الأخيرين من الطابق. وحان الوقت لنفكر في العمل. أم أنك قد عدلت عنه؟

«كلا أيها السيد. لماذا ينبغي أن أعدل عنه؟ إنما في البداية لم أستطع التفكير. والآن كل شيء على ما يرام.

- حسناً إذاً، لنتجه إلى الأمام. إعط الأوامر بتجديد القاعة، وتسلم الأشياء الموصى عليها من الريو. ولنر ما إذا كنا ندشنه في مطلع شهر نيسان.

- بوسعك أن تكون مرتاحاً.»

وعند عودته إلى الحانة، استدعى عامل البناء والدهان وكهربائياً. ناقش خطط التجديد وهو زاخر بالحماسة من جديد، مفكراً في المال الذي سيكسبه. فإذا سار كل شيء حسناً، مع سنة على أبعد تقدير، يستطيع الحصول على حقل الكاكاو الذي يحلم به.

في كل تلك القصة، لم يتصرف بشكل سيىء إلا شقيقته وصهره. فقد قدما إلى إيليوس حالما عرفا بالنبأ. وأعلمته أخته: «أما قلت لك؟». والصهر كان يضع خاتم الدكتور في إصبعه وسمة الاشمئزاز على وجهه كمن يعاني ألماً في معدته. تكلما بالسوء على غابرييلا، وأبديا حسرة على نسيب، فيما هو يلوذ بالصمت، مع الرغبة بقذفهما خارج البيت. وتفحصت أخته وهي تنفض الخزانات، الفساتين، الأحذية، الغلالات، التنانير والأوشحة، إن بعض الفساتين لم تضعها غابرييلا على جسدها، فهتفت قائلة:

«هذا جديد، لم يستعمل البتة، إنه يناسبني تماماً.

- دعيه. لا تعبثي بهذه الأشياء. زجرها نسيب بغضب»

- وهذا أيضاً!»

شعرت السيدة سعد ده كاسترو بالإهانة. فأردفت:

- ترى هل هي ثياب قديس؟

عادا إلى أغوا بريتا. ذكره طمع أخته بالمال الذي أنفقه على الثياب، الأحذية، الحلي. يكفي أن يأخذ الحلي إلى حيث ابتاعها، ويتنازل عنها لقاء خسارة ضئيلة. والفساتين بوسعها أن تباع في متجر عمه. وزوجا الأحذية الجديدان أيضاً. إنما لم ينتعلا قطّ. كان هذا ما ينبغي أن يفعله. لكنه خلال بعض الوقت كان قد نسي الفكرة، ولم يتطلع إلى الخزانات المغلقة.

وفي اليوم الذي تلا حديثه مع موندينيو، وضع الحلي في جيب سترته، وأعد لفتين بالفساتين والحذاءين. مر بالصائغ، وبعد ذلك بمتجر عمه.

عن الأفعى الزجاجية

في نهاية بعد الظهر، في ذلك الغسق الذي لا ينتهي في الحقول، حينما تتحول الظلال إلى خيالات في الغابات وأشجار الكاكاو، ويهبط الليل ببطء كأنه يطيل نهار العمل الشاق، كان فاغونديس وكليمينتي قد انتهيا من الزرع.

«كل شيء الآن مدفون في الأرض.» قال الزنجي وهو يضحك.» إنها أربعة آلاف غرسة من الكاكاو للكولونيل ليثرى أكثر مما هو ثري.»

أجابه الخلاسي كليمينتي الذي فقد فمه طعم الابتسام:

«وهي لنا لنشتري قطعة الأرض من الآن إلى ثلاث سنوات.»

بعد الطلق الناري المحبط على أريستو تيليس، والاستماع إلى تقريع ميلك («ظننت أنك تحسن إطلاق الرصاص بالفعل. إنك لا تصلح لشيء») الذي يسمعه صامتاً (ماذا بوسعه أن يجيب؟ أخطأ في التصويب، كيف حدث ذلك؟) تسلم المكافأة الزهيدة («اتفقت معك على تصفية الرجل وليس على إصابته بجرح. ومع هذا فإني طيب أكثر من اللازم لكوني أدفع لك»).

وافق فاغونديس على العمل المأجور مع كليمينتي. وبشأن الخطأ في التصويب، اكتفى بالتوضيح للكولونيل:

- لم يكن قد حان اليوم المقرر له ليموت. فلكل واحد أجله - أشار إلى السماء- المحدد هناك فوق.

كان العمل المأجور لاقتلاع عشر تعريفات من الغابة، وإضرام النار فيها، وفلاحتها ثم زرعها بأربعمائة غرسة من شجر الكاكاو لكل تعريفة، ورعاية نموها طوال ثلاث سنوات. وبين أغراس الكاكاو، زرعا المانيهوكا، الذرة، البطاطا الحلوة والإنيام. ومن هذه الزراعات الزهيدة كان عليهما أن يعيشا خلال السنوات الثلاث. وفي نهاية العمل المأجور، يعطيهما الكولونيل ألفاً وخمسمائة ريال لقاء كل غرسة

من الكاكاو تبقى نامية. وبهذا المال كان كليمينتي يحلم بشراء أرض ليزرعاها هما الاثنان. أي أرض يستطيعان شراءها بهذا المال الزهيد جداً؟ إنها تفاهة، قطعة صغيرة من الأرض الرديئة.

كان الزنجي فاغونديس يفكر بأنه إذا لم تبدأ مجدداً المشاغبات التي يتحدثون عنها، فمن الصعب، والصعب جداً، التوصل إلى شراء قطعة أرض، حتى ولو كانت رديئة. وبالمنيهوكا والذرة، والبطاطا الحلوة والآيبين، لن يتمكنا من العيش. يأكلان فقط. أما الذهاب إلى الدسكرة، والنوم مع إحدى الغانيات، والقيام بعراك، وإطلاق بعض الطلقات النارية في الهواء، فلن يتمكنا منه. كان يجب أن يأخذا نقوداً مقدماً. وفي نهاية السنوات يتسلمان رصيدهما المتبقي، وأحياناً لا يبلغ نصف قيمة العمل المأجور. أين وضعوا هذه المشاغبات التي قد بدأت؟ ثمة هدوء، ولا أحد يتكلم، مسلحو ميلك كانوا قد عادوا مع فاغونديس عند الفجر في قارب.

وكان الكولونيل يسير مستوحشاً، وهو أيضاً كان قد فقد طعم الضحك. وفاغونديس يعرف لماذا. ففي الحقل يعرفون أخباراً سُمعت في كاشويرا دو سول. إن الابنة، تلك المعتزة بنفسها والتي عرفها فاغونديس، قد تركت الثانوية، وهي تهيم برجل متزوج. المرأة حيوان شقي، إنها تعكّر حياة جميع الناس. لو لم تكن هي المرأة والابنة والأخت... ألا يعيش كليمينتي خافض الرأس يقتل نفسه في العمل، ويبقى في الليل عند باب البيت المبني من الطين المجبول، يقتعد حجراً، وينظر إلى السماء، منذ أن علم من فاغونديس القادم من إيليوس، أن غابرييلا قد تزوجت بصاحب حانة، وهي الآن سيدة تضع خاتماً في إصبعها، وسناً ذهبية وتصدر الأوامر للخادمات؟ أخبره الزنجي بوقائع الهروب، المطاردة في المرتفع، الجدار الذي قفز فوقه، اللقاء مع غابرييلا المتزوجة، وكيف أنقذت حياته.

كانا يحرقان الغابة، يدفعان الحيوانات المذعورة إلى الركض هاربة من أمام

النار. خنازير برية، أعداد من الكايتيتو، الباكا، الوعول، التيو والجاكو وعالم من الأفاعي: جاراراكس، كاسكافيس وسورو كورو، وكان عليهما بعد ذلك أن يسويا الحقل بانتباه، فبين الآجام تتوارى الرؤوس الغادرة للثعابين، مع نابٍ مسلح للوخز. إنه موت أكيد.

عندما كانا يبدآن زرع أغراس الكاكاو الهشة، استدعاهما الكولونيل، وكان يضرب جزمته بالسوط، على شرفة منزله. نظر إلى الزنجي فاغونديس بعينيه المستغرقتين بالتفكير والحزينتين منذ فرار مالفينا، وتكلم بصوت مشحون بالغضب:

«إستعد أيها الزنجي... فذات يوم من هذه الأيام سآخذك مجدداً إلى إيليوس. يلزمني رجل متمكّن في المدينة.»

هل يكون ذلك لقتل الشخص الذي أخذ ابنته؟ ليطلق النار عليه، ومن يدري إذا كان سيطلق النار على الفتاة؟ كانت فخورة، تشبه صورة قديس. لكنه، فاغونديس، لن يقتل امرأة، أو أن المشاغبات قد بدأت من جديد؟ فسأله:

«هل هو عراك مرة أخرى؟ - ضحك - هذه المرة لن أخطىء.

- من أجل أيام الانتخابات. إنها تقترب. يجب أن نكسب. حتى ولو كان ذلك بفوهة البندقية.»

نبأ حسن بعد كل هذا الوقت الطويل من الهدوء. عاد إلى الزرع بحماسة جديدة. وكانت الشمس المحرقة سوطاً على ظهره. وأخيراً كانا قد أنهيا زرع أربعة آلاف غرسة كاكاو تغطي الأرض حيث الغابة العذراء، المذعورة.

وحينما رجعا إلى البيت، والمجرفتان على كتفيهما، تحدثا، كليمينتي والزنجي فاغونديس. كان الغسق يحتضر، والليل ينساب من داخل الحقول جالباً مع الرجال الذين يتحولون إلى ذئاب، بغال الكاهن، أرواح الموتى في الكمائن القديمة. ومرت خيالات بين أشجار الكاكاو، وفتحت طيور البوم أعينها الليلية.

«ذات يوم من هذه الأيام، سأعود إلى إيليوس. هناك الأمر خليق بالعناء. يوجد

نساء كثيرات في كباريه باتي فوندو وكل واحدة أجمل من الأخرى. سوف أشبع - ضرب بطنه السوداء، ذا السرة الناتئة. - وهذا البطن سيغدو مشرّفاً لكثرة ما سوف يلامس من بطون النساء البيض.

- ستذهب إلى إيليوس؟

- قلت لك بالأمس: إن الكولونيل أنذرني. ستجري انتخابات، ونحن سنكسبها بالرصاصة. إني أعلن ذلك، ولا ينقصني إلا الأمر بركوب الزورق.»

كان كليمينتي يفكر، كأنه يجتر فكرة. وقال فاغونديس:

«هذه المرة سأعود بالمال. لا يوجد عمل، تجارة، أفضل من ضمان الانتخاب. يوجد أكل وشراب، حفلة للاحتفال بالفوز. والمال يتدفق إلى جيوب الناس. بوسعك أن تحسب: هذه المرة سأجلب ألف ريال لك لنحصل على قطعة الأرض.»

وقف كليمينتي في الظل، ووجهه في العتمة، ثم سأله:

«كان بوسعك التكلم مع الكولونيل ليأخذني أيضاً.

- لماذا تريد الذهاب؟ فلست رجل عراك... إن ما تحسن عمله هو فلاحة الأرض، الزرع والحصاد. تريد الذهاب، لماذا؟.»

عاد كليمينتي إلى المشي، ولم يجب. فكرر فاغونديس:

«لماذا؟ - ثم تذكر - لترى غابرييلا؟»

كان صمت كليمينتي إجابة. وتزايدت الظلال، لن تلبث أن تأتي بغلة الكاهن من الجحيم، طليقة في الغابة، تمر راكضة والجماجم تُضرب بالحجارة، وبدلاً من الرأس، تخرج نار من الرأس المقطوع.

«ماذا ستكسب، أي فائدة ستجنيها من رؤيتك لها مرة أخرى؟ إنها سيدة متزوجة، أجمل مما كانت في أي وقت مضى. ولم تغير من طبيعتها مع الزواج، فهي تتكلم مع الناس بالطريقة نفسها. لماذا تريد أن تراها؟ إن ذلك لا يفيد.

- لأراها فقط، لأراها مرة أخرى، فأختلس النظر إلى وجهها، أتحسس رائحتها، لأراها وهي تضحك، فأتعلم مرة أخرى.

– إنك قد زرعتها في فكرك. فأنت لا تفكر إلا بها. لقد لاحظت أنك الآن تتكلم على قطعة الأرض لمجرد الكلام، بعد أن عرفت بأمر الزواج. فلماذا تريد رؤيتها؟»

خرجت أفعى زجاجية من الغابة، وزحفت على الطريق. كان جسدها الطويل يلمع في الظل المنتشر. كانت جميلة وخليقة بالرؤية. تبدو معجزة في ليلة الحقل.

تقدم كليمينتي، وأحنى المجرفة ثم قطع الأفعى الزجاجية ثلاث قطع. وبالطعنة الرابعة سحق رأسها.

«لماذا فعلت ذلك؟ فهي ليست سامة... لا تؤذي أحداً.

– إنها جميلة أكثر من اللازم، لهذا السبب وحده، فهي تؤذي.»

سارا صامتين قسماً من الطريق. وقال له الزنجي فاغونديس:

– على الناس ألا يقتلوا المرأة، حتى ولو كانت الشقية تشقي حياة الناس.

– من تكلم على القتل؟»

إنه لن يفعل ذلك أبداً، فليست لديه شجاعة ولا قوى لديه. لكنه كان قادراً على أن يعطيها عشر سنين من عمره، الأمل بقطعة الأرض، ليراها مرة أخرى، مرة واحدة فقط، ليسمع ضحكتها. كانت أفعى زجاجية. ليست سامة، لكنها تبذر الأسى. يكفي أن تمرّ بين الرجال مثل الغموض، كمعجزة. وعلى جذوع الأشجار في عمق الغابة، كان نعيب طيور البوم ينادي غابرييلا.

عن الأجراس التي تُقرع للموتى

لم يبلغ الأمر بالمسلحين حد النزول من الحقول. لا جماعة ميلك، وجيزوينو، وأمانسيو ليال، ولا رجال ألتينو وأريستوتيليس وريبيرينيو. فلم يكن ذلك ضرورياً.

وأخذت تلك الحملة الانتخابية أيضاً ملامح جديدة، غير معلنة، لإيليوس، إيتابونا، بيرانجي، آغوبريتا ولمنطقة الكاكاو. قبلاً، كان المرشحون وهم متأكدون

من الفوز، لا يظهرون، في حين أن الكثيرين يزورون الكولونيلات الأكثر قدرة، أصحاب الأرض الأكثر اتساعاً والأكثر عدداً بأغراس الكاكاو. في هذه الحالة كان الأمر مختلفاً. فإن أحداً لم يكن متأكداً من أنه سينتخب، وكان الصراع سيجري على الأصوات...

من قبل، كان الكولونيلات يقررون حسب أوامر راميرو باستوس. أما الآن فكل شيء كان مضطرباً. فإذا كان راميرو لا يزال مسيطراً في إيليوس، ويصدر أوامره للمحافظ، ففي إيتابونا كان عدوه أريستوتيليس هو الذي يسيطر. قد يتواجد بعض ممن يؤيدون حكومة الولاية. والحكومة من سيؤيدها بعد الانتخابات؟ إن موندينيو لن يسمح لأريستوتيليس بأن يقطع علاقته بالحاكم.

ففي الحانات ومكتبة قرطاسية موديلو، وفي الأحاديث عند سوق السمك، كانت الآراء منقسمة. بعضهم يؤكدون أن الحكومة ستواصل دعم نفوذ راميرو باستوس، ولن تعترف إلا بمرشحيه حتى ولو هُزموا. ألم يكن الكولونيل العجوز أحد داعمي الوضع الإيالي، أولم يؤيدها في اللحظات العصيبة؟ وآخرون كانوا يرون أن الحكومة ستبقى مع من يفوز في فوهات أقلام الاقتراع. والحاكم كان في نهاية عهده، والآمر الجديد سيحتاج إلى التأييد ليدير الحكم. ويقولون إن موندينيو لو كسب، فالحاكم الجديد سيعترف به، وهكذا سيسود الأمر في إيليوس وإيتابونا. فآل باستوس لم يعودوا يساوون شيئاً. كانوا تفلاً، لا يصلحون إلا لأن يُطرَحوا خارجاً، وفريق ثالث يفكر بأن الحكومة ستحاول مسايرة الفريقين. إنها لن تعترف بموندينيو، تاركة الطبيب ابن الريو يواصل امتصاص مخصصه كنائب اتحادي. وفي المجلس الإيالي سيبقى ألفريدو باستوس. وكمقايضة، ستعترف بالنقيب الذي لن يشك أحد بفوزه. ومن الواضح أن محافظ إيتابونا سيكون مرشح أريستوتيليس وأحد عرّابيه، ليستمر هو في الإدارة. ومن جهة أخرى يتوقعون أن تقدم الحكومة لموندينيو منصب الشيخ الإيالي الذي سيشغر عندما يموت راميرو. وأخيراً، فإن العجوز قد احتفل ببلوغه العام الثالث والثمانين.

«سوف يعيش مئة عام...»

- هذا أكيد. وموندينيو سوف ينتظر طويلاً شغور المركز في مجلس الشيوخ.»

وهكذا ستكون علاقة الحكومة طيبة مع الطرفين، وستعزز مواقعها في جنوب الولاية.

- سوف تحكم بالأحرى الطرفين...

فيما كان السكان يفترضون ويناقشون، كان المرشحون من كلا المعسكرين، يضاعفون جهودهم من زيارات وأسفار وعمادات بكثرة وهدايا وندوات وخطب. لم يكن يمر يوم واحد من دون ندوة في إيليوس وفي إيتابونا وفي الدساكر. لقد ألقى النقيب أكثر من خمسين خطاباً. إنه يلقي بصوت أبحَّ، مكرراً مقاطع مدوّية. يعد بمشاريع واعتمادات وإصلاحات عظيمة في إيليوس وبطرق وتحسينات، ليكمل الإنجاز الذي بدأه والده، كازوزا ده أوليفييرا الذي لا يُنسى. والدكتور ماوريسيو لم يفعل أقلَّ منه. وفي حين كان النقيب يتكلم في ساحة سيابرا، كان هو يستشهد بالتوراة في ساحة روي باربوزا. ويؤكد جوان فولجنسيو:

- لقد حفظت العهد القديم كله عن ظهر قلب، لكثرة ما سمعت من خطب ماوريسيو. فإذا كسب هو، يا أبنائي، ستعود قراءة الكتاب المقدس إلزامية في إنشاد جماعي، يومياً في الساحة العامة، بقيادة الأب سيسيليو. ومن سيعاني أكثر، هو الأب باسيليو. فكل ما يعرف من الكتاب المقدس هو أن الرب قال: «جعلتكم تتزايدون وتتضاعفون».

لكن فيما كان النقيب والدكتور ماوريسيو كاييريس يختصران جولاتهما على المدينة والدساكر والقرى التابعة للمحافظة، كان موندينيو وألفريدو وإيزكييل يسافرون إلى إيتابونا، وفيراداس، وماكوكو، راكضين في منطقة الكاكاو، إذ إنهم يعتمدون على أصوات المنطقة بأجمعها. حتى الدكتور فيتور ميلو، المذعور من الأنباء الواردة من الريو مشيرة إلى أن إعادة انتخابه أمر غير محتمل، أبحر على متن

باخرة تابعة لشركة إيتا إلى إيليوس، ليكذّب أهالي الكاكاو المتعجرفين هؤلاء، هاجراً عيادته الأنيقة حيث يعالج أعصاب السيدات الضجرات، تاركاً فرنسيات فرقة الأشوري معجبات به، فتيات الكورس في الفرق الاستعراضية، لكن ليس قبل أن يسال إيميليو مينديس فالكون، زميله في الحزب الجمهوري، والنائب عن سان باولو:

- من هو قريبك هذا الذي صمم على أن ينازعني مقعدي في إيليوس؟ شخص يدعى موندينيو، هل تعرفه؟

- إنه أخي الأصغر، وقد عرفت بذلك أيضاً.

إرتعب عند ذلك النائب عن منطقة الكاكاو. فإذا كان شقيق إيميليو ولوريفال، فإن انتخابه - والأسوأ - الاعتراف به يشكلان خطراً. وقال عنه إيميليو:

- إنه مجنون. ترك كل شيء هنا، وذهب ليشبك نفسه في نهاية العالم ذاك، وفجأة، ظهر مرشحاً. كان يقول إنه سيأتي إلى المجلس لغاية وحيدة، وهي مقاطعتي عند إلقاء خطبي... - ضحك وسأل - لماذا لا تنقل دائرتك الانتخابية؟ فموندينيو ولد مرعب قادر على أن يصير منتخباً.

كيف ينقل دائرته الانتخابية؟ كان محمياً من الشيخ، إنه خاله، مستفيداً من ذلك المقعد في الدائرة السابعة الانتخابية في باهيا. فالدوائر الانتخابية الأخرى كانت كلها غير شاغرة. فمن يرضى مبادلته؟ هل يتنافس مع شقيق لوريفال مينديس فالكون، المالك الكبير للقهوة الذي يملي أوامره على رئيس الجمهورية؟ أبحر بسرعة إلى إيليوس.

كان جوان فولجنسيو متفقاً مع نيوغالو:

«أكبر إفادة بوسع النائب فيتور ميلو أن يؤديها لمسألة ترشيحه، هو أن لا يأتي إلى إيليوس. فهو يعني نمطاً من الناس أكثر سماجة في الدنيا.

- إنه باعث على التقيؤ... قال نيوغالو.»

كان عسير النطق، خطبه ذات نقاط نهاياتها طبية («تفوح من خطبه رائحة

الفورمول» الكريهة... كما يوضح جوان فولجنسيو) بصوته المقرف، المخنّث، ستراته غريبة وذات أحزمة، ولكان اتهم بالشذوذ لو لم يكن جريئاً مع النساء.

«إنه تونيكو باستوس مرفوعاً على منصة.» قال نيوغالو.

وكان تونيكو يقضي وقتاً في باهيا مع زوجته، في التنزه، منتظراً أن تنسى المدينة كلياً مغامرته المحزنة. لم يشأ التورط في الحملة الانتخابية، فالخصوم يستطيعون استغلال قضيته مع نسيب. ألم يعلقوا بمسمار، على جدار منزله رسماً بقلم ملون يظهره راكضاً وهو لا يرتدي إلا سرواله الداخلي - يا للخزي، يخرج بالسروال الداخلي! - وهو يصرخ طالباً النجدة؟ مع أشعار قذرة، مكسورة الوزن، أدناه:

«تونيكو مبولة

دون جوان بيت دعارة

لاطوا به كليّاً بشكل مضحك.

- هل أنت حقاً امرأة متزوجة؟

- أنا عشيقة فقط

ثم نال لكمة

تونيكو مبولة».

من كان يستحق لكمة ايضاً، لا بل طلقاً نارياً، هو النائب الدكتور فيتور ميلو، بهيئته كنجم مجتمع، وأنفه الملتوي، وتجربته مع سيدات الريو، وزبوناته المتوترات عصبياً اللواتي كنَّ يبرأن على الكنبة في عيادته، وحالما يرى امرأة جميلة يشرع في تقديم العروض لها. ولم يكن يكترث للزوج مهما كان. فقد أُقيمت حفلة في نادي التقدم ولم يُضرب لأن ألفريدو باستوس دخل في الوقت المناسب، حينما هم المغتاظ مواسير أستريلا، الشريك في شركة الأوتوبيسات، بتسديد ذراعه على الوجنتين النبيلتين للبرلماني فيتور. كان هذا قد رقص مع زوجة مواسير الجميلة والمتواضعة، وهي امرأة بدأت تتردد إلى قاعات نادي التقدم معتمدة على النجاح الحديث العهد لزوجها. فتحررت السيدة منه وسط القاعة، وهي تحتج بصوت مرتفع:

- غير معقول!

وأخبرت الصديقات أن النائب كان طوال الوقت يضع فخذه بين فخذيها، ويضغط على صدرها كأنه بدلاً من الرقص يرغب أمراً آخر. وروت جريدة دياريو ده إيليوس الحادثة، عن الاعتداء الصارخ والصريح للدكتور، تحت عنوان: «الفأر المطرود من الحفلة الراقصة بسبب الخزي». لم يحدث طرد بالضبط. فألفريدو باستوس أخذ النائب معه، إذ إن المتحمسين كانوا منفعلين. وعند وقوف الكولونيل راميرو على هذه الحادثة وغيرها، اعترف لأصدقائه:

- كان أريستوتيليس هو المصيب. فلو عرفت بهذا قبلاً، لما تشاجرت معه خاسراً إيتابونا.

وفي حانة نسيب أيضاً كان ثمة عراك مع النائب. ففي إحدى جولات النقاش، فقد الرجل التافه عقله، وقال إن إيليوس بلد المتوحشين، ذوي التهذيب السيىء، من دون أي درجة من الثقافة. وهذه المرة كان الذي أنقذه هو جوان فولجنسيو. فقد أراد جوزويه وآري سانتوس اللذان شعرا أنهما مهانان، أن يسددا إلية اللكمات وكان من الضروري أن يستخدم جوان فولجنسيو كل سلطته لتجنب الشجار. وكانت حانة نسيب معقلاً لموندينيو فالكون. وقد شارك شريك المصدّر وعدو تونيكون، العربي (مواطن برازيلي بالولادة وناخب) في الحملة. وما يدهش أكثر، أنه في تلك الأيام المليئة بالمهرجانات، وفي أكبرها، عندما ضرب الدكتور إيزكييل جميع الأرقام السابقة في العرق والوحي، ألقى نسيب خطاباً. عصف شيء ما في داخله، بعد أن أصغى لإيزكييل، فلم يتحمل، وطلب إعطاءه الكلمة. كان نجاحاً لم تكن له سابقة، وفوق كل هذا، لأنه بدأ في برتغالية تنقصها الكلمات الجميلة المنتقاة بصعوبة في ذاكرته، وانتهى بالعربية، في دفق من المفردات تنساب بسرعة مؤثرة. ولم ينته التصفيق.

قال عنه جوان فولجنسيو:

«إنه الخطاب الأكثر إخلاصاً والأشد إيحاءً في الحملة الانتخابية كلها.»

لقد توقف كل هذا الهيجان في صباح جميل ذي ضوء لازوردي، بينما كانت حدائق إيليوس تفوح بالعطر، والعصافير تغرد وتحيي ذلك البهاء الوافر. كان الكولونيل راميرو ينهض باكراً جداً. والخادمة الأكثر قدماً في المنزل، منذ حوالى أربعين عاماً، وهي مع آل باستوس، تقدم له فنجاناً صغيراً من القهوة. وكان العجوز يجلس على الكرسي الهزاز، ويفكر في سير الحملة الانتخابية، ويقوم بحساباته. كان قد ألف فكرة بقائه في الحكم بفضل الاعتراف الموعود من الحاكم، وقطع رؤوس خصومه المنتخبين. في ذلك الصباح انتظرت الخادمة ومعها فنجان القهوة، فلم يحضر. فأيقظت جيروزا وهي مذعورة، ووجدتاه ميتاً وهو مفتح العينين، ويده اليمنى تمسك بالشرشف. فقطعت غصة صدر الفتاة، وبدأت الخادمة في الصراخ: «مات الذي كان يحميني!».

أشادت جريدة دياريو ده إيليوس وهي مفعمة بالسواد، بالكولونيل: «في ساعة الحداد والألم هذه تتوقف جميع الخلافات. فالكولونيل راميرو باستوس كان رجل إيليوس العظيم. وله تدين المدينة، المحافظة والمنطقة بالكثير مما تملكه. «إن التقدم الذي نفخر به اليوم، والذي من أجله نتحرك، من دون راميرو باستوس لن يتواجد». وفي الصفحة ذاتها، بين إعلانات جنائزية كثيرة أخرى - عن العائلة وعن المحافظة وعن الجمعية التجارية وعن أخوية القديس جرجس وعن عائلة أمانسيو ليال وعن السكة الحديد إيليوس - كونكيستا - نُشر إعلان عن الحزب الديمقراطي في باهيا (فرع إيليوس) يدعو جميع المناصرين إلى الاشتراك في جنازة «رجل الدولة الذي لا ينسى، الخصم الوفي والمواطن النموذجي» موقّع من رايموندو مينديس فالكون، كلوفيس كوستا، ميغيل باتيستا ده أوليفيرا، بيلوبيداس ده أسونسون دافيلا والكولونيل أرتور ريبيرو.

واستقبل ألفريدو باستوس وأمانسيو ليال، في قاعة المقاعد ذات المتكآت المرتفعة حيث سُجي الجثمان، تعازي جمهور كان يصطف طوال الصباح وفترة بعد

الظهر. وأعلم تونيكو ببرقية، وعند منتصف النهار، دخل موندينيو فالكون، مصحوباً بإكليل هائل، البيت وعانق ألفريدو، وشدَّ بتأثر على يد أمانسيو. وكانت جيروزا الواقفة إلى جانب التابوت، ندية بالدموع على خدها الذي بلون الصدفة حاضنة اللؤلؤ. اقترب منها موندينيو، فرفعت عينيها ثم انفجرت في النشيج وهربت من القاعة.

عند الساعة الثالثة بعد الظهر، لم يعد المنزل يتسع لأحد، والشارع حتى الجوار، نادي التقدم والمحافظة، كانت تغص بالناس. ووصل إلى إيليوس، بكل ثقله، قطار خاص وثلاثة أوتوبيسات من إيتابونا. ووصل ألتينو براندون من ريو دو براسو وقال لأمانسيو:

– هكذا أفضل، ألا ترى حضرتك ذلك؟ مات قبل أن يخسر، مات ذا سلطان كما كان يحب. فقد كان رجلاً ذا رأي، من القدامى. وآخر من وُجد منهم.

وكان الأسقف وهو مصحوب بجميع الكهنة، والأخت الرئيسة لثانوية الراهبات مع الراهبات والطالبات المتخرجات في الشارع، ينتظرون خروج الجنازة. وإينوش مع جميع المدرسين والطلاب في ثانويته، مدرسو وطلاب المجمع المدرسي، الأولاد في مدرسة الدونا غيليارمينا الابتدائية، والمدارس الابتدائية الخاصة الأخرى. أخوية القديس جرجس، الدكتور ماوريسيو وهو يرتدي روباً أحمر، المستر وهو يرتدي اللباس الأسود، السويدي الطويل بلباس البحرية، الزوجان اليونانيان، مصدّرون ومزارعون، تجار (أغلقت المتاجر أبوابها علامة الحداد) أبناء الشعب المنحدرون من المرتفعات القادمون من بونتال وجزيرة الأفاعي.

وبصعوبة، مصحوبة بالدونا آرميندا، شقت غابرييلا طريقها إلى القاعة الغاصة بالأكاليل والناس. واستطاعت الاقتراب من التابوت، فرفعت المنديل الحريري الذي يغطي وجه الميت. رفعته لحظة، وبعدها انحنت على اليد البيضاء بلون الشمع وقبلتها. فيوم تدشين مذود الشقيقتين دوس ريز، كان لطيفاً معها وعلى مرأى من شقيقة زوجها وصهره الدكتور. ثم احتضنت جيروزا، فتعلقت بها الفتاة من عنقها

وشرعت تبكي. وبكت غابرييلا أيضاً. وأجهش أناس كثيرون في القاعة بالبكاء، وقرعت جميع الأجراس في الكنائس للموتى.

عند الساعة الخامسة خرجت الجنازة. لم يتسع الشارع للجمهور فانتشر في الساحة. وبدأت الخطب عند حافة الضريح - تكلم الدكتور ماوريسيو والدكتور جوفينال، وهو محام من إيتابونا والدكتور عن المعارضة: وألقى الأسقف بعض الكلمات - وكان لا يزال قسم من المشيعين يصعد لاديرا فيتوريا ليصل إلى المقبرة. وفي الليل، فيما كانت دور السينما مغلقة والكباريهات مطفأة الأنوار والحانات خاوية، بدت المدينة مقفرة، كأن الجميع قد ماتوا.

عن النهاية (الرسمية) للعزلة

العمل السري خطر ومعقد. ويفترض الصبر والفطنة والحيوية وروح متيقظة دائماً. وليس سهلاً الاحتفاظ بكامل الحذر الذي تتطلبه. فالصعوبة هي في أن تبقى بمنأى عن الاهمال الذي يصبح طبيعياً يوماً بعد يوم فيزداد الشعور بالأمان. ففي البداية كانت وسائل الحرص مغالى فيها، بيد أنها شيئاً فشيئاً أصبحت مهملة، الواحدة تلو الأخرى. وبدأ العمل السري يفقد طبيعته ويتعرّى من رداء الغموض، وفجأة، يصبح السر الذي يجهله الكثيرون أخيراً على أفواه الناس. وكان هو ما حدث لغلوريا وجوزويه.

غرام، غزل، عشق، حب - تصنيف العاطفة حسب ثقافة وحسن نية المعلق - كانت العلاقة المتواجدة بين المدرس والخلاسية، واقعة معروفة في إيليوس بأسرها. وكان الناس يتكلمون على ذلك ليس في المدينة وحسب، إنما في المزارع التائهة إلى جانب سلسلة جبال بافوريه. ومع هذا، فإن جميع وسائل الحرص في الأيام الأولى كانت تبدو غير كافية لجوزويه، علاوة على غلوريا. لقد أوضحت

لعشيقها السببين العميقين والمهمين لكونها ترغب في أن يظل شعب إيليوس بعامة، والكولونيل كوريولانو ريبيرو بخاصة، في جهل لهذا الجمال المغنى نثراً وشعراً من قبل جوزويه، ذلك الفرح المقدس والمشرق على خدي غلوريا. أولاً، أعمال العنف التي قام بها المزارع بدافع الغيرة، فلم يكن يغفر خيانة العشيقة له. فإذا كان يقدم لها ترفاً يليق بملكة، فإنه يصر على حقوق خاصة لقاء أفضاله. وغلوريا لم تكن ترغب في أن تجازف بنفسها لتنال ضرباً مبرحاً، ويُجَزّ شعرها مثلما حدث لشيكينيا. ولا تجازف بعظام جوزويه الهشة، إذ ضرب أيضاً جوكا فيانا الغاوي، وهو أيضاً جُزَّ شعره بالموسى. وثانياً، لأنها لم تكن تريد أن تفقد، مع الشعر والحياء، رفاهية المنزل المدهش، والحساب في المتجر والمخزن، والخادمة لأعمال الخدمة كافة، والعطور والمال المودع في الدرج والمغلق عليه بالمفتاح. وهكذا كان على جوزويه أن يتسلل إلى منزلها بعد أن يكون قد رجع إلى بيته آخر متسكع في الليل، ويخرج قبل أن ينهض أول مبكر عند الفجر. وكان يتجاهلها كلياً خارج هذه الساعات، حينما كانا، باندفاع وشره، يثأران لنفسيهما في السرير الذي يحدث صريراً، من كل ذلك الحصار.

ومن الممكن الاحتفاظ بتلك اللاشرعية الدقيقة أسبوعاً، خمسة عشر يوماً. وبعدها يبدأ عدم الحرص، فقدان المراقبة والانتباه، فقد بكّر قليلاً في الذهاب أمس، وبكّر قليلاً اليوم، ثم انتهى الأمر بجوزويه إلى أن دخل البيت اللعين وحانة يزوفيو تعج بالناس، حالما تنتهي حفلة سينما - تياترو إيليوس أو حتى قبل ذلك. وخمس دقائق من النعاس أكثر اليوم، وخمس دقائق من النعاس أكثر غداً، وانتهى بالخروج مباشرة من غرفة غلوريا إلى الثانوية، ليلفظ في الصفوف ما كُتب أمس. وأسرَّ البارحة لآري سانتوس («ابق هذا سراً بيننا...») واليوم أسر لنيو غالو («يا لها من امرأة!»)، والسر الذي يهمس به أمس في أذني نسيب («لا تخبر أحداً، حباً بالله»)، يهمس به في أذني جوان فولجنسيو («إنها إلهية، يا سيد جوان»)، وعلى الفور انتشرت قصة المدرس وعشيقة الكولونيل.

ولم يكن هو وحده الفاضح - كيف يحتفظ في قلبه بهذا الحب المتفجر فيه؟ - والوحيد الذي فقد حصافته - كيف ينتظر منتصف الليل ليتسلل إلى الفردوس الممنوع؟ - لم يكن الذنب كله ذنبه. ألم تبدأ غلوريا أيضاً في التنزه في الساحة، هاجرة نافذتها المتفردة، لتراه عن قرب أكثر، وهو جالس في الحانة، فتضحك له؟ ألم تكن تبتاع ربطات العنق، جوارب وقمصاناً رجالية، حتى سراويل داخلية، في المتاجر؟ ألم تحمل إلى الخياط بيترونيو، وهو أفضل الخياطين في المدينة وأكثرهم ارتفاعاً في الأسعار، بذلة لجوزويه ليفصلها ويخيطها، وليفصل له المعلم في الإبرة، بذلة أخرى من جوخ أزرق، ستكون مفاجأة بعيد ميلاده؟ أولم يثنوا عليه في قاعة النبلاء في المحافظة حينما قدّم أحد المحاضرين؟ أولم تختلف، هي المرأة الوحيدة بين ست قطط، سكارى، إلى جلسات أيام الآحاد في نادي روي باربوزا مجتازة، بوقاحة، العانسات الخارجات من قداس الساعة العاشرة؟

لقد علّقت، مع الأب سيسيليو، كينكينيا وفلورزينيا والقاسية دوروتيبا والمغتاظة كريميلديس ذات المؤخرة المثقوبة، على تكريس غلوريا نفسها للأدب:

«الأفضل لها أن تأتي لتعترف بآثامها...

- ربما ستكتب في الصحف يوماً ما...»

بلغ الهوس ذروته حينما ظهر جوزويه ذات يوم أحد، بعد الظهر، فيما الساحة تعج بالناس، من خلال نافذة مفتوحة بدون حرص، وهو يمشي بسرواله الداخلي في بهو غلوريا. وهتفت العانسات:

«هذا كثير. إن شخصاً محتشماً لا يستطيع المرور في الساحة مطمئناً.»

مع هذا، مع كثير من الأمور الجديدة والأحـداث في إيليوس، فإن ذلك «الانحلال» (مثلما تقول دوروتيبا) لم يشكل فضيحة، فقد كانوا يناقشون الأمور الأكثر خطورة وأهمية ويعقّبون عليها. وعلى سبيل المثال، بعد دفن الكولونيل راميرو باستوس، كانوا يرغبون في معرفة من سيأخذ مكانه، ويتسلم مركز الزعيم الشاغر.

بعضهم ارتأوا أن من الطبيعي والمحقق أن توضع الزعامة بين يدي الدكتور ألفريدو باستوس، ابنه، المحافظ السابق والنائب الإيالي الحالي. فوَزَنوا نقائصه ومزاياه. لم يكن الرجل اللامع وليس خليقاً بالسلطة، فلم يولد للسلطان. كان محافظاً دقيقاً، شريفاً، إدارياً منطقياً. وكان نائباً قميئاً. يصلح كطبيب أطفال فقط، فهو الأول في ممارسة معالجة أمراض الأطفال في إيليوس. متزوج بامرأة مملة ومدعية، كانت تزعم أنها تنحدر من عائلة نبيلة. استنتجوا كثيراً من التشاؤم بشأن مستقبل الحزب الحاكم وتقدم المنطقة إذا سُلّمت ليدين عاجزتين.

وكانوا قلة على كل حال، الذين تبينوا في ألفريدو خلفاً لراميرو. فالأغلبية العظمى اتفقت على الاسم الخطر الباعث على الاضطراب للكولونيل أمانسيو ليال. كان هذا هو الوريث السياسي لراميرو، وبقيت للأبناء الثروة، والقصص تروى للأحفاد، أسطورة الكولونيل الغائب. لكن قيادة الحزب تخص الشخص الثاني لراميرو فقط، غير المبالي بالمناصب، لكنه يشارك في جميع القرارات، ورأيه هو الرأي الوحيد الذي يقدره المرحوم صاحب البلاد. وكانوا يتهامسون بمشروع وضَعه الصديقان يوحّد عائلتي باستوس وليال من خلال زواج جيروزا ببيرتو حالما ينهي الفتى تحصيله العلمي. وتروي العجوز خادمة راميرو أنها قد سمعت العجوز يتكلم على هذه الخطة حتى قبل أن يموت بأيام. وعرف أيضاً أن الحاكم قد عرض على أمانسيو المقعد الشاغر في مجلس الشيوخ الإيالي مع موت عرّابه.

ما هو مصير منطقة الكاكاو، والقوة السياسية للحكومة في يديْ أمانسيو العنيفتين؟ من الصعب التصور، كيف يعالجهما رجل عديم التبصر، مغتصب ومناهض، وعنيد. ميزتان أشادا فيهما أصدقاؤه: الإقدام والوفاء. والآخرون انتقدوا عناده وانعدام صبره. واتفق الجميع على التنبؤ بنهاية مضطربة للحملة الانتخابية الجارية. فأمانسيو سيقود أعمال العنف.

وفي خضم مسائل مثيرة كهذه، كيف سيهتم أهالي إيليوس بقضية غلوريا

وجوزويه وهي تطول شهراً من دون حوادث؟ إنما العانسات وحدهن فقط، وهن يشعرن بالغيرة الآن من البهجة الدائمة المطبوعة على وجه غلوريا، كن لايزلن يخصصن لها تعليقاتهن. وكان ضرورياً وقوع حادث، مأسوي أو مثير ليكسر رتابة العاشقين السعيدة، لكي ينغمس فيه أهالي إيليوس. فلو عرف كوريولانو وقام بأحد أفعاله، هنا، أجل، فالأمر خليق بذلك. فلم يعد يقلقهم أن ينادى جوزويه بالجيغولو كما كان كثيرون قد دعوه في البدء، وأن يعلق على قصائده التي ينظمها، في تفاصيل دقيقة، في ليالي المخدع. بالنسبة إلى جوزويه وغلوريا، لن يرعويا إلا عندما يعلم كوريولانو بخيانة عشيقته. وسيكون الأمر إذ ذاك ممتعاً.

وحدث أن الأمر لم يكن ممتعاً. فقد وقع ليلاً، وفي وقت مبكر، عرضاً، حوالى الساعة العاشرة، حينما انتهت حفلات العرض في دور السينما، وحانة «فيزوفيو» تعج بالناس. كان نسيب يتنقل من طاولة إلى أخرى، معلناً قرب تدشين مطعم التجارة. كان جوزويه قد اجتاز باب غلوريا منذ أكثر من ساعة، إذ أهمل آخر دواعي الحرص، ولم يعد يكترث بالرأي الخلقي لدى العائلات ومواطنين معينين مثل الدكتور ماوريسيو. وبالأحرى، من يكترث بهذا حالياً؟

حدثت جلبة أحدثتها الطاولات والكراسي المدفوعة عندما ظهر كوريولانو في الساحة، مرتدياً ثياب رجل فقير، يسير إلى البيت الذي كانت عائلته تسكنه من قبل، والآن عشيقته التي تمتع نفسها مع المدرِّس الشاب. وتقاطعت الأسئلة: هل هو مسلح، سيضرب بالسوط، ستحدث فضيحة، هل سيطلق النار؟

وفيما كان كوريولانو يدخل المفتاح في الباب، كان الهياج في الحانة يتزايد، ونسيب يمشي إلى الباب العريض عند الرصيف. باتوا الآن متيقظين بانتظار الصراخ، وربما طلقات الرصاص. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. ولم ينبعث من بيت غلوريا أي صوت.

مضت دقائق معدودة وزبائن الحانة يتطلعون بريبة. وكان نيوغالو المتوتر

يتمسك بذراع نسيب، والنقيب يقترح بأن تذهب مجموعة إلى هناك لتجنب حدوث مصيبة. فلم يوافق جوان فولجنسيو على المبادرة – الوشاية:

«ليس هذا ضرورياً. فلن يحدث شيء. إني أراهن على ذلك.»

ولم يحدث سوى خروج غلوريا وجوزويه من الباب الخارجي، يتأبط أحدهما ذراع الآخر، سائرين في جادة الشاطئ متجنبين المرور أمام حانة فيزوفيو الناشطة الحركة. وبعد قليل، جلبت الخادمة إلى الرصيف صناديق وحقائب، كماناً ومبولة. وهو التفصيل الوحيد الممتع في هذه القصة كلها. ثم جلست أخيراً على الحقيبة الأكثر ارتفاعاً وبقيت تنتظر.

أُغلق الباب من الداخل. وبعدها حضر حمال ليأخذ الحقائب. وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، عندما لم يبق في الحانة إلا عدد قليل من الزبائن.

وفي المقابل، كان خبر زيارة أمانسيو ليال لموندينيو بعد ذلك بأيام، قد ترك انطباعاً حسناً. فقد سافر المزارع إلى حقوله إثر دفن راميرو، وهناك أقام من دون أن يُعلم أحداً عن مكان وجوده، خلال أسابيع. وعانت الحملة الانتخابية تفككاً قاسياً على صعيد استمرارها بعد موت الزعيم العجوز، كأن ليس للمعارضين من يواجهونهم. وأخيراً، عاد موندينيو وأصدقاؤه إلى التحرك، لكنهم مارسوه بإيقاع بطيء، بذلك الحماس الضئيل وانعدام التنظيم اللذين كانا في بدء الحملة.

نزل أمانسيو ليال من القطار ومشى مباشرة إلى مكتب المصدّر. وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة من بعد الظهر بقليل، والوسط التجاري يعج بالناس. سرى النبأ بسرعة، وبلغ أركان المدينة الأربعة قبل أن تنتهي المحادثة بالذات. وتجمع بعض البلهاء على الرصيف أمام مؤسسة التصدير رافعي الرؤوس، يختلسون النظر إلى نوافذ مكتب موندينيو.

«أيها السيد موندينيو. إني حاربتك طوال هذا الوقت. وأنا من أمر بإحراق الجرائد – صوته رقيق، وحيد العين، وكلماته يتلفظ بها بإشراق كأنها ناتجة من تفكير طويل – وأنا أيضاً من أمر بإطلاق النار على أريستو تيليس.»

أشعل لفافة، وتابع:

- كنت أنوي أن أقلب إيليوس رأساً على عقب للمرة الثانية. حينما كنت شاباً، برفقة الإشبين راميرو، كنت قد قلبتها مرة - توقف كأنه يتذكر - كان المسلحون في حالة استنفار، وكان رجالي ورجال أصدقائي الآخرين، متأهبين للنزول للانتهاء من الانتخابات - تطلع إلى المصدّر بعينه السليمة وابتسم - يوجد قبضاي جيد التصويب من معارفي القدامى، مخصص لك أيها السيد.

كان موندينيو يستمع بكثير من الجدية. فأطفأ أمانسيو اللفافة:

- وجِّه شكرك لبقائك حياً للإشبين يا سيد موندينيو. فلو لم يمت، لكنت أنت في المقبرة أيها السيد. لكن الله لم يشأ، فاستدعاه أولاً.

ثم سكت، ربما ليفكر في الصديق الغائب. وتريث موندينيو برهة وهو شاحب الوجه قليلاً.

- إنتهى كل شيء الآن. كنت ضدك أيها السيد، لأن الإشبين كان أكثر من أخ، كان كأبي، فلم أحفل مرة قطّ، بمعرفة من كان على حق. لماذا؟ لأنك أيها السيد كنت ضد الإشبين، فأنا كنت ضدك إذاً، ولو كان حياً لكنت معه ضد الشيطان شخصياً - اتخذ وضعاً معيناً - وفي العطلات كان ابني الأكبر هنا...

- عرفته. تحدثنا أكثر من مرة.

- أعرف هذا. لقد تناقشنا. قال إنك أيها السيد كنت على حق. وما كنت لأتغير لهذا السبب. ولم أمارس ضغطاً على الشاب. فأنا أريده أن يكون مستقلاً، يفكر بعقله. ومن أجل هذا أعمل وأكسب مالاً حتى لا يحتاج أولادي لأحد، فيستطيعون اتخاذ موقف كما يشاؤون.

سكت مجدداً، ودخّن. لم يتحرك موندينيو.

- ثم مات الإشبين بعد ذلك. فذهبت إلى الحقل، وبدأت التفكير. من سيكون في مكان الإشبين؟ ألفريدو؟ - أتى بحركة من يده تدلّ على الاستخفاف - إنه فتى

طيب، يشفي مرض الولد، وكان لهذا، صورة عن أمه وهي امرأة قديسة. تونيكو؟ لا أدري ممن ورث هذا؟ قيل إن والد الإشبين كان زير نساء. لكنه لم يكن عديم الحياء. بقيت حائراً في الأمر، ولم أر في إيليوس إلا رجلاً واحداً ليخلف الإشبين، وهذا الرجل هو أنت أيها السيد. فجئت إلى هنا لأقول لك هذا. فبالنسبة إلي انتهى كل شيء. ولن أحاربك أيها السيد.

بقي موندينيو بضع دقائق، مفكراً في شقيقه وأمه وامرأة لوريفال. عندما أعلن له الموظف وصول الكولونيل أمانسيو، سحب المسدس من الدرج ووضعه في جيبه. إنه يخشى على حياته. كان يترقب كل شيء إلا أن تمتد إليه يد الكولونيل. إنه الآن الزعيم الجديد لبلاد الكاكاو. ومع هذا لم يشعر بالفرح أو الاعتزاز. فلم يعد هناك من يناضل ضده. أقلّه إلى أن يظهر أحد ما ليقوم بمواجهته ريثما تتغير الأوقات مرة أخرى، ولا يعود أهلاً للحكم، مثلما حدث للكولونيل راميرو باستوس.

«إني شاكر لك أيها الكولونيل. وأنا أيضاً حاربتك. وحاربت الكولونيل راميرو. ليس بدافع شخصي. فقد كنت أُعجب بالكولونيل. لكننا لم نكن متفقين بشأن مستقبل إيليوس.

- أعرف هذا.

- ونحن أيضاً كنا مع مسلحينا على استعداد. لست أدري من كان سيعيد الأمور إلى نصابها في إيليوس بعد أن نكون قد قلبنا أعلاها إلى أسفلها. وأنت أيضاً كان ثمة رجل مكلف بتصفيتك أيها السيد. لم يكن من معارفي القدامى لكنه من معارف أصدقائي القدامى. والآن قد انتهى كل هذا بالنسبة إلي أيضاً. إسمع شيئاً واحداً أيها الكولونيل: هذا السافل فيتور ميلو لن يصير نائباً عن إيليوس، لأن إيليوس يجب أن تمثل بشخص من هنا، مهتم بتقدمها. لكن إذا سُحب هو، بالامكان أن يكون أي شخص بديلاً عنه، وأي شخص تريده أنت أيها السيد. قل اسماً فأسحب أنا اسمي، وأدعم ما تشير إليه أنت وأوصي أصدقائي بدعمه. الدكتور ألفريدو؟ أنت أيها السيد

بالذات؟ إني أراك أيها السيد أفضل في المقعد مما كان الكولونيل راميرو في مجلس الشيوخ في باهيا.

– لا أريد لي شيئاً يا سيد موندينيو، لكنني أشكرك فلا أريد شيئاً لي بالذات. وإذا صوّت فسيكون صوتي لك أيها السيد، ولهذا السافل الدكتور فيتور كنت أصوت من أجل الإشبين. لكن السياسة بالنسبة إلي انتهت. سأعيش في ركني. وقد أتيت لأقول فقط بأني لن أحاربك بعد الآن. وفي بيتي لن تكون ثمة سياسة إلا بعد أن يتخرج ابني، إذا أراد هو أن يدس نفسه في هذا. لكنّ لي شيئاً واحداً أطلبه منك. لا تتعقب ابنيْ الإشبين ولا أصدقاءه. فولداه ليسا مهمين. أنا أعرف. لكن ألفريدو رجل مستقيم. وتونيكو بائس، وأصدقاؤنا رجال خير، ظلوا إلى جانب الإشبين في وقت الشدة. وهذا كل ما أرغب في طلبه منك. أما بالنسبة إلي فلا أريد شيئاً.

– لا أفكر بتعقب أحد، فلست من هذا النمط. خلاف ذلك، فإن ما أرغبه هو أن أناقش معك أيها السيد، الوسيلة التي نجنِّب فيها الدكتور ألفريدو الخسارة.

– بالنسبة إليه، الأفضل هو العودة إلى إيليوس ومعالجة الأولاد. هذا هو ما يحبه. والآن، مع موت الإشبين، فهو ثري جداً، وليس بحاجة إلى السياسة. ودع تونيكو في دائرة كتابة العدل.

– والكولونيل ميلك؟ والآخرون؟

– هذا بينك وبينهم. ميلك لا زال مشمئزاً من قصة ابنته. ومن الممكن جداً أن يفعل مثلما فعلت أنا، يعتزل السياسة. سأنصرف يا سيد موندينيو. لقد أخذت كثيراً من وقتك. ومن اليوم فصاعداً أحسبني صديقاً. ليس في السياسة فقط. وعندما يمر الانتخاب أريدك أن تأتي ذات يوم إلى حقلي، فنصطاد بعض الكابيائيات....»

رافقه موندينيو حتى السلم. وبعد ذلك على الأثر، خرج إلى الشارع حزيناً وحيداً وصامتاً، من دون أن يجيب تقريباً على تحيات عديدة، وكثيرة الود.

عن الخسائر والأرباح مع الطاهي

كان جوان فولجنسيو يمضغ قرصاً من الحلوى، فبصق:

- إنه متدني الجودة يا نسيب. الطهو هو أحد الفنون، وعليك أن تعرف هذا. فهو يتطلب ليس المعرفة فقط انما وبشكل خاص الدعوة. وطاهيتك الجديدة لم تولد لهذا. إنها محتالة.

ضحك الذين كانوا يتحلقون حوله إلا نسيب كان منزعجاً. وألح نيوغالو على إجابة لسؤاله السابق: «لماذا اكتفى كوريولانو بطرد غلوريا وجوزويه خارج البيت، وهجر عشيقته وهو الذي يحب ممارسة العنف، جلاد شيكينيا وجوكا فيانا، ومهدد تونيكو باستوس بعد سنتين؟ فلماذا تصرف هكذا؟».

«لماذا... بسبب مكتبة الجمعية التجارية، الحفلات الراقصة في نادي التقدم، خط الأوتوبيسات وأشغال المضيق... بسبب ابنه الدكتور تقريباً، بعد موت راميرو باستوس، وبسبب موندينيو فالكون...»

سكت لحظة وتابع:

«بسبب مالفينا، وبسبب نسيب.»

كانت النوافذ المغلقة في بيت غلوريا السابق ملحوظة كئيبة في منظر الساحة.

«يجب أن أعترف، قال الدكتور لنفسه، إنني أشعر بفقدان صورتها المؤطرة في النافذة. لقد اعتدنا على ذلك.»

تنهد آري سانتوس وهو يتذكر الثديين الناهدين والابتسامة الدائمة والعينين الذابلتين. عندما تعود من إيتابونا (حيث سافرت بصحبة جوزويه لبضعة أيام) أين ستقطن، في أي نافذة ستشبك ساعديها لكي تعرض العيون والثديين وابتسامات شفتين غليظتين وعينين نديتين؟

ونادى جوان فولجنسيو نسيب:

«عليك أن تتخذ الاستعدادات يا صديقي. استعدادات عاجلة! تغيير الطاهية

والحصول على منزل كوريولانو لنضع فيه غلوريا مجدداً. فمن دون ذلك، أيها المتحدر اللامع من الشرق، ستعصف الأنواء بهذه الحانة...»

اقترح نيوغالو اكتتاباً بين الزبائن ليدفعوا إيجار المنزل وفيه توضع، وسط احتفال كبير، غلوريا ذات البشرة التي هي بلون الفحم.

«وأناقة جوزويه، من يدفع نفقاتها؟ سأل آري.

- كما يبدو، سيكون عزيزنا ريبيرينيو...» قال الدكتور.

ضحك نسيب لكن بدا قلقاً. لابدّ أن أجرى تدقيقاً حسابياً في أعماله، رأى من الضروري إزاء التدشين المقبل للمطعم، أن يضع يديه على رأسه. وربما إذا تحقق مما لا يزال يمتلكه حتى الآن، فقد خسر كثيراً في هذه الأشهر الأخيرة. وطبيعي أنه في بداية الأسابيع بعد اكتشافه تونيكو عارياً في مخدعه، لم يلق بالاً للحانة، ونسي مشروع المطعم. وعاش تلك الأيام يعاني من الألم، خاوياً لغياب غابرييلا، من دون تفكير. حتى أنه بعد ذلك، على كل حال، لم يأت إلا بسخافات. ظاهرياً كان كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية. فالزبائن كانوا هناك، يلعبون الداما والغامون، يتحادثون ويضحكون، يشربون الجعة، يجرعون الكؤوس الفاتحة للشهية قبل الغداء والعشاء. وهو قد أصلح من شأنه كلياً، فالجرح التأم في صدره، ولم يعد يتحلق حول الدونا آرميندا ليقف على أحوال غابرييلا، فيسمع أخباراً عن العروض التي تتلقاها وترفضها. والزبائن، مع هذا، ما كانوا يستهلكون كثيراً من المشروب كما في وقت غابرييلا، والطاهية المستقدمة من ولاية سيرجيبي، مع بطاقة سفر مدفوعة منه، كانت عملية غش، ومن أكبر أعمال الغش. فهي لم تكن تحسن أكثر من الأطباق العادية، وتوابلها القوية، وطعامها كثير الدهن، والحلوى كثيرة السكر! أما الأطعمة المالحة للحانة فهي قذارة. إنها تتطلب كثيراً، تريد مساعدات، كثيرة الشكوى من العمل، نقّاقة. وفوق كل هذا فزّاعة وقبيحة، مع ثآليل وشعر في الذقن. إنها ليست صالحة للعمل بكل وضوح، في الحانة، فكيف بترؤس مطبخ المطعم.

كانت الأطعمة المالحة والحلوى الشيء الضروري للمشروب، الجاذب

للزبائن، والذي يجعلهم يكررون العيار. لم تتضاءل الحركة في الحانة، فاستمرت كثيفة، ولطف نسيب قد احتفظ بالزبائن ثابتين. إنما استهلاك المشروبات تناقص، ومعه الأرباح. كثيرون كانوا يتركون بعضاً من المشروب في الكأس الأولى، وآخرون لم يعودوا يأتون كل يوم. فذلك الارتفاع الصاعق لحانة فيزوفيو يعاني وضعاً دقيقاً وتضاؤلاً في الأرباح بالذات. هذا فيما المال يتدحرج بإفراط في المدينة، وكل الناس ينفقون في المتاجر وفي الكباريهات.

ينبغي اتخاذ استعدادات، صرف الطاهية وتدبير أخرى، مهما كلف الأمر، لكن في إيليوس كان ذلك مستحيلاً. فلديه تجربة. وقد تحدث بهذا الشأن مع الدونا آرميندا. وكانت لدى القابلة الجرأة لتسدي إليه النصيحة:

«إنها مصادفة يا سيد نسيب. كنت أفكر بأنه لا توجد طاهية جيدة لك يا سيدي، سوى غابرييلا، ولا أرى غيرها.»

كان عليه أن يتمالك نفسه كيلا تفلت منه كلمة غير لائقة. فهذه الدونا آرميندا تصبح كل مرة أكثر جنوناً. وهي أيضاً لا تخرج من الجلسة الروحية، وتتحادث مع الموتى. أخبرته أن العجوز راميرو ظهر في خيمة ديودورو وألقى خطاباً مؤثراً معلناً الصفح عن جميع أعدائه بدءاً من مونديينو فالكون. أي شيطان هذه العجوز مفسدة الأمور... فالآن لا يمر يوم من دون أن تلمس الموضوع، لماذا لا يأخذ غابرييلا خادمة؟ كما لو أن مثل هذا الأمر يُقترح...

تمالك نفسه بحيث أصبح بوسعه الإصغاء إلى الدونا آرميندا وهي تتكلم على غابرييلا فتشيد بتصرفها وتكريس نفسها للعمل. كانت تخيط نهاراً وليلاً، تلقط بطانات الفساتين، تفتح عرى للأزرار، تدرز بلوزات، في عمل صعب، إذ - كما تقول هي - لم تولد من أجل الإبرة، بل من أجل المطبخ. ومع هذا، قررت ألا تطهو لأحد سوى لنسيب، بالرغم من العروض التي تنهال عليها كالمطر من جميع الأنحاء. إنها ولدت من أجل الطهو، ومن أجل أن يتخذها عشيقة، وكل من هذين الأمرين أكثر إغراءً من الآخر.

كان نسيب يستمع إلى الدونا آرميندا، غير مبالٍ تقريباً، إنما فخور، بشكل خفيف، بهذا الوفاء المتأخر من غابرييلا. هز كتفيه، ودخل منزله.

كان قد شفي، وتمكن من نسيانها، ليس كطاهية إنما كامرأة. وحينما كان يتذكر الليالي المنصرمة معها، كان ذلك بالشوق الهادئ نفسه الذي يذكره بمعرفة ريزوليتا، وبفخذي ريجينا المرتفعتين، وهي واحدة من النساء السابقات، بالقبلات المختلفة من ابنة عمه منيرة في إحدى العطلات بإيتابونا، من دون ألم عميق في الصدر، من دون حقد، من دون حب. كان يتنهد حتى الآن أكثر لكونها طاهية لا تضاهى، طعام الموكيكا الذي تعده، والشين شين، ولحم الخروف والمعلاق المقلي. استعاد نفسه من الطعنة، لكن على حساب ماله. فخلال أسابيع، كان يرتاد كل ليلة، الكباريه، ويلعب الروليت والباكارا، ويدفع ثمن الشمبانيا من أجل روزاليندا. هذه الشقراء المستَغِلّة كانت تنتزع منه أوراق النقد من فئة الخمسمائة ألف ريال كما لو أنه أحد كولونيلات الكاكاو، يعيل عشيقة، ولا يسعى إلى حبها في المخدع المدفوع من قبل مانويل داس أونساس. إنه لم يرَ حباً من ذلك النوع، كان يجعل من نفسه أبله. وعندما أجرى حساباً مدققاً في أعماله، كانت لديه فكرة أكيدة عن المال الذي أنفقه عليها، عن هدر المال الذي استسلم له. وانتهى بتركها، حيث أغوته امرأة صغيرة من ولاية أمازونيا، هندية تدعى مارا. يميل اليها أقل، لكنها متواضعة، تكتفي بالجعة وببعض الهدايا. لا تمارس حياتها في بيت ماشادون، ولم تكن حرة كل ليلة، فانتهى مغرقاً أحزانه في مآدب عشاء ولهو في الكباريهات أو في بيوت البغاء، منفقاً مالاً من دون حساب. لقد أضاع مالاً بشكل مريع.

في مثل هذه الحياة، لم يودع في كل هذا الوقت مالاً في المصرف. لقد وفى بالتزاماته مع مموّليه لكنه التهم الأرباح في بوهيمية مكلفة الثمن. في السابق كان يذهب إلى الكباريه مرة أو مرتين في الأسبوع، فيضاجع امرأة متيمة به من دون أن ينفق شيئاً تقريباً. حتى بعد أن تزوج، ومع كل الأشياء المعطاة إلى غابرييلا، كان بإمكانه أن

يوفر كل شهر، بعض الكونتوات من الريالات من أجل حقل كاكاو المستقبل. صمم على أن يضع نهاية لتلك الحياة المتحللة والباعثة على الخراب. بإمكانه أن يفعل ذلك باطمئنان، فلم يعد يعذبه غياب غابرييلا، والخوف من البقاء وحيداً. ولم تعد ساقه تبحث عن ردفين مستديرين لترتاح عليهما. إنما كان يشعر بفقدان الطاهية، وكل يوم أكثر من الذي سبق.

لحسن الحظ لم يكن كل شيء سلبياً في التدقيق الحسابي، فالغرفة المخصصة للبوكر، مع الأموال الوفيرة التي تسيل في ذلك العام، تركت أرباحاً جيدة. والآن مع عودة أمانسيو ليال وميلك إلى العلاقات الطيبة مع ريبيرينيو وإيزكييل، فإن الغرفة ستوظف يومياً، وداخلة في حلقة البوكر ليلاً، وتستمر أحياناً حتى الصباح. كانوا يلعبون بمبالغ طائلة، فتزداد النسبة المئوية العائدة للمحل.

وهناك المطعم الذي يشارك فيه موندينيو بالمال ونسيب بالعمل والخبرة. سوف يتم فيه اقتسام الارباح المضمونة، إذ ليس ثمة منافسون، فالطعام في الفنادق كان رديئاً. وعلاوة على هذا، فإن قاعة المطعم في الليل ستوظف في لعب البوكر، السبعة والنصف، البسكا، الواحدة والعشرين، فألعاب الورق يعشقها الكولونيلات ويفضلونها فعلاً على الروليت والباكارا في الكباريهات خصوصاً أنه بوسعهم التسلية بسرية.

أسوأ ما في الأمر حقاً هو فقدان الطاهية. فالطابق كان مطلياً ومجزءاً إلى قاعة وغرفة مؤونة، ومطبخ. والطاولات والكراسي جاهزة، والطبّاخ ايضاً، قد أعد مجالي لغسل الأطباق، ومراحيض للزبائن من أفضل الأنواع. وقد وصلت الطلبات الموصى عليها من الريو: آلة لصنع البوظة وثلاجة يحفظ فيها اللحم والسمك، وتصنع ثلجها بنفسها. أشياء مترفة، لم تر من قبل في إيليوس أذهلت زبائن الحانة إعجاباً. وعما قريب سيكون كل شيء مثبتاً في مكانه، ولا ينقصه إلا طاهية.

في ذلك اليوم، عندما انتقدت سلطة جوان فولجنسيو العليا، بقسوة شديدة، الأطعمة المالحة في الحانة، قرر نسيب مناقشة الموضوع مع موندينيو.

كان المصدّر يولي المطعم اهتماماً كبيراً. فقد كان يحب الاكل الجيد، ويشكو بشكل دائم الطعام في الفنادق، متنقلاً من فندق إلى آخر. وهو أيضاً، أي نسيب، كان من جهته، يعرض مرتب ملك لغابرييلا. ناقش المسألة مع العربي، واقترح استقدام طاه من الريو، خبير في المطاعم. وكان هو الحل الوحيد. وفي إيليوس يتدبران مساعدات له، خلاسيتين أو ثلاثاً. فكر نسيب ملياً. لأن هؤلاء الطهاة في الريو لا يحسنون طهو الطعام الباهياني، ويطلبون أجراً مرتفعاً جداً. ومع هذا كان موندينيو مبتهجاً بفكرته: طاه يرتدي لباساً أبيض ويعتمر قلنسوة طهاة على رأسه، يتقدم من الزبائن ويوصي لهم على الأطباق. فأرسل برقية عاجلة إلى أحد أصدقائه.

عاد نسيب المنهمك في آخر التفاصيل المعقدة عن إعداد المطعم، إلى حياته القديمة، كان نادراً ما يذهب إلى الكباريه، وينام مع الفتاة الأمازونية عندما يتوافر لها الوقت وتكون حرة. لم يبق إلا وصول الطاهي القادم من الريو وتعيين يوم التدشين المهيب لـ«مطعم التجارة». وكان أناس كثيرون في ساعة تناول الكؤوس الفاتحة للشهية، يرتقون السلم الذي يوصل الطابقين ببعضهما ليعربوا عن دهشتهم، أمام القاعة المزدانة بالمرايا والطبّاخ الهائل، والثلاجة وتلك الروائع.

وصل الطاهي، عن طريق باهيا، مع موندينيو فالكون، في الباخرة ذاتها. فقد ذهب المصدّر إلى العاصمة بدعوة من الحاكم، لمناقشة الوضع السياسي وحل مشكلات الانتخابات القادمة. أخذ معه أريستو تيليس، وعادا منتصرين. فالحاكم ألغى كل شيء: فيتور ميلو سيُترك لمصيره، والدكتور ماوريسيو مثله، وبالنسبة لألفريدو فإنه سيسحب ترشيحه لمقعد نائب إيالي، ويحل محله الدكتور جوفينال من إيتابونا، من دون أن يكون ثمة أي عامل مبني على الحظ، وفي الواقع، كانت الحملة الانتخابية منتهية، فالمعارضون صاروا هم الحكومة.

ذُهل نسيب أمام الطاهي. إنه مخلوق غريب، سمين وقوي البنية ذو شاربين قصيرين طرفاهما الرفيعان مطليان بالشمع، ولديه تصرفات شبيهة بالسلوك النسائي. مهم جداً، ذو كبرياء غراندوق، لجوج كامرأة جميلة مع سعر مغالى فيه.

«هذا ليس طاهياً، إنه رئيس الجمهورية نفسه.» قال جوان فولجنسيو معلقاً.

برتغالي بالولادة، ذو لهجة معينة يتلفظ بها، والكلمات الكثيرة التي تتساقط برخص من بين شفتيه كانت فرنسية. وما كان نسيب، الشاعر بالضعة، يفهمها. كان يُدعى فرناند، هكذا مع حرف د في نهاية الكلمة. وتقول بطاقة الزيارة – خبأها جوان فولجنسيو بحنو ليضمها إلى بطاقة زيارة صاحب «المجازات» آرجيليو بالميرا – فرناند الطاهي.

وصعد فرناند مع نسيب مصحوبين ببعض زبائن الحانة الفضوليين ليتفحصوا المطعم. فهز رأسه أمام الطبّاخ:

«Très Mauvais (سيىء جداً)

– ماذا؟ سأل نسيب باستياء.

– رديء جداً؟...» ترجم جوان فولجنسيو.

ألحَّ على الحصول على طباخ معدني، يعمل على الفحم، بأسرع ما يمكن. وأمهل شهراً، وإلا فإنه سيرحل. فرجاه نسيب أن يمهله شهرين، لأن عليه أن يوصي باستيراده من باهيا أو من الريو. فرفض صاحب السعادة بنبرة متعالية، مصراً في الوقت نفسه، على سلسلة أدوات للمطبخ... وانتقد الأطعمة الباهيانية غير اللائقة حسب قوله، بالمعد الرقيقة. فخلق على الفور فظاظات عميقة. انتفض الدكتور دفاعاً عن أطعمة الفاتاپان، الكاورور والإيفو، وعنَّفه:

«هذا الشخص هو حمار مختوم».

شعر نسيب بالاهانة. وكاد يقول أي شيء فرمقه الطاهي بنظرة ناقدة ومتعالية، أبقته مجمداً. فلو لم يكن الرجل قد قدم من الريو وكلف مجيئه مالاً كثيراً، وفوق كل هذا، كانت الفكرة فكرة موندينيو فالكون، لجعله ينفجر في الجحيم مع أطعمته ذات الأسماء المعقدة وكلماته الفرنسية.

ولكي يضعه تحت التجربة، طلب منه أن يبدأ بإعداد الأطعمة المالحة والحلوى

للحانة وكذلك طعامه الخاص. ومن جديد وضع يديه على رأسه، فالأطعمة كانت باهظة جداً، والأطعمة المالحة أيضاً، إذ إن الطاهي يعبد المعلبات: زيتون، سمك، قديد لحم الخنزير. وكل قرص من الأطعمة المالحة يكلف الثمن الذي يُباع فيه. وكانت الأطعمة ثقيلة كثيرة المعجنات. يا للفرق، رباه! بين فطائر فرناند وفطائر غابرييلا. بعضها من المعجنات الخالصة تدخل بين الأسنان وتلتصق في سقف الحلق، والأخرى حادة وهشة وتذوب على اللسان، فتتطلّب شرب الماء.

هز نسيب رأسه. ودعا جوان فولجنسيو ونيوغالو والدكتور جوزويه والنقيب لتناول غداء أعد له الطاهي النبيل، مايونيز، مرق أخضر اللون، دجاج مُحضَّر على طريقة مطاعم ميلانو، وفيليه مع أطعمة مقلية. لم يكن الطعام رديئاً، لم يكن كذلك. كيف يقارنه، مع هذا، بأطباق البلد ذات التوابل والرائحة الطيبة، الحادة، الملونة؟ كيف يقارنه بطعام غابرييلا؟

تذكر جوزويه: كانت قصائد من القريدس وزيت النخيل، والسمك وعصارة جوز الهند واللحم والفلفل. ولم يعرف نسيب كيف سينتهي ذلك كله. وهل يتقبل الزبائن هذه الأطباق المجهولة، ما إذا كان سمكاً، لحماً أو دجاجاً. ولخص النقيب ذلك بجملة واحدة:

«جيد، لكنه رديء.»

أما نسيب، هذا البرازيلي المولود في سوريا، فقد كان يشعر أنه أجنبي أمام أي طبق ليس من باهيا، باستثناء الكبّة. كان اختصاصياً في مادة الأكل. لكن، ما العمل؟ فالرجل موجود هنا، يكسب مرتب أمير، متصنعاً الأهمية والسفاهة، وهو يجمّل كلامه بالفرنسية.

وكان يرمق شيكو موليزا بعينين ذابلتين، وهدده الولد برفساته وبوثباته: وكان نسيب بادي الذعر على مآل المطعم. ومع هذا، كان لديه فضول كبير ويتكلم على الـشيف كشخص مهم، ويقول إنه قد تسلّم إدارة مطاعم مشهورة، واختُرعت عنه

حكايات. وأكثر من ذلك، بصدد دروس فن الطهو التي يلقيها على الخلاسيات القادمات لمساعدته، وما كانت الفقيرات يفهمن شيئاً، وأطلقت عليه الخلاسية القادمة من ولاية سيرجيبي وهي شاعرة بالغيرة، لقب «الحصان المخصي».

أخيراً، أصبح كل شيء جاهزاً، وأعلن التدشين ليوم الأحد. وسيُقَدَّم غداء كبير من قبل صاحبي مطعم التجارة للشخصيات المحلية. ودعا نسيب جميع الأشخاص المعروفين في إيليوس، جميع زبائن الحانة الطيبين، باستثناء تونيكو باستوس، هذا واضح. ودرس الطاهي لائحة بالأسماء الأكثر تعقيداً. وفكر نسيب في تعليمات الدونا آرميندا. لا يوجد طاهية مثل غابرييلا.

لسوء الحظ، ذلك مستحيل، كان مجرد تفكير.

عن رفيق ميدان المعركة

عندما أطل القمر من وراء صخرة رابا ممزقاً سواد الليل، تحولت الخياطات إلى راعيات، وتحولت دورا إلى ملكة، وبيت دورا إلى زورق شراعي. وأصبح غليون السيد نيلو نجمة. كان يمسك بيده اليمنى صولجان ملك، وبيده اليسرى ينشر الفرح. وقذف عند دخوله، بيده التي تصيب الهدف، القبعة البحرية حيث يخبئ فيها الرياح والعواصف، فوق النموذج المجسد القديم. فقد بدأ السحر. النموذج يصرخ بحماسة. إنه امرأة وحيدة الساق، متدثرة بفستان قيد الإنجاز، والقبعة على رأسه التي لم تكن لديها.

أمسكه السيد نيلو من حزامه، ورقصا في البهو. كان النموذج يرقص بشكل عذب، فتضحك الراعيات، وتطلق ميكيكينا قهقهتها المجنونة، وتبتسم دورا كملكة مثلما كانت.

نزلت من المرتفع راعيات أُخريات، وقدمت غابرييلا من بيت الدونا آرميندا،

فلم يكنَّ راعيات فقط، كن بنات قديس، بنات إيانسان. وكان السيد نيلو، كل ليلة، يطلق الفرح وسط البهو. وفي المطبخ الفقير، كانت غابرييلا تصنع ثراءً، أكاراجي من النحاس، آباراً من الفضة، غموض الذهب في الفاتابان. لقد بدأت الحفلة.

دورا صاحبة نيلو، نيلو صاحب دورا، لكن هل ثمة راعية لم ينكحها السيد نيلو، الإله التيريرو الصغير؟ كنَّ بغال الليل، يركبهن القديسون. وكان السيد نيلو يتحول إلى جميع القديسين، كان أوغون، وشانغو وأوشوسي، وأمولو. كان أوشالان لدورا ويدعو غابرييلا يمانجا، ومنها تنبع المياه، نهر كاشويرا وبحر إيليوس، والينابيع في الصخور. في أشعة القمر، يطير البيت في الهواء، يصعد المرتفع، يغادر في الاحتفال. كانت الأغاني هي الريح، والرقصات هي المجذاف، دورا هي الشخص الذي في المقدمة، لكن الآمر هو السيد نيلو الذي كان يأمر الملاحين.

الملّاحون يأتون من الأرصفة، الزنجي تيرينسيو عازف الأتاباكي، والخلاسي ترايبرا عازف الفيولا الشهير، والشاب باتيستا مغني الأهازيج، وماريو كرافو بائع الإيقونات المخبول والساحر في سوق ألفيرا. ويصفر السيد نيلو فيختفي البهو في صخب التيرّيرو المقدس والكاندومبليه، والماكومبا. لقد كان بهواً للرقص وكان مخدعاً للزفاف، وقارباً من دون مجذاف في مرتفع أونياون، مبحراً في ضوء القمر. إن السيد نيلو يطلق البهجة كل ليلة. يثير الرقص للقدمين والغناء للفم.

سبع دورات كان فيها السيف في النار، والشعاع ساطع، ودهشة الليل، وصوت الرنين. ويتحول بيت دورا إلى حلبة صراع بالسكاكين عندما يحضر السيد نيلو، وهو محني الصدر والموسى في حزامه، وكله زهو وفتنة. فتسجد الراعيات، لأن الملك المجوسي قد وصل، إلهاً من آلهة التيريرو، فارساً من فرسان القديسين، جاء ليمتطي جياده.

كانت غابرييلا جواد يمانجا، تجتاز الميادين والجبال، والأودية والبحار والمحيطات العميقة فالرقص لترقص والغناء لتغني، إنها جواد للركوب. مشط من

العظم، قارورة يضوع منها الطيب، من الصخرة ترتمي على آلهة البحر، وكانت ترجو أن تستعيد مطبخ نسيب، وغرفة الجناح الخلفي وشعر صدره والشاربين المداعبين وساقه الثقيلة على ردفيها.

عندما تسكت الفيولا تحين ساعة إثارة النوم بالحك على الرأس، وسرد الحكايات. وكان السيد نيلو يبحر مرتين، يقترب من الموت. الموت في البحر بشعر أخضر وهارمونيكا تصدح بالنفخ. بيد أنه من الواضح كون السيد نيلو مثل ماء النبع، له سبع دورات، كان بئراً من دون قرار، سراً للموت، يرفد الموتى إلى الموسى التي يحملها. رجال الشرطة بزيهم الرسمي ومن دون زيهم الرسمي يركضون وراءه. ففي ولاية باهيا، في ولاية سيرجيبي، في ولاية الآغواس، في حلقات الصراع بالسكاكين، في حفلات التيريرو التي تقام احتفاءً بالقديسين، في الأسواق، في ألفيرا، في مخبأ الأرصفة، في حانات المرافئ، كان السيد نيلو يعامل باحترام. فمن يستطيع مواجهته؟ الوشم في الصدر يذكر بعزلة السجن. من أين جاء؟ من الموت قتلاً. كان ماراً وهو على عجلة من أمره. في أرصفة باهيا كان اللاعبون في الحلبات ينتظرونه، معلمو أنغولا، آباء التيريرو والنساء الأربع. ما كان ينقصه إلا أن تنساه الشرطة، فانتهزن الفرصة يا بنات!.

في أمسيات أيام الآحاد، في الجناح الخلفي من البيت، في الفناء النظيف، كان البيريمبو، يصدح، فيجيء خلاسيون وزنوج، يمارسون اللعب، وذو الدورات السبع يعزف ويغني:

«يا رفيقي في ميدان المعركة
هيا نرحل.
نجوب العالم
إيه، أيها الرفيق...».

يعيد الآلة الموسيقية للسيد نيلو، فيدخل حلبة الصراع بالسكاكين، ويطير تيرينسيو، ذيل الببغاء. ساقاه في الهواء، يقفز فوق الخلاسي ترايبيرا، ويقع الشاب باتيستا أرضاً، ويبقي ذو الدورات السبع بمفرده في ميدان المعركة، وهو يمسك المنديل بفمه، موشوم الصدر.

وعلى الشاطئ قرب الصخور، يدفن ذو الدورات السبع، غابرييلا في الرمال، وأمواج بحره ذات الزبد والعواصف. كانت عذوبة الدنيا، شروق النهار، سر الليل. لكن الحزن يتواصل، فيسير على الرمال، ويركض إلى البحر ويغني على الصخرة.

«لماذا أنت حزينة أيتها المرأة؟

- لست حزينة... أنا هكذا.

- لا أريد حزناً قربي. فقديسي مرح، وطبيعتي مبهجة. إني أقتل الحزن بالموسى التي أحملها.

- إنك لا تقتل.

- ولماذا لا؟»

كانت تريد طباخاً، فناءً مزروعاً بالغوايابا والمامون والبيتانغا، وغرفة في الجناح الخلفي، ورجلاً طيباً.

«ألست كافياً لكِ؟ ثمة امرأة بوسعها أن تموت وتحيا من أجل هذا الأسمر، فبوسعك أن تشكري حظك.

- إنك لا تفهمني. لا أحد يكفيني. كلكم مجتمعون لا تكفونني.

- هكذا إذاً، إنكِ لا تستطيعين النسيان؟

- هكذا.

- إذاً.

- إذاً، هو أمر رديء.

- وليس له مذاق في فمكِ.

- إنه رديء.

- وليس له متعة في صدركِ.

- رديء.»

جاء بها ذات ليلة. في المساء كانت ميكيكينا، ويوم السبت باولا ذات النهدين المستديرين. جميعهن من زمرة غابرييلا. ففي بيت دورا، كان السيد نيلو في الأرجوحة والملكة في حضنه، والتجأ القارب الشراعي إلى المرفأ.

لكن غابرييلا كانت تبكي على الرمال، في ثنايا البحر، والقمر يغطيها بالذهب، وعطرها القرنفلي في مهب الريح.

«إنك تبكين أيتها المرأة.»

لمس وجهها ذا لون القرفة والموسى بيده.

«لماذا؟ بالقرب مني لا تبكي المرأة، إنها تضحك من المتعة.

- لقد انتهى الأمر، انتهى الآن.

- ما هو الذي انتهى؟

- التفكير بأني ذات يوم...

- ماذا؟»

أن يكون بوسعها العودة إلى الطبّاخ، إلى الفناء، إلى غرفة الجناح الخلفي، إلى الحانة. ألا يهم نسيب بفتح المطعم؟ ألن يكون بحاجة إلى طاهية جيدة؟ من هو أفضل منها؟ الدونا آرميندا تقول لها بأن تأمل خيراً. فلا أحد مثل غابرييلا بوسعه أن يتحمل مسؤولية مطبخ كبير كهذا ويهتم به بدقة. لكن ثمة شخص مكانها قادم من الريو، دمية من قش، يتكلم بلسان أجنبي. وبعد ثلاثة أيام سيكون التدشين، حفلة من أعظم الحفلات. والآن، لا أمل بالفعل. إنها تريد الرحيل عن إيليوس، إلى قاع البحر.

كان ذو الدورات السبع، حرية مزروعة كل يوم، حتى الصباح. كان تقدمةً وتصميماً، عنفواناً، هبةً. يجرح مثل الشعاع، يغذي مثل المطر. إنه رفيق ميدان المعركة.

«شخص برتغالي؟»

وقف رفيق ميدان المعركة. شعر بالبرد عندما مسته الرياح، فشحب ضوء القمر على يديه، وقدمت الأمواج تلثم قدمي المبارز بالسكين، مبدعتيْ الإيقاع.

«لا تبكي أيتها المرأة. مع ذي الدورات السبع لا تبكي أية امرأة، إنما تضحك من المتعة.

– ماذا بوسعي أن أفعل؟»

كانت للمرة الأولى، امرأة فقيرة وحزينة وشقية، من دون رغبة في الحياة. فلا الشمس، حتى ولا القمر، ولا الماء البارد، ولا هرّها الفاقد الشعور، ولا جسد رجل، ولا حرارة أحد آلهة التيريرو، تستطيع أن تجعلها تضحك، وأن تتحسس مذاق الحياة فيما صدرها خاوٍ. خاوٍ من السيد نسيب، الطيب، والشاب الجميل.

«إنك لا تستطيعين أن تفعلي شيئاً. فذو الدورات السبع هو الذي يستطيع أن يفعل، وسيفعل.

– ما هذا الأمر؟ إني لا أرى ذلك.

– إذا اختفى البرتغالي، فمن سيطهو؟ إذا اختفى هو يوم الحفلة، أي حيلة لهم سوى استدعائك؟ إذن، سوف يختفي.»

كان أحياناً معتماً مثل ليل بلا قمر، وقاسياً مثل حجر الصخرة المواجهة للبحر.

«ماذا ستفعل؟ تقتله؟ لا أريد.» قالت غابرييلا محتجة.

عندما كان يضحك، كان الشروق يبرز، القديس جرجس يجتاز الهلال ، والأرض التي يجدها الغريق اليائس، ومرسى القارب.

«أنا أقتل البرتغالي؟ إنه لم يسء إلي. سأجعله يرحل بسرعة. أطرده من هنا. وأُسيء معاملته قليلاً إذا عاند فقط.

– ستفعل ذلك؟

– إنك معي أيتها المرأة، لتضحكي وليس لتبكي.»

إبتسمت غابرييلا، وكان رفيق ميدان المعركة شبه مطبق العينين الشبيهتين

بجمرة متوقدة، وفكر بأنه هكذا يصبح أفضل، فهو يستطيع الرحيل، يواصل طريقه، حريته القابعة في صدره، في قلبه الطليق، أفضل من أن تموت هي من أجل رجل آخر، فهذه هي الوحيدة في الدنيا القادرة على الإمساك به، على شدّ وثاقه على ذلك المرفأ الصغير، رصيف الكاكاو ذاك، وطيَّه وتطويعه. في هذه الليلة كان يفكر بأن يقول لها، يخبرها، يسلم نفسه أسيراً للحب. هكذا أفضل، تتنهد وتبكي من أجل آخر، تموت حباً من أجل رجل آخر. يستطيع ذو الدورات السبع الرحيل. فيا رفيق ميدان المعركة، هيا نرحل، إلى العالم الخارجي.

جرته بيدها، واستسلمت له لتشكره، القارب في البحر الهادئ، الملاحة في الأعماق التي ليس لها قرار، جزيرة مزروعة بالقصب وشجر الفلفل. كانت تبحر في قارب رفيق ميدان المعركة ذي المقدمة المرتفعة. إيه! أيها الرفيق، إن صدره يحترق، بألم فقدانها. لكنه كان أحد آلهة التيريرو، في يده اليمنى العنفوان، وفي اليسرى الحرية.

عن المواطن الفاضل

في ذلك السبت، عشية التدشين الفخم لـ«مطعم التجارة» كان بالامكان أن يُرى صاحبه العربي نسيب وهو يرتدي القميص بلا سترة، يركض كالمجنون في الشارع، وبطنه الضخم يهتز فوق الحزام، وعيناه شاخصتان باتجاه مؤسسة موندينيو فالكون التصديرية.

في باب دائرة الجباية الاتحادية، تمكن النقيب من كبح جماح المهمة القلقة، ممسكاً بصاحب الحانة من ذراعه:

«ما هذا أيها الرجل، إلى أين تذهب بمثل هذه السرعة؟»

فكان النقيب يمحضه تعاطفاً منذ إعلان ترشيحه لمركز المحافظ:

«هل حدث أمر ما؟ بماذا أستطيع أن أخدمك؟

- اختفى! اختفى...»

كان صوت نسيب مختنقاً.

«اختفى، ماذا؟

- الطاهي المدعو فرناند.»

لم تلبث المدينة أن وقفت بأسرها على الغموض المطبق: من العشية حتى الليل، اختفى المشار إليه بـالطاهي: مسيو فرناند (كما يحب أن يُنادى). كان قد اتفق مع النادلين المتعاقد معهما للعمل في المطعم ومع المساعدات في المطبخ، على اللقاء في الصباح، للتأكد من الترتيبات الأخيرة لليوم التالي، فلم يحضر ولم يره أحد.

استدعى موندينيو المفوض، وأوضح له المسألة، وأوصاه بإجراء التحريات بتدقيق شديد. كان هو الملازم نفسه الذي جعله سكرتير محافظ إيتابونا يركن إلى الفرار، وهو الآن ذليل مثل عبد أمام موندينيو الذي يدعوه بالدكتور.

وفي مكتبة وقرطاسية موديلو كان جوان فولجنسيو ونيوغالو يستعرضان الافتراضات. فالطاهي، من تصرفه ونظراته المصوبة بالشكل المائل وبالشكل المستقيم، كان بكل تصميم، منحرف السلوك الطبيعي. والمسألة تتعلق بجريمة شذوذ! فقد كان يتحلق حول شيكو موليزا، واستجوب المفوض النادل الشاب الذي كال له الشتائم:

«إن ذوقه كذوق امرأة!... لا أعرف شيئاً عن هذا الشاذ. منذ أيام كدت أسدد له لكمة بساعدي، إذ تصرف بشكل أبله.»

من يدري، ربما كان ضحية لصوص، فإيليوس تستضيف عدداً كبيراً من المحتالين، الدجالين، النشالين، وأناساً قليلي الاحترام هاربين من باهيا وغيرها من الساحات. إنهم يخلفون الآن المسلحين في المشهد الإنساني للمدينة.

داهم المفوض وجنود الشرطة، المرفأ، أونياون، وكونكيستا، وبونتال وجزيرة الأفاعي. وعبأ نسيب أصدقاءه، نيوغالو، الإسكافي فيليبي، جوزويه، النادلين، وعدداً من الزبائن فقلبوا إيليوس بحثاً بلا طائل.

وأوجز جوان فولجنسيو الفرار:

- نظريتي هي أن شاذنا المحترم، أعد حقائبه وغادر إلى مكان مجهول على نفقته الخاصة. لقد صفق بجناحيه... إذ إن إيليوس ليست البلد المعطاء لهؤلاء المتأنقين ذوي المؤخرات، مكتفية بماشادينيو وميس بيرانجي القليلي الكلفة، فشعر بالعزلة ثم انتقل. وحسناً فعل، فلربما حررنا من حضوره المقرف.

أبدى نيوغالو شكاً:

«لكن بماذا سافر؟ فلم تبحر أي باخرة أمس، والباخرة كانا فييراس تبحر اليوم...

- في الأوتوبيس، في القطار...»

لا في الأوتوبيس ولا في القطار ولا على متن جواد، ولا على القدمين. فالمفوض يضمن ذلك.

وعند حوالى الساعة الرابعة، حضر الزنجي الصغير تويسكا منفعلاً. فمن بين جميع «الشرلوكات»، المكتشفين في ذلك اليوم، كان هو الوحيد الذي أتى بشيء محدد. فثمة شخص بدين وأنيق - بالوسع أن يكون الطاهي، إذ كان له شاربان ذوا طرفين ويحرك ردفيه بشكل دائري - شوهد في ليلة متأخرة من قبل بغي فقدت الرواج، كانت قادمة من كباريه «باتي فوندو» فتبينت إلى جانب مخازن المرفأ، الشخص، يقوده ثلاثة أفراد مشبوهين.

كل هذا روته لتويسكا، لكن أمام الشرطة، كان الأمر أقل تحديداً بكثير. إذ بدا لها أنها شاهدته، من دون تأكيد، فقد شربت خمراً حتى الثمالة، وما كانت تعرف من هم الرجال، سمعتهم يتكلمون. لكنها، في الواقع، تعرفت بكل دقة إلى السيد نيلو والزنجي تيرينسو وهو مترعم الاثنين، ولا تعرف اسمه، لكنه هو الذي تتوق اليه مع جميع المومسات الرخيصات في كباريه باتي فوندو. إنه شخص خطر في المبارزة بالسكاكين، قادم من باهيا وذو سمعة سيئة. والانطباع الخفي الذي يتركه لدى المرء، هو الرجفة في الصدر. كان مع الطاهي المذكور في عمق المياه في المرفأ.

كانت نادمة لأنها تكلمت مع تويسكا على القضية. ولم يفطن أحد إلى ضرورة

البحث في بيت دورا حيث بدأ فرناند في البكاء وانتهى بالمساعدة في الخياطة، طالما أن المساعدات قد تخلين عن المجيء في ذلك النهار، ووافق كلياً على السفر عند المساء، في الدرجة الثالثة بباخرة تابعة للشركة الباهيانية مرتدياً بلوزة بحار، إذ في الباخرة نفسها يسافر ذو الدورات السبع. وقد تعهدت دورا بشحن الحقائب إليه، مباشرة إلى الريو.

وهكذا، عند نهاية المساء، حضر جوان فولجنسيو إلى الحانة وهي في ذروة نشاطها، فالتقى نسيب في اسوا حالات التفرد. فكيف يدشن المطعم في اليوم التالي؟ كل شيء جاهز، المؤن مشتراة، والخلاسيات السوداوات قد اتفق معهن ودربهن فرناند، والنادلان في موقعهما، والدعوات أُعدت للغداء الفاخر. سيأتي أناس من إيتابونا، وخصوصاً أريستو تيليس، ومن آغوا بريتا، ومن بيرانجي، وسيأتي ألتينو براندون من ريو دو براسو. فأين يعثر على طاهية لتخلف المختفي؟ أجل، لأنه لا يستطيع الاعتماد حتى على الطاهية ابنة ولاية سيرجيبيا. فقد رحلت بعدما تشاجرت مع فرناند تاركة الغرفة الصغيرة في الجناح الخلفي بوضع قذر. بالنسبة للخلاسيات السوداوات المساعدات فهن غير صالحات للطهو في الحقيقة، ولا يصلحن إلا لقطع اللحم وذبح الدجاج وتنظيف الأمعاء، والاهتمام بأمر النار. فأين يعثر على طاهية في هذا الوقت القصير؟ إلا إذا شاء أن يغلقه في اليوم الذي يلي.

عرض الأمر على صديقه بائع الكتب باكياً ، في الغرفة المخصصة للبوكر حيث أخفى اكتئابه، أمام زجاجة كونياك، من دون مزج. وكان الأصدقاء حول طاولات الحانة يعلقون بأنهم لم يروه قبلاً يائساً إلى هذا الحد، حتى في تلك الأيام التي قطع فيها علاقته بغابرييلا. ربما كان في ذلك الحين أعمق حزناً ويأساً، لكنه كان صامتاً، هادئاً متهتكاً وحزيناً، فيما نسيب الآن يشكو إلى السماء، يصرخ بخرابه وبفضيحته. وعندما جاء جوان فولجنسيو، جرَّه إلى غرفة البوكر:

«إني ضائع يا جوان. ماذا بوسعي أن أفعل – منذ أن أبطل بائع الكتب زواجه، كان يأتمنه على ثقته اللامحدودة– .

- إهدأ يا نسيب، ستعثر على حل.

- أي حل؟ أين سأتدبر طاهية؟ فالشقيقتان دوس ريز لم تقبلا طلباً كهذا، قبل يوم واحد. حتى لو قبلتا، ماذا ستطهوان في يوم الاثنين للزبائن؟

«أستطيع إعارتك ماروكاس لعدة أيام. إنما هي لا تطهو جيداً إلا إذا كانت زوجتي قربها من أجل التوابل.

«لعدة أيام، بماذا يفيد ذلك؟»

كان نسيب يجرع الكونياك ولديه رغبة في البكاء:

- لا أحد يقدم إليَّ حلاً. وكل الحلول مقطوعة القدم أو الرأس. والدونا آرميندا المجنونة اقترحت عليّ الاتفاق مع غابرييلا من جديد. تصور!

فنهض جوان فولجنسيو في حماسة شديدة:

- لقد أُنقذ الوطن يا نسيب! هل تدري من هي الدونا آرميندا؟ إنها كولومبو. لقد اكتشفت أميركا. حُلت المشكلة. أنظر أنت، الحل أمامنا. إنه الحل الجيد، السليم، الكامل ونحن لا نراه. لقد حُل كل شيء يا نسيب.»

سأله نسيب بحذر وريبة:

«غابرييلا؟ هل ترى ذلك؟ ألا تمزح؟

- ولما لا؟ أما كانت طاهيتك؟ فلماذا لا تستطيع أن تعود طاهيتك؟ وماذا بعد؟

- كانت زوجتي...!

- إنك اتخذتها عشيقة، ألم يكن ذلك؟ لأن الزواج كان زائفاً، أنت تعرف... ولهذا بالضبط، إذا اتفقت معها مرة أخرى كطاهية، فإنك تصفي كلياً هذا الزواج، حتى أكثر من بطلانه. ألا يبدو هذا؟

- كان درساً جيداً لها. تعود طاهية بعدما كانت سيدة... فكر نسيب بذهول.

- إذن؟ فالخطأ الوحيد في كل هذه القصة كونك قد تزوجت بها، وكان ذلك مسيئاً لك، وأسوأ لها. فإذا أردت فإني سأتحدث إليها.

- تُرى، هل تقبل؟

- إني أضمن لك أنها ستقبل. ولسوف أذهب الآن بالضبط.

- قل لها إن ذلك لبعض الوقت فقط...

- لماذا؟ إنها طاهية، وأنت تستخدمها طالما هي تصلح لك. فلماذا: لبعض الوقت؟» سأعود حالاً مع الإجابة.

وهكذا في تلك الليلة بالذات، وهي تسبح في الفرح، نظفت غابرييلا الغرفة الصغيرة في الجناح الخلفي واحتلتها. وقبل ذلك كانت شكرت ذا الدورات السبع في بيت دورا. ومن نافذة منزل نسيب، لوحت بالمنديل عندما اجتازت الباخرة كانا فييراس بعد الساعة السادسة مساءً، وأبحرت إلى باهيا. وفي اليوم التالي، عند ساعة الغداء، عثر المدعوون، وهم أكثر من خمسين، من جديد على الأطباق ذات المذاق. الطعام الذي ليس له شبيه، التوابل التي هي بين السامي والإلهي.

كان غداء التدشين ناجحاً ورائعاً. ومع الكؤوس الفاتحة للشهية قُدمت الأطعمة المالحة والحلوى كما في السابق، وعلى الطاولة كانت الأطباق تصطف في عرض للروائع. واستمتع نسيب وهو جالس بين موندينيو والقاضي بالخطابين المؤثرين اللذين ألقاهما النقيب والدكتور. «ابن إيليوس الفاضل» قال النقيب، المكرّس نفسه لتقدم بلده. «المواطن الشريف نسيب سعد، الذي خص إيليوس بمطعم في مستوى العواصم الكبرى».

وأشاد به الدكتور. ثم أجاب جوزويه باسم نسيب، شاكراً ومطرياً، هو أيضاً، العربي. وكان تكريساً سامياً في كلمات موندينيو الراغب، كما قال، بأن يمد يده لينال «الفلقة». فقد أتى بطعامه من الريو، وكان نسيب معارضاً لذلك. وهو على صواب. فلا يوجد في العالم طعام يمكن أن يقارن بطعام باهيا هذا.

عند ذلك، أراد الجميع أن يروا الفنان الذي أعد ذلك الغداء، اليدين الساحرتين اللتين أبدعتا تلك الملذات. فنهض جوان فولجنسيو ومضى ليأتي بها من المطبخ. فجاءت مبتسمة، وهي تنتعل خفين وتضع مئزراً فوق فستانها المصنوع من الحرير الأزرق، ووردة حمراء وراء أذنها. وصرخ القاضي: غابرييلا! وأعلن نسيب بصوت مرتفع:

- لقد اتفقت معها مرة أخرى لتكون طاهية...

صفق جوزويه ونيوغالو أيضاً، وحيّاها الجميع، ووقف بعضهم ليسلموا عليها. وكانت تبتسم وهي خافضة العينين، وشريط حريري مشدود إلى شعرها.

وهمس موندينيو لأريستوتيليس الجالس إلى جانبه:

- هذا التركي معلّم في الاستمتاع بالحياة.

أرضية غابرييلا

إنتهت أخيراً، أشغال المضيق التي تأخرت مرات عديدة. فقد أُنشئت قناة جديدة عميقة ومن دون تقاطع. وبالأمكان أن تعبر منه بدون خطر الجنوح، بواخر لويد وإيتا والشركة الباهيانية. وفوق كل هذا، يمكن لبواخر الشحن الكبيرة أن تدخل مرفأ إيليوس لتسلم أكياس الكاكاو مباشرة من هنا.

وكما أوضح كبير المهندسين، فإن التأخير في الإنجاز النهائي للأشغال كان بسبب الصعوبات والمعوقات التي لا تحصى. لم يشر إلى الضوضاء التي أحاطت وصول القاطرات والفنيين، تلك الليلة التي أُطلقت فيها الطلقات النارية والقذف بالزجاجات في الكباريه، والتهديدات بالقتل في البداية. كان يشير إلى رمال المضيق غير المستقرة: تحت تأثير المد والرياح والأنواء، كانت تتحرك وتغير معالم الأعماق وتغطي وتدمر في ساعات قليلة عمل أسابيع. وكان يجب أن يبدأوا ثم يعودوا من جديد، بصبر، معدلين خريطة القناة أكثر من عشرين مرة، باحثين عن النقاط الأكثر تحصيناً، وقد بلغ الأمر بالفنيين في لحظة معينة، أن أبدوا شكاً في النجاح، فاعتراهم الفتور، فيما كان الناس الأكثر تشاؤماً في المدينة يكررون المجادلات في الحملة الانتخابية؛ كان مضيق إيليوس معضلة غير قابلة للحل، ولا وسيلة لها.

غادرت القاطرات والجرافات ورحل المهندسون والفنيون، وبقيت إحدى

الجرافات في المرفأ بصورة دائمة لتكون على استعداد لمعالجة تحركات الرمال، ولتبقي القناة الجديدة مفتوحة أمام الملاحة بأكبر اتساع ممكن.

أقيمت حفلة كبرى عند الوداع، فاحتسي فيها العرق بشكل مفرط، ابتدأت في مطعم التجارة وانتهت في كباريه إلدورادو. فقد احتُفل بإنجاز المهندسين، بعنادهم، بطاقتهم المهنية. وبلغ الدكتور ذروة شهرته في خطاب التكريم الذي قارن فيه كبير المهندسين بنابليون، «لكنه نابوليون المعارك من أجل السلام والتقدم، قاهر البحار غير القابل للتطويع بكل جلاء، والنهر الغادر، والرمال العدوة للحضارة، والرياح العاصفة». وبالإمكان التحلي باعتزاز من أعلى منارة جزيرة بيرنامبوكو، من مرفأ إيليوس «الذي حرره من عبودية المضيق، المفتوح أمام الأعلام كافة والسفن أيضاً، بواسطة ذكاء واندفاع المهندسين النبلاء والفنيين الكفوئين».

تركوا أشواقاً وعشيقات. وعلى الرصيف عند الوداع، بكت نساء المرتفعات، وعانقن الملاحين. إحداهن كانت حاملاً، وقد وعد الرجل بأن يعود. وكبير المهندسين حمل معه شحنة غالية من عرق إيليوس الجيد، علاوة على قرد من نوع جوبارا ليذكره في الريو بهذه الأرض ذات المال الوفير واليسير المنال، والإقدام والعمل الشاق.

غادروا عندما بدأت الأمطار الدقيقة التوقيت في تلك السنة، بالهطل قبل عيد القديس جرجس. وأزهرت في الحقول، أشجار الكاكاو وآلاف الأشجار الفتية التي أعطت أولى ثمارها، معلنة أيضاً أن الموسم الجديد أكبر من الموسم المنصرم. وارتفعت الأسعار بدورها أكثر، فزادت المال الذي يجري في المدن والدساكر، فلم تكن ثمة زراعة مشابهة لها في البلد كله.

من رصيف حانة فيزوفيو كان نسيب يشاهد القاطرات، كديوك صغيرة جاهزة للعراك، تشق أمواج البحر، جارة الجرافات في طريقها إلى الجنوب. كم مرَّ في إيليوس من أمور بين وصول المهندسين والغوّاصين، الفنيين والملاحين ورحيلهم... فالكولونيل راميرو باستوس العجوز لن يرى البواخر الكبيرة تدخل المرفأ. فقد أخذ يظهر في الجلسات الروحية، تحول إلى مبشر بعد أن تحلل، يزود شعب المنطقة

بالنصائح، زارعاً الطيبة، الغفران، والصبر. هكذا تؤكد الدونا آرميندا، الكفوءة في هذه المادة المثيرة للنقاش والغامضة.

تغيرت إيليوس كثيراً في هذا الوقت القصير من الأشهر المليئة بالأحداث. فكل يوم أمر جديد، وكالة جديدة لمصرف، مكاتب جديدة لتمثيل شركات الجنوب وحتى شركات البلاد الأجنبية، متاجر ومساكن. منذ أيام، وفي بناء قديم مؤلف من طبقتين في أونياون، أُقيم اتحاد المهنيين والعمل، مع مهنية الفنون والمهن، حيث يدرِّس فتيان فقراء، ويتعلمون حرفاً؛ نجار، عامل بناء، وإسكافي، مع مدرسة ابتدائية للراشدين، مخصصة للحمالين في المرفأ، لمجففي الكاكاو، لعمال مصنع الشوكولاتة. كان الإسكافي فيليبي قد تكلم في المؤسسة المقامة والتي حضر إليها أكثر الأشخاص أهمية في إيليوس. فصاح في خليط من البرتغالية والإسبانية، أن زمن العمال قد حان، وفي أيديهم مصير العالم. وكان من العبث التأكيد بأن جميع الحاضرين إنما صفقوا له بشكل آلي، حتى الدكتور ماوريسيو كاييريس نفسه، وكولونيلات الكاكاو بالذات، سادة امتدادات الأرض الشاسعة وحياة الرجال المحنيي الظهور فوق الأرض.

وكانت حياة نسيب أيضاً مليئة بالتغيرات في هذه الاشهر: تزوج وفُسخ زواجه، عرف النجاح وخشي الإفلاس. كان صدره زاخراً بالاندفاع والفرح، وبعدها خاوياً من الحياة عدا اليأس والألم. كان سعيداً أكثر من اللازم، وتعيساً أكثر من اللازم، والآن كان كل شيء هادئاً ومطمئناً من جديد. فقد عادت الحانة إلى إيقاعها القديم، إيقاع أوقات غابرييلا الأولى، الزبائن يمكثون فترة أطول في ساعة الكؤوس الفاتحة للشهية متناولين كؤوساً اضافية، وبعضهم يصعدون لتناول الغداء في المطعم.

كانت حانة فيزوفيو تحظى بالنجاح، فتنزل غابرييلا عند منتصف النهار من المطبخ في الطابق العلوي وتمر بين الطاولات والابتسامة تعلو ثغرها، والوردة وراء أذنها. وكانوا يقولون لها كلمات عذبة، ويصوبون إليها نظرات شرهة، ويلمسونها من يدها، وواحد منهم جريء يصفعها على ردفيها، والدكتور يدعوها بـ«ابنتي».

كانوا يشيدون بحكمة نسيب وطريقته في التكيف التي خرج بها بشرفه ومكسبه،

من دوامة الإشكالات التي كان متورطاً فيها. وكان العربي يدور بين الطاولات متوقفاً ليصغي وليتحدث، ثم يجلس مع جوان فولجنسيو، والنقيب، ومع نيوغالو وجوزويه ومع ريبيرينيو وأمانسيو ليال. كأنها معجزة من القديس جرجس أعادت الزمن إلى الوراء، وكأن شيئاً خاطئاً ومحزناً لم يكن قد حدث. كان الوهم كاملاً لولا المطعم وغياب تونيكو باستوس الذي ألقى مرساته نهائياً في حانة العرق الذهبي مع مشروبه المر وطاقي حذائه، بصفته غاوي نساء.

أظهر المطعم توظيفاً معقولاً لرأس المال فقط، فأعطى ربحاً أكيداً إنما متواضع فليس هو المشروع الرائع الذي يتصوره نسيب وموندينيو، قبل أن تتواجد البواخر التي تمر في المرفأ. فالحركة خفيفة وتقتصر على تقديم وجبات الغداء. وأهالي البلد يتناولون وجبات الطعام في بيوتهم عادة. إنما من مرة إلى أخرى، وهم مأخوذون بأطباق غابرييلا، يأتي الرجال بمفردهم أو مع عائلاتهم، فيتناولون الغداء هناك من أجل تنويع وجبات البيت العادية اليومية. وكان الزبائن الدائمون يُحسبون بأصابعهم: موندينيو، دائماً تقريباً مع مدعوين، جوزويه والأرمل بيسووا. وفي المقابل، حظي القمار في الليل، في قاعة المطعم، بالنجاح الكبير. فقد تشكلت دائرة من ست حلقات للبوكر، وللسبعة والنصف، والبيسكا. وكانت غابرييلا تحضر في فترة بعد الظهر أطعمة مالحة وحلوى، فيسيل المشروب، ويجمع نسيب النسبة المئوية عن عائدات اللعب المخصصة للمحل. وبشأن القمار، فإن نسيب عانى أزمة ضمير: يجب أم لا، اعتبار موندينيو شريكاً في هذا الجانب من العمل؟ بالتأكيد لا، إذ إن المصدّر، دخل برأس المال من أجل المطعم وليس من أجل الطاولة الخضراء؛ ربما نعم، كان يفكر بعكس رغبته، آخذاً في الحسبان إيجار القاعة المدفوع شراكة، وملكية الطاولات والمقاعد أيضاً، والأطباق التي تقدم، والكؤوس التي يحتسونها. هناك الربح كان كبيراً، يعوض عن العدد القليل في الزبائن وقلة رواد المطعم من أجل الغداء.

كان نسيب يحب الاحتفاظ بكل شيء لنفسه، فصمم على أن يكلمه في الموضوع.

وكان لدى مونديينو تعاطف خاص مع العربي، فأعاد التأكيد، بعد إشكالات الزواج لشريكه الحالي، بأن نسيب هو الرجل الأكثر تحضراً في إيليوس، فتظاهر بالإصغاء الكلي واستمع إليه شارحاً المعضلة. كان نسيب يرغب في معرفة رأي المصدّر. هل يعتبره شريكاً في القمار أم لا؟

«وما هو رأيك أيها المعلّم نسيب؟

- أنظر أنت أيها السيد.» رد نسيب وهو يفتل طرفيْ شاربيه. «إذا فكرت كرجل مستقيم، أرى أنك كشريك، يجب أن يكون لك نصف الأرباح كما لك في المطعم. وإذا فكرت كابن البلد، فبوسعي القول إنه لا توجد ورقة موقعة، وإنك رجل ثري، بغنى عن هذا. وإني ما تكلمت قط على القمار، وإني فقير، أجمع بعض المال لأشتري حقلاً صغيراً من الكاكاو، وهذا العائد الإضافي يساعدني كثيراً. لكن كما كان يقول الكولونيل راميرو، الالتزام هو التزام حتى ولو لم يكن على الورق. وقد جئت بحسابات اللعب لتدقق فيها...»

كان يهمّ بوضع الأوراق فوق طاولة مونديينو، فأبعد المصدّر يده، وربت كتفه:

«إحتفظ بحساباتك وبمالك أيها المعلم نسيب، فلست شريكاً في ألعاب الميسر. وإذا أردت أن تصبح مطمئناً كلياً مع ضميرك، إدفع لي إيجاراً زهيداً عن استعمال القاعة ليلاً. أي مبلغ من مائة ألف ريال؛ أو بشكل أفضل، أعطني مائة ألف ريال في الشهر من أجل بناء ملجأ العجزة. أين رأيت نائباً اتحادياً لديه محل للعب القمار؟ إلا إذا كنت تشك بانتخابي...

«لا يوجد أمر مؤكد أكثر من ذلك في العالم. أنا شاكر لك يا سيد مونديينو. وإني لمدين لك.

- قل لي بصراحة...» سأله مونديينو عندما نهض ليخرج - وبصوت خفيض فيما هو يلمس العربي بإصبعه - «ألا تزال الذكرى تؤلمك؟

- كلا يا سيدي، إطلاقاً...» أجابه نسيب، بوجه مشرق وبابتسامة صادقة.

- إنني أحسدك، أنا لا أزال أتالم.» قال مونديينو محني الرأس.

كانت لديه رغبة بأن يسأله إذا عاد إلى النوم مع غابرييلا، فرأى ذلك فجاً. وخرج نسيب سابحاً في المتعة، ليودع مالاً في المصرف.

في الواقع لم يكن يشعر بأي شيء. فقد انتهى من كل أثر للألم، للعذاب. كان يخشى عند الاتفاق مجدداً مع غابرييلا، أن يذكره حضورها بالماضي، وأن يحلم بتونيكو باستوس وهو عار، على سريره. لكن شيئاً لم يحدث. كان ذلك كله كابوساً طويلاً وقاسياً. فقد عادت علاقات الأوقات الأولى، علاقات رب العمل والطاهية، وهي منطلقة كثيراً وفرحة. ترتب البيت، تغني، تأتي إلى المطعم فتعد الأطباق للغداء، وتنزل إلى الحانة في ساعة الكؤوس الفاتحة للشهية لتعلن عن وجبة الطعام من طاولة إلى أخرى، مدبرة زبائن للطابق العلوي. وعندما تنتهي الحركة، حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، يجلس نسيب للغداء، فتخدمه غابرييلا، كما في السابق. وكانت تدور حول الطاولة، تجلب له الطعام، وتفتح زجاجة جعة. ثم تأكل بعد ذلك مع النادل الوحيد (صرف نسيب الآخر، كان غير ضروري إزاء الحركة المتقلصة في المطعم) ومع شيكو موليزا، فيما فالتر الذي خلف بيكو فينو، يراقب الحانة. فيتناول نسيب جريدة قديمة من باهيا، ويشعل سيكاراً من نوع القديس فيليكس، وفي قعر سرير القيلولة يجد الوردة الساقطة. في الأيام الأولى كان يرميها خارجاً، وبعد ذلك أخذ يحتفظ بها في جيبه. وتتساقط الجريدة إلى الأرض، وينطفئ السيكار فينام نسيب قيلولته، في الظل والنسيم، ويستيقظ مع صوت جوان فولجنسيو قادماً إلى المكتبة القرطاسية. كانت غابرييلا تعد الأطعمة المالحة والحلوى لفترة ما بعد الظهر والليل، وتذهب بعد ذلك إلى المنزل، فيشاهدها تعبر الساحة، منتعلة خفيها، وتتوارى خلف الكنيسة.

ماذا ينقصه ليصير سعيداً كلياً؟ إنه يأكل طعام غابرييلا الذي لا يضاهيه طعام، ويكسب مالاً، ويجمعه في المصرف، وقريباً سيبحث عن أرض ليبتاعها. كانوا قد كلّموه على أرض مستطيلة ممهدة تقبع بعد سلسلة جبال بافوريه، وهي أرض جيدة للكاكاو لا يوجد مثيل لها أبداً. وعرض ريبيرينيو نفسه عليه بأن يأخذه إلى هناك، لأنها كانت قريبة من مزارعه.

أصدقاؤه وزبائنه موجودون يومياً في الحانة، وأحياناً في المطعم. وجولات الداما والغامون. والحديث الحسن من جوان فولجنسيو، من آري، ومن جوزويه ومن ريبيرينيو. وهذان الاثنان دائماً معاً منذ أن أقام المزارع لغلوريا بيتاً قرب المحطة. حتى أن الثلاثة كانوا أحياناً يأكلون في المطعم، وهم على ما يرام.

ماذا ينقصه ليصبح سعيداً كليّاً؟ فلا غيرة تنهش صدره، ولا خوف من أن يفقد الطاهية، فأين ستحصل على مرتب أفضل ومركز أكثر ضماناً؟ وأكثر من هذا، كانت غير شاعرة بعروض إقامة بيت لها وحساب في المتجر، والفساتين الحريرية، والأحذية، وترف العشيقات. فلماذا لا يعرف نسيب؟ كان ذلك غير معقول بلا شك، لكن ما كان يهمه هو اكتشاف الدافع. فلكل واحد جنونه. ربما كانت تلك القصة عن زهرة الريف التي لا تصلح للأصص، والتي تكلم عنها جوان فولجنسيو مرة. فلم يعد هذا يؤثر فيه، كما لم تعد تثيره الكلمات الهامسة عندما تصل إلى الحانة، ولا الابتسامات والنظرات، ولا الصفعات على المؤخرة، واليد على الذراع أو مداعبة النهد بشكل خفيف. فكل ذلك يشد الزبائن، كأس أكثر، وكأس جديد.

كان القاضي يحاول أن يسرق لها الوردة من وراء أذنها، وهي تهرب. وكان نسيب يرمقها غير مبال. فماذا ينقصه ليصبح سعيداً كلياً؟ ابنة الأمازون، تلك الهندية في بيت ماريا ماشادون، كانت تسأله في الليالي التي يلتقيان فيها، ضاحكة بأسنانها الوحشية:

– هل تحب فتاتك مارا؟ وهل تراها لذيذة؟

كان يراها لذيذة. تبدو صغيرة وبدينة، وجهها عريض ومستدير. تجلس على ساقيها في السرير، كتمثال من النحاس. إنه أقلّه مرة في الأسبوع، فيضاجعها، كان غراماً من دون تعقيدات، من دون غموض. إنه نوم بلا مفاجآت، بلا دفعات عنيفة من النشوة، بلا عواء الكلاب، بلا صهيل البغال عندما تتناسل، بلا موت وولادة.

كان يقيم علاقات مع نساء أُخريات أيضاً. فلمارا عديد من المعجبين، الكولونيلات يحبون تلك الثمرة الخضراء من الأمازون. وكانت لياليها التي تكون

فيها حرة قليلة. فكان نسيب يصطاد صدفة، في الكباريهات وفي بيوت البغاء، نساء ذوات جاذبيات متنوعة. حتى أنه عاشر، ذات مرة، عشيقة كوريولانو الجديدة في بيت في الساحة، وهي خلاسية سوداء صغيرة، استقدمها من الحقل، ولم يعد كوريولانو يحاول معرفة ما إذا كان مخدوعاً. وهكذا كان نسيب يتسكع هنا وهناك، كعادته القديمة. ومع هذا فإن عشقه الدائم تواصل لابنة الأمازون. فمعها كان يرقص في الكباريه، ومعاً يحتسيان الجعة، ويأكلان الأطعمة المقلية. وحينما تكون حرة، تكتب له رسالة بإملائها المدرسي، فيذهب لرؤيتها عندما يغلق الحانة. كانت أياماً لذيذة تلك الأيام التي تكون الرسالة في جيبه، فيتمتع مسبقاً بليلة في مخدع مارا.

ماذا ينقصه ليكون سعيداً كلياً؟ ذات يوم أرسلت إليه مارا رسالة صغيرة تقول فيها إنها تنتظره ليلاً «ليفعلا ما تفعله القطط» فابتسم راضياً. وبعد أن أغلق الحانة ذهب إلى بيت ماريا ماشادون. هذه الشخصية التقليدية في إيليوس، السيدة صاحبة المبغى الأكثر شهرة، قالت له بعد أن قبلته:

– لقد جئت من دون جدوى، أيها التركي الصغير. فإن مارا مع الكولونيل ألتينو براندون. جاء من ريو دو براسو خصيصاً، فماذا بوسعها أن تفعل؟

خرج غاضباً، ليس من مارا، فليس بوسعه أن يتدخل في حياتها ويمنعها من كسب خبزها. لكن من الليلة المحبطة، فالرغبة مثل فأر يقضمه، والمطر المتساقط يتطلب جسد امرأة تحت الشراشف.

دخل بيته، ونزع ثيابه. من الجناح الخلفي، من المطبخ أو من خزانة المؤونة، انبعث صوت وعاء منكسر. فذهب ليرى ما هو. كان هرّ هارباً إلى الفناء. وكان باب الغرفة الصغيرة في الجناح الخلفي مفتوحاً، فاختلس النظر. كان فخذ غابرييلا متدلياً من السرير وهي تبتسم في نومها. والنهد يبرز خارج اللحاف ورائحة القرنفل تشعره بالدوار. فاقترب. فتحت عينيها وقالت:

«سيد نسيب...»

نظر إليها، ورأى وهو مهلوس، أرضاً مبللة بالمطر، أرضاً محروثة بالمجرفة

مزروعة بالكاكاو، أرضاً حيث تنبت الأشجار وينمو العشب. أرض الوديان والجبال، أرض الكهف السحيق الغور، حيث كان هو مغروساً. فمدت ذراعيها وشدته إليها.

عندما استلقى إلى جانبها ولمس حرارتها، أحس فجأة بالاذلال، بالغيظ، بالحقد، بالغياب، بوجع الليالي المميتة، بالعنفوان المجروح وبفرح الاحتراق في نيرانه. فأمسك بها بقوة، ما ترك أثراً بنفسجياً على بشرتها ذات اللون القرفي:

«كلبة!»

إبتسمت بشفتيها التواقتين إلى القبلات والعضات، ابتسمت بنهديها المنتصبين والمرتعشين، وبفخذيها الملتهبين، وببطنها الراقص والمنتظر، وتمتمت:

«ليس ثمة أي أهمية لذلك ...»

وأسندت رأسها إلى صدره الكثيف الشعر: «يا فتاي الجميل.»

عن الباخرة السويدية
مع عروس البحر العاشقة

الآن، أجل، كان سعيداً كلياً. فالزمن يجري، وفي يوم قريب ستتم الانتخابات. لا أحد يشك بالنتائج، حتى ولا الدكتور فيتور ميلو، المكتئب في عيادته في ريو ده جانيرو. كان ألتينو براندون وريبيرينيو قد أوصيا على عشاء احتفالي في مطعم التجارة بعد أسبوع، مع الشمبانيا والمفرقعات، وأُعلن عن احتفالات عظيمة. وجرى اكتتاب، افتتحه مونديني، لشراء المنزل الذي وُلد فيه النقيب وتقديمه إليه. والذي كان يسكنه كازوزينيا أوليفيرا ذو الذكرى العابقة بالأشواق. لكن محافظ المستقبل قام بمبادرة كريمة: وهب المال للمستشفى المجاني المخصص للأطفال الفقراء والذي افتتح في مرتفع كونكيستا من قبل الدكتور ألفريدو باستوس. كان نسيب يرغب في أن يزور مع ريبيرينيو، بعد الانتخابات، تلك الأراضي التي يتكلمون عليها، الواقعة وراء سلسلة جبال بافوريه، لشراء قطعة أرض لزراعة حقل من الكاكاو.

كان يلعب جولته في الغامون، ويتحدث مع الأصدقاء، ويروي حكايات عن سورية: «في بلاد أبي، الأمر أسوأ...» ويخلد إلى قيلولته مشبع البطن، يغط باطمئنان، ثم يذهب إلى الكباريه مع نيوغالو، ويضاجع مارا، ومع أخريات أيضاً. ومع غابرييلا كل مرة لا تكون عنده امرأة، ويصل إلى البيت من دون إرهاق ومن دون نعاس. ومعها، ربما أكثر من غيرها. لأنها لا توجد امرأة تضاهيها. فهي حامية جداً وندية، وتهتاج في السرير إلى حد الجنون، وعذبة في الحب، وهي مولودة لهذا. إنها الأرض حيث كان مزروعاً. كان نسيب ينام وساقه الثقيلة فوق ردفيها المستديرين، كما في السابق. مع فارق واحد، هو إنه لم يعد يشعر بالغيرة من الآخرين، ولا بالخوف من أن يفقدها، كما أنه لم يعد يخشى من أن تتغير. ففي ساعة القيلولة، قبل أن يغفو، كان يفكر في قرارة نفسه: الآن لم يعد الأمر إلا للسرير، يشعر إزاءها بكل ما يشعره إزاء جميع الأُخريات، مارا، راكيل، والشقراء ناتاشا، من دون أن يضاف شيء، من دون الحنان السابق. هكذا كان حسناً. إنها تذهب إلى منزل دورا، فترقص وتغني، وتجري اتفاقات على احتفالات لشهر مريم. وكان نسيب يعرف ذلك فيهز كتفيه، حتى إنه يخطط لمشاهدة الاحتفالات. فقد كانت طاهيته التي ينكحها، عندما يكون راغباً فيها. وأي طاهية! لا يوجد أفضل منها. كانت ممتعة في السرير أيضاً، حتى أكثر من ممتعة، إنها امرأة تدفع إلى الجنون!

في بيت دورا، كانت غلوريا تضحك وتبتهج، تغني وترقص. في طاقم الملوك تحمل البيرق، تقفز فوق النار في الليلة المقدسة التي تُقام بعيد القديس جرجس. كانت غابرييلا تتمتع، فالعيش ممتع. وعندما تدق الساعة الحادية عشرة تعود إلى البيت وتنتظر السيد نسيب. ربما تكون الليلة التي فيها يأتي إلى غرفتها، حيث شاربه المثير للحساسية على عنقها، وساقه الثقيلة فوق ردفيها، وصدره الناعم كوسادة. في البيت كانت تشد الهرّ إلى وجهها، فيموء بصوت خفيض. وتصغي إلى الدونا آرميندا وهي تتحدث على الأرواح والأولاد الحديثي الولادة. تدفئها الشمس عند الصباح في الأيام غير الممطرة، وتعض ثمرات الغوايابا، والبيتانغا الحمراء، تتحدث ساعات

تضيعها مع صديقها تويسكا الذي يتعلم الآن النجارة. وتركض حافية القدمين على الشاطئ وقدماها في المياه الباردة. ترقص في الحلقة مع الأطفال في الساحة في فترة بعد الظهر، وتختلس النظر إلى ضوء القمر عند انتظارها نسيب. كذلك كانت ترى أن العيش ممتع.

قبل أربعة أيام فقط من يوم الأحد الذي تجري فيه الانتخابات، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، صفرت في بحر إيليوس بشكل مهيب، باخرة شحن سويدية لم يشاهد قطّ بحجمها في تلك المناطق البحرية. فخرج الزنجي الصغير تويسكا راكضاً لينشر النبأ مجاناً في شوارع الوسط التجاري. تجمع السكان في جادة الشاطئ.

حتى وصول المطران لم يكن حماسياً كهذا. فارتفعت المفرقعات، وانفجرت في السماء. وصفرت باخرتان تابعتان للشركة الباهيانية في المرفأ، وحيّت باخرة الشحن أبواق المراكب الشراعية الكبيرة والزوارق البخارية. وخرجت الزوارق النهرية الطويلة والقوارب إلى خارج المضيق، مواجهة عرض البحر، لتواكب الباخرة السويدية على شكل قافلة.

اجتازت المضيق ببطء، وفي ساريتيها عُلقت أعلام جميع البلدان، في احتفال بالألوان. وكان الشعب يركض في الشوارع، ويتجمع عند أحواض المرفأ والناس على الأرصفة التي تعج بهم كالنمل. وقدم نادي أوتيربي ١٣ أيار عرضاً لموسيقى الطبول، وجواكين يقرع على الطبل، وأغلق السوق التجاري أبوابه، وعطلت المدارس التكميلية الخاصة والمجمع المدرسي وثانوية إينوش، وهتف الأولاد في المرفأ، وفتيات ثانوية الراهبات كن يغزلن على الأرصفة، وأطلقت السيارات والشاحنات والأوتوبيسات أبواقها. أما غلوريا فكانت تضحك بصوت مرتفع في جمع بين جوزويه وريبيرينيو في مواجهة السيدات. وتونيكو باستوس، مثال الجدية، كان يتأبط ذراع الدونا أولغا، وجيروزا في ثياب الحداد الكامل، تلقي التحية على موندينيو فالكون، ونيلو مع صفارته يقود تيرينسيو، ترايبرا، والشاب باتيستا، والأب باسيليو مع أبنائه بالتبني، ووحيد الساق صاحب كباريه باتي فوندو ينظر بحسد

إلى نسيب وبلينيو آراسا. كانت بعض العانسات ترسم إشارة الصليب، والشقيقتان دوس ريز كانتا تبتسمان وهما غير مستقرتين. ففي المذود القادم ستجسدان باخرة الشحن. سيدات الطبقة الراقية وفتيات في سن الزواج، جنباًالى جنب مع بغايا وماريا ماشادون، قائدة الشوارع الجانبية والكباريهات. الدكتور يتحضر للخطبة الصعبة. كيف سيقدم أوفينيزيا في خطاب موجه إلى الباخرة السويدية؟ راعيات دورا جلبن بيرق طاقم الملوك وتقودهن غابرييلا بخطى راقصة. كولونيلات الكاكاو يلوحون بمسدساتهم، ويطلقون النار في الهواء. مدينة إيليوس بأجمعها عند أحواض المرفأ.

في احتفال رمزي، وهي فكرة ضاحكة من جوان فولجنسيو، حمل المصدّران موندينيو فالكون وستيفنسون ، بمساعدة أمانسيو ليال وريبيرينيو عن المزارعين، كيساً من الكاكاو إلى الطرف الأقصى من الرصيف، حيث ألقت الباخرة مرساتها، ليكون أول كيس من الكاكاو يُشحن مباشرة من إيليوس إلى البلاد الأجنبية. ورد على خطاب الدكتور المثير للانتباه، نائب قنصل السويد، الرجل الطويل وكيل شركة الملاحة.

في الليل، نزل البحارة من الباخرة، وازدادت الحماسة في المدينة. دفعوا عنهم ثمن المشروب في الحانات، وأخذوا الضباط إلى الكباريهات. وكاد الآمر، ان يكون المنتصر. كان مدمناً على احتساء المشروب الصافي غير الممزوج، وقد كسب تجربة في مرافئ البحار السبعة في العالم. وفي النهاية، نقل من كباريه الباتاكلان إلى الباخرة سكران حتى الموت، بين أذرع أهالي إيليوس.

في اليوم التالي، بعد الغداء، كانت للبحارة فترة راحة فانتشروا في الشوارع. وكان أبناء البلد يؤكدون باعتزاز: «كم أحبوا عرق إيليوس!». وكانوا يبيعونهم لفائف أجنبية، قطعاً من القماش، قوارير عطر، خرضوات مذهبة، وينفقون المال على العرق، ويدلفون إلى بيوت المومسات، ويسقطون سكارى في الشارع.

بعد القيلولة، وقبل ساعة الكؤوس الفاتحة للشهية في فترة بعد الظهر، في ذلك الفراغ من الوقت بين الثالثة والرابعة والنصف، حينما انتهز نسيب الفرصة ليجري حسابات صندوق تسجيل النقود، ويصنّفها ، ويحسب أرباحه، وبعد أن أنهت غابرييلا

عملها وذهبت إلى البيت، دخل بحار سويدي أشقر، يبلغ طوله مترين تقريباً، وأطلق بوجه نسيب جشاء مثقلاً بالكحول، وأشار بإصبعه إلى زجاجات عرق إيليوس. كانت نظراته متوسلة وكلماته القليلة غير مفهومة. كان نسيب عند العشية قد قام بواجبه كمواطن، فقدم العرق مجاناً إلى البحارة. مرر سبابته على إبهامه يسأله النقود، فبحث السويدي الأشقر في جيوبه من دون أن يعثر على أي أثر لها. لكنه اكتشف دبوس صدر جميلاً، عروس بحر مذهبة. وعلى طاولة البيع وضع عروس البحر الشمالية، حورية استكهولم. كانت عينا العربي تحدّق إلى غابرييلا وهي تنعطف عند الناصية خلف الكنيسة. فنظر إلى عروس البحر وذيل السمكة. فذكره ذلك بردفَي غابرييلا. لا يوجد في العالم امرأة شهوانية مثلها، ولا مثل حرارة جسدها، ومثل رقتها وتنهداتها، وشبقها. وبقدر ما كان ينام معها أكثر، كان يزداد رغبة فيها. كانت تبدو له كأنها مخلوقة من الغناء والرقص، من الشمس وضوء القمر، كانت من القرنفل والقرفة. لم يمنحها قطّ هدية أجنبية سخيفة، فأخذ زجاجة العرق، وملأ كأساً سميكاً من الزجاج، فأرخى البحار ذراعه وحياه بالسويدية، ثم دلقه في جرعتين، وبصق.

خبأ نسيب عروس البحر المذهبة في جيبه مبتسماً. سوف تضحك غابرييلا برضا، وستقول وهي تتأوه: «ما كان ضرورياً أيها الشاب الجميل...».

وهنا تنتهي قصة نسيب وغابرييلا في اللحظة التي انبعثت فيها شعلة الحب من جمرة نائمة بين رماد القلب.

عن الحاشية

بعد فترة من الزمن، سيق الكولونيل جيزوينو ميندونسا إلى المحكمة متهماً بقتل زوجته الدونا سينيارينيا غويديس ميندونسا وطبيب الأسنان أوزموندو بيمينيتل، بإطلاق الرصاص عليهما، بدافع الغيرة. ودامت المداولات المثيرة، وأحياناً الزاخرة بالسخرية والعنف، اثنتين وعشرين ساعة. وكان ثمة ردّ وردّ على الردّ من قبل الدكتور ماوريسيو كاييريس. فقد أشار إلى الكتاب المقدس، وذكّر بالجوزبين الأسودين الفاضحين، بالخلقية والفساد، فكان مثيراً للشجن. وقال الدكتور إيزكييل برادو وهو منفعل: لم تعد إيليوس أرض قطاع الطرق، ولا فردوس القتلة. وبحركة وغصة أشار إلى والد أوزموندو ووالدتها وهما في حداد والدموع تملأ أعينهما. فكانت موضوعته، الحضارة والتقدم.

وللمرة الأولى في تاريخ إيليوس، يشاهد كولونيل من كولونيلات الكاكاو محكوماً عليه بالسجن لقتله زوجة خائنة وعشيقها.

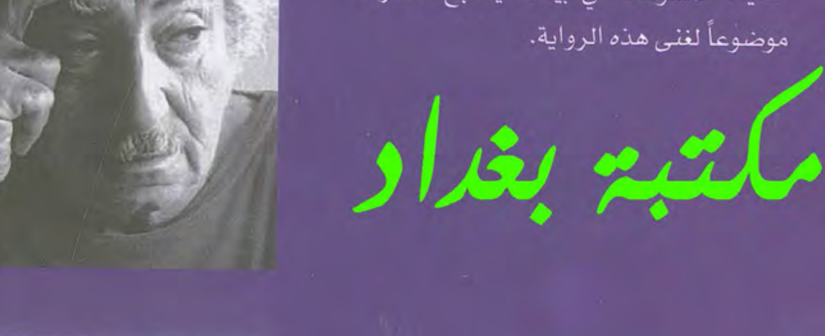
(بيتروبوليس- ريو، أيار/ مايو ١٩٥٨)

إيليوس عام ١٩٢٥؛ مدينة ساحلية صغيرة مشهورة بحقول الكاكاو الشاسعة في جنوب البرازيل. عندما استقالت طباخة حانة فيزوفيو عشية إقامة عشاء أعمال هام، لم يكن من خيار أمام صاحبها، العربي نسيب، سوى إيجاد اللؤلؤة النادرة. فاستخدم عندئذ غابرييلا السامية مفتوناً برائحة القرنفل والقرفة التي تفوح منها... ولكي يحافظ عليها انتهى بأن تزوج بها. لكن نسيب رجل غيور، وغابرييلا ليست المرأة التي يمكن حبسها في قفص.

ولحسن حظها، فإنّ الحضارة كانت تتقدم في إيليوس أيضاً، ويشتم من أثرها رائحة تغيير قادمة.

جورجي أمادو هو آخر الروائيين العالميين الذين تطلق عليهم صفة الموسوعيين مثل أساطير الرواية الكلاسيكية؛ ليون تولستوي، فيدور دوستويفسكي وتوماس مان وغيرهم. فلم يترك علماً أو فنّاً إلّا وطرق بابه، ولا حرفة إلا وخاض غمار البحث فيها بخبرة المعلّم ذي العين البصيرة النفّاذة، فكان أدبه الروائي موسوعياً غنيّاً بعوالم شتى، إلى الدرجة التي يمكن الاطلاع من خلالها على حياة البشر في مختلف طبقاتهم الاجتماعية ومهنهم المختلفة، في نسيج تأتلف فيه الأحداث مع الشخصيات في أسلوب واقعي حتى ولو وظّف الخيال أحياناً لإثراء السرد والعوالم التي تحويها روايته، كمراقب لمسار الحياة المتنوّعة، في بيئات يصبح تنافرها موضوعاً لغنى هذه الرواية.





ISBN 978-614-432-329-8